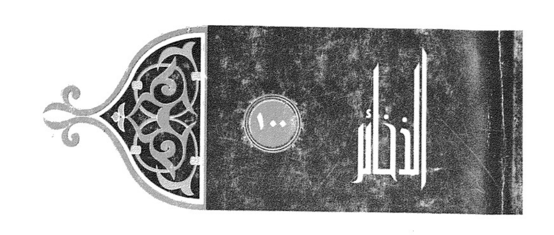


التعريف بابن خلدون و رحلته غربا وشرقا

تأليف

عبد الرحمن بن خلدون

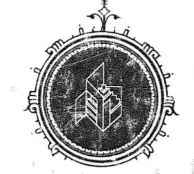
(٧٣٢ — ٨٠٨)

عارضه بأصوله وعلق حواشيه

محمد بن تاويت الطنجي

قدم هذه الطبعة

أ. د. عبادة كحيلة

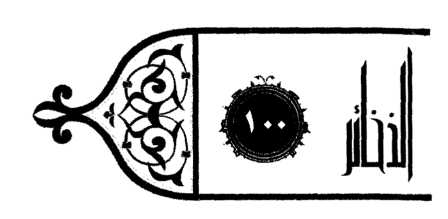


الهيئة العامة لقصور الثقافة

إهـــــداء٢٠٠٧

الأستاذ الدكتور/ خالد عزب

الإسكندرية



التعريف بابن خلدون و رحلته غربا وشرقا

تأليف

عبد الرحمن بن خلدون

(٧٣٢ — ٨٠٨)

عارضه بأصـوله وعلق حواشيه

محمد بن تاويت الطنجي

قـدّم هذه الطبعة

أ. د. عبادة كحيلة



الهيئة العامة لقصور الثقافة

الذخائر (١٠٠)
نصف شهرية

إصدار
منتصف يوليو ٢٠٠٣

التعريف بابن خلدون
ورحلته غربًا وشرقًا

تأليف / عبد الرحمن بن خلدون
٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م - ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م

عارضه بأصوله وعلق حواشيه
محمد بن تاويت الطنجى

قدم هذه الطبعة : أ.د عُبادة كُحيلة

تصميم الغلاف للفنان : محمد بغدادى

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالى
١٦ أ ش أمين سامى قصر العينى - القاهرة
رقم بريدى ١٢٥٦١

رقم الإيداع : ١٣١٦١ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى :
I.S.B.N. 977 - 305 - 531 - 0

الشركة الدولية للطباعة ٦ أكتوبر
ت : ٨٣٣٨٢٤٠



الهيئة العامة
لقصور الثقافة



بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف

- ١ -

الذخائر ومائة شمعة لا تنطفئ

عزيزى القارئ ، حبيبتى (**الذخائـــــر**) .. كلّ مائة عدد وأنتما بخير . أنتَ - عزيزى القارئ - فى كامل حماستك وحيويتك لمعرفة المزيد عن تراثك وتاريخ أمتك وفكرها وثقافتها ، والذخائر - كما هى - فى قمة عطائها ووعْيها بحاجاتك ، وفى أوْج استعدادها وسعيها لتلبية هذه الحاجات .

عزيزى القارئ .. لقد طوّفت بكَ (الذخائرُ) بأعدادها المائة عبْر مجالات وآفاق مترامية من تراث أمتك .. التاريخ ، الفلسفة ، الأدب ، اللغة ، الفكر الدينى ، التراث الشعبى ، المعارف العامة ... إلخ . وهى فى ارتيادها لأىٍّ من الآفاق لاتقف عند جانب واحدٍ منه ، وإنما تحاول أن تجوبَ كلّ نواحى هذا الأفق أو ذاك .

ففى التاريخ - مثلا - لاتقف عند عصر بعينه ، أو عند اتجاه بعينه من اتجاهات التأليف فيه .. إذْ هناك كتب التاريخ العامّة ، وهناك الكتب التى تقف على تاريخ شخص بعينه ، أو فئة معينة من الفئات .

وفى الأدب تراها تحلّق فى تاريخه - تاريخ المبدعين من الشعراء والناثرين - كما تحلق فى أُفُق الإبداع فتنتقى لك عيون الدواوين ، أو الرائع من اختيارات الشعر ونصوص النثر .

وفى الفلسفة تحاول أن تقدّم لك ما كان سهل المتناوَل بعيدًا عن التعقيد مُطعَّمًا بجاذبيّة الأسلوب .

وهى كذلك فيما قدمت لك من الكتب التى تتناول أطرافًا من الفكر الدينى أو تاريخ أعلامه ، وفيما قدمت لك من كتب اللغة التى آثرتْك منها بما كان استيعابه ميسورًا وفائدته مباشرة ، وقُلْ مثل ذلك فيما قدّمت لك من ذخائر التراث الشعبى ، وموسوعات المعارف العامة .

وهى فى كلّ ما تقدّمه لاتفرّق بين عطاء عصر وعطاء عصر آخر ، أو بين عطاء مكان وعطاء مكان آخر ، لأنها ترى فى تراث أمّتها عبْر امتداده الزمنىّ والمكانىّ وحدةً متكاملةً مهما تكن درجة التنوّع أو التعدّد بين أجزائه .

ومن هنا كان الحرصُ غيرُ المعلن على أن لايطغى ماتقدّمه فى مجال على ماتقدّمه فى مجال آخر ، وكان الإصرارُ على التنويع فى أسماء المؤلفين والمحقّقين ومقدِّمى الكتب - إلاّ فى القليل النادر - موازيا للتنويع فى المحتوى بقدر الإمكان .

وفى غيرما تعصّب ، أو تحيّز ، جعلت الذخائرُ من أهدافها استعادة ثقة المثقّف المصرى فى جهازه الثقافى ، من هنا كان من أولويّاتها فى النشر تلك الكتبُ التى مرّت عليها العقود الكثيرة دون أن ترى النور بعد آخر طبعة لها ؛ لأسباب لا صلة لها بقيمة الكتاب ، وكذلك تلك الكتبُ التى اقتنَصت طبعاتِها - بغير حق - دورُ النشر خارج مصر ، ثم راحت (تعيد تصديرها) لنا كقرّاء مستهلكين ، مع أنها **من هنا خرجت ، وفى مصر حُقّقت أوّلًا وطُبعتْ** .

من ناحية أخرى . . حرصت الذخائر على أن يكون ماتقدّمه مجاريًا - قدر الإمكان - لواقع ماتمرّ به أمتُها ، إيمانا منها بحتميّة الجدل بين حاضر الأمّة وماضيها ، حيث يتحوّل الحاضر إلى عامل فاعلٍ فى استثارة الماضى ، بينما يتحوّلُ هذا الأخير إلى ما يشبه مشروعًا للحلّ ، أو - علَى الأقل - تجربةً قابلة للتأمّل وربما

للدراسة ، على الرغم من أن لها إطارها الخاصّ وظروفها التاريخيّة الخاصّة .

هذا ، وتؤمن الذخائر بأن من واجبها العمل على إعادة التجانس ودعم التوازن فى مكوّنات المادة الثقافية التى يزوَّدُ بها القارئُ المصرىّ والعربى عموما ، وذلك بإطلاعه على أصول فكره وثقافته - ولا أقول ماضيه . إنّ كلمة (الماضى) فى مجال الإنسانيات ، وفى الفنّ والأدب بصفة خاصة . . لا محلّ لها من الفهم . . إلاّ إذا تصوّرنا شجرةً بغير جذور أو ملامح من ملامح الخلق بغير وراثة .

نعم . . فى مجال الفكر والأدب ، والفن عموما ، لا يمكن أن تمضى إلى الأمام بغير أن تنظر - أو تكونَ قد نظرت - إلى . . . لا تتوقّعْ أن أقول : إلى الوراء - استجابة لإغراء المطابقة اللفظية - وإنما أقول : حتى تكون قد نظرت إلى حقيقة نفسك . . فَمَنْ أنتَ ؟ ومن أنا ؟ الجواب : كلّ منا - وبلا أدنى شبهة مجاز - كان فى ظهر أبيه ، ثم جدّه ، ثم جدّ أبيه . . وهكذا .

هذا من الناحية البيولوجيّة . . أما من ناحية الوجود الفكرى . . فلاشك أننا - شئنا أم أبينا - نعيش ماضينا . . ماضينا البعيد . . الوحدة التى أقامها مينا ، والتوحيد الذى دعا إليه أخناتون ، والانكسار أمام الهكسوس ، ثم الانتصار عليهم بقيادة أحمس . . نعيش مقاومة الرومان بوثنيتهم ، والترحيب بالإسلام الذى احترم كلّ الديانات السماوية ، وفى إطار أمتنا العربية نعيش روح (ذى قار) حين نتوحّد ، وروح حرب البَسُوس حين نتفتّت ، وحرب داحس والغبراء حين نتصارع لأتفه الأشياء .

أنت - إذًا - لا تستطيع أن تتقدّم خطوةً واحدةً إلى الأمام بغير أن تمدّ (نَظَرَ عقلك) إلى أضعافها مما قطعته - ربّما دون أن تدرى - عبْر تاريخك الذى هو خاطرٌ فى ذاكرة أمّتك ، تماما كما أنّ وجودَك الماديَّ هو خليّة فى جسد هذه الأمّة .

هل أذكّركَ بصورة المستكشف الرائد الذى يحرص دائما على مراجعة ما قطعه من الطريق ، لتكون المراجعة عونًا له وهاديًا فيما ينتوى قطعَه بعد ذلك ؟ هل أذكّرُكَ بكلمة الشيخ حسين المرصفى (ت ١٨٩٠) التى تقول : <u>إن مستقبلنا هو نتاج حاضرنا ، وإن حاضرَنا هو نتاج ماضينا ، وإنّ تقدّمنا رهن بقدرتنا على التعلّم</u>

واستخلاص العبرة والدرس من تجاربنا الذى سبق مرورُنا بها ؟

هذا على مستوى التفكير والبحث النظرىّ ، أما فى جانب الإبداع والفنّ فإن القول ما قاله العقاد ومعه زميلاه - المازنى وشكرى : **فى الإبداع والفنّ لا مجالَ للوصف بكلمتى (قديم) و (جديد) ، فالجيّد - من كلّ العصور - هو الجديد الخالد ، والردىء - من كلّ العصور أيضا - هو القديم البائد .**

فى ظلّ هذا التوَجُّه حرصت الذخائر - وبالذات منذ حلقتها السابعة والستّين - على أن تزوِّد طبعاتُها بمقدِّمات جديدة بأقلام أساتذة متخصصين ، يُستثنى من ذلك الكتب التى حظيت بمقدمات ترى هيئةُ التحرير أنها ماتزال مناسبة فى التمهيد للكتاب .

هذا فضلا عن كلمة تعريفيّة تقوم غالبا بمثابة القراءة لما بين سطور الكتاب . كلُّ ذلك حرصًا من القائمين على السلسلة على أن يخرج كتاب الذخائر وبين يديه حُزمة من الضوء تيسّر له سبيل العبور إلى وعْىِ القارئ على جسر من الثقة والتفاهم .

هكذا - عزيزى القارئ - تواصلت مسيرة الذخائر من نجاح إلى نجاح ، وها هو ذا عددُها المتمّم للمائة بين يديك . وهنا لابد لى من كلمتين :

أولاهما : عرفانٌ بجهود كلّ الذين سبقونى فى الإشراف على إصدار هذه السلسلة ، والذين مهّدوا لها - قبلى - طريقَ النجاح الذى تتهادَى فيه اليوم .

والأخرى : شكر وامتنان للمسئولين بالهيئة العامة لقصور الثقافة ، وأخصّ منهم الأساتذة : أنس الفقى رئيس الهيئة ، ومحمد السيد عيد أمين عام النشر ، وفكرى النقاش المشرف العام على النشر .

ولابد أن أشير إلى أننى استمعتُ إلى مشروع تطوير السلاسل التى تصدرها الهيئة فى أول اجتماع دعا إليه الأستاذ أنس الفقى بعد توليه رئاسة الهيئة ، وعقب اختيارى - وقتها - نائبا لرئيس التحرير . وما لبث المشروع النظرىّ المأمول أن تحوّل إلى واقع فعلىّ ملموس . وصدرت (الذخائر) ابتداء من العدد ٨٩ فى ثوبها الجديد : غلافًا وطباعةً وورقًا و . . عددًا ، أقصد أن عدد المطبوع قد تضاعف

تقريبا ، ومع ذلك يزداد عدد الخطابات التى تصل إلى هيئة التحرير يطالب أصحابها بزيادة المطبوع ، أو باستكمال مالديهم من أعداد السلسلة ، كما يشكو بعضهم من سرعة نفاد ما يُعرَض من إصدارات السلسلة فى منافذ التوزيع .

أما خطابات التقدير والشكر فلن أتحدث عنها أو أذكر عددها ، وذلك حتى لا أكون مثل العروس التى تغنّى لنفسها فى ليلة عرسها .

عزيزى القارئ .. عزيزى المثقّف (الحقيقى) فى كلّ مكان . . أستسمحك الآن وأستميحك عذرًا فى أن أعرض عليك أمرًا لابدّ من معرفة رأيك فيه .

– ٢ –

فاصل غير فكاهى فى حادثة فكاهيّة

عزيزى القارئ .. لقد كتبتُ ماكتبتُ ومازال تَطِنُّ فى ذاكرتى تلك الكلمات التى طالعنا بها – منذ حوالى شهر – واحدٌ من (المثقفين إيّاهم) من (زبائن) الخط الدولى السريع (تحرّرية – إمبرياليّة . . رَايِحْ / جَاىْ) فى صحيفة محدودة الانتشار ، أو قُل : صحيفة من النوع (الملاّكى) ، والصحيفة (الملاّكى) هى تلك الصحيفة التى يكون قراؤها هم نفسُ مَنْ يُصدرونها ، وما فاض من النسخ يوزّع على الأصدقاء بطريق الإهداء .

ملخّـص ماقاله الرجل ، أنه لا يرى ضرورة لإعادة إصدار كنوز التراث القديم – تلك التى تصدرها سلسلةُ الذخائر – إذْ ليس هناك من تشغله هذه الكتب باستثناء فئة قليلة جدًا أطلق عليها أسماء مختلفة .

وحتى لا أترك أىّ فرصة للّبْس ولا للتأويل فإنّى أُورد كلماتِ الرجل بنصّها . وهو يبدأها باقتراح قديم له على الأستاذ محمد غنيم الرئيس السابق لهيئة قصور الثقافة بـ« أن يخصّص بعض عناوين سلسلة الذخائر التى **كانت ولا تزال** تصدر عن الهيئة **كلّ أسبوعين** لنشر الكتب . . . التى تتعلق بتاريخ مصر والوطن العربى الحديث والمعاصر . . . وكان من رأيى – [الكلام له] – أن نشر هيئة قصور الثقافة لكتب

مثل ديوان المتنبىَ وديوان الحماسة ورسائل إخوان الصفا والأغانى . . إلخ **هو تزيّدٌ لا محلّ له من النشر** . إذ يفترض أنها بحكم دورها كهيئة للثقافة الجماهيرية ينبغى أن تتوجّه للقارئ العام لتقدّم له معارف عامة متنوعة . . . وهو مالا ينطبق على كتب التراث التى **لا تهم عادة سوى خاصّة المثقفين** . وإذا كان لابد أن تنشر الهيئة شيئا عن التراث ، فعليها أن تقدم ملخصات لكتبه المهمة لا أن تنشر النصوص الكاملة التى **لا يطيقها إلاّ عتاة المثقفين** . . . يحدث ذلك بينما تخلو سلاسل مطبوعات هيئة قصور الثقافة من سلسلة واحدة تعمل على إحياء الذاكرة الوطنيّة ، وتتخصص فى نشر نوادر الكتب التى تتعلّق بتاريخ مصر الحديث والمعاصر . . . **ولاتزال سلسلة الذخائر تنشر كتبا من نوع (الحيوان) و (ديوان تميم بن المعزّ لدين الله الفاطمى) و (طبقات فحول الشعراء) وغيرها من فحول الكتب القديمة التى لا يفهمها إلاّ الفحول من المسئولين فى الهيئة »** . **ثم يتساءل (المثقف إيّاه) : « فهل يتكرّم أنس الفقى رئيس هيئة قصور الثقافة بإعادة بحث هذا الاقتراح إذ إننى ما أكاد أتلقّى عددًا جديدًا من السلسلة حتى أتذكّر المثل الذى يقول : « إيش ناقصك ياعريان ؟ فأقول : كتب الفحول يا مولاى »** .

ثم يتساءل مرة أخرى : « فهل تفعلها هيئة قصور الثقافة ، أم تنتظر حتى ينتبه للأمر ناشر (لَهْلُوبة) . . . فيعيد نشر هذه الكتب كلها . . . **بينما الهيئة مشغولة بطبع كتاب (أساس البلاغة) للزمخشرى ، ليقرأه (فحول الشعراء) الذين لا أجد فى الساحة أحدًا منهم »** .

إلى هنا والحديث عن سلسلة الذخائر ، لكن لابد من إضافة طريفة - بل هى مضحكة - أُوردها لأنهـا ضروريّة فى جـلاء الصـورة ، يقـول (**المثقـف إيّاه**) - بالحرف - « ما دعانى لتذكّر هذا الاقتراح ولإعادة طرحه هو أننى **انتظر منذ أربعين عامًا** استكمال مجموعتى الخاصّة من كتاب (حوليات مصر السياسية) الذى كتبه المرحوم أحمد شفيق باشا ، بعد أن عثرت على بعض أجزائه - مصادفة - على سور حديقة الأزبكية فى بداية الستينيات . . . ومنذ أكثر من عشر سنوات تبنى د. عبد العظيم رمضان - إبّان رئاسته (لمركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر) - مشروعًا

لإعادة طبع (حوليّات مصر السياسية) ، لكن المشروع اختفى لأسباب لا أعرفُها بعد أن ترك موقعه فى المركز » .

انتهى ما أردتُ نقله من كلام الرجل ، وهو - على طوله - ينحصر فى أمرين :

الأول : دعوة مشبوهة لإلغاء سلسلة الذخائر . ودعْك من بعض (المخفِّفات) التى لا تنطلى على أحد ، لأن الرجل يلفّ ويدور ، ويشرّق ويغرّب ؛ ليعود إلى مركز اقتراحه وهو إحلال نشر وثائق تاريخ مصر المعاصر محل كتب الذخائر .

الأمر الثانى : باعثٌ مضحك ، وخبيث ، وراء هذه الدعوة - أعنى الدعوة إلى إلغاء سلسلة الذخائر - أما أنه مضحك . . . فذلك ما يشعركَ به تعليلُه لإثارة اقتراحه هذه الأيام بأنه يريد أن يُكمِل مجموعته الخاصة من (حوليات مصر السياسيّة) ، بعد أن صبر أربعين عاما ، وما دام (للصبر حدود) - كما تقول أغنية أم كلثوم - فإن من حق الرجل أن ينفد صبره ، فتظهر لوعته ، ويبوح بالمكنون من هواه . . أو ينفث المكبوت من نواياه .

وهنا تجيء صفة الخبث التى أشرتُ إليها ، وذلك بتغليف الأمر بالحرص على تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، وسَوْق أسماء المؤلفات الجديرة بالنشر فى هذا السياق . . أما أين يكون نشر هذه المؤلفات ومن خلال أى منفذ ؟ فقد سُدّت منافذ الدنيا كلّها . . اختفى مشروع نشر (حوليات مصر السياسية) من (مركز وثائق وتاريخ مصر) وتلاشى (مركز تحقيق التراث) بدار الكتب المصرية بكامله ، وأغلقت العديد من المراكز المعنيّة بنشر تاريخ مصر والمصريين . . ولم يبق إلاّ مانصح به (قارئ الكف وضاربة الودَع) وهو التوجّه إلى الهيئة العامة لقصور الثقافة بالذات وإلى سلسلةٍ من منشوراتها هى الذخائر . .

ولو كان الرجل جادًا فى حرصه على نشر وثائق تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، وجادًا فى البحث عن جهاز حقيقى للقيام بهذه المهمة الجليلة حقّا ؛ لهداه تفكيره إلى مشروع (القراءة للجميع) ، وإلى (مكتبة الأسرة) حيث ينشر كلُّ شيء . . . أليست هى مكتبة الأسرة ؟ والأسرة فيها الصغير والكبير ، وفيها مستويات التعليم والثقافة المختلفة ؟ ثم إنها ليست أسرة واحدة . . إنها الأسر

المصرية - بصيغة الجمع - (والأسر العربيّة أيضا) - بكل مستوياتها ، وبالتالى يقدّم فيها كلّ ما يخطر على البال ومالا يخطر أيضا ، وتتنوعَ فيها مجالات المؤلفات ومستوياتها بأكثر من تنوّع أصناف الطعام التى يعرفها المصريون بكل طبقاتهم ، ولاشك أنّ القائمين عليها سيرحّبون باقتراح (**المثقف إيّاه**) لو عرضه عليهم .

بل إن المسلك العلميّ السديد كان يقضى بأن يطالب الرجل بإحياء مشروع نشر (حوليات مصر السياسيّة) من خلال الجهة المتخصصة ، وهى (مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر) - وهو المشروع الذى توقّف من عشر سنوات كما يقول - والحجة فى يده قوّية ، وهى رغبتُه - **المكبوتةُ من أربعين سنة** - فى أن يُكمل مجموعته الخاصّة من تلك الحولّيات !! وهى حجة - كما ترى - ينفطر لها القلب وتدمع لها العينْ !!

لكن ما الحيلة والرجل يستمد معلوماته من (**قارئ الكفّ وضاربة الودع**) . . وآفة هذا النوع من المعلومات أنه قابل (للتمدّد) و (الانكماش) حسب الطّلب ، ومن هنا (تمدّدت) معلومات الرجل فقال : إن الذخائر **كانت ولا تزال** تصدر كلّ أسبوعين . والحقيقة أن صدور السلسلة مرتين كلّ شهر لم يحدث إلاّ بَدءًا من العدد (٨٧) وبحلول عام ٢٠٠٣ ، أى منذ سبعة أشهر على وجه التحديد .

أما انكماش المعلومات عند اللزوم فيظهر فى قوله : إن سلاسل مطبوعات هيئة قصور الثقافة « **تخلو من سلسلة واحدة تعمل على إحياء الذاكرة الوطنية وتتخصص فى نشر نوادر الكتب التى تتعلق بتاريخ مصر الحديث والمعاصر** » ، وهو قول لا ينقضى منه العجب - كما يقولون - إذْ إن من بين سلاسل الهيئة واحدةً يعرفها (**المثقف إيّاه**) جيدًا اسمها (**ذاكرة الكتابة**) يرأس تحريرها الصديق الأستاذ رجاء النقاش ، وتقوم على نشر عيون الكتب التى صدرت خلال مائة العام الأخيرة فى التاريخ وفى غير التاريخ .

ومرة أخرى : لو كان الرجل خالص النيّة لبحث عن السلسلة المناسبة واقترح نشر ما يراه من خلالها ، لكنه - كما أقول - انكماش المعلومات - وتمدّدها - عند اللزوم.

عزيزى القارىء . . . ما كان لى أن أقحمك فى هذه القضية لولا أمران مهمّان ، أحدهما موضوعى ، والآخر شكلى (وإن كان لا يخلو من التشابك مع سابقه) .

الأمر الأول الموضوعى : هو كذب الدعوى بأن إصدارات سلسلة الذخائر لا يقرأها أحد باستثناء قلة لاتكاد تذكر ، وهو أمر تكذّبه أرقام التوزيع التى كان من واجب (**المثقّف إياه**) أن يعرفها قبل أن يتورّط فيما قال . إذ تصل نسبة توزيع الذخائر - خلال يومين أو ثلاثة من صدور العدد - إلى ٨٠٪ ، ثم لا يلبث العدد الباقى من النسخ أن ينساب إلى أيدى قرائها - الذين أجزم بأنهم أكثر من قراء صحيفته (**المحروسة**) - من خلال منافذ توزيع الهيئة ليَعْقب ذلك سيلُ الخطابات التى يطلب أصحابها نسخا من العدد ومن الأعداد السابقة .

الأمر الآخر : وقد قلتُ إنه شكلى فى النظرة العاجلة ، ولكنه متلبّس عند التأمّل بجوهر الموضوع .. هذا الأمر هو روح الاستخفاف التى سيطرت على حديث الرجل فى الموضوع ، وانظر إلى كلماته : إن نشر كتب مثل كذا وكذا « **تزيّدٌ لا محـــلَّ له من النشر** » . النصـوص الكــاملة « **لا يطيقها إلاّ عتاةُ المثقفين** » . هذه الكتب القديمة « **لا يفهمها إلاّ الفحول من المسئولين فى الهيئة** » . « **ما أكاد أتلقّى عددا جديدًا من السلسلة حتى أتذكّر المثل الذى يقول (إيش ناقصك ياعريان ؟ فأقول : كتب الفحول يامولاى)** » . « **الهيئة مشغولة بطبع كتاب (أساس البلاغة) للزمخشرى ، ليقرأه (فحـــول الشـــعراء)** الذين لا أجـــد فى الســاحة أحـــدًا منهم » . . ظريف . . ظريف جدًّا إلى حدّ السّخف الذى أضحكنا إلى درجة البكاء . . طبقا للقول المنطقى المشهور (إذا زاد الشّىء عن حدّه انقلب إلى ضدّه) . . لقد استغلّ أحدُ الشعراء هذه الفكرة فقال يهجو أحد السخفاء ، وبالمناسبة فقد عرفوا الهجاء بصفة البرودة ، فقالوا : هو إنسان بارد إذا كان سخيفا ثقيل الظلّ . . فقال الشاعر :

سَخُنْتَ من شدّة البرودة حتى صرتَ عندى كأنك النارُ

عزيزى القارىء . . أصارحك أننى أشعر بـ (**القرف**) من هذا الموقف الذى ساقنا إليه ذلك (**المثقف إيّاه**) ، والسبب أننا تعودنا على أن نناقش أفكارًا مستقيمة مع أناس يحترمون أفكار الآخرين – بصرف النظر عن الصواب والخطأ – أما هنا فأجدنى مضطرا إلى أن أناقش بديهيّات . . أناقش ، أو أحاول أن أدلل على ما هو من قبيل المعرفة الضرورية ، أو المسلّمات .

الشاعر أحمد شوقى يقول :

وإذا فاتك التفاتٌ إلى الما ... ضى فقد غاب عنك وجهُ التأسّى

والتاريخ يقول : إن النهضات العظيمة للأمم إنما حدثت عندما أحسنت هذه الأمم الإفادة من تجاربها الناجحة فى الماضى .

ومبادىء الفن تقول : إنّ حصيلة الإبداع فى فن من الفنون عبْر تاريخه ، هى جزء من حاضره ، وطاقة مدّخرة تدفع هذا الحاضر . .

فإذا صادفتَ كاتبا يجهل هذه المسلّمات والمبادئ ، ويقول إنه لا داعى لمعرفة تاريخك وتاريخ أدبك وفكر أمتك وتراث الإبداع فى لغتك . . فكيف تتعامل معه ؟ وقد قال الشاعر :

وليس يصحّ فى الأفهام شىء ... إذا احتاج النهارُ إلى دليل

وصاحبنا يطالبنا فى (عز الظّهر) بأن نثبت له أننا فى أثناء النهار ، ويجىء إلى سلسلة تضاعف تقريبا عدد المطبوع منها – نتيجه زيادة الإقبال عليها إلى حد التفكير فى زيادة المطبوع مرة أخرى – ليقول إنها لا تُقرأ ، وإنها لم تعد ضروريّة . وتسأله ما الدليل ؟ فيقول : الدليل أنه هو شخصيا لا يقرؤها – لأنه ليس من (**عتاة المثقفين**) ولا من (**فحول المسئولين**) بهيئة قصور الثقافة – وإذا كان هو لا يقرأها فلابدّ أن الآخرين لا يقرأونها !!

هذا هو المفهوم الطبيعى لكلماته المستخفّة الساخرة ، فيحملنا بذلك - ظلما - على أن نردّ عليه ونثبت له - دون حاجة فى الحقيقة إلى ذلك - أن الناس يعرفون ما يجهل ، ويحبون مايكره ، ويقبلون على مايفرّ منه ، ويفتحون أعينهم على ما أغلق هو دونه عينيه .

ولو كان يفتح عينيه - بنيّةٍ صادقة فى الرؤية - لبدت له سلسلة الذخائر زهرة جميلة قائمة على ساقها وسط باقة جميلة من الأزهار تمثل السلاسل التى تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة والتى يصل عددها إلى أربع عشرة سلسلة (ستصل فى العام القادم إلى ثماني عشرة) - تغطى آفاق الإبداع والنقد فى القصة والمسرح والسينما والفن التشكيلى ، كما تفسح المجال للأصوات الجديدة وإبداعات الشباب ، وتهتم بالطفولة ، ناهيك عن (ذاكرة الكتابة) و (الذخائر) ومجلتى (قطر الندى) و (الثقافة الجديدة) . . وذلك فى منظومة متكاملة لا تعرف العشوائية أو الافتعال ، ولَبَدا له أيضا كيف تطوّرت السلسلة التى عشيت عيناه عن رؤيتها . . فأصبحت نصف شهرية بعد أن كانت شهريّة ، ثم كيف تضاعف - تقريبا - عدد المطبوع منها ، وكيف توزَّع كل نسخها تقريبا فى أقل مدى زمنى يقاس به توزيع السلاسل من هذا النوع . . لكن ماذا نفعل ؟ لا حلَّ عندى غير أن أترك هذا (**المثقف إيّاه**) لحكم القارئ ، مُهدِيًا إليه - على سبيل الإيضاح - قولَ الشاعر :

ومَنْ يَكُ ذا فَمٍ مرٍّ مريض يَجِدْ مُرًّا بِهِ الماءَ الزُّلالاَ . .

انتهى .

أمّا كتاب هذه الحلقة الذى تتمّ به المائة - كما سبق القول - فهو (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا) فلن أحدثك - عزيزى القارىء - كثيرًا عنه ، السبب أن كلّا من الأستاذ المحقق والأستاذ الذى كتب مقدمة هذه الطبعة قد وفّياه حقه . ولكن دعنى أحدثك عن سبب اختيار الكتاب ولماذا حرصت على أن يجىء متمما للمائة ، والحقيقة أن السبب لا ينفصل عن مكانة ابن خلدون نفسه ، مؤلف الكتاب الذى يحكى فيه سيرة حياته والأحداث التى تقلبت به إلى وفاته هنا فى مصر ودفنه بها . . ولا أدرى لماذا كنت ، ولا زلت ، ألمح ارتباطا من نوع ما بين ابن خلدون وسلسلة الذخائر ، فابن خلدون قد طوّف فى الزّمان والمكان . . . فى الزمان بتاريخه المعروف ، وفى المكان برحلته هذه .

والزمان (الخلدونى) لا يقتصر على الماضى الذى سبقه وسجّله فى كتابه ، بل هو - فى رأيى - يمتد إلى الحاضر الذى نعيشه ، هذا إذا كنا نتكلم عن تأثير الشخص ، أو امتداده بآرائه وفكره .

هل تعرف - عزيزى القارئ - أن ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م هو أستاذ الإحيائيين فى مصر والعالم العربى ؟ نعم ، فقد وجد الإحيائيون فى مقدمة تاريخه المعروفة بـ (مقدمة ابن خلدون) والتى طبعت بمطبعة بولاق سنة ١٨٥٧ م ، بإشارة من رفاعة الطهطاوى - بعد أن طبعت فى باريس سنة ١٨٤٧ م - وجدوا فيها حلولا لكثير من مشاكل النهضة ، خاصّة فى مجال التعليم والنهوض باللغة والأدب .

من هنا كان لا يخلو كتاب هام أو مقال فى الشعر أو الأدب عموما أو اللغة من إشارة أو اقتباس من هذه المقدّمة ، وعلى سبيل المثال : شاكر البتلونى فى (دليل الهائم فى صناعة الناثر والناظم) ، لويس شيخو وخليل إدّه اليسوعيان فى (علم الأدب) ، إبراهيم اليازجى فى مقال له عن الشعر سنة ١٨٩٩ ، سليمان البستانى فى مقدمة ترجمته للإلياذة ، عيسى اسكندر معلوف فى مقال له بعنوان (الشعر المنثور) ، نقولا فيّاض فى الهلال ١٨٩٣ ، حسين المرصفى فى (الوسيلة الأدبيّة)

و (الكلم الثمان) ، محمد دياب فى (تاريخ آداب اللغة العربية) . .

لن أحدثك عمّا يؤكدّه المختصون من ريادة ابن خلدون فى علم الاجتماع وفى علم التاريخ وبحوث التربية وغيرها ، ولكنى سألتفت فورًا إلى ما أثرتُكَ بذكره من إحساسى بنوعٍ من الارتباط بين ابن خلدون وسلسلة الذخائر ، لقد قلت : إن ابن خلدون قد طوَّف فى الزمان والمكان ، وكذلك الذخائر تطوّف بقارئها - عن طريق اختياراتها - عبر الزمان وعبر المكان ، وقلت : إن ابن خلدون كان أستاذَ الإحيائيين الذين وجدوا فى كتاباته حلولا لمشكلات النهضة خاصة فى مجال التعليم والنهوض باللغة والأدب . . وكذلك تحاول الذخائر قدر طاقتها أن تفعل . . وأقول : إن الرجلَ كان مؤمنا بقيمة التراث فى الإعانة على النهوض بقدرات أبنائه وصقل مواهبهم أو ملكاتهم ، وهذا هو الإيمان الراسخ فى فلسفة سلسلة الذخائر . .

بقى أن أصارحك - عزيزى القارئ - بعيب خطير فينا ، يقعد بنا عن الثقة فى أنفسنا والاعتزاز بقدراتنا الخاصة ، هذا العيب يصوره حقيقة أننا لم نحتفل بابن خلدون ولا بمقدمته ، ولم نقدرها حقّ قدرها إلاّ بعد أن نبّهنا إليها أساتذة الغرب من المستشرقين . . لقد قلت : إن رفاعة الطهطاوى أشار بطبع مقدمة ابن خلدون بالمطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٨٥٧ ، شعورًا منه بأهميتها ، وإنما حدث هذا بعد أن نُبِّه إلى أهمية المقدمة هناك أثناء تلقيه العلم فى باريس على يد أستاذه المستشرق الفرنسى دوساسى ، وبعد أن كانت المقدمة قد طُبعت فى باريس سنة ١٨٤٧ ، ثم توالت طبعاتها بعد ذلك فى العالم العربى ، بعد أن عرفت قيمتها وزاد الإقبال على تدريسها ودراستها فى معاهد التعليم العربيّة . .

أرأيت - عزيزى القارئ - **كيف يعرفون قيمة تراثنا وكيف ننكرها نحن ؟ أرأيت إلى أننا لانقرُّ بقيمة شىء لدينا إلاّ إذا لمحنا الإقرار بقيمته لدى الآخرين ؟** لن أزيد فى التنغيص عليك بمثل هذه المصارحة ، دعنى أتركك مع رحلة ابن خلدون ليزداد عجبُك منه ، وإعجابُك به فى قدرته على التوفيق بين كلّ ماتعرّض له من حوادث ومنغصات وبين توفير الوقت اللازم لكل هذا الإنتاج العلمى الغزير .

عبد الحكيم راضى

محقق الكتاب :

المرحوم محمد بن تاويت الطّنجى (ت ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م) ، أديب بحاثة من أهل طنجة . وُلد بها وتعلّمَ بالقاهرة ، وعمل مدرّسا فى اسطنبول ، وتزوج بها ، وأحسن التركيّةَ ، وأقام مدة فى الرّباط بالمغرب منتدبا للعمل فى وزارة الثقافة ، ثم عاد إلى اسطنبول أستاذا للثقافة الإسلامية فى كلية الإلهّيات . وتوفى بها ، كان همه منصرفا إلى ابن خلدون فى تاريخه ومقدمته ، فنشر (التعريف بابن خلدون) وأعدّ نسخة متقنة من تاريخه (العبر) هيأها للطبع ، كما عمل فى (الفهرست) لابن النديم تحقيقا وإعدادًا لإعادة نشره ، كما حقق (أخلاق الوزيرين) . [عن الأعلام للزركلى ٦/ ٦٢]

مقدم هذه الطبعة :

- الأستاذ الدكتور عُبادة كُحيلة ، أستاذ التاريخ الإسلامى بآداب القاهرة .
- تخرج فى كلية الآداب - جامعة القاهرة سنة ١٩٦٣
- حصل على الدكتوراه من نفس الكلية سنة ١٩٨٣
- عين مدّرسا بقسم التاريخ ، وتدرج فى مناصب هيئة التدريس ، حتى عيّن أستاذا سنة ١٩٩٥
- عضو مجلس إدارة الجمعية المصريّة للدراسات التاريخية ، ومسئول النشاط الثقافى بها .
- شارك فى العديد من المؤتمرات العلمية فى مصر وخارجها .
- له العديد من الكتب والبحوث العلمية فى التاريخ والثقافة العامة .
- من أهم مؤلفاته :
  - **صقر قريش ؛ عبد الرحمن الداخل سنة ١٩٦٨**
  - **العقد الثمين فى تاريخ المسلمين سنة ١٩٩٦**
  - **المغرب فى تاريخ الأندلس والمغرب سنة ١٩٩٧**
- من مترجماته :
  - **كتاب (الفجر) للسِّير أنجُوسْ فريزر** - ضمن المشروع القومى للترجمة سنة ٢٠٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم : أ.د عُبادة كُحيلة

هذا كتابٌ فى حاجةٍ إلى تعريف ، لكاتب ليس فى حاجة إلى تعريف .

الكتاب - كما يتضح من عنوانه - ينتسب إلى أدب الرّحلات ، كما ينتسب إلى أدب السِّيرة الذاتية ، لكنَّ ما فيه من أدب الرحلات أدْنَى مما فيه من أدب السِّيرة الذاتية ، وقد نوَّه كاتبُنا إلى ذلك ، فجعل الرحلةَ فى عنوان الكتاب تاليةً للتعريف بصاحب الرحلة .

عندما انتهى ابنُ خَلْدون من تأليف كتابه الفخم ذى المقدِّمة الفخيمة فى التاريخ ، أحسَّ بضرورة أن يؤرخ لحياته ، مثلما أرّخ لحيواتِ الآخرين . ولم يكن ذلك بجديد على المؤلِّفين فى زمانه ، فكذا كانت حالُ ابنِ الخطيب (ت ٧٧٦/ ١٣٧٤) فى كتابه « الإحاطة » وابن حجر (ت ١٤٤٨/٨٥٢) فى كتابه « رفع الإصر » ، لكن الجديد بالنسبة لابن خلدون ؛ أنه توسع فى تأريخه هذا ، بحيث تحول إلى كتابٍ كبير ، استقل عن بعض نسخ كتابه « العبر » .

يبدأ ابنُ خلدون كتابه ، فيأتى بطرفٍ من نسبه وسيرة سلفه ، خصوصًا مَنْ عاش منهم فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، وكيف شاركوا فى الفتنة الطامية التى عمّت أقطار الأندلس ، قُبَيْل ولاية الناصر لدين الله (٣٠٠/ ٩١٢ - ٣٥٠/ ٩٦١) ، واستبدّوا فى بعض السنوات بمدينة إشبيلية Sevilla . وبعد أن هدأت الفتنة خمد أمرُهم ، إلى أن عاودُوا السّاحةَ إبّان عصر الطوائف ومعركة الزَّلاَّقة Sagrajas ٤٧٩/

١٠٨٦ ، فكان لهم مع المعتمد بن عباد (٤٦١/١٠٦٩ - ٤٨٤/١٠٩١) وفرسان إشبيلية مقامٌ محمود .

ولمّا قدم الموحدون إلى الأندلس ، وجعلوا هذه المدينةَ قاعدةً لهم ، اتصل بعضُ بني خَلْدُون بأبي حفص كبير هنتانة وغيره من كبراء الموحّدين ، إلى أن ذهب أمرُ الأندلس عقيب واقعة العِقاب Las Navas de Tolosa في العام ٦٠٩/١٢١٢ ، فغادروا إلى إفريقية (تونس) سيّما وأن أبا زكريّا حفيدَ أبي حفص (٦١٨/١٢٢١ - ٦٤٧/١٢٤٩) تغلّب عليها ، وادّعى في وراثة الموحّدين ، فتقلّب الخلدونيُّونَ في وظائفِ دولته .

وُلِدَ عبدُ الرحمن بن خلدون في العام ٧٣٢/١٣٣٢ ، ونشأ نشأةً علميةً ، إذْ كان أبوه قد تفرَّدَ عن أسْلافِهِ بانصرافه عن المناصب وتفرُّغِهِ للعلم يقول كاتبُنا : « **وكان مقدمًا في صناعة العربية ، وله بصر بالشّعْر وفنونه ، عَهْدِي بأهل الأدب يتحاكَمُون إليه فيه ، ويعرضون حَوْكَهُمْ عليه** » .

لكن ابن خلدون - وهو بعد صَبِيٌّ في السابعة عشرة - يفقد أباه ، كما يفقد أمّه في جملة من فقد إبّان ما عُرِفَ - إذْ ذاك - « بالطاعون الجارف » ، وهو الطاعون الذي اجتاح أقطار البحرِ المتوسط ، وعُرِفَ عند الفرنج « بالموت الأسود » .

يتحدث ابن خلدون - بعد ذلك - عن شيوخه الذين تلقّى العلمَ على أيديهم ، ويسهب في هذا الحديث الذي يقطع السياق ، ويستغرق صفحاتٍ كثيرة ، لكنّ لهذا الحديث فائدتَه في التعرف على حال العلم في زمانه ، كما أنّ له فائدتَه في التعرف إلى بعضٍ مِنْ جوانب شخصيته ومكونات فكره ، فهو - مع اعتزازه بما طالعه من كتب ، وحازه من إجازات - يعترف لدى ذكره كتاب « التسهيل » لابن مالك (ت ٦٧٢) في النحو و « مختصر » ابن الحاجب (ت ٦٤٦) في الفقه بقوله : « **لم أكمِلْهما بالحفظ** » .

في سن العشرين يبدأ ابنُ خلدون رحلتَه مع الوظائف الدِّيوانية التي تمرس بها وتمَرسَتْ به نحوًا من خمسة وعشرين عامًا ، قطع خلالَها أقطار المغرب جميعَها والأندلس ، وتقلبت حالُهُ بين سُعودٍ ونُحوس ، أفضتْ به في أحيانٍ إلى السِّجْن ، وكادت تُفْضي به في أحيانٍ أخرى إلى الموت .

وكان شأنه مع هذه الوظائف شأنَ غيره من المثقفين - الكثرة من المثقفين - فى علاقتهم بالسلطة - أية سلطة - فهم مع هذه السلطة ، وليسوا بالضرورة مع صاحب السلطة ، ولديهم ما يبرّرُون به دائمًا مواقفَ تتغيّر لمصالحَ لا تتغيّر .

فى العام ٧٥١/ ١٣٥٠ وَلِىَ ابنُ خلدون الكتابَة للسلطان أبى إسحق (٧٥١/ ١٣٥٠ - ٧٧٠/ ١٣٦٩) لكنه لم يلبث أن نكل عن هذا السلطان ، عندما خرج عليه بعضُ أهل بيته ، ولاذ بمدينة بِسْكَره إلى أن علم بزحْف أبى عنان المرينى سلطان المغرب الأقصى (٧٤٩/ ١٣٤٨ - ٧٥٩/ ١٣٥٨) على سائر أقطار المغرب الكبير ، وأنه استولى على تِلِمْسان قاعدة بنى عبد الواد فى العام ٧٥٣ هـ ، وقتَلَ صاحبها ، ثم استولى على بِجايَةِ ، وكانت فى مُلك بنى حَفْص ، وانتزع عنها صاحبَها أبا عبد الله محمد .

انتقل ابنُ خلدون بولائه إلى أبى عنان ، فانتظم فى مجلسه العلمى بفاس ، واستعمله فى كتابته والتوقيع بين يديه ، فتفتّحتْ لديه - وكان مايزال شابًّا - آفاقٌ جديدة من العلم والتعلم .

يقول : « وعكفت على النظر والقراءة ولقاءِ المَشْيَخةِ من أهل المغرب ومن أهل الأندلس الوافدين فى غرض السِّفارة ، وحصلت من الإفادة منهم على البغية » ثم يعدِّد هؤلاء الشيوخ .

لكن ابنَ خَلْدون - كما هى حالُه دائمًا - لا يستقرّ على ولائِه لسيِّدِه الجديد ، ويبرّر هذا التحوّلَ فيقول : « وكانت قد حصلت بينى وبين الأمير محمد صاحب بجَايةَ من الموحّدين (أى الحفصيِّين) مُداخلةٌ ، أحْكَمَها ماكان لسَلَفِى فى دولتهم ، وغَفَلْتُ عن التحفُّظ فى مثل ذلك من غَيْرةِ السلطان » .

وكانت النتيجة أنْ أُلقِىَ القبضُ عليه فى العام ٧٥٨/ ١٣٥٧ ، وحاول فى سجنه استرضاءَ السلطان بقصيدةٍ طويلة ، هى أوّلُ ما يعرض لنا من شعره ، وكانت نحوًا من مائتى بيت ، لكنه لم يُطْلَق من حبسه إلا بعد وفاة هذا السلطان فى العام ٧٥٩/ ١٣٥٨ .

فى العام التالى (٧٦٠ هـ) أضحى كاتبُنا كاتبَ سِرٍّ للسلطان أبى سالم (٧٦٠/ ١٣٥٨ - ٧٦٢/ ١٣٦٠) وأنشده العديدَ من أشعاره ، فولاّه فى آخر دولتِهِ خِطّة

المظالم ، لكنّ ابنَ خلدون وجد من ينفُسون عليه هذا المنصب ، فاعتزم الرحيلَ ، ولم يجد أمامه سوى الأندلس ، وكان يحكمها - إذ ذاك - محمد الخامس (٧٥٥/ ١٣٥٤ - ٧٩٣/ ١٣٩٠) من ملوك بنى نصر (الأحمر) ، وكان لوزيره لسانِ الدين ابن الخطيب سابقُ معرفة بابن خلدون ، إبّانَ مُقامه فى فاس قبل سنوات ، كما كانت بينهما مراسلات .

ارتحل ابن خلدون إلى الأندلس فى العام ٧٦٤/ ١٣٦٢ ، وكان رحيلُه بمفرده ، إذ خلّف أهله وعِيالَه عند أخوالهم بقُسَنْطينةَ ، ويصف حلوله بغرناطة Granada فيقول : « وقد اهتزّ السلطان لقُدُومى ، وهيأ لى المنزل من قصوره بفرشه وماعونه ، وأركب خاصته لِلقائى ، تحفّيًا وبرًا ومُجازاةً بالحسنى ، ثم دخلتُ عليه ، فقابلنى بما يناسب ذلك ، وخلع علىّ وانصرفتُ . وخرج الوزير ابنُ الخطيب فشيّعنى إلى مكان نُزُلى ، ثم نَظَمنى فى علية أهل مجلسه ، واختَصنى بالنَّجىّ فى خلوته ، والمواكبة فى ركوبه ، والموَاكَلة والمطايَبة والفُكاهة فى خلوات أنسه » .

بعد عام ابتعث ابن خلدون إلى بِطْرُه بن الهنشه بن أُذْفُونَشْ (وهوبدرو القاسى) ملك قشتالة Castilla (١٣٥٠ - ١٣٦٩) لإتمام عقد صلح معه ، فحظى عنده ، وحسَّن الملك له المقام لديه وأنْ يردَّ عليه تراثَ سَلَفِه فى بلده ، لكن ابن خلدون اعتذر من عدم القبول . وبعد أن أدى المهمة التى ابتعث من أجلها ، عاد إلى غرناطة ، فكافأه السلطان بإقطاعه قرية إلبيرة Elvira من أرض السَّقْى بمرج غرناطة ، وأمر باستقدام أهله من قُسَنْطينة .

لم تستقر الأحوال طويلاً بابن خلدون فى الأندلس ، إذ دبّت الغيرةُ بين بعض من حاشية السلطان ، ولا يبعد أن كان ابنُ الخطيب أحدهم . ويفصّل صاحبنا هذا بقوله : « ثم لم يلبث الأعداءُ وأهلُ السّعايات أن خيّلوا الوزيرَ ابنَ الخطيب من ملابستى السلطان واشتماله عَلَىّ ، وحركوا له جوادَ الغيرة ، فتنكّر وشَمَمْت منه رائحة الانقباض ، مع استبداده بالدّولة وتحكّمه فى سائر أحوالها » .

فى هذه الأثناء كان أبو عبد الله قد استردّ ملكَه فى بجاية ، وأرسل إلى ابن خلدون يستدعيه ، فكانت فرصتُه لأن يشُدَّ إليه الرِّحال فى العام ٧٦٦/ ١٣٦٥ ،

وولى لديه خطة الحجابة (تعدل رئاسة الوزراء) إلى جانب الخطابة والتدريس .

فى العام التالى استولى أبو العباس صاحب قسنطينة - وهو من قرابة أبى عبد الله - على بجاية وقتله ، فانتقل ابن خلدون إليه بولائه ، ثم تجدّدت السعايات ضده ، فارتحل إلى بَسْكَرَة عند أصهاره ، حيث أقام على نحو متقطع سبع سنوات (٧٦٧ - ٧٧٤ هـ) موزَّعَ النفس بين رغبةٍ حميمة فى التفرُّغ للعلم ، ورغبة أخرى حميمة فى مواصلة طموحه السياسى المعتاد ، مع هاجس ظل يساوره للمعاودة مرةً أخرى إلى الأندلس .

عندما علم ابن خلدون بنشوب الحرب بين أبى العباس صاحب قُسَنطينةَ وبِجايَةَ وأبى حمو سلطان تلمسان (١٣٥٨/٧٦٠ - ١٣٨٩/٧٩١) انحاز إلى هذا الأخير ، ونشط فى الدعوة له بين القبائل ، ثم وفد عليه ، وكما هى عادته ، فقد تخلى عنه ، عندما نشبت الحرب بينه وبين أبى فارس عبد العزيز سلطان فاس (١٣٦٦/٧٦٨ - ١٣٧٢/٧٧٤) فانحاز إلى هذا الأخير ، وهوَّن عليه غزو تلمسان ، إلى أن نجح فى دخولها ، ولاذ سلطانُها بالصحراء .

فى العام ٧٧٤/ ١٣٧٢ مات أبو فارس عبد العزيز ، وخلفه ولدُه أبو بكر السعيد (٧٧٤/ ١٣٧٢ - ٧٧٦/ ١٣٧٤) فانتقل ابن خلدون وأسرتُه إليه ، حيث طابتْ له الإقامة سنين ، وتهيأت الفرصة لأن يزاول العلم ويدرسه . لكنه عندما وقع انقلاب أفضى إلى عزل السلطان ، اضطربت حال ابن خلدون وحبس أشهُرا ، ولاذ بعد إطلاقه بالأندلس ، لكنه لم يتيسر له الاستقرارُ بها ، إذ كان صديقه ابنُ الخطيب غائبًا عنها ، ينتظر الحكمَ عليه بالموت فى فاس بتهمة الزندقة ، كما أنَّ خصومه فى دولة بنى مرين ، سعوا إلى الإيقاع بينه وبين سلطان بنى الأحمر . . عندئذ فارق الأندلس ، ولمّا يمضِ عليه فى المقام بها أسابيع عددًا .

عبر ابن خلدون البحرَ إلى مرسَى هُنَيْن ، لا يدرى إلى أين يصرف وجهه ، وقد أُوصدت دونه أبواب المغرب الأقصى ، وراودته فكرةُ السعى إلى تلمسان ، وكان سلطانها أبو حمو - الذى سبق أن انقلب عليه - قد استعاد ملكه بها ، فبذل ابن خلدون غاية جهده للظفر بعفوه ، فلما تحقق له ذلك ، عدل عن الطموح إلى وظائف ديوانية ،

واكتفى بالحلول بقلعة ابن - أو بنى - سلامة ، ليبدأ مرحلةً جديدةً من حياته .

يقول ابن خلدون : « فأقمت بها أربعة أعوام ، متخليًا عن الشواغل كلها ، وشرعت فى تأليف هذا الكتاب (يعنى تاريخه العِبَر) وأنا مقيم بها ، وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب الذى اهتديتُ إليه في تلك الخلوة ، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعانى على الفكر ، حتى امتخضت زُبدتها وتألَّفت نتائجها » .

هكذا وبعد نيِّفٍ وعشرين سنةً من حياة مضطربة فى معترك السياسة ودهاليزها ، يتفرغ ابن خلدون ، وقد اكتمل نضجه (خمسة وأربعون عامًا) لعمل حياته . ويبدو أن هذه السنوات لم تضع كلها هباءً ، إذ تركت أثرها من جهة فهمه لأحداث التاريخ ، كما أنّ تقلبه بين دول المغرب والأندلس جعله يتعرف على أحوال هذه البلاد عن كثب ، فصار عالمًا بها حجةً فى أخبارها .

فى معتزله الصحراوى بالقلعة وضع ابنُ خلدون أساس كتابه فى التاريخ ومقدمته ، إلا أنه كان فى حاجة إلى مراجعَ يعاودُها ، وصار لا مندوحة له من الأوبة إلى مسقط رأسه فى تونس .

يقول : « وتشوَّفت إلى مطالعة الكتب والدواوين التى لا توجد إلا بالأمصار ، بعد أن أمليْتُ الكثير من حفظى ، وأردتُ التنقيح والتصويب ، ثم طرقنى مرضٌ أوْفى بى على الثَّنيَّة ، لولا ما تدارك من لطف الله ، فحدث عندى مَيْل إلى مراجعة السلطان أبى العباس ، والرحلة إلى تونس ؛ حيث قرارُ آبائى ومساكنُهم وآثارُهم وقبورُهم ، فبادرت إلى خطاب السلطان بالفَيْئةِ إلى طاعته والمراجعة ، وانتظرت ، فما كان غير بعيد ، وإذا بخطابه وعهوده بالأمان والاستحثاث للقدوم ، فكان الخُفوفُ للرحلة » .

أقام ابن خلدون بتونس أربعة أعوام ، أنهى خلالها كتابه ، ورفع النسخة الأولى منه إلى السلطان أبى العباس أحمد (٧٧٢/١٣٧٠ - ٧٩٦/١٣٩٣) (وهو صاحب قسنطينة وبجاية فى السابق) وهى النسخة التى عُرفت - بعدُ - بالنسخة التونسية ، وشَفَعَ هذه النسخة بقصيدة طويلة فى مدحه .

كما هى حاله دائمًا يتطرق ابن خلدون إلى السعايات بينه وبين سيدّه ، ولما كان قد سئم مثل هذه السعايات ، فقد تظاهر باعتزامه الحجّ إلى بيت الله الحرام ، واستأذن السلطان وغادر تونس فى العام ٧٨٤/ ١٣٨٢ . . . وكان هذا هو الفراق الأخير ، فلم يعاود وطنه أبدًا بعد ذلك .

فى الأول من ذى القعدة حَلَّ ابنُ خلدون بمدينة القاهرة ؛ فراعه ماشاهد ، إذْ فاقت عنده ما عاين قبلها وشاهد .

يقول : « رأيت حَضْرةَ الدنيا ، وبستان العالم ، ومَحشَر الأمم ، ومَدْرَج الذَّرّ من البشر ، وإيوان الإسلام ، وكرسىّ الملك ؛ تلوح القصور والأواوين فى جَوّه ، وتزهر الخَوانِكُ والمدارسُ بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من علمائه ؛ قد مَثَلَ بشاطئ بحر النيل نهر الجنّة ، ومدفع مياه السماء ، يسقيهم النَّهلَ والعَلَل سَيْحُه ، ويجبى إليهم الثمراتِ والخيراتِ ثَجُّه ؛ ومررْتُ فى سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم . ومازلنا نحدِّث عن هذا البلد ، وبُعد مداه فى العمران ، واتساع الأحوال ؛ ولقد اختلفت عباراتُ من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا ، حاجُّهمْ وتاجرهم ، بالحديث عنه . سألت صاحبنا قاضى الجماعة بفاس ، وكبير العلماء بالمغرب ؛ أبا عبد الله المقرى ، فقلت له : كيف هذه القاهرة ؟ فقال : مَنْ لمْ يرها لم يعرف عز الإسلام » .

أقام ابن خلدون بمدينة القاهرة البقية الباقية من عمره ، لم يقطع مُقامَهُ بها سوى حجّةٍ إلى بيت الله الحرام ، وزيارة إلى القدس الشريف ، وسَفْرةٍ إلى بلاد الشام . على أنه ممّا تجب ملاحظته أنّ ابن خلدون نهج فى مصر نهجًا غير الذى درج عليه فى بلاد المغرب ، إذ انصرف إلى التدريس وقضاء المالكية ، وانصرف عما عدا ذلك من وظائف ديوانية .

فى العـام ١٣٨٨/٧٨٦ وَلِىَ ابنُ خلدون منصب القضاء ، فالتزم فيه - كما يقول - بأحكام الله ، مما أحفظ مُجايليه فى زمان خربت فيه الذمم ، يقول : « فكثر الشغب علىّ من كل جانب ، وأظلم الجوُّ بينى وبين أهل الدولة ، ووافق ذلك

مُصابى بالأهل والولد ، وصلوا من المغرب فى السفين ، فأصابها قاصف من الريح فغرقت ، وذهب الموجود والسَّكن والمولود ، فعظم المصاب والجزع ، ورجح الزهد » .

راود ابنَ خلدون هاجسُ الاستعفاء من منصبه ، لكنه كان يخشى غضبة سيده السلطان ، فانتظر إلى أن أصدر هذا الاستعفاء ، واكتفى من جانبه بالتدريس ، وبعد ثلاث سنوات توجه إلى الأراضى المقدسة لأداء فريضة الحج .

فى سنة ١٣٨٩/٧٩١ وقع انقلابٌ فى مصر ؛ أسفر عن عزل السلطان الظاهر برقوق (١٣٨٢/٧٨٤ - ١٣٩٩/٨٠١) ، وأرغم الانقلابيّون ابنَ خلدون وفقهاء غيره على كتابة فتاوى تجيز لهم انقلابهم ، ثم لم يلبث أن استعاد السلطان سلطانه ، ولم يقبل اعتذار ابنِ خلدون عن فتواه ، وعزَله من خانقاه بيبرس التى كان قد وليها بعد عوده من الحج .

فى العام ١٣٩٨/٨٠١ وقبيل وفاته بيسير أقال السلطان برقوق عثرةَ ابن خلدون ، فولاّه القضاء مرةً ثانيـةً ، وأقرّه فى ولايته ولدُه الناصر فرج (١٣٩٩/٨٠١ - ١٤٠٥/٨٠٨) ، ثم عزله بعد سنتين لتجدد السعايات ضده .

فى العام ٨٠٣/ ١٤٠٠ هُرع السلطان الناصر إلى بلاد الشام لمدافعةِ « الطَطَر » وسلطانهم تَمُر (تيمورلنك) لكنه علم إبّان مُقامه بدمشق بمؤامرة تحاكُ ضده بالقاهرة ، فعاد أدراجه إليها ، وخلّف وراءه عددًا من أمرائه وفقهائه وقضاته ، وبينهم ابن خلدون .

يقول مؤرخنا إنه نَمَى إلى علمه سؤالُ تيمور عنه ، فانتقل إليه ، حيث أقام خمسةً وثلاثين يومًا ، جعله خلالها يعطى أمانًا لأصحابه الذين خلّفهم سلطان مصر بدمشق ، وادّعى له أنه كان يتمنى لقاءه منذ ثلاثين سنةً أو أربعين ، واستجاب لطلب الطاغية ، فصنف له اثنتى عشرة كراسة فى صفة بلاد المغرب وأخبارها ، كما دفع إليه بهدية ، ولا ندرى ما الذى كان يتطلع إليه صاحبنا ؛ لأنه عندما أمره تيمور بالبقاء فى خدمته ، أظهر الطاعة ، إلا أنه استأذنه فى الذهاب إلى مصر ؛ ليعود بأهله وكتبه ، فأذن له ، فذهب لكن لم يعد .

لم يظفر ابنُ خلدون بشيء من رحلته تلك ، بل إنه خسر بغلةً كانت له ، فانتزعها تيمور منه ، وعندما وصل إليه ثمنها بعد عودته إلى مصر ألفاها ناقصةً ، ثم إنه في طريق هذه العودة ، فقد كل ما كان معه .

يقول : « وسافرت في جمع من أصحابي ، فاعترضنا جماعة من العشير ، قطعوا علينا الطريق ، ونهبوا مامعنا ، ونجونا إلى قرية هنالك عرايا ، واتصلنا بعد يومين أو ثلاثة بالصُبَيْبَة ، فخلفنا بعض الملبوس ، وأجزنا إلى صَفَد . . . » .

بعد عودته إلى مصر فى العام ١٤٠١/٨٠٣ ، وَلِيَ ابنُ خلدون القضاء ثلاث مرات خلال خمس سنوات ، وكان عزله لآخر مرة قبيل أشهرٍ من وفاته فى العام ١٤٠٦/٨٠٨ .

وبعد . . . فقد كانت تلك قصة حياة ابن خلدون كما خطها يراعه ، وانتهى منها قبيل وفاته بيسير ، وليس لدينا من تعليق عليها ، سوى تعليق المحقق الفاضل ، إذ يقول : « قرأتُ هذا الكتاب ، طلبًا لمعرفة ابن خلدون ، فعرفتُه منه على الصورة التى أراد أن يتصوره عليها الناس . ثم قرأت بعد ذلك ماكتبه عنه معاصِرُوه ومن تبعهم ، فوجدت صورةً أخرى غير التى عرفتُها منه » .

فيما عدا ذلك لانجد فى الكتاب من أدب السيرة الذاتية ، مانجده عند الغزالى (ت ١١١١/٥٠٥) أو القديس أوغسطين (ت ٤٣٠ م) من اعترافات لا يخجل صاحبها منها ، مادام قد صرف عنها ، وفاء فى الأخير إلى طريق غير الطريق .

ونحن لانتقبل منه دائمًا ماكان يسوق من حجج تبرر نكولَه عن سلطانٍ وقبولَه الدخول فى طاعة سلطان ، كما لا نتقبل منه دائمًا ما يتردد فى ثنايا كتابه من سعايات ، لقوم ينفُسون عليه ماكان قد وصل إليه .

كذلك لانجد فى الكتاب من أدب الرِّحلة ، مانجده عند أسامة بن منقذ (ت ١١٨٨/٥٨٤) فى كتابه « الاعتبار » ، وابن جُبير (ت ١٢١٧/٦١٤) فى كتابه « الاعتبار » (هكذا اسمه) ؛ فالأول كان بارعًا فى وصفه للشخصيات التى التقى بها والواقعات التى عرضت له ، وجاء وصفه على نحو يثير تطلُّعَ قارئه ، فلا يغشاه ملل

من متابعته ، كما أن الآخر أفاض فى ذكر ما صادفه فى رحلته ، ويصطحبنا لنشاهد عالمًا بأكمله ، متعدد الشخوص والأحداث والمناظر .

أجاد ابنُ خلدون فى وصفه لمدينة القاهرة عند حلوله بها ، بحيث يمكن اعتباره وثيقةً لما كانت عليه حال هذه المدينة فى مرحلة زاهرة من مراحل تاريخها ، كما أجاد فى وصف رحلته إلى بلاد الشام وغزو « الططر » لها ولقائه بطاغيتهم تيمور ، على نحو يجعل هذه الرحلة أشبه بقصة شائقة ، فيها من الفن ما فيها من التاريخ .

فيما عدا ذلك نجد ملكة الوصف عند كاتبنا خابيةً وأحاسيسه فاترة ، وإنى لأعجب كيف لا يصف المشاهد المقدّسة فى الحرم الشريف ، ولا المشاهد المقدسة فى القدس الشريف ، أعجب كذلك حين يأتى بحديث مقتضب عن موت والديه من الطاعون الجارف وموت ولده من الموج الجارف ، ولا يجعلنا نحس معه بهوْل الفقد وهو صبىّ غرير ، ثم وهو شيخ كبير .

كاتبنا مولع أيضًا بالاستطرادات التى تعتور السياق ، وكان أجمل به أن يختصر فيها ، فحديثه عن مشيخته يستغرق أربعين صفحةً ، يعلق بعدها فيقول : « **هذا ذكر من حضرنا من جملة السلطان أبى الحسن وأصحابنا ، وليس موضوع الكتاب الإطالة ، لنقتصر على هذا القدر ، ونرجع إلى ماكنا فيه من أخبار المؤلف** » .

تتعدد الاستطرادات ، ويورد الكاتب رسائل لابن الخطيب فى مواقع متعددة تشغل نحوًا من سدس الكتاب ، كما أنه فى روايته لبعض الأحداث ، يعود بنا سنوات طويلةً سابقةً لهذه الأحداث ، مثلما فعل فى روايته لفتنة يَلْبُغا الناصرى فى عهد الظاهر برقوق ، فيؤرخ للمماليك وأصولهم ، منذ زمان الأيوبيين . وعندما يلى الحديث فى مدرسة صَرْغَتْمش ، يسترسل فى ترجمته لحياة الإمام مالك وكتابه الموطأ ورواته .

على أننا – كمؤرخين – نجد فى هذا الكتاب وثيقةً مهمةً ، نفيد بها مع غيرها من وثائق فى التعرّف إلى فكر عالِم كبير ، ملأ الدنيا بعلمه وشغل الناس ، وكان مجالاً للدرس من قبل علماء كُثْر كبار فى الشرق والغرب معًا .

كما أنه وثيقة مهمة للتعرف على عصر هذا العالم ، من حيث كونه شاهد عيان على وقائع ، كان هو أحدَ صانعيها ، ولا يخفى حديثه عما آلت إليه الحال فى مصر فى زمانه من فساد ، أصاب كتّابًا وقضاةً ومفتين وغيرهم كثيرين .

الكتاب - إلى ذلك - حافل بتراجم لأعيان معاصرين وغير معاصرين ، وذكر ماخلّفوه من كتب وأشعار وآثار ، كما أنه حافل بخطب وتَقارير رسمية ورسائل متبادَلة بين الملوك ، وأخبارٍ عن هؤلاء الملوك ، وماقد يكون تخلّلها من صراعات وإِحَن ، وأخبار أخرى عن الدول التى كان للكاتب صلةٌ بها ورُسومِها ونُظُمها وما درجت عليه من وظائف ديوانية ، وشرح لمدلولات تلك الوظائف ، ثم هو لايقف عند حد السّرْد ، إنما يصدر الحكم النقدى السليم فى أحيان وأحيان .

لاننسى - فى هذه العجالة - التنويه إلى تفرد ابن خلدون عن رصفائه ومجايليه بأسلوب خِلْوٍ (أو كاد يكون خِلْوًا) من البديع ، والسبب - فيما نذهب - هو أن كاتبنا كان معنيًا فى المحل الأول بالأفكار ، وليس بالزخرفة اللفظية التى تغلّف هذه الأفكار .

أما عن المحقق الكريم العلاّمة محمد بن تاويت الطنجي (ت ١٣٩٤/ ١٩٧٤) - رحمه الله - فهو نبتة طيبة لدَوْحة مغربية طيّبة ، تمتد أصولها الطيبة إلى الشنقيطى الكبير (ت ١٣٢٢ / ١٩٠٤) . وقد أسدى إلى تراثنا - تحقيقًا وتدقيقًا - خدماتٍ ثرّةً ، تذكر فيشكر ، وقد اعتمد فى هذا الكتاب على نسختين بمكتبة أياصوفيا ومكتبة أحمد الثالث باسطنبول ، كما اعتمد على نسخ أخرى غيرهما ، وغُصت هوامشه بشروح وتعليقات ، يصفها - متواضعًا - بنوافل وزيادات ، وألحق بكتابه فهارس دالةً وكشافات .

جزاه الله عنا وعن العلم خير الجزاء

أبو أدهم

عُبادة كُحيلة

الهرم - الجيزة

فى الخامس عشر من جمادى الأولى ١٤٢٤

الخامس عشر من يوليو (تموز) ٢٠٠٣

آثار ابن خلدون
١

التعريف بابن خلدون
و
رحلته غربا وشرقا

تأليف

عبد الرحمن بن خلدون
(٧٣٢ — ٨٠٨)

عارضه بأصوله وعلق حواشيه

محمد بن تاويت الطنجي



فهرس الموضوعات

تقديم

حينما اخترت «مقدمة» ابن خلدون موضوعاً لدراستي ، وجب عليَّ أن أعرف ابن خلدون مؤلفها ، وكانت معرفته عن طريق حديثه عن نفسه من أهم ألوان هذه المعرفة وأوكدها ؛ ومن هنا قرأت هذا الكتاب طلباً لمعرفة ابن خلدون ، فعرفته منه على الصورة التي أراد أن يتصوره عليها الناس . ثم قرأت بعد ذلك ما كتبه عنه معاصروه ومن تبعهم ، فوجدت صورة أخرى غير التي عرفتها منه ، وعدتُ إلى ابن خَلدون مرةً أُخرى وفي ذهني عنه صورتان ؛ صورته كما رأى نفسَه ، أو كما أراد أن يراه الناس ، تَأَنَّق في صُنعها ، واستمسك بظلالها وألوانها . وصورته كما رآه مُعاصروه ، أو كما أرادوا أن يروه ، ويراه معَهم الناس ، عَرَف ابنُ خلدون أكثر مَعالمها فنَـكِرها في ألَمٍ وتَرَفُّع ؛ وهو اختلاف يثير الرغبة في تعرُّف أسباب الموافقة ودواعي الخلاف [1] .

وهكذا قُدِّر لي أن أقرأ الكتاب قراءةً مقارِنة ، رَغبةً في الوصـول إلى معرفة أقرب صور ابن خلدون إلى الحقيقة .

وعزَّ عليَّ أن تضيع قراءتي لهذا الكتاب ، وهو المفتاح الأول لمعرفة شخصية ابن خلدون ، فاستعنت بالله على إخراجه كاملا إلى حَيِّز الوجود [2] .

وأخذت أتمثل المنهج الذي يجب أن أتَّبعه في تحقيقه ونشره بين الناس ، ولم يلبث أن وضحت معالمه مُجمَلَةً في كلمات : « أن يَخرُج النص كما أراده مؤلفه

---

(١) رأى ابن خلدون في نفسه ، ورأى معاصريه فيه بمصر بوجه خاص ، لا يكادان يلتقيان ، والقول في بيان أقربهما إلى الحق أوسع من أن يعالج في مثل هذا المقام .

(٢) طبع القسم الكبير من هذا الكتاب مرتين : الأولى بآخر كتاب « العبر » وذلك في سنة ١٢٨٤ بمطبعة بولاق ، والثانية على حاشية « المقدمة » بالمطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٢٢ هـ .

أن يكون » ؛ كلماتٌ خفيفة الوقع على الألسُن ، ولكنّها عند وزنها فى ثِقَل الجبال .

* * *

وكان البحث عن أصول الكتاب المخطوطة ، وصلتها بالمؤلف من أولَى خطوات تحقيق هذا المنهج ، والذى أقصده بهذه الصلة ، أن تكون النسخة مخطوطةَ المؤلف ، أو مقروءةً عليه تحمل دليلا على هذه القراءة ، أو مكتوبةً عن نسخته مباشرةً أو بواسطة معارضة عليها الخ .

وليس تحقيق هذه الصلة بالأمر اليسير الهيِّن ، فالزمان — بحوادثه — قد ألحق بالجمهرة من عيون هذا التُّراث الإسلامىّ ما لا نجهله من ألوان التبديد والإفناء ، ولكنّ الله الكريم شاء أن لا تضيع منِّى فى هذا السبيل الخطوات ؛ فقد أخطأت عين الزمان — وهو الحديد البصر — نسختين من هذا الكتاب ، كلتاهما كانت نسخة المؤلف ، وحفظت المكتبات المختلفة نسخاً عديدة منه ومختلفة ، و بفضل ذلك استطعت أن أخرج الكتاب معتمداً على المجموعة التالية منها .

نسخ الكتاب واختلافها :

والكتاب يقع فى آخر كتاب : « العبر » ، وقد عُرف عن ابن خلدون أنه كانت تصدر عنه نسخ من كتابه ما بين الحين والحين ؛ يهديها إلى الملوك والوزراء تارة ، و يأخذها عنه الطلبةُ الدارسون تارة أخرى .

فلقد أهدى — وهو بالمغرب — النسخة الأولى من كتابه لأبى العباس الحفصى ملك تونس[1] ، وحينما رحل إلى مصر أهدَى نسخة أخرى إلى الملك الظاهر برقوق (فيما بين سنتى ٧٨٤ و ٧٩١) ، وهذه النسخة هى التى سماها بكتاب « الظاهرى » ، ثم بعث من مصر فى سنة ٧٩٩ نسخة ثالثة ، لتوضع فى خزانة

(١) انظر ص ٢٤٠ من هذا الكتاب .

اللوحة رقم ٤٢ ب من نسخة « طپ » وبجانبها الأيسر كلمات ألحقها ابن خلدون بخطه

قپو سراى » بإستانبول أيضا ، فيقع فى آخر كتاب العبر متصلا به ، كتبه ابن الفخار السابق الذكر ، وكانت عنايته به من حيث إعجامُه أكثر من عنايته بالقسم الذى كتبه من الأصل السابق ، وحظى من المؤلف بعناية طيبة — حيث إنه نسخته التى توفى وهى فى مكتبته فيما أعتقد — فضبط أعلامه ، وأضاف الناقص من كلماته ، وبيّن المبهمَ منها على حاشية الكتاب ، وأصلح المحرّف — كلّ ذلك بخطه ،

وهذا الأصل — فيما أعتقد — أحدثُ من سابقه صدوراً عن المؤلف ؛ فقد أدخَل بالصُّلب منه ما كان فى أصل أياصوفيا ملحقا بالحاشية بخطه[1] ، وأثبتَ فيه نصَّ الرسالة التى كتبها الملكُ الظاهر إلى الملك أبى العباس الحَفْصِى ، متشفعاً فى أولاد ابن خلدون وأهلِه ، راجيا منه أن يبعثَهم إليه بمصر[2] ، ولم يثبتها فى أصل أياصوفيا ولا ترك لها مكانا ؛ بل إن سياقه هنالك لا يُشعِر بأنه يريد إثبات نَصٍّ ما فى هذا السبيل ، فإدراجها فى هذا الأصل ، وإضافتها إليه فى ورقة ملحقة بين الورقتين (٣٢ ، ٣٣) ، جاء فى وقت متأخر عن صدور أصل « أياصوفيا » .

وهو أصل عقيم لم يتفرع عنه فرع — فيما أعلم — وأغلب الظن أن أحداً لم يعرف أنه النسخةُ الكاملة من هذا الكتاب ، فلم يُشر أحدٌ — من الذين عُنُوا بالحديث عن مخطوطات ابن خلدون — إلى النسخة التى يتبعها هذا الجزء على كثرة ما تحدّثوا عن نسخ ابن خلدون[3] .

فروع نسخة أياصوفيا

(أ) نسخة دار الكتب المصرية : [رقم ١٠٩ م تاريخ ، ٤٩ ص ، ٢٣ × ١٧سم ، سطورها ٣١]

هى أحد فروع أصل أيا صوفيا ، وقد وضِعت تحت عنوان : « التعريف

(١) ورد هنا الإلحاق فى لوحة ١٢ من « ص » ، ويبتدئ فى المطبوع من السطر الثانى من ص ٤٦ ، وينتهى بالسطر ٩ من ص ٤٦ .

(٢) انظر ص ٢٤٩ — ٢٥٣ من المطبوع .

(٣) لا أحب أن أنسى أن الفضل فى الالتفات إلى هذه النسخة يعود إلى الصديق الكريم العالم التركى الشاب فؤاد سزكين ، فله خالص شكرى .

بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا »[1] ، وخطها فارسى (تعليق) جميل ، وأغلب الظن أنها كُتبت فى أول القرن ١٢ الهجرة ، وكاتبها قليل المعرفة باللغة العربية ، ولذلك صَحّف من كلماتها عدداً يفوق الإحصاء ؛ وخَلا القسم الأخير من الأصل عن الإعجام ، فكانت البلوى أشدّ ، ولما بلَغ إلى مكان النقص الذى بالأصل المنقول عنه ، لم يَفطَن له ، فكتَب الكلام متّصلا كأن لم ينقصْ منه شىء . ولهذه الأسباب لم أعتمد عليها مطلقا .

(ب) نسخة خاصة : [١٢٨ ق ، ٢٥٠ × ١٧٥ م ، سطورها ١٩]

ولدىّ فرع آخر من أصل أيا صوفيا كُتب فى سنة ١٣٠٧ هـ ، بخط نسخ جميل واضح ، ولم يذكر كاتبه ، وهو محمد بن عبد السلام بن جاد ، أنه نقله عن الأصل المذكور ، ولكنّ المقارنة تثبت — فى وضوح — الصلة بين النسختين .

وهناك آفة وقع فيها كل الناقلين عن الأصل المذكور ، فالكلمات فى الأصل مهملة عارية عن الإعجام ، وحينما حاول النساخ أن يعجموا زلّت منهم الأقدام ، ويكثر الغَرر بوجه خاص فى رسائل ابن الخطيب التى أثبتها ابن خلدون فى هذا الكتاب ؛ حيث جاءت فيها ألوان كثيرة من محسِّنات البديع ، فكانت صور الكلمات تأتى متشابهة ، فإذا ما عريت من النقط — وهو ما كان — جاءت الصعوبة ، وكثرت فروض النساخ الخاطئة .

ولولا أن هذا الناسخ ، كان من الأمانة بحيث إن تجميل الخط ، وتَحليته بالنقط ، لم يُغره بتشويه الحقيقة ، لكان الفارق بين هذه النسخة ، وبين نسخة دار الكتب من الضآلة بحيث لا يذكر .

لقد صوّرَ ناسخُنا الكلمات كما رآها فى الأصل ، وتركها مهملة إن كان الأصل أغفلها من الإعجام ، وبذلك ترك النّص بحالته تحت نظر القارئ والباحث

(١) انظر الفهرس الجديد لدار الكتب المصرية ٥ / ١٤١ .

آية عجب على عادة بوادى الاعراب وهذا الملك تمر من زعماء
الملوك وفراعنتهم والناس ينسبونه الى العلم وآخرون الى
اعتقاد الرفض لما يرون من تفضيله لاهل البيت وآخرون
الى انتحال السحر وليس من ذلك كله فى شئ انما هو شديد الفطنة
والذكاء كثير البحث واللجاج لياما صيله على ما انتهى فى عمرها فى
قرب المشى ويتناوله الرجال على الايدى عند طول المسافة
وهو مصنوع له والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده انتهى

علم وبالامام عن الحسين وتركت الحيى ما علا من اصابتي

ولاية القضاء الثالثة والرابعة والخامسة بمصر

كنت لما اقمت عند السلطان تمرلنك الايام التى اقمت طال
عن مغيبى من مصر وشيعت الاخبار عنى بالهلاك فقدم
للوظيفة من يقوم بها من فضلاء المالكية وهو جمال الدين
الاقفهسى غزير الحفظ والذكاء عفيف النفس عن التصدى
لحاجات الناس ورع فى دينه فقلدوه منتصف جمادى الآخرة
من السنة فلما رجعت الى مصر عدلوا عن ذلك الرأى وبدا لهم
فى امرى فولونى فى اواخر شعبان من السنة واستمررت على
الحالة التى كنت عليها من القيام بالحق والاعراض عن
الاغراض والانصاف من المطالب ووقع الانكار على من لايدين
بالحق ولايعطى النصفة من نفسه فسعوا عند السلطان فى
ولاية شخص من المالكية يعرف بجمال الدين البساطى يبذل فى ذلك

السداد واخلوه قطعة من ماله ووجوها من الاغراض فى
قضيات فاسل الله جميعهم فخلعوا عليه اواخر رجب سنة اربع
وثمانمائة ثم راجع السلطان بصيرته واستقدران ورجع الى
الوظيفة خاتم سنة اربع فاجريت الحال على ما كان ومضى
الامر كذلك سنة ونقص الاخرى واعادوا البساطى الى ماكان
ويأسكان وعلى ماكان وخلعوا عليه سادس ربيع الاول
سنة ست ثم اعادونى عاشر شعبان سنة سبع ثم ادالوا
به منى اواخر ذى القعدة من السنة وبيد الله تصاريف الامور انتهى

تم وقد وقع الفراغ من نسخه فى يوم السبت
الموافق ٥ محرم الحرام سنة ١٣٠٧ هجرية
على صاحبها افضل الصلاة واتم
التحية بقلم انهضه الضعفاء
محمد ابن عبد السلام

خاتمة النسخة « ج » وهى النسخة الخاصة



بَعْدَه ، وتلك مَحْمَدة عادت ثمرتها على هذا الفرع بالاعتبار . على أنه — مع ذلك — لم يبرأ من تحريفات تبلغ أحياناً الغاية البُعْدَى فى الخطورة .

ويتبع هذا الفرعُ أصلَه فى النقص الواقع به ؛ وترك الناسخ ورقتين أخريين سهوا لم يكتبهما[1] ، فأضاف إلى النقص الوراثى عيبا آخرا جديداً غيَّر به فى وجه هذا الفرع .

وقد أشرت إلى هذه النسخة فى الحواشى حين اعتمدت عليها بحرف « ج »

(حـ) نسخة أسعد أفندى : [رقم ٢٢٦٨ ، ٩٣ق ، ٣٢٧ × ١٥٥ م.]

والنسخة المحفوظة بمكتبة أسعد أفندى (إحدى مكتبات السليمانية باستانبول) فرع لنسخة أياصوفيا أيضا ؛ خطه نسخ جميل ، أمّا من حيث الصحة فهو بالغ الحضيض فى التحريف ، وقد قدَّم الناسخ وأخَّر فى بعض أوراق الأصل ، فخرج الفرع — إلى تصحيفه — مضطربا ، ولم أعتمد عليه لعدم صلاحيته — فيما أزعم — ، على أن جمال خطه ، وعناية ناسخه بالإعجام ، قد خدع بعض المعاصرين فوصفه بالحسن ، وكاد أن يفضله على أصله بأياصوفيا .

(ى) نسخة الرباط :

وفى مكتبة الرباط «عاصمة المغرب الأقصى» الحالية ، نسخة من هذا الكتاب تحت رقم (D 1345) ، ولستُ أملِك الأدلة المادية للحكم بأنها فرع من أياصوفيا حكما يقينيا ، ولكننى أظن ذلك ظنا راجحا يقوم على أمرين :

١ — أن عنوانها : « التعريف بابن خلدون ، ورحلته غربا وشرقا » وكلمات : « ورحلته غربا وشرقًا » لا توجد إلا فى الأصلين الحديثين : « أياصوفيا » ، و « أحمد الثالث » ، وفيما عساه أن يكون قد تفرع عنهما .

---

(١) يقع هذا النقص فى المخطوط فى الورقة ٣٥ ب ، ومكانه فى المطبوع فى ص ١٠١ وما بعدها .

٢ — فإذا ما صَحَّ الفرض الذى قدمته ، وهو أن أصل « أحمد الثالث » عقيم لم يُعقِب ، كانت نسخة الرباط فرعاً من فروع « أيا صوفيا » لا محالة .

النسخ المتوسطة

(ا) نسخة « الظاهرى » : وهى واقعة فى آخر النسخة التى قدمها ابن خَلدون للملك الظاهر برقوق ، والجزء الذى تشغله يبتدئ من ص ٣١٥ وينتهى بصفحة ٣٨١ من الجزء الرابع عشر وهو آخر الـكتاب .

وخط هذه النسخة رائع ، وفى مبدأ كل جزء منها لوحة مذهبة وملونة ، كتب عليها أنها « كتبت برسم الخزانة الملـكية الظاهرية » .

وقد راجع ابن خَلدون هذه النسخة قبل تقديمها للملك الظاهر ، فضبط بعض كلماتها ، وأصلح ما احتاج منها إلى الإصلاح .

وتنتهى هذه النسخة برجوع ابن خلدون من الحج فى سنة ٧٩٧ ؛ فبعد أن دخلت إلى مكتبة الملك الظاهر لم يُضَف إليها ما أضيف إلى الأصلين السابقين . ولذلك نجد مثلا الرسالة التى كتبها ابنُ الخطيب إلى أحد مُلوك الحفصيين — على لسان مَلـكه ابن الأحمر[1] — ساقطةً من هذه النسخة ، وإن كان مكانها فى القسم الذى يأتى قبل ارتحال ابن خلدون إلى المشرق . ثم لا تحتوى هذه النسخة على ما بعد سنة ٧٩٧ .

وقد انتفعتُ بالأجزاء التى لم يُغيِّرها ابن خلدون من هذه النسخة ، وأشرتُ إلى الخلاف — حيث يوجد — فى حواشى الـكتاب ، وسميتها بـ « الظاهرى » عند الإشارة إليها .

(ب) نسخة الشنقيطى : [رقم ١ ش تاريخ ٢٠ ورقة (من ٣٦٣ظ — ٣٨٣و) ، ٣١٤ × ٢١٤ م ، سطورها ٤٢] .

---

(١) تقع هذه الرسالة فى المطبوع بين ص ١٥٥ ، ص ٢٠٩ .

الـكتب التي بجامع القرويين بفاس، وقفاً على طلبة العلم[1]، وكان الملك حينذاك أبا فارس عبد العزيز المريني (٧٩٦—٧٩٩)، ولذلك قدم الـكتابَ باسمه[2].

وكل واحدة من هذه النسخ تختلف عن سابقتها صدوراً عن المؤلف، بما كان يُضيفُه إلى الـكتاب من ملحقات، ويُدخِلُه على أبوابه وفصوله من تعديلات.

ومن هنا كانت نُسَخ الـكتاب جميعه أَوْجَزَ كلّما كانت أقدم صدوراً عن المؤلف، وكلما كانت حديثة العهد بالمؤلف كانت أكثر تفصيلا للحوادث وأوسع. و «المقدمة»، و «التاريخ»، وهذا الجزء في هذا الحكم سواء.

ولست أعرف عدد النسخ التي صدرت عن المؤلف من كتابه هذا على وجه التحديد، غير أنه من اليسير — استناداً إلى ما وصَل إلينا من نُسَخه — أن يُرَدّ ما وجد منها بالمقارنة — بينها — إلى أُمّهات ثلاث:

١ — أم قديمة الصدور عن المؤلف، وهي موجزة.

٢ — ومتوسطة تزيد قليلا عن سابقتها، وتنقص الـكثير من التفصيلات عن التي تليها.

٣ — ثم حديثة العهد بالمؤلف، ويمتدُّ حديثه فيها، وتعديله بالزيادة والنقص وغيرها إلى ما قبل وفاته بشهور.

ويقوم هذا التصنيف على أن هناك أُمّاً أُولَى لهذه النسخ جميعا، وهي التي

---

(١) لا تزال أجزاء من هذه النسخة محفوظة بجامع القرويين بفاس، وانظر مقدمة ابن خلدون ص ٧ طبع بولاق، وفي المجلة الأسيوية

J. Asiatique : Juillet — Septembre 1923, P. 161—186

صيغة «التحبيس» التي أقرها ابن خلدون، ووقع عليها بخطه.

(٢) المعروفون بأبي فارس عبد العزيز من الملوك ثلاثة، اثنان من بني مرين هذا ثانيهما وإليه كان الإهداء، وهما معا من ملوك المغرب؛ والثالث حفصي من ملوك تونس؛ وهذا الاشتراك في الاسم والـكنية قد توقف بسببه الشيخ نصر الهوريني في تعيين المهدَى إليه. كما أضل صاحب الاستقصا، فجعل الإهداء لغير من كان له.

وانظر الاستقصا ٢/١٢٩، ١٤٠ — ١٤١، ومقدمة ابن خلدون ص ٥ بولاق.

قدّمها ابن خلدون لأبي العباس الحفصى بتونس[1] ، وعنها يتفرع سائر الأصول التى تتمثل فى مجموعات يسهل تصور انحدارها عن أصولها وأمهاتها من الرسم التالى .

***

والأصل الحديث من هذه الأصول هو الذى بقى بين يدَى ابن خَلدون حتى الأيام الأخيرة من حياته ، فظل التنقيح يلاحقه ، وحياة ابن خَلدون — بما امتدّت — تضيف إليه الجديد من الأحداث ، وبذلك أصبحَ ناسخاً للأصول قبلَه ، معبِّراً عن الرأى الأخير الكامل للمؤلف فى هذا الكتاب .

ومن هنا كان البحث عن الأصول الأخيرة أساساً أوّلياً لنشر هذا الكتاب ، وكانت الأصول القديمة ، والمتوسطة — على الرغم من أنها أصول مباشرة للكتاب إلى حد كبير — ، قد نسخها ما جاء بعدها من الأصول ، وأصبحت الاستعانة بها لا تتجاوز مواطن الاتفاق بين الأصول ، أما حين تختلف ، فإن المقدَّم فيها لامحالة هى هذه الأصول الحديثة .

وقد حفظت مكتبتا « أيا صوفيا » و « أحمد الثالث » بإستانبول نسختين قَيِّمتين من هذا الكتاب ، كانت كل واحدة منهما نسخةَ للمؤلف ، فكانتا معا من أوثق ما وصل إلينا من نسخه .

نسخة أيا صوفيا : [رقم ٣٢٠٠ ، ٨٣ ق ، ٢٥٩ × ١٨٥ م ، س ٢٥ ، ٢٨]

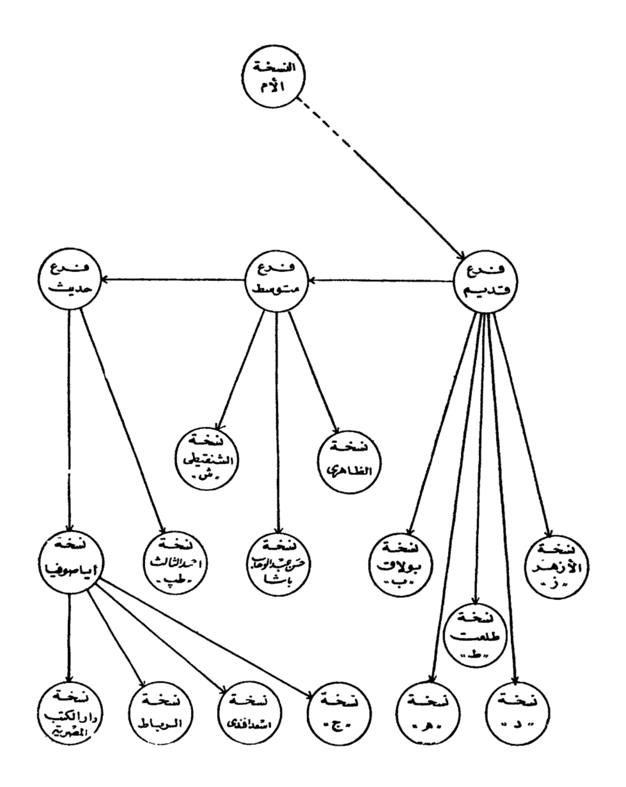
تقع فى جزء مستقلّ ، وخطها نسخ جميل ، والقسم الأول منها (ويتمثل فى الأوراق ١ — ٤١ ا ، ٤٩ ب — ٥٩ ا ، ٦٠ ب ٦٣ ا) يختلف خطه عن القسم الباقى منَ الكتاب لاختلاف الناسخ نفسه ، وعدد سطور هذا القسم ٢٥ سطراً ؛ ويمتاز هذا القسم بعناية ناسخه بإعجام ما حَقُّه أن يُعجمَ من الحروف ، وحَظِىَ بعناية بالغة من المؤلف ، فشكل بالحركات بخطه ما رأى أنه محتاج إلى الضبط والتقييد من الكلمات ، ولا سيا الأمكنة والأعلام المغربية .

---

(١) لا أعرف عن هذه الأم شيئا غير كلمة ذكرها المرحوم نصر الهورينى فى حاشية له على صفحة الإهداء لـ « مقدمة » ابن خلدون طبع بولاق سنة ١٢٧٤ .

ولهذا جعلت الخط الذى يصل مجموعة النسخ القديمة بهذه الأم شعاعيا إشارة إلى انقطاع الصلة بيننا وبينها .

لوحة ١٢ من نسخة أيا صوفيا ويبدو فى جوانبها خط ابن خلدون



النسخة الأم
فرع قديم
فرع متوسط
فرع حديث
نسخة الشنقيطي «ش»
نسخة الظاهري
نسخة أياصوفيا
نسخة احمد الثالث «طب»
نسخة حسن عبد الوهاب باشا
نسخة بولاق «ب»
نسخة الأزهر «ز»
نسخة طلعت «ط»
نسخة دار الكتب المصرية
نسخة الرباط
نسخة اسعد افندي
نسخة «ج»
نسخة «هـ»
نسخة «د»

أما القسم الثانى من النسخة (وعدد سطوره ٢٨) ، فقاعدةُ ناسخه أن لا يُعجم من الحروف إلا النّادر ، والمؤلف حينما قرأ هذا القسم لم يُعنَ بالإعجام والضبط عنايتَه بالقسم الأول ، وإنّما وقف عند كلمات رأى الحاجة فيها ماسة إلى ضبطها بالحركات فقيَّدها .

على أنه فى القسمين معا ، بَدَا له فى كلمات أن غيرها يَصحُّ أن يقوم مقامها ، أو أن غيرها أصح منها ، فكتب الكلمة فى الحاشية بخطِّه ، وفوقَها حرف « خ » أو « صح » أو « أصح » حسبما رأى أنه الأنسب ورأى أن كلمات بالمتن محتاجة إلى بيان فكتبَها مرة أخرى بالحاشية مستقلة ، ووضع فوقها علامة البيان « بـ » .

ولم أعرف من أمر ناسخ القسم الأول إلاّ أنه كتَب كثيراً لابن خلدون ، أما القسم الثانى فإن الناسخ — وإن لم يسمّ نفسه فى آخر هذا الكتاب — قد أمكنت معرفته بمقارنة خط هذا القسم بخط «المقدمة» المحفوظة بمكتبة « ينى جامع» تحت رقم ٨٨٨ ، وهو عبد الله بن حسن الشهير بابن الفخار ، ويظهر من الخاتمة التى ختم بها نسخة « المقدمة » المذكورة — وقد كتبها لنفسه — أنه كان على صلة وثيقة بابن خلدون ، وأنه كان من المعجبين به ؛ والذى يتصفَّح ما كتبه لابن خلدون — وهو كثير — لا يتردد مطلقاً فى الحكم بأنه كان من أهل العلم بين الناسخين ؛ فأخطاؤه نادرة جدّا ، وقاعدته فى كتابته — على الرغم من عَدَم إعجامه للحروف — محكمة مطَّردة قَلَّما تَتَخَلَّف .

وقد طرأ على هذا الأصل بين ورقتى ٧٢ ، ٧٣[1] نقص مقداره ورقتان ، وهو نقصٌ قديم فيما أعتقد ، وكل الفروع التى تفرعت عن هذا الأصل كانت مثلَه فى هذا النقص ، ولم أعثر على فرع كتب عنه يوم كان كاملا .

نسخة أحمد الثالث : [٣٠٤٢ (٤) ، ٥١ ق ٣٢٠×٥١٥ م ، ٣٥ سطراً] .

أما الأصل الثانى وهو المحفوظ فى مكتبة السلطان أحمد الثالث فى « طوب

(١) مكانه الآن فى المطبوع بين ص ٣٢٤ ، ٣٣٣ .

FOTO ŞİŞEK
VALENTİN DULKARLAR
BEBEK: TRAMVAY DURAĞI
KARŞISINDA N. 300

الورقة الأخيرة من نسخة « الظاهرى »



كتبت فى سنة ١١٣٧ برسم خزانة الملك المولى إسمعيل (١٠٧٢ — ١١٣٩) أحد ملوك الدولة العلوية القائمة الآن بالمغرب الأقصى ؛ خطها مغربى يقرب فى قاعدته إلى الخط المسنَد المعروف اليوم بالمغرب ، وقد كان الناسخ من السرعة فى كتابتها بحيث أصبح الاعتماد عليها عند الاختلاف فى الفروق الخطية الدقيقة قليل الجدوى ؛ وهى أخت نسخة « الظاهرى » ، والفروق الشكلية الطفيفة ليست من العُمق بحيث تخرج هذه النسخة من زمرة النسخ المتوسطة . وقد رجعت إليها كثيراً . ورمزت لها عند الاستفادة منها بحرف « ش » .

(ح) **نسخة حسن حسنى باشا عبد الوهاب** : [١٢٧ ق ، ٢٢٢ × ١٦٧ م ، س ٣٦ . كتبت سنة ١٣٠٤] .

وقد تكرم سعادة حسن حسنى عبد الوهاب باشا التونسى فأهدانى مخطوطته الخاصة ، وهى تتبع هذه الطائفة ، ولا تختلف عن سابقتيها إلا فيما يفترق فيه النساخ من تصحيف لا يذهب بصفات النسخة الجوهرية .

ولم أعتمد عليها فى تصحيح النص ، لأنها وصلتنى من تونس بعد أن تجاوز الطبع نهاية النسخ المتوسطة ، غير أنها مثل صالح من هذه المجموعة المتوسطة ، وقد دلتنى فاتحتُها على أنها ونسخة نور عثمانية [رقم ٣٠٦٧ من ورقة ١٧٧ — ٢١٤ . ٣٢ × ٢١] ، قد صَدَرتا معا عن أصل واحد .

على أننى ، وإن لم أعتمد عليها ، لا أجد من الكلمات ما يفى بشكر سعادة حسن باشا عبد الوهاب على عونه العلمى النبيل .

النسخ القديمة

(ا) **النسخة الأزهرية** : [٦٧٢٩ تاريخ أباظة — ٢٤ ق (٢٠٣ظ ـ ٢٤٧)] كتبها أحمد بن يوسف بن محمد بن تركى الشافعى الأزهرى سنة ١٢٧٠ ،

وهى أصلٌ للنسخة التى طبعت فى بولاق ، تقع فى آخر الجزء السابع من المخطوط ، وقد قرأها المرحوم الشيخ نصر الهورينى فعلّق عليها تعليقات بخطه ، لا تخرج عن تفسير لغوى ، أو تعريف تاريخى بشخص مرَّ ذكره مُعرَّفاً به فى صُلْب التاريخ .

ولم يُحسِن ناسخها قراءة الأصل الذى نقَل عنه فحرَّف ، وترك مواضع كلمات بيضاء حيث لم يقرأها فى أصلها . ومن هنا كانت النسخة المطبوعة صورة مماثلة لهذه المخطوطة .

والنسخة الأزهرية من النسخ القديمة ، فهى أوجز من المجموعة المتوسطة المذكورة قبلها ، تنقص عنها بعض التفاصيل ؛ وقد أشرت فى الحواشى إلى الزيادات التى تضيفها النسخ المتوسطة ولا توجد فى الأصل القديم .

وحينما عدت إلى هذه النسخة أشرت إليها بحرف « ز » ، ووصلتُ بينها ، وبين فرعها المطبوع ، فكان حرف « ب » رمزاً للمطبوعة فى بولاق .

(ب) نسخة طلعت : [٢١٠٦ تاريخ من ورقة ١٦٠ ظ — ١٩٦ و] .

والنسخة المحفوظة بمكتبة المرحوم أحمد بك طلعت كتبت فى سنة ١١٨١ بخط مغربىّ سقيم ، وهى أخت للأزهرية ، وليس يفرق بينهما إلا ما يفترق فيه النساخ المحرِّفون . وحينما أثبت نتائج المقارنة بينها وبين غيرها من النسخ ، رمزت إليها بحرف « ط » .

(حـ ، ى) نسختا « و » ، « هـ » :

وهناك نسختان بدار الكتب المصرية لم أعتمد عليهما ، غير أنه يحسن التنبيه على أن مكانهما فى هذه المجموعات هو هذا ، فهما معًا يشبهان الأزهرية ، ونسخة طلعت .

أما نسخة « د » فقد كتبت فى سنة ١٢٥٤ هـ بخط نسخ واضح ، وتقع تحت [رقم ٥٣٤٣ تاريخ ، (٢١٥ ظ — ٢٦٢ و) ، ٣٢٧ × ٢٣٠ م ، س ٢٧] .

وأما نسخة « هـ » ، وهى مثل سابقتها ، فتقع تحت رقم [١٨٥ تاريخ ، (٩٠ و — ١٣١ ظ) ق ، ٣٣٢ × ٢٢٨ م ، س ٢٩] خطها واضح جميل جدا ، وقد كتبت فى أواخر القرن ١٣ .

اسم الكتاب

وهذا الكتاب ، منذ عرف جزءاً تابع لتاريخ ابن خلدون ، وما كان يفصله عن بقية أبواب الكتاب إلا عنوانه الذى ينقلك من موضوع تمَّ فيه الحديث إلى آخر جديد ، وكان عنوانه : « التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب » ، ولم تكن أداة الإشارة « هذا » إلا نداء مُدوِّيا يرغمك على الاعتراف بتبعية هذا الكتاب لبقية « التاريخ » .

وظل العنوان بهذه الصورة حتى بعد أن رحل ابن خلدون إلى الأندلس مرتين ، ثم ارتحل إلى مصر والحجاز والشام ، وأصبح ما جَدَّ من تجاربه فى رَحَلاته الجديدة جزءا من حياته ، يجب أن يدوِّنه ، وأن يضيفه إلى ما كان قد سجَّله قبلُ ففعَل ، وعظُم حجم الكتاب بما أضيف إليه من جديد الأخبار ، ولم يكن العنوان السالف الذكر من السَّعة والمرونة بحيث يشمل هذا الجديد الطارئ ، دون أن يَدخُل فى صوغه تعديل تتَّضح معه الدلالة على مباحثِ الكتاب ؛ فحذف ابن خلدون أداة الإشارة « هـذا » ، التى كانت واضحة الدلالة على تبعية هذا الجزء لكتاب « العبر » ، وأضاف إلى بقية العنوان الكلمات : « ورِحلته غرباً وشرقاً » ، فكمَلَت بذلك الصياغة الأخيرة للعنوان ، وأصبح : « التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب ، ورحلته غرباً وشرقاً » .

ويلاحظ فيه ، وهو بصيغته الحالية ، عنصران بارزان : «التعريف» بالمؤلف : و « رحلته » ، وكل منهما دال على معنى واضح فى الكتاب .

وتداول المؤرِّخون من بعد ابن خلدون كتابه هذا ، وكانت النسخُ التى تقع

تقع تحت أيديهم مختلفة ، بعضها قديم واقع فى آخر كتاب التاريخ تابع له ، وهو فى هذه الحالة لم يتغير عنوانه بعد ، وليس بين كلمات عنوانه ما يدل على معناه غير كلمة « التعريف » ، فلم تكن لهم مندوحة عن تسميته عند النقل عنه بـ « التعريف » ، وهى تسمية دعاهم إليها أن كلمة « التعريف » وتحت دلالتها على معنى الكتاب ، فكانت أحقّ من أخواتها بالاختيار .

أما البقية من النُّسخ ، فقد كانت حديثة الصدور عن المؤلف ، عدَّل فى عنوانها ، فأصبح من بين كلماته ما يصلح للدلالة على الكتاب وهو قوله : « ورحلته غرباً وشرقاً » ، فاختار الذين نقلوا عن هذه المجموعة من النسخ أن يسمُّوا هذا الكتاب « رحلة » لابن خلدون ، وكان لهذه التسمية حظٌّ غير قليل من الذيوع فى العصر الأخير على الرغم من أنها تسمية لم تعرف — فيما أعلم — قبل سنة ١٠٠٥ هـ ؛ فقد نقل عنه أحمد بابا السودانى فى كتابه « نيل الابتهاج بتطريز الديباج[1] » على أنه « رحلة » لابن خلدون . وفى سنة ١٠٠٦ هـ كان العالم التركى أويس بن محمد المعروف بـ « ويسى » (٩٦٩ — ١٠٦٧ هـ) متولياً لخطة القضاء برشيد وغيرها فى مصر ، وزار القاهرة فاشترى من مخطوطاتها واستعار ، وكان مما تملّكه « مقدمةُ » ابن خلدون ، ونسخةٌ من هذا الكتاب — وكل واحدة منهما كانت نسخة المؤلف[2] — فكَتَب على ظهر الورقة الأولى من هذا الكتاب : « كتاب رحلة ابن خلدون بخطه ، رحمه الله تعالى »[3] .

---

(١) انظر ص ٢٤٨ من نيل الابتهاج طبع مصر سنة ١٣٥١ هـ .

(٢) من الكتب التى استعارها ديوان عبد الله بن الدمينة وقد كتب على ظهر الورقة الأولى منه : «استعاره العبد المحتاج إلى الله سبحانه ويسى ، من خازن كتب «القبة المنصورية» بمدينة القاهرة فى سنة ١٠٠٦ . رحم الله امرأً أوصله إليها إن لم يسمحنى الزمان بإيصاله ، والحمد لله والصلاة على محمد وآله » .

ولم يرد الكتاب إلى مكانه ، بل نقل إلى الآستانة ، وهو الآن محفوظ بمكتبة « رئيس الكتاب » تحت رقم ١/٩٥٠ .

واانظر ترجمة ويسى المذكور فى « عثمانلى مؤلفلرى » ٢/٤٧٧ .

(٣) ليست هذه النسخة بخط المؤلف ، وإنما كتب على بعض حواشيها الحاقات بخطه ، وانظر ص «ط» حيث ذكر وصفها .

وسجّل واضعو فهرس مكتبة « أياصوفيا » نسخة ويسى المذكورة باسم « رحلة ابن خلدون » ، ثم نُقِلت عنها نسخة أخرى ووضعت فى مكتبة « أسعد أفندى » فسميت أيضاً « رحلة ابن خلدون » ؛ وعُرِفت فهارس الآستانة بين العلماء ، فنقلوا عنها فيما كتبوه عن تراث ابن خلدون — أن من بين آثاره الفكرية « رحلتَه » .

وهذه التطورات التى مَرّت بها صيغةُ العنوان ، قد أدّت أخيراً إلى نوع من الارتباك فى اسم هذا الكتاب ، ثم فى ماهيته ؛ فحينما تحدّث العلاّمة المستشرق كارل بروكلمن فى كتابه «تاريخ الأدب العربى » عن مراجع ترجمة ابن خلدون ، أحال على ترجمته الذاتية « Autobiographie » التى تقع فى آخر الجزء السابع من «العبر» ، وأحال على «الرحلة» المحفوظة فى مكتبة « أسعد أفندى» ، ثم على « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقا » ، المحفوظ بدار الكتب المصرية ، والمجهول المؤلف ؟[1] .

ووضع هذه المراجع بهذه الصورة لا يدلُّ على شىء أكثر من أن مدلولات هذه الأسماء فى ذهن العلامة بروكلمن متعدِّدة ، وأن هذه الأسماء تقع على مسميات مختلفة .

* * *

والكتاب — وقد وضحت أصوله ، وثبتت صلته بالمؤلف ، وعرف اسمه — نص كتب باللغة العربية الفصحى ، ولهذه اللغة سَنَن تجرى عليه ، وليس يملك الكاتب بها أن يَعدُوَه ، أو يتجاهل ما منعه هذا السنَن أو أباحَه .

فما الذى يجب أن نفعلَ إذا مازلت بالكاتب القدم ، فأخطأ — فى

---

(١) Brock. S. II 342

والعذر للرجل ما ذكرته من تغير العنوان مع الزمن ، ثم عدم وضوح عبارة « فهرس دار الكتب المصرية » .

كتابته — جادة متن اللغة ، أو اشتقاقها ، أو أخطأ فى الإعراب ؟

أنملك أن نُعدِّلَ فى النص ، ونثبتَه على حسَب ما تُقرِّره القواعد ؟ وأين الحصَانة التى تتمتع بها نصوص المؤلفين حينذاك ؟

والجواب — عندى — نعم نملك ذلك !

نملك ذلك ما دام المؤلِّف قد اختار أن يكتب باللغة الفصيحة ، وتَقَيَّدَ بقواعدها الصارمة ، وما دمنا على يقين من أن مخالفته لهذه القواعد لامنفذ فى مواطن اختلافها يبيح قبولها أو الإغضاء عنها بوجه .

ولنا السَّنَد المتين فيما قرره المحدِّثون — منذ القديم البعيد — فى الحديث تثبت روايته عندهم ، وفيه مخالفة لوضع من أوضاع اللغة[1] .

والمؤلفون أنفسهم أذنوا فى هذا النوع من التصَرّف ، ولم يعدُّوه افتياتا على نصوصهم .

ولو أن المؤلف حيٌّ ، وراجعَه قارئ من قرائه فيما وقع له فى كتابه من مخالفات لأوضاع اللغة التى يكتب بها ، أكان يصرُّ على خطائه الذى لايقبل التأويل ؟ أم إنه كان يسارع إلى الاعتذار ، ثم إلى إقامة ما كان قد أخطأ فيه ؟

ولقد أثبت فى هذه الحالة النص فى الصلب على ما اقتضته قوانين اللُّغة ، وأثبته فى الحاشية على الصورة التى أورده عليها المؤلف ، وقصدت بذلك أن يكون النص بالحالة التى وصل بها إلينا عن المؤلف ، واضح الدلالة على مَدَى معرفته باللغة ، وتمثُّله لقواعدها ، وأن نحس بالمقدار الذى امتصه الجزء الخارج عن بُؤرة التفكير ، من نشاط عقل ابن خلدون ، حينما كتب هذا النص أو قرأه .

وأحسَب أن من الواجبات الأولى على قارئ هذه المخطوطات التى يَتَيَسَّر

---

(١) انظر « تدريب الراوى » ص ١٦٤ — ١٦٥ .

فيها وصلُها بمؤلفيها أن يُعنى بمقدار التركز الذهنى للمؤلف حين تأليفه لـكتابه أو قراءته له .

* * *

والـكتاب — إلى ما تقدم — يحوى حقائق تاريخية ، قال التاريخ فيها كلمته ، وعلمية انتهى العلم قبل المؤلف من تقريرها على وجهٍ مّا فى المظانّ الأولى لها ، ولم تعد موطنا للمناقشة .

ومعنى هذا أننا لا نستطيع أن نُخرج من حسابنا الرقابة التى تفرضها المقررات التاريخية والعلمية على ما يورده المؤلف من هذه الحقائق فى كتابه ؛ ومن هنا جاءت ضرورة استشارة كتب هذا النوع من المعلومات ، والاستعانة بها فى التنبيه على ما انحرف فيه المؤلف عن الصراط المستقيم . ولو استُفسِر المؤلف أيضا عن سبب خِلافه للذى خرج عن ميدان الاختلاف بين العلماء ، لأقرَّ ما نصَّ عليه سابقوه واستقرت كلمتهم عليه .

والحديث هنا لا يتناول بطبيعة الحال ما خالف فيه المؤلف غيره مخالفة مقصودة دفَعه إليها وجه من وجوه النظر ، فإن هذا رأيه ليس مما يباح فيه التبديل والتغيير ، وإنما الحديث عن المخالفة التى تقوم الدلائل القوية على أنها جاءت عفواً لم يكن للقصد فيها مجال .

ولم أهمل — فى هذا النوع — ما أورده المؤلف ، بل أثبته فى الحاشية للعلة التى سبق الحديث عنها .

* * *

إلى هنا والحديث لم يعدُ محاولة إقرار النّص على الصورة التى يريد مؤلفه أن يتداولَه الناس عليها .

وقد عارضتُه بأصوله المباشرة ، وهى تتمثل فى مجموعات تنتسب إلى أصـول قديمة الصدور عن المؤلف ، ومتوسطة ، وحديثة ؛ وغير المباشرة ، وهى كتب

التراجم والتاريخ وغيرها مما نقل عنها ابن خَلدون أو نقلت عنه ، أو تناولت ما تناوله من موضوعات .

***

أما الشروح والتعليقات التي أثبتُّها في حواشي الكتاب ، فهي نوافل وزيادات تعبّر — في أغلب الأحيان — عن خبرة خاصة بمقاصد المؤلِّف أو موضوع الكتاب .

والكتاب — كما قدمت — مفتاح أول للذي يريد التعرف على ابن خلدون ، وقد رسم لنفسه فيه صورة لم تَخْلَ — لأسباب مختلفة — في عين معاصريه بمصر ، فصنَعوا له صورة تختلف عما قاله عن نفسه أشدَّ الاختلاف .

وهنا تبدو الحاجة الملحَّةُ إلى نوع من العناية خاص ، يُقصَد فيه الوقوفُ عند مواطن الاختلاف هذه ، التي اعتُبرت فيما بعدُ منافذَ واسعة تسرَّبت منها ألوانٌ من النقد شملت الكثير من نواحي حياة ابن خَلدون ، بل كادت — بما اتسعت — أن تمسَّ الثقة بما يرويه .

ولذلك عرضتُ ما يقوله ابن خَلدون في هذا الكتاب ، على كتب أخرى تناولت الموضوع نفسه بالحديث ، وأثبتُّ نَصَّها من غير تصرف فيه ليؤيِّد رواية ابن خلدون أو ينقُضَها ، وبذلك أصبح مصدر الحكم لابن خلدون أو عليه غير بعيد عن متناول الناقد النزيه .

***

وذكر ابن خلدون أمكنة مرَّ بها وشاهدها حينا ، ولمناسبات غير ذلك أحياناً أخرى ، فوجب تحديد هذه الأماكن .

وإذا أبحنا لأنفسنا — وكان يجب أن لا نفعل — أن نكتفي — عند إخراج كتب لا تتوقف الاستفادة منها على الدقة في التحديد — بالدلالة العابرة والإشارة السريعة الناقصة ؛ حيث إن أسماء البلاد بتلك الكتب جاءت بطريق

العَرَض ، ولم تُقصَد بالذكر لذاتها — أقول : إذا استبحنا ذلك فى إخراج تلك الكتب — وفى طبيعتها ما يبرر الاكتفاء باللمحة — فإنه لا يصح لنا ذلك بحالة من الأحوال فى هذا النوع من الكتب التى تذكر فيها الأمكنة والبلدان ذكراً ذاتيا تلمح فيه النظرة الفاحصة المستقصية .

وحيث إن البلاد وأسماءها معا ، تعرضت — بفعل الزمن — للتغيّر ، فقد حاولتُ — قدر جهدى — أن أذكر بجانب الاسم العربى للمكان ، اسمه الذى يكتب بجانبه — على المصوّرات الجغرافيــة — بالحروف اللاتينية ، وأن أضع إزاءه كذلك خطه الطولى والعرضى محدَّداً بالدرجات والدقائق — حاولتُ ذلك رغبة فى أن يتضح المكان للقارئ وضوحا لا يشوبه غموض ؛ وهى محاولة كان دون تحقيقها — كما قال الأول — خرط القتاد .

ولا أجرؤ على دعوى أننى حققت المنهج من ألفِه إلى يائه ، فقد عجزت عن تحديد أمكنة — مرت بى — على الطريق الذى حاولت أن ألزم به نفسى ، فاكتفيت بتحديد « ياقوت » — لا أجرؤ على قول ذلك ، ولكننى أزعم أن كثيرا من الأماكن التى ذكرت فى هذا الكتاب أمكن تحديدها بحيث يستطاع وضع اليد على مكانها اليوم بالمصوّرات الجغرافية الحديثة .

***

وذكر ابن خلدون — فيما ذكر فى كتابه — شيوخَه الذين تخرَّج على أيديهم ، وحلاَّهم بحُلًى كانت ، عند تقديرها ، موضعَ الريبة والشك يوم تناول ابنَ خلدونَ النَّقدُ الحديث .

وقد أحسستُ أن علىّ تجاه ذلك أن أعرض رأىَ ابن خلدون فى شيوخه ، وتقديره لهم ، على كتب التراجم والطبقات ، وأن أزن ما أورده فيهم — بالذى يورده غيره ؛ فإذا ما خالفَه أتيت بالنصّ المخالف ، وأشرت إلى موضع الترجمة المخالفة ، أما حين يوافقه غيره ، فقد اكتفيت بالدلالة على موضع الترجمة .

وأحب أن أقول هنا: إنه ، مِن بين هذه المراجع جميعا ، لم يخالف رأى ابن خلدون — فيا علمت — فى الحلَى التى خلعها على شيوخه من تزكية ، وتفوق وبلوغ الدرجات العُلَى فى فرع الثقافة الإسلامية التى اختص كل منهم بإتقانه ، أقول لم يخالفه فى ذلك إلا شخص واحد ، وفى مسألة واحدة ، على أن كثيرا من العلماء نظر إلى المسألة ذاتها بالعين التى كان ينظر إليها بها ابن خلدون .

والمسألة هى : « هل كان لناصر الدين المشدّالى بَصَرٌ بعلم الحديث أوْ لا ؟ قال ابن خلدون — وقد روى عنه الموطأ — : نعم ! وقال العلامة الرحالة العبدرى فى رحلته : لا !

والذى يعرف سعة اطلاع العبدرى ، وموهبة النقد النافذ التى كان يتمتع بها — لا يسعه إلا أن يضع رأيه — على الرغم من انفراده به — موضع التقدير .

***

والذين تحدثوا عن ابن الخطيب — رحمه الله — قالوا إنه كان مولعا — فى كتابته — بالإشارة إلى مسائل تاريخية وعلميـة ، وأنه كان مغرما بالتورية بمصطلحات العلوم التى كان يعرفها ، وما أوسع ما كان يعرفه ابن الخطيب من العلوم ! وقد أورد له ابن خلدون فى هذا الكتاب رسائل ، وضَح فيها شغفه باستخدام هذه المصطلحات ، وإشارته إلى حقائق تاريخية ، ومقررات علمية ، إشاراتٍ عابرةً لا يكاد يتكشَّف المراد منها دون استفتاء مصادرها الأولى ، وفى ذلك الجهد البالغ والمشقة المضنية .

وقد وجدتُنى ملزما بتحديد موضع الإشارة من بين حوادث التاريخ ، وشرح الكلمة التى لها معنى خاصٌّ حَدَّده أقوام من العلماء مُعَيَّنُون ، فأصبحوا المرجع الأساسى عند تحديد معنى الكلمة الجديد ، ثم علىَّ بعد ذلك دلالةُ القارئْ على موطن التفسير .

ومن هنا طالت الشروح فى بعض المواطن وما أردتها أن تطول ، ولكنه ابن الخطيب يغذِّى أدبه برواسب ثقافته الإسـلامية المتشعبة الفروع ، فإذا

ما أردت أن تعود بها إلى مواطنها الأولى حيث يَتَّضِح لك وجهُ الدلالة منها ، كان عليك الاستعداد لطواف حول العدد الكثير من مجلدات هذه الثقافة ، غيرِ مريح . وما أكثر ما ضَلِلتُ السبيل فظلت الكلمات مبهمة المعنى ، غير واضحة المراد !

أما الفهارس فما أحدثت فيها جديداً يدعو إلى الإرشاد والتنبيه ، إلا أن حصولى على نسختى المؤلف جعلنى أُعنَى بالأعلام التى ضبطها فيهما بقلمه ، حيث إن ضبطها توقيفى لا يخضع لقانون ؛ وقد وضعتها فى فهرس خاص بها مرتبة على حروف المعجم [1].

وما أحب أن أنهى هذه الكلمة دون أن أعترف بالجميل لأشخاص كان لهم الفضل الكبير فى ظهور هذا الكتاب :

معالى الدكتور طه حسين باشا ، حيث شمل عملى فى ابن خلدون بعطفه وتشجيعه ، وكان لمعاليه فى هذا الكتاب موقف كريم لن أنساه .

والأستاذ الجليل أحمد بك أمين الذى كان هذا الكتاب موضع رعايته منذ بدء عملى فيه ، ولقد تكرم بتقرير طبع هذا الكتاب فى «لجنة التأليف» على نفقتها .

وأستاذى العلامة الثبت أمين بك الخولى الذى كان لملاحظاته القيمة على منهج عملى فى ابن خلدون فوائد ذات أثر بعيد .

فإليهم جميعا أرفع شكرى واعترافى بالجميل .

و بعد فقد بذلت من جهدى ما استطعت ، فإن وفقت فمن فضل الله ولىّ العون كان ذلك التوفيق ، و إن كانت الأخرى — وما أظننى بمنجاة منها — فحسبى أن أنالَ أجرَ ما اجتهدت فيه .

القاهرة فى { ٦ رجب سنة ١٣٧٠ هـ / ١٢ ابريل سنة ١٩٥١ م }

محمد بن تاويت الطنجى

---

(١) أرجو أن يلاحظ أن الرقم الموضوع بين قوسين فى الفهارس يدل على أن للعلم ترجمة عند هذا الرقم .



[بسم الله الرحمن الرحيم]

[١٢] التّعريف بابن خَلدون مؤلف الكتاب ورحلته غربا وشرقا(١)

وأصل هـذا البيت من إشبيلية ؛ انتقل سلفُنا — عند الجلاء وغَلَبِ مَلِكِ الجلالِقة ابن أُذفُونش عليها — إلى تُونس فى أواسط المائة السابعة .　٥

نسبه :

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد ابن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خَلدون(٢) . لا أذكر من نسَبِي إلى خَلدون غير هؤلاء العشرة ، ويغلب على الظن أنهم أكثر ، وأنه سقط مثلُهم عددا ؛ لأنَّ خَلدون هـذا هو الداخل إلى الأندلس ، فإن كان أولَ الفتح فالمدَّة لهذا العَهد سبعُمائة سنة ، فيكونون زُهاء العشرين ؛ ثلاثةً لـكل مائة ، كما تقدم فى أول الـكتاب الأول(٣) .　١٠

وَنَسَبُنا فى حَضْرَمَوت ، من عَرَب اليمن ، إلى وائل بن حُجْر ، من أقيال العَرب ، معْروفٌ وله صُحبة . قال أبُو محمد بن حَزْم(٤) فى كتاب الجمهرة : وهو وائل

[٤] ط ب ز « أصل » — « سلفنا » ساقطة من ش ز ط ب [١٠] ط « للأندلس » [١١] ش « فيكون » .

(١) ختم ابن خلدون الجزء الأخير من تاريخه بالتعريف بنفسه ، وقد ورد عنوان هذا التعريف فى النسختين ش ط بهذه الصيغة ، وفى النسختين ب ز : « مؤلف هذا الـكتاب » . وقد استخدم المؤلف العنوان نفسه هنا ، وأضاف بخطه قوله : « ورحلته غربا وشرقا » .

(٢) بفتح الخاء كما ضبطه بخطه بالقلم مرارا ، وكما نص عليه السخاوى فى الضوء اللامع ١٤٥/٤ ، وأحمد بابا التُّنبُكتى فى نيل الابتهاج ص ١٦٩ .

(٣) انظر المقدمة ص ٨٤ طبع بولاق . حيث قدر أعمار الدول .

(٤) هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهرى القرطبى (٣٨٤ — ٤٥٦) انظر الإحاطة ص ١٤٢ (مخطوط دار الـكتب المصرية) وتذكرة الحفاظ ٣٢١/٣ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمن ٤٠٠/١ ، والملحق ٦٩٤/١ .

ابن حُجْر بن سعيد[١] بن مَسْروق بن وائل بن النُّعمان بن ربيعة بن الحارث
ابن عَوف بن سعد بن عوف بن عديّ بن مالك بن شُرَحْبيل بن الحارث
ابن مالك بن مُرَّة بن حِمْيَري بن زيد بن الحَضْرَميّ بن عمرو بن عبد الله
[ابن هانئ،[٢]] بن عوف بن جُرشم بن عبد شمس بن زيد بن لأي بن شَبْت[٣]
ابن قُدامة بن أعجَب بن مالك بن لأي بن قحطان . وابنُه عَلقَمة[٤] بن وائل
وعبد الجبَّار بن وائل[٥] .

وذكره أبو عُمر بن عبد البَرّ في[٦] حرف الوَاو من « الاستيعاب » ، وأنَّه
وفد[٧] على النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فبسَطَ له رداءه ، وأجلسه عليه ، وقال :
« اللهم بارك في وائل بن حُجْر وولده وولد ولده إلى يوم القيامة » .

١٠ وبعث معه معاويةَ بن أبي سُفيان إلى قومه يعلِّمهم القرآنَ والإسلامَ ،

---

[٣] ز ، الجمهرة ت « عمر » [٤] الجمهرة ت « جوشم » — ابن عساكر « شيب » ، تهذيب التهذيب « شبيب » ، الجمهرة « شيت » ، ش « شميت »

---

(١) ما ذكره ابن خلدون في نسب جدّه وائل عن الجمهرة (١١١ ب) هو أحد قولين ذكرهما معاً ابن عساكر ، والمزّي . وقد خلط ابن حجر في الإصابة وتهذيب التهذيب بين القولين فجاء ما كتبه مشوها غير متلائم . انظر المزّي (ورقة ٢٢٨ و) وابن عساكر ج ١٤٨/٤٥ .

(٢) الزيادة عن الجمهرة ، وابن عساكر ، والمزّي .

(٣) قيدها بخطه بفتح الشين وسكون الباء الموحدة بعدها مثناة فوقية .

(٤) ترجمته في المزّي ورقة ٤٧٧ ظ ، تهذيب التهذيب ٢٨٠/٧ .

(٥) في الأصل والجمهرة وش ط ز « وعبد الجبار بن علقمة بن وائل » وهو خطأ والتصحيح عن المزّي ورقة ٣٨٣ و ، وتهذيب التهذيب ١٠٥/٦ .

(٦) هو الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البرّ النمري القرطبي (٣٦٨ — ٤٦٣) . نفح الطيب ١١٩/١ ، ١٢٣ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمن ٣٦٧/١ والملحق ٦٢٨/١ .

(٧) انظر قصة وفادته على النبي (ص) « عام الوفود » في القسم الثاني من الجزء الثاني من تاريخ ابن خلدون ص ٥٦ .

فكانت له بذلك صحابة مع معاوية ، ووفد عليه لأول خلافته وأجازه ، فردَّ عليه جائزته ولم يقبلها .

ولما كانت واقعة[1] حُجْر بن عَدِيّ الكندى بالكوفة ، اجتمع رءوس أهل اليمن ، وفيهم وائل هذا ، فكانوا مع زياد[2] بن أبى سُفيان عليه ، حتّى أوثقوه وجاءوا به إلى مُعاوية ، فقتله كما هو معروف . ٥

قال ابن حزم[3] ويُذكَر بنو خَلدون الإشْبِيليُّون من ولده ، وجَدُّهم الداخل من الشَّرق خالد المعروف بخَلدون بن عثمان بن هانئ بن الخطاب بن كُرَيْب[4] ابن مَعْدِيكَرِب بن الحارث بن وائل بن حُجْر

[٢ ب] قال : وكان من عَقِبه كُرَيْب بن عثمان / بن خَلدون وأخوه خالد ، وكانا من أعظم ثوار الأندلس . ١٠

قال ابن حَزم : وأخوه محمّد كان من عَقِبه أبو العاصى عمرو بن محمد ابن خالد بن محمّد بن خَلدون .

و بنو أبى العاصى : محمّدُ ، وأحمد ، وعبد الله . قَال : — وأخوهم عثمان ، وله عقِب . ومنهم الحكيم المشهور بالأندلس من تلاميذ مَسْلَمَة المَجْريطى[5] ؛

---

[١] ز ط « فكان » ز ط « فأجازه » . [٦] ز ط « وقال » [٧] ط « المعرق »
[٩] سقط من ط قوله « قال وكان ... الأندلس » — ش « وكان من ولده » [١٣] ش « وآخرهم » .

---

(١) ذكرت هذه الواقعة مفصلة فى كتاب الأغانى ١٦/٢ — ١١ (بولاق) .

(٢) هو زياد بن أبى سفيان ، ويقال ابن أبيه ؛ أخو معاوية بن أبى سفيان . ولد عام الفتح بالطائف ، وتوفى بالكوفة عام ٥٣ هـ . انظر المعارف ص ١٥١ .

(٣) انظر جمهرة الأنساب لوحة ١١١ ب .

(٤) قيده بخطه بضم الكاف وفتح الراء .

(٥) هو أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطى . فلكى راصد ، له تآليف فى الفلك والفلسفة والسحر والكيمياء . انظر طبقات الأمم لصاعد ص ٦٩ ، وعيون الأنباء ٣٩/٢ وأخبار الحكماء ص ٣٢٦ .

وهو أبو مُسلم عمر بن محمد[1] بن يَقِيّ بن عبد الله بن بكر بن خالد بن عثمان ابن خالد بن عثمان بن خَلدون الدّاخل . وابن عمه أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد ابن عبد الله . قال : ولم يبق من ولد كُرَيب الرئيس المذْكور إلا أبو الفضل ابن محمد بن خَلَف بن أحمد بن عبد الله بن كُرَيْب — انتهى كلام ابن حَزم .

• سلفه بالأندلس :

ولمّا دخل خَلدون بن عُثمان جدُّنا إلى الأَندلس ، نزل بِقَرْمُونَة[2] فى رَهط من قومه حَضْرَمَوت ، ونَشَأَ بيتُ بَنيه بِها ، ثم انتقلوا إلى إِشْبِيلِيَة[3] . وكانوا فى جُند اليَمَن ، وكان لكُرَيْب من عقبِهِ وأخيه خالد ، الثورةُ المعروفةُ بأشبيلية أيام الأَمير عبد الله المروانى[4] ؛ ثار على ابن أبى عَبْدة ، وملكها من يَده أعواما . ثم ثار عليه إبراهيم بن حجّاج ، بإملاءِ الأمير عبد الله وقَتله ، وذلك فى أواخر المائة الثالثة .

---

[١] ز ط « تقى » — ز ط « بن أبى بكر » — لم يتكرر فى ز ط « بن خالد بن عثمان » .

---

(١) فى عيون الأنباء (٢/٤١) ، وطبقات صاعد (ص ٧١) : « عمر بن أحمد بن خلدون » . وابن خلدون هذا هو أحد أشراف إشبيلية ، وكان فيلسوفا مهندسا طبيبا . توفى سنة ٤٤٩ هـ . وقد أخطأ الأستاذ قدرى حافظ طوقان فى « تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك » ص ١٣٤ حيث حسبه عبد الرحمن بن خلدون صاحب المقدمة ، ولم يلتفت إلى الفارق الزمنى الفسيح بين وفاتى الرجلين (٣٥٩ سنة) .

(٢) قرمونة (Carmona عرضها الشمالى ٢٦ — ٣٧° وطولها الشرقى ٤٥′ — ٥°) بفتح القاف وسكون الراء وتحريكها ، بعدها ميم مضمومة فنون مفتوحة بعد واو ساكنة : مدينة بالأندلس . ياقوت ٧/٧٢ تاج العروس ٩/٢٣ الروض المعطار ص ١٥٨ .

(٣) إشبيلية (Sevilla أو Seville عرضها الشمالى ٢٤ — ٣٧° وطولها الغربى ٥′ — ٦°) عاصمة بنى عباد من ملوك الطوائف بالأندلس . ياقوت ١/٢٠٤ تاج العروس ٧/٣٨٦ الروض المعطار ص ١٨ .

(٤) هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأموى سابع الخلفاء من بنى أمية بالأندلس (٢٧٠ — ٣٠٠) انظر تاريخ ابن خلدون ٣/١٣٧ .

وتلخيص الخبر عن ثورته[1] ، على ما نقله ابن سَعيد[2] عن الحِجَارى[3] وابن حَيَّان[4] وغيرهما ، وينقلونَهُ عن ابن الأشعث مؤَرخ إشبيلية : أن الأَندلس لما اضطربت بالفتن أيام الأمير عبد الله تطاول رؤساء إشبيلية إلى الثّورة والاستبداد ، وكان رؤَساؤها المتطاولون إلى ذلك فى ثلاثة بيوت : بيت بَنى أبى عَبْدَة ، ورئيسهم يومئذ أُمَيَّة بن عبد الغافر بن أبى عَبْدَة ، وكان عبدُ ٥ الرحمن الداخل ولَّى أبا عبـدة إشبيلية وأعمالها ، وكان حَافدُه أُمَيةُ من أعلام الدولة بقرطبة ، ويولونه الممالك الضخمة . وبيت بنى خَلدون هؤلاء ، ورئيسُهم كُرَيْب المذْكور ، ويَردفه أخوه خالد .

قال ابن حَيَّان : وبيت بنى خَلدون إلى الآن فى إشبيلية نهاية فى النَّباهة ، ولم تَزل أعلامُه بين رياسة سلطانية ورياسة علمية . ١٠

ثم بيت بنى حجّاج ، وَرَئيسهم يومئذ عبد الله . قال ابن حَيَّان : هم — يعنى

---

[٥] ز ط «بيت أبى عبدة» ، وفى العبر ١٣٥/٤ «ابن أبى عبدة» . [٧] «هؤلاء» ساقطة من ط .

---

(١) تفصيل خبر هذه الثورة فى تاريخ ابن خلدون ١٣٥/٤ .

(٢) على بن موسى بن سـعيد العنسى الغرناطى (٦١٠ — ٦٧٣) صاحب كتابى « المغرب » و « المشرق » وغيرهما . يعتمد عليه ابن خلدون كثيرا فى النسب والتاريخ . ترجمته فى فوات ابن شاكر ١١٢/٢ ، نفح الطيب ٦٣٤/١ — ٧٠٧ ، ٥٣٤/٢ — ٥٣٧ حسن المحاضرة ١١٢/١ .

(٣) أبو محمد عبـد الله بن ابراهيم الحجارى (نسبة إلى وادى الحجارة) الصنهاجى من أهل القرن السابع ألف كتاب « المسهب فى غرائب المغرب » ابتدأ فيه من فتح الأندلس وانتهى إلى سنة ٦٣٠ ، انظر نفح الطيب ٤٨٣/١ ، ٤٠٦/٢ .

(٤) أبو مروان حيان بن خلف بن حسـين بن حيان القرطبى (٣٧٧ — ٤٦٩) مؤرخ الأندلس بلا جدال . له كتاب « المتين » فى التاريخ ، و«المقتبس» فى تاريخ الأندلس، وكتاب « معرفة الصحابة » . (وفيات ٢١٠/١ ، ذخيرة ابن بسام المجلد الثانى من القسم الأول ص ٨٤ ، الإعلان بالتوبيخ ص ١٢٣ .

بنى حجّاج — من لَخْم ، وبيتُهم إلى الآن فى إشبيلية ثابِتَ الأصل ، نَابت الفرع ، موسوم بالرياسة السلطانية والعلمية . فلما عظمت الفتنة بالأندلس أعوامَ الثمانين والمائتين ، وكان الأمير عبد الله قد ولَّى على إشبيلية أُمَيَّة بن عبد الغافر ، وَ بعَثَ معه ابنَه محمدا ، وجعله فى كفالته ، فاجتمع هؤلاء النَّفَر ، وثارُوا بمحمَّد بن

٥ الأمير عبد الله وبأمية صاحبهم ، وهو يمالئهم على ذلك ، ويكيد / بابن [١٣] الأمير عبد الله ، وحاصروهما فى القَصْر ، حتَّى طلب منهم اللّحاق بأبيه فأخرجوه ، واستبدَّ أُمية بإشبيلية ، ودَسَّ على عبد الله بن حجّاج من قَتَله ، وأقام أخاه إبراهيمَ مكانه ، وضبط إشبيلية ، واسترهنَ أولادَ بَنِى خَلدون وبنى حجّاج ، ثم ثاروا به ، وهمَّ بقتل أبنائهم ، فراجَعوا طاعتَه ، وحلفوا له ، فأطلق أبناءهم

١٠ فانتقضوا ثانيــة ، وحاربوه فاستَمات وقَتَل حُرَمه ، وعَقَر خُيولَه ، وأحرق موجودَه ، وقاتَلهم حتى قَتَلوه مقبِلاً غيرَ مدبر ، وعاثت العامَّة فى رأسه ، وكتبوا إلى الأمير عبد الله بأنه خَلَع فقتَلوه ، فقبل منهم مداراة ، وبعث عليهم هشامَ بن عبد الرحمن من قَرابته ، فاستبدُّوا عليه ، وفتكوا بابنه ، وتولَّى كِبر ذَلك كُرَيْب بن خَلدون ، واستقلَّ بإمارتها .

١٥ وكان إبراهيم بن حجّاج بعد ما قُتِل أخوه عبدُ الله — على ما ذَكَرَهُ ابن سَعيد عن الحِجَارى — سَمَت نفسُه إلى التَّفَرد ، فظاهر ابْنَ حَفصُون[1] أعظم

---

[١] ز ط « هو من لخم » وسقط قوله « يعنى بنى حجاج » من ط ش ز [٩] ط « وجعلوا له » [١٦] ط « سمت نفسه » فى الأصل فصاهر . والمثبت عن ط ؛ لأنه الصَّواب .

---

(١) هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن أذفونش القس . أول ثائر بالأندلس ، وهو الذى افتتح الخلاف بها ، وفارق الجماعة أيام محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٧٠ . وتوفى سنة ٣٠٦ وانظر ثورته فى تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٣٤ وما بعدها .

ثوار الأندلس يومئذ، وكان بمَالَقَة[1] وأعمالها إلى رُنْدَة[2]، فكان له منه ردْء.
ثم انصرف إلى مُداراة كُرَيْب بن خَلدون وملابسته، فَردَفه في أمره، وشركه
في سلطانه، وكان في كُرَيب تحامل على الرَّعية وتعصُّب، فكان يتجهَّم لهم،
ويغلظ عليهم، وابن حَجَّاج يَسْلك بهم الرفق والتلطف في الشفاعة لهم عنده،
فانحرفوا عن كُريب إلى إبراهيم، ثم دسَّ إلى الأمير عبد الله يطلب منه الكتاب ٥
بولاية إشبيلية، لتسكن إليه العامَّة، فكتب إليه العهدَ بذلك، وأطلع عليه عُرَفاءَ
البلد، مع ما أشربوا من حُبِّه، والنَّفرة عن كُرَيب، ثم أجمع الثورة، وهاجت
العامة بكُرَيْب فقتلوه، و بعث برأسه إلى الامير عبد الله، واستقرَّ بإمارة إشبيلية.

قال ابن حَيَّان: وحَصَّن مدينة قَرمُونَة من أعظم معاقل الأندلس، وجعلها
مُرْتَبَطا لخيوله، وكان ينتقل بينها و بين إشبيلية، واتخذ الُجند ورتَّبهم طبقات، ١٠
وكان يصانع الأميرَ عبد الله بالأموال والهَدايا، و يبعث إليه المَدَدَ في الصَّوائف[3]،
وكان مقصودا مُمَدَّحا، قصده أهل البيوتات فوصلهم، ومَدَحَهُ الشعراء فأجازَهم،
وانتجعه أبو عمر بن عبد ربِّه صاحب العِقد[4]، وقصدَهُ من بين سائر الثوار،
فعرَفَ حقه، وأعظم جائزَتَهُ

---

[٥] في العبر ٤/١٣٦ «دس للأمير» [٧ — ٨] سقط من ز «عن كريب ... برأسه» [١٣] سقط من ط «فأجازهم وانتجعه» وفي ز «ومدحه الشعراء، ومدحه أبو عمر»

---

(١) مالقة (Malaga) عرضها الشمالي ٤٥′ — ٣٦°. وطولها الغربي ١٠′ — ٦°) بفتح اللام والقاف مدينة معروفة من مدن الأندلس الساحلية. ياقوت ٧/٣٦٧. الروض المطار ص ١٧٧.

(٢) رندة (Ronda) عرضها الشمالي ٤٥′ — ٣٦° وطولها الشرقي ١٠′ — ٥°) بضم فسكون فدال مفتوحة مدينة شهيرة بالأندلس. ياقوت ٤/٢٩٣. الروض ص ٧٩.

(٣) الصوائف جمع صائفة وهي غزوات المسلمين إلى بلاد الروم. سميت صوائف لأنهم كانوا يغزون صيفا تفاديا من شدة البرد والثلج (تاج العروس).

(٤) أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي (٢٤٦ — ٣٢٨) صاحب كتاب العقد الفريد ترجمته في الوفيات ١/٣٩ اليتيمة ١/٤١٢ معجم ياقوت ٢/٦٧.

وَلَمْ يزل بيت بنى خَلدون بإشبيلية — كما ذكَرَهُ ابن حَيّان وابنُ حَزْم وغيرُهما — سائرَ أيام بنى أمية إلى أزمان الطّوائف[1]/، وانمّحت عنهم الإمارة [٣ب] بما ذهب لهم من الشوكة .

ولما علا كعبُ ابن عبّاد[2] بإشبيلية ، واستبدّ على أهلها ، استوزر من بنى خَلدون هؤلاء ، واستعملهم فى رُتَب دولته ، وحضروا معه وقعة الزّلّاقة[3] كانت لابن عبّاد وليوسف بن تاشِفين[4] على مَلِكِ الجلالقة ، فاستشهد فيها طائفةٌ كبيرة من بنى خَلدون هؤلاء ، ثبتوا فى الجولة مع ابن عبّاد ، فاستُلحِموا فى ذلك الموقف . ثم كان الظهور للمسلمين ، ونصَرهم الله على عدوّهم . ثم تغلب يوسف بن تاشِفين والمُرابِطُون على الأندلس ، واضمحلّت دولةُ العَرَب وفَنِيَتْ قبائلُهم . ١٠

سلفه بإفريقية :

ولما استولى الموحّدون[5] على الأندلس ، وملكوها من يد المرابطين ، وكان

[١] ش « ذكر » . [٢] ز ش « زمان » [٤] ز ط « غلب ابن عباد » [٥] ز « وقعة الجلالقة » والمعروف تسميتها بوقعة الزّلاقة . [٧] سقطت « كبيرة » من ز ط .

(١) يبتدئ عصر ملوك الطوائف بالأندلس بنهاية الخلافة الأموية ، وينتهى بغلبة يوسف ابن تاشفين المرابطى عليهم جميعا ، واستيلائه على الأندلس . انظر تاريخ ابن خلدون ١٥٦/٤ وما بعدها .

(٢) أبو القاسم المعتمد محمد بن المعتضد بن عباد (٤٣١ — ٤٨٨) أكبر ملوك الطوائف بالأندلس ترجمته فى : الوفيات ٣٦/٣ . المعجب ص٦٣ ؛ نفح الطيب ٤٦٩/٢ تاريخ ابن خلدون ١٥٦/٤ وما بعدها .

(٣) وقعة الزلاقة هذه من المعارك ذات الأثر البعيد فى الحياة الإسلامية بالأندلس ، ولذلك أكثر المؤرخون من الحديث عنها . انظر مثلا نفح الطيب ٥٢٣/٢ والوفيات ٤٠/٢، ٤٨٣ ، والروض المعطار ص ٨٣ — ٩٥ ، الاستقصا ١ / ١١١ — ١١٩.

(٤) انظر ترجمة يوسف بن تاشفين (٤١٠ — ٥٠٠) فى الوفيات ٤٨١/٢ .

(٥) تبتدئ دولة الموحدين بالمغرب سنة ٥١٤ على يد مهدى الموحدين محمد بن تومرت وتنتهى سنة ٦٦٨ هـ . وامتد سلطانها إلى الأندلس من سنة ٥٤٠ — ٦٠٩ هـ تقريبا انظر جذوة الاقتباس ص ٩٧ — وتاريخ أبى الفداء ٢٤٣/٢ .

ملوكُهم : عبدَ المؤمن وبنيه ، وكان الشّيخ أبو حَفص كبير هِنتَاتَةَ زعيم دولتهم[1] ، وولّوه على إشبيلية وغَربِ الأندلس مرارا ، ثم ولوا ابنَه عبد الواحد عليها فى بعض أيامهم ، ثم ابنَـه أبا زكرياء كذلك ، فـكان لِسَلَفِنَا بإشبيلية اتصالٌ بهم ، وَأهدَى بعضُ أجدادنا من قِبَل الأمهات ، ويُعْرَف بابن المُحْتَسِب ، للأمير أبى زكرياء[2] يحيى بن عبد الواحد بن أبى حَفص أيام ولايته عليهم ، ٥ جاريةً من سَبْى الجَلالِقَة ، اتخذها أمَّ وَلَد ، وكان له منها ابنُه أبو يحيى زكريا ولىُّ عهده الهالك فى أيامه ، وأخواه : عُمر وأبو بكر ، وكانت تُلقَّب أمَّ الخلفاء . ثم انتقل الأمير أبو زكرياء إلى ولاية إفريقية سِنِى العشرين والستمائة ، ودعا لنفسه بها ، وخلع دعوة بنى عبد المؤمن سَنَةَ خَمسٍ وعشرين ، واستبدَّ بإفريقية ، وانتقضت دولة الموحدين بالأندلُس ، وثار عليهم ابنُ هُود[3] ، ثم هلك واضطربت الأندلُس ، ١٠ وتكالب الطّاغية عليها ، وردَّدَ الغزْوَ إلى الفرُنْتيرَة[4] هى بسيطِ قرطبة وإشبيلية إلى

---

[٤] ز ط « ويعرف بالمحتسب » [٦] ز سقط « له » ، ز ط « أبا زكريا يحيى »
[٨] ز « سنة العشرين والستمائة » [١١] ز « وتردد »

---

(١) هو أبو حفص عمر بن يحيى بن محمد الهنتاتى ، أول التابعين لمهدى الموحدين من بين قومه ، والمختص بصحابته ، ومن هنا انتظم فى سلك العشرة السابقين إلى دعوة ابن تومرت . وكان يسمى بين الموحدين بالشيخ . وإلى أبى حفص هذا تنتسب الدولة الحفصية بإفريقية . وليس صحيحا ما يتوهم من أنه من ذرية أبى حفص عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين ، انظر ابن خلدون ٦/٢٧٥ ، ٢٦٧ ، ٢٢٧ ، والمعجب للمراكشى ص ١٢٥ .

(٢) هو الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد الحفصى . ملك جل إفريقية ، وبايعه أهل الأندلس ، وأمّله أهل شرق الأندلس لصد هجوم مَلِكَىْ أرغون وقشتالة ، فأوفدوا إليه كاتب ابن مرذنيش أبا عبد الله ابن الأبار ، فأنشده القصيدة السينية المشهورة :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السّبيل إلى منجاتها دَرَسَا

انظر صبح الأعشى ٥/١٢٧ وابن خلدون ٦/٢٨١ وأزهار الرياض ٣/٢٠٥ وما بعدها

(٣) محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن هود الجذامى . انظر أخبار ثورته فى تاريخ ابن خلدون ٤/١٦٨ .

(٤) الفرنتيرة هى : بسيطة قرطبة وإشبيلية وطليطلة وجيان ، آخذة من جوف (شمال) الجزيرة من المغرب إلى المشرق (ابن خلدون ٤/١٧٩) .

جَيّان[1]، وثار ابن الأحمر بغَرب الأندلس من حصن أرْجُونَة[2]، يرجو التماسُك لما بقى من رمَق الأندلس ، وفاوضَ أهل الشُورَى يومئذ بإشبيلية ، وهم بنو الباجى ، و بنو الجدّ ، و بنو الوزير ، و بنو سَيِّدِ النَّاس ، وَبنو خَلدون ، ودَاخلهم فى الثوْرَة على ابن هُود ، وأن يتجافوا للطاغية عن الفرُنْتِيَرة ، و يتمسَّكوا بالجبال

٥ الساحلية وَأمصَارها المتوعِّرة ، مِن مالَقَة إلى غَرناطة[3] إلى المَرِيَّة[4] ، فلم يوافقوه على بَلَدِهم .

وكان مقدَّمَهم أبو مروان الباجى/ ، فنابذَهم ابنُ الأحمر وخلع طاعة الباجى ، [١٤ وَتابَعَ مَرَّة لابن هُود ، ومَرَّة لصَاحب مراكش[5] من بنى عبد المؤمن ، ومرةً للأمير أبى زكرياء صاحب إفريقيــة ، ونزل غرناطة ، واتّخذها دارا للملكِ ،

١٠ وبقيت الفرُنْتِيَرةُ وأمصارها ضاحِيةً من ظلِّ المُلك ، فخشى بنو خَلدون سُوء

---

[١] ز ط « من غرب » [٢] سقط من ز ط « رمق » [٩] ز ط « ونازل » ، ز « دار ملكه » .

---

(١) جيان (Jaen عرضها الشمالى ٤٩′ — ٣٧° ، وطولها الغربى ٤٦′ — ٣°) بفتح الجيم وتشديد الياء المفتوحة المثناة من تحت ، ثم ألف ونون . صبح الأعشى ٥/٢٢٩ ، الروض المعطار ص ٧٠ ، ياقوت ٣/١٨٥ .

(٢) أرجونة (Arjona عرضها الشمالى ٥٢′ — ٣٧° ، وطولها الشرقى ٦′ — ٤° تقريبا) بفتح فسكون فجيم مضمومة بعدها واو ساكنة ثم نون مفتوحة بعدها هاء التانيث . ياقوت ١/١٨١ ، الروض المعطار ص ١٢ .

(٣) ويقال أغرناطة (Granada عرضها الشمالى ١٠′ — ٣٧° ، وطولها الغربى ٣٢′ — ٣°) ياقوت ٦/٢٧٩ . الروض المعطار ص ٢٣ :

(٤) المرية (Almeria عرضها الشمالى ٥١′ — ٣٦° ، وطولها الغربى ٣٠′ — ٢°) مدينة ساحلية بجنوب شرق الأندلس . ياقوت ٧/٤٢ ، الروض المعطار ص ١٨٣ .

(٥) (Marrakesh) بالفتح ثم التشديد وضم الكاف : مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى ، اختطها يوسف بن تاشفين فى حدود سنة ٤٧٠ ، وكانت عاصمة دولة الموحدين . عرضها الشمالى ٣٥′ — ٣١° ، وطولها الغربى ٠′ — ٨° . ياقوت ٨/٧ .

العاقبة مع الطاغية ، وارتحلوا من إشبيلية إلى العُدوة ، ونزلوا سَبتة[1] ، وأجْلبَ الطاغية على تلك الثغور ، فملك قُرْطُبَة[2] ، و إشبيلِيَة ، وقَرْمُونة وجَيَّان وما إليها ، في مدة عشرين سنة . ولما نزل بنو خَلدون سَبتة أصهر إليهم العَزَفيّ[3] بأبنائه و بناته ، فاختلط بهم ، وكان لَهُ معهم صِهرٌ مذكور ، وكان جدُّنا الحسن بن محمد ، وهو سبط ابن المحْتَسِب ، قد أجاز فيمن أجاز معهم ، فذكر سوابقَ سَلفه عند الأمير ٥
أبي زكرياء ، فقصَدَه ، وقدم عليه فأكرم قدومه ، وارتحل إلى المشرق ، فقضى فَرْضَه ، ثم رجع ولحق بالأمير أبي زكرياء على بُونَة[4] ، فأكرمه ، واستقرَّ في ظلّ دولته ، ومَرعى نِعمته ، وفَرَضَ له الأرزاق ، وأقطع الإقطاع ، وهَلَكَ هنالك ، فدفن ببُونة ، وخلَّف ابنَه محمدا أبا بكر ، فنشأ في جوّ تلك النعمة ومرعَاها ، وهلك الأمير أبو زكرياء ببُونةَ سنة سبع وأربعين ، وَوَلِيَ ابنُه المستَنصر محمَّد ، فأجرى ١٠
جَدَّنا أبا بكر على ما كان لأبيه ، ثم ضرب الدهر ضَرَبانَه ، وهَلَكَ المستنصر سَنة خمسٍ وسبْعِين ، وَوَلِيَ ابنُه يحيى ، وجاء أخوه الأمير أبو إسْحقَ من الأندلس ،

---

[١] ط « من الطاغيـة » . ، سقط من ز ط « إلى العدوة » ، ط « بسبتة »
[٣] ز ط « بسبتة » [٥] ز « أجاز اليهم » [٦ — ٧] سقط من ز قوله « وارتحل ... فأكرمه » [٩ — ١٠] سقط من ز ط قوله « وخلف ابنه ... ببونة » ، ز « المنتصر »

---

(١) سبتة (Ceuta) بفتح السين وسكون الباء ، عرضها الشمالي ٥٥′ — ٣٥° ، وطولها الغربي ٢٠′ — ٥° ؛ مدينة ساحلية من مدن المغرب الأقصى ، لها الماضي المجيد في الثقافة الإسلامية ، ياقوت ٥/٢٦ تاج العروس ١/٢٩٥ أزهار الرياض ١/٢٩ — ٣٧ .

(٢) قرطبة (Cordoba عرضها الشمالي ٥٠′ — ٣٧° ، وطولها الغربي ٥٠′ — ٤°) مدينة مشهورة بالأندلس ، كانت مستقر الخلافة أيام الأمويين ، ولها المكان الأول في تاريخ الحضارة الإسلامية في الغرب الإسلامي . ياقوت ٧/٥٣ — ٥٥ الروض المعطار ص١٥٣ — ١٥٨ .

(٣) انظر أخبار بني العَـزَفيّ في تاريخ ابن خلدون ٦/٣٤٣ ، ٧/١٨٦ ، ٢٢٨ ، ٢٤٦ .

(٤) بونة (Bona أو Boune) ، وتسمى بلد العُنَّاب (عنابة) بضم الباء بعدها واو ساكنة ثم نون مفتوحة : مدينة بالجزائر على ساحل البحر الأبيض عرضها الشمالي ٠٠′ — ٣٧° وطولها الشرقي ٤٢′ — ٧° . ياقوت ١/٣١٠ تاج العروس ٩/١٤٩ ، ٥/١٠٦ .

بعد أن كان فرّ إليها أمام أخيه المستنصر ، فخلع يحيى ، واستقلّ هو بملك إفريقية ، ودفع جدّنا أبا بكر محمدا إلى عمل الأشغال في الدّولة ، على سَنَن عظماء الموحّدين فيها قبلَه ؛ من الانفراد بولاية العمال ، وعزلهم وحُسبانهم ، على الجباية ، فاضطلع بتلك الرُّتبة ، ثم عقد السّلطان أبو إسحقَ لابنه محمّد ، وهو جدُّنا الأقرب ، على حجابة ولى عَهْدِهِ ابنه أبِي فارس أيامَ أقصاه إلى بِجَايَة[1] . ثم استعفى جَدُّنا من ذلك فأعفاه ، ورَجَع إلى الحضرة . ولما غلب الدّعىُّ ابنُ أبي عمارة[2] على ملكهم بتُونِس ، اعتَقَل جدّنا أبا بَكر محمدا ، وصادره على الأموال ، ثمّ قتله خنقا فى محبِسِه ، وذهب ابنه محمد جَدُّنا الأقرب مع السلطان أبى إسحق وأبنائه إلى بجَاية ، فقبض عليه ابنُه أبو فارس ، وخرج فى العساكر هو وإخوتُه لمدافعة الدّعِىّ ابن أبى عمارة ، وهو يشبّه بالفضل ابن المخلوع ، حتى إذا استلحموا بمَرْمَاجَنَّة[3] خلص جَدُّنا محمد مع أبى حفص/ابن الأمير أبى زكرياء من الملحمة ، [٤ ب] ومعهما الفازَازى وأبو الحسين ابن سَيِّد الناس ، فلحقوا بمَنْجاتهم من قلعة سِنَان .

---

[٢] ز « على عمل » [٥] ز « أيام أن أقصاه » [٨] ش « بمحبسه » . [٩] ز ط « فتقبّض » — ز « مع العساكر » [١٠] ط « شبيه » [١٢] ش « الفزازى » ، ش ز ط « الحسن » ، سقط من ز ط قوله « فلحقوا ... سيد الناس »

---

(١) بجاية (Bougie) بكسر الباء ، وتخفيف الجيم المفتوحة ، ثم ياء مفتوحة بعد ألف ، وتسمى الناصرية نسبة إلى بانيها الناصر بن علناس بن حمّاد بن زيرى الصنهاجى — بناها فى حدود سنة ٤٥٧ : مدينة بالجزائر تقع على ساحل البحر الأبيض وكانت قاعدة المغرب الأوسط . عرضها الشمالى ٥٠′ — ٣٦° وطولها الشرقى ٠٠′ — ٥° . ياقوت ٦٢/٢ ، تاج العروس ٣١/١٠ .

(٢) هو أحمد بن مرزوق بن أبى عمارة من بيوتات بجاية الطارئين عليها من المسيلة . انظر تاريخ ابن خلدون ٢٩٦/٦ ، ٣٠٢ ، والإحاطة ١٧٤/١ ، صبح الأعشى ١٢٨/٥ .

(٣) (Marmajena) بفتح الميم وسكون الراء (وفى ضبط ابن خلدون بتشديد الراء المفتوحة) وفتح الميم ثم ألف بعدها جيم مفتوحة ، فنون مشددة مفتوحة : قرية بإفريقية لقبيلة هوارة البربرية ، تقع فى الشمال الغربى لمدينة تبسّه ، وفى شرق قلعة سنان . ياقوت ٢٩/٨ .

وكان الفازازى من صنائع المولى أبى حفص ، وكان يؤثره عليهم . فأما أبو الحسين ابن سَيِّد الناس فاستنكف من إيثار الفازازى عليه ، بما كان أعلى رتبة منه ببَلده إشبيلية ، ولحق بالمولى أبى زكرياء الأوسط بتِلِمْسان[1] ، وكان من شأنه ماذكرناه . وأما محمد بن خَلدون فأقام مع الأمير أبى حفص ، وسكن لإيثار الفازازى . ولما استولى أبو حفص على الأمر رعى له سابقته ، وأقطعه ، ونظمه فى جملة القواد ٥ ومراتب أهل الحروب ، واستكفى به فى الكثير من أهل ملكه ، ورشحه لحجابته من بعد الفازازى ، وهلك ، فكان من بعده حافدُ أخيه المستَنصرِ أبو عَصيدة ، واصطفى لحجابته محمد بن إبراهيم الدَّبَّاغ كاتب الفازازى ، وجعل محمد بن خَلدون رديفا له فى حجابته ، فكان كذلك إلى أن هلك السلطان ، وجاءت دولة الامير خالد ، فأبقاه على حاله من التجِلَّة والكرامة ، ولم يستعمله ولا عَقد له ، إلى أن ١٠ كانت دولة أبى يحيى بن اللحيانى ، فاصطنعه ، واستكفى به عند ما نَبضَت عروق التغلُّب للعرب ؛ ودفعه إلى حماية الجزيرة من دلاج[2] ، أحد بطون سُلَيم الموطنين بنواحيها ، فكانت له فى ذلك آثار مذكورة . ولما انقرضت دولة ابن اللحيانى خرج إلى المشرق ، وقضى فرضه سنة ثمان عشرة ، وأظهر التوبة والإقلاع ، وعاود الحج متَنَفِّلا سنة ثلاث وعشرين ، ولزم كِسْر بيته ، وأبقى السلطان أبو يحيى عليه ١٥ نعمتَه فى كثير مما كان بِيَدِهِ من الإقطاع والجراية ، ودعاه إلى حجَابته مرارا ، فامتنع .

[٢ — ٤] سقط من ز قوله « عليه بما ... لا يثار الفازازى » [٢] ط « ملله » [٣] ش « ذكرنا » [٤] ط « وتنكر » [٥] ز ط ش « على الأمور » [٦] ز ط « أمر ملكه » [٧] ز ط « المتنصر » [١٢] ز ط « من العرب » [١٤] ز « الفرق » .

---

(١) (Tlemcen) بكسرتين وسكون الميم وسين . وبعضهم يقول : تنسان ، بالنون عوض اللام : مدينة مشهورة بالمغرب عرضها الشمالى ٥١′ — ٣٤° ، وطولها الغربى ١٥′ — ١°

(٢) انظر بعض أخبار دلاج فى تاريخ ابن خلدون ٦/٧٣ ، ٧٥ .

أخبرنى محمد بن منصور بن مَزْنَى[1] ، قال : لما هلك الحاجب محمد
ابن عبد العزيز الكردى المعروف بالمِزْوَار ، سنة سبع وعشرين وسبعمائة ،
استدعى السلطان جَدَّكَ محمد بن خَلدون ، وأراده على الحجابة ، وأن يفوِّض إليه
فى أمره ، فأبى واستعفى ، فأعفاه ، وَوَامَرَهُ فيمن يوليه حجابته ، فأشار عليه
٥ بصاحب الثغر : بِجاية ، محمد بن أبى الحسين بن سَيِّد الناس ، لاستحقاقة ذلك
بكفايته واضطلاعه ، ولقديم صحابة بين سلفهما بتونس و بإشبيلية من قبل .
وقال له : هو أقدر على ذلك بمَا هو عليه من الحاشية والدَّوين[2] ، فعمل السلطان
على إشارته ، واستدعى ابن سَيِّد الناس ، وولّاه حجابتَه ، وكان السلطان
أبو يحيى إذا خرج من تُونس يستعمل جدنا محمدا عليها ، وثوقا بنَظَرِه واستنامةً
١٠ إليه ، إلى أن هلك سنة سبع وثلاثين ، ونزع ابنُه / وهو والدى محمد [١٥
أبو بكر ، عن طريقة السيف والخدمة ، إلى طريقة العلم والرِّباط ، لما نشأ عليها
فى حجر أبى عَبد الله الزُّبَيْدى[3] الشهير بالفقيه ، كان كبيرَ تونس لعهده ، فى
العلم والفُتيا ، وانتِحال طرق الولاية التى ورثها عن أبيه حُسين وعمه حَسن ،
الوليين الشهيرين . وكان جدنا رحمه الله قد لزمه من يوم نزوعه عن طريقه ،
١٥ وألزمه ابنَه ، وهو والدى رحمه الله ، فقرأ وتفقَّه ، وكان مقدَّما فى صناعة العربية ،
وله بصر بالشعر وفنونه ، عَهدى بأهل الأدب يتحاكمون إليه فيه ، ويعرضون

---

[٣] ط « يفوض إليه أمره » [٥] ز ط « ثغر بجاية » ، ش « الثغر ببجاية » .
ط ش ز « الحسن » [٧] فى الأصل « والدون » بالمهملة . [٩] سقط من ز ط
« واستنامة إليه » [١٠] ش « وهو والدك » [١١] ز ط « ابن أبى بكر » ، سقط من ز
« عن طريقه » [١٦] ز ط « أهل البلد »

---

(١) كان ابن مزنى هذا صديقا لابن خلدون . انظر العبر ٦/٣٣٨ .
(٢) الدَّوون : الأدنون الأخصّون . (لسان العرب) .
(٣) هو أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشى الزبيدى (بضم الزاى ، نسبة
إلى قرية بساحل المهدية) توفى عام ٧٤٠ هـ (انظر رحلة ابن بطوطة ص ٦) .

حَوْكِهم عليه ، وهلَكَ فى الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة

نشأته ومشيخته وحاله :

أما نشأتى فإنى وُلدت بتونس[1] فى غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، ورَبيتُ فى حجر والدى رحمه الله إلى أن أَيفعت وقرأْت القرآن العظيم على الأستاذ المكتِّب أبى عبد الله محمد بن سعد بن بُرّال[2] الأنصارى ، ٥
أصله من جالية الأندلس من أعمال بَلَنْسِية[3] ، أخذ عن مشيخة بَلَنسية وأعمالها ، وكان أماما فى القراآت ، لا يُلحَق شأوه ، وكان من أشهر شيوخه فى القراآت السبع أبو العباس أحمد بن محمد البَطَرْنى[4] ، ومشيختُه فيها ، وأسانيده معروفة .
وبعد أن استظهرت القرآن الكريم من حفظى ، قرأته عليه بالقراآت السبع المشهورة إفرادا وجمعا[5] فى إحدى وعشرين خَتْمة ، ثُم جمعتُها فى خَتْمةٍ ١٠

---

[١] سقط من ز ط « حوكهم » . [٢] سقط العنوان من زط . [٤] ز « أينعت »
[٥] سقط من ط « المكتِّب » [٧] سقط من زط « لا يلحق شأوه » [٩] زط « عن حفظى » .

---

(١) تونس (Tunis) عرضها الشمالى ٥٠ — ٣٦° وطولها الشرق ٣′ — ١٠°) بضم التاء فواو . والنون تضم وتفتح وتكسر ؛ عاصمة القطر التونسى اليوم . ياقوت ٤٣٢/٢ .

(٢) برال : بضم الباء الموحَّدة ، وفتح الراء المشددة ، هكذا قيده ابن خلدون بالقلم ، ومعاصره محمد بن ميمون البلوى الأندلسى بخطه بالقلم أيضا (انظر ١٣٥ مجاميع ورقة ١٠٠ ظ س ٥) مخطوط بدار الكتب . وقد ورد هذا العلم محرفا فى كثير من المراجع .

(٣) بلنسية (Valencia ، عرضها الشمالى ٣٠′ — ٣٩° وطولها الغربى ٣٠′ — ٠°) بفتح الباء واللاَّم ، ثم سين مكسورة تليها ياء مفتوحة مدنية شهيرة من مدن شرق الأندلس ياقوت ٢٩٧/٢ .

(٤) البطرنى ضبطه ابن خلدون بالقلم ، وابن ميمون البلوى ، بفتح الباء والطاء المهملة وراءٍ ساكنة بعدها نون ، نسبة إلى بطرنة (Paterna) من إقليم بلنسية بشرق الأندلس انظر كتاب البيان المغرب ٢٥٢/٣ .

(٥) الإفراد أن يُتلى القرآن كله أو جزء منه برواية واحدة لأحد القراء السبعة أو العشرة المشهورين ، والجمع أن يجمع القارىء عند قراءة القرآن كله أو جزء منه بين=

واحدةٍ أخرى ، ثم قرأت برواية يعقوب[1] ختمة واحدة جمعا بين الروايتَيْنِ عنه ؛ وعرضت عليه رحمه الله قصيدتَى الشاطبى[2] ؛ اللاَّمية فى القرآآت ، والرّائية فى الرَّسم ، وأخبرنى بهما عن الأستاذ أبى العبّاس البَطَرْنِى وغيره من شيوخه ؛ وعرضت عليه كتاب التَّقَصِّى لأحاديث الموطأ لابن عبد البَر ، حَذَا به حَذْو كتابه التَّمهيد[3] على الموطأ ، مقتصِرا على الأحاديث فَقَط .

٥

ودارَسْتُ عليه كتبا جَمّة ، مثل كتاب التَّسهِيل لابن مالك[4] ومختصر

---

[٢] زط « قصيدة » [٦] زط « ودرست » .

=روايتين فأكثر من الروايات السبع أو العشر المتواترة ، ويسمَّى بالجمع الكبير إن استوفى القارئ سبع قرآآت فأكثر ، وإلا سموه بالجمع الصغير . ولهم فى صفة الجمع وحكمه ، من إباحة وتحريم ، خلاف معروف تجده فى (غيث النفع ص ٨ — ١٠) .

(١) هو يعقوب بن إسحق بن زيد بن عبد الله الحضرمى البصرى (١١٧ — ٢٠٥) أحد القراء العشرة ، وله قراءة مشهورة عنه ، وهى إحدى القرآآت العشر ، وقد رويت عنه من طريقين : الأولى رواية محمد بن المتوكل المعروف برُوَيس (طبقات القراء ٢/٢٣٤) ، والثانية عن روح بن عبد المؤمن الهذلى (طبقات القراء ١/٢٨٥) . وإلى ما ذكر يشير ابن خلدون بقوله « جمعا بين الروايتين عنه » .

(٢) هو أبو القاسم ، ويكنى أبا محمد أيضا القاسم بن فيره (بكسر الفاء بعدها ياء آخر الحروف ساكنة ، ثم راء مشدَّدة مضمومة بعدها هاء) بن خلف بن أحمد الشاطبى الرعينى (٥٣٨ — ٥٩٠) رحل إلى المشرق ، ودخل القاهرة ، وبها بمدرسة القاضى الفاضل ، نظم قصيدتَيْه اللامية التى عرفت بالشاطبية ، وبحرز الأمانى ، والرائية التى تعرف بالعقيلة . (طبقات القراء ٢/٢٠ ، سبكى طبقات ٤/٢٩٧ ديباج ص ٢٢٤) .

(٣) كتاب التمهيد ، لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد ، شرح على الموطأ ، رتبه على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم . بدار الكتب الظاهرية بدمشق ، وبدار الكتب المصرية أجزاء مخطوطة منه . وأما كتاب التقصى فقد طبعته مكتبة القدسى سنة ١٣٥٠ بالقاهرة .

(٤) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسى الجيانى النَّحوى المشهور (٦٠٠ — ٦٧٢) وكتابه تسهيل الفوائد جمع — فى إيجاز — قواعد النحو ، ولذلك عنى به أعلام النحو قراءة وشرحا وإقراء . وقد طبع بمكة سنة ١٣١٩ هـ . مرآة الجنان ٤/١٧٢ ، طبقات السبكى ٥/٢٨ نفح الطيب ١/٤٢٧ بغية الوعاة ٥٣ .

ابن الحاجب(١) فى الفقه ، ولم أُكلهما بالحفظ ، وفى خلال ذلك تعلّمت صناعة العربية على والدى ، وعلى أُستاذِى تُونس . منهم الشيخ أبو عبد الله محمد ابن العربى الحَصَايرى ، وكان إماما فى النحو وله شرحٌ مُستَوفى على كتاب التّسهيل . ومنهم : أبو عبد الله محمد بن الشّوّاش الزَّرْزَالى . ومنهم أبو العباس أحمد بن القَصَّار ؛ كان مُمْتِعا فى صناعة النحو ، وله شرح على قصيدة البُرْدة المشهورة ٥ فى مدح الجناب النبوى ، وهو حى لهذا العهد بتُونِس / . [٥ ب]

ومنهم : إمام العربية والأدب بتُونِس ، أبو عبد الله محمد بن بَحْرٍ ؛ لازمت مجلسَه ، وأفدت عليه ، وكان بحرا زاخرا فى علوم اللسان ، وأشار علىّ بحفظ الشعر ، فحفظت كتاب الأشعار الستة ، والحماسة للأعلم(٢) ، وشعر حَبِيب(٣) ، وطائفة من

[٣] ز « الحصايدى » ولعله تحريف [٤] ز ط « الزازى » ، وفى هامش جذوة الاقتباس ص ٢٦٣ « الزواوى » .

(١) عثمان بن عمر بن يونس المعروف بابن الحاجب جمال الدين المصرى (٥٧٠ — ٦٤٦) . له مختصر فى الفقه المالكى يسمّى المختصر الفِقهى ، والفَرعى ، والجامع بين الأمّهات . أدخله إلى المغرب عبد الرحمن بن سليمان البجائى (المتوفى سنة ٧٧٣ . أحمد بابا ص ١٦٨) وعُنِى بشرحه كثير من المغاربة ، كالقاضى ابن عبد السلام التونسى ، شيخ ابن خلدون ، وعيسى بن مسعود ابن منصور المنكلاتى . وفى دار الكتب أجزاء من الشرحين معاً . وشَرَحه من المصريين : الشيخ خليل المالكى وسمّى شرحه « التوضيح » ، وهو من مخطوطات دار الكتب أيضا .

ولابن الحاجب مختصر آخر فى أصول الفقه ، ويعرف عند القدماء بالمختصر الأصلى ، وهو اختصار لكتابه : « منتهى السول والأمل ، من عِلمَى الأصول والجدل » ، وذكره ابن خلدون فى آخر ترجمة الآبلى التى تأتى قريبا .

وقد تحدث ابن خلدون فى آخر فصل الفقه من مقدمته عن مختصر ابن الحاجب الفقهى ، وعن تاريخ دخوله إلى المغرب ، وأثره فى دراسة الفقه المالكى هناك ، وعمن شرحه من علماء المغرب ، وعناية الفقهاء المغاربة به — بما لا يدع مجالا للريبة . (انظر رأيا يخالف هذا فى فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص ١١ ، ١٢) .

[المنهل الصافى ٣٧١/٢ ، مرآة الجنان ١١٤/٤ ، حسن المحاضرة ٢١٥/١ ، وفيات ٣٩٥/١] .

(٢) يوسف بن سليمان بن عيسى النحوى الشنتمرى المعروف بالأعلم (٤١٠ — ٤٧٦) . [بغية الوعاة ٤٢٢ ، وفيات ٤٦٥/٢] .

(٣) حبيب بن أوس بن الحارث الطائى أبو تمام (١٩٠ — ٢٢٦) : شاعر غنى عن التعريف .

شعر المَتَنَبِّي[١] ، ومن أشعار كتاب الأغاني[٢] . ولازمتُ أيضا مجلس إمام المحدثين بتُونس ؛ شمس الدين أبي عبـد الله محمد بن جابر بن سُلطان القَيْسى الوَادِيَاشى[٣] ، صاحب الرِّحلتين ؛ وسمعت عليه كتاب مُسلم بن الحَجَّاج ، إلا فَوْتا يسيرا من كتاب الصَّيد ؛ وسمعت عليه كتاب المُوَطَّأ من أوله إلى آخره ، وبعضا من الأُمهات الخمس ؛ وناولنى[٤] كتبا كثيرة فى العربية والفقه ، ٥

[٢ — ٣] ما بين كلمتى « جابر » و « صاحب » ساقط من ز ط [٣ — ٤] سقط من ز ط « مسلم . . . . الصيد » ، وسقط من ز « مسلم . . . . كتاب »

---

(١) أحمد بن الحسين بن عبد الصَّمَد الجُعْفى الكندى الكوفى الشاعر المعروف (٣٠٣ — ٣٥٤) وفيات ١/٤٤ .

(٢) ليس بعيدا أن يكون ابن خلدون قد قرأ كتاب الأغانى ، وحفظ منه بعض أشعاره ؛ فقد كان الكتاب فى مكتبة الناصر الأموى بالأندلس ، وَمَلَكَ منه أبو بكر بن زُهر نسخة ، وهو ما يزال فى ربيع الشباب ، وحكى عن أبيه أن ابن عبدون كان من محفوظاته كتاب الأغانى ، وقد نقل عنه السُّهيلى فى الروض الأنف مرات كثيرة . وإذن فتداول كتاب الأغانى بين العلماء ، والحفظ من أشعاره ، كان متعارفا بين القوم منذ الزمن البعيد ، ولم يكن ابن خلدون بحيث يعجز عن امتلاك الأغانى ، أو رؤيته ، والاستفادة منه ، وقد تقلّب فى المناصب العليا لدول متعددة هناك . على أن الرجل قد نقل من كتاب الأغانى فى تاريخه نصوصا طويلة نجدها فى الصفحات ١٩ ، ٢٤٠ — ٢٤١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ — ٢٧٦ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ — من الجزء الثانى . وقد جاء فى مقدمته فى : « فصل فى أن نهاية الحَسَب فى العقب الواحد أربعة آباء » نصٌّ نقله عن الأغانى ، يدل على أنه رأى الكتاب ، واستفاد منه فى إسناد نظرياته وتقريرها فى المقدمة .

فلا محل للريبة أيضا فى قوله عند تقدير كتاب الأغانى فى المقدمة ص ٤٨٥ طبع بولاق : « وهو الغاية التى يسمو إليها الأديب ، ويقف عندها ، وأنّى له بها » . (وفى فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص ١٢ رأى يخالف هذا) .

المعجب للمراكشى ص ٥٤ ، نفح الطيب ١/١٨٠ ، تاريخ ابن خلدون ٤/١٦٤ .

(٣) محمد بن جابر بن قاسم القيسى الوادي آشى التونسى ؛ شمس الدين أبو عبد الله . (٦٧٣ — ٧٤٩) رحل إلى المشرق مرتين ، ولذلك سماه ابن خلدون صاحب الرحلتين . ديباج ص ٣١١ ، الدرر الكامنة ٣ / ٤١٣ .

(٤) المناولة فى اصطلاح المحدثين : نوع من الإجازة ، وهى أن يدفع الشيخ لطالبه أصلَ سماعه ، أو فرعا مقابَلا بأصله ، ويقول له : قد أجزت لك فى روايته عنى (انظر كتب مصطلح الحديث) .

وأجازنى إجازة عامة ، وأخبرنى عن مشايخه المذكورين فى بَرْنَامَجِه ؛ أشهرُهم بتُونس قاضى الجماعة أبو العباس أحمد بن الغَمَّاز الخزرجى[1] .

وأخذت الفقه بتُونِس عن جَماعة ؛ منهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجَيَّانى ، وأبو القاسم محمد القصير ؛ قرأت عليه كتاب التَّهذيب لأبى سَعيد البَرَادِعى[2] ؛ مختصر المُدَوَّنة ، وكتاب المالكية ، وتفقَّهت عليه . وكنت فى ٥ خِلال ذلك أنتَابُ مجلس شيخنا الإمام ، قاضى الجماعة أبى عبد الله محمد بن عبد السلام[3] ، مع أخى محمد رَحمة الله عليهما ، وأفدت منه ، وسمعت عليه أثناء ذلك كتاب المُوَطَّأ للإمام مالك ، وكانت له فيه طرق عالية ، عن أبى محمد بن هارون الطائى[4] قبل اختلاطه — إلى غير هؤلاء من مَشْيَخة تُونس ، وكلّهم سمعت عليه ، وكتب لى ، وأجازنى ؛ ثم دَرَجوا كلُّهم فى الطاعون الجارف . ١٠

وكان قدم علينا فى جُمْلة السلطان أبى الحسن ، عند ما مَلَكَ إفريقية سنة ثمانٍ وأربعين ، جماعةٌ من أهل العلم ، كان يُلزِمهم شُهودَ مَجلسِه ويتجمَّل بمكانهم فيه .

فمنهم شيخ الفُتيا بالمغرب ، وإمام مذهب مالك ، أبو عبد الله محمد بن سليمان

---

[١] سقط من ز ط « فى برنامجه » [٧] ز ط « أخى عمر » وهو تحريف . [٨] ش «طريق» [١٤] فى الجذوة « محمد بن على بن سليمان »

---

(١) هو القاضى أحمد بن محمد بن الحسن بن الغماز البلنسى ، ثم التونسى (٦٠٩ — ٦٩٣). ديباج ص ٧٦ ، أحمد بابا ص ٦٤ ، عنوان الدراية ص ٧٠ ، رحلة العبدرى لوحة ١٢٨ ا (بمكتبة تيمور) ، المرقبة العليا ص ١٢٢ .

(٢) أبو سعيد خَلَفَ بن أبى القاسم الأزدى المعروف بالبرادعى ؛ من علماء القرن الرابع (ديباج ص ١١٢) .

(٣) محمد بن عبد السلام بن يوسف الهوارى ، التونسى ، القاضى ، يعرف بابن عبد السلام (٦٧٦ — ٧٤٩) . ديباج ص ٣٣٦ ، أحمد بابا ص ٢٤٢ ، المرقبة العليا للنُّبَّاهى ص ١٦١ .

(٤) انظر ترجمة لابن هارون فى مرآة الجنان ٤/٢٣٨ .

السَّطِّيّ (١) ؛ فكنت أنتابُ مجلسَه ، وأفدت عليه .

ومنهم كاتب السلطان أبي الحسن ، وصاحب عَلَامته التي توضع أسافل مكتوباته ، إمام المحدثين والنُّحاة بالمغرب أبو محمد بن عبد المُهَيمن بن عبد المُهَيمن الحَضْرمي (٢) ؛ لازمتُهُ ، وأخذت عنه ، سماعا ، و إجازة ، الأمهاتِ الستّ ، وكتاب المُوَطَّأ ، والسِّيَر لابن إسحق ، وكتاب ابن الصَّلاح في الحديث (٣) ، وكُتُبا كثيرة شَذَّت عن حِفظي . وكانت بضاعته في الحديث وافرة ، ونِحْلَتُهُ في التقييد والحفظ كاملة ، كانت له خزانة من الكتب تزيد على ثلاثة آلاف سفر ؛ في الحديث ، والفقه ، والعربية ، والأدب ، والمعقول ، وسائر الفنون ؛ مضبوطة كلها ، مقابَلة . ولا يخلو ديوان منها / عن ثَبَتٍ بخط بعض شيوخه المعروفين في سَنَده إلى مؤلفه ، [١٦]

١٠ حتى الفقه ، والعربية ، الغريبة الإسناد إلى مؤلفيها في هذه العصور .

ومنهم الشيخ أبو العبّاس أحمد الزَّوَاوِي (٤) ، إمام المقرئين بالمغرب . قرأتُ عليه القرآن العظيم ، بالجمع الكبير بين القرآت السبع ، من طريق أبي عَمرو الدَّاني (٥) ،

---

[٢] ز ط « توضع أسفل » [٣] سقط « والنحاة بالمغرب » من ز ط .
[٤] في الأصل « الستة » [٦ — ٧] سقط من ز ط قوله « وافرة . . . الحديث » .
[١١] ز ط « إمام المغرب » بدل « إمام المقرئين بالمغرب » [١٢] ش « بالقراءات » وسقط منها « بين »

---

(١) سيذكر ترجمة للسطي هذا فيما بعد .

(٢) انظر ترجمة عبد المهيمن الحضرمي هذا في جذوة الاقتباس ص ٢٧٩ ، نثير الجمان لابن الأحمر ص ٨٨ (مخطوطة خاصة) ، نفح الطيب ٣/٢٤٣ . وفي تاريخ ابن خلدون ٧/٢٤٧ — ٢٤٨ حديث عن بيت بني عبد المهيمن .

(٣) يريد مقدمة ابن الصلاح « علوم الحديث » .

(٤) أحمد بن محمد بن علي الزواوي . روى عن ابن رُشَيد الفهري ، وأخذ عن مشيخة فاس . كان حيا سنة ٧٤٨ . جذوة الاقتباس ص ٦٠ ، طبقات القراء ١/١٢٥ .

(٥) عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني ، نسبة إلى دانية : مدينة بشرق الأندلس ، (٣٧١ — ٤٤٤) له كتاب التيسير في القرآت السبع ، والمقنع في رسم المصحف وغيرهما .

طبقات القراء ١/٥٠٣ ، نفح الطيب ١/٣٨٦ .

وابن شُرَيْح[1] ، فى خَتْمةٍ لم أكملها ، وسمعت عليه عِدَّة كتب ، وأجازنى بالإجازة العامة .

ومنهم شيخ العلوم العقلية ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبِلِى[2] .

أصله من تِلِمْسان ، وبها نشأ ، وقرأ كتب التَّعاليم ، وحَذِق فيها ؛ وأظَلَّه الحِصَار الكبير بتِلِمْسان أعوام المائة السابعة ، فخرج منها ، وحجَّ ، ولقى أعلام ٥ المشرق يومئذ ، فلم يأخذ عنهم ؛ لأنه كان مختلطا بعارض عَرَض فى عقله ، ثم رجع من المشرق ، وأفاق ، وقرأ المنطق والأُصلين ، على الشيخ أبى موسى عيسى ابن الإمام ؛ وكان قرأ بتُونس ، مع أخيه أبى زيد عبد الرحمن ، على تَلاَميذ ابن زَيْتُون[3] الشهير الذكر ؛ وجاء إلى تِلِمْسان بعلم كثير من المعقول والمنقول ، فقرأ الآبلى على أبى موسى منهُما كما قلناه ، ثم خرج من تِلِمْسان هاربا إلى المغرب ، ١٠ لأن سلطانها يومئذ ، أبو حَمُّو من ولد يَغمَرَاسَنْ بن زَيَّان ، كان يُكرِهُه على التصرف فى أعماله ، وضبط الجباية بحُسبانه ، ففرَّ إلى المغرب ، ولحق بمرَّاكُش ، ولزم العالم الشهير أبا العباس بنَ البَنَّاء[4] الشهير الذكر ، فحصَّل عنه سائر العلوم

---

[١] سقط من ز ط « فى ختمة » [٨ — ٩] سقط من ز قوله « وكان ... الذكر » [٩] ش « بعلم كثيراً » [١٠] ش ز « كما قلنا » [١١] ز « أبو حمو يومئذ » ، ط « أبا حمو يومئذ » [١٣] ط « العالم الشهير الذكر ابن البناء » . وسقط من ز ما بين كلمتى « البناء » و « فحصل » .

---

(١) محمد بن شُرَيْح بن أحمد بن محمد أبو عبد الله الأشبيلى المقرئ (٣٨٨ — ٤٧٦) له كتاب الكافى وهو من مخطوطات مكتبة تيمور ، وكتاب التذكير . طبقات القراء ٢/١٥٣ .

(٢) الآبلى بمدة ، وموحدة مكسورة . وسيعيد ابن خلدون الحديث عنه مرة أخرى بأوسع مما هنا .

(٣) القاسم بن أبى بكر بن مسافر شهر بابن زيتون ، يكنى أبا القاسم (٦٢١ — ٦٩١) رحل إلى المشرق ، وأخذ عن علمائه ، ورجع إلى تونس ، فتولى بها الإفتاء والقضاء ؛ وهو أول من أظهر تآليف فخر الدين الرَّازى بتونس ، حيث كان يقرئها . (ديباج ص ٩٩ ، أحمد بابا ص ٢٢٢) .

(٤) أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدى المراكشى (٦٥٤ — ٧٢٤) يعرف =

العَقلية ، وورِثَ مقامَه فيها وأرفع ، ثم صعِد إلى جبال الهَسَاكِرَة ، بعد وفاة الشيخ ، باستدعاء علىّ بن محمد بن تَرُومِيت ، ليقرأ عليه ، فأفاده ، وبعد أعوام استنزله مَلِكُ المغرب ، السلطانُ أبو سَعيد[1] ، وأسكنَه بالبلد الجديد ، والآ بِلِىّ مَعه .

ثم اختصّه السلطان أبو الحَسَن ، ونظمه فى جُمـلة العلماء بمَجلِسه ، وهو فى خِلال ذلك يُعلِّم العلوم العقلية ، وَيبُثُّها بين أهل المغرب ، حتى حَذِق فيها الكثير منهم من سائر أمصارها ، وألحق الأصاغرَ بالأكابرِ فى تعليمه . ٥

ولما قدم على تُونِس فى جملة السلطان أبى الحسن ، لزمته ، وأخذتُ عنه الأصلين ، والمنطق ، وسائر الفنون الحِكْمية ، والتّعليمية ؛ وكان رَحِمهُ الله ، يشهد لى بالتَّبريز فى ذلك .

١٠ ومن قدِم فى جُمْـلة السلطان أبى الحسن : صاحبُنا أبو القاسم عبدُ الله بن يوسف بن رِضوان المالَقِىّ[2] . كان يكتب عن السلطان ، ويلازم خِدمةَ أبى محمد عبد المُهَيْمن رئيس الكُتَّاب يومئذ ، وصاحب العَلاَمة التى توضَع عن السلطان أسفلَ المراسيم والمخاطبات ، وبعضها يضعُه / السلطان بخطّه . [٦ ب]

وكان ابن رِضوان هذا من مفاخر المغرب ، فى بَراعة خطه ، وكثرة علمه ،

[١] سقط من ز ط « وأرفع » [٣] سقط من ز ط « والآبلى » [٦] ط « ولحق »
[٨] ش « والعقلية وكان » .

= بابن البناء العددى ؛ ولد بمراكش ، وتعلم بها ، وتوفى بها . وقد أخطأ الأستاذ قَدْرى حافظ طوقان فى كتابه: تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك ص٢١٦ ، حيث زعم أنه ولد بغرناطة . وسبب هذا الخطأ أن الأستاذ طوقان يؤرخ العرب الرياضيين والفلكيين ، ولا يرجع ، عند البحث عنهم ، إلى المصادر العربية التى هى الأصول الأولى لأخبار هؤلاء الأعلام . وتلك بلوى عمت فى زمن يقال إنه عصر النهضة . الدرر الكامنة ١/٢٧٨ ، أحمد بابا ص ٦٥ ، جذوة الاقتباس ص ٧٣ ، الاستقصا ٢/٨٨ ، مقدمة شرح تلخيص أعمال الحساب تأليف ابن هَيْدُور التازى (نسخة خاصة) .

(١) انظر أخباره فى تاريخ ابن خلدون ٧/٢٤١ — ٢٤٣ ، وشذرات الذهب ٧/١٦٧
(٢) سيأتى حديثه المفصل عن ابن رضوان .

وحُسْن سَمْته ، وَإجادته فى فقه الوثائق ، والبلاغة فى الترسيل عن السلطان ، وحَوْك الشعر ، والخطابة على المنابر ؛ لأنه كان كثيرا ما يُصَلِّى بالسلطان . فلما قَدِم علينا بتُونِس ، صحبتُه ، واغتبطت به ، وإن لم أتَّخِذه شيخا، لمقاربة السن ، فقد أفدت منه كما أفدت منهم .

٥ وقد مَدَحه صاحبنا أبو القاسم الرَّحَوى شاعر تُونس فى قصيدة على رَوِىِّ النون ، يَرْغَب منه[1] تذكرة شيخه أبى محمد عبد المُهَيْمن فى إيصال مدحه إلى السلطان أبى الحسن ، فى قصيدته على رَوِىِّ الباء ، وقد تقدم ذكرها فى أخبار السلطان[2] .

وذكر فى مدح ابن رضوان أعلامَ العلماء القادمين مع السلطان وهى :

١٠
عرفتُ زمانى حين أنكرت عِرفانى ... وأيقنتُ أن لا حظَّ فى كَفِّ كِيوَانِ[3]
وأن لا اختيارٌ فى اختيار مُقَوِّمٍ ... وأن لا قِراعٌ بالقِران لأقْرانى[4]
وأنَّ نِظامَ الشَّكْلِ[5] أكْلَ نظمِهِ ... لأضْعَفُ قاضٍ فى الدَّليل برُجْحانِ
وأن افتقار المرء فى فَقَراتِه ... ومن ثَمَّه يُغْنى اللبيبُ بأوزانِ

---

[٦] ز ط « يذكره لشيخه » [٧] سقط من ز « أبى الحسن » ، فى ط « فى قصيدة » [٩] ط « وهى هذه » [١٣] جاء فى ز ط بعد « بأوزان » آخر البيت قوله : « إلى آخرها ، ثم يقول فى ذكر العلماء القادمين : « هم القوم » الخ .

---

(١) كذا بالأصل .
(٢) انظر تاريخ ابن خلدون ٧/٢٧٠ — ٢٧٣ .
(٣) كيوان : اسم لزحل ، وهو أحد الكواكب السيارة .
(٤) مقوم الكوكب : موضعه (طوله) من فلك البروج (الدائرة الكسوفية) ، والقِران : اجتماع كوكبين سيارين فى نقطة واحدة من فلك البروج ، ويشير الرحوى إلى ما يزعمه المنجمون من أن الكوكب إذا كان فى موضع معين فى فلك البروج ، أو اقترن بكوكب آخر فى نقطة معينة ، كان له أثر حسن ، أو سىء ، فى أعمال الإنسان .
(٥) نظام الشكل : شكل الفلك ، يريد وضعه فى وقت معين ، وهو ما يعرف عندهم بالنصبة الفلكية . ونظام الشكل : كناية عن حسن دلالته . يقول : مهما انتظم الشكل فإنه أضعف قاض فى دلالة القِران على رجحان عمل على آخر .

فمن بعد ما شِمتُ الخِلاب ولم أرَعْ لِهشَّةِ راضٍ أو لِشِرَّة غَضْبانِ

ولم يُغْشِنِى النار لَمعُ شُعاعِها فما كل نارٍ نارُ موسى بن عِمرانِ

ولم يبقَ لى فى الغَيبِ من أملٍ سِوَى لقاء ابن رضوانٍ وجنّة رِضْوانِ

هُنالك ألفيتُ العُلا تَنْتَمى إلى أُناسٍ ضَئيلٌ عندهم فَخرُ غَسَّانِ

٥ وأرْعِيتُ من روض التأدب يانعًا وحُيِّيتُ من كنز العلوم بِعقيانِ

وَرُدت فلم تُجْدِب لديه رِيَادَتى وَصَدّقَ طَرفى ما تلقته آذانى

فحسْبُك من آدابه كلُّ زاخِرٍ يُحَيِّيك معسولا بدُرٍّ ومرْجانِ

يُحَيِّيك بالسِّلك الذى لم تُحطْ به طرُوسُ ابن سَهلٍ أو سوالف بُورانِ[(١)]

فقل يا بِلِيٌّ إن يُنافِثك لفظةً وَفى وَشْيه الأطراسَ قل هو صَنْعانِى

١٠ خلائق لم تُخلَق سُدًى بل تكَفّلَتْ بإسداء إنعام وإيلاءِ إحْسانِ

ثم يقول فى ذكر العلماء القادمين :

هم القومُ كلُّ القومِ أما حُلومُهم فأرسخُ من طودَىْ ثَبِيرٍ[(٢)] وثَهْلاَنِ[(٣)]

/فلا طيشَ يَعْرُوهم وأما علُومهم فأعلامها تَهدِيك من غير نِيرانِ [١٧]

---

[١] سقطت الأبيات [١ — ١٠] من ز ط ، ش « الخلاف » ، ش « لشدة » .

---

(١) السالفة : جانب العنق ، وجعلوا كل جزء من العنق سالفة ، فقالوا : إنها لوضّاحة السوالف . (لسان ، وأساس) .

وبوران : هي بنت الحسن بن سهل . تزوجها الخليفة المأمون ، وأنفق فى زفافها من الأموال ما أصبح مضرب المثل . وفيات الأعيان ١/١١٦ .

وابن سهل هو الحسن بن سهل السَّرَخسى والد بوران ، ووزير المأمون ؛ له فى البلاغة مكانة . (وفيات ١/١٧٧) .

(٢) ثبير : جبل بظاهر مكة . (تاج العروس) .

(٣) ثهلان : جبل فى بلاد بنى نمير . (تاج العروس) .

بفقهٍ يَشيم الأصبحىُّ[1] صبَاحَه ... وأشهبُ[2] منه يستدلُّ بشُهبانِ

وحُسْنِ جدالِ الخصوم ومنطقٍ ... يَحِيئان فى الأخفى بأوضح بُرْهانِ

سقت روضةَ الآداب منهم سحائبٌ ... سَحَبن على سَحبانَ[3] أذيالَ نِسْيانِ

فلم يُبْقِ نَأْىُ ابن الإمام شَمَاخةً ... على مُدُنِ الدُّنيا لأنف تِلِمْسان

وَبعدَ نَوى السطِّىِّ لم تَسْطُ فَاسُهُ ... بفخرٍ على بَغْدان فى عصر بَغْدانِ ٥

وبالآبِلِىِّ استسْقت الأرضُ وَبلَهَا ... ومستوبَلٌ ما مالَ عنــه لأظْمَانِ

وهامت على عبد المُهَيْمن تُونسٌ ... وقد ظفِرت منه بوصْلٍ وقُربَانِ

وما علِقت منِّى الضمائرَ غيْرَهُ ... وإن هَوِيت كلًّا بحبِّ ابن رِضوانِ

وكتب هذا الشاعر : صاحبُنا الرَّحَوى يُذَكِّر عبد المهيمن بذلك :

لَهِىَ النفسُ فى اكتساب وسعْيٍ ... وهو العُمْرُ فى انتهابٍ وَطَىِّ ١٠

وأرى الناسَ بين ساعٍ لرُشْدٍ ... يَتوخَّى الهُدَى وساعٍ لغَىِّ

وأرى العلْـــمَ للبرِّية زينًا ... فتزَيَّا منه بأحسنِ زِىِّ

وأرى الفضـــلَ قد تجمَّع كُلاًّ ... فى ابن عبد المُهَيْمن الحضرَمِىِّ

حَلَّ بالرتبــة العلية فى حَضْـــرَةِ مَلْكٍ سَامِى العِمَادِ عَلِىِّ

---

[١] ز ط بعد هذا البيت ، « ثم يقول فى آخرها : « وهامت على عبد المهيمن » ، وسقطت منها الأبيات [٢ — ٦] [١٣] ز ط بعد هذا البيت : « ثم يقول فى آخرها تبتنى القرب » البيتين : وسقطت الأبيات (١٤ هنا — ١٥ من ص ٢٦) .

---

(٤) يريد بالأصبحى مالك بن أنس الإمام المعروف ؛ لانتهاء نســبه إلى ذى أصبح . (ديباج ص ١١ — ٣٠) .

(٥) هو أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز بن داود الفقيه المالكى المصرى (١٥٠ — ٢٠٤) . وفيات الأعيان ٩٢/١ .

(٦) هو سحبان بن زُفَر بن إياس الوائلى ، يضرب به المثل فى البيان ؛ أدرك الإسلام ، ومات سنة ٥٤ هـ . ترجمته فى شرح ابن نباتة على رسالة ابن زيدون ص ٧٥ .

قَلَمٌ أوسَعَ الأقاليم أمْرًا فله قد أطاع كلُّ عَصِيّْ
قَدَرٌ ما يُفيد منه احتِذارٌ فبأيٍّ تراه يقضِي بِأيّْ
يَمنحُ العِزَّ والعُلا ويُوالِي بالعطايا الجِسَامِ كلَّ وَلِيّْ
يَلجأُ الدَّارعونَ خوفًا إليه فهو يُزْرِي بالصَّارِمِ المَشْرَفِيّْ
٥ هو أعلَى الأقلامِ فى كل عصرٍ حيث يُنْمَى إلى الإمام عليّْ
حَلِيَتْ تلكُمُ الرياسة منهُ بفَريدٍ فى كل معنًى سَنِيّْ
سَالكٌ فى النِّظام درًّا وطَورًا ناثرٌ دُرَّه بنشرٍ وطَيّْ
بِدَعٌ للبديع[1] تَرمى بحصْرٍ ولصَابِى[2] بنى بُويهٍ بِعِيّْ
ويَرَى أخرسُ العراق لديه أنه بالشَّآم كالأعْجَمِيّْ
١٠ وعلومٌ هى البُحُور ولكن يَنثنِى الواردون منها بِرِيّْ
تَصدِرِ الأمةُ العظيمةُ عنهُ بحديثٍ مُجَوَّدٍ مَرْوِيّْ / [٧ب]
وَبفقْهٍ فيه وحُسْن مقالٍ يضع النورَ فى لِحَاظ العَمِيّْ
وبنَحْوٍ يُنْحِى على سِيبوَيهٍ ببَيانٍ فى المُبْهَمات جَلِيّْ
عَمِيَ الأخفشان عنه وسُدَّتْ عن خفاياه فِطْنَةُ الفَارِسِيّْ
١٥ يَا أخا الحُكم فى الأنام وإنِّى لأُنادِي ربَّ النَّدَى والنَّدِيّْ
بنتُ فِكرى تعرَّضت لِحاكمٍ فالقَها راضيًا بوجه رَضِيّْ
تَبتغى القربَ من مراقى الأمانى والتَّرَقِّى للجانبِ العَلَوِيّْ
فأَنلْها مَرامَها نلتَ سَهلًا كلَّ دانٍ تَبغِى وكلَّ قَصِيّْ

---

(١) يريد أبا الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى ، بديع الزمان ؛ المتوفى سنة ٣٩٨ . (وفيات الأعيان ١/٤٧) .

(٢) أبو إسحق إبراهيم بن هلال الصابى الكاتب البليغ (٣١٤ — ٣٨٤) . وفيات ١/١٤ .

ثم كانت واقعة العرب على السلطان بالقَيْرَوان[1] ، فى فاتحة تسع وأربعين ، فشُغلوا عن ذلك ، ولم يظفر هذا الرَّحَوى بطَلِبته . ثم جاء الطاعون الجارف ، فطوى البساط بما فيه ، وهلك عبد المهيمن فيمن هلك ، ودفن بمقبرة سلفنا بتونس ، لُخلة كانت بينه و بين والدى ، رحمه الله ، أيام قدومهم علينا .

فلما كانت واقعة القَيْرَوان ، ثار أهل تُونس بمن كان عندهم من أشياع السلطان أبى الحسن ، فاعتصَمُوا بالقصَبَة دار الملك ، حيث كان ولدُ السلطان وأهلُه ، وانتقض عليه ابن تَافرَاكين[2] ، وخرج من القَيْرَوان إلى العرب ، وهم يحاصرون السلطان ، وقد اجتمعوا عَلَى ابن أبى دبوس ، و بايعوا له ، كما مرّ فى أخبار السلطان ، فبعثوا ابن تَافرَاكينْ إلى تونس ، فحاصر القصَبة ، وامتنعَتْ عليه . وكان عبدُ المهيمن يوم ثورة أهل تونس ، ووقوع الهَيْعَة ، خرج من بَيْتِه إلى دَارنا ، فاختفى عند أبى رحمه الله ، وأقام مختفيا عندنا نحوًا من ثلاثة أشهر ، ثم نجا السلطان من القَيْرَوان إلى سُوسَة[3] ، وركب البحر إلى تُونس ، وفرّ ابن تَافرَاكين إلى المشرق ، وخرج عبد المهَيْمن من الاختفاء ، وأعاده السلطان إلى ما كان عليه ، من وظيفة العَلامَة والكتابة ، وكان كثيرًا ما يخاطب والدى رحمه الله ويشكره على مُوالاته ، ومما كتب إليه وحفظتُه من خطّه :

[٥] ش « تونس فيمن » [٦] ش « بقصبة دار » سقطت « كان » من الأصل وهى ثابتة فى ز ط [١٠] ش « عليه أهل » [١٥] سقط من ش « ومما ... خطه » .

(١) القيروان (Kairwan عرضها الشمالى ٤٨´ — ٣٥° ، وطولها الشرق ٢´ — ١٠°): مدينة بتونس اختطها عقبة بن نافع أيام معاوية . ياقوت ١٩٣/٧ .

(٢) هو شيخ الموحدين أبو محمد بن عبد الله بن تافراكين . وبيت بنى تافراكين هذا أحد بيوت الموحدين منذ بداية الدولة الموحدية . انظر أخبارهم فى العبر ٦ / ٣٤٨ — ٣٥٠ ، ٣٥٢ — ٣٥٣ . وفى نفح الطيب ٤ / ٩٥ رسالة لابن الخطيب يخاطب فيها أبا محمد هذا .

(٣) سوسة (Susa عرضها الشمالى ٠٠´ — ٣٦° ، وطولها الشرق ٤٠´ — ١٠°): مدينة معروفة بتونس ، اشتهرت منذ القديم بالصناعة ، وإليها تنسب الثياب السوسية ، وكانت بها أيام بنى الأغلب دار لصناعة السفن . ياقوت ١٧٣/٥ .

لِحمدِ ذوى المكارم قد ثنانى | فَمَالٌ شكرهُ أبدًا عَنَانِى
جزَى اللهُ ابنَ خَلدونٍ حياةً | منعّمة وخُلدًا فى الجِنانِ
فكم أولى وَوَالى من جَميل | وبرّ بالفِعَال وباللسانِ [١٨]
وراعى الحَضْرَمِيةَ فى الذى قَد | حَبَا من ودّه ومن الحَنانِ
٥ أبا بكر ثناءك طولَ دهرى | أردّد باللسان وبالجَنانِ
وعن عَلْياك ما امتدّت حياتى | أكافح بالحُسام وبالسِّنَانِ
فمنك أفدت خِلًّا لستُ دَهرى | أرَى عن حبّه أثنى عِنَانِى

وهؤلاء الأعلام الذين ذكرهم الرَّحَوى فى شعره ، هم سُبّاق الحلبة فى مجلس السُّلطان أبى الحسن ، اصطفاهم لصِحَابته من بين أهل المغرب . فأما ابنَا الإمام(١)
١٠ منهم فكانا أخوين من أهل بَرِشْك ، من أعمال تلمسان ، واسم أكبرهما : أبو زيد عبد الرحمن ، واسم الأصغر : أبو موسى عيسى ، وكان أبوهما إماما ببعض مساجد بَرِشْك ، واتّهمه المتغلِّب يومئذ على البَلَد زِيْرِم(٢) ابن حمَّاد ، بأن عنده وديعةً من المال لبعض أعدائه ، فطالبه بها ، فلاذ بالامتناع ، وبَيّتَه زِيْرِم ، لينتزع المال من يده ، فدافعه وقُتِل(٣) ، وارتحَل ابناه هذان الأخَوان إلى تونس فى المئة السابعة ،
١٥ وأخذا العلم بها عن تَلاميذ ابن زَيْتُون ، وتفقها على أصحاب أبى عبد الله ابن شُعَيْب

---

[١] ز ط ش « محمد ذو المكارم قد ثنانى » [٣] ش « فى الفعال وفى اللسان »
[٥] فى الأصل ، ط « وبالسنان » وهو تحريف [٩] سقط من ط « بين » [١٣] ط « ولاذ »
[١٥] البستان « فأخذا » .

---

(١) انظر ترجمة ابنى الإمام فى الديباج ص ١٥٢ ، وأحمد بابا ص ١٦٦ ، ١٩٠ ، وفى البستان ١٢٥ . وفى تاريخ ابن خلدون ٧/ ١٠٠ بعض أخبارهما .

(٢) اسمه زيرى بالياء ، فتصرفت العامة فيه ، وصار زيرم بالميم . وانظر أخباره فى تاريخ ابن خلدون ٧/ ٩٩ .

(٣) وقد انتقم لهذا الوالد ابنه الأكبر ، أبو زيد عبد الرحمن . انظر العبر ٧/ ١٠٠ .

الدُّكَّالِي ، وانقلبا إلى المغرب بحظّ وافر من العلم ، وأقاما بالجزائر[1] يَبُثّان بها العلم ، لامتناع بَرَشْكَ عليهما من أجل [ضَرَرِ][2] زِبْرِمِ المتغلّب عليها ، والسلطان أبو يعقوب[3] يومئذ ، صاحب المغرب الأقصى من بنى مَرِين ، جاثم على تِلِمْسَان يحاصرها الحصارَ الطويل المشهور[4] ، وقد بثّ جُيوشه فى نَواحيها ، وغَلَب على الكثير من أعمالها وأمصارها ، وملك عمل مَغْراوة بشَلَف[5] ، وحَاضِرَتُه ٥
مِلْيَانَة[6] ، فبعث عليها الحسَن بن علىّ بن أبى الطَّلاق من بنى عَسكر ، وعلىّ بن محمّد الخيرى من بَنى وَرْتَاجّن ، ومعهما ـ لضبط الجباية واستخلاص الأموال ـ الكاتبُ منديل بن محمّد الكِنَانى[7] ، فارتحل هذان الأخوان يومئذ من الجزائر ، واحتلاّ بمِلْيَانة ، فحَلِيَا بعيْن منديل الكنانى ، فقرّبهما واصطفاهما ، واتّخذهما لتعليم ولده محمّد ، ثم هلك يوسف بن يعقوب سلطان المغرب ، بمكانه من ١٠
من حصار تِلِمْسان ، سنة خمس وسبعمائة[8] على يد خَصِىّ من خصيانه ؛ طعنه

---

[١] البستان « وانتقلا » [٥ — ٦] ز ط « وحصر مليانة » [٩] البستان « وقربهما » [١٠] ط « فلما هلك » بدل « ثم هلك »

---

(١) تسمى أيضا جزائر بنى مَزْغَنَّاى (Algiers عرضها الشمالى ٥٠′ — ٣٦° ، وطولها الشرقى ٥′ — ٣°) : عاصمة القطر الجزائرى . ياقوت ٩٣/٣ .

(٢) الزيادة عن البستان حيث نقل عن ابن خلدون .

(٣) هو يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المرينى المقتول سنة ٧٠٦ . انظر ترجمته فى الدرر الكامنة ٤٨٠/٤ .

(٤) دام هذا الحصار ثمانية أعوام ، وثلاثة أشهر . انظر أخباره ، وما جرّه على أهل تلمسان من محن ، فى العبر ٩٥/٧ ، الدرر الكامنة ٤٨٠/٤ .

(٥) شلف ، بفتح الشين واللام (Chelif) : البسيط الممتد فيما بين مدينة مُستغانم ، ومدينة الجزائر ؛ ويقال لهذا البسيط أيضا ، وادى شلف .

(٦) مليانة بالكسر ثم السكون ، وياء مثناة ، وبعد الألف نون : مدينة بإفريقية ، بينها وبين تَنَس أربعة أيام . ياقوت ١٥٥/٨ .

(٧) انظر بعض أخباره ، وكيف نُكِب فى العبر ٢٤٥/٧ .

(٨) فى العبر ٦٧/٧ : « آخر سنة ست » ، وقد أشار ابن حجر ، فى الدرر الكامنة ٤٨٠/٤ ، إلى هذا الخلاف ، واعتمد — نقلا عن الإحاطة — أنه قتل سنة ٨٠٦ .

فأشواه ، وهلك . وقام بالمُلك بعده حَافِدُه أبو ثابت ، بعد خطوب ذكرناها فى أخبارهم[1] ، ووقع بينه وبين صاحب تلمسان يومئذ أبى زَيّان محمد بن عثمان بن يَغْمَرَاسَن ، وأخيه أبى حَمُّو ، العهدُ المتأكدُ على / الإفراج عن تِلِمْسان ، وردِّ [٨ ب] أعمالها عليهم ، فوفَّى لهم بذلك ، وعاد إلى المغرب ، وارتحل ابن أبى الطّلاق ، والخيّرى ،

٥ والكِنانى من مليانة راجعين إلى المغرب ، ومَرُّوا بتِلِمْسان ، ومع الكِنانى هذان الأَخَوان ، فأوصلهما إلى أبى حَمُّو ، وأثنى عليهما ، وعرَّفه بمقامهما فى العلم ، فاغتبط بهما أبو حَمُّو ، واختطّ لهما المدرسة المعروفة بهما بتِلِمْسان[2] ، وأقاما عنده على هَدْى أهل العلم وسَنَنِهم ؛ وهلك أبو حَمُّو ، فكانا كذلك مع ابنه أبى تَاشِفِين إلى أن زحف السلطان أبو الحسن [المرينى[3]] إلى تلمسان ، وملكها عَنوة ، سنة

١٠ سبع وثلاثين ، وكانت لهما شُهرة فى أقطار المغرب ، أثبتَتْ لهما فى نفس السلطان عقيدةً صالحة ، فاستدعاهما لحين دخوله ، وأدْنَى مجلسَهما ، وأشاد بتَكرِمتهما ، ورفع محلّهما على أهل طبقتهما ، وصار يُجمِّل بهما مجلسه ، متى مَرَّ بتِلِمْسان ، أو وفَدا عليه فى الأوقات التى يَفِد فيها أعيانُ بلدهما . ثم استنفرهما للغزو ، وحَضرا معه واقعة طَرِيف[4] ، وعادا إلى بلدهما . وتوفى أبو زيد منهما إثر ذلك ، وبقى أخوه

[١] ط « بعد أمور » [٢] ز ط « أخباره » [٤] ز ط « أعمالها عليه » [٤ — ٥] ز ط « ابن أبى الطلاق من شلف ، والكنانى من مليانة » [٥ — ٦] سقط من ط « ومع ... الأخوان » [٧] ز ط « وبنى لهما » [٨] ز ط « على مجرى » [١٠] ز ط « أسست لهما » [١١] البستان ، ز ط « وشاد بمكرمتهما » ، ط « ورفع جاههما » [١٢] ط « ووفدا عليه » [١٣] ز ط « إلى الغزو » .

(١) مر له ذكر ذلك فى العبر ٩٧/٧ ، ٢٣٣ فارجع إليه .

(٢) يقول ابن خلدون : كانت هذه المدرسة بناحية « المطهر » من مدينة تلمسان (وفى البستان: «داخل باب كشوط ») ، وابتنى لهما دارين على جانبيها ، وجعل لهما التدريس فيها، فى إيوانين معدين لذلك . العبر ١٠٠/٧ البستان ص ١٢٦ .

(٣) الزيادة من البستان حيث نقل نص ابن خلدون .

(٤) هى واقعة السلطان أبى الحسن المرينى بمدينة طريف بالأندلس ، كانت الدائرة فيها عليه ، ويذكرها المؤرخون المسلمون فى كثير من الألم . انظر تفصيلها فى العبر ٢٦١/٧ وما بعدها .

أبو موسى مُتَبَوِّئًا ما شاء من ظِلال تلك الكرامة .

ولما سَار السلطان أبو الحسَن إلى إفْرِيقِيَة سَنة ثمان وأربعين ، كما مرّ فى أخباره استَصحَب أبا موسى بنَ الإمام معه ، مُكرَّما ، مُوَقَّرا ، عالى المَحلّ، قريب المجلس منه ، فلما استولى على إفريقيَة ، سرّحه إلى بَلَده ، فأقام بها يسيرا ، وهَلكَ فى الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين ، وبقى أعقابُهما بتِلِمْسان دارجين فى مسالك ٥ تلك الكرامة ، ومُتَوَقِّلين قُلَلها طَبَقا عن طَبَق إلى هذا العهد .

وأما السَّطِّى ، واسمه محمد [بن على[1]] بن سُليمان ، من قبيلة سَطَّة ، من بطون أَوْرَبَة بنَواحى فاس ، نزل أبوه[2] سُليمان مدينة فاس ، ونشأ محمد بها ، وأخذ العلم عن الشيخ أبى الحسن الصُّغَيِّر[3] إمام المالكية بالمغرب ، والطائر الذِّكر ، وقاضى الجماعة بفاس ، وتفقه عليه ، وكان أحفظ الناس لمذهب مالك ، وأفقههم فيه ، ١٠ وكان السلطان أبو الحسَن لدينه ومَراوته ، و بعد شأوه فى الفضل ، يتشوّف إلى تَنويه مجْلسه بالعلماء ، واختار منهم جماعةً لِصحابته ومُجالسته ، كان منهم هذا

---

[٣] ط « قرين المجلس » [٥] ط « بالطاعون » [٨] ط « محمد فيها » [١٠] ط « وتفقه وقرأ عليه » ، نيل الابتهاج « أحفظهم للمذهب » ؛ ونقل أحمد بابا فى نيل الابتهاج فى ترجمة السطى نص ابن خلدون هنا ، وجاء فى النقل : « وافقههم فيه ، وأخذ الفرائض عن الشيخ أبى الحسن الطنجى ؛ ختم عليه الحوفية ثمان ختمات ، وكانت له فى فهمه وإقرائه ، وحلّ عقده ، اليد الطولى ، واختاره السلطان أبو الحسن المرينى ، مع جماعة من العلماء لصحبته ، وكان أبو الحسن لدينه الخ » .

---

(١) الزيادة عن جذوة الاقتباس ، وانظر ترجمة السطى فى نيل الابتهاج ص ٢٤٣ والجذوة ص ١٤٢ .

(٢) فى الجذوة « نزل أبوه على بن سليمان » .

(٣) هو على بن محمد بن عبد الحق الزرويلى أبو الحسن ، يعرف بالصُّغَيِّر (مصغرا) ؛ وجوز فى جذوة الاقتباس فتح الصاد ، وكسر الغين . توفى ٧١٩ ديباج ص ٢١٢ ، جذوة ٢١٩ ، الاستقصا ٢/٨٨ . ولابن خلدون رأى فى أبى الحسن هنا . انظره فى العبر ٧/٣٤٠ .

الإمام محمّد(١) ابن سليمان ، وقدم علينا بتُونس فى جلته ، وشهدنا وفورَ فضائله ، وكان فى الفقه من بينها / لا يُجارى ، حفظا وفهما ، عهدى به وأخى محمّد رحمه الله [١٩] يقرأ عليـه من كتاب التّبصرة لأبى الحسن اللّخمى(٢) ، وهو يُصَحِّحه عليه من إملائه وحفظه ، فى مجالسَ عَديدة ، وكذا كان حالُه فى أكثر ما يُعَانى حَمْلَهُ من الـكتب ، وحَضَر مع السلطان أبى الحسن ، واقعةَ القَيْرَوان(٣) ، وخلَص معه إلى تونس ، وأقام بها نحوا من سنتين ، وانتقَض(٤) المغربُ على السُّلطان ، واستقلّ به ابنُه أبو عِنَان ، ثم ركب [السلطان(٥)] أبو الحسن فى أساطيله من تُونس آخرَ سـنة خمسين(٦) ، ومرّ بِبجَايَة ، فأدركه الغرَق فى سواحلها ، فغرقت أساطيله ، وغرق أهلُه ، وأكثرُ من كان مَعه مِن هؤلاء الفُضَلاء وغيرهم ، وألقاهُ البحر ببعض الجزر هناك ، حتّى استنقذه منها بعضُ أساطيله ، ونَجا إلى الجزائر ، بعد أن تَلِف موجوده ، وهلكَ الـكثيرُ من عِياله وأصحَابه ، وكان من أمره ما مرّ فى أخباره .

[١] ط « وفور فضله » [٢] ز ط « من بينهم » ز « وأخى موسى » وهو تحريف .
[٣] ز ط « عليه كتاب » [٤] ط « وكان هذا » [٨ — ١٠] سقط من ز قوله « فغرقت أساطيـله ... بعض أساطيله » [٩ — ١٠] ط « ورى به البحر »
[١١] ز « موجوده والـكثير من » .

(١) فى الجذوة : محمد بن على .

(٢) أبو الحسن على بن محمد ؛ قيروانى الأصل ، ونزل سفاقس ، وبها مات . له تعليق كبير على المدونة سماه التبصرة ، وهو مفيد حسن ، له فيه اختيارات ، وآراء ، خرج بها عن مذهب مالك توفى سنة ٤٩٨ . معالم الإيمان ٢٤٦/٣ ، ديباج ص ٢٠٣ ، رحلة العبدرى ١٢٦ ب .

(٣) واقعة القيروان هذه كانت سنة ٧٤٩ ، وقد تغلب فيها الـكعوب من بنى سليم على السلطان أبى الحسن . انظر تاريخ ابن خلدون ٢٧٧/٧ .

(٤) انظر تاريخ ابن خلدون ٢٧٧/٧ ، ٢٨٠ .

(٥) الزيادة عن ط .

(٦) فى الجذوة ص ١٤٣ : أن الغرق حدث فى سنة ٧٤٩ ، ثم حكى بصيغة « قيل » : القول بأنه كان فى سنة ٧٥٠ . وانظر تفصيل هذا الحادث فى العبر ٢٨٤/٧ .

وأما الآبلىّ[1] ، واسمُهُ محمّد بن إبراهيم ، فنشْؤه بتِلِمْسان ، وأصله من جالية الأندلس ، من أهل آبِلة[2] ، من بلاد الجُوْف[3] منها ، أجاز أبوه وعمّه أحد ، فاستَخْدمهم يغمْرَاسَنْ بن زَيّان ، وولدُه فى جندهم ، وأصهر إبراهيم منهما إلى القاضى بتِلِمْسان محمّد بن غَلْبُون فى ابنته ، فولدَت له محمّدا هذا ، ونشأ بتِلِمْسان فى كفالة جدّه القاضى ، فنشأ له بذلك مَيْل إلى انتحال العِلم عن الجُنْدية التى كانت مُنْتَحَل أبيه [وعمّه[4]] فلما يفَع وأدرك ، سَبَق إلى ذِهنه محبّة التَّعاليم ، فبَرَع فيها ، واشتَهر ، وعَكف الناس عليه فى تعلُّمها وهو فى سِنّ البلوغ ، ثم أطلّ السلطان يوسف بن يعقوب على تِلِمْسان ، وجَثَم عليها يُحاصرها ، وسيّر بُعوثه إلى الأعمال ، فافتتح أكثرَها ، وكان إبراهيم الآبلى قائدا بهُنَين ؛ مَرْسى تِلِمسان فى لُمّةٍ من الجند ، فلمّا مَلَكها يوسف بن يعقوب ، اعتقل من وَجَد بها من شيَع ابن زَيّان ، واعتقل إبراهيم الآبِلىّ فيهم ، وشاع الخبرُ فى تِلِمْسان بأنّ يوسف

---

[٢] ز ط « من بلد » [٦] ز « أيْنع » ، ط « أيفع » [٧] ط « فبرز فيها » ، ز ط « وهذا فى سن » [٨] ز ط « وخيم » ، ط « وسير بجيوشه » [١٠ — ١١] ز ط «من أشياع بنى عبد الواد »

---

(١) محمد بن إبراهيم الآبلى هذا، من أخصّ أساتذة ابن خلدون ، وهو — فيما تحدثت به المراجع — عالم ذو مكانة بعيدة المدى فى الثقافة الإسلامية بالمغرب .

اقرأ ترجمته فى جذوة الاقتباس ص ١٤٤ ، ١٩١ ، نيل الابتهاج ٢٤٥ ، الدرر الكامنة ٢٨٨/٣ ، البستان ٢١٤ .

(٢) آبلة (Avila عرضها الشمالى ٣٩′ — ٤٠° ، وطولها الغربى ٤٤′ — ٤°): مدينة فى الشمال الغربى لطليطلة معدودة من إقليم آبلة . وهى ، كما قيدها ابن خلدون ، بهمزة مفتوحة ممدودة ، وباء موحدة مكسورة ؛ وقد نص على كسر الباء ابن حجر فى الدرر الكامنة (٢٨٨/٣) .

وما فى تاج العروس من أن الآبلى ، منسوب إلى آبل ، بضم الباء ، خطأ ؛ والغريب أنه نقل ترجمته عن ابن حجر الذى نص على أنه بكسر الباء .

(٣) المراد بالجوف ؛ الشمال فى لغة المغاربة والأندلسيين . تاريخ ابن خلدون ١٧٩/٤ ، ١٨٣ ، الاستقصا ٨٧/٢ .

(٤) الزيادة عن ط .

ابنَ يعقوب يَسترهِن أبناءهم ويُطْلِقُهم ، فتشوّف ابنُه محمد إلى اللّحاق به ، من أجْل ذلك ، وأغراه أهله بالعَزْم عليه ، فتسَوَّرَ الأسوار ، وخرج إلى أبيه ، فلم يجد خبر الاسترْهانِ صحيحا . واستخْدَمَه يُوسف بن يعقوب قائدا على الُجند الأندلسيين بِتَاوَرِيرَت ، فـكَرِه المُقَام على ذلك ، ونَزَع عن طَوْره ، ولبس المُسُوح ، وسار

٥ قاصدا الحجّ ، وانتهى إلى / رِبَاط العُبّاد[1] مختفِيا فى صُحبة الفقراء ، فوَجَد هنالك [٩ ب] رئيسًا من أهل كَرْبَلاء[2] ثمّ من بنى الُحسَين ، جاء إلى المغرب يروم إقامة دعوتهم فيه ، وكان مُتَقَلّا ؛ فلمّا رأى عساكر يوسف بن يعقوب ، وشدّة هَيْبته ، غلب عليه اليَأس من مَرامه ، ونَزَع عن ذلك ، واعتزم على الرُّجوع إلى بَلده ، فسَار شيخُنا محمد بن إبراهيم فى جُملته .

١٠ قال لى رحَمه الله : و بعد حين انكشف لى حاله ، وماجاء له ، واندرجتُ فى جملة أصحابه وتابعه . قال : وكان يتلقّاه فى كلّ بلَد من [أصحابه و] أشيَاعه وخدَمه مَن يأتيه بالأزواد ، والنّفقات من بَلَده ، إلى أن ركِبنا البحْر من تُونس إلى الإسكندرية . قَال : واشتَدّت علىّ الغُلْمَة فى البحر ، واستَحْيَيْتُ من كثرة الاغتسال ؛ لمكان هَذا الرّئيس ، فأشار علىّ بعضُ بطانته بشُرْب الـكَافور ، فاغترفتُ منه غُرْفةً ،

١٥ فشربتُها فاختلطت . وقدِم الدّيار المِصرية على تلك الحال ، وبها يومئذ تَقِيّ الدِّين

[١] ط « اللحاق بهم » [٤] ز ط « قاصداً إلى الحج » [٦] سقطت « ثم » من ز ط ش ، ز ط « دعوته فيه » [٧] ز « وشدة غلبه أيس من مرامه ونزع » ط « وشدة هيبته غلبه اليأس » [١١] ز ط ش « فى جلته وأصحابه وتابعيه » [١٢] الزيادة عن ز .

(١) مرتفع جبل خارجَ مدينة تلمسان ، كان مدفن الأولياء والصلحاء والعلماء . وهناك موضعان عرفا باسم « العباد » ؛ أحدهما يسمى العباد الفوقى ، وكان بعيدا نوعا ما عن المدينة ، والثانى العباد السفلى ، وكان بباب الجياد من أبواب تلمسان .

(٢) هو الموضع الذى قتل فيه الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، وقد أطلق اليوم اسم كربلاء على لواء كامل من ألوية العراق ، (Karbala عرضه الشمالى ٣٣′ — ٣٢° وطوله الشرقى ٦′ — ٤٤°) . ياقوت ٧/٢٢٩ .

ابن دَقيق العيد[1] ، وابن الرِّفْعة[2] ، وصَفِيّ الدين الهِندىّ[3] ، والتَّبريزىّ[4] ، وابن البَديع ، وغيرُهم من فُرسَان المَعْقول والمنقُول ، فلم يَكن قُصَاراه إلا تَمييز أشخاصهم . إذا ذَكَرَهم لنا ؛ لما كان به من الاختلاط . ثم حجّ مع ذلك الرَّئيس ، وسار فى جُملته إلى كَرْبَلاء ، فبَعَث معه من أصحابِه من أوصَلَه إلى مَأْمَنه من بلاد زَوَاوَة[5] من أطراف المغرب . وقال لى شيخُنا رحمه الله : كان معى ٥ دنانير كثيرة ، تَزَودتُها من المغرب ، واستبطنتها فى جُبَّة كنت ألبسُها ؛ فلما نَزل بى ما نَزل ، انتزَعها منّى ، حتى إذا بَعَث أصحابَه يشيِّعوننى إلى المغرب ، دَفَعها إليهم ، حتّى إذا أوصلونى إلى المَأْمَن ، أَعْطَوْنى إياها ، وأشهدوا علىّ بها فى كتاب حملوه معهم إليه كما أمرهم ؛ ثم قارَن وصول شيخنا إلى المغرب مَهْلَكُ يوسف بن يعقوب وخلاص أهل تِلِمْسان من الحِصار ، فعاد إلى تِلِمْسان ، وقد أفاق من اختلاطه ، ١٠ وانبَعَثَت همتُه إلى تعلُّم العلم ، وكان مائلا إلى العقليات ، فقرأ المنطق على أبى موسى

---

[٢] سقط من ز ط « وابن البديع » [٤] ط « فبعث به » [٥] ز ط « مأمنه ببلاد » [٨] ز ط « علىّ فى كتاب » .

---

(١) هو أبو الفتح محمد بن على بن وهب بن مطيع القشيرى القوصى القاضى (٦٢٥ — ٧٠٢) . طبقات السبكى ٢/٦ ، حسن المحاضرة ١٤٣/١ ، رحلة العبدرى لوحة ٧٤ ب

(٢) أحمد بن محمد بن على بن مرتفع الأنصارى أبو العباس نجم الدين الشافعى ، كان يقاس بالنووى والرافعى فى العلم (٦٤٠ — ٧١٠) طبقات السبكى ١٧٦/٥ ، حسن المحاضرة ١٤٥/١ .

(٣) محمد بن عبد الرحمن بن محمد الهندى صفىّ الدين ؛ فقيه ، وأصولى (٦٤٤ — ٧٠٠) . طبقات السبكى ٢٤٠/٥ ، حسن المحاضرة ٢٦١/٢ .

(٤) أبو الحسن على بن عبد الله تاج الدين التبريزى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ . طبقات السبكى ١٤٦/٦ ، حسن المحاضرة ٢٦١/٢ .

(٥) زواوة بفتح الزاى : بطن من بطون البربر البُتْر ، ويرجح ابن خلدون — تبعا لابن حزم — أنها من كتامة ، وكان موطنها ، حسب ما حدده ، الجبال العالية التى بنواحى بجاية ، والتى بينها وبين تدلس . وباسم هذه البطون تسمى الأمكنة التى تنزلها ، حال إقامتها ، وبعد ما ترحل ؛ ولهذا يقع اسم القبيلة الواحدة على أمكنة متعددة . انظر العبر ١٢٨/٦ ، تاج العروس ١٦٦/١٠ ، ١٦٧ .

ابن الإمام، وجملةً من الأصليّين، وكان أبو حَمُّو⁽¹⁾ صاحب تِلِمسان يومئذ قد استفحل ملكُه، وكان ضابطاً لاموره، وَبَلَغَه عن شيخنا تقدُّمُه فى علم الحساب، فدَفَعه إلى ضَبط أمواله، ومُشارفة عُمَّاله، وتفادى شيخُنا من ذلك، فأَكرَهَه عليه، فأعمل الحيلة فى الفرار منه، ولَحِق بفاسَ أيام السلطان أبى الرَّبيع⁽²⁾، و بعَث فيه أبو حَمُّو،

٥ فاختفى بفاسَ / عند شيخ التَّعَاليم من اليهود، خَلُّوف المَغِيلى؛ فاستَوْفى عليه فنونها، [١٠ ا] وحذِق، وخرَج متوار يا من فاس؛ فلحِق بمرَّاكش، أعوام العشر والسَّبع مائة، ونزل على الإمام أبى العباس بن البَنَّاء⁽³⁾ شيخِ المعقول والمنقُول، والمبرِّز فى التصوف علما وحالا، فلزمه، وأخذ عنه، وتضلَّع من علم المعقول والتعاليم والحكمة، ثم استدعاه شيخ الهَسَاكِرة علىُّ بنُ محمد بن تُرُومِيت ليقرأ عليه، وكان مُمَرَّضًا فى طاعته

١٠ السلطان، فصعِد إليه شيخُنا وأقام عنده مدّة؛ قرأ عليه فيها وحصّل، واجتَمع طلبة العلم هنالك على الشَّيخ، فكثُرت إفادَتُه، واستفادتُه، وعلىُّ بن محمد فى ذلك على تعظيمه، ومحبَّته، وامتثال إشارته، فغلب على هَواه، وعظُمت رياستُه بين تلك القبائل. ولما استَنزَل السلطانُ أبو سَعِيد علىَّ بن تُرُومِيت من جَبَله، نزَل الشَّيخ معه، وسكن بفاس، وانثال عليه طلبة العلم من كل ناحية، فانتشر

١٥ علمُه، واشتهر ذِكرُه؛ فلمَّا فتَح السلطانُ أبو الحسَن تِلِمْسَان ولقى أبا مُوسى بن الإمام، ذَكَره له بأطيب الذكر، ووصَفَه بالتَّقدُّم فى العلوم، وكان السلطان

---

[١] ز ط « تلمسان قد » [٢] ز ط « ضابطاً للأمور » [٣] ط « ومشارفة أعماله »
[٤] ز ط « فى الخلاص منه » [٥] ز ط « خليفة المغيلى » [٦] ط « العشر وسبعمائة »
[٩ — ١٠] ز ط « فى طاعة السلطان فدخل » [١٢] ز ط « رياسته فى تلك ».

---

(١) هو أبو حمو موسى بن يوسف الزيانى، من ملوك تلمسان، بنى عبد الواد. انظر الاستقصا ١٠٣/٢ وما بعدها، أزهار الرياض ٣٣١/٣.

(٢) هو سليمان بن عبد الله بن أبى يعقوب بن يوسف بن عبد الحق المرينى، يكنى أبا الربيع. توفى سنة ٧١٠ هـ. جذوة الاقتباس ص ٣١٩.

(٣) تقدمت ترجمة ابن البناء بهامش ص ٢١، ٢٢.

مَعْنِيا بجمع العلماء لمجلسه، كما ذكرنا. فاستَدعاه من مَكانه بفاس، ونظَمَه فى طبقة العلماء بمجلسِهِ، وعكفَ على التَّدريس والتَّعليم، ولازم صحابة السُّلطان، وحضَر معه واقعة طَريف، وواقعة القَيْرَوان بإفريقيَة؛ وكانت قد حَصَلت بينه وبين والدى رحمه الله صحابة، كانت وسيلتى إليــه فى القراءة عليه، فلزِمت مجلسَه، وأخذت عنــه، وافتتحتُ العلوم العَقلية بالتَّعاليم، ثم قرأت المنطق، ٥ وما بعدَه من الأَصلَيْن، وعلومَ الحِكمة؛ وعَرَضَ أثناء ذلك ركوبُ السُّلطان أَساطيلَه من تُونِس إلى المَغرب، وكان الشيخ فى نُزُلِنا وكفالتِنا، فأشرْنا عليه بالمُقَام، وثبَّطْناه عن السَّفَر، فقبِل، وأقام، وطالبَنا به السُّلطان أبو الحسن، فأحسنَّا له العُذْر، وتَجافى عنــه، وكان من حديث غَرَقِه فى البحر ما قدَّمناه، وأقام الشَّيخ بتُونِس، ونحن وأهل بَلَدنا جميعا نتساجَل فى غشيان مجلسه، والأخذ عنه؛ ١٠ فلما هَلَكَ السلطان أبو الحسن بجبال هِنْتَاتَة[1]، وفرغ ابنه أبو عِنَان[2] من شواغله، ومَلَكَ تِلِمْسان من بَنى عبد الوَاد؛ كتب فيه يطلبه من صاحب تُونِس، [١٠ب] وسلطانُها يومئذ أبو إسحق[3] إبراهيم بن السلطان / أبى يحيى، فى كفالة شيخ

---

[١] ز ط « معتنيا »، ز ط « العلماء بمجلسه »، ز ط ش « كما ذكرناه »
[٤] ط « صلة كانت وسيلتى » [٥] ط « المنطق والأصلين » [١١] ز ط ش « بجبل »
[١٣] ط « ابراهيم بن أبى يحيى »

---

(١) درج ابن خلدون على ضبط «هنتاتة» بالقلم، بكسر الهاء، وسكون النون، وفتح التاء الفوقية، بعدها ألف ممدودة، ثم تاء مفتوحة بعدها هاء التأنيث. وفى شذرات الذهب لابن العماد ٦/٣٤٥، وصبح الأعشى ٥/١٣٤: أنها بفتح الهاء. وبقية الضبط متفق عليه بينهم.

(٢) هو فارس المكنى بأبى عنان بن أبى الحسن المرينى؛ كان يلقب بالمتوكل، ثار على أبيه، وملك المغرب الأقصى، وبجاية، وقسنطينة، وتلمسان، وتونس، وتوفى سنة ٧٥٩. انظر ترجمته وأخباره فى: صبح الأعشى ٥/١٩٨، العبر ٧/٢٧٨، ٢٨٦، ٢٨٧، اللمحة البدرية ص ٩٣ — ٩٥.

(٣) أبو إسحق إبرهيم بن أبى بكر بن يحيى بن إبراهيم. انظر ترجمته، وأخباره فى الدرر الكامنة ١/٢١، تاريخ ابن خلدون ٦/٣٦٤، صبح الأعشى ٥/١٣١.

الموحِّدين أبي محمد ابن تَافَرَا كين ، فأسلمه إلى سَفِيره ، وركب معه البحر في أسطول السلطان الذي جاء فيه السَّفير ، ومرّ بِبجَايَة ، ودخلها ، وأقام بها شهراً ، حتى قرأ عليه طلبة العلم بها مختصر ابن الحاجِب في أصول الفقه[1] ، برغبتهم في ذلك منه ومن صاحب الأسطول ، ثم ارتحل ، ونزل بمَرْسَى هُنَيْن[2] ؛ وقَدِم على السلطان بتِلِمْسان ، وأحله محلّ التَّكرِمة ، ونَظَمه في طبقة أشياخه من العلماء ، ٥ وكان يقرأ عليه ، ويأخذ عنه ، إلى أن هلك بفاس[3] ، سنةَ سبع وخمسين وسبعمائة . وأخبَرَني رحمه الله أنّ مولِدَه بتِلِمْسان سنة إحدى وثمانين وستمائة .

وأما عَبد المُهَيْمِن كاتب السلطان أبي الحسن ، فأصله من سَبْتَة ، وبيتهم بها قديم ، ويُعْرَفُون ببَني عبد المُهَيْمن ؛ وكان أبوه محمد قاضيها أيام بَني العَزَفِيّ ، ونشأ ابنه عبد المُهَيْمن في كفالته ، وأخذ عن مشيختها ، واختصّ بالأستاذ أبي ١٠ إسحق الغَافِقي[4] . ولما ملك عليهم الرئيس أبو سَعيد ، صاحب الأندلس ، سَبْتَة ونقَل بَني العَزَفيّ ، مع جُملة أعيانها إلى غَرناطة ، ونقَل معهم القاضي محمد بن عبد المُهَيْمن[5] ، وابنَه عبد المُهَيْمن ، فاستكمل قراءة العلم هنالك ، وأخذ عن أبي

---

[١] ز ط « الموحدين ابن تافراكين » [٢] ز ط « أسطول أبي عنان » [٤] ش «فقدم» ، ز ط « وقدم على أبي عنان » [١٢] ش « من جلة » ، سقط من ط « القاضي » [١٣] سقط من ز « وابنه عبد المهيمن » ، ز « واستكمل » ، ز ط « وقرأ على مشيختها أبي جعفر بن ... الخ » بدل « وأخذ عن ... الخ » .

---

(١) سبق الحديث المفصل عن هذا المختصر ، في ترجمة ابن الحاجب ص ١٧ .

(٢) هنين مرت في صفحة ٣٣ ، وهي بضم الهاء وفتح النون : مدينة ساحلية ، كان موقعها الشمال الغربي لتلمسان ، وفي مكانها الآن مدينة بني صاف Beni Saf .

(٣) فاس (Fez عرضها الشمالي ٦′ — ٣٤° ، وطولها الغربي ٥٩′ — ٤°) : مدينة مشهورة بالمغرب الأقصى . كانت منذ القديم مهداً للثقافة الإسلامية ؛ وبمدينة فاس جامع القرويين ، الكعبة العلمية التي يؤمها طلاب العلم من سائر أنحاء المغرب . ياقوت ٦/٣٢٩

(٤) إبراهيم بن أحمد بن عيسى الأشبيلي أبو إسحق ؛ عرف بالغافقي . دخل سبته ، وولي القضاء بها ، وتوفي سنة ٧١٦ هـ . المرقبة العليا ص ١٣٣ ، الدرر الكامنة ١/١٣ .

(٥) انظر ترجمة القاضي محمد بن عبد المهيمن في المرقبة العليا ص ١٣٢ .

جعفر بن الزُّبَيْر[1] ونظرائه ، وتقدّم فى معرفة كتاب سِيبَوَيه ، وبَرّز فى علوّ الإسناد ، وكثرة المشيخة ، وكتَب له أهل المغرب والأندلس والمشرق ، واستكتبه رئيس الأندلس يومئذ ، الوزير أبو عبد الله بن الحَكِيم[2] الرُّنْدى ، المستَبِدّ على السلطان المخلوع[3] من بنى الأحمر ، فكتب عنه ، ونَظَمه فى طبقة الفُضلاء الذين كانوا بمَجْلِسِه ، مثل المحدّث الرحّالة أبى عبد الله بن رُشَيْد الفِهْرى[4] ، وأبى العبّاس أحمد بن (. . . . . . .)[5] العَزَفِىّ ، والعالِم الصّوفى المتجرِّد ، أبى عبد الله محمّد بن خَمِيس[6] التِّلِمْسانى ، وكانا لا يُجَارَيان فى البلاغة والشّعر — إلى غير هؤلاء ممن كان مختصا به ؛ وقد ذكرهم ابن الخطيب فى تاريخ غَرناطة . فلما نُكِب الوزير ابن الحكيم ، وعادت سَبتَة إلى طاعة بَنِى مَرِين ، عاد عبد المُهَيْمن

[٢] ز ط « والأندلس واستكتبه » [٤] ز ط « المخلوع بن الأحمر » ، ز « فكتب عنده » [٥] سقط « الرحالة » من ز ط [٦] ز « والعلم الصوفى »

(١) أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفى ، أبو جعفر . الدرر الكامنة ١/٨٤ .

(٢) هو الوزير الشاعر محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم ، أبو عبد الله الرندى شهر بابن الحكيم (٦٦٠—٧٠٨) . أزهار الرياض ٣/٣٤٠—٣٤٧ ، الإحاطة ٢/٢٧٨—٣٠٤

(٣) محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ، يكنى أبا عبد الله ؛ ثالث ملوك بنى الأحمر (٦٥٥ — ٧١٣) ، وهو الذى بنى مسجد الحمراء الأعظم بغرناطة . اللمحة البدرية ص٤٧ — ٥٦ العبر ٧/٣٠٦ .

(٤) أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد ... بن رُشَيد (مصغرا) الفهرى السبتى . محدث رحالة شهير (٦٥٩ — ٧٢١) . أزهار الرياض ٣/٣٤٧ — ٣٥٦ ، الجذوة ص ١٨٠ .

(٥) هكذا بياض فى الأصل ونسخة ش ، ولا يوجد بياض فى ز ط . ولعل ابن خلدون ترك الفراغ ليضع فيه آباء أبى العباس العزفى ، فمات قبل أن يفعل . وهى — كما فى نيل الابتهاج وغيره — أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبى عزَفة اللخمى :

(٦) أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد .. الحِجْرى ، التلمسانى ، الشاعر . توفى قتيلا فى سنة ٧٠٨ ، وله نيف وستون سنة . أزهار الرياض ٣/٣٠١ — ٣٤٠ .

إليها واستقرّ بها؛ ثم ولى السلطان أبو سَعيد ، وغَلَب عليه ابنُه أبو علىّ ، واستبدّ بمحل الدَّولة ، تشَوفَ إلى استدعاء الفضلاء ، وتجمُّل الدولةِ بمكانهم ، فاستقدم عبدَ المُهَيْمن من سَبتَة ، واستكتبه ، سَنة ثِنتَى عشرة ؛ ثم خالَف على أبيه سنة أربعَ عشْرة ، وامتنع بالبلد الجديد/ ، وخرج منها إلى سِجِلْمَاسَة[1] بصُلح عقده [١١١]

٥ مع أبيه ، فتمسَّك السلطان أبو سَعيد بعبد المُهَيمن ، واتخذه كاتبا ، إلى أن دفعه لرياسة الكُتّاب ، ورسْم عَلاَمته فى الرّسائل والأوامر ، فتقدّم لذلك سَنة ثمانَ عشْرة ، ولم يزل عليها سائرَ أيام السلطان أبى سَعيد وابنه أبى الحَسَن ، وسار مع أبى الحسن إلى إفريقية ، وتخلّف عن واقعة القَيْروان بتُونس ؛ لما كان به من علّة النِّقرس . فلما كانت الهَيْعَة بتُونِس ، ووصل خبر الواقعة ، وتحيَّز أشياع السلطان

١٠ إلى القَصَبة ، مع حُرَمه ، تسرَّب عبد المُهَيْمن فى المدينة ، منتبذا عنهم ، وتوارى فى بيتنا ، خشيةَ أن يُصَاب معهم بمكروه . فلما انجلت تلك الغَيابَة ، وخرج السلطان من القَيْرَوان إلى سُوسَة ، وركب منها البحر إلى تُونِس ، أعرض عن عبد المَهيمن ، لِما سَخِط غَيْبته عن قومه بالقصَبة ، وجعل العَلاَمة لأبى الفضل ابن الرئيس عبدالله ابن أبى مَدْيَن[2] ، وقد كانت مقصورةً من قبلُ على هذا البيت ، وأقام عبدالمهيمن

١٥ عُطْلا من العمل مدة أشهر ، ثم أعتبه السلطان ، ورضى عنه ، وأعاد إليه العَلاَمة

---

[١] ز ط «ثم ولى الأمر أبو سعيد» [٤] ز ط «لصلح عقده» [٦] ط «دفعه إلى رياسة» [٨] سقط «بتونس» من ز ط [٩] ط «وتحيز أولاد» [١٠] ز ط «وتسرب عبد» [١١] ز ط «ورجع السلطان» [١٤] ز ط «من قبل مقصورة» [١٥] ش «عطلا عن» ، ز ط «العمل شهرا ثم اعتبر السلطان» ، ز ط «ورد» .

---

(١) سجلماسة بكسر السين والجيم ، وسكون اللام، ثم ألف بعدها سين فهاء التأنيث: مقاطعة فى جنوب المغرب تسمى الآن تافيلالت . ياقوت ٥/٤١ .

(٢) عبد الله بن أبى مدين شعيب العثماني . نجم — من بيت أبى مدين — فى خدمة بنى مرين ، فقلدوه الحجابة ، ورياسة الكتاب . ولد بقصر كتامة ، ونشأ بمكناسة ، وتعلم بها . نثير الجمان لابن الأحمر ٩٧ (نسخة خاصة) .

كما كان ، وهلك لأيام قلائل بتُونِس فى الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين .
ومولدُه سنةَ خمس وسبعين من المائة قبلَها ، وقد استوعب ابن الخطيب التعريفَ
به فى تاريخ غَرناطة فليطالعه هناك من أحبَّ الوقوف عليه .

وأما ابن رِضْوان[1] الذى ذكره الرَّحَوى فى قصيدته ، فهو أبو القاسم عبد الله
ابن يوسف بن رِضوان النجارى ؛ أصله من الأندَلُس ، نشأ بمَالَقة ، وأخذ عن ٥
مشْيَختها ، وحذِق فى العربية والأدب ، وتفنَّن فى العلوم ، ونظَم ونثَر ، وكان
مُجيدا فى التَّرسيل ، ومُحسِنا فى كتابة الوثائق ؛ وارتحل بعدَ واقعة طَرِيف ، ونزَل
بسَبتَة ، ولقِى بها السلطان أبا الحسن ، ومدحه ، وأجازه ، واختصَّ بالقاضى إبراهيم
ابن أبى يحيى[2] ، وهو يومئذ قاضى العساكر ، وخطيبُ السلطان ، وكان يستنيبُه
فى القضاء والخطابة ؛ ثم نظَمه فى حَلْبَة الكُتَّاب بباب السلطان ، واختصَّ بخدمة ١٠
عبد المُهَيمِن رئيس الكُتَّاب ، والأخذ عنه ، إلى أن رَحَل السلطان إلى إفريقية ،
وكانت واقعةُ القَيْرَوان ، وانحصر بقَصَبة تُونِس مَن انحَصر بها ، من أشياعه مع أهله
وحُرَمه ، وكان السلطان قد تخلّف ابنَ رِضوان هذا بتُونِس فى بعض خدَمه ،
فجَلّى عند الحِصَار فيما عرض لهم من المكاتبات ، وتولّى كِبْر ذلك ، فقام فيه
[١١ب] أحسن قيام ، إلى أن وصل السلطان من القَيْرَوان ، فرعى لَهُ/ حقّ خِدمته ، ١٥

---

[١] ز « بالطاعون » [٣] ز ط « فليطالع هناك » [٤] فى الأصل « وهو أبو القاسم »
والمثبت عن ز ط [٨] ز « ونزل سبتة » [١٠] ز ط « فى جلة الكتاب »
[١٢] ز « بالقصبة بتونس » ، ز ط « مع من انحصر » [١٣] ز ط « قد خلف » ، سقط
« هذا » من ز ط ، ز « بعض خَدَمته » [٧] ز ط « فجلا » .

---

(١) انظر ترجمة ابن رضوان هذا ، فى الاستقصا ٢/١٢٣ ، نثير الجمان لابن الأحمر ص ٩١
(نسخة خاصة) ، جذوة الاقتباس ص ١٤٩ ، نفح الطيب ٣/٤٦١ .

(٢) إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى بكر التسُولى التازى أبو إسحق ؛ يعرف
بابن أبى يحيى المتوفى بعد سنة ٧٤٨ . المرقبة العليا ص ١٣٦ ، الجذوة ص ٨٤ ، الإحاطة
١/٢١٧ ، نفح الطيب ٣/١٩٨ .

تأنيسًا ، وقرْبا ، وكثرةَ استعمال ، إلى ن ارتحَل من تُونس فى الأسطول ، إلى المغرب سنة خمسين كما مرَّ . واستخلف بتُونِس ابنَه أبا الفضل[1] وخلّف أبا القاسم ابن رِضْوان كاتبا له ، فأقام كذلك أياما ، ثم غلَبَهم على تُونس سُلطان الموحِّدين الفضلُ بن السلطان أبى يحيى ، ونَجا أبو الفضل إلى أبيه ، ولم يُطِق ابنُ رضوان الرِّحلة معه ، فأقام بتونِس حَوْلا ، ثم ركب البحر إلى الأندَلس ، وأقام بالمَرِية مع جُملةِ [مَن][2] هنالك مِن أشياع السلطان أبى الحسن ؛ كان فيهم عَامِر[3] بن محمد بن علىّ شيخ هِنْتَاتة ، كافلا لحُرَم السلطان أبى الحسن ؛ وابنِه ، أركبهم السَّفِينَ معه من تُونِس عندما ارتحل ، فخَلَصوا إلى الأندلس ، ونزَلوا بالمَرِية ، وأقامُوا بها تحت جِرَايةِ سلطان الأندلس ، فلَحِق بهم ابنُ رضوان ، وأقام معهم ، ودعاه أبو الحجّاج[4] سلطان الأندلس إلى أن يستكتبه فامتنع ، ثم هلك السلطان أبو الحسن ، وارتحل مُخلَّفه الذين كانوا بالمَرِية ، ووفَدوا على السلطان أبى عِنَان ، ووفَد معهم ابن رضوان ، فَرَعى له وسائلَه فى خِدمة أبيه ، واستكتبه ، واختصَّه بشهود مَجلسه ، مع طلبَة العلم بحضرته ؛ وكان محمد بن أبى عمرو يومئذ رئيس الدولة ، ونَجِىّ الخَلوة ، وصاحب العَلاَمة ، وحُسبان الجِباية والعساكر ، قد غَلَب على هوَى

---

[١] ز ط « إلى أن رحل » [٣] ز ط « فأقاما كذلك » [٨] « خلص إلى » ، ط « ونزل إلى المرية » [١١] فى الأصل « وارتحل مخلفه » والمثبت عن ز ط

---

(١) هو أبو الفضل محمد بن السلطان أبى الحسن ، وأخو السلطان أبى عنان . انظر تاريخ ابن خلدون ٢٩٣/٧ وما بعدها .

(٢) الزيادة عن ز ط .

(٣) عامر بن محمد بن على ، شيخ هنتاتة من قبائل المصامدة . تولى أحكام الشرطة بتونس فى عهد السلطان أبى الحسن ، وولى الجباية لأبى عنان ، فكفاه مؤنتها ؛ وكان أبو عنان يقول عنه : « وددت لو أصبت رجلا يكفينى ناحية المشرق من سلطانى ، كما كفانى محمد بن عامر ناحية المغرب وأتودع » . ابن خلدون ٣٠٠/٧ ، ٣١٧ .

(٤) هو سابع ملوك بنى الأحمر ، أبو الحجّاج يوسف بن إسماعيل ابن الأحمر . (٧١٨ — ٧٥٥) ولى الملك سنة ٧٣٤ . اللمحة البدرية ص ٧٩ — ١٠٠ .

السلطان ، واختصَّ به ، فاستخدم له ابنَ رضوان حتى عَلِق منه بذِمه ، ولايةً وصحبةً ، وانتظامًا فى السَّمَر ، وغِشْيَان المجالس الخاصَّة ، وهو مع ذلك يُدْنيه من السلطان ، ويُنفِق سُوقَه عِنده ، ويستكفى به فى مواقف خدمته إذا غاب عنها لما هو أهمّ ، فحَلِي بعين السُّلطان ، ونفقت عنده فضائلُه ، فلمَّا سار ابن أبى عَمرو فى العساكر إلى بجَايَة ، سنة أربع وخمسين ، انفرد ابن رِضوان بقلم الكتاب عن السلطان ، ثم رجع ابن أبى عَمرو ، وقد سخِطه السلطان ، فأقصاه إلى بجَايَة وولّاه عليها ، وعلى سائر أعمالها ، وعلى حرب الموحِّدين بقُسَنْطِينة ، وأفرد ابنَ رضوان بالكتابة ، وجعل إليه العَلاَمَة ، كما كانت لابن أبى عَمرو ، فاستقلّ بها ، موفَّر الإقطاع ، والإسهام ، والجاه ؛ ثم سَخِطه آخر سبع وخمسين ، وجعل العَلاَمة لمحمد بن أبى القاسم ابن أبى مَدْيَن ، والإنشاء والتوقيعَ لأبى إسحق إبراهيم بن الحاج الغرناطى[1] .
فلما كانت دولة السلطان أبى سَالم[2] ، جعل العَلاَمة لعلىّ بن محمد بن سعود[3] صاحب ديوان العساكر ، والإنشاء والتوقيعَ والسرَّ لمؤلف الكتاب عبد الرحمن ابن خَلدون[4]/ ؛ ثم هَلكَ أبو سالمُ سنة ثنتين وستين ، واستبدَّ الوزير عَمَر [١١٢]

[١] ز ش ط « منه بذمّةٍ ولاية وصحبة وانتظام » [٣] ط « يستكفى به »
[٤] ز ط « فحَلا » [٥] ش « وانفرد ابن رضوان » ، ز ط « بعلامة الكتاب »
[٦] ز ط « ثم رجع ابن أبى عمرو بالسلطان فأقصاه . . . » [١١] فى العبر ٣٠٥/٧ « السعود » [١٣] ط « سنة اثنتين » .

(١) إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم . . . النميرى أبو إسحق ؛ يعرف بابن الحاج ولد سنة ٧١٣ ، وكان حيا فى سنة ٧٦٨ . إحاطة ١٩٣/١ — ٢١٠ .

(٢) أبو سالم هذا هو إبراهيم بن السلطان أبى الحسن ، وأخو السلطان أبى عنان فارس. تفصيل أخباره فى تاريخ ابن خلدون ٣٠٤/٧ — ٣٠٦ .

(٣) هو على بن محمد بن أحمد بن موسى بن سعود الخزاعى ، يكنى أبا الحسن ؛ أصله من الأندلس من بيت علم ، وقدم أبوه تلمسان . كان فقيها أديبا لغويا . نثير الجمان لابن الأحمر ص ٩٥ ، ٩٦ (نسخة خاصة) .

(٤) انظر تفصيل هذا الخبر فى العبر ٣٠٥/٧ .

ابن عبد الله[1] على مَن كفَلَه من أبنائهم ، فجعَل العَلاَمة لابن رِضْوان ، سائرَ أيامه ، وقتله عبد العزيز بن السلطان أبي الحسَن ، واستبدّ بملكه ، فلم يزل ابنُ رِضْوان على العَلامة ، وهلَك عبدُ العزيز ، ووَلِي ابنُه السَّعيد في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي[2] بن الكاس ، وابنُ رضوان على حاله ؛ ثم غَلَب

٥ السلطان أحمد على المُلْك ، وانتزعه من السعيد ، وأبي بكر بن غازي ، وقام بتدبير دَولته محمد بن عثمان بن الكاس[3] ، مستبدًّا عليه ، والعَلاَمةُ لابن رِضْوان ، كما كانت ، إلى أن هلك بأَزَمُّور[4] في بعض حركات السلطان أحمد إلى مرّاكُش ، لحصَار عبد الرحمن بن بُوَيَفَلُوسَن[5] ابن السلطان أبي علي سنة (. . . .)[6].

١٠ وكان في جُملة السلطان أبي الحسن جماعة كبيرة من فُضلاء المغرب وأعيانه ،

---

[١] ز « من أبنائه » [٧] ز ط « في حركة السلطان » [٨] ط « بحصار عبد الرحمن » ز ط » « بن أبي يفلوسن » [٩] ز ط « أبي علي وكان في » .

---

(١) الوزير عمر بن عبد الله ، من الوزراء الذين كان لهم الأثر البارز في تصريف شئون الدول بالمغرب ؛ وأخباره ذكرت مفصلة في العبر ٣١٩/٧ ، ٣٢٣ .

(٢) الوزير أبو بكر بن غازي هذا ؛ كان له صيت وسطوة أيام بني مرين ، وكانت له كذلك صلة بلسان الدين ابن الخطيب ، عند ما انتقل إلى المغرب . انظر تاريخ ابن خلدون ٣٣٦/٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ .

(٣) انظر ترجمة الوزير محمد بن عثمان في العبر ٣٥١/٧ — ٣٥٢ ، وبعض أخباره في ٣٣٨/٧ — ٣٤١ من العبر أيضا .

(٤) أزمور (Azemmour) ضبطها بالقلم بفتح الهمزة ، وبعدها زاي مفتوحة ، ثم ميم مشددة مضمومة ؛ وهي مدينة على ساحل المحيط بالمغرب الأقصى على الحافة اليسرى لمصب وادي أم الربيع . عرضها الشمالي ١٠′ — ٣٣° ، وطولها الغربي ٢٠′ — ٨° . وانظر صبح الأعشى ١٧٢/٥ .

(٥) في العبر (٣٤٤/٧ — ٣٤٧ ، ٣٧٨) تفصيل الحوادث التي كانت بين عبد الرحمن ابن بويفلوسن ، صاحب مراكش ، وأبي العباس صاحب فاس .

(٦) بياض بالأصل ، ج .

هلك كثير منهم فى الطاعون الجارف بتُونِس، وغرِق جماعة منهم فى أُسطوله لمّا غرِق، وتخطت النكبة. [منهم][1] آخرين إلى أن استَوفوا ما قُدِّر من آجالهم.

فمّن حضر معه بإفريقيــة مِن العُلماء، شيخُنا أبو العبّاس أحمد بن محمد الزَّوَاوى، شيخ القراءات بالمغرب؛ أخذ العلم والعربية عن مَشيَخة فاس، وروى عن الرحَّالة أبى عبد الله محمد بن رُشيد، وكان إماما فى فن القراءات وصاحبَ ٥ ملَـكة فيها لا تُجارَى، وله مع ذلك صوت من مزامير آل داود[2]، وكان يصلّى بالسلطان التَّرَاوِيح، ويقرأ عليه بعضَ الأحيان حِزبه.

وممّن حضر معه بإفريقية، الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن الصبَّاغ من أهل مكْنَاسَة[3] [كان][4] مبرِّزا فى المنقول والمعقول، وعارفا بالحديث[5] وبرجاله، وإماما فى معرفة كتاب الموطأ وإقرائه؛ أخذ العلوم عن مَشْيَخَة فاس، ومِكْنَاسة، ١٠ ولَقِى شيخنا أبا عبد الله الآبِلِيّ، ولازَمَه، وأخذ عنه العلوم العقلية، فاستنفدَ بَقِية طَلَبه عليه، فبرَّز آخرا؛ واختاره السلطان لمجلسه، فاستدعاه، ولم يزَل معه إلى

---

[٣] ز ط « بإفريقية الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد الزواوى » [٤] ز ط « شيخ القراء » [٥] سقط « محمد » من ز ط [٦] ز ط ش « لا يُجارَى » [٩] ز ط «المعقول والمنقول» [١١] نيل الابتهاج، ز « فاستفاد بقية»

---

(١) الزيادة عن ز.

(٢) ورد فى حديث لأبى موسى الأشعرى، أنه كان يقرأ، فسمعه النبى صلى الله عليه وسلم فقال: لقد أعطيت مزمارا من مزامير آل داود؛ يكنى عن حسن صوته. تاج العروس ٣٤٠/٣.

(٣) انظر ترجمة ابن الصَّبَّاغ فى الجذوة ص ١٨٩، نيل الابتهاج ص ٢٤٤.

(٤) الزيادة عن نيل الابتهاج، وهى ضرورية. ومكناسة (Meknes) بكسر الميم وسكون الكاف، سميت باسم قبيلة مكناسة التى اختطتها؛ وهى إحدى المدن الكبرى الشهيرة بالمغرب. عرضها الشمالى ٠٠َ — ٣٤°، وطولها الغربى ٣٣َ — ٥°. ياقوت ١٣٣/٨.

(٥) يقولون إنه أملى فى مجلس درسه، على حديث: « يا أبا عمير، ما فعل النُّغَير » أربعمائة فائدة. نيل الابتهاج ص ٢٤٤، الاستقصا ٨٤/٢.

أن هلك غريقا فى ذلك الأسطول[1] .

ومنهم القاضى أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النُّور ، من أعمال نَدْرُومَة[2] ، ونسبُه فى صِنهَاجة ، كان مبرِّزا فى الفقه على مذهب الإمام مالك ابن أنَس ، تفقَّه فيه على الأخوَيْن أبى زيد ، وأبى موسى ابنَى الإمام ، وكان من ٥ جِلَّة أصحابهما .

ولما استولى السلطان أبو الحسَن على تِلِمْسان ، رفَع من مَنزِلة ابنَى الإمام ، واختصَّهما بالشُّورَى فى بلدِهما ، وكان يَستكثر من أهل العلم فى دولته ، ويُجْرى لهم الأرزاق ، ويَعْمُر بهم مجلسَه ؛ فطلبْ يومئذ من ابن الإمام أن يختار لَه من أصحابه من يَنظِمه فى فُقهاء المجلس ، فأشاروا عليه بابن عَبد النُّور هذا ، فأدناه ، ١٠ وقرَّب مجلسَه ، وولاه قضاء عسكره ، ولم يزَل فى جُملته إلى أن هلكَ فى الطاعون بتُونس سنة تسع وأربعين ، وكان [قد][3] خلَّف بتلمسان أخاه عليا رفيقَه فى دروس ابن الإمام ، إلا أنه أقصر باعا منه فى الفقه . فلما خَلَع السلطان أبو عِنَان طاعة أبيه السلطان أبى الحسَن ، ونهض إلى فاس ، استنفَره فى جُملته ، وولَّاه قضاء مِكْنَاسة ، فلم يزل بها ، حتى إذا تغلَّب عُمَر بن عبد الله على الدّولة كما مر ، نَزَع

---

[٥] ز « من جلة » [٨] ز « الأرزاق يعمر » [٩] ز « فقهاء المجالس » [١٠] ز « هلك بالطاعون» [١١] ط ج « سبع وأربعين » [١٣] ز ط « فاستنفره » [١٤] ز ط « حتى تغلب» .

---

(١) يكرر ابن خلدون قوله فى هذا الحادث لفدح المصاب فيه ؛ فلقد كانت قطع الأسطول نحو ستمائة قطعة ، غرقت كلها ، وهلك فيها من أعلام المغرب نحو أربعمائة . الاستقصا ٢/٨٤ .

(٢) ترجمة الندروى فى نيل الابتهاج ص ٢٤٢ ، نفح الطيب ٣/١٢٥ . جذوة ١٩٠. وندرومة (Nedroma) بفتح النون وسكون الدال ، ثم راء مضمومة بعدها واو ، فيم مفتوحة فهاء التأنيث : مدينة بالجزائر فى الشمال الغربى لتلمسان ، وبينها وبين الساحل نحو ثمانية كيلو مترات ، عرضها الشمالى ٥٥′ — ٣٤° ، وطولها الغربى ٠٠′ — ٢° .

(٣) الزيادة عن ز ش .

إلى قضاء فرضِه ، فسرَّحَه ، وخرج حاجا سنة أربع وستين ؛ فلما قدمَ على مكّة ، وكان به بقيةُ مرَض ، هلك فى طواف القُدوم ، وأوصى أميرَ الحاج على ابنه محمد ، وأن يُبلِّغ وصيتَه به للأمير المتغلب على الديار المصرية يومئذ ، يَلْبُغا الخاصكى[1] ، فأحسَن خلافَته فيه ، وولَّاه من وظائف الفقهاء ما سدَّ به خَلّتَه ، وصان عن سؤال الناس وجهَه ؛ وكان له — عفا اللهُ عنه — كَلَفٌ بعَمَل الكيمياء ، تابعا لمن غلط فى ذلك من أمثاله ، فلم يزل يُعانى من ذلك ما يورِّطه مع النَّاس فى دينه وعِرْضِه ، إلى أن دعته الضرورة للترحُّل عن مصر ، ولَحِق ببغداد ، وناله مثل ذلك ، فلحق بمَارِدِين ، واستقر عندَ صاحبها ، وأحسن جِوَاره ، إلى أن بلغَنا بعدَ التسعين أنه هلك هنالك حَتْفَ أنفه ، والبقاء لله [وحدَه] .

ومنهم شيخ التَّعَالِم أبو عبد الله محمد بن النَّجّار[2] من أهل تِلْمِسان ؛ أخذ العلم ببلده عن مشيختها ، وعن شيخنا الآبِلِىّ ، وبرَّز عليه . ثم ارتحل إلى المغرب ، فلقى بسبتة إمامَ التعالِم ، أبا عبد الله محمد بن هِلاَل شارح المِجِسْطِى فى الهَيْئة ، وأخذ بمَرّاكُش عن الإمام أبى العباس بن البَنَّاء وكان إماما فى عُلُوم النِّجامة وأحكامها ، وما يتعلّق بها ، ورجع إلى تِلْمِسان بعلم كثير ، واستخلصته الدّولة . فلما هلك أبو تاشِفين ، وملَكَ السلطانُ أبو الحسن ، نظَمه فى جُملته وأجرى له رِزقه ، فحضر معه بإفريقية ، وهلك فى الطاعون .

---

[٢] زش «فهلك» [٥] زط « بعلم الكيمياء » ، ز « طالبا لمن » [٨] زش ط « فأحسن » [٩] الزيادة عن ش [١١] ز « عن مشيختنا » [١٣] ز « فى علم » [١٤] بالأصل « علم كبير » والمرجح إثباته عن ز ش ط .

---

(١) هو الأمير المعروف يلبغا بن عبد الله الخاصكى الناصرى . تناهت إليه الرياسة ، ولقب نظام الملك ، وبلغت عدة مماليكه ثلاثة آلاف . وسيأتى لابن خلدون الحديث عنه مرة أخرى انظر ترجمته فى الدرر الكامنة ٤/٤٣٨ .

(٢) هو محمد بن على بن النجار التلمسانى أبو عبد الله . ترجمته فى نيل الابتهاج ص ٢٤١ ، نفح الطيب ٣ / ١٢٦ ، جذوة الاقتباس ص ١٩٠

ومنهم أبو العباس أحمد بن شُعَيب[1] من أهل فاس ؛ بَرَع فى اللسان ، والأدب ، والعلوم العقلية ، من الفلسفة ، والتعاليم ، والطب ، وغيرها ؛ ونظمه السلطان أبو سَعيد فى حَلْبة الكُتَّاب ، وأجرى عليه الرِّزق مع الأَطِبَّاء ؛ لتقدُّمه فيهم ، فكان كاتبَه ، وطبيبَه ؛ وكذا مع السلطان أبى الحسن بعدَه ، فحضر
٥ بإفريقية ، وهلك بها فى ذلك الطاعون ، وكان له شعْر سَابقَ به الفحُول من المتقدمين والمتأخرين ، وكانت له إمامة فى نقد الشعر ، و بصَرٌ به ؛ ومما حضرنى الآن من شعره :

دارُ الهوى نَجدٌ وساكنُها ... أقصى أمانى النَّفس من نجْدِ
هل بَاكَرَ الوَسْمِىُّ ساحتها ... واستَنَّ فى قِيعانها الُجرْدِ
١٠ أو بات معتلُّ النَّسيم بهـا ... مُسْتَشْفِيًا بالبَانِ والرَّندِ
يتلو أحاديث الذين هُمُ ... قَصْدى و إن جاروا عن القَصدِ
أيام سُمْرُ ظلالِها وطَنِى ... منها وزُرْقُ مِيَاهِها وِردِى
ومَطارح النَّظَرات فِى رَشأ ... أحْوَى المدامع أهْيَفِ القَــدِّ
يَرنُو إلَيْــكَ بِعيْنِ جَازِيَةٍ ... قتِل المُحِبُّ بهَا عَلَى عَمْــدِ
١٥ حتى أجدَّ بهم على عَجَــل ... رَيْثُ الُخطوب وعاثِرُ الجَــدِّ
فَقَدوا فلا وأبيك بعــدَهم ... ما عِشْتُ لا آسَى على الفَقْــدِ
وغَدَوا دفينا قد تضمَّنَـــه ... بطن الثَّرى وقرارة اللَّحْــدِ
ومشرَّدا من دُون رُؤْيتِـــه ... قُذُفُ النوى وتَنُوفة البُعْدِ

---

[١] ز « الأدب واللسان » [٣] ز ط « فى جلة » ، ز « رزق الأطباء » ز « لتقدمه فيه » [٥] نيل الابتهاج « وله شعر يُسَابق به » [٦] ز « وما حضرنى الآن من شعره إلا قوله » .

---

(١) هو أحمد بن شعيب الجزنـائى التازى نزيل فاس . كتب لأبى الحسن المرينى ، وتوفى بتونس سنة ٧٥٠ . نثر فرائد الجمان ص ٥٧ — ٦١ ، نثير الجمان ص ٩٧ (كلاهما نسخة خاصة) نيل الابتهاج ص ٦٨ .

أجْرَى علىَّ العيشُ بعدَهمُ أنِّى فَقَدتُ جميعَهم وَحْـدِى
لا تَلحَنِى يا صاحِ فى شَجَنٍ أخفيتُ منه فوق ما أبْـدِى
بالغَرْب لى سَكن تأوَّبنى من ذِكره سُهْد على سُهدِ
فَرخَان قد تُرِكا بمضْيَعَـةٍ زُوِيَتْ عن الرُّفَدَاء والرِّفْدِ

***

[١١٣] / ومنهم صاحبنا الخطيب أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مَرزُوق[1]؛ من أهل تِلِمْسان ، كان سلفَه نُزَلاء الشّيخ أبى مَدْين بالعُبَّاد ، ومتوارثين خدْمة تُربته ، من لَدُن جدِّهم خادِمِه فى حياته . وكان جدُّه الخامس أو السَّادس ، واسمه أبو بكر ابن مَرزُوق ، معروفاً بالوِلاية فيهم ، ولما هلك دفنَه يَغمْرَاسَن[2] بنُ زَيَّان ، سلطانُ تِلِمْسان من بَنى عبد الوَاد ، فى التُّربة بقصره ، ليُدفَنَ بإزائه ، متى قُدِّر بوفاته . ونشأ محمد هذا بتِلمْسان ، ومولدُه — فيما أخبرنى — سنةَ عشر وسبعمائة[3] ، وارتحل مع أبيه إلى المشرق ، وجاور أبوه بالحَرَمَيْن الشَّريفين ، ورجع هو إلى القاهرة ، فأقام بها ، وقرأ على بُرهان الدين الصَّفاقُسى[4] المالكى وأخيه ، وبرع

[١] ز « أحرى » وفى الأصل « أجدى » [٤] سقط هذا البيت من ز [٩] ز « السلطان بتلمسان» [٩ — ١٠] ش «قدر وفاته » [١١] نفح الطيب ، ونيل الابتهاج : « وارتحل مع والده » [١١] ز «ودخل الشرق» ، ز «القاهرة وأقام بها» .

(١) ابن مرزوق هذا ، من بيت علم معروف . وتجد الحديث المبين عن بيته ، وعنه ، فى نفح الطيب ٣/٢١١ — ٢١٩ ، البستان ص ١٨٤ ، نيل الابتهاج ص ٢٦٧ ، ديباج ص ٣٠٥ ، تاريخ ابن خلدون ٧/٣١٢ .

(٢) يغمراسن هذا هو ابن زيان بن ثابت بن محمد ، من بنى عبد الواد ؛ كان من أشدهم بأسا ، وكانت له فى النفوس مهابة . ولى الملك سنة ٦٣٣ ، ودان له المغرب الأوسط وتلمسان . أخباره مبينة فى العبر ٧/٧٨ — ٩٣ .

(٣) تاريخ مولد ابن مرزوق ، كما ذكره ابن خلدون ، يخالف ما ذكره ابن الخطيب فى الإحاطة حيث يقول إنه ولد سنة ٧١١ هـ . وانظر نفح الطيب ٣/٢١١ ، ٢١٢ .

(٤) إبراهيم بن محمد بن إبراهيم القيسى الصفاقسى برهان الدين (٦٩٧ — ٧٤٣ ، أو٤٢) صاحب كتاب « إعراب القرآن» . ألّفه بالاشتراك مع أخيه شمس الدين محمد . ديباج ص ٩٢ الدرر الكامنة ١/٥٥ .

فى الطَّلَب والرواية ، وكان يُجيد الخطَّيْن ؛ ثم رجع سنةَ خمس وثلاثين إلى المغرب ، ولقِيَ السُّلطان أبا الحسَن بمكانِه من حِصار تِلِمْسان ، وقد شَيَّد بالعُبَّاد مَسجِدا عظيما ؛ وكان عمُّه محمد ابن مَرْزوق خطيبا به على عادتهم بالعُبّاد ، وتُوفى ، فولَّاه السلطان خَطابة ذلك المسجد مكانَ عمِّه ، وسمِعَه يخطب على المِنبَر ، ويُشيدُ بذكره ، والثناء عليه ، فحَلِيَ بعينه ، واختَصَّه ، وقرَّبه ، وهو مع ذلك يلازم مجلس الشيخين ابنَى الإمام ، ويأخذ نفسَه بلِقاء الفُضلاء ، والأكابر ، والأَخذِ عنهم ؛ والسلطانُ فى كل يوم يزيده رُتبة ؛ وحضر معه واقعة طَريف التى كان فيها تمحيصُ المسلمين ، فكان يستَعمله فى السِّفارة عنه إلى صاحب الأندلس . ثم سَفَر عنه ، بعدَ أن مَلَكَ إفريقية ، إلى ابن أُذفونش مَلِك قَشْتالَة [(١)] ، فى تقرير الصُّلح ، واستِنْقاذِ ابنه أبى عمر تاشفين ، كان أُسر يومَ طريف ، فغَاب فى تلك السِّفارة عن واقعة القَيْرَوان ، ورجَع بأبى تاشِفين مع طائفة من زعماء النَّصرانية ، جاءوا فى السِّفارة عن مَلِكهم ، ولَقِيَهم خبَرُ واقعة القَيْرَوان ، بقُسَنطِينة ، من بلاد إفريقية ، وبها عامل السلطان وحاميتُه ، فثار أهل قُسَنْطِينَة بهم جميعا ، ونهَبوهم ، وخطَبوا الفضل ابن السلطان أبى يَحْيى ، وراجعوا دعوة الموحِّدين ، واستدعوه فجاء إليهم ، وملَكَ البلَد ، وانطلق ابن مَرْزوق عائدا إلى المغرب ، مع جماعة من الأعيان ، والعُمّال/، [١٣ب] والسفراء عَن الملوك ، ووَفَد على السلطان أبى عِنَان بفاس مع أُمّه حَظيـة أبى الحسَن ، وأثيرته ، كانت راحلةً إليه ، فأدركها الخبر بقُسَنطنية ، وحضرت

---

[١] نفح الطيب ز ش « رجع سنة ثلاث » [٣] نفح الطيب ط ز « عادتهم فى العباد » [٤ — ٥] نفح الطيب « يذكره ، ويثنى » [٦ — ٧] ز « والسلطان كل يوم يزيد ترقية » ، ش ط « يزيد ترتيته » [١٦] ز « والسفراء على الملوك » .

---

(١) مملكة قشتالة (Castile) تقع فى جنوب مقاطعة مدريد ، وكانت تشمل كلا المقاطعتين: Cuenca التى تقع فى الجنوب الشرق لمقاطعة مدريد ، و Toledo الواقعة فى الجنوب ، والجنوب الغربى لمقاطعة مدريد أيضا . وانظر اللمحة البدرية ص ٤٣ .

الهَيْعَة ، واتصل بها الخبر بتوثُّب ابنها أبي عِنَان على مُلْك أبيه ، واستيلائه على فاس ،
فرجعت إليه ، وابنُ مَرْزوق في خدمتها ، ثم طلب اللَّحاق بتِلِمْسان ، فسرَّحوه إليها،
وأقام بالعُبَّاد مكان سلفه ، وعلى تِلِمْسان يومئذ أبو سَعيد عثمان بن عبد الرحمن بن
يحيى بن يَغْمَراسَن بن زَيَّان ، قد بايع له قَبيلهُ بنو عبد الوَاد بعد واقعة القَيْرَوَان
بتونس ، وابن تَافرَاكين يومئذ مُحاصِرٌ القَصَبة ، كما مر في أخبارهم ، وانصرفوا ٥
إلى تِلِمْسان ، فوجدوا بها أبا سعيد عثمان بن جَرَّار (١) ، من بيت ملوكهم ، قد
استعمله عليها السلطان أبو عِنَان ، عند انتقاضه على أبيه ، ومسيره إلى فاس .

فانتقض ابن جَرَّار من بعده ، ودعا لنفسه ، وصمد إليه عثمان بن عبد الرحمن
ومعه أخوه أبو ثابت وقومُهُما ، فملكوا تِلِمْسان من يد ابن جَرَّار ، وحبَسوه ثم
قتلوه ؛ واستبدَّ أبو سعيد بمُلك تِلِمْسان ، وأخوه أبو ثابت يُرادفه ، وركب ١٠
السلطان أبو الحسَن البحر من تُونس ، وغرِق أسطوله ، ونجا هو إلى الجزائر ،
فاحتلَّ بها ، وأخَذ في الحشْد إلى تِلِمْسان ، فرأى أبو سعيد أن يكفَّ غَرْبه عنهم ،
بمواصلة تقع بينهما ، واختار لذلك الخطيبَ ابنَ مرزوق ، فاستدعاه وأسرَّ إليه بما
يلقيه عنه للسلطان أبي الحسَن ، وذهب لذلك على طريق الصَّحراء ، واطّلع
أبو ثَابت وقومُهم على الخبر ، فنكِرُوه على أبي سَعيد ، وعاتَبوه ، فأنكر ، فبَعَثُوا ١٥
صُغَير بنَ عامر في اعتراض ابن مَرْزوق ، فجاء به ، وحَبسُوه أياما ، ثم أجازوه
البحرَ إلى الأندلُس ، فنزَل على السلطان أبي الحجَّاج بغرناطة ، وله إليه وسيلة
منذُ اجتماعه به بمجلس السلطان أبي الحسَن بسَبْتَة إثْرَ واقعة طريف ، فرَعَى له
أبو الحجَّاج ذِمَّة تلك المعرفة ، وأدناه ، واستعمله في الخَطَابة بجامعه بالحمراء ، فلم
يزل خطيبَه إلى أن استدعاه السلطان أبو عِنَان سنة أربع وخمسين بعد مَهْلَك أبيه ، ٢٠

[١] ز « الهيعة ، فوثب ابنها أبو عنان » [٤] ز ط ش « له قبيلة بني عبد الواد »
[٨] ز « فانتقض ابن جرار » [١٤] ز ش « يلقيه عند السلطان » [١٠] ز « أبو ثابت وقومه » .

(١) انظر أخباره في العبر ٧ / ١١٤ — ١١٥ .

واستيلائه على تِلِمْسان وأعمالها ، فقَدِم عليه ، ورَعَى له وسائله ، ونظَمه فى أكابِر
أهل مَجلِسه ، وكان يقرأ الكتاب بين يديه فى مجلسه العِلْمى ، ويُدَرِّس فى نَوبته
مع مَن يُدَرِّس فى مجلسه منهم ؛/ ثم بَعَثه إلى تُونس عامَ مَلكَها سنةَ ثمان وخمسين ؛ [١١٤]
ليخطب له ابنةَ السلطان أبى يحيى ، فَرَدَّت تلك الخِطْبَة واختفت بتُونس ، ووُشِى
٥ إلى السلطان أبى عِنَان أنه كان مطّلعا على مكانها ، فَسخِطه لذلك ، ورجع السلطان
من قُسَنْطِينة ، فثار أهل تُونِس بمن كان بها من عمَّاله وحَامِيته ، واستقدموا أبا محمد
ابن تافْرَاكين من المَهْدِية[(١)] ، فجاء ، ومَلَكَ البلد ، ورَكِب القومُ الأُسطول ، ونزلوا
بمَرَاسِى تِلِمْسان ، وأوعزَ السلطان [أبو عنان[(٢)]] باعتقال ابن مَرْزوق ، وخَرَج لذلك
يَحْيى بن شُعَيب من مقدَّمى الجَنادِرَة[(٣)] ببابه ، فلقيه بتَاسَّالَة[(٤)] ، فقيده هنالك ،
١٠ وجاء به ، فأحضره السلطان وقرَّعه ، ثمَّ حبَسه مُدَّة ، وأطلقه بين يدى مَهْلِكه ؛
واضطربت الدولة بعد موت السلطان أبى عِنَان ، وبايع بنو مَرِين لبعض الأَعياص
من بنى يعقوب بن عبد الحق ، وحاصروا البلد الجديد ، وبها ابنه السَّعيد ، ووزيره المستبد
عليه ، الحسَن بن عُمَر ؛ وكان السلطان أبو سالم بالأندلس ، غرَّبه إليها أخوه السلطان
أبو عِنَان ، مع بَنِى عمهم ، ولدِ السلطان أبى علىّ بعد وفاة السلطان أبى الحسن ، وحصُولهم
١٥ جميعا فى قَبْضته . فلما تُوفّى ، أراد أبو سالم النهُوض لمُلْكه بالمغرب ، فَمَنَعه رضْوان[(٥)]

---

[٩] ز « بتاسالت » [١١] ز « وبايع بعض بنى مرين » .

---

(١) المهدية (Mahdia) : مدينة على الساحل بتونس ، بَناها عُبيد الله المهدى رأس العُبيديين ؛ عرضها الشمال ٣٠ ′ — ٣٥ ° ، وطولها الشرق ٠٠ ′ — ١١ ° . ياقوت ٨/٢٠٦ — ٢٠٨ .

(٢) الزيادة عن ش .

(٣) يريد بالجنادرة رجال الشرطة ؛ والمفرد : جاندار التى يتكون من كلمتين فارسيتين : جان ، ومعناها : سلاح ، ودار معناها ممسك . انظر السلوك للمقريزى ص ١٣٣ .

(٤) موقع « جبال تاسالة » (Tessala) بالجزائر ، بجانب عين تموشنت ، فى ناحية الجنوب منها .

(٥) هو أبو النعيم رضوان . تولى الحجابة والوزارة ، لأبى الحجاج يوسف بن إسمعيل =

القائم يومئذ بمُلْك الأندلس، مستبدا على ابن السلطان أبى الحَجّاج، فلحِقَ هو بإشبيلية،
من دار الحرب، ونزَل على بِطْرُه[1]، مَلِكهم يومئذ، فهيَّأ له السَّفين، وأجازه
إلى العُدْوَة، فنزل بجَبَل الصَّفيحة[2]، من بلاد غُمَارة، وقام بدَعوته بَنُومَسْى،
و بنو منير أهل ذلك الجَبَل منهم، حتَّى تمَّ أمره، واستَولى على ملكه؛ فى
خبر طويل، ذكرناه فى أخبار دَولتهم. وكان ابن مَرْزُوق يُداخِله، وهو بالأندلس، ٥
ويَستخدم له، ويُفاوِضه فى أموره، وربّما كان يكاتبه، وهو بجَبَل الصَّفيحة،
ويُدَاخل زعماء قومه، فى الأخذ بدَعوته. فلما مَلَكَ السلطان أبو سالم، رعَى له
تلك الوسائل أجمع، ورفعه على الناس، وألقَى عليه محبّته، وجعل زِمام الأمور
بيده، فوطِئ الناس عَقِبه، وغشِىَ أشرافُ الدَّولة بابَه، وصَرَفوا الوجوه إليه،
فمَرِضَت لذلك قلوب أهل الدولة، ونقَموه على السلطان، وتربَّصوا به، حتى ١٠
توثَّب عُمَر بن عبد الله بالبلد الجديد، وافترَق الناس عن السلطان، وقتله عُمَر
ابن عبد الله آخر ثنتين وستين، وحبَس ابنَ مرزوق / وأغرى به سلطانَه الذى [١٤ب]
نصَبَه؛ محمّدَ بن عبد الرحمن بن أبى الحسن، فامتحَنَه، واستصفاه، ثم أطلقه،
بعد أن رام كثيرٌ من أهل الدَّولة قَتلَه، فمَنَعه منهم. ولحِق بتُونِس، سنةَ
أربع وستين، ونزَل على السلطان أبى إسحق، وصاحبِ دولته المُستَبِدّ عليه، ١٥

[٣] ز «بنو مسير» [٤—٥] ز «منهم ثم أمدوه»، ش «كما ذكرناه»، ز «أخبار دولته» [٩—١٠] سقط من ز «وصرفوا ... الدولة» [١١] الأصل، ج «نوبت» وهو تحريف، ز «وثب عبدالله بن عمر». والمثبت عن ش، ز «الناس على» [١٣] ز ش «محمد ابن أبى عبد الرحمن».

= ابن الأحمر، واستبد على ملكه، فقبض عليه عام ٧٤٠ هـ. انظر اللمحة البدرية ص ٨٩، وتاريخ ابن خلدون ٧/٣٠٦.

(١) اصطلح ابن خلدون على كتابة «بطره» بطاء، فوقها نقطتان، إشارة إلى أن نطقها بين الطاء والتاء؛ وقد أشار إلى الطريق التى اتبعها فى رسم مثل هذا الحرف، مما خرج نطقه عن النطق العربى الخالص — فى أول مقدمته ص ١٧ طبع بولاق.

(٢) انظر تفصيل نزول أبى سالم ببلاد غمارة، وأخباره فى العبر ٧ / ٣٠٤، ٣١٢.

أبى محمّد بن تافراكين ، فأكرموا نُزُله ، وولَّوه الخطابة ، بجامع الموحّدين بتُونس ، وأقام بها ، إلى أن هلَكَ السلطان أبو إسحق سنَةَ سبعين ، وَولِى ابنُه خالد . وزحَف السلطان أبو العبّاس ، حافدُ السلطان أبى يحيى ، من مَقَرِّه بقُسَنْطينَة إلى تُونس ، فملَكها ، وقتَل خالدا ، سنة ثِنتَين وسَبعين .

٥ وكان ابنُ مَرْزوق يَسْتَرِيبُ منه ، لِما كان يميل ، وهو بفاس ، مع ابنِ عمّه أبى عبد الله محمد ، صاحب بِجَاية ، ويُؤْثره عند السلطان أبى سالم عليه ، فعزَله السلطان أبو العباس عن الخُطبة ، بتُونس ، فوَجَمَ لها ، وأجمع الرِّحلة إلى المَشْرق ، وسَرَّحه السلطان ، فركِب السَّفين ، ونزَل بالإسكندرية ، ثم ارتحَل إلى القاهرة ، ولقِى أهل العلم ، وأُمَرَاء الدّولة ، ونفَقت بضائعُه عندهم ، وأوصلوه إلى السلطان ،

١٠ وهو يومئذ الأشْرف[1] ، فكان يَحضُر مجلسَه ، وولَّوه الوظائف العِلْمية ، وكان ينتجع منها مَعاشه ، وكان الذى وصل حَبْله بالسلطان إسْتدَّاره[2] محمد بن أَقْبُغا آص[3] ، لقِيه أولَ قُدومه ، فحَلِى بعينه ، واستظرف جُملته ، فسَعَى له ، وأنجحَتْ سِعايتُه ، ولم يَزَل مُقيما بالقاهرة ، موقَّر الرُّتبة ، معروفَ الفضيلة ، مرشَّحًا لقضاء المالكية ، ملازما للتدريس فى وظائفه ، إلى أن هلَكَ سنةَ إحدى وثمانين .

---

[٨] ز «ورحل إلى القاهرة» [١٠] ز «يحضر يومئذ» [١٠] ز «مجلسه وولاه» ز ش « فكان ينتجع » .

---

(١) السلطان الأشرف : هو أبو المفاخر شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون (٧٥٤ — ٧٧٨) تولى الملك سنة ٧٦٤ هـ . ترجمته فى المنهل الصافى ٢/١٧٩ ب ، الدرر الكامنة ٢/١٩٠ ، تاريخ ابن خلدون ٥/٤٥٣ ، ابن إياس ١/٢١٢ خطط على مبارك ٢/٦٠ .

(٢) والإستدّار . بكسر الهمزة : لقب للذى يتولى قبض مال السلطان . وهذا اللفظ مركب من إستذ ، ومعناها الأخذ ، ودار ومعناها الممسك ، فأدغمت الذال المعجمة فى الدال فصارت إستدّار . وكتابتها « أستاذ دار » ، خروج بها عن رسمها الصحيح ، ومن الخطأ توهم أن « أستاذ » ، و « دار » كلتان عربيتان . وانظر صبح الأعشى ٥/٤٥٧ .

(٣) هو الأمير ناصر الدين محمد بن أقبُغا آص المتوفى سنة ٧٩٥ هـ . ترجمته فى المنهل الصافى ٣/١١٣٣ .

هذا ذكرُ من حَضَرنا من جُملة السلطان أبي الحسن ، من أشياخنا ، وأصحابنا ؛ وليس موضوع الكتاب الإطالة ، فلنقتصر على هذا القَدر ، ونرجع إلى ما كنّا فيه من أخبار المؤلف .

ولاية العلامة بتونس ، ثم الرحلة بعدها إلى المغرب ، والكتابة عن السلطان أبي عنان ٥

لم أزَلْ منذ نشأت ، وناهزت مُكبًّا على تحصيل العلم ، حريصًا على اقتناء الفضائل ، متنقّلا بين دُروس العلم وحلَقاته ، إلى أن كان الطاعون الجارف ، وذَهَب بالأعيان ، والصُّدور ، وجميع المَشْيَخَة ، وهلكَ أبوايَ ، رحمهما الله ، ولزِمتُ مجلسَ شيخنا أبي عبد الله الآبِليّ ، وعكفتُ على القراءة عليه ثلاثَ سنين ، إلى أن شَدَوتُ بعضَ الشيء ؛ واستدعاه السلطان أبو عِنَان ، فارتَحَل إليه ، ١٠ [١١١] واستَدعانى أبو محمّد/بن تافَرَاكين المُستَبدُّ على الدّولة يومئذ بتُونس ، إلى كِتابة العَلَامة عن سلطانه أبي إسحق ، وقد نَهضَ إليهم من قُسَنْطينة صاحبُها الأمير أبو زيد ، حافِدُ السلطان أبي يَحْيى في عساكره ، ومعَه العرب أولادُ مُهَلهِل الذين استنجدُوه لذلك ، فأخرج ابنُ تافَرَاكين سلطانَه أبا إسحق مع العرب ، أولاد أبي اللّيل ، وبَثّ العطاء في عسكره ، وعَمَّر له المراتب والوظائف ، وتملّل عليه ١٥ صاحبُ العَلَامة أبو عبد الله محمد بن عَمَر بالاستزادة من العطاء ، فعَزَله ، وأدَالَنِي منه ، فكتبتُ العَلَامة للسلطان ، وهى وضع « الحمد لله والشُّكر لله » ، بالقَلَم الغليظ ، مما بين البسملة وما بعدها ، من مخاطبةٍ أو مرسوم ؛ وخرجت معهم أولَ

---

[١] ز « من حضره » [٥] ز « والكتابة على » [٨] ز « وذهب الأعيان » [١٢] ز « ونهض إليه » [١٤] ز « فخرج ابن تافراكين وسلطانه أبو إسحق » [١٦] الأصل، ج « غمر » وهو تحريف ، ز « محمد بن على بن عمر » ، والمثبت عن ش [١٧] ز « وهى الحمد » .

سنة ثلاث وخمسين . وقد كنت مُنطويا على مفارقتهم ، لما أصابنى من الاستيحَاش لَذهاب أشيَاخى ، وعُطلتى عن طلب العلم . فلما رجع بنو مَرِين إلى مَرَا كزهم بالمغرب ، وانحسَر تيَّارُهم عن إفريقية ، وأَكثرُ من كان معهم من الفضَلاء صَحابةٌ وأشيَاخ ، فاعتزمت على الَّلحاق بهم ، وصدّنى عن ذلك أخى وكبيرى محمّد ، رحمه

٥ الله ؛ فلما دُعيت إلى هذه الوظيفة ، سارعت إلى الإجابة ، لتحصيل غَرضى من الَّلحاق بالمغرب ، وكان كذلك ؛ فإنا لما خرجنا من تُونس ، نزلنا بلاد هَوارَة ، وزحفت العساكر بعضُها إلى بعض ؛ بفحص مَرْمَاجَنَّة ، وانهزَم صفُّنا ، ونجوت أنا إلى أُبَّة[1] ؛ فأقمت بها عند الشيخ عبد الرحمن الوَشْتَاتى ، من كبراء المرابطين ، ثم تحولت إلى تَبَسَّة[2] ، ونزلت بها على محمد بن عَبْدون ، صاحبها ، فأقمت عنده

١٠ ليالىَ حتى هيأ لى الطريق ، وبَذْرَق[3] لى مع رفيق من العرب ، وسافرت إلى قَفْصَة[4] ، وأقمت بها أيامًا أَترصَّد الطريق ، حتى قدِم علينا بها الفقيه محمّد بن الرئيس منصور بن مُزْنى ، وأخوه يوسف يومئذ صاحب الزَّاب ، وكان هو بتُونِس ، فلما حاصرها الأمير أبو زيد ، خرج إليه ، فكان معه ، ثم بلغَهم الخبر بأن السلطان أبا عنَان مَلِك المغرب ، نَهض إلى تِلِمسان ، فملكها ، وقتَل سلطانها ،

---

[٢] ز « وعطلى » [١٠] سقط من ز « وبذرق لى » ، ز « رفيق من المغرب »
[١١] سقط من ز « أترصد الطريق » [١٣] ز «فلما بلغهم» .

---

(١) أبة بضم الهمزة ، وتشديد الباء المفتوحة : بلد بينها وبين القيروان ثلاثة أيام . (تاج العروس (أب) ياقوت ١/٤٤٢ .

(٢) تبسّة (Tebessa) بالفتح ثم الكسر وتشديد الشين المهملة : مدينة بالجزائر معروفة (عرضها الشمالى ٣٠ ′ — ٣٥° ، وطولها الشرقى ٠٠ ′ — ٨°) تبعد عن مدينة قسنطينة إلى الجنوب الشرقى بنحو ١٠٥ أميال ، وبها بقايا آثار رومانية . ياقوت ٢/٣٦٣ .

(٣) البذرقة : الخفارة ، ويقال لها العصمة ؛ لأنها يعتصم بها . والكلمة معربة .

(٤) قفصة (Gafsa) بالفتح ثم السكون فصاد مهملة : بلدة صغيرة بتونس ، تقع فى فى الشمال الغربى لقابس ، وتبعد عنها بنحو ٧٤ ميلا ويصلها خط حديدى بمدينة صفاقس . ياقوت ٧/١٣٨ .

[١٥ب] عثمان بن عبد الرحمن ، وأخاه أبا ثابت ، وأنه انتهى إلى المَدِيَّة[1] ، وملَك بِجَايَة/ من يد صاحبها ، الأمير أبي عبد الله ، من حَفَدة السلطان أبي يحيى ، راسَله عندَ ما أطلّ على بَلده ، فسار إليه ، ونَزَل له عنها ، وصار في جُملته ، وولَّى أبُو عِنَان على بجاية عُمَر بن علي شيخ بنى وَطَّاس ، من بَنِي الوزير شُيوخهم .

فلما بلغ هذا الخبر ، أجفَل الأميرُ عبد الرحمن من مكانه على حِصار تُونِس ، ومرّ بقَفْصَه ، فدَخَل إلينا محمد بن مُزْنى ذَاهباً إلى الزَّاب ، فرافقتُه إلى بَسكرة[2] ، ودخلت إلى أخيه هنالك ، ونزل هو ببعض قُرى الزَّاب تحت جِراية أخيه ، إلى أن انصرم الشّتاء

وكان أبو عِنَان لمّا ملك بجايَةَ[3] ، ولَّى عليها عُمَر بن علي بن الوزير[4] ، من شيوخ بنى وطّاس ، وجاء[5] فارِح ، مولى الأمير أبي عبد الله لنقل حُرَمه ووَلَده ،

[٥] ز «فلما بلغهم هنا» ، ز «أجفل الأمير أبو عبد الرحمن» [١٠] ز «والطاس» ، ش «حرمه وأولاده وداخل»

(١) المدية (Medea) : مدينة بالجزائر تبعد أربعين ميلا ، نحو الجنوب الغربي ، عن مدينة الجزائر . عرضها الشمالي ١١′ — ٣٦° ، وطولها الشرقي ٥١′ — ٢° .

(٢) بسكرة (Biskra) بكسر الكاف وراء مفتوحة ، وقيدها ابن خلدون بكسر الباء وفتح السين وسكون الكاف : بلد معروفة بالجزائر ؛ عرضها الشمالي ٥١′ — ٣٤° ، وطولها الشرقي ٥١′ — ٥° . ياقوت ٢/١٨٣ .

(٣) انظر أخبار تملّك أبي عنان لبجاية في تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٨٩ .

(٤) بيت بني الوزير هذا ، له الرياسة على بني واطاس من قبل بني مرين ، ونسب بني الوزير دخيل في بني مرين ، وهم من أعقاب يوسف بن تاشفين . وانظر الحديث المفصل عن بيتهم في العبر لابن خلدون ٧/٢١٧ .

(٥) جاء في الاستقصا ٢/ ٩٠ ، في بيان في هذا الحادث :

« وكان أبو عبد الله الحفصي قد استصحب معه في وفادته على السلطان أبي عنان حاجبه فارحا ، مولى ابن سيد الناس . فلما نزل السلطان عن بجاية ، تقم فارح عليه ذلك ، وأسرها في نفسه إلى أن بعث الحفصيّ المذكور مع الوطاسي لينقل حرمه ، ومتاعه ، وماعون داره إلى المغرب ، فانتهى إلى بجاية ، شكا إليه الصنهاجيون سوء مملكة بني مرين ، فنفث إليهم بما عنده من الضغن ، ودعاهم إلى الثورة بالمرينيين ، والدعوة إلى الحفصيين ، والفتك بعلي بن عمر الوطاسي بمجلسه من القصبة ... الخ » .

فداخل بعضَ السفهاء من صَنْهاجَة[1] فى قتل عمَر بن على؛ فقتَله فى مجلسه، ووثب هو على البلد، و بعَث إلى الأمير أبى زيد، يستدعيه من قُسنْطِينَة، فتمشت رجالات البلد فيا بينَهم خشيةً من سطوة السلطان، ثم ثاروا بفَارح فقتلوه، وأعادوا دعوة السلطان كما كانت، و بعثوا عن عامل السلطان بتَدْلس[2]، يَحْيَاتَنْ
٥ ابن عمر بن عبد المؤمن، شيخ بنى ونكاسن من بنى مَرِين، فملَّكوه قيادهم، و بعثوا إلى السلطان بطاعتهم، فأخرج لوقته حاجبه محمد بن أبى عمرو، وأكثَف له الُجند، وصرَف معه وجوه دولته، وأعيان بِطانته، وارتحلتُ أنا من بِسَكْرة، وافدا على السلطان أبى عِنان بتِلمْسان، فلقيتُ ابن أبى عَمرو بالبَطْحاء[3]، وتلقَّانى من الكرامة بما لم أحتسبه، وردَّنى معه إلى بِجَايَة، فشهدت الفتح،
١٠ وتَساتَلَت وفود إفريقية إليه؛ فلما رجع السلطان، وفدتُ معهم، فنالنى من كرامتِه وإحسانه ما لم أحتسِبْه، إذ كنت شابا لم يَطرّ شارِبى، ثم انصرفتُ مع الوفود، ورجَع ابن أبى عَمْرو إلى بِجَايَة؛ فأقمت عنده، حتى انصرَم الشتاء من أواخر أربع وخمسين؛ وعاد السلطان أبو عِنَان إلى فَاس، وجمع أهل العِلم للتَّحليق بمجلسه، وجرَى ذِكرى عنده، وهو ينتَقى طلَبة العلم للمذاكرة
١٥ فى ذلك المجلس، فأخبره الذين لقيتُهم بتُونس عنّى، ووصَفونى له، فكتب إلى الحاجب يَستقدِمُنى، فقدِمت عليه، سنةَ خمس وخمسين، ونظَمَنى فى أهل مجلسه

---

[١] ز «فى عجبه» [٥] ز «المؤمن من شيوخ بنى» [٦] ز «حاجبه عمر بن أبى عمرو» [١٠] «وتسايلت وفود» [١٦] ش «سنة خمس ونظمنى».

---

(١) صنهاجة بكسر الصاد، والمعروف فى المغرب فتحها: قبائل كثيرة من البربر فى المغرب. وانظر تاج العروس ٢/٦٧.

(٢) تدلس بفتح التاء وسكون الدال: مدينة بالجزائر على ساحل البحر الأبيض. انظر ياقوت ٢/٣٦٩.

(٣) البطحاء: موضع يقع فيا بين بسكرة وتلمسان، وبينه وبين تلمسان نحو ثلاثة أيام. ياقوت ٢/٢١٧.

[١١٦ا] العِلمى ، وألزمَنى شُهود الصّلوات / معَه ؛ ثم استعمَلنى فى كتابتِه ، والتوقيع بين يَدَيه ، على كُره منى ، إذ كنت لم أَعهد مثلَه لسَلفى ، وعكَفت على النَّظَر ، والقراءة ، ولقاء المشْيَخة ، من أهل المغرب ، ومن أهل الأندلس ، الوافدين فى غَرض السِّفارة ؛ وحصلتُ من الإفادة منهم على البُغْيَه .

٥ وكان فى جُملته يومئذ الأستاذ أبو عبد الله محمد بن الصفّار ، من أهل مَرّاكُش إمام القراءات لوقته ؛ أخذ عن جماعة من مَشيخَة المغرب ، كبيرُهم شيخُ المحدثين الرحَّالة أبو عبد الله محمد بن رُشَيْد الفِهْرىّ ، سَنَد أهل المغرب ، وكان يُعارض السلطانَ القرآنَ برواياته السّبع إلى أن توفّى .

ومنهم : قاضى الجماعة بفاس ، أبو عبد الله محمد المَقْرىّ[١] ، صاحبنا ، من أهل ١٠ تلمْسان . أخَذ العِلم بها عن أبى عبد الله محمد السَّلاوى ؛ ورَدَ عليها من المغرب خِلوا من المعارف ، ثم دعته همته إلى التحلّى بالعلم ، فعكف فى بيته على مُدارسة القرآن ، فحفظه ، وقرأه بالسَّبع ، ثم عكَفَ على كتاب التسهيل فى العربية ، فحفِظه ، ثم على مختصَرَى ابن الحاجب فى الفقه ، والأصول[٢] ، فحفظهما ؛ ثم لزِم الفقيه عِمْران المشَدّالِى[٣] من تلاميذ أبى على ناصر الدِّين[٤] ، وتفقَّه عليه ،

[٢—٣] ش « على النظر ولقاء » [٧] ز ش « الفهرى سيد أهل » .

(١) أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن أبى بكر المقرى (بتشديد القاف المفتوحة نسبة إلى مقَّرة ، أو بسكون القاف . والميمُ فى الحالتين مفتوحة) وهو جد صاحب النفح . ترجمته واسعة فى الإحاطة ٢/١٣٦ ، ونيل الابتهاج ص ٢٤٩ ، ونفح الطيب ٣٠/١١٠ — ١٦٧ .

(٢) قد سلف القول فى مختصرى ابن الحاجب ، وهذا نص آخر يزيد قول ابن خلدون وضوحا وصدقا .

(٣) هو أبو موسى عمران المشدّالى ، بفتح الميم ، والشين ، وتشديد الدال المفتوحة ، (٦٧٠ — ٧٤٥) ترجمته فى نيل الابتهاج ص ٢١٥ ، ونفح الطيب ٣/١٢٠ .

(٤) أبو على ناصر الدّين المشدّالى ؛ منصور بن أحمد بن عبد الحق : فقيه معروف (٦٣١ — ٧٣١) ترجمته فى نيل الابتهاج ص ٣٤٤ وما بعدها .

وبرّز في العلوم ، إلى حيث لم تُلحَق غايتُه ، وبنَى السلطان أبو تاشفين مدرستَهُ بتلمْسان ، فقدَّمه للتدريس بها ، يضاهي به أولاد الإمام ، وتفقَّه عليه بتلمسان جماعة ؛ كان من أوفرهم سَهْما في العلوم أبو عبد الله المَقَّرى هذا .

ولما جاء شيخنا أبو عبد الله الآبلِيّ إلى تلمسان ، عند استيلاء السلطان أبي

٥ الحسن عليها ، وكان أبو عبد الله السّلاوى قد قُتل يوم فتح تِلمْسان ، قَتَلَه بعض أشياع السلطان ، لذنب أسلفه في خدمة أخيه أبي على بسِجِلْماسَة ، قبل انتحاله العلم ، وكان السلطان يعتدُّهُ عليه ، فقُتل بباب المدرسة ، فلزِم أبو عبد الله المَقّرِىّ بعدَه مجلس شيخنا الآبِلِيّ ، ومجالس ابْنَى الإمام ، واستبحر في العلوم وتفنّن .

ولما انتقض السلطانُ أبو عِنَان ، سنةَ تسع وأربعين ، وخلَع أباه ، نَدَبه إلى

١٠ كتابِ البَيْعة ، فكتبها ، وقرأه على الناس في يوم مشهود ، وارتحل مع السلطان إلى فاس ؛ فلما ملكها ، عزَل قاضيَها الشيخ المُعَمَّر أبا عبد الله بن عبد الرزّاق (١) ، وولّاه مكانه ، فلم يَزَل قاضيًا بها ، إلى أن سخِطه لبعض النزَعات المُلوكية ، فعزَله ، وأدال منه بالفقيه أبي عبد الله الفَشْتالى(٢) آخرَ سنة ستّ وخمسين ؛ ثم بعثه في سِفارة إلى/الأندلس ، فامتنع من الرجوع ، وقام السلطان لها في ركائبه ، ونكِر على [١٦ب]

١٥ صاحب الأندلس [ابن الأحمر](٣) تمسّكه به ، وبعث إليه فيه يَسْتقدمه ، فلاذ

[١ — ٢] ش «مدرسة تلمسان» [٨ — ٩] نيل الابتهاج «ومجالس ابنى الإمام» ، ز « واستبحر في العلم ، ولما انتقض » [١٠] ز « الى كتب البيعة » ، ش ، نيل الابتهاج « وقرأها على الناس » [١٢] ز ش « النّزغات » [١٤] ز « لها في ركابه وتقم على » .

---

(١) ستأتى قريبا ترجمة لابن عبد الرزاق في كلام ابن خلدون .

(٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد الفشتالى القاضى بفاس ؛ كان بيته معمورا بالجود والخير والصلاح ، وكان أبو عبد الله هذا أحد أعلام المغرب . انظر الإحاطة ٢/١٣٣ ، جذوة الاقتباس ص ١٤٦ ، المرقبة العليا ص ١٧٠ .

(٣) الزيادة عن نيل الابتهاج .

منه ابن الأحمر بالشفَّاعة فيه ، واقتضى له كتابَ أمان بخط السلطان أبى عِنان ، وأوفدهُ مع الجماعة من شيوخ العلم بغرناطة ، [ومنهم][1] القاضيان بغرناطة ؛ شيخنا أبو القاسم الشّريف السَّبتى[2] ، شيخ الدنيا جلالةً وعلماً ووقارا ، ورياسةً ، وإمام اللسان حوْكا ونقدا ، فى نظمه ونثره .

٥ وشيخنا الآخَر أبو البَرَكات محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحاج البَلَّفيقى[3] من أهل المَرِيّة ، شيخ المحدّثين ، والفقهاء ، والأدباء ، والصوفية ، والخطباء ، بالأندلس ، وسيد أهل العلم باطلاق ، والمُتفنّن فى أساليب المَعارف ، وآداب الصّحابة للملوك فمن دونهم ؛ فَوَفَدا به على السلطان شَفيعَيْن على عظيم تشوُّقه لقائهما ، فقُبلت الشفاعة ، وأُنجحَت الوسيلة .

١٠ حضرتُ بمجلس السلطان يوم وَفادتهما ، سنة سبع وخمسين ، وكان يوماً مشهودا . واستقر القاضى المَقّرىّ فى مكانه ، بباب السلطان ، عُطْلا من الولاية والجِراية ، وجرت عليه بعدَ ذلك محنة من السلطان ، بسبب خُصومة وقعت بينه وبين أقاربه ؛ امتنع من الحضور معهم عند القاضى الفَشْتالى ، فتقدَّم السلطان إلى بعض أكابر الوَزَعة ببابه ، بأن يَسْحَبه إلى مجلس القاضى ؛ حتى أنفذَ فيه حكمه ، ١٥ فكان الناس يَعدُّونها محنة .

---

[٢] ز « وأوفده مع جماعة » [٨] نيل الابتهاج « فوفدوا به ... شافعين »
[١٠] نيل الابتهاج « وحضرت » [١١] نيل « فاستقر » [١٣ — ١٤] « السلطان لبعض »

---

(١) الزيادة عن نيل الابتهاج .

(٢) محمد بن أحمد ... بن عبد الله الحسنى السّبتى الشهير بالشريف الغرناطى ، أبو القاسم (٦٩٧ — ٧٦٠) له تآليف ، طبع منها « رفع الحجب المستورة ، عن محاسن المقصورة » ، شرح على مقصورة حازم القرطاجنى . ترجمة الشريف فى المرقبة العليا للنباهى ص ١٧١ .

(٣) أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحاج البلّفيقى (٦٠٨ — ٧٧٠) (بموحدة ولام مشددة وفاء مكسورات ، وقاف بعد مثناة من تحت) ، هكذا ضبطه فى طبقات القراء ، وقيده ابن خلدون بفتح الباء وتشديد اللام المفتوحة . المرقبة العليا ص ١٦٤ ، الجذوة ص ١٨٣ طبقات القراء ٢/٢٣٠ .

ثم ولاه السلطان ، بعد ذلك ، قضاء العساكر فى دولته ، عند ما ارتحل إلى قُسَنْطينة ، فلما افتتحها ، وعاد إلى دار مُلْكه بفاس آخر ثمانٍ وخمسين ، اعتلَّ القاضى المَقَّرىّ فى طريقه ، وهلك عند قدومه بفاس .

ومنهم صاحبنا الإمام العالم الفذّ ، فارس المعقول والمنقول ، وصاحب ٥ الفروع والأصول ، أبو عبد الله ، محمد بن أحمد الشريف الحسنى[1] ، ويُعرف بالعَلْوىّ ، نسبة إلى قرية من أعمال تلمسان ، تُسمى العَلْوِين ؛ وكان أهل بيته لا يُدافَعون فى نَسَبهم ، وربما يَغْمز فيه بعض الفَجَرة ، ممن لا يَزَعه دينه ، ولا معرفته بالأنساب ، فيُعدُّ من اللَّغو ، ولا يُلتفت إليه .

نشأ هذا الرجل بتِلِمْسان ، وأخذ العلم عن مَشْيَختها ، واختصّ بأولادِ الإمام ، ١٠ وتفقَّه عليهما فى الفقه ، والأصول والكلام ؛ ثم لزم شيخَنا أبا عبد الله الآبلىّ ، وتضلَّع / من معارفِه ، فاستبْحَر ، وتفجَّرت ينابيع العلوم من مَداركه ؛ ثم ارتحل [١١٧] إلى تُونِس فى بعض مذاهبه ، سنةَ أربعين ، ولقِى شيخَنا القاضى أبا عبد الله ابن عبد السّلام ، وحضَر مجلسه ، وأفاد منه ، واستعظم رُتْبَتَه فى العلم ، وكان ابنُ عبد السلام يُصْغِى إليه ، ويؤثِر محلَّه ، ويَعرف حَقَّه ، حتى لزَعموا أنه كان ١٥ يَخلو به فى بيته ، فيقرأ عليه فصْل التَّصوف من كتاب الإشارات لابن سينا[2] ،

[٥ — ٦] بهامش البستان ص ١٦٤ « ويعرف بالعلوينى » نيل الابتهاج « بالعلونى »
[٦] ز ، البستان « بالعلوين » ، نيل الابتهاج « العلونين » ، ز « فكان أهل بلده لا » ،
[١١] نيل الابتهاج « ثم رحل » [١٢] نيل الابتهاج « فلقى شيخنا » [١٤] ز « حتى لقد زعموا »

(١) فى نيل الابتهاج ص ٢٠٥ ، والبستان ص ١٦٤ ، ١٨٤ ترجمة واسعة للشريف التلمسانى العلوى هذا .

(٢) انظر ترجمة ابن سينا : أبى على الحسين بن عبد الله (٣٧٠ — ٤٢٨) فى تاريخ الأدب العربى لبروكلمن ٤٥٣/١ وللملحق ٨١٢/١ ؛ ففيه الحديث الواسع عنه ، وعن مؤلفاته ، وعما قام حولها من دراسات وأبحاث .

بما كان هو قد أحكم ذلك الكتاب على شيخنا الآبلىّ ؛ وقرأ عليه كثيرا من كتاب الشّفاء لابن سينا ، ومن تَلاخيص كتب أَرِسْطُو[1] لابن رشد[2] ، ومن الحساب ، والهيئة ، والفرائض ، علاوةً على ما كان يحمله من الفقه والعربية وسائر عُلوم الشّريعة ، وكانت له فى كتب الخلافيات يَد طولَى ، وقَدَم عَالية ، فعَرف له ابن عبد السلام ذلك كلّه ، وأوجب حقّه ، وانقلب إلى تِلمِسان ، ٥ وانتصَب لتدريس العِلم وبثّه ، فملأ المَغرب معارفَ وتلاميذ ، إلى أن اضطرب المغرب ، بعد واقعة القَيْرَوان ؛ ثم هلك السلطان أبوالحسن ، وزحف ابنُه أبوعِنَان ، إلى تِلمْسان ، فملَكها ، سنة ثَلاث وخمسين ، فاستخلص الشريفَ أبا عبد الله ، واختاره لمجلسه العِلمى ، مع من اختار من المَشْيَخَة ، ورَحَل به إلى فاس ، فتبرَّم الشريف من الاغتراب ، وردَّد الشّكوى ، فأحفظ السلطان بذلك ، وارتابَ ١٠ به ، ثم بلغَه أثناء ذلك ، أن عثمان بن عبد الرحمن[3] ، سلطان تِلمْسان ، أوصاه على وَلدِه ، وأودَع له مالًا عندَ بعض الأعيان من أهل تِلمْسان ، وأن الشّريف مطّلِع على ذلك ، فانتزع الوديعَة ، وسَخِط الشّريفَ بذلك ونَكبَه ، وأقام فى اعتقاله أشهرا ، ثم أطلقَه أولَ ست وخمسين وأقصاه ، ثم أعتَبه بعدَ فتح قُسَنطينَة ، وأعاده إلى مجلِسه ، إلى أن هَلك السلطان ، آخر تِسع وخمسين .

---

[١] ز « لما كان هو » ، ز « عن شيخنا » [٤] ز « وسائر العلوم وكتب الشريعة » [٨] نيل الابتهاج « فاختار الشريف » [٩] ز « لمجلسه العالى مع من اختاره » [١٠] نيل الابتهاج « من الغربة » .

---

(١) هكذا رسمه ، وضبطه بالقلم ابن خلدون .

(٢) أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رُشد الحفيد . انظر ترجمته فى تاريخ الأدب العربى لبروكلمن ٤٦١/١ ، والملحق ٨٣٣/١ ، حيث أفاض فى الحديث عنه وعن مؤلفاته ، وعما حولَه ، وحولها من أبحاث .

(٣) هو أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن . انظر أخباره فى تاريخ ابن خلدون ١١٥/٧ — ١١٧ .

وملك أبو حَمّو بن يوسف بن عبد الرحمن تِلمْسان من يد بنى مَرِين ، واستدعى الشريفَ من فاس ، فسرّحه القائم بالأمر يومئذ ، الوزير عَمَر بن عبد الله ، فانطلق إلى تِلمْسان ، وتلقّاه أبو حمو براحتيه ، وأصهر له فى ابنته ، فزوّجها إياه ، وبَنَى له مدرسةً جعل فى بعض جوانبها مَدفَن أبيه وعمّه ، وأقام الشريف يُدَرِّس العلم إلى أن هلك سنةَ إحدى وسبعين . وأخبرنى رحمه الله ، أن مَولدَه سنة عشر(١) .

/ ومنهم صاحبنا الكاتب القاضى أبو القاسم محمد بن يحيى البَرْجى(٢) ، من [١٧ب] بَرْجَة(٣) الأندلُس كان كاتبَ السلطان أبى عِنان ، وصاحبَ الإنشاء والسّرّ فى دولته ، وكان مختصًا به ، وأثيرا لديه ، وأصله من بَرْجَة الأندلس ، نشأ بها ، واجتهَد فى العِلم والتّحصيل ، وقرأ ، وسمع ، وتفقّه على مَشْيَخة الأندلُس ، واستبحَر فى الأدب ، وبرّزَ فى النَّظم والنثر ، وكان لا يُجارَى فى كَرَم الطِّباع ، وحسن المعاشَرة ، ولين الجانب ، وبَذْل البِشْر ، والمعروف ؛ وارتحَل إلى بِجَايَة فى عشر الأربعين والسبعمائة ، وبها الأمير أبو زكرياء بن السلطان أبى يحيى ، منفردا بملكها ، على حينَ أقفرت من رسم الكتابة والبَلاَغة ، فبادَرت أهل الدّولة إلى اصطفائه ، وإيثاره بخُطّة الإنشاء ، والكتابة عن السلطان ، إلَى أن هلك الأمير أبو زكرياء ، ونُصِبَ ابنه محمد مكانه ، فكتَب عنه على رَسْمه ؛ ثم هلك

[٩] نيل الابتهاج « على شيوخ الأندلس » .

(١) ما ذكره ابن خلدون فى ولادته هو الصحيح . انظر نيل الابتهاج ص ٢٥٦ .

(٢) أبو القاسم محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن على بن إبراهيم الغسانى البرجىّ الغرناطى المتوفى سنة ٧٨٦ هـ . جذوة الاقتباس ص ١٩٧ ، الإحاطة ٢/٢١٥ وما بعدها .

(٣) برجة (Berja عرضها الشمالى ٥٠'— ٣٦° ، وطولها الغربى ٥٦'— ٢°) : مدينة بشرق الأندلس ، من إقليم المرية . وهى بفتح الباء ، والجيم ، وبينهما راء ساكنة ، وقد انتقل غالب أهلها ، بعد استيلاء المسيحيين عليها ، إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى . تاج العروس (برج) . ياقوت ٢/١١٣ .

السلطان أبو يَحيَى ، وزَحَف السلطان أبو الحسَن إلى إفريقية ، واستولى على بِجَاية ، ونقل الأمير محمدا بأهله وحاشيته إلى تِلمْسان ، كما تقـدم فى أخباره . فنَزَل أبو القاسم البَرْجى تِلِمْسان ، وأقام بها ، واتَّصل خبرُه بأبى عِنَان ، ابن السلطان أبى الحسن ، وهو يومئذ أميرُها ، ولقيَه ، فوقَع من قلبه بمكان ، إلى أن كانت واقعة القَيْرَوان .

وخَلع أبو عِنَان[1] ، واستبدّ بالأمر ، فاستكتبه وحَمَله معه إلى المَغرب ، ولم يَسْمُ به إلى العَلاَمَة ، لأنه آثر بها محمّد بن أبى عَمْرو ؛ بما كان أبوه يعلّمه القرآن والعِلم ، ورَبِىَ محمّد بداره ، فولاّه العَلاَمة ، والبَرْجِىّ مُرادف له فى رِيَاسته ، إلى أن انقرضوا جيعا ، وهلك لسطان أبو عِنَان ، واستولى أخوه أبو سَالم على مُلْك المغرب ، وغلبَ ابنُ مَرزوق على هواه كما قدمناه ، فنقَل البَرْجِى من الـكِتابة ، واستعمله فى قضاء العسَاكر ؛ فلم يزَل على القضَاء ، إلى أن هلك سنة (. . .) وثمانين[2] .

وأخبرنى رحمه الله أن مولده سَنةَ عشر .

ومنهم : شيخنا المعمَّر الرحَّالة أبو عبد الله محمد بن عبد الرَّزاق شيخ وقته جلاَلةً ، وتَربيةً ، وعلماً ، وخِبرةً بأهل بلده ، وعظمةً فيهم . نشأ بفَاس ، وأخذ عن مَشْيختها ، وارتحل إلى تُونس ، فلقِى القاضىَ أبا إسحق بن عبد الرفيع[3] ،

[٧] ز « بن أبى عمر » [٨] ز « القرآن وربى » [١١] ز « قضاء السكر » .

(١) ولد أبو عنان هنا سنة ٧٢٩ بفاس ، وبويع فى حياة والده ، يوم ثار عليه بتلمسان سنة ٧٤٩ ، ووفى قتيلا سـنة ٧٥٩ . وانظر قصة ثورته على أبيه ، وأسبابها ، فى العبر ٢٧٨/٧ وما بعدها ، الاستقصا ٨٩/٢ ، ١٠١ — ١٠٢ .

(٢) فى نيل الابتهاج ص ٢٦٧ ، نقلا عن ابن خلدون « ... إلى أن هلك بعـد الثمانين وسبعمائة » ، ونقل أيضا عن « فهرسة » السراج أنه توفى سنة ٧٨٦ هـ .

(٣) أبو إسحق إبراهيم بن الحسن بن عبدالرفيع الربعى التونسى قاضى القضاة بتونس =

والقاضى أبا عبد الله التَّفْزَاوى ، وأهلَ طبقتهما ، وأخذ عنهم ، وتفقه عليهم ، ورجع إلى المغرب ، ولازَم سَنَن الأكابر/ والمشايخ ، إلى أن ولَّاه السلطان أبو الحسن [١١٨] القضاء بمدينة فاس ، فأقام على ذلك ، إلى أن جاء السلطان أبو عِنَان من تِلِمْسان ، بعد واقعة القَيْرَوان ، وخلعِه أباه ، فعزله بالفقيه أبى عبد الله المَقْرى ، وأقام عُطلا ٥ فى بيته .

ولما جمع السلطان مَشْيَخَة العلم للتَّحليق بمجلسه ، والإفادة منهم ، استدْعى شيخَنا أبا عبد الله بن عبد الرزاق ؛ فكان يأخذ عنه الحَديث ، ويقرأ عليه القرآن برواياته ، فى مجلسٍ خاصّ إلى أن هلك ، رحمه الله ، بين يدى مَهْلَكَ السلطان أبى عِنَان . إلى آخرين ، وآخرين ، من أهل المَغرب والأندلس ، كلَّهم ١٠ لقيتُ وذاكرتُ وأفدتُ منه ، وأجازنى بالإجازة العامة .

حدوث النَّكبة من السّلطان أبى عنَان

كان اتصالى بالسلطان أبى عِنَان ، آخر [سنة] ست وخمسين ؛ وقرّبنى ، وأدنانى ، واستعملنى فى كتابته ، حتى تكدّر جوُّى عنده ، بعد أن كان لا يُعبِّر عن صَفائه ؛ ثم اعتل السلطان ، آخر سبع وخمسين ، وكانت قد حصلَت بينى ١٥ وبين الأمير محمد صاحب بِجَاية[1] من الموحدين مداخلة ، أحكَمها ما كان لسلَفى

[١] ز « التفراوى » ، ش « وأهـل طبقاتهما » [٦] ز « منهم واستدعى » [١٠] ش « وأجاز بالإجازة » [١٢] الزيادة عن ز [١٤] ز « وكان قد » .

= (٦٣٥ — ٧٣٤) له كتاب « مُعين الحكام » فى مجلدين ، اختصر فيه كتاب المتَّيطية ، وقصد أن يرد على أبى محمد بن حزم ، فيما انتقده من أحاديث خرّجها مالك فى الموطأ ، ولم يعمل بها . ديباج ص ٨٩ ، المنهل الصافى ١/١٤ .

(١) هو أبو عبد الله محمد بن الأمير أبى زكرياء . ولّاه أبو عنان إقليم بجاية ليتقف — دونها — فى وجه ملوك تونس يومئذ . انظر مفصل أخباره فى العبر ٧ / ٢٨٢ .

فى دولتهم ، وغفلتُ عن التحفُّظ فى مثل ذلك ، من غَيْرة السلطان ، فما هو إلا أن شُغل بوجَعِه ، حتى أنمَى إليه بعض الغُواة ، أن صاحب بجاية ، مُعتمِل فى الفرار ليَسترجع بَلَدِه ، وبها يومئذ وزيرُه الكبير ، عبد الله بن على ؛ فانبعث السلطان لذلك ، وبادر بالقبض عليه ، وكان فيما أُنمِى إليه ، أنى داخلتُه فى ذلك ، فقبض علىّ ، وامتَحننى ، وحبَسنى ، وذلك فى ثامنَ عشرَ صفر ، سنة ثمان وخمسين . ٥
ثم أطلق الأمير محمدا ، وما زلتُ أنا فى اعتقاله ، إلى أن هلك . وخاطبتُه بين يدى مَهْلَكه ، مستعطِفا بقصيدة أولُها :

عَلَى أىِّ حَالٍ لليالى أعاتبُ … وأىَّ صُرُوفٍ للزَّمان أُغالبُ
كفَى حزَنًا أنى على القرب نَازحٌ … وأنّى على دعْوى شُهُودىَ غائبُ
وأنّى على حكْم الحوادث نازلٌ … تسالمنى طَورًا وطورًا تُحاربُ ١٠

ومنها فى التشوُّق :

سَلوتُهمُ إلا ادِّكارَ مَعاهدٍ … لها فى اللّيالى الغابرات غرائبُ
/ وإن نسيمَ الريح منهم يَشُوقُنى … إليهم وتُصبِينى البُروق اللواعبُ ١٨ب]

وهى طويلة ، نحو مائتين بيتاً[1] ، ذهبت عن حِفظى ، فكان لها منه مَوْقع ، وهَشَّ لها ، وكان بتلمسان فوعَد بالإفراج عنى عند حلوله بفَاس ؛ ولخمسٍ ليال ١٥

---

[٢] ز « بعض العداة » [٤] ز « نمى إليه » [٥] سقط من ش ز « وذلك فى ... وخمسين » [٦] ز « ومازلت فى » [٧] سقط من ز « مستعطفا بقصيدة أولها » ، ش « يدى مهلكه بقصيدة » [١٤] ز « مائتى بيت ».

---

(١) قد ذكر ابن الأحمر فى نثير الجمان ص ١١٧ — ١٢٣ (نسخة خاصة) هذه القصيدة عند تعريفه بابن خلدون ، وجاءت عدة أبياتها هنالك ١٠٧ ، والظاهر من أسلوب ابن الأحمر أنه أورد القصيدة كلها . فهل نسى ابن خلدون عدد أبيات قصيدته ، أو أن ابن الأحمر اختار منها بعض أبياتها وترك الباقى ؟! .

من خُلوله طرقَه الوجَع ، وهلك لخمسَ عشْرةَ ليلةً ، فى رابع وعِشرى ذى الحجة خاتم تسع وخمسين ، وبادر القائم بالدولة ، الوزير الحسن بن عُمَرَ إلى إطلاق جماعة من المُعتقَلين ، كنتُ فيهم ، فخلع علىّ ، وحملنى[1] ، وأعادنى إلى ما كنت عليه ، وطلبت منه الانصراف إلى بلدى ، فأبَى علىّ ، وعاملنى بوجوه كرامته ، ومذاهب إحسانه ، إلى أن اضْطَرب أمرُه ، وانتقض عليه بنو مَرِين ، وكان ما قدَّمناه فى أخبارهم[2] .

الكتابة عن السلطان أبى سالم

فى السر ، والإنشاء

ولما أجاز السلطان أبو سالم من الأندلُس لطاب مُلكه ، ونزل بجَبَل الصَّفيحَة من بلاد غُمارة ، وكان الخطيب ابن مَرْزوق بفاس ، فبثّ دعوتَه سرًّا ، واستعان بى على أمره ، بما كان بينى وبين أشياخ بنى مَرِين من المحبَّة والائتلاف ، فحمَلت الكثير منهم على ذلك ، وأجابونى إليه ، وأنا يومئذ أكتب عن القائم بأمر بَنِى مَرِين ، مَنصور[3] بن سليمان بن مَنصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق ، وقد نصبوه للمُلْك ، وحاصروا الوزير الحسن بن عُمَر ، وسلطانَه السَّعيدَ بن أبى عِنَان ، بالبلد الجديد ، فقصدنى ابنُ مَرْزوق فى ذلك ، وأوصل إلىّ كتاب السلطان أبى سَالم ، بالحضّ على ذلك ،

[٥] ر « إلى بلادى » [١٠] ز ش « الوزير بن عمر » .

(١) حَمَله : أعطاه ظهرا يركبه . (لسان) .

(٢) انظر العبر ٧ / ٣٠٩ — ٣١٠ فقد بيّن القول فى كيفية اضطراب الأمر على الوزير الحسن بن عمر .

(٣) منصور بن سليمان بن منصور بن أبى مالك بن يعقوب بن عبد الحق المرينى ، كان من الشفوف فى أيام أبى عنان ، بحيث أرجَف الناس بأن مُلك أبى عنان بعد موته ، صائر إليه . انظر أخبار طلَبه للملك ومقتله فى العبر ٧ / ٣٠٢ — ٣٠٥ .

وإجمال الوعد فيه ، وألقى عليّ حِمْله ، فنهَضت به ، وتقدمت إلى شيوخ بني
مرين ، وأمراء الدولة بالتحريض على ذلك ، حتّى أجابوا ؛ وبعث ابنُ مَرزُوق
إلى الحسن بن عمَر ، يدعو إلى طاعة السلطان أبي سَالم ، وقد ضَجِر من الحصار ،
فبادر إلى الإجابة ، واتفق رأى بَني مَرِين على الانفضاض عن مَنصور بن سُليمان ،
والدخول إلى البلد الجديد ؛ فلما تم عقدُهم على ذلك ، نزعتُ إلى السلطان أبي ٥
سالم في طائفة من وجوه أهل الدولة ، كان منهم محمد بن عثمان بن الكاس ، المستبد
بعدَ ذلك بمُلك المغرب على سلطانه ، وكان ذلك النزوع مبدأً حَظِّه ، وفاتحةَ
رياسته، بسِعايتي له عند السلطان ؛ فلما قدِمتُ على السلطان بالصَّفِيحَة ، بما عندى
من أخبار الدّولة ، وما أجمعوا عليه من خَلْع مَنصور بن سليمان ، وبالموعد الذى
[١١٩] ضَربوه لذلك ، واستحثثُته /فارتحل، ولقِيَنا البشيرُ بإجفال منصور بن سليمان، وفراره ١٠
إلى نواحي بادِس[1] ؛ ودخول بَني مَرِين إلى البلد الجديد ، وإظهار الحسن بن عَمَر
دَعوةَ السلطان أبي سالم ، ثم لقِيَتْنا ، بالقَصْر الكبير[2] ، قبائلُ السلطان ،
وعساكرُه ، على راياتهم ، ووزيرُ مَنصور بن سليمان ، وهو مسعود بن رَحُّو بن
مَاسَايْ ؛ فتلقَّاه السلطان بالكرامة كما يجب له ، واستوزره نائبا للحسَن بن يوسف
ابن على بن محمد الورتاجنى السابق إلى وزارته ، لَقِيَه بسَبْتَه[3] ، وقد غرَّبه ١٥

---

[١] ز ش « وألقى علىّ جلته » [١٠] « واستحثيته » [١١] ز ش « باديس »
[١٤] فى الأصل « ثانيا » ، ز « عوضا نائبا » ، ولعل الصواب ما أثبت .

---

(١) بادس بكسر الدال ، ويقال « باديس » مدينة بالمغرب الأقصى على ساحل البحر الأبيض ، ويقال لها بادس فاس ، تمييزا لها عن بادس الزاب . ومكانها الآن عند مدينة Villa jordana بالمغرب الخليفى ، وتبعد نحو الغرب عن مدينة Vill Ahucemas ٦١ كيلو مترا تقريبا . ياقوت ٢ / ٢٩ ، تاج العروس ٤ / ١٠٦ .

(٢) القصر الكبير ، ويسمّى قصر عبد الكريم : مدينة معروفة بالمغرب الأقصى بالمنطقة الخليفية ، تبعد عن ساحل المحيط الأطلسى بنحو ٣٦ كيلو مترا .

(٣) فى العبر ٧/٣٠٥ أنه لقيه بطنجة . وانظر تفصيل هذا الحديث فى العبر أيضا ٧/٣٠٤ — ٣٠٦ .

مَنصور بن سليمان إلى الأندلس ، فاستوزره واستكفاه .

ولمّا اجتمعت العساكر عنده بالقَصْر ، صعِد إلى فاس ، ولقيَه الحسن ابن عُمَر بظاهرها ، فأعطاه طاعته ، ودخل إلى دار مُلْكه وأنا فى رِكابه ، لِخمسَ عشْرةَ ليلةً من نزوعى إليه ، مُنتَصَفَ شعبانِ ستين وسبعمائة ؛ فرعى لى

٥ السابقة ، واستعملنى فى كتابة سره ، والترسيل عنه ، والإنشاء لمخاطباته ، وكان أكثرها يَصدُر عنى بالكلام المرسل ، أن يُشاركَنى أحد ممن ينتحل الكتابة فى الأسجاع ، لضَعف انتحالها ، وخفاء العالى منها على أكثر الناس ، بخلاف المرسل ، فانفردت به يومئذ ، وكان مستَغرَبًا عندهم بين أهل الصناعة .

ثم أخذت نفسى بالشعر ، فانثال علىّ منه بحور ، توسطت بين الإجادة

١٠ والقصور ، وكان مما أنشدته إياه ، ليلة المولد النبوىّ من سنة ثنتين وستين [وسبعمائة] .

أسرَفْن فى هَجْرى وفى تَعْذيبى وأطلن موقفَ عَبْرَتى ونَحيبى[١]

وأبَيْن يومَ البيْن وقْفَةَ ساعةٍ لوداع مَشْغوف الفؤاد[٢] كئيب

لله عهــدُ الظاعنين وغادرُوا قلبى رَهينَ صَبابةٍ[٣] ووجيبِ[٤]

١٥ غَربَت رَكائبُهم ودمعىَ سافِـحٌ فشرِقت بعدَهُمُ بماء غُروبِ[٥]

---

[٧] ز « وخفاء المعانى » [٨] ش « عندهم من أهل » [٩] ش ز « بالشعر وانثال » [١٠] ز « من سنة ثلاث » ، الإحاطة « من سنة اثنين » [١١] الزيادة عن الإحاطة [١٣] الإحاطة « موقف ساعة » [١٥] ش « ودمعى سائح » .

---

(١) النحيب : البكاء .
(٢) مشغوف الفؤاد : مريضه .
(٣) الصبابة : الشوق .
(٤) الوجيب : الاضطراب والخفقان .
(٥) الغروب : الدموع حين تخرج من العين .

يا ناقعاً بالعَتْب غُلَّة شوقهم (١) رُحماك فى عَذْلى وفى تأنيبى
يَستعذِب الصَّبُّ المَلامَ وإنّنى ماءُ المَلام لدىَّ غير شَرُوبِ (٢)
ما هاجَنى طرَب ولا اعتاد الجَوَى لولا تذَكُّرُ مَنزِلٍ وحَبيبِ
أهفُو إلى الأطلال كانت مَطلِعاً للبَدْر منهم أو كِناسَ رَبِيبِ (٣)
عَبِثتَ بها أيدى البِلى وتَردَّدت فى عِطفِها للدَّهر أىُّ خُطوبِ ٥
تَبلَى مَعاهدُها وإنَّ عُهودَها ليُجِدُّها وَصفى وحُسْنُ نَسِيبى
[١٩ب] / وَإذا الدِّيار تعرَّضت لمُتيَّم هزَّته ذِكراها إلى التَّشبيبِ
إيهٍ عن الصّبر الجميـل فإنّه أَلوَى (٤) بدَيْنِ فؤادِىَ المنهوبِ
لم أنسَنا والدَّهرُ يَثْنِى صَرفَه ويُغضُّ طَرْفَىْ حاسد ورَقِيبِ
والدّارُ مُونِقة محاسنُها بمَا لَبسَتْ من الأيام كلَّ قَشِيبِ ١٠
يا سَائقَ الأظعان يعتَسِف الفَلاَ (٥) ويُواصِل الإسْآدَ بالتَّأويبِ (٦)
مُتهافتاً عن رَحل كلِّ مُذَلَّلٍ (٧) نَشوانَ من أَيْنٍ (٨) ومَسِّ لُغُوبِ (٩)

---

[٢] الإحاطة « غير شريب » [٤] ز « أصبو إلى » [٨] ز ش « إيه على »
[٩] ز « لم أنسها » [١١] ش « تعتسف الفلا * وتواصل »

---

(١) نقع الماء غلّته : أروى عطشه .
(٢) الشروب : التى يُشرَب ، وفى الإحاطة : الشريب؛ وهو العذب .
(٣) الربيب : ولد الظبى .
(٤) ألوى بالدَّين : مَطَل به .
(٥) الفلا ، جمع فلاة ، وهى الأرض لا ماء فيها .
(٦) الإسآد : سير الليل كله لا تعريس فيه ، والتأويب : سير النهار لا تعريج فيه .
وانظر اختلافهم فى تفسير الإسآد والتأويب فى لسان العرب : (سأد) .
(٧) المذلّل من الدواب : السهل الانقياد .
(٨) الأيْن : الإعياء .
(٩) اللغوب : التعب .

تَتَجاذب النَّفحاتُ فَضْلَ رِدَائه ... فى مُلتَقاها من صَبًا وجَنُوبِ
إن هام من ظَمأ الصَّبابة صَحْبُه ... نَهِلوا بمَوْرد دَمعِه المسْكُوب
أو تَعترِضْ مَسْرامُ سُدَف الدُّجَى ... صدَعوا الدُّجَى بغَرامِه المشْبُوبِ
فى كلِّ شِعبٍ مُنْيةٌ مِن دُونِها ... هَجْر الأَمانى أو لِقاء شَعُوبِ[(١)]
هلاَّ عطَفتَ صُدورهنّ إلى التِى ... فيهَا لُبانة أعيُنٍ وقُلوبِ ٥
فتَؤمُّ من أكناف يثربَ مَأمَناً ... يَكفيك ما تَخشاه من تَثْرِيبِ
حَيثُ النُّبوةُ آيُهـــا مجلُوَّةٌ ... تتلو من الآثار كلَّ غريبِ
سِرٌّ عجيب لم يُحَجِّبه الثرَى ... ما كان سرُّ الله بالمَحْجوب

ومنها بعدَ تعديد معجزاته [صلى الله عليه وسلم] ، والإطناب فى مدحه :

إنِّى دعوتُك واثقاً بإجابتى ... يا خيرَ مَدعُوٍّ وخيرَ مُجيبِ ١٠
قصَّرتُ فى مَدحى فإن يَك طيِّباً ... فبما لِذكرك من أريج الطِّيبِ
ماذا عسَى يَبغِى المُطيل وقدحوى ... فى مدحك القرآنُ كلَّ مَطِيبِ[(٢)]
يا هَل تُبلِّغنى اللَّيالى زورةً ... تُدنى إلىّ الفوزَ بالمرْغوبِ
أمحُو خطيئاتى بإخلاصى بها ... وأحُطّ أوزارى وإصْرَ ذُنوبِى
فى فِتْية هجَروا المُنى وَتعوَّدوا ... إنضاء كلِّ نَجيبةٍ ونَجيبِ ١٥
يَطوِى صحائفَ ليلِهم فوقَ الفَلا ... ما شئْتَ من خَبَبٍ ومن تَقْرِيبِ[(٣)]
إن رنَّم الحادى بذكركَ ردَّدوا ... أنفَاس مُشْتاق إليكَ طَرُوبِ

---

[٣] ز « إن تعترض » ش « أو يعترض » [٩] زيادة عن ز [١٣] الإحاطة « تدنى إليك » [١٦] ز « نوق الفلا » .

---

(١) شعوب كرسول : المنية .
(٢) يشير إلى الآية : « وإنك لعَلى خُلق عظيم » ٦٨/٦ .
(٣) الخبب : نوع من العدو ، وهو خطو فسيح دون العَنَق . والتقريب : العدو دون الإسراع .

أو غرّد الركْبُ الخليّ بطَيبةٍ ... حنُّوا لمغناها حنينَ النِّيبِ[1]

[١٢٠] / ورِثوا اعتساف البيد عن آبائهم ... إرثَ الخلافة فى بَنِى يعقوبِ

الطاعنون الخيلَ وهى عَوابسٌ ... يغشى مُثارُ النقع كلَّ سَبيبِ[2]

والواهبون المُقْرَباتِ[3] صَوافِناً[4] ... من كلِّ خوّار[5] العِنان لَعُوبِ

٥ والمانعون الجارَ حتى عِرضُه ... فى مُنتدى الأعداء غيرُ مَعيبِ

تُخشَى بوادرُهم ويُرجَى حِلمُهم ... والعزُّ شِيمةُ مرتجًى ومهيبِ

ومنها فى ذكر إجازته البحر ، واستيلائه على مُلكه :

سائل به طامِى العُباب[6] وقد سرى ... تُزجيه ريحُ العزم ذات هُبوبِ

تَهديه شُهْبُ أسنَّـــة وعزائم ... يصدعْن ليل الحادث المرهوبِ

١٠ حتى انجلت ظُلَمُ الضّلال بسعْيه ... وسطا الهـدى بفريقها المغلوبِ

يابن الألى شادوا الخلافةَ بالتُّقى ... واستأثروك بتاجها المعصـــوبِ

جمعـوا لحفظ الدِّين أىَّ مناقبٍ ... كرُموا بها فى مَشهـــدٍ ومغيبِ

لله مجـــدُك طارفاً أو تالداً ... فلقد شهدنا منـــه كل عجيبِ

---

[١] ز « حنـوا للقاها » [٢] ش « الخلافة عن » [٤] ش « كل جرار » ، الإحاطة « خوّان » [٦] سقط هذا البيت من الإحاطة [٧] ز « إجازته البحور » [٨] ز « وقد رسا » [١٠] ز « بفريقه المغلوب » .

---

(١) النيب : جمع ناب ، وهى الناقة المسنّة .

(٢) السبيب : شعر الناصية والعرف من الفرس ، أو هو الخصلة من الشعر .

(٣) المقربات من الخيل : التى تقرب وتـكرم ، ولا تترك لئلا يقرعها فحل لئيم . وانظر لسان العرب .

(٤) الصافن من الخيل : القائم على ثلاث قوائم ، والجمع صوافن ، وصافنات ، وانظر لسان العرب .

(٥) فرس خوار: لين العطف ، وذلك مما يُستحسن فيه .

(٦) طما البحر : ارتفع موجه .

كم رهبةٍ أو رغبةٍ بك والعُلَى تُقتـــاد بالترغيب والترهيبِ
لازلتَ مسرورًا بأشرف دَوْلةٍ يبدو الهُدى من أفقها المرقوبِ
تُحْيِي المعالى غادياً أو رائحاً وحَديدُ سَعدِك ضَامنُ للمطلوبِ

ومن قصيدةٍ خاطبته بها عند وصول هَدِية مَلِك السودان إليه ، وفيها الحيوانُ الغريبُ المسمى بالزّرافة(١) :

٥ قَدحَتْ يدُ الأشواق من زَندِى وهفتْ بقَلبِى زَفْرَةُ الوجْدِ
ونبذتُ سُلوانى على ثقَــةٍ بالقُرب فاستبدلتُ بالبعــدِ
ولرُبَّ وَصْـل كنتُ آمُلُه فاعتَضتُ منـه بمُؤْلِم الصّدِّ
لا عَهدَ عنـــد الصّبر أطلبه إنّ الغرام أضاع من عهدِى
١٠ يلحَى العـذُولُ فما أُعنّفُه وأقول ضلَّ فأبتغِى رُشدى
وأعارضُ النفَحاتِ أسألها بَرد الجوَى فتزيدُ فى الوَقْدِ
يَهْدِى الغرامُ إلى مسالكها لتعلُّلى بضعيفِ ما تُهــدى
يا سائقَ الأظعانِ مُعتَسِفا طَىَّ الفَــلاة لطِيَّة الوجْدِ
أرِح الرِّكاب ففى الصَّبا نبأٌ يُغنِى عن المُستَنّة الجُرْدِ(٢)
١٥ / وسل الرُّبوع برامةٍ(٣) خَبرًا عن ساكِنِى نَجْدٍ وعن نَجْدِ [٢٠م
مالى تُلام على الهوى خُلُقِى(٤) وهْى التى تأبى سِوى الحمدِ

[١] ز ش « رغبة لك » (٢ — ٣) سقط البيتان من ز [١٠] ز « ضلّ فألتقى »

(١) انظر تفصيل القول عن هذه الهدية فى العبر ٧/٣١٠ .
(٢) استن فى عدوه ؛ ذهب على وجهه . وفرس أجود : قصير الشعر .
(٣) رامة ، يطلق على مكانين : على منزل بينه وبين الرمادة ليلة فى طريق البصرة إلى مكة ؛ وعلى قرية من قرى بيت المقدس . ياقوت ٤/٢١٢ .
(٤) يؤنث ابن خلدون كلمة « خلق » ذهابا منه إلى معنى السجية .

لأَبَيْتُ إلا الرُّشدَ مُذْ وَضَحتْ بالمُستَعين مَعَالِمُ الرُّشْدِ

نِعمَ الخليفةُ في هُدًى وتُقًى وبناء عزٍّ شامخ الطَّوْدِ

نجل السراة الغرِّ شأنُهمُ كسب العُلى بمواهبِ الوُجْدِ

ومنها في ذكر خلوصي إليه، وما ارتكبتُه فيه:

لله مني إذ تأوَّبني ذِكرَاه وهْو بشاهقٍ فَرْدِ ٥

شهمٌ يَفُلُّ بوَارِرًا قُضُبًا وجُموعَ أقيالٍ أولِي أيْدِ

أوريْتُ زَندَ العزم في طَلَبي وقضيتُ حقَّ المجدِ من قصدِي

ووردتُ عن ظَمَأٍ مناهلَه فرَويتُ من عِزٍّ ومن رِفْدِ

هي جَنَّةُ المأوى لمن كلِفتْ آمالُه بمطالب المجدِ

لو لَمْ أُعَلَّ بورْد كوثرِها ما قلتُ هذِي جنةُ الخلْدِ ١٠

مَن مُبلِغٌ قومي ودونَهم قُذُفُ النوَى[1] وتنوفَةُ البُعْدِ[2]

أني أنفْتُ على رجائهمُ وملكتُ عِزَّ جميعِهم وَحْدِي

***

ورقيمَةِ الأعطاف حاليةٍ مَوشيَّةٍ بوشائعِ البُرْدِ

وَحْشيةِ الأنساب ما أنِسَتْ في مُوحِشِ البَيْداء بالقوْدِ ١٥

تَسمُو بجيدٍ بالِغٍ صعدًا شرفَ الصُّرُوح بغير ما جَهْدِ

طالت رءوسَ الشَّامخات بهِ ولربَّما قصُرَت عن الوهْدِ

---

[١] ش «لا أبيت» [٦] الأصل «إقبال» [١٤] ز «بوشائع» [١٧] بالأصل، ز ش ط «وربما» والمثبت عن الاستقصا ٢/١٣ .

---

(١) ناقة قذوف: متقدمة في سيرها على الإبل، والنَّوى: الوجه الذى ينويه المسافر

(٢) التنوفة: القفر من الأرض، والتى لا ماء فيها، والجمع تنائف .

قطعت إليك تنائفاً وصلت إسْآدها بالنَّصِّ والوَخْـدِ[1]

تَخْدِى على استِصْعابها ذُلُلاً وتَبِيتُ طوْعَ القِنّ والقِدِّ[2]

بسُعودك اللاَّئى ضَمَنَّ لنا طولَ الحياة بعِيشة رَغْـدِ

جاءتْك فى وَفْدِ الأحابِش لا يَرجُون غيرك مُكْرِمَ الوَفْدِ

٥ وافَوْك أنضاءً[3] تُقَلِّبُهُمْ أيْدِى السُّرَى بالغَوْر والنَّجْدِ

كالطَّيْف يسْتَقرِى مضاجعَه أو كالحُسام يُسَلُّ من غِمْـدِ

يُثْنُون بالحُسنَى التى سبَقَت من غير إنكارٍ ولاَ جَحْدِ

/ و يرَوْن لَحظَك مِن وِفَادَتِهم فخرًا على الأتراك والهنـدِ [١٢١]

يا مُستعيناً جَلَّ فى شَرَفٍ عن رُتبة المنصور والمَهْـدِى

١٠ جازاك ربُّك عن خَليقته خيرَ الجزَاء فنِعْم ما يُسْدِى

وبقِيتَ للدنيا وساكنِها فى عِزَّةٍ أبداً وفى سَعْـدِ[4]

وأنشدته فى سائر أيامه غير هاتين القصيدتين كثيرا ، لم يَحضُرنى الآن شىء منه .

ثم غلَب ابن مرزوق على هَواه ، وانفرد بمُخالطته ، وكَبَح الشَّكائمَ عن قُربه ، فانقبضتُ ، وقصَّرتُ الخَطْو ، مع البقاء على ما كنت فيه من كتابة سرِّه ،

١٥ وإنشاء مخاطباته ومراسمه .

---

[٢] الأصل « استصعانها » ، ش « تجرى على استضعافها ذللا » ، فى الأصل « والمد » [٣] ز « اللاتى ضمن » .

---

(١) النص : التحريك حتى تستخرج من الناقة أقصى سيرها . والوخد : ضرب من سير الإبل ، وهو سعة الخطو فى المشى .

(٢) تخدى : تسرع . والقن : العبد . والقد بالكسر : سير يقد من جلد غير مدبوغ .

(٣) جمع نضو : وهو المهزول .

(٤) لابن زمرك : قصيدة رائية طويلة فى وصف هـذه الهدية . اقرأها فى الاستقصا ٢/١٢٠ .

ثم ولانى آخرَ الدولة « خُطَّةَ المظالم » ، فوفَّيتُها حقها ، ودَفنْتُ للكثير مما أرجو ثوابَه ، ولم يزل ابنُ مَرْزوق آخذاً فى سِعايته بى و بأمثالى من أهل الدَّولة ، غَيْرة ومُنافسة ، إلى أن انتقض الأمرُ على السلطان بسببه ، وثار الوزير عُمَر ابن عبد الله بدار المُلْك ، فصار إليه الناس ، ونَبذوا السلطان و بيعَتَه ، وكان فى ذلك هَلاكُه ، على ما ذكرناه فى أخبارهم(١) . ٥

ولما قام الوزير عُمَر بالأمر ، أقرَّنى على ما كنت عليه ، ووفَّر إقطاعى ، وزاد فى جِرايتى ؛ وكنت أسمو ، بطُغيان الشباب ، إلى أرفعَ مما كنتُ فيه ، وأُدِلّ فى ذلك بسابقة مودَّة معه ، منذ أيام السلطان أبى عِنَان ، وصِحَابة استَحكَم عَقدُها بينى و بينه ، و بين الأمير أبى عبد الله صاحب بِجَايَة ، فكان ثالثَ أثافينا ، ومَصقلَةَ فُكاهتنا ، واشتدَّت غيْرة السلطان لذلك كما مرّ ، وسَطا بنا ، وتغافل ١٠ عن عُمَر بن عبد الله لمكان أبيه من ثغر بِجَاية ؛ ثم حملنى الإدْلال عليه أيامَ سلطانه ، وما ارتكبه فى حقّى من القصور بى عما أسمُو إليه ، إلى أن هجرتُه ، وقعدت عن دار السلطان ، مُغاضبًا له ، فتنكَّر لى ، وأقطعَنى جانبًا من الإعراض ، فطلبتُ الرِّحلة إلى بَلدى بإفريقية ، وكان بنو عبد الوَاد قد راجَعوا مُلْكهم بتِلِمْسان ، والمغرب الأوسط ، فنعَنى من ذلك ، أن يغتبط أبو حَمّو صاحبُ تلِمْسان ١٥ [٢١ب] بمكانى/ ، فأُقيم عنده ، ولجَّ فى المَنْع من ذلك ، وأبيْت أنا إلا الرِّحلة ؛ واستجَرت فى ذلك بِرَديفه وصديقه ، الوزير مسعود بن رَحّو بن مَاسَاىْ ، ودخلتُ عليه يومَ الفِطْر ، سنة ثلاث وستين ، فأنشدتُه :

هَنيئاً بصوم لا عَداه قَبولُ ... وبُشْرَى بعيدٍ أنت فيه مُنيلُ
وهُنِّئْتَها من عِزَّةٍ وسَعادةٍ ... تتابعُ أعوامٌ بها وفُصولُ ٢٠

---

[٤] ز « بسابق مودة » .

(١) انظر ذلك فى العبر ٧/٣١٢ — ٣١٤ .

سقى الله دهراً أنت إنسانُ عينِهِ … ولا مسّ ربعاً في حماك مُحولُ

فعصرُك ما بين الليالي مواسِمٌ … لها غُررٌ وضّاحة وحُجُولُ

وجانبك المأمولُ للجود مَشرَعٌ … يحوم عليه عالم وجَهـولُ

عساك، وإن ضنّ الزمان منوّلي … فرسْم الأماني من سواك مُحيلُ

٥ أجِرْني فليسَ الدهرُ لي بمُسالمٍ … إذا لم يكن لي في ذُراك مَقِيلُ

وأولِنِيَ الحُسنَى بما أنا آملٌ … فمثلك يولِي راجيًا ويُنيلُ

ووالله ما رُمت الترحُّل عن قِلًى … ولا سخْطةً للعيش فهو جزيلُ

ولا رغبةً عن هذه الدار إنها … لَظلٌّ على هـذا الأنام ظَليلُ

ولكن نأى بالشِّعب عني حبائبٌ … شجاهن خَطْب للفراق طويلُ

١٠ يَهِيج بهنّ الوَجْدَ أني نازح … وأن فؤادي حيث هن حُلولُ

عزيزٌ عليهن الذي قد لقيتُه … وأن اغترابي في البلاد يطولُ

تَوارتْ بأنبائي البقاعُ كأنني … تُخُطِّفْتُ أو غالت ركابيَ غُولُ

ذكرتُك يا مَغنَى الأحبّة والهوى … فطارت بقلبي أنَّةٌ وعويلُ

وحَيَّيتُ عن شوق رُباك كأنما … يُمثَّل لي نُؤْيٌ بها وطلولُ

١٥ أأحبابَنا والعهدُ بيني وبينكم … كريمٌ وما عهد الكريم يحولُ

إذا أنا لم تَرضِ الحمولَ مدامعي … فلا قرَّبتْني للقـاء حمولُ

إلامَ مُقامي حيثُ لم تَرِدِ العُلى … مُرادي ولم تُعطِ القيادَ ذَلولُ

أجاذب فضلَ العُمْر يوماً وليلةً … وساء صباحٌ بينها وأصيلُ

ويذهبُ بي ما بين يأسٍ ومَطمَعٍ … زمانٌ بنَيْل المُلوّات بخيلُ

٢٠ تُعلّلني عنه أمانٍ خوادعٌ … ويؤنسني لَيّانُ منه مَطولُ / [٢/

أمَا لليالي لا تردُّ خطوبَها … ففي كبدي من وقعهنّ فُلولُ

---

[١٢] الإحاطة «بأنبائي البلاد» [١٤] الإحاطة «تخيل»

يروّعني من صرفها كلُّ حادث   تكاد له صُمُّ الجبال تزولُ
أداري على الرغم العِدَى لا لِريبةٍ   يصانع واشٍ خوفها وعذولُ
وأغدو بأشجاني عليلا كأنما   تجود بنفسي زفرة وغليلُ
وإني وإن أصبحت في دار غربةٍ   تُحيل الليالي سلوتي وتُديلُ
وصدّتنيَ الأيام عن خيرِ منزلٍ   عهدت به أن لا يُضَام نزيلُ ٥
لأعلم أن الخيرَ والشرَّ ينتهي   مَداه وأن الله سوف يُديلُ
وأني عزيز بابن مَاسَايَ مُكثِرٌ   وإن هان أنصارٌ وبَان خليلُ

فأعانني الوزير مسعود عليه ، حتى أذِن لي في الانطلاق على شريطة العُدول عن تلِمْسان ، في أيّ مذهب أردت ، فاختَرت الأندَلُس ، وصرفت ولَدِي وأُمَّهم إلى أخوالهم ، أولادِ القائد محمد بن الحكيم بقُسنطينة ، فاتحَ أربع وستين ، ١٠ وجعلتُ أنا طَريقي على الأندَلُس ، وكان سلطانُها أبو عبد الله المَخلوع [1] ، حينَ وفَد على السلطان أبي سالم بفاس ، وأقام عندَه ، حصلت لي معه سابقة ، وصلة [٧٢ب] ووسيلة خِدمة ، من جِهة وزيره / أبي عبد الله بن الخَطيب [2] ، وما كان بيني وبينَه من الصِّحابة ، فكنت أقوم بخدمته ، وأعتَمل في قضاء حاجاته في الدولة .

ولما أجازَ ، باستدعاء الطّاغية لاسترجاع مُلْكه ، حين فسَد ما بين الطاغية وبينَ ١٥ الرئيس المتوثِّب عليه بالأندَلُس من قَرَابته ، خَلفتُه فيمن تَرَك من عِياله وَولَدِه بفاس ، خيرَ خَلَف ؛ في قضاء حاجاتهم ، وإدْرار أرزاقهم ، من المتولِّين لها ،

---

[٢] ز «لا بريبة» [١٠] ش «بن عبد الحكيم» [١٢—١٣] ز ط ش «وصلة خدمة من جهة الوزير» [١٣] ز ط «لما كان بيني وبينه» .

---

(١) سبق التعريف به في هامش ص ٣٩ .

(٢) لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد المعروف بابن الخطيب (٧١٣ — ٧٧٦) انظر بروكلمن ٢/٢٦٢ ، والملحق ٢/٣٧٢ حيث ذكر المراجع عنه ، ومؤلفاته .

والاستِخدام لهم . ثم فسد ما بينَ الطاغية و بينَه ، قبل ظفَرِه بمُلكه ، برُجُوعه عما اشترطه لَه ؛ من التَّجافِي عن حُصون المُسلمين التى تَمَلَّكها ، بإجْلابه ، ففارَقَه إلى بلَدِ المُسلمين ، ونَزَل بأَسِجَة[1] ، وكتب إلى عُمَرَ بن عبد الله يطلب مِصْرًا يَنزِلُه ، من أمصار الأندَلس الغربية ، التى كانت رِكاباً لمُلوك المَغرِب فى جهادهم ، وخاطَبنى أنا فى ذلك ، فكنتُ له نِعْم الوَسيلَة عند عُمَر ، حتَّى تمّ قصدُه من ذلك ، وتَجافَى له عن رُندَة وأعمالِها ، فنزَلها ، وتملّكها ، وكانت دارَ هِجْرته ، وركابَ فَتْحه ؛ ومَلَكَ منها الأندَلُس أواسطَ ثَلاثٍ وستّين ؛ واستَوحَشتُ أنا من عُمَر ، إثرَ ذلك كما مرَّ ، وارتحَلتُ إليه ، معوِّلًا على سوابِق عندَه ، فغَرَّب فى المكافأة كما نَذكُر [إن شاء الله تعالى] .

الرحلة إلى الأندلس

ولَمَّا أجمَعت الرِّحلةَ إلى الأندَلُس ، بعثتُ بأهلى ووَلَدِى إلى أخوالهم بقُسَنْطِينَة ، وكتبتُ لهم إلى صاحبها السلطان أبى العبّاس ، من حَفَدَة السلطان أبى يحيى ، وأنّىَ أمرّ على الأندلُس ، وأُجيزُ إليه من هُنالك ، وسِرت إلى سَبْتَة فُرْضَة المَجاز وكبيرُها يومئذ الشَّريف أبو العبّاس أحمد بن الشريف الحَسَنى ، ذو النسب الواضح ، السالم من الرِّيبة عند كافة أهل المغرب ؛ انتقل

[٢] ز « بالإجلاب » [٣] ز ش « إلى بلاده » ، ز ط « ونزل بإستجة » [٩] ش ط « فى المكافآت » ، الزيادة عن ز [١٤] ما أثبت عن ز ط ش ، ولعله الصواب . وفى الأصل « بن أبى الشرف الحسينى » .

(١) أسجة (Ecija) قيدها ابن خلدون بالقلم ، بفتح الهمزة ، وكسر السين المخففة ، عرضها الشمالى ٣٠ ′ — ٣٧° ، وطولها الغربى ٨ ′ — ٥° . تقع فى الجنوب الغربى لقرطبة على بعد نحو ٥٤ كيلومترا . ويقال لها أيضا إستجة ، وتحت هـذا الاسم تجدها فى الروض المعطار ص ١٤ — ١٥ ، ياقوت ١/٢٢٤ .

سَلَفُهُ إلى سَبْتَة من صَقَلية(١) ، وأكرَمَهم بنو العَزَفِىّ أولا وصاهَروهم ، ثم عظُم صيتُهم فى البَلَد ، فتنكَّرُوا لهم ، وَغرَّبَهم يَحيَى العَزَفىّ آخرُهم إلى الجزيرة ، فاعترَضتهم مَرا كبُ النصارى فى الزُّقاق(٢) ، فأسَرُوهم ، وانتدب السلطان أبو سعيد إلى فديتهم ، رِعايةً لشرَفهم ، فبعَث إلى النصارى فى ذلك فأجابوه ، وفادَى هذا الرجلَ وأباه على ثلاثة آلاف دينار ، ورجَعوا إلى سَبْتة ، وانقرض بنو العَزَفِىّ ودَولتهم ، وهَلَك والدُ الشريف ، وصار هو إلى رياسة الشُّورَى . ولمّا كانت واقعة القَيْروان ، وخلَع أبو عنان أباه ، واستولى على المَغرب ، وكان بسَبْتَةَ عبدُ الله بن على الوزير، واليا من قِبَل السلطان أبى الحسن ، فتمسك بدعوته ، [١٢٣] ومال أهلُ البلد إلى السلطان / أبى عِنان ، وبثّ فيهم الشريف دَعوتَه ، فثاروا بالوزير وأخرجوه ، ووَفَدوا على أبى عِنان ، وأمكنوه من بلدهم ، فولَّى عليها من عظماء دولته سعيدَ بن موسى العَجِيسى ؛ كافل تَربيته فى صِغَره ، وأفرد هذا الشريف برياسة الشُّورَى فى سَبْتَة ، فلم يكُن يُقطَع أمرٌ دونه ، ووَفَد على السلطان بعضَ الأيام، فتلقّاه من الكرامة بما لا يشاركه فيه أحد من وفود المُلوك والعُظماء . ولم يزَل على ذلك سائرَ أيام السلطان وبعدَ وفاته . وكان معظّما ، وَقورَ المجلس ، هَشَّ اللِّقاء ، كريمَ الوفادة ، متَحلّيا بالعلم والأدب، منتحلا للشِّعر، غايةً فى الكَرم وحُسن العَهد ، وسذاجة النفس. ولمَّا مررتُ به سنةَ أربع وستّين ، أنزَلَنى ببيته

[٣] ط « فأسروهم » [٦—٧] ز « لما كانت واقعة القيروان » [٩] سقط من ز ش « وبث فيهم ... أبى عنان » [١٢] ز ط « يقطع أمرا » ، الأصل « ويفد » ، والمثبت عن ز ط . [١٣] ط « فى بعض الأيام » ، فى الأصل « فيلقاه » ، والمثبت عن ش ، ز ط « فلقاه » .

(١) بفتح الصاد والقاف ، أو بكسرهما ، واللام مكسورة مشددة على كلا القولين . فتحت سنة ٢١٢ . انظر تاج العروس ٧/٤٠٤ ، المطرب لابن دحية ص ٣٧ (نسخة خاصة) . ياقوت ٥/٣٧٣ — ٣٧٧ .

(٢) الزقاق : هو المضيق الذى بين طنجة وجبل طارق ، وعرض البحر هناك نحو سبعة عشر ميلا .

إزاء المسجد الجامع ، وبَلَوْت منه ما لا يُقدِّر مثلَه من الملوك ، وأركبنى الحَرَّاقة[1]
ليلةَ سفرى ؛ يُباشر دَحرَجَتَها إلى الماء بيده ، إغرابًا فى الفَضْل والمُساهَمة ،
وحَطَطتُ بجَبَل الفتح[2] ، وهو يومئذ لصاحِب المغرب ، ثم خَرجتُ منه إلى
غَرناطة ، وكتبتُ إلى السلطان ابن الأحمَر وَوزيره ابن الخطيب بشأنى ، وليلةَ
٥ بِتُّ بقرب غَرناطة على بَريدٍ[3] منها ، لقِيَنى كتابُ ابن الخطيب يُهنِّئنى بالقدوم ،
ويؤنسُنى ، ونَصُّه :

حَلَلتَ حُلولَ الغيثِ بالبلَد المَحْلِ ... على الطائر المَيمون والرَّحبِ والسَّهْلِ
يَمينًا بمن تَعنُو الوجوه لوَجْهه ... من الشَّيخ والطفل المُهَدَّإ[4] والكَهْلِ
لقد نشأَت عِندى لقُياكَ غِبطَةٌ ... تُنَسِّى اغتباطِى بالشَّبيبَة والأَهْلِ
١٠ [ووُدِّىَ لا يُحتاجُ فيه لشاهِد ... وتَقريرِىَ المعلومَ ضربٌ من الجَهلِ]

أقسمتُ بمن حجَّت قُريشٌ لبَيته ، وقبرٍ صُرِفَتْ أزِمّة الأحياء لمَيْته[5] ،
ونُورٍ ضُرِبت الأمثالُ بمِشكاته وزَيته[6] ، لَو خُيِّرتُ أيها الحَبيب الذى زيارتَه

[٤] ز ط « وكتبت للسلطان » [٧] ش ، جذوة الاقتباس ، الإحاطة ، ونفح الطيب « الغيث فى البلد » [٨] الإحاطة ، والجذوة ز ط « المصب » [٩] الإحاطة « عندى بلقياك » [١٠] سقط هذا البيت من الأصل ، ومن نسخة الإحاطة بدار الكتب ، وقد ورد فى ز ط ش ، ونسخة الإسكوريال من الإحاطة [١١] ط « قريش إلى بيته » .

(١) الحراقة : نوع من السفن الصغيرة كان يستعمل للنزهة . انظر السلوك للمقريزى ص ٣٠٦ .

(٢) جبل الفتح : هو جبل طارق بن زياد . وهو المسمّى اليوم Gibraltar

(٣) البريد : أربعة فراسخ ؛ والفرسخ : اثنا عشر ميلا . انظر تاج العروس ٢/٢٩٨ .

(٤) هدأت المرأة الصبي : سكنته لينام .

(٥) فى القرآن : « إنك ميت وإنهم ميتون » ، فلا معنى لما كتبه الشيخ العطار هنا . انظر هامش ص ٤١١ من الجزء السابع من العبر .

(٦) يشير إلى الآية : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح =

الأُمنيَّة السنيَّة ، والعارِفة الوارِفة[1] ، واللّطيفة المُطيفة ، بين رَجْع الشباب يَقطر ماء ، ويَرِفّ[2] نَماء ، ويُغازل عُيون الكواكب ، فضلًا عن الكواعب ، إشارةً وإيماء ، بحيث لا الوخْطُ يُلِمُّ بسِياج لِمَّته ، أو يَقدَح ذُباله فى ظُلمته ، أو يقُوم حَواريّه فى مِلّته ، من الأحابِش وأُمّته ، وزمانُه رَوْح ورَاح ، ومَغْـدًى فى النعيم ومَرَاح ، وقَصْفٌ صُراح ، ورُقًى وجِراح ، ٥

وانتِخابٌ واقتِراح ، وصدورٌ ما بها إلا انشِراح ، ومسَرّاتٌ تَردُفها أفراح ؛ وبيْنَ قُدومك خَليعَ الرَّسَن ، مُمتَّعا — والحمد لله — باليَقَظة والوَسَن ، محكَّما فى نُسْك الجُنَيْد[3] أو فَتْك الحسَن[4] ، مُمَتَّعا بطَرْف المَعارف ، مالئا أكُفَّ الصَّيارف ،

[٢٣ب] ماحيًا/ بأنوار البراهين شُبَهَ الزَّخارف — لَمَا اخترت الشّبابَ وإن شَاقَنى زمنُه ، وأعيانى ثَمنه ، وَأَجْرَتْ سَحَابَ دمعى دِمَنُه . فالحمد لله الذى رَقَّ جُنونَ ١٠

اغترابى ، وملّكنى أزِمّةَ آرابى ، وغبّطنى بمائى وتُرابى ، ومَآلَفِ أترابى ، وقد أغصَّنى بلَذِيذ شَرابى ، وَوقّع على سُطوره المنتَبَرة إضْرابى . وعجّلتُ هذه مُغبِّطة

---

[٣] فى الأصل « الوقت » والتصحيح عن ز ط ش ، ونفح الطيب ٤/٧ [٤] الإحاطة « فى حلته » [٦] ط « وصدر ما به إلا الانشراح » ، ز ط « يردفها أفراح » [٨] ط ش « بطرف » [١٠] ش « سحائب دمعى » ، ش « والحمد لله » (١٢) الإحاطة نسخة دار الكتب : « وألقى على سطوره » .

= المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درىٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار » .

(١) العارفة : العطية . والوارفة : المتسعة .

(٢) يقال : الشىء يرف إذا كثر ماؤه من النعمة والغضاضة .

(٣) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد ، سيد الصوفية وإمامهم . توفى سنة ٢٩٧ أو ٢٩٨ . طبقات الشافعية للسبكى ٢/٢٨ — ٣٧ ، رسالة القشيرى ص ٢١ .

(٤) يريد أبا نواس : الحسن بن هانئ بن الجراح الحكمى ، الشاعر الماجن المعروف (١٤٥ — ٢٠٠) انظر ترجمته فى شرح ابن نباتة لرسالة ابن زيدون ص ١٧٠ — ١٧٦

بمُنَاخ الطِيَّة[1] ، ومنتهَى الطيِّة ، ومُلْتَقَى للسُّعود غير البطيَة ، وتهنِّى الآمال الوثيرة الوَطِية ، فما شئتَ من نفوسٍ عاطشــة إلى رِيِّك ، متجمِّلة بزِيِّك ، عاقلة خُطا مَهْرِيِّك ؛ ومَوْلًى مَكارمُه نَشيدة أمثالك ، ومَظانُّ مثالك ، وسَيُصَدِّق الخبرَ ما هُنالك ، ويَسَع فضلُ مجـدِك فى التخَلُّف عن الإصحار[2] ، لا ، بل اللقاء من

٥ وراء البحار ، والسَّلام .

ثم أصبحتُ من الغَد قادمًا على البـلَد ، وذلك ثامنَ ربيع الأول عامَ أربعةٍ وستِّين ، وقد اهتزَّ السلطان لقُدومى ، وهيَّأ لى المنزل من قصوره ، بفرشه وماعُونه ، وأركب خاصَّتَه للقائى ، تحفِّيا وبِرًّا ، ومُجازاة بالحُسنى ؛ ثم دخلتُ عليه فقابلنى بمـا يُناسب ذلك ، وخلَع علىّ وانصرفت . وخرج الوزيرُ ابن

١٠ الخطيب فشيَّعنى إلى مكان نُزُلى ؛ ثم نظَمنى فى عِليــة أهل مجلسِه ، واختصَّنى بالنَّجِىّ فى خَلوته ، والمُوَاكبة فى رُكوبه ، والمُوَاكلَة والمُطَايبــة والفكاهة فى خَلَوات أُنسه ؛ وأقمتُ على ذلك عِندَه ؛ وسَفَرتُ عنه ســنةَ خمس وستِّين إلى الطاغية مَلِك قَشْتالة يومئذ ؛ بِطْرُه بن الهُنْشُه بن أَذْفُونَشْ لإتمام عَقد الصلح ما بينه وبين ملوك العُدْوَة ، بهدِيَّة فاخرة ، من ثياب الحرير ، والجياد المقرَبات[3]

١٥ بمراكب الذهب الثَّقيلة ، فلقيت الطاغية بإشبيلية ، وعاينتُ آثار سَلَفِى بهـا ،

---

[١] سقط من ز ط « ومنتهى الطية » ، ش « وملتقى السعود » [٢ — ٣] ط « خطا سمهريك » ، ز « نشيدة لأمثالك » ، الإحاطة ومختصرها « ومطابق مثالك » [٨] ط « ومجازات بالحسنى » [٩] ز ط « وخلع وانصرفت » [١٠ — ١١] ز « واختصنى بالنجا ... والمراكبة فى ركوبه » [١١ — ١٢] ز ط « والمفاكهة فى خلوات أنسه ، وأقمت عنده » .

---

(١) الطية : الوجه والقصد .

(٢) الإصحار : الخروج إلى الصحراء . يعتذر عن تخلفه عن الخروج للقياه بعيدا عن المدينة .

(٣) المقربات : التى تقرب ، ولا تترك بعيدة لئلا يقرعها فحل غير جيد ، يفعلون ذلك ليحفظوا لها النسب الحر .

وعاملنى من الكرامة بما لا مَزِيد عليه ، وأظهر الاغتباط بمكانى ، وعلِم أولية سَلفِنا بإشبيلية ، وأثنى علىّ عندَه طبيبُه إبراهيم بن زَرْزَرَ اليهودى ، المُقدَّم فى الطبّ والنِّجامة ، وكان لقِيَنى بمَجلس السلطان أبى عِنَان ، وقد استَدعاه يَستطِبُّه ، وهو يومئذ بدار ابن الأحمر بالأندلس ، ثمّ نَزَع — بعد مَهْلَك رضوان القائم بدولتهم — إلى الطاغية ، فأقام عِندَه ، ونظمَه فى أطبَّائه . فلمَّا قَدِمتُ أنا عليه ، أثنى علىّ عنده ، فطلب الطاغية منّى حينئذٍ المُقام عندَه ، وأن يَرُدّ علىّ تُراثَ سَلفى بإشبيلية ، وكان بيَد زُعماء دولتَه ، فتفاديْتُ من ذلك بما قبله ، ولم يزَلْ على اغتباطه إلى أن انصرفت عنه ، فزَوَّدنى وحملنى[1] ، واختصَّنى ببَغلة / فارهةٍ [١٢٤] بمَركب ثَقيل ، ولِجام ذَهبيَّين ، أهديتُهما إلى السُّلطان ، فأقطَعنى قريةَ إلبيرَة من أراضى السَّقْى بمَرْج غَرناطة ، وكتَب بها منشورا كان نصه[2] :

ثمّ حضَرتُ المولدَ النَّبوىّ لخامسَةِ قُدومى ، وكان يَحْتفل فى الصَّنيع[3] فيها والدَّعوة[4] ، وإنشاد الشعراء ، اقتداء بملوك المَغرب ، فأنشَدتُه ليلتَئذ :

حَىّ المعاهدَ كانت قبلُ تُحْيِينى	بواكِف[5] الدَّمع يَرْوِيها ويُظْمِينى
إنّ الأُلى نَزَحت دارى ودَارُهُمُ	تحمَّلوا القلبَ فى آثارهم دُونى
وقفتُ أنشُدُ صبْرا ضاع بعـدَهم	فيهمْ وأسْألُ رسمًا لا يُناجِينى

[٢] ز ط «إبراهيم بن زرزور» [٨] ط «فزودونى» [١١] ز «لخامسه وكان» [١٢] ز ط «وإنشاد الشعر» [١٥] فى الأصل «وأسأل صبرا» والمثبت عن ز والإحاطة ، ومختصرها .

(١) أعطانى ظهرا لأركبه .

(٢) بياض فى جميع الأصول ، ولعل ابن خلدون ترك هذا البياض ليثبت نص هذا المنشور ، فعاجلته المنية قبل أن يتيسر له ذلك .

(٣) الصنيع ، والصنيعة : ما أسدته من معروف إلى إنسان . ويريد به ابن خلدون هنا نفى الاحتفال .

(٤) الدعوة بالفتح فى أكثر كلام العرب : طلبك الناس للطعام ، وعند تيم الرباب : الدِّعوة ، بكسر الدال فى الطعام . وانظر كتب اللغة .

(٥) وكف الدمع : سال .

[أُمثّل الرَّبعَ من شوق فألثِمُهُ — وكيفَ والفِكرُ يدنيه ويُقصيني]

[ويَنهَب الوَجْـدُ منّى كلَّ لؤلؤةٍ — ما زال قلبي عليها غيرَ مأمون] (١)

سقَتْ جُفونى مَغانى الرَّبع بعدَهُمُ — فالدَّمعُ وقفٌ على أطلاله الجُون (٢)

قد كان للقلب عن داعى الهوَى شُغُلٌ — لو أنَّ قلبى إلى السُّلوان يدعُونى

٥ أحبابنا هل لِعهْد الوَصل مُدَّكَرٌ — مِنكمْ وهل نَسْمةٌ عنكم تُحَيّينى

مالى وللطَّيف لا يَعتادُ زائرُه (٣) — وللنَّسيم عليلاً لا يداوينى

يا أهلَ نَجدٍ وما نَجْدٌ وساكنُها — حُسْنًا سوَى جنَّة الفِرْدَوس والعِين (٤)

أعندَكم أننى مامرَّ ذِكرُكُمُ — إلا انثنيتُ كأنّ الرَّاح تَثْنينى

أصبُو إلى البرْق من أنحاء أرضِكمُ — شوقا ولولاكُمُ ما كان يُصْبينى

١٠ يانازحًا والمُنَى تُدْنيه من خَلَدى (٥) — حتى لأحسَبُه قُربًا يُناجينى

أسْلَى هواكَ فؤادى عن سِوَاكَ وما — سِواكَ يوْما بحالٍ عنكَ يُسْلينى

ترى الليالىَ أنستْك ادِّكارِىَ يا — من لم تَكن ذِكرُه الأيامُ تُنْسينى

ومنها فى وصف الإيوان (٦) الذى بناه لجُلوسه بينَ قُصوره :

يا مصْنَعًا شيَّدَت منه السُّعود حِمًى — لا يَطرُق الدّهرُ مَبْناه بتوْهين

١٥ صَرْحٌ يحَار لديْه الطّرْفُ مُفتَتَنًا — فيما يَرُوقكَ من شَكْلٍ وتَلْوين

[٥] الجذوة « نسمة منكم » [٦] الجذوة : « يعتادزورتنا » [١٤] ز ط « شدت منه السعود » [١٥] ط «مستلما» ، ز « ملتبسا » .

(١) سقط البيتان من الأصل ، ووردا فى ز ط ش ، وجذوة الاقتباس والإحاطة ومختصرها.
(٢) الجون : السُّود .
(٣) لا يزور مرة بعد الأخرى .
(٤) جمع عيناء ؛ وهى الواسعة العين من النساء .
(٥) الخلد : البال .
(٦) فى مختصر الإحاطة : ومنها فى وصف المشور المبتنى لهذا العهد .

بُعْدًا لإيوان كِسرى إنّ مَشْوَرَك[١] السّامى[٢] لأعظمُ من تِلك الأواوينِ
ودَعْ دِمَشقَ ومغناها فقصرُك ذا «أشهَى إلى القلب من أبواب جَيْرونِ»[٣]

ومنها فى التّعريض[٤] بعُنصرَىْ من العُدْوة :

مَن مُبلغٌ عنّىَ الصَّحْبَ الأُلَى تركوا وُدّى وضاع حِمام إذْ أضاعونى
أنّى أوَيْتُ من العَليا إلى حرَمٍ كادت مَغانيه بالبُشرى تُحَيّينى ٥
[٢٤ب]/ وأنّنى ظاعنًا لم ألقَ بعدَهُم دهرًا أشاكِى ولا خصمًا يُشاكِينى
لا كالتى أخفرَت عهدى ليالىَ إذْ أُقلّب الطَّرْف بين الخوْف والهُونِ

***

سَقْيًا ورَعْيًا لأيامى التى ظفِرَتْ يدَاىَ منها بحظٍّ غير مغبونِ
أرتادُ منها مَليًّا لا يُماطِلنى وعدًا وأرجو كريمًا لا يعنّينى ١٠
وهاكَ منها قَوافىَ[٥] طيّها حِكَمٌ مثلُ الأزاهر فى طىّ الرّياحينِ
تلوحُ إن جُلِيت دُرًّا وإن تُلِيَتْ تُثنِى عليكَ بأنفاس البساتينِ
عانيتُ منها بجُهْدِى كُلَّ شاردةٍ لولا سُعودُك ما كادت تُواتينى
يُمانع الفكْرَ عنها ما تقسّمَه من كلّ حُزنٍ بطىِّ الصّدر مكنُونِ

[٤] الإحاطة ، ومختصرها « جهلوا » [٦] ز ط « ألق بعدكم » ، ز ط « ولا خلاً »

(١) هو الإيوان الذى كان بمدائن كسرى . شاهده ياقوت ، ووصفه فى معجم البلدان ٣٩٤/١ وما بعدها . وللبحترى فيه القصيدة السينية المشهورة .

(٢) المشور فى الاصطلاح المغربى والأندلسى : المكان الذى يجلس فيه السلطان فمن دونه من الحكام للحكم . ولا تزال الكلمة مستعملة فى هذا المعنى بالمغرب .

(٣) موضع من متنزهات دمشق أكثر الشعراء من ذكره . ياقوت ١٩١/٣ ، تاج العروس ١١٦/٣ . والشطر الثانى مضمن من شعر أبى قطيفة .

(٤) يعنى بهذه الأبيات صديقه الوزير عمر بن عبد الله ، ويعرض فيها بما عامله به من الوحشة ، وقد قدم بعض القول فى ذلك .

(٥) كذا فى الأصل . وحقه أن يكون منصوبا ، لأن هاك بمعنى خذ .

لكن بسعدك ذلّت لى شواردُها   فرُضتُ منها بتحبير وتزيينِ
بقيتَ دهرَك فى أمنٍ وفى دَعَةٍ   ودام مُلكُك فى نصرٍ وتمكينِ

وأنشدْته سنةَ خمس وستين فى إعذار[1] ولدِه ، والصَّنيع الذى احتفَل لهم فيه ، ودعا إليه الجَفَلَى[2] من نواحى الأندلس ، ولم يَحضُرنى منها إلا ماأذكره :

٥

محا الشوقُ لولا عَبرةٌ ونَحِيبُ[3]   وذِكرَى تُجِدّ الوَجْد حين تثُوبُ[4]
وقلبٌ أبى إلا الوفاء بعَهدِه   وإن نَزَحت دارٌ وبانَ حبيبُ
ولله منّى بعدَ حادثةِ النّوَى   فؤادٌ لتذكارِ العهود طَرُوبُ
يؤرِّقُهُ طَيفُ الخيال إذا سَرَى   وتُذْكِى حَشَاهُ نفحةٌ وهُبوبُ
خليلَىَّ إلّا تُسعِدا فدَعا الأسَى   فإنى لما يدْعو الأسى لمُجيبُ   ١٠
أَلِمَّا على الأطلال نقضِ حقوقَها   من الدَّمع فيّاضُ الشئون سَكُوبُ
ولا تَعذُلانى فى البكاء فإنها   حُشاشةُ نفسى فى الدموع تَذُوب

ومنها فى تقدُّم ولدِه للإعذار من غير نُكول[5] :

فيَمّمَ منه الحَفلَ لا متقاعسٌ   لخَطْبٍ ولا نِكسٌ[6] اللقاء هَيُوبُ
وراح كما راح الحسامُ من الوَغى   تَرُوق حِلاهُ والفِرندُ[7] خضيبُ   ١٥

---

[٢] سقط هذا البيت من ش [٦] ز ط « لولا عبرتى وتحيى » ، ط « حين تئوب »
[١١] ز ط ش « نقض حقوقها » [١٤] ز ط « متقاعس * ولا نكس عند اللقاء هيوب »

---

(١) الإعذار : الختان ، ثم أطلق على طعام الختان .
(٢) الجفَلى ، بفتحات : أن تدعو الناس إلى طعامك دعوة عامة .
(٣) النحيب : البكاء .
(٤) تثوب ، وفى ط : تئوب ؛ والمعنى فيهما : ترجع وتعود .
(٥) النكول : التأخر والجبن .
(٦) النكس : الرجل الضعيف ، والمقصّر عن غاية النجدة والكرم .
(٧) الفرند : السيف .

شواهدُ أهدتهنَّ منك شمائلٌ   وخُلقٌ بصَفْو المَجْد منكَ مَشُوب

ومنها فى الثناء على ولديه :

هما النَّيِّران الطالعان على الهُدى   بآيات فتحٍ شأنهنَّ عجيبُ

[١٢٥] / شِهابان فى الهَيْجا غَمامان فى النَّدَى   تَسُحُّ المعالى منهُما وتَصوبُ

يدان لبسط المكرُمات نَمَاهُمَا   إلى المجدِ فيَّاضُ اليدين وَهُوبُ   ٥

وأنشدته ليلةَ المولِد الكريم من هذه السنة :

أبَى الطيفُ أن يعتادَ إلا توهُّما   فَمَن لِى بأن ألقَى الخيال المسَلِّما

وقد كنتُ أستَهديه لو كان نافِعى   وأستمطر الأجفانَ لو تنقعُ الظَّمَا(١)

ولكن خَيالٌ كاذب وطَماعةٌ(٢)   تُعَلِّلُ قلبًا بالأمانى مُتَيَّما

أيا صاحِبَىَّ نَجواىَ والُحبُّ لوْعةٌ   تُبيح بشكواها الضَّمِيرَ المكتَّما   ١٠

خُذَا لفؤادِى العَهد من نفَس الصَّبَا   وظَبْىِ النَّقَا(٣) والبانِ من أجْرَعِ الحِمَى(٤)

ألا صَنَع الشوقُ الذى هو صَانِعٌ   فحُبِّى مُقيم أقصرَ الشوقُ أو سَمَا

وإنى ليدعُونى السلوُّ تعلُّلا   وتَنْهانِىَ الأشجانُ أن أتقدَّما

لمن دِمنٌ أقفرنَ إلّا هواتفًا(٥)   تُرَدِّدُ فى أطلالهنَّ الترَنُّما

عَرفتُ بها سِيمَا الهوى وتنكَّرتْ   فَعُجتُ على آيَاتها مُتَوَسِّما   ١٥

---

[٨] ز ط « وأستمطر الإخوان لو تمطر »

---

(١) تروى العطش .
(٢) الطماعة : الطمع .
(٣) النقا : الكثيب من الرمل .
(٤) الأجرع : الأرض الرملة السهلة المستوية . وانظر لسان العرب .
(٥) هتفت الحمامة : ناحت ، وهى هاتفة ، والجمع هواتف .
(٦) سيما الهوى : علامته .

وذو الشَّوق يَعْتاد الرُّبوع دَوارسًا ... ويَعـرف آثارَ الدِّيار تَوهُّما
تأوَّبنى[1] والليـلُ بيْنِى و بينَهُ ... وَميضٌ بأطراف الثنايا تَضرَّما
أجَدَّ لىَ العهدَ القديمَ كأنه ... أشار بتـذْكار العُهود فأفهمَا
عجبتُ لمرتاع الجوَانـح خافق ... بكَيتُ له خلفَ الدُّجي وتبَسّما
وبتُّ أروِّيه كُئُوس مدامِعِي ... وبات يعاطينى الحديثَ عن الحمَى
وصافحتُه عن رسم دار بذى الغضَى[2] ... لبِستُ بها ثوبَ الشَّبية مُعْلما
لَعهدى بها تُدنِى الظِّباء أوَانِسًا ... وتُطلِعُ فى آفاقها الغِيدَ أنجُمَا
أحِنُّ إليها حيث سار بِىَ الهوى ... وأُنجِدَ رحْلِي فى البلاد وأُتْهِمَا[3]

ولما استقر القرار ، واطمأنّت الدّار ، وكان من السلطان الاغتباط
والاستئثار ، وكثُر الحنين إلى الأهل والتذكار ، أمَرَ باستقدام أهلى من مطرَح
اغترابهم[4] بقُسَنطينَة ، فبعث عنهم مَن جاء بهم إلى تِلِمْسان ، وأمر قائد
الأسطول بالمَرِيَّة ، فسار لإجازتِهم فى أسطوله ، واحتلوا بالمَرِية ، واستأذنتُ
السلطان فى تَلَقِّيهم ، وقدِمتُ بهم على الحضرة ، بعدَ أن هيأتُ لهم المَنزِل
والبُستان ، ودِمْنَةَ الفَلْح ، / وسائرَ ضرورات المَعاش . [٥

وكتب الوزير ابن الخطيب عند ما قاربت الحَضْرة ، وقد كتبتُ إليه
أستأذنه فى القدوم ، وما أعتَمده فى أحواله :

[٩ — ١٠] ز ط « الاغتباط ، والاستبشار » [١٠ — ١١] ط « أهلى من مطوح اغترابهم » [١١] ز « ببعث عنهم » [١٢] ز ط ش « فسار فى اجازتهم » [١٣] ط « وقدمت بهم الى » [١٤] ز ط « ضروريات للعاش »

(١) أتانى ليلا .
(٢) الغضى : « وزن الغضا : واد بنجد » .
(٣) أنجد ، وأتهم : دخل نجدا ، وتهامة .
(٤) مطرح الاغتراب : المكان البعيد عن الأهل والعشيرة .

سيدى ، قَدِمْتَ بالطّير المَيامين ، على البَلَد الأمين ، واستضفت الرّفاء إلى البنين ، ومُتِّعتَ بطول السنين . وصَلتنى البَرَاءة[1] المعربة عن كَثَب اللقاء ، ودُنُوّ المزَار ، وذهاب البُعْد ، وقربِ الدار ؛ واستفْهَم سيدى عمّا عِندى فى القدوم على المخدوم ، والحقّ أن يتقدم سيدى إلى الباب الكريم ، فى الوقت الذى يجد المجلس الجُمْهورى لم يُفِضْ حَجِيجُه[2] ، ولا صَوّح[3] بهيجُه ، ويصل الأهل بعدَه إلى المحلّ الذى هيأته السعادة لاستقرارهم ، واختاره اليُمْن قبلَ اختيارهم . ٥ والسلام .

ثم لم يلبث الأعداء وأهلُ السِّعاياتِ أن خيّلوا الوزيرَ ابن الخطيب من ملابستى للسلطان ، واشتماله علىّ ، وحرّكوا له جَوادَ الغَيْرة فتَنَكَّر ، وشممتُ منه رائحةَ الانقباض ، مع استبداده بالدَّولة ، وتحكُّمه فى سائر أحوالها ؛ وجاءتنى كُتب السلطان أبى عبد الله صَاحب بِجَايَة ، بأنه استولَى عليها فى رمضانِ ١٠ خمسٍ وستِّين ، واستدعانى إليه ، فاستأذنت السلطانَ ابنَ الأحمر فى الارتحال إليه ، وعمّيتُ عليه شأنَ ابن الخطيب إبقاء لمودته ، فارتَمَض[4] لذلك ، ولم يَسَعْه إلا الإسعاف ؛ فودّع وزَوّد ، وكُتِب لى مرسوم بالتشييع من إملاء الوزير ابن الخطيب نَصُّه :

[١] ز « وعلى البلد الأمين » [٣] ز « وقرب الديار » [٨] فى الأصل « حوار الغيرة » [١٢] ز « إبقاء للمودة » .

(١) البراءة فى مصطلح المغاربة والأندلسيين : الرسالة كيفما كان موضوعها . ولا يتقيدون فيها بالمعنى اللغوى للبراءة .

(٢) الإفاضة : الدفع فى السير بكثرة . والحجيجُ : جمع حاج ؛ يريد قبل أن يتفرق رواد المجلس السلطانى من أهل الدولة .

(٣) صوّح النبت : تم يبسُه .

(٤) ارتمض لكذا : حزن ، وارتمض بكذا : اشتد قلقُه .

هذا ظَهير كريم ، تضمن تشييعًا وترفيعا ، وإكرامًا وإعظاما ، وكان لعَمَل الصَّنيعة خِتاما ، وعلى الذى أحسن تماما ، وأشاد للمعتمد به[١] بالاغتباط الذى راق قَسَاما[٢] ، وتوفَّر أقساما ، وأعلنَ له بالقبول إن نوَى بعدَ النَّوَى رُجوعًا أو آثر على الظعَن المُزمَع مُقاما .

٥ أمَرَ به ، وأمضى العمل بمقتضاه وحَسْبِه ، الأميرُ عبد الله محمد بن مولانا أمير المسلمين أبى الحجَّاج بن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر ، أيَّدَ الله أمرَه ، وأعزَّ نصره ، وأعلى ذِكرَه ، للوَلىّ الجليس ، الحَظِىّ المكين ، المقرَّب الأودّ الأحبّ ، الفقيه الجَليل ، الصدر الأوحد ، الرَّئيس العَلَم ، الفاضل الكامل ، المرفَّع الأسمى ، الأظهر الأرضَى ، الأخلص الأصفَى ، أبى زيد عَبد الرحمن بن

١٠ الشيخ الجليل ، الحسيب الأصيل ، الفقيه المرفَّع المعظم ، الصَّدْر الأوحد الأسمى ، الأفضل الأكمل ، الموقَّر المبرور ، أبى يحيى أبى بَكر ، بن الشيخ الجليل الكبير ، الرفيع الماجد ، القائد الحظىّ ، المعظَّم الموقَّر ، المبرور المرحوم ، أبى عبد الله بن خَلْدون . وصَل الله له / أسباب السعادة ، و بلَّغه من فضله أقصى الإرادة ؛ أعلَنَ [١٢٦ أ] بما عنده ، أيده الله ، من الاعتقاد الجيل فى جانبه المرفَّع ، وإن كان غنيًّا عن الإعلان ،

١٥ وأعرب عن معرفته بمقداره ، فى الحُسَباء العلماء الرؤساء الأعيان ، وأشاد باتِّصال رضاه عن مقاصدِه البَرَّة وشِيَمِه الحِسان ، من لَدُن وَفَد بابَه ، وفادةَ العزّ الراسخ البُنيان ، وأقام المُقام الذى عَيَّن له رِفعةَ المكان ، و إجلالَ الشان ، إلى أن عَزَم على قصد وطنه ، أبلغه الله ذلك فى ظلِّ اليُمْن والأمان ، وكفالة الرَّحمن

[١ — ٢] ز «لعمل الصنيع ختاما» [٣] ش «بعيد النوى» [٨] ز «العالم الفاضل» [١١] ش «الموقر الرحوم المبرور» ، ش ز « أبى يحيى بن الشيخ » [١٥] ز « عن معرفة مقداره فى العلماء » .

---

(١) كذا بالأصول .

(٢) القَسَام : الجمال والحسن .

بعدَ الاغتباط المُرْبِى على الخبَر بالعِيان ، والتمسُّك بجواره بجُهْد الإمكان ، ثم قَبول عُذره بما جُبِلت الأنفس عليه من الحنين إلى المعاهد والأوطان ، و بعد أن لم يَدّخر عنه كرامةً رفيعةً ، ولم يَحْجُب عنه وجهَ صَنيعة ، فولّاه القيادة والسِّفارة ، وأحلّه جَليسًا معتَمدًا بالاستشارة ، وألبَسه من الحُظوة والتقريب أبهَى الشارة ، وجَعَل مَحَلَّه من حضرته مقصودًا بالمِثْل مَعْنيًّا بالإشارة ، ثم أصْحَبه تَشْييعًا يَشهد ٥
بالضِّنانة بفِراقه ، و يجمع له بِرَّ الوجهة من جميع آفاقِه ، و يجعله بيده رَتيمَةَ خِنْصر[1] ، ووثيقةَ سامعٍ أو مُبْصِر ؛ فهما لَوَى أخْدَعَه[2] إلى هذه البلاد بعدَ قضاء وطَرِه ، وتَمَلِّيه من نَهْمَة[3] سفَره ، أو نَزَع به حُسنُ العهد وحنين الوُدّ ، فصَدْر العناية به مشْروح ، وبابُ الرضا والقَبُول مفتوح ، وما عَهِده من الحُظوة والبرّ ممنوح ؛ فما كان القصدُ فى مثله من إمجاد الأولياء ليتحَوَّل ، ولا الاعتقادُ الكريم ليتبدَّل ، ١٠
ولا الأخيرُ من الأحوال لينسخَ الأول . على هذا فليطوِ ضَميرَه ، وليَرِدْ متى شاء نَميرَه[4] ، وَمن وَقَف عليه من القوّاد والأشياخ والخُدّام ، بَرًّا وبحرًا ، على اختلاف الخُطَط والرُّتَب ، وتبايُن الأحوال والنِّسب ، أن يعرفوا حقَّ هذا الاعتقاد ، فى كل ما يحتاج إليه من تشييع ونزول ؛ وإعانة وقبول ، واعتناء موصول ، إلى أن يَكمُل الغرض ، ويؤَدَّى من امتثال هذا الأمر الواجبُ المُفترَض ، ١٥
بحول الله وقوته .

وكُتب فى التاسعَ عَشَرَ من جمادَى الأولى عامَ ستة وستين وسبع مائة .

و بعدَ التاريخ العَلاَمةُ بخط السلطان ، ونصُّها : « صح هذا » .

---

[٣] زط « والسيارة » [٥] ط « حظوته » [١٠] ط « والاعتقاد »
[١١] الأصل ش ز « ويرد » والمثبت عن ط .

---

(١) الرتيمة : الخيط الذى يشد فى الأصبع لتستذكر به الحاجة .
(٢) الأخدعان : عرقان فى موضع الحجامة من العنق ، والواحد أخدع ؛ يكنى بلىّ الأخدعين عن العودة إلى هذه البلاد .
(٣) النهمة : الحاجة ، وبلوغ الهمة فى الشىء . (٤) النمير من الماء : الزاكى ، الناجع .

الرحلة من الأندلس إلى بجاية ، وولاية الحجابة بها على الاستبداد

كانت بجايةُ ثغرًا لإفريقية فى دولة بنى أبى حفص من / الموحِّدين ، ولما [٣٦ب]
صار أمرهم للسلطان أبى بكر بن يحيى منهم ، واستقلَّ بمُلك إفريقية ، وَلَّى فى ثغر
٥ بجاية ابنَه الأميرَ أبا زكرياء ، وفى ثغر قُسَنْطِينة ابنَه الأميرَ أبا عبد الله . وكان بنو
عبد الواد ملوكَ تِلِمْسَان والمغرب الأوسط ، ينازعونه فى أعماله ، ويُجَمِّرون(١)
العساكر على بجايَة ، ويُجْلِبون على قُسَنْطِينة ، إلى أن تمسّك السلطان أبو بكر
بذمَّة من السلطان أبى الحسن ، ملِك المغرب الأقصى من بنى مَرِين ، وله الشُّفوف
على سائر ملوكهم ، وزحف السلطان أبو الحسن إلى تِلِمْسان ، فأخذ بمخنَّقها
١٠ سنَتَيْن أو أزيد ، وملكها عَنْوة ، وقَتَل سلطانها أبا تاشفين ، وذلك سنة
سبع وثلاثين ؛ وخفَّ ما كان على الموحِّدين من إصْر(٢) بنى عبد الواد ، واستقامت
دولتهم . ثم هلك أبو عبد الله محمد بن السلطان أبى يحيى بقُسَنْطِينة سنة أربعين ،
وخلَّف سبعةً من الوَلَد ، كبيرُهم أبو زيد عبدُ الرحمن ، ثم أبو العباسُ أحمد ، فولَّى
الأميرَ أبا زيد مكان أبيه ، فى كفالة نَبِيل مولاهم ، ثم تُوفِّىَ الأميرُ أبو زكرياء
١٥ ببجَاية سنة ست وأربعين ، وخلَّف ثلاثةً من الولد ، كبيرُهم أبو عبد الله محمد ،
وبعث السلطانُ أبو بكر ابنَه الأمير أبا حفص عليها ، فمال أهلُ بجاية إلى الأمير
أبى عبد الله بن أبى زكرياء ، وانحرفوا عن الأمير عُمرَ وأخرجوه ، وبادر السلطان

---

[٤] زط « السلطان أبى يحيى » [٥] ش « قسنطينة الأمير » [٦] ش « يجهزون »
[٨] ز « المغرب الأوسط والأقصى » [١٠] ط « أو أزيد ، ملكها » [١١] ز ش ط
« من أمر » [١٢] ط « أبو عبد الله بن السلطان » [١٣ ، ١٥] زط « من الأولاد »

---

(١) جمر الجيش : جمعه . وهى كلمة يستعملها ابن خلدون كثيرا .
(٢) الإصر : الأمر الذى يثقل حمله .

فرقَع هذا الخَرْق ، بولاية أبي عبد الله عليهم كما طلبوه ، ثم توفى السلطان أبو بكر مُنتصَفَ سبع وأربعين ، وزحف أبو الحسن إلى إفريقية فملكها ، ونقل الأمراء من بِجَايَة وقُسَنْطينة إلى المغرب ، وأقطع لهم هنالك ، إلى أن كانت حادثة القَيْرَوان ، وخلع السلطان أبو عِنَان أباه ، وارتحل من تِلِمْسان إلى فاس ، فَنَقَل معه هؤلاء الأمراء ، أهلَ بَجَايَة وقُسَنْطينة ، وخلطهم بنفسه ، وبالغ في تكرمتهم ، ثم صرفهم ٥ إلى ثغورهم ، الأميرَ أبا عبد الله أولا ، وإخوتَه من تِلِمْسان ، وأبا زيد وإخوته من فاس ، ليستبِدُّوا بثغورهم ، ويُخَذِّلوا الناس عن السلطان أبي الحسن ، فوصلوا إلى بلادهم ، وملكوها بعد أن كان الفضلُ بن السلطان أبي بكر قد استولى عليها من يَد بني مَرِين ، فانتزعوها منه ، واستقرَّ أبو عبد الله ببجاية ، حتى إذا هلك السلطانُ أبو الحسن بجبال الصَّامِدَة ، وزَحَفَ أبو عِنَان إلى تِلِمْسان سنة ١٠ ثلاث وخمسين ، فَهزَم ملوكَها من بني عبد الواد / ، وأبادَهم ، ونزَل المدِيَة ، وأطلَّ [٢٧ ا] على بجاية ، وبادر الأميرُ أبو عبد الله للقائه ، وشكا إليه ما يلقاه من زَبُون[1] الجُنْد والعرب ، وقلَّةِ الجباية ، وخرج له عن ثَغر بجاية فملكها ، وأنزل عُمَّالَه بها ، ونقل الأميرَ أبا عبد الله معه إلى المغرب ، فلم يزل عنده في حِفَايَة[2] وكرامة .

ولما قدمتُ على السلطان أبي عنان آخر خمس وخمسين واستخلصني ، نبضَتْ ١٥ عُروق السَّوابق بين سلَفي وسلَفِ الأمير أبي عبد الله ، واستدْعاني للصَّحابة فأسرعت ، وكان السلطانُ أبو عِنَان شديد الغَيْرة من مثلِ ذلك ، ثم كثر المنافسون ، ورفعوا إلى السلطان ، وقد طَرَقَه مرضٌ أرجفَ له الناس ، فرفعوا له أن الأمير أبا عبد الله

---

[١٤] زط « كفاية » ، ش « خفاية » . تحريف . [١٦] ز « عروق السابق » ، زط « لصحابته فأسرعت » ، ش « الصحبة » .

---

(١) يستعمل ابن خلدون الزبون اسما بمعنى الحرب .

(٢) الحفاية : المبالغة في الإكرام ، كالحفاوة .

اعتزَم على[1] القرار إلى بِجَاية ، وأبى عاقدتُه على ذلك ، على أن يُوَلّيَنى حِجَابتَه ، فانبعثَ لها السلطان ، وسَطا بنا ، واعتقلنى نحوا من سنتَيْن إلى أن هلك ، وجاء السلطانُ أبو سالم ، واستولى على المغرب ، ووَليتُ كتابة سرِّه ، ثم نهض إلى تلِمْسان ، وملكها من يد بنى عبد الواد ، وأخرج منها أبا حَمُّو موسى بن يوسف

٥ ابن عبد الرحمن بن يَحيى بن يَغمَراسِن ، ثم اعتزم على الرجوع إلى فاس ، وولّى على تِلِمسان أبا زيَّان محمد بن أبى سعيد عثمان بن السلطان أبى تَاشِفين ، وأمدَّه بالأموال والعساكر من أهل وطنه ، ليدافعَ أبا حَمُّو عن تِلِمْسان ، ويكونَ خالصةً له ، وكان الأمير أبو عبد الله صاحب بِجَاية معه كما ذكرناه ، والأمير أبو العباس صاحب قُسَنْطينة بعد أن كانَ بنو مَرِين حاصروا أخاه أبا زيد بقُسَنْطينة أعوامًا تِباعا ،

١٠ ثم خرج لبعض مذاهبه إلى بُونَة ، وترك أخاه أبا العباس بها ، فخلَعه ، واستبدَّ بالأمر دونه ، وخرج إلى العساكر المجمَّرة عليها من بنى مَرِين ، فهزمهم ، وأثخَن فيهم ، ونهض السلطان إليه من فاس ، سنةَ ثمان وخمسين ، فتبرأ منه أهل البلد ، وأسلموه ، فبعثه إلى سَبْتَةَ فى البحر ، واعتقله بها ، حتى إذا مَلَكَ السلطان أبو سالم سَبْتَةَ عند إجازته من الأندلس سنة ستين ، أطلقَه من الاعتقال ، وصَحِبه إلى دار

١٥ مُلكه ، ووعَده بردِّ بلده عليه .

فلما ولّى أبا زيَّان على تِلِمْسان ، أشار عليه خاصَّتُه ونصحاؤه ، بأن / يبعث [٢٧ب] هؤلاء الموحِّدين إلى ثغورهم ، فبعث أبا عبد الله إلى بِجَاية ، وقد كان مَلَكَها عَمُّه أبو إسحق صاحب تونس ، ومكفولُ ابن تافْرَاكين من يَد بنى مَرِين ، وبعث أبا العباس إلى قُسَنْطينة ، وبها زعيم من زعماء بنى مَرِين ، وكتب إليه السلطان

[٢] زط « فانبث له » [٥] زط « عبد الرحمن بن يغمراسن » [٨] ط « بجاية كما ذكرناه » [١٠، ١١] زط « واستبدّ بالأمر وخرج » [١٨] زط « صاحب تلمسان » .

(١) اعتزم على الشيء : أراد فعله ، كعزم عليه .

أبو سالم أن يُفرج له عنها ، فملكها لوقته ، وسار الأمير أبو عبد الله إلى بجَاية ، فطال إجْلابُه عليها ، ومعاودتُه حصارَها ، ولجّ[1] أهلُها فى الامتناع منه مع السلطان أبى إسحق . وقد كان لى المقام المحمود فى بَعث هؤلاء الأمراء إلى بلادهم ، وتوليت كِبْر[2] ذلك مع خاصة السلطان أبى سالم وكبار أهل مجلسه ، حتى تمّ القصد من ذلك .

وكتب لى الأمير أبو عبد الله بخطّه عهدًا بولاية الحِجابة متى حصل على سلطانه ؛ ومعنى الحِجابة — فى دُولنا بالمغرب — الاستقلالُ بالدولة ، والوساطةُ بين السلطان و بين أهل دولته ، لا يشاركه فى ذلك أحد ؛ وكان لى أخ اسمه يحيى[3] أصغرُ منّى ، فبعثتُه مع الأمير أبى عبد الله حافظًا للرّسم ، ورجَعتُ مع السلطان إلى فاس . ثم كان ما قدّمتُه من انصرافى إلى الأندلس والمُقَام بها ، إلى أن تنكّر الوزير ابنُ الخطيب ، وأظلم الجوُّ بينى و بينَه .

و بيْنا نحن فى ذلك ، وصل الخبر باستيلاء الأمير أبى عبد الله على بِجَاية من يَدعمه ، فى رمضان [سنة][4] خمسٍ وستين ؛ وكتب الأمير أبو عبد الله يستقدمُنى ، فاعتزمت على ذلك ، ونَكِر السلطان أبو عبد الله ابنُ الأحمر ذلك منّى ، لا يَظنُّه لسوى ذلك ، إذ لم يطّلع على ما كان بَيْنى و بين الوزير ابن الخطيب ، فأمضَيْتُ العَزْم ، ووَقَع منه الإسعاف ، والبِرُّ والإلطاف ، وركبت البحر من ساحل المَرية ، مُنتصَفَ ست وستين ، ونزلتُ بِجَاية لخامسةٍ من الإقلاع ، فاحتفل السلطان صاحبُ

[٢] زط «وألح» [٤] ط ش : «وكُتّاب أهل» [١٤] ط : «لا لغلة سوى» ، ز : «لغله سوى» [١٦] زط : «البحر من مرسى» .

(١) لجّ : تمادى فى الخصومة . (٢) الكِبر : معظم الشىء ، والشرف .

(٣) قتل يحيى بن خلدون هذا فى سنة ٧٨٠ ، بأمر أبى تاشفين بن أبى زيان ؛ وكان مؤرخا ، وأديبا ؛ ويأتى فى كلام ابن الخطيب ثناء على كتابته الأدبية . له كتاب « بغية الرواد ، فى أخبار بنى عبد الواد » . وانظر خبر مقتله فى العبر ١٤٠/٧ .

(٤) الزيادة عن ط .

بجَاية لقُدومى ، وأركَب أهلَ دولته للقائى ، وتهافت أهل البلد علىَّ من كل أَوْب يمسحون أعطافى ، ويقبِّلون يدىَّ ، وكان يومًا مشهودًا .

ثم وصلت إلى السلطان فحيَّا وفدَّى[(1)] ، وخلع وحَمَل[(2)] ؛ وأصبحتُ من الغد ، وقد أمَرَ السلطانُ أهلَ الدولة بمباكرة بابى ، واستقللتُ بحمل مُلكه ، ٥ واستفرغتُ جُهدى فى سياسة أموره وتدبير سلطانه ، وقدَّمنى للخَطابة بجامع القصَبة ، وأنا مع ذلك ، عاكفٌ — بعد انصرافى من تَدبير المُلك غُدْوَةً — إلى تدريس العلم أثناء النهار بجامع القصَبة لا أنفكُّ عن ذلك .

ووجدتُ بينه و بين ابن عمّه / السلطانِ أبى العباس صاحب قُسَنْطِينة فتنة ، [١٢٨ ا] أحدثتْها المُشاحَّة فى حدود الأعمال من الرعايا والعُمَّال ، وشبَّ نارَ هـذه الفتنة ١٠ عَرَبُ أوطانهم من الذَّواوِدَة من رياح ، تنفِيقا لسُوق الزَّبُون يَعتَرُون[(3)] به أموالهم ، وكانوا فى كلِّ سنَة يجمع بعضُهم لبعض ، فالتقَوا سنةَ ست وستين بفَرْجيوَةَ ، وانقسم العربُ عليهما ، وكان يعقُوب بنُ علىّ مع السلطان أبى العبّاس ، فانهزَم السلطان أبو عبد الله ، ورجَع إلى بِجايةَ مفلولًا ، بعد أن كنتُ جمعتُ له أموالا كثيرةً أنفق جميعَها فى العرَب . ولما رَجَع أعوزَتْه النفقةُ ، فخرجتُ بنفسى إلى ١٥ قبائل البَرْبر بجبال بجاية المتَمَنِّعين من المَغارم منـذُ سنين ، فدخلتُ بلادَهم واستَبَحتُ حِماهم[(4)] ، وأخذتُ رُهُنَهم على الطاعة ، حتى استوفَيتُ منهم الجِبَاية ، وكان لنا فى ذلك مَدَدٌ وإعانة ؛ ثم بعَث صاحبُ تِلِمْسان إلى السلطان [أبى

[١] زط : « وأركب للقائى » [٣] ط : « وخلع وحمد » [٦] بالأصل : « الملك عنده » والمثبت عن ش [٩] زط : « وشبت » [١٠] زط : « الزواودة » ، زط : « يعيرون » [١١] زط ش : « فكانوا » ، زط : « فى أتم شقة يجمع » ولعله تحريف ، ز : « بفدحيوة » ، ش : « ببرحيوة » ، ط : « بفرحيوة » [١٥] زط : « البربر بالجبال » ، طب : « المتنعين » .

(1) فدّى : قال جُعلت فداك . (2) حمله : أعطاه ظهرا يحمل عليه .

(3) يعترون به أموالهم : يستخرجونها .

(4) سقط من الأصل « واستبحت حماهم » .

عبد الله][1] يطلبُ منه الصِّهر ، فأسعَفه بذلك ليصلَ يده به على ابن عمِّه ، وزوَّجه ابنتَه ؛ ثم نهضَ السلطان أبو العباس سنة سَبع وستِّين ، وجاسَ أوطانَ بِجاية ، وكاتَبَ أهلَ البَلَد ، وكانوا وَجِلِين من السلطان أبى عبد الله بما كان يُرهِفُ الحدَّ لهم ، ويَشُدّ وطأتَه عليهم ؛ فأجابوه إلى الانحراف عنه ، وخرَج السلطانُ أبو عبد الله يَرُوم مُدَافعتَه ، ونَزَلَ جَبل لِيزُو[2] مُعْتَصِمًا به ؛ فبَيَّته السلطان ٥ أبو العباس فى عساكره وجموع الأعراب من أولاد محمد بن رِياح بمكانِه ذلك ، بإغراء ابن صَخْر ، وقبائلِ سِدْوِيكْش[3] ، وكَبَسَه فى مُخَيِّمه ، وركض هاربا ، فلحِقه وقتَله ، وسار إلى البَلَد بمُواعدَة أهلها . وجاءنى الخبرُ بذلك ، وأنا مُقيم بقَصَبة السلطان وقُصوره ، وطلب منى جماعةٌ من أهل البلد القيامَ بالأمر ، والبَيْعةَ لبعض الصِّبيان من أبناء السلطان ، فتفاديتُ من ذلك ؛ وخرجْتُ إلى السُّلطان ١٠ أبى العبَّاس ، فأكرمنى وحَبَانى ، وأمكنتُه من بَلَدِه ، وأجرى أحْوالى كلَّها على مَعهُودها ، وكثُرت السِّعاية عندَه فىَّ ، والتَّحذيرُ من مكانى ، وشَعَرت بذلك ، فطلبتُ الإذنَ فى الانصراف بعهْدٍ كان منه فى ذلك ، فأذِنَ لى بعدَ لأْى[4] ؛ وخرجتُ إلى العَرَب ، ونزلتُ على يعقوبَ بن علىّ ؛ ثم بدا للسُّلطان فى أمْرى ، [٢٠ب] وقبض على أخى ، واعْتَقَله بِبُونة / ؛ وكَبَسَ بُيوتَنا يَظُنُّ بها ذَخيرةً وأموالا ، ١٥ فأخفق ظنُّه ، ثم ارتحلتُ من أحْياء يعقوبَ بن علىّ ، وقصدتُ بَسْكَرَة[5] ،

[١] الأصل : « لتصل يده » ؛ والمثبت عن الظاهرى زط ش [٤] ز ط : « وخرج الشيخ » [٥] ط : « جبل ايزو » [٩] ط : « السلطان بقصوره » [١١] ط : « فأكرمنى وحيانى » ، زط ش : « وأجرى أحوالها » [١٣] ش : « فطلبت الانصراف لعهد » [١٤] ط : « وخرجت إلى المغرب » ، ط : « ثم بداله الشأن فى أمرى » .

(١) الزيادة عن ش .

(٢) جبل بضواحى مدينة بجاية . انظر بغية الرواد ليحيى ابن خلدون ٢/١٧

(٣) عُرِفَت هذه القبائل بهذا الاسم منذ القديم ، وديارُها فى مواطن كتامة ، فى البسائط الواقعة بين قسنطينة ، وبجاية . وانظر العبر ١٤٩/٦ .

(٤) بعد إبطاء .

(٥) بسكرة (Biskra) عرضها الشمالى ٥١َ — ٣٤° وطولها الشرقى ٥١َ — ٥°) . ضبطها ابن خلدون ، بالحركات ، بفتح الباء والسكاف ، بينهما سين ساكنة ، ثم راء مفتوحة بعدها هاء تأنيث . وهو ضبط حكاه ياقوت فى معجم البلدان ، =

لِصحَابةٍ بيني و بينَ شيخها أحمد بن يوسُف بن مَزْنَى ، و بين أبيه ؛ فأكرَم ، وبَرَّ ، وساهم في الحادث بمالِهِ وجاهِه .

مشايعة أبي[1] حمو صاحب تلمسان

كان السلطان أبو حَمُّو قد التحم ما بينه و بين السلطان أبي عبد الله صاحِب بِجَاية بالصِّهر في ابنته ، وكانت عندَه بتِلِمْسان ، فلمَّا بلغه مقتلُ أبيها ، واستيلاء السلطان أبي العبّاس ابن عمّه صاحبِ قُسَنْطِينة على بجاية ، أظهرَ الامتِعَاضَ لذلك ، وكان أهلُ بِجَايةَ قد توجَّسُوا[2] الخِيفةَ من سلطانهم ، بإرهاف حَدِّه ، وشدَّة سَطوته ، فانحرَفوا عنه باطنًا ، وكاتَبوا ابنَ عمِّه بقُسَنْطِينَة كما ذكرناه .

ودَسُّوا للسلطان أبي حَمُّو بمثلِها يَرْجُون الخلاصَ من صاحبهم بأحدهما .

فلما استولى السلطانُ أبوالعباس ، وقَتل ابنَ عمه ، رأوا أن جُرحَهم قد اندمَل[3] ، وحاجَتهم قد قُضِيتْ ، فاعصَوصَبوا عليه ؛ وأظهر السلطان أبو حمُّو الامتعاضَ للواقعة يُسِرُّ منهُ حَسْوا في ارتغاء[4] ، ويجعَلُه ذريعةً للاستيلاء على بِجَاية ، بما كان يَرَى نفسَه كفؤَها بِعَدِّه وعَدِيدِه ، وما سلَفَ من قومه في حصارها ؛ فسار من تِلِمْسان يَجُرُّ الشوكَ والمَدَر[5] ، حتى خيَّم بالرَّشَّة من ساحتها ، ومعه

[٥] ش : «وكان عنده بتلمسان» [١١] ش : « وحاجاتهم قد قضيت » [١٢] ط : « يسر منها حسواً » .

— وصاحب تاج العروس ، كما حكيا أن هناك من يضبطها بكسر الباء والكاف . وهي بلد بالجزائر كانت قاعدة بلاد الزاب . انظر ياقوت ١٨٢/٢ ، التاج ٤٣/٣ ، بغية الرواد ١٨٣/٢ .

(١) هو أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان . انظر الاستقصا ١٠٣/٢ ، بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد ١٢٦/١ — ١٣٢ .

(٢) «توجسوا الخيفة : وقع في نفوسهم الخوف» .

(٣) اندمل الجرح : برئ .

(٤) يضرب للذي خفية ، ويتظاهر بأنه يأخذ الرغوة . وهو مثل يضرب لمن يظهر أمرا وهو يريد غيره .

(٥) ينظر إلى المثل : « جاء بالشوك والشجر » . انظر الميداني ١١٠/١ ؛ ويكنيٌ بذلك عن كثرة جيشه ، فلقد كان ١٥ ألفا . انظر بغية الرواد ١٨٢/٢

أحياء زُغْبَة بجُموعهم وَظعائنهم ، من لدُن تِلِمْسانَ إلى بلاد حُصَيْن ؛ من بنى عامر ، و بنى يعقُوب ، وسُوَيْد ، والدَّيالم ، والعَطَّاف ، وحُصَين .

وانحجَر أبو العبَّاس بالبَلد فى شِرذِمة من الجُنْد ، أعجله السلطان أبو حَمُّو عن استيعَابِ الحشْد ، ودافَعَ أهلُ البَلد أحسنَ الدِّفاع ، و بعثَ السلطان أبو العبَّاس عن أبى زيَّان بن السلطان أبى سعيد عمّ أبى حَمُّو من قُسَنْطينة ، ٥ كان مُعتَقَلا بها ، وأمرَ مولاه وقائدَ عسكره بَشِيرا[1] أن يخرُج معه فى العساكر، وساروا حتى نَزلوا بنى[2] عبد الجبَّار قُبالةَ مُعَسكَر أبى حَمُّو ؛ وكانت رجالات زُغْبةَ قد وَجُوا من السلطان ، وأبلغَهم النذيرُ أنّه إن ملَكَ بجَايةَ اعتَقلهم بها ؛ فراسَلوا أبا زيَّان ، وركبوا إليه ، واعتقدوا معه ، وخرج رُجَّل البلد بعض الأيام من أعلى الحِصْن ، ودفعُوا شِرذِمةً كانت مُجَمَّرةً إزاءهم ، فاقتلعوا خِبَاءهم ، وأسْهلوا ١٠ من تلك العَقَبة إلى بَسِيط / الرَّشَّة ، وعايَنهم العرَب بأقصى مكانهم من المُعسكر [١٢٩ ا] فأجفلوا ، وتَتَابع الناسُ فى الاجفَال حتى أفَردوا السلطانَ فى مُخَيَّمه ؛ فحمل رواحله وسار ، وكَضَّت[3] الطرق بزِحامهم ، وتراكَوا بعضٌ على بعض ، فهلك منهم عَوالم ، وأخذَهم سكان الجبال من البربر بالنَّهب من كل ناحية ، وقد غشِيَهم الليل ، فتركوا أزودَتهم ورحَالهم ، وخلَص السلطانُ ومن خلَصَ منهم ١٥ بعدَ عَصْبِ الرِّيق[4] ، وأصبحوا على مَنجاة ، وقذَفَت بهم الطُّرقُ من كل ناحيةِ

---

[٤] ط : «عن استكمال الحشد» [٧] الأصل ط : « وكان رجالات » ، والمثبت عن ز
[٨] زش : « النذير إن » [١٠] ش : « مجهزة » [١٣] زط : « وتراكوا بعضهم »
[١٤] طپ : «فهلكت منهم عوالم» [١٥] ط : « فتركوا أزوادهم » [١٦] زط : « بعد غص الريق » ، طبعة بولاق : « بعد غصّة الريق » .

---

(١) لبشير هذا ذكر فى العبر ١٢٩/٧ .
(٢) فى بغية الرواد : « وابن عمه أبو زيان بن السلطان أبى سعيد مُطلّ عليه من جبل بنى عبد الجبّار » ، ولعله أوضح .
(٣) كذا بالأصول ؛ و يريد اكتظت بالظاء .
(٤) عصَب الريق : بفيه : إذا يبس عليه .

إلى تِلِمْسان ؛ وكان السلطان أبو حَمُّو قد بلغه خُروجي من بجاية ، وما أحدثه السلطان بَعْدِى فى أخى وأهلى ومُخَلَّفى ؛ فكتبَ إلىَّ يستقدمُنى قبلَ هذه الواقعة ، وكانت الأمورُ قد اشتبهتْ ؛ فتفاديتُ بالأعْذار ، وأقمتُ بأحياء يعقوبَ بن علىّ ، ثم ارتحلتُ إلى بَسْكَرة ، فأقمتُ بها عند أميرها أحمد بن يوسفَ بن مَزْنى ؛

٥ فلما وصَل السلطان أبو حمو إلى تِلِمْسان ، وقد جَزِع للواقعة ، أخذَ فى استئلاف قبائلِ رِياح ، ليُجْلِبَ بهم مع عساكره على أوطان بِجَاية ؛ وخاطَبنى فى ذلك لقُرب عهْدى باستتباعهم ، ومُلْكِ زمامهم ، ورأى أن يُعَوِّلَ علىّ فى ذلك ، واستدْعانى لحِجَابته وعَلَامته ، وكتب بخطّه مُدْرَجَةً فى الكتاب نصُّها :

« الحمد لله على ما أنعم ، والشكر لله على ما وهَب ، ليَعْلَمَ الفقيهُ المكرَّم

١٠ أبو زَيد عبدُ الرحمن بن خَلدون ، حفظه الله ، على أنّك تصلُ إلى مَقامنا الكريم ، لما اختصصناكم به من الرُّتبة المَنيعَة ، والمنزلة الرفيعة ، وهو قلمُ خِلافتنا ، والانتظامُ فى سِلْكِ أوليائنا . أعلمناكم بذلك ، وكتبَ بخطٍّ يده عبدُ الله ، المتوكل على الله ، موسى بن يوسف لطفَ الله به وخارَ له » .

وبعدَه بخط الكاتب ما نَصُّه : بتاريخ السَّابعَ عشَر من رجب الفرد الذى

١٥ من عام تسعةٍ وستِّين وسبعمائة عرَّفنا اللهُ خيرَه .

ونَصُّ الكتاب الذى هذه مُدْرَجَتُه ، وهو بخط الكاتب : « أكرمكم الله يافقيهُ أبا زيد ، ووَالَى رعايتَكم . إنّا قد ثبتَ عندَنا ، وصحَّ لدينا ما انطويتُم عليه من المحبة فى مقامِنا ، والانقطاع إلى جَنَابنا ، والتشيُّع قديمًا وحديثًا لنا ، مع ما نعلمه من محاسنَ اشتملت عليها أوصافكُم ، ومعارفَ فُقتُم فيها نُظَراءكم ،

٢٠ ورُسوخِ قدَمٍ / فى الفنون العِلْمية والآداب العَربية . [٢٩ب]

---

[٩] الأصل : « على ما أوهب » تحريف ؛ والمثبت عن ط [١١] ط : « بما اختصصناكم » ، الظاهرى طب ز ط : « لما خصصناكم » [١٥] الأصل : « عرف الله » ؛ والمثبت عن ز ط . [٢٠] ز « ورسوخ القدم » .

وكانت خُطَّة الحِجابة ببابنا العلىّ — أسماه الله — أكبرَ درجات أمثالكم ، وأرفعَ الخطط لنظرائكم ؛ قُربًا منّا ، واختصاصًا بمقامنا ، واطّلاعًا على خفايا أسرارنا ، آثرناكم بها إيثارًا ، وقدّمناكم لها اصطفاء واختيارا ؛ فاعمَلوا على الوصول إلى بابنا العلىّ ، أسماه الله ، لما لكم فيه من التّنويه ، والقدر النّبيه ، حاجبًا لعلىّ بابنا ، ومستودَعًا لأسرارنا ، وصاحبَ الكريمة عَلَامتنا ، إلى ما يشا كل ذلك من الإنعام العميم ، والخير الجسيم ، والاعتناء والتّكريم ، لا يشاركُكم مشارك فى ذلك ، ولا يزاحمكم أحد ، وإن وُجِد مِن أمثالك فأعلِمُوه ، وعوِّلوا عليه ، والله تعالى يتولّاكم ، ويصل سرّاءكم ، ويوالى احتِفاءكم والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وتأدّت إلىّ هذه الكتب السلطانية على يَد سَفِير من وُزرائه ، جاء إلى أشياخ الذّوَاودة فى هذا الغَرَض ، فقمت له فى ذلك أحسَن مَقَام ، وشايعتُه أحسَنَ مُشَايعة ، وحملتُهم على إجابة دَاعى السلطان ، والبِدارِ إلى خِدْمته ، وانحرفَ كبراؤهم عن خدمة السلطان أبى العبّاس إلى خِدمته ، والاعْتمال فى مذاهبه ، واستقام غَرضُه من ذلك ؛ وكان أخى يَحْيَى قد خلَصَ من اعتقالِه ببُونَة ، وقَدِم علىّ ببَسْكَرة ، فبعثتُه إلى السلطان أبى حَمُّو كالنّائب عَنّى فى الوظيفة ، متفاديا عن تَجَشُّم أهوالها ، بما كنتُ نَزَعتُ عن غَواية الرُّتَب ، وطالَ علىّ إغفالُ العِلم ، فأعرضتُ عن الخوض فى أحوال المُلُوك ، وبعثتُ الهمة على المطالعة والتّدْرِيس ، فوصَلَ إليه الأخ ، فاستكفى به فى ذلك ، ودفَعَه إليه .

ووَصَلنى مع هذه الكتب السلطانية كتابُ رسالة من الوزير أبى عبد الله بن

---

[١] ط: « أعز درجات » ، ز : « أسماه الله إلى درجات العلى أمثالكم » : تحريف . [٥] ز ط : « ما شاكل » [٧] ز : « من أمثالكم » [١٠] ط : « من وزرائه جاءوا » [١١] ز ط : « الزواودة » ، ز ط : « أحسن قيام » [١٣] ز : « كبراؤهم عن السلطان » [١٤ ، ١٥] ز : « اعتقاله ، وقدم »

الخطيب من غَرْناطةَ يتشوّق إلىَّ ، وتأدّى إلى تِلِمْسان على يد سفراء السلطان ابن الأحمر ؛ فبعثَ إلىَّ به مِن هُنالك ونَصُّه :

بنَفْسى وَما نفْسى علىَّ بَهيْنَةٍ ... فيُنْزِلَنى عَنها المِكاسُ[(١)] بأثمانِ

حَبيبٌ نَأَى عنِّى وصُمَّ لأنَّتِى ... وراشَ[(٢)] سِهامَ البَيْنِ عمدًا فأصْمَانى[(٣)]

٥ وقَدْ كان هُمَّ الشَّيب ـ لا كَان ـ كافيا ... فقد آدَنى[(٤)] لمّا ترحّل هَمّانِ

شرعتُ له منْ دَمعِ عَينى مَوَارِدًا ... فكدَّر شِرْبى بالفِراق وأظمانى

وأرعَيْتُهُ من حُسْن عهدِى جَمِيمَهُ[(٥)] ... فأجدبَ آمالى وأوحشَ أزْمَانى

حَلفتُ على ما عِنـدَه لِىَ من رِضى ... قياسًا بما عِندى فأحنثَ أيمانى / [١٤٠]

وإنِّى على ما نالنِى منـه من قِلى ... لأشتاقُ من لُقياهُ نُغْبَةَ[(٦)] ظَمْآنِ

١٠ سَألتُ جُنونى فِيه تَقريبَ عرشِه ... فَقِسْتُ بجِنِّ الشَّوْق جِنَّ سُليمانِ[(٧)]

إذا ما دَعا داعٍ من القَوْم باسمِهِ ... وثبْتُ وما استَثْبَتُّ شِيمةَ هَيْمانِ

وتاللهِ ما أصغيتُ فِيـهِ لعاذِلٍ ... تحاميتُه حتى ارعَوَى وتحامَانى

ولا استَشْعَرتْ نفسى برحمةِ عابِدٍ ... تُظَلِّلُ يوْماً مثلَه عَبْد رَحمانِ

ولا شعَرتْ من قَبلِهِ بتَشَوُّقٍ ... تخلَّلَ منها بينَ رُوحٍ وجُثمانِ

---

[٣] ز ط : « على رخيصة » [٤] ز : « عمداً فأجفانى » [٥] الظاهرى وأصل أيا صوفية : « آذنى » [٦] مختصر الإحاطة ريحانة ا ب ز : « عينىَّ مورداً » ، ز : « بالفراق وأضنانى » [٧] ريحانة ا : « عهد حيمه » تحريف [١١] ريحانة ا ب : « استثبت صيحة » [١٢] مختصر الإحاطة نفح ك : « ووالله ما أصغيت »

---

(١) المكاس : المماكسة ، والمشاحّة فى الثمن عند التبايع .

(٢) راش السهم : ألصق به الريش .

(٣) أصمى الصيد : رماه فقتله فى مكانه .

(٤) آدنى همّان : دهانى همّان .

(٥) الجميم ، والجم : الكثير من كل شىء ، والنبت الذى طال حتى صار مثل جمة الشعر .

(٦) النغبة (بضم النون وفتحها) : الجرعة من الماء .

(٧) يشير إلى الآيات (٣٧ — ٤٣) من سورة النمل .

أما الشَّوقُ فحدِّث عن البَحْر ولا حَرَج ، وأما الصَّبر فاسْأل بهِ أيةَ دَرَج ، بعْدَ أن تجَاوَزَ اللِّوى(١) والْمُنعَرَج(٢) ، لكن الشدَّة تَمْشَقُ الفرَج ، والمؤمنُ ينشَقُ من رَوْحِ الله الأرَج ؛ وأنَّى بالصَّبر على إبَرَ الدَّبْر(٣) ، لا . بل الضَّرْبِ الهبْر(٤) ، ومطاوَلَة اليوْم والشهر ، تحت حكم القهر ؛ ومن للعَيْن أن تَسْلوَ سُلوَّ المقْصِر ، عن إنسانها المُبْصِر ، أو تَذْهلَ ذُهول الزّاهد ، عن سِرِّها الرائي والشَاهِد ، وفي الجسد بَضْعَةٌ يصْلح إذا صلُحت ، فكيف حاله إن رَحَلت عنه و إن نَزَحت ؛ وإذا كان الفِراق هو الحِمَام الأوَّل ، فعلامَ المعوَّل ، أعيتْ مُراوضَة الفِراق ، عمل الرَّاق ، وكادَتْ لوعة الاشتِياق ، أن تُفضِيَ إلى السيَاق(٥) .

تركتموني بعدَ تشييعِكم أُوسِعُ أمرَ الصبر عِصيانا

أُقرِعُ سِنِّي ندمًا تَارَةً وأَسْتَمِيحُ الدمع أحيانا ١٠

وربَّما تعللتُ بغِشيان المعاهد الخالية ، وجدَّدتُ رُسُوم الأسى بمُبَاكَرة الرُّسوم البالية ، أسأل نونَ النُّؤى(٦) عن أهليه ، وميمَ المَوْقِدِ المهجور عن مُصْطَليه ، وثاء الأثافيّ(٧) المثلَّثة عن منازل الموحِّدين ، وأحارُ بين تلك الأطلال حَيرَةَ

[٤] ريحانة ا ب : « وعمل العَين » [٥] ز : « وفي الجسد مضغة » [٦] الأصل : « فتخلع» والمثبت عن الريحانة ب مختصر الإحاطة نفح ك . الريحانة ا ب مختصر الإحاطة : « رحلت عنه وترحت» [٧] بالأصل : الفراق على الراقة ، والمثبت عن مختصر الإحاطة [١١] سقط من الريحانة ا : « بمباكرة الرسوم» [١٢] ز : «أسائل نؤى النؤى ... وهيام الموقد » . [١٣] ريحانة ا: « وأحار بتلك » .

(١) اللوى : ما التوى من الرمل ، ومسترق الرمل .
(٢) المنعرج : المنعطف .
(٣) الدَّبر ، بالفتح ويكسر : الزنابير .
(٤) الضرب الهبر : الذي يلقي قطعة من اللحم ، وهو وصف بالمصدر .
(٥) ساق المريض : شرع في نزع الروح .
(٦) النُّؤى : الحفير حول الخباء أو الخيمة يمنع عنها السيل .
(٧) الأثافي : أحجار توضع عليها القدر ، واحدها أثفية .

المُلحِدين ، لقد ضَلَلتُ إذاً وما أنا من المُهتدين ؛ كلِفتُ لَعمرُ الله بسَالٍ(١) عن جفوني المؤرَّقة ، ونائمٍ عن هُمومي المتجَمِّعة والمتفرِّقة ، ظَعَن عن مَلال ، لا متبرِّمًا مِنا بِشَرِّ خِلال ، وكدَّر الوصلَ بعـد صَفائه ، وضَرَّج النَّصل بعد عَهدِ وفائه .

• أقلَّ اشتياقاً أيهـا القلبُ إنَّما ‏ ‏ رَأيتُك تُصْفِي الوُدَّ من ليسَ جازِيا ‏ [٣٠ب]

فها أنا أبكِي عليه بدَم أسَالَه ، وأندُب في رَبْع الفِراق آسَى لَه(٢) ، وأشكو إليه حالَ قَلْب صَدَعه ، وأوْدَعه من الوَجْد ما أودَعَه ، لما خَدَعه ، ثم قَلَاهُ ووَدَّعه ، وأُنشِقَ رَيَّاهُ أنفَ ارتياحٍ قَد جدَعَه ، وأستَعدِيه على ظُلم ابتدَعَه .

خَليلَيَّ فيما عِشتُما هـــــل رأيتُما ‏ ‏ قَتيلاً بَكَى من حُبِّ قاتِلِه قَبلِي(٣)

١٠ فلولا عسَى الرجاءِ ولَعَـلِّه، لا . بل شفاعةُ المحَـلِّ الذي حَلَّه ، لنشَرتُ ألْويةَ العَتْب ، وَبثَثْتُ كَتائِبَها كُمَناء في شِعاب الـكُتُب ، تَهُـزُّ من الألفات رِماحًا خُزْرَ الأسِـنَّة(٤) ، وتُوتِّر من النُونات أمثـالَ القِسِيِّ المُرِنَّة ، وتَقُود

[٣] ز ط ش : «متبرما بشر» ، ريحانه اب مختصر الإحاطة : «متبرما منى» ، ز ط : «منى بشر حال» . [٥] ريحانة اب مختصر الإحاطة : «القلب ربما» . [٦] مختصر الإحاطة والريحانة ا ب بدل قوله : «وأندب ...... صدعه» ، «وأنهل فيه آسى له ، وأعلل بذكراه قلبا صدعه» . [٩] ريحانة ا ب : «خليلى هل أبصرتما أو سمعتما» ، نفح ك : «وأستعدى به» . [١٠] ريحانة ا ب مختصر الإحاطة : «لمزجت الحنين بالعتب ، وبثثت» . [١١] ريحانة ب مختصر الإحاطة : «كتائبه» ، ط مختصر الإحاطة : «كمينا فى شعاب» . [١٢] ريحانة اب : «رماحا وأسنة» .

(١) سال : ناس .

(٢) آسى له : أحزن له .

(٣) البيت لجميل بن عبد الله بن معمر العذرى . انظر الأغانى بولاق ١/٥١ .

(٤) يقال : هم خزر العيون : أى ينظرون نظرة العداوة ، وعدو أخزر العين : ينظر عن معارضة . وقد أسند ذلك إلى الرماح تجوزا .

من مجموع الطِّرس[١] والنِّقس[٢] بُلقًا[٣] تَرْدِى[٤] فى الأعنّة ، ولكنّه آوَى إلى الحَرَم الأمين ، وتفيأ ظِلال الجِوار المُؤمَّن من مَعَرَّة الغوار عن الشمال واليمين ، حَرَم الجلال المُزْنِيَة ، والظِّلال اليَزَنِية ، والهِمَم السَّنية ، والشِّيَم التى لا تَرضى بالدُّون ولا بالدَّنِيَة ، حيث الرِّفدُ المَمنُوح ، والطير المَيامين يُزجَر[٥] لها السُّنُوح[٦] ، والمثوَى الذى إليه ، مَهما تقارعَ[٧] الكرامُ عَلَى الضِّيفان[٨] ، حَولَ جَوابِى الجِفَان[٩] ، الَميْلُ والجُنوح .

نَسَبٌ كأنّ عليه من شمس الضُّحى ... نُورًا ومن فَلَقَ الصَّباح عَمــودا

وَمَن حلّ بتلك المَثَابة فقد اطمأنّ جَنبُه ، وتُغُمِّد بالعفو ذَنبُه ؛ ولله دَرُّ القائل :

مَوَحــقّه لقد انتُدِبتُ لوصفِه ... بالبُخل لوْلاَ أنّ حِمْصًا[١٠] دارُهُ

---

[١] نفح ك : « من بياض الطرس ، وسواد النقس » [٦] فى الأصلين والظاهرى : « الجفان هو الجنوح » ، مختصر الإحاطة : « الجفان الجنوح » . وما أثبت عن نفح ك .

---

(١) الطرس (بالكسر) : الصحيفة .

(٢) النِّقس : المداد .

(٣) جمع أبلق ؛ وهو الفرس الذى لونه سواد وبياض .

(٤) الرَّدْى : حركة الفرس بين العدْو والمشى .

(٥) زجَر الطير : تفاءل به .

(٦) سنح الطائر سنوحا : جرى على يمينك إلى يسارك ، والعرب تتيامن بذلك .

(٧) تقارع الكرام : ساهموا .

(٨) الضيفان : جمع ضيف .

(٩) الجوابى : جمع جابية ؛ وهى الحوض يجبى فيه الماء للابل . والجفان : جمع جفنة ؛ وهى أعظم ما يكون من القصاع . وابن الخطيب يشير إلى آية : « وجفان كالجوابى » ١٣/٣٤ . وعليه تكون إضافة الجوابى إلى الجفان من إضافة المشبّه به إلى المشبه . وانظر حاشية زاده على البيضاوى ١٩٣/٨ .

(١٠) حمص (Homs عرضها الشمالى ٤٤' — ٣٤° ، وطولها الشرق ٣٦' — ٣٦°) بلد معروف يقع فى منتصف الطريق بين دمشق وحلب . فتحها أبو عبيدة بن الجراح سنة ١٦ هـ انظر ياقوت ٣٣٩/٣ تاج (حمص) .

بلدٌ مَتَى أذكُرْهُ تهتجْ لوعتِي وَإذا قَدَحْتَ الزَّندَ[1] طارَ شرارُهُ

اللَّهم غَفْرا ، وأينَ قَرارةُ النَّخيل[2] ، من مَثْوَى الأقلَف[3] البَخيل ، ومَكذَبة المُخِيل[4] ؛ وأينَ ثانيةُ هَجَر[5] ، من مُتَبوَّأ مَن ألحدَ وفَجَر .

مَن أنكرَ غيثاً مَنشَؤُهُ فِي الأرض يَنوءُ بمُخْلِفهَا

فَبَنانُ بَنِي مَزْنَى مُزَنٌ تَنهلُّ بِلُطْفِ مُصَرِّفِهَا

مُزنٌ مُذْحلَّ ببِسكَرةٍ[6] يَوماً نطقَت بمُصَحِّفِهَا[7]

شَكَرتْ حتَّى بِعِبَارتِها وبِمَعْنَاها وبِأحْرُفِهَا

ضَحِكَت بأبِي العبَّاس من الْـ أيام ثَنَايا زُخْرُفِهَا

وتَنَكَّرت الدُّنيا حتَّى عُرِفَت منهُ بمُعَرِّفِهَا

١٠ بل نَقول : يا مَحلَّ الوَلَد ، «لا أُقسِم بهذا البَلَد، وأنتَ حِلٌّ بهذا البَلَد» ، لقد حَلَّ بَيْنُك عُرَى الجَلَد[8] ، وخلَدَ[9] الشَّوقُ بعدَك يا بنَ خَلدُون فى

---

[١] ط : «أذكره هيج» ، ريحانة ب : «طاش شراره» . [٢] نفح ك : «اللهم غفرا لا كفرا» ، ز ط : «مثوى الألفّ» . [٤] مختصر الإحاطة نفح ك ريحانة ا ب : «فى الأرض وليس بمخلفها» .

---

(١) قدح الزند : رام الإيراء به .

(٢) يريد بسكرة لأنها كانت تسمى بسكرة النخيل لكثرة ما بها منه .

(٣) الأقلف : الذى لم يختن ، يريد أنه لا يقاس بلد عربىّ أهله كرام ببلد عجمى أهله بخلاء ، والألفّ على رواية زط : العيىّ اللسان ، يقال رجل ألفّ ؛ إذا كان عييا لا يحسن أن يتكلم .

(٤) يقول : إن هذا البلد يكذب ظن من خاله لأن ساكنيه بخلاء .

(٥) بلد بالبحرين معروف ، ويأتى الحديث عنه .

(٦) انظر الحاشية رقم (٤) فى صحيفة ٩٩ ، وصحيفة ٥٧ .

(٧) ذلك لأن تصحيف «بسكرة» : «تشكره» .

(٨) الجلد (بفتح اللام) : الصبر .

(٩) خلد : دام .

الصَّمِيمِ من الخَلَد(١) ؛ فحيَّا الله زمانًا شُفِيَتْ فى قُرْبك زَمانَتُه(٢) ، واجتُلِيتْ فى صَدَف مجدِك جُمانتُه(٣) ، وقُضِيت فى مَرْعَى خُلَّتِك لُبَانَتُه(٤) ؛ وأهلاً بَرَوْضٍ أظلَّت أشتاتَ مَعارفك بَانَتُه ؛ فحَمَامُه بعدَك تَندُب ، فيُساعدُها الجُندُبُ(٥) ، ونَوَاسِمُهُ تَرِقُّ فتتَغاشَى ، وعَشِيَّاتُه تتَخافَتُ وتَتَلاشَى(٦) ، وأدواحُه فى ارتِباكٍ ، وحَمائمه فى مَأْتم ذى اشتِباك ؛ كأن لم تكن قُرَّ هالاتِ قِبابِه ، ولم يكن أُنسُك شارِعَ بابِه(٧) ، إلى صَفوة الظَّرف ولُبابِه ، ولم يَسبَح إنسانُ عَيْنِك فى ماءِ شبابِه ؛ فلَهفِى عليك(٨) من دُرَّة اختَلَستْها يدُ النَّوَى(٩) ، ومَطَلَ(١٠) بردِّها الدَّهر ولَوَى(١١) ، ونعَق الغُراب ببَيْنِها فى رُبُوع الهَوَى ، ونطَقَ بالزَّجر(١٢) فما نَطَق عن الهَوَى ؛ وبأىِّ شىء يُعتاضُ منكِ أيتها الرِّياض ، بعدَ أن طما

[١] ريحانة ا : « شفيت به فى قربك » ، مختصر الإحاطة : « شفيت برق قربك » ، وعنه تصحف ما فى الريحانة . [٢] ريحانة ا مختصر الإحاطة نفح ك : « ويامن لشوق لم تقض فى طول خلتك لبانته » [٤ ، ٥] نفح ريحانة ا ب مختصر الإحاطة : « ومزنه باك ، ودوحه فى مأتم ذى اشتباك » ، وسقط من ش قوله : «وعشياته تتخافت .... شارع بابه الخ» [٨] نفح ك : « وربوع الجوى » [٩] ريحانة ا : « بأى شىء نعتاض »

(١) الخلد (بفتح اللام) : القلب .
(٢) الزمانة : العاهة .
(٣) الجمانة : اللؤلؤة .
(٤) اللبانة : الحاجة .
(٥) الجندب : الجراد .
(٦) تلاشى الشىء : اضمحلّ . تاج العروس (لشا) . والتلاشى ، بمعنى الاضمحلال ، عامىّ لم يرد عن العرب ، ومن ثم خطَّئوا ابن نباتة الفارق (— ٣٧٤) فى قوله : « بقايا جسوم متلاشية » ، وتصيدوا الأصل الذى عنه تولد التلاشى فكان « لا شىء » ، على قاعدة النحت ؟ ! وانظر تاج العروس (لش) ، (موش) ، شفاء الغليل للخفاجى ص ٥٣ .
(٧) باب شارع إلى كذا : مفتوح ونافذ إليه ؛ يريد أن أنسك كان يشمل الناس جميعا من غير تخصيص .
(٨) لهفى : حزنى وحسرتى .
(٩) النوى : الوجه الذى ينويه المسافر من قرب أو بعد ؛ وهى مؤنثة .
(١٠) مطل الدهر : سوّف .
(١١) لوى بالدَّين : تأخر عن أدائه .
(١٢) الزجر : التيمن بسنوح الطير ، والتشاؤم ببروحه .

نَهرُكَ الفَياض ، وفهقت[1] الحِياض ؛ ولا كان الشَّانى[2] المَشْنوء[3] والجَرِب[4] المَهْنوء[5] ؛ من قِطَعِ لَيلٍ أغار على الصُّبح فاحتَمَل ، وشارَكَ فى الذَّمِّ الناقة والجَمَل ، واستأثَرَ جُنحُه ببَدرِ النادى لمَّا كَمَل ؛ نَشَر الشِّراع فَرَاع ، وواصل الإسراع ، فكأنَّما هو تمساح النِّيل ضايَقَ الأحباب فى البُرْهَة ، واختطَفَ لهم من الشَّط نُزْهة العيْن وعَيْن النُّزْهة ؛ ولجَّجَ[6] بها والعُيون تَنظُر ،

٥ والغَمْرُ[7] عن الإتباع يحظُر ؛ فلم يُقدَر إلَّا على الأَسَف ، والتماح الأثَر المُنتَسَف[8] ، [والرُّجوع بمِلْء العَيبة من الخَيْبة ، ووقْر الجَسْرة[9] من الحَسْرة] ؛ إنما نَشكو إلى الله البَثَّ والحُزْن ، ونستَمطِر من عَبَراتِنا المُزْن[10] ، وبِسَيْف الرَّجاء نَصُول ، إذا أشرعت لليَأس أسِنَّة ونُصُول .

١٠ ما أقدرَ اللهَ أن يُدْنِي عَلَى شَحَطٍ[11]
مَن دَارُهُ الحَزْنُ[12] مِمَّنْ دَارُهُ صُولُ[13]

---

[٣] ط الظاهرى : «فى الأمر» [٤] ريحانة ا نفح ك : «وأعمل الاسراع كأنما» [٥] ريحانة ا : «والعين تنظر» [٧] الزيادة عن ش مختصر الإحاطة نفح ك [٩] مختصر الإحاطة : «لليأس الأسنة والنصول» . نفح ك : «لليأس النصول» .

---

(١) فهقت : امتلأت .
(٢) الشانى ، ويقال شينى وشونة : المركب المعد للجهاد فى البحر ، والجمع شوانى انظر تاج العروس (شون) .
(٣) المشنوء : المبغض .
(٤) الجرب : المصاب بالجرب .
(٥) المهنوء : الجمل يدهن بالهناء وهو القطران .
(٦) لججت السفينة : خاضت اللجة .
(٧) الغمر : الماء الكثير .
(٨) المنتسف : المستأصل .
(٩) الجسرة : الناقة .
(١٠) المزن : السحاب .
(١١) الشحط : البعد .
(١٢) يريد حزن بنى يربوع ، وهو قرب « فيد » فى جهة الكوفة : من أجلّ مرابع العرب . وورد ذكره كثيرا فى شعرهم . وانظر ياقوت ٢٧٠/٣ معجم البكرى ٤٤١/٢ .
(١٣) صول (بضم الصاد) : مدينة فى بلاد الخزر فى نواحى باب الأبواب ، وهو الدربند . والبيت الذى ذكره ابن الخطيب لجندح المرى فى جملة أبيات أوردها ياقوت ٥٩٩/٥ .

فإن كان كَلْمُ[١] الفِراق رَغيبا[٢] ، لَمّا نويتَ مَغيبا ، وجَلَّتَ الوَقْتَ الهَفِيّ تَشْغيبا[٣] ، فلعلَّ المُلتقى يكون قريبا ، وَحَديثه يُرَوى صحيحا غريبا . إيهِ سيّدى !
٣١ب] كيفَ حالُ تِلك الشَّمائل ، المُزْهِرَة الخمائل ، والشِّيَم ، الهامِيَة الدِّيَم ؟ هل يَمُرُّ ببَالها مَن رَاعَت بالبُعْد بالَه ، وأخمَدَت بعاصِفِ البَيْن ذُبالَه ؟ أو تَرْثِى لشُؤونٍ شأنُها سَكْب لا يَفتُرُ ، وشَوْق يبُتُّ حِبال الصَّبْر ويبْتر ، وضَنًى تَقصُر ٥
عن حُلَّه الفاقِعة صَنْعَاه[٤] وتُسْتَرُ[٥] ، والأمرُ أعظَمُ واللهُ يَسْتُرُ ؛ ومَا الذى يَضيرُك ، صينَ من لَفْحِ السَّمُوم[٦] نَضيرُك[٧] ، بعد أن أضرمْتَ وأشعَلْتَ ، وأوقَدتَ وجَعَلت ، وفعَلتَ فَعْلَتَكَ التى فعَلْت ، أن تَترفَّق بذَمَاء[٨] ، أو تَرُدَّ بنُغْبة ماء[٩] ،

---

[٢] مختصر الإحاطة ريحانة ١ : « إيه شقة النفس » ، نفح ك : « إيه ثقة النفس » .
[٥] فى الأصلين : « حبال الشوق » ، والتصحيح عن مختصر الإحاطة ، ونفح ك . فى الأصل « حلله الفائقة » ، ريحانة ١ : « اليانعة » . والتصويب عن مختصر الاحاطة ونفح ك .

---

(١) الكلم : الجرح .
(٢) رغيبا : مرغوبا فيه .
(٣) التشغيب : تهييج الشر .
(٤) صنعاء (Sana عرضها الشمالى ١٩′ — ١٥° ، وطولها الشرق ١٤′ — ٤٤°) يريد بها صنعاء اليمن ؛ لأنها العظمى والمشهورة ، ومنها كانت تجلب البرود . وانظر ياقوت ٣٨٦/٥ — ٣٩٤ . تاج ٤٢١/٥ ، معجم البكرى ، الامتاع والمؤانسة ٨٥/١
(٥) تستر : مدينة بخوزستان من كور الأهواز فتحها أبو موسى الأشعرى فى خلافة عمر ؛ وكانت بها مصانع الثياب والعمائم شهيرة . وقد ضبطها ابن خلدون ، بالحركات ، بفتح التاء الأولى ، وضم الثانية ، وبينهما سين ساكنة ، ولعله راعى فى ذلك السجع . والمعروف أنها بضم التاء الأولى وفتح الثانية . وانظر وفيات الأعيان ٢٧٣/١ ، وياقوت ٣٧٧/٢ .
(٦) اللفح : الإحراق ، والسموم (بالفتح) : الريح الحارة .
(٧) نضيرك : وجهك الحسن .
(٨) الذماء (بالفتح والمد) : بقية الروح .
(٩) نغبة ماء : جرعة ماء .

أرماقٍ[(١)] ظِمَاء[(٢)] ، وتَتعاهدَ المَعَاهِد بتَحية يُشَمُّ عليها شَـذا أنفاسك ، أو تَنظرَ إلينا — على البُعـد — بمُقلة حَوْراء من بَيـاضِ قِرطاسك ، وسواد أنقاسك[(٣)] ، فربَّما قَنِعت الأنفس المُحِبَّة بخيـالٍ زُور ، وتعلَّلت بِنَوال مَنزُور[(٤)] ، ورضِيت ، لَمّا لم تَصِد العَنقاء ، بزُرْزُور .

٥ يا مَن تَرَحَّلَ والرِّياحُ لأَجلِهِ يُشتاقُ إن هَبَّتْ شَذا رَيَّاهَا
تَحْيَا النفوسُ إذَا بعثْتَ تَحيةً وإذَا عَزَمتَ اقرأْ « وَمَنْ أحْيَاهَا »[(٥)]

ولئِن أحيَيْتَ بها فِيا سَلَف نفوسا تَفْديك ، والله إلى الخيْر يَهديك ، فنحن نقُولُ مَعشَرَ مُوادِّيك : « ثَنِّ ولا تجعلها بيضَة الدِّيك »[(٦)] ؛ وعُذرا فإنِّى لم أجترئ على خِطابك بالفِقَر الفَقيرة ، وأدلتُ لَدَى حُجُراتِك برَفع العَقيرة ،

١٠ عن نَشاطٍ بعثُ مَرموسَه[(٧)] ، ولا اغتباطٍ بالأدَب تُغرى بِسياسَته سُوسَة[(٨)] ،

---

[٣] ريحانة ا : « قنعت النفس » . [٥] ريحانة ا مختصر الاحاطة نفح ك :
« ... ... والنسيم لأجله * »

[٦] ريحانة ا ط ش طب : « تحيي النفوس ... * » ، نفح ك ريحانة ا مختصر الاحاطة : « * فاذا عزمت ... » . [٩] ط : « لدى محرابك » ، والظن أنها تحريف عن « حجراتك » [١٠] بالأصلين « بعث » ، والتصحيح عن نفح ك .

---

(١) جمع رمق ؛ وهو بقية الروح .
(٢) جمع ظمِىء (بكسر الميم) ؛ وهو الذى اشتد عطشه .
(٣) جمع نقس ؛ وهو المداد .
(٤) النوال المنزور ، كالنزر : القليل .
(٥) يشير إلى الآية (٣٢) من سورة المائدة .
(٦) عجز بيت لبشار بن برد ، وصدره :

قد زرتنا زورة فى النوم واحدة * ثنِّ ... الخ

وبيضة الديك : مثل يضرب للشىء يكون مرة واحدة لا ثانية لها ، وللذى يعطى عطاء ثم لا يعود . وانظر مجمع الأمثال ٥٣/٢ ، أمالى القالى ٢٢٥/١ ، التنبيه للبكرى ص ٧١ ، ما يعول عليه فى المضاف والمضاف إليه للمحبى نسخة أيا صوفيا ورقة ١٢٨ ، ثمار القلوب ص ٣٧٨ .
(٧) المرموس : المدفون .
(٨) انظر الحاشية رقم (٣) من صحيفة (٢٧) .

وانبساطٍ أوحَى إلىَّ على الفَتْرة ناموسَه ؛ وإنّما هو اتفاق جَرَّتْه نَفْثَةُ المَصْدور[1] وهِناء[2] الجَرِب[3] المَجْدور[4] ؛ وإن تَعَلَّل به مُخارق ، فثَمَّ قِيـاس فارق ، أو لَحنٌ غَنَّى به بعدَ البُعـد مُخارق[5] ؛ والذى هيَّأ هذا القَدْرَ وسبَّبه ، وسهَّل المـكروهَ إلىَّ منــه وحبَّبه ، ما اقتضاه الصِّنْوُ يحيَى — مدَّ الله حياتَه ، وحَرَس من الحوادث ذاتَه ، — من خطابٍ ارْتَشَفَ به لهذه القَريحة بُلَالَتها[6] ، بعد أن رَضِيَ عُلَالَتها[7] ، وَرَشَح إلى الصِّهْر الحضْرَمِىّ سُلَالَتها[8] ؛ فلَمْ يَسَعْ إلّا إسعافُه ، بمـا أعانَه ؛ فأمليتُ مُجيبا ، ما لا يُعَـدُّ فى يَوْم الرِّهانِ[9] نَجيبا[10] ، وأسمعْتُه وَجيبا ، لمّا ساجلتُ بهذه التُّرَّهات[11] سِحْراً عجيبا ؛ حتَّى إذا ألِفَ القلَمَ

[٢] نفع ك ، ريحانة ا ، مختصر الاحاطة : « الجـدور ، وخارق لا مخارق فثم »
[٣] ريحانة ا : « بعد الموت » ، نفع ك ، مختصر الاحاطة : « بعد الممات » ، نفع ك : « بعد الممات مفارق » . ط : « هذا العذر وسببه » ، ريحانة ا ، نفع ك : « والذى سببه ، وسوغ منه المكروه وحببه » : [٤] الظاهرى : « المكروه إلى منه » ط : « يحيى أمد الله » .
[٥] ط : « من الحوادث جهاته » . [٦] ط : « ورسم إلى الصهر » . [٧] نفع ك ، ريحانة ا : « وأسمعت وجيبا » ، نفع ك : « ساجلت هــذه » ، نفع ك : « حتى ألف القلم »

(١) النفث : النفخ لا ريق معه . والمصدور : من به علة فى صدره .
(٢) الهناء ، ككتاب ، : القطران .
(٣) الجرب : المصاب بداء الجرب .
(٤) المجدور : الذى أصابه داء الجدرى .
(٥) هو مخارق بن يحيى بن ناوس الجزار ، مولى الرشيد يكنى أبا المهنأ ؛ مغن مشهور أغانى ليدن ٢١/٢٢٠ — ٢٤٩ .
(٦) البلالة : البلل ، وبقية الشىء .
(٧) العلالة : ما يتعلل به ، وبقية الشىء .
(٨) السلالة : الولد .
(٩) الرهان : المسابقة على الخيل وغيرها .
(١٠) النجيب ، من الإبل وغيرها : الكريم الحسيب .
(١١) الترهات : أصلها الطرق الصغار غير الجادة ؛ ثم استعيرت للأباطيل والأقاويل الخالية من الطائل .

العُرْيانُ[١] سَبْحَه[٢] ، وجَمَح بِرذَونُ الفزارة فَلَم أُطِق كَبْحَه[٣] ، لم أُفِق من غَمرة غُلُوِّه ، وموقِفِ مَتْلُوِّه ، إلَّا وقد تحيَّز إلى فِئتك ، معترًّا بل معترًا[٤] ، واستَقبَلَها ضاحكا مُفترًا[٥] ، وهَشَّ لها برًّا ، وإن كان من الخَجَل مُصْفَرًّا ؛ وليسَ بأول مَن هَجَرَ[٦] ، فى التِماس الوَصْل ممَّن هَجَر[٧] ، أو بعثَ التَّمر إلى هَجَر[٨] ؛ وأىُّ نسَب بيْنَى اليومَ وبينَ زُخْرُف الكلام ، وإجَالَة جِياد الأَقلام ، فى مُجَاورة الأعلام ؛ بعد أن حال الجَريضُ[٩] ، دون القَرِيض ، وشُغِل المريضُ عن التَّعرِيض ؛[١٠] وغَلَب حتَّى الكَسَل ، ونَصلت الشَّمرات البِيضُ كأنها الأَسَل ؛ تَرُوع بِرُقْطِ[١١] الحيَّات ، سِرْب الحياة[١٢] ، وتَطرُق

[٢] مختصر الاحاطة : « مفترا » . [٣] مختصر الاحاطة ، نفح ك : « لونه من الوجل » ، وسقط من الريحانة ا قوله : « فى التماس الوصل ممن هجر » . [٧] ريحانة ا ، نفح ك ، مختصر الإحاطة : « واستولى الكسل » . ط : « وغلب الكسل » .

(١) يريد أنه متجرد مما يعوقه عن الجرى .

(٢) السبح : الجرى .

(٣) كبح الفرس وغيره : منعه من سرعة السير .

(٤) المعتر : الفقير ، والمتعرّض للمعروف من غير أن يسأل .

(٥) المفتر : الذى يضحك ضحكا حسناً ؛ يبدى أسنانه من غير قهقهة .

(٦) هجر : هذى فى كلامه وخلط .

(٧) من الهجر ضد الوصل .

(٨) هجر : بلد بالبحرين ؛ وفيها ورد المثل الذى يشير إليه ابن الخطيب : « كباعث التمر إلى هجر » ، أو « كمبضع التمر إلى هجر » . وانظر مجمع الأمثال ٦٦/٢ .

(٩) الجريض : من الجرض ، وهو الريق يغص به . والقريض : الشعر . وحال : منع . وهو مثل يضرب للأمر كان مقدوراً عليه ، فحال دون القدرة عليه مانع . وفى معنى المثل خلاف تجده فى التاج ، واللسان ، (جرض) ، وانظر مجمع الأمثال ١٣٩/١ .

(١٠) التعريض : إطعام العراضة ؛ وهى الهدية يهديها القادم من سفر . وكأنه يريد أن المريض قد شغله مرضه عن الالتفات لهذا .

(١١) جمع رقطاء ؛ وهى الحية فى لونها سواد وبياض .

(١٢) وقف على « الحياة » بالتاء مراعاة للسجع . وهى لغة جائزة وإن كانت غير راجحة ؛ وقد تحدثوا عنها فى باب « الوقف » من كتب النحو .

بذَوات الغُرَر والشِّيَات ، عند البَيات(١) ؛ والشَّيبُ المَوت العاجِل ، وإذا ابيضَّ زَرع صبَّحته المَناجل ، والمُعتبَر الآجِـل ؛ وإذا اشتَغَل الشَّيخُ بغير مَعَادِه ، حُـكِم فى الظّاهر بإبعَادِه ، وأَسرِهِ فى مَلَـكَةِ عَادِه ؛ فأَغْضِ أبقَاكَ الله واسمَح ، لمن قَصَّر عن المَطْمَح ، وبالعين الـكَلِيلة فالمَحْ ؛ واغتَنِم لِباس ثَوب الثَّواب ، واشفِ بعضَ الجوَى بالجواب . ٥

تَولاَّكَ الله فيما استضَفتَ ومَلَـكت ، ولا بَعُدتَ ولا هَلَـكت ، وكان لك أيةَ سَلَـكْت ؛ ووَسَمك من السَّعادة بأوضح السِّمات ، وأَتاحَ لِقـاءك من قَبْل المَمَات ؛ والسَّلامُ الـكريمُ يعْتَمد حِلال(٢) ولَدى ، وسَاكِن خَلَدى ، بَل أخى وَإنْ اتَّقَيْتُ عَتْبَه(٣) وسَيِّدى ، ورحمةُ الله وبركاتُه ، من مُحِبِّه المُشْتاق إليه محمد بن عبد الله بن الخَطيب ، فى الرَّابعَ عشَر من شهر رَبيع الثانى ، من عام ١٠ سبعين وسبعمائة .

وكان تَقدَّم منه قبلَ هـذه الرِّسالة كتابٌ آخَر إلىَّ ، بعَث به إلى تِلِمْسان ، فتأَخَّر وُصُوله ، حتّى بَعَث به الأخُ يحْيَى عندَ وَفادته على السلطان ، ونَصُّ الـكتاب :

ياسَيِّدى إجلالاً واعْتِدادا ، وأخى وُدًّا واعتِقادا ، ومَحلَّ وَلَدى شَفقَةً سَـكَنتَ ١٥ منّى فؤادا . طال على انقطاعُ أنبائك ، واختفاءُ أخبارك ؛ فرَجَوتُ أن تُبلِّغَ النيةُ هَذا المـكتُوبَ إليك ، وتَخترِقَ به الموانعَ دونَك ؛ وَإن كنتُ فى مُباثتك

[٣] ريحانة ا : « فاغضض » [٨] ريحانة ا : « وإن اتقيت عتبه » ، نفح ك « وإن عتبته » [١٢] ط : « بعث به أخى » [١٥] ط ش : « أن أبلغ » [١٦] ط : « وتخترق الموانع » .

(١) جمع غرة ؛ وهى البياض فى جبهة الفرس . والشيات : جمع شية ؛ وهى سواد فى بياض ، أو بياض فى سواد ، والبيات : الايقاع بالعدو ليلا ، من غير أن يعلم فيؤخذ غرة . والكلام على تشبيه الشعرات البيض بأفراس فى لونها سواد وبياض .

(٢) الحلال : جمع بيوت الناس ، واحدتها حلة .

(٣) العتب : لومك إنسانا على إساءة كانت له إليك .

كالعاطش الذى لا يَرْوَى ، والآكِل الذى لا يشبَع ، شأنُ مَن تجاوز الحدودَ
الطَّبيعية ، والفوائدَ المألوفة ؛ فأنا الآن — بعدَ إنهاء التّحية المطوّلة الرّوض بماء
الدُّموع ، وتقرير الشّوق الزَّيم[1] ، وشكوَى البِعاد الأَليم ، وسؤال إتاحة
القُرب قبلَ الفَوْت من الله مُيسِّر العَسير ، ومُقرِّب البعيد ، — أسأل عن أحوالك
٥ سُؤالَ أبعدِ الناس مَحالا فى مَجال[2] الخُلوص لك ، وأشدِّهم حِرصًا على اتّصال [٣٢ب]
سعادتك ؛ وقد اتَّصل بى فى هـذه الأيام ما جَرَى به القَدَر من تنويع الحال
لديْك ، واستقرارك بِبَسْكَرَة مَحلَّ الغِبْطة بك ، باللجأْ إلى تلك الرّياسة
الزّكية ، الكريمة الأب ، الشَّهيرة الفَضْل ، المعروفة القَدْر عَلَى البُعْد ؛ حَرَسَها
الله ملجأً للفُضَلاء ، ومُخيَّمًا لرِجال العَلْياء ، ومَهبًّا لطيب الثناء ، بحوْله وقوّته ؛
١٠ وما كلُّ وقتٍ تُتاح فيه السّلامة ؛ فاحمَدُوا الله على الخَلاص ، وقارِبوا[3] فى
مُعاملة الآمال ، وضَنُّوا[4] بتلك الذّات الفاضِلة عن المَشاقّ ، واخلُوا بها عن المَتالف ؛
فمطلوب الحريص على الدُّنيا خسيس ، والموانعُ الحاقّة جَمّة ، والحاصل حَسْرة ،
وبأقلّ السّعى تحصُل حالةُ العافية ، والعاقل لا يَستنكحه الاستغراقُ فيما آخرُه
المَوْت ، إنّما ينَال منه الضّروريّ ؛ ومثلُك لا يُعْجِزه — مع الْتِماس العافية —
١٥ أضعافُ ما يُزَجِّى[5] به العُمْر من الأَكل والمَشْرَب ، وحسبُنا الله .

---

[١] ش : « من يجاوز » . [٣] طب : « الشوق الكريم » . [٣] فى الأصلين : « أتاحه » ؟ والتصويب عن ط [٥] طب ش ط : « مجالا » . [٨] الظاهرى : « الأدب الشهيرة » ، ولعله تحريف . [١٠] الظاهرى ش : « وقت تتاح الفرصة » . [١١] ش : « الفاضلة على المشتاق » ، تحريف . [١١] طب ، الظاهرى : « بها على التالف » .

---

(١) الزيم : الكثير الزوم .
(٢) المحال (بالكسر) : التدبير ، وعلى رواية « مجال » يكون المجال الأول (مصدرا) ، والمجال الثانى : مكان الجولان .
(٣) اقتصدوا ، واتركوا الغلوّ .
(٤) ضَنوا : ابخلوا .
(٥) يزجىّ : يتبلغ بالقوت القليل ، ويجتزىء به .

وإن تَشوَّفتْ لحالِ المُحِبِّ تلك السِّيادةُ الفذّة ، والبُنوةُ البَرّة ؛ فالحالُ الحالُ ، من جَعل الزِّمام بيَد القَدَر ، والسَّيْرِ في مَهْيَع الغَفْلة ، والسَّبْحِ في تيَّار الشَّواغل ؛ ومِن وَراءِ الأمور غَيبٌ مَحْجُوبٌ ، وأَملٌ مَكْتُوب ، نُؤمِّل فيه عادةَ السِّتْر من الله ؛ إلاّ أن الضَّجَر الذى تَعلمُونه ، خَفَّضه اليأسُ لمَّا عَجزت الحِيلَة ، وأَعْوَزَ المَنَاص[1] ، وسُدَّت المَذاهب ؛ والشَّأنُ اليومَ شأنُ النَّاس فيما يقرُب من الاعتدال . ٥

وفيما يَرجع إلى السُّلطان — تولاَّه الله — ، على أضعافِ ما باشَر سيِّدى من الإِغْياء[2] فى البِرِّ ، ووَصْل سَبَب الالتحام ، والاشْتِمال ، مَع الاستِقْلال ، وما يُنتِجُه مُتعوَّد الظهور ، والحمدُ لله .

وفيما يَرجع إلى الأَحبابِ والأَولاَد ، فعَلى مَاعَلِمت ؛ إلاّ أنَّ الشَّوقَ مُخامِر القُلوب ، وتَصوُّرَ اللِّقاء مِمَّا يُزهِّد فى الوَطَن وحاضرِ النِّعَم . سنَّى[3] الله ذلك على أفضل حال ، ويسَّره قبل الارتِحال ، عن دار المِحَال[4] . ١٠

وفيما يرجع إلى الوَطَن ؛ فأحلامُ النَّائم خِصْبا ، وهُدنَةً وظهُورًا على العَدوّ ؛ وحَسبُك بافتتاح حِصْن آشَر[5] ، وبُرْغُه[6] القَاطعة بَينَ بلاد الإِسْلام ،

[٥] ط : « وأعوز الناصر » [٨] ط : « ووصل نسب » ، ط : « مع الإقبال وما » ، طب : « وما ينتخبه » . [١٠] ط : « الشوق يخامر » .

(١) المناص : الهرب ، والملجأ ، والمفر .
(٢) أغيا الرجل : بلغ الغاية فى الشرف .
(٣) سنّى : سهّل . (٤) المحال : العذاب ، والهلاك .
(٥) حصن آشر (iznajar عرضه الشمالى ١٤ — ٣٧° ، وطوله الغربى ٢٠ — ٤°) : حصن حسن حصين آهـل ؛ يقع فى الجنوب الشرقى لحصن روطة (Rute) ، وفى الشمال الغربى للمدينة المسماة بمعادن الملح (las Salinas) ، وهو على ضفة أحد فروع وادى شنيل (jenil) فى نقطة الالتقاء بين حدود المقاطعات الثلاث : غرناطة ، وقرطبة ، وإشبيلية . وانظر وصف إفريقية والأندلس للادريسى س ٢٠٤ ، والترجمة الفرنسية له ص ٢٥٢ .
(٦) برغه (Burgo عرضها الشمالى ٤٤′ — ٣٦° ، وطولها الغربى ٥°) : مدينة =

ووَبْذَة[١] ، والقَارِن[٢] ، وبيغُه[٣] ، وحِصْن السَّهْلَة[٤] ، فى عام ؛ ثم دخول بَلَد إِطْرِيرَة[٥] : بِنت إشْبِيليّة عَنْوة[٦] ، والاسْتيلاء عَلَى ما يُنَاهِزُ خَمْسَة آلاف

= واقعة فى مرتفع بين مدينتى مالقة ورندة ؛ وكانت قاعدة النصارى يغزون منها مدينة رندة وأحوازها . جاء فى بغية الرواد ٢/١٧٨ من رسالة لابن الخطيب : « .... أصرنا أهل الجهة الغربية ، ومالقة ، ورندة بمنازلة مدينة برغه ؛ الشجا الذى أعيا الطبيب ، وأوهن الثغر القريب ، وصير رندة وأحوازها ، لا يطرقها إلا الطيف ... » .

(١) وبذة (Huete عرضها الشمالى ١٠′ — ٤٠° ، وطولها الغربى ٤٤′ — ٢°) : مدينة حصينة على واد بقرب أقليش . وهى بالفتح ثم بالسكون ، وبالذال المعجمة .

وانظر ياقوت ٣٩٦/٨ ، تاج العروس ٥٨٣/٢ ، الروض المعطار ص ١٩٤ ، صفة إفريقية والأندلس ص ١٧٥ .

(٢) القارن (Algarinejo عرضه الشمالى ١٧′ — ٣٧° ، وطوله الغربى ٨′ — ٤°) حصن يقع فى السفح الجنوبى للجبل المسمى « Monte frio » على أحد فروع وادى شنيل (jenil) . والمفهوم من بغية الرواد ١٨٧/٢ ، فى رسالة لابن الخطيب ، أنه كان مركزاً يغزو منه المسيحيون بلاد الاسلام المجاورة .

(٣) بيغه (Priego عرضها الشمالى ٢٦′ — ٣٧° ، وطولها الغربى ٨′ — ٤°) . وبيغو ، وباغو ، وباغه ، وباغة ، كلها أشكال لرسم هذه الكلمة ؛ تجدها فى نفح الطيب ٩٤/١ ، ٩٠٥ (طبع ليدن) ، تاج العروس ٦/٦ ، المقدسى ص ٢٢٣، ٢٣٥ ، الادريسى ص ٢٠٤ ، بغية الرواد ١٧٩/٢ ، ياقوت ٣٣٩/٢ .

أما اسمها ، فقد قال المقرى فى نفح الطيب : « ومن أعمال غرناطة الكبار : عمل باغة ، والعامة يقولون بينه ؛ وإذا نسبوا إليه قالوا بيغى . ويتابع العلامتان دوزى ، ودى غويه فى ترجمتهما لوصف إفريقية والأندلس للادريسى ص ٢٥٢ تحول هذا الاسم ، فينتهيان إلى أن إحدى الصيغتين : Pègo,Pégo قد شكلت فى النهاية الاسم الحالى ، وهو Priego . وهى مدينة جبلية صغيرة تبعد عن قرطبة ٣٦ ميلا ، نحو الجنوب الشرقى .

(٤) لم أعثر على هذا المكان فيما رجعت إليه من كتب الجغرافيا والتقويم ، ويفهم من رسالة لابن الخطيب وردت فى بغية الرواد ١٨٠/٢ أنه قريب من جبل الفتح (جبل طارق) .

(٥) إطريرة (Utrera عرضها الشمالى ١٤′ — ٣٧° ، وطولها الغربى ٥٠′ — ٥°) : مدينة تقع فى الجنوب الشرقى لمدينة إشبيلية ، على بعد ٣٩ كيلو متراً . وقد ضبطها ابن خلدون بالحركات بكسر الهمزة ، وسكون الطاء . وكذلك ضبطها بالكلمات الزَّبيدى فى تاج العروس ٣٥٨/٣ .

(٦) ارجع إلى الحاشية رقم (٣) ص ٤ .

من السَّبْي ؛ ثم فتح دار المُلْك ، ولِدَة[١] قُرطبة[٢] : مدينةِ جَيَّان[٣] عَنْوةً فى اليوم الأغرِّ المحجَّل ، وقتلِ المُقاتِلة ، وسَبْيِ الذُّرِّيَّة ، وتعْفيَةِ الآثار ، حتى لا يُلِمَّ بها العُمْران ؛ ثم افتتاحِ مدينة أُبَّدَة[٣] التى تَلفُّ جَيَّان فى مُلاءتها : [١٣٣] دارِ التَّجْر ، والرَّفاهِية ، والبُنَى الحافِلة ، والنِّعَم الثَّرَّة ؛ نسأل الله — جلَّ وعَلا — أن يصلَ عوائدَ نَصْره ، ولايقطعَ عنَّا سَبَبَ رَحْمته ، وأن ينفعَ بما أعان عليه من السَّعى فى ذلك والإعانة عليه .

ولم يَتزيَّد من الحوادث إلاَّ ما علِمْتم ؛ من أخذ الله لنَسَمَة السُّوء ، وخَبَثِ الأرض ، المسلوبِ من أثر الخَيْر : عُمَر بن عبد الله ، وتحكُّمِ شَرِّ المِيتَة فى نفْسه ، وإتيانِ النَّكال على حاشيته ، والاستئصال على ذاته[٤] ؛ والاضطرابُ مُستَولٍ على الوَطَن بَعدَه ؛ إلاَّ أنَّ الغَرْب على عِلاَّته لا يُرْجِحُه غيرُه . ١٠

والأندلسُ اليومَ شيخُ غُزاتها الأميرُ عبدُ الرَّحمن[٥] بن علىِّ بن السلطان أبى علىّ ، بعد وفاةِ الشَّيخ أبى الحسَن : علىِّ بن بَدْر الدِّين[٦] رحمَه الله . وقد

---

[١] ش ط : « من فتح » [٤] ش : « تعالى وجل » [٧] ط : « لنسب السوء »
[٩] ش ط طب الظاهرى : « والاستئصال على نفسه » .

---

(١) اللدة : الترب .

(٢) ارجع إلى الحاشية رقم (٤) ص ١٠

(٣) أُبَّدة (Ubeda) عرضها الشمالى ٢ ' — ٣٨ ° ، وطولها الغربى ٢٣ ' — ٣ °) بضم الهمزة وفتح الباء المشددة ، ثم دال مفتوحة مهملة ، (وفى الروض المعطار أنها معجمة) ، وبعدها هاء تأنيث : مدينة من كورة جيان ، تعرف بأبدة العرب ، تبعد عن مدينة جيان ٥٧ كيلو مترا نحو الشمال الشرقى .

وانظر ياقوت ٧٣/١ ، اللباب فى تهذيب الأنساب ١٧/١ صفة إفريقية والأندلس ص ٢٠٣ .

(٤) قتل سنة ٧٦٨ ، وسبب مقتله مفصل فى العبر ٣٢٢/٧ ، وانظر الحاشية رقم (١) ص ٤٤ ، واللمحة البدرية ص ١٠٦ ، وبغية الرواد ٩٥/٢ ، ١٠١ .

(٥) هو عبد الرحمن بن على أبى يفلوسن بن السلطان أبى على أحد أمراء بنى مرين ؛ تولى إمارة الغزو بالأندلس بعد موت على بن بدر الدين . وانظر العبر ٣٧٨/٧ .

(١٤) على بن بدر الدين بن موسى بن رَحّو . لقب أبوه بهذا اللقب الشرقى على يد أحد أشراف مكة الوافدين على المغرب . أخباره مذكورة فى العبر ٣٧٦/٧ — ٣٧٨ .

استقرَّ بها — بعدَ انصراف — سَيّدى — الأميرُ المذكور ، والوَزِير مَسْعود بن رَحُّو[١] وعمر بن عثمان بن سليمان .

والسلطان مَلِكُ النَّصارى بِطْرُه[٢] ، قد عادَ إلى مُلْكِه بإشْبيلية ، وأخُوه مُجْلِبٌ عليه بقَشْتالة[٢] ، وقُرطبةُ مُخالفةٌ عليه ، قائمةٌ بطائفةٍ من كِبار النّصارى

٥ الخائفين على أنفسِهم ، داعِينَ لأَخيه ؛ والمُسْلِمون قد اغتَنَموا هُبُوبَ هذه الرِّيح . وخرَق الله لهم عوائدَ فى باب الظُّهور والخير ، لم تَكن تَخطُر فى الآمال . وقد تلقَّب السلطان — أيَّده الله — بعَقِب هذه المُكَيِّفات ، بـ « الغَنِىِّ بالله » ، وصَدَرت عنه مُخاطبات ، بمُجمَل الفُتوح ومفَصَّلِها ، يعظُمُ الحِرصُ على إيصالها إلى تلك الفضائل لو أمكَن .

١٠ وأمّا ما يرجع إلى ما يَتَشَوَّف إليه ذلك الكمال من شُغْل الوقت ؛ فصَدَرت تقاييد ، وتصانيف ، يقال فيها — بعد ما أعمَلته تلك السيادة من الانصراف — يا إبراهيم ، ولا إبراهيمَ اليوم[٣] .

منها : أن كتاباً رُفِع إلى السُّلطان فى المَحبّة[٤] ، من تَصْنيف ابن أبِى حَجَلَة[٥] من المَشارقة ، أشار الأصحابُ بمعارضَته ، فعارضتُه ،

[١١] ش : « ماعملته » [١٣] ش : « أشار الأصحاب فعارضته » .

(١) مسعود بن رحو بن على بن ماساى ، وزير الأمير عبد الرحمن المتقدم الذكر . أنظر العبر ٧/٢٧٨ .

(٢) هو Pierre le Cruel ، وأخوه ، المجلب عليه ، هو : le Comte Henri de Traslamar ، وانظر بغية الرواد ٢/٢٠٦ .

وقشتالة (Castille) : كورة كانت تشمل مقاطعتى طليطلة (toledo) وكوينكة (Cuenca) . وانظر ياقوت ٧/٩٣ .

(٣) لعله يشير الى قوله تعالى : يا إبراهيم أعرض عن هذا » . آية ٧٦ من سورة هود .

(٤) هو ديوان الصبابة . وقد طبع بمصر سنة ١٣٠٢ هـ .

(٥) أبو العباس أحمد بن يحيى بن أبى بكر بن أبى حجلة التلمسانى (٧٢٥ — ٧٧٦) أديب صوفى ؛ كان يكثر الحط على أهل « الوحدة » ، وخصوصا ابن الفارض ؛ وعارض جميع قصائده بقصائد نبوية ، وامتحن بسبب ذلك . وانظر الدرر الكامنة ١/٣٢٩ .

وجعلتُ الموضوعَ أشرفَ ، وهو مَحَبَّةُ الله ؛ فجاء كتاباً[1] ادَّعَى الأصحاب غرابتَه . وقد وُجِّه إلى المَشْرق مُحْبةَ كِتاب : « تاريخ غَرْناطة » ،[2] وغيرُه من تآليفي . وتعرَّفَ تحبيسُه بخانَقاه سَعيد السُّعَداء[3] من مِصر ؛ وانثال الناسُ عليْه ، وهو في لَطافةِ الأَغراض ، يتكلَّف أغراضَ المشارقة . من مُلَحِه :

سلَّتْ لمِصْرَ فِي الهَوى من بَلَدٍ ... يَهْدِيه هَوَاؤه لَدَى استِنْشَاقِه
مَن يُنْكِرُ دَعْوايَ فَقُل عَنِّي لَهُ ... تَكفِي امرأةُ العَزيزِ من عُشَّاقِه

[٣٣ب] والله يرزقُ الإعانةَ في انتِساخه وتَوجِيهه . وصَدَر عنِّي جُزءٌ سَمَّيْتُه : « الغَيْرَة

---

[٢] ط : « المشرق ، وصحبته » .

---

(١) يتحدث ابن الخطيب عن كتابه : «روضة التعريف بالحب الشريف» ؛ وهو كتاب يقل أن يوجد نظيره بين كتب التصوف في المكتبة الإسلامية ؛ تحدث فيه عن مذاهب الصوفية ، وعن طريقة أهل « الوحدة المطلقة » ، فنسبه أعداؤه إلى القول بالحلول ، فكان هذا الكتاب من أسباب محنته التي انتهت بقتله رحمه الله . ولا تزال المكتبة الاسلامية تحتفظ بنسخ من هذا الكتاب ؛ وفي المجموعة القيمة من المخطوطات التي صورتها جامعة الدول العربية ثلاث نسخ خطية منه .

(٢) في نفح الطيب ٤/٢٤٨ — ٢٥١ : وصف لهذه النسخة التي أرسلها ابن الخطيب لتوقف بخانقاه سعيد السعداء ، والتي لا تزال قطعة منها في مكتبة رواق المغاربة من جامع الأزهر الشريف .

ومن الطريف أن ابن أبي حجلة السابق الذكر ، والذي عارض ابن الخطيب كتابه ؛ هو الذي كان يتولى نظارة خانقاه سعيد السعداء في هذا الوقت . وانظر نفح الطيب أيضا ٤/٢٨٥ .

(٣) والخانقاه ، بالكاف ، وبالقاف ، (Khāngāh) وترسم «خانكه» أيضا : مسكن الصوفية المنقطعين للعبادة ، والأعمال الصالحة . وهذه الخانقاه كانت داراً للأستاذ قنبر ، أو « عنبر » ، أحد خدام القصر أيام الفاطميين ، وكان يلقب بسعيد السعداء .

وقد خصصها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٩ه للفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ، وجعل لها أوقافا ، ولذلك تعرف أيضا بالخانقاه الصالحية ؛ وهي أول خانقاه عملت بمصر .

انظر خطط المقريزي ٤/٢٧٣ — ٢٧٥ ، كنوز الذهب في تاريخ حلب (مخطوط ٨٣٧ تاريخ تيمور) F. Steingass, Pers. Engl. Dict. .

على أهل الخيرة»[١] ؛ وجزء سمّيته : « حملَ الجُمهُور على السَّنَن المَشهُور »[٢] .
والإِكبابُ على اختِصار كتاب « التّاج »[٣] للجوهَري[٤] ، وردَّ حَجمه إلى مِقدار الخُمُس ، معَ حِفظِ ترتيبه التّسهيل ؛ والله المعين على مَشغَلَةٍ تُقطَع بها هَذه البُرْهةُ القَريبةُ البِداءة من التَّتِمَّة ، ولاَ حولَ ولا قُوة إلاَّ بالله .

٥ والمَطلوبُ المُثابَرةُ على تعْريفٍ يَصِلُ مِن تلك السِّيادَة والبنُوّة ؛ إذ لا يتعَذّر وُجُود قَافِلٍ من حَجّ ، أو لاَحقٍ بتلمسان : يبعثُها السَّيد الشريف منْها ؛ فالنّفس شَديدة التَعطُّش ، والقُلوبُ قَد بَلَغَت — من الشّوقِ والاستِطْلاع — الحناجِر . واللهَ أسأَلُ أن يَصُونَ في البُعْدِ وَديعتى منكَ لَدَيه ، ويُلبِسَك العافية ، ويخلِّصَك وإياى من الوَرْطَة ، ويحمِلَنا أجمعِينَ على الجادّة ، ويختِمَ لنَا بالسّعادة . والسَّلامُ

١٠ الكريمُ عَوْدًا على بَدْء ، ورحمةُ الله وبَركَاتُه ، من المُحبِّ المُتَشَوّق ، الذّاكر الدّاعى ، ابنِ الخَطيب . فى الثانى من جُمادى الاولى من عام تِسعة وستِّين وسَبْعِمائة . انتهى .

---

[٢] ط : « كتاب الجوهرى » . [١٢] سقطت من ش كلمة « انتهى » .

---

(١) ذكره فى نفح الطيب ٤/٢٤٤ فى عداد مؤلفات ابن الخطيب .

(٢) ذكره فى النفح أيضا ٤/٢٤٤ .

(٣) هو كتاب « تاج اللغة ، وصحاح العربية » ، وقد طبع ببولاق سنة ١٢٨٢ هـ ولم يذكر صاحب نفح الطيب هذا المختصر — الذى يتحدّث عنه ابن الخطيب هنا — بين مؤلفات ابن الخطيب .

(٤) هو أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى المتوفى سنة ٣٦٣ أو ٤٠٠ . شافه العرب العاربة فى ديارهم بالبادية ، بعدما درس اللغة بالعراق رواية ودراية ، ثم التزم ذكر الصحيح مما سمع ، فكتب « الصحاح » . وهو لهذا كله لا يزال يتبوأ المكانة الأولى بين معاجم العربية .

انظر البغية ص ١٩٥ ، تاج العروس ١/٢١ ، ٢٣ .

فأجَبتُه عن هـذه المُخاطَبات ، وتفادَيْتُ من السَّجع خشيةَ القُصور عن مُساجَلتِه ، فلَمْ يكُن شأْوُهُ يُلْحَق . ونَصُّ الجواب :

سَيِّدى مجدًا وعُلُوا ، ووَاحِدى ذُخْرًا مَرْجُوا ، ومَحَلُّ وَالِدى بِرًّا وَحُنُوّا .
ما زالَ الشَّوقُ — مذ نَأتْ بِى وبك الدار، واستحْكمَ بيننا البِعاد — يُرْعِى سَمْعِى أنباءَك ، ويُخَيِّلُ إلىَّ من أيدِى الرِّياح تناولَ رَسائلك ، حَتَّى وَرَدَ كِتَابُك العَزِيز على استِطلاع ، وعَهْدٍ غيرِ مُضاع ، ووُدٍّ ذى أجناس وأنواع ؛ فَنشَر بقَلبِى مَيْتَ السُّلُوّ ، وحشَر أنواعَ المَسَرَّات ، وقَدح لِقَائِك زِنَادَ الأمل ؛ ومِن الله أسأل الإمتاع بك قَبـلَ الفَوْت على ما يرضيك ، ويُسْنِى أمانىَّ وأمانِيك . وحَيَّيتُه تَحيةَ الهَائِم ، لِمَواقع الغَمائم ، والمُدْلِج⁽¹⁾ ، للصَّباح المتبَلِّج⁽²⁾ ، وأملّ على مُقْتَرَح الأولياء ، خصوصا فيك ؛ من اطمئنان الحال ، وحُسْن القَرار ، وذَهاب الهَواجس ، وسكون النَّفْرة ؛ وعُمومًا فى الدَّولة ، من رُسوخ القَدَم ، وهُبوب رِيح النَّصر ، والظُّهور على عَدوّ الله ، باسترجاع الحُصُون التى استَنقَذُوها⁽³⁾ فى اعتلال الدَّولة ، وتَخْرِيب المَعاقِل التى هى قَواعد النَّصْرانية ؛ غَرِيبةٌ لا تَثْبُتُ إلاَّ فى الحُلْم ، وآيةٌ من آيات الله . وَإنَّ خَبِيئةَ هذا الفَتْح فى طَىِّ العُصور السَّابِقة ، إلى هذه المُدَّة الـكَرِيمَة ، لَدَلِيلٌ على عِنايةِ الله بتلك الذَّات الشَّرِيفة ، حِينَ ظَهَرتْ على يَدِها

[١] ش : « وتفاديت عن السجع » . [٦] ط : « على الاستطلاع » ، ولعله تحريف [٧] ط : « الأمل ، والله أسأل » [٩] ط : « لموقع الغمام » ، ش ط طبـ الظاهرى : « وأمـلى على مقترح » [١٢] فى الأصلين : « استنقدوها فى اعتـلال » [١٤] ط : « العصور السالفة » [١٥] ط : « حين أظهر على يدها » .

(١) أدلج : سار الليل كلّه .
(٢) تبلّج الصبح : أسفر وأضاء ؛ وصبح أبلج : مشرق مضىء .
(٣) استنقدوها : أنقدوها ، وخلصوها .

خوارقُ العادة ، وما تجدَّد آخرَ الأيام من مُعجزات المِلَّة ؛ ولَكُمْ فيها — [١٣٤] والحمد لله — بحُسن التَّدبير ، ويُمن النَّقِيبة(١) ، من حَميد الأثَر ، وخالِد الذِّكر ، طرازٌ(٢) في حُلَّة الخِلافة النَّصْريّة ، وتاجٌ في مَفرِق الوزارة . كتبها الله لكم فيما يَرضاه من عباده .

٥ ووقفتُ عليه الأشرافَ من أهل هـذا القُطْر المحروس ؛ وأذعتُه في الملأ سُرورًا بعزّ الإسلام ، و إظهارًا لنعمة الله ، واستطرادًا لذكر الدَّولة المَوْلَوِيّة بما تستحقّه مِن طَيِّب الثَّناء ، والتماس الدُّعاء ، والحديثِ بنعمتها ، والإشادةِ بفضلها على الدُّوَل السَّالفة والخالفة وتقدُّمها ، فانشرحت الصُّدور حِباء(٣) وامتلأت القُلوب إجلالا وتَعظيما ، وحسُنَت الآثارُ اعتقادًا ودُعاء .

١٠ وكان كتابُ سيِّدي لشَرف تلك الدَّولة عُنوانًا ، ولِمَا عَساهُ يستعجِم من لُغَتي في مَناقِبها تُرْجُمانا(٤) ؛ زادَه الله من فَضْله ، وأمتعَ المُسلمين ببقائه . وبَثَثْتُهُ(٥) شكوى الغَريب ، من الشَّوق المُزْعج ، والحَيرة التي تكاد تَذْهب بالنَّفس أسَفا ، التَّجافي عن مِهاد الأمن ، والتقويض عن دارِ العزّ ، بين المولى المُنعِم ، والسَّيد الكريم ، والبلَد الطَّيب ، والإخوان البَرَرة ؛ « ولو كنتُ أعْلَمُ

١٥ الغيبَ لاستكثرتُ من الخَير »(٦) . و إن تَشوَّفَت السيادة الكريمة إلى الحال ،

---

[٣] ط : « الوزارة ، كتبه الله » ، ط ش طب : « لك فيما » .

---

(١) يقال : رجل ميمون النقيبة ؛ أي مُنجَح الفعال ، مظفَّر المطالب .
(٢) الطراز : ما ينسَج من الثياب للسلطان ، وعلَمَ الثوب .
(٣) حابى الرجل حِباء : نصره ، واختصه ، ومال إليه .
(٤) ترجمان : بفتح التاء والجيم ، وضم التاء والجيم ، وفتح التاء وضم الجيم .
(٥) وبثثته ؛ هو معطوف على قوله قبل : « وحييته تحية المآتم » . وبالأصول : « وبثته » بالإدغام ؛ ولعله تحريف .
(٦) آية ١٨٨ من سورة الأعراف .

فعلى ما علمتم ، سَيرًا مع الأمَل ، ومُغالبةً للأيام على الحظ ، وإقطاعاً للغفلة جانبَ العُمر .

هَل نَافِعِى والجدُّ فى صَبَبٍ مَرِّى مع الآمَالِ فى صعَدِ

رَجَع الله بنا إليه . ولعلَّ فى عِظتكم النافعة ، شِفاء هذا الدَّاء العيَاء ان شاء الله ؛ على أنّ لُطف الله مُصاحِب ، وجِوارُ هـذه الرياسة الزُّنية — وحسبُك بها عَلَمِيةً — عصمةٌ وافية[1] صَرفت وجهَ القَصد إلى ذَخيرتى التى كنتُ أعتدُّها منهم كما علمتم ، على حِين تَفاقُم الخَطْب ، وتلوُّن الدَّهْر ، والإفلاتِ من مَظانِّ النَّكبة ، وقد رتَعتُ[2] حولَها ؛ بعدَ ما جرّته الحادثة بمَهْلك السلطان المرحوم على يد ابن عمِّه ، قَريبه فى الملك ، وقَسيمه فى النَّسب ؛ والتياثِ الجاه[3] ، وتغيُّر السلطان ، واعتقالِ الأخِ المخلَّف ، واليأسِ منه ، لولا تَكييفُ الله فى نَجائه[4] ، والعَيْث بعده فى المنزل والولَد ، واغتصاب الضِّياع[5] المُقتَناة من بقايا ماتَمتَّعت به الدولة النَّصرية — أبقاها الله — من النِّعمة ؛ فآوَى إلى الوَكْر[6] ، وسامَ فى الحادِث ، وأشرَكَ فى الجاه والمال ، وأعانَ على نوائب الدَّهر ، وطلَبَ الوِتر[7] ، حتى رَأى الدَّهرُ مكانى ، وأمَّلَ الملوكُ استخلاصِى ، وتَجارَوا فى إتحافى . واللهُ المخَلِّص من عِقال الآمال ، والمُرْشِدُ إلى نَبْذِ هذه الحُظوظ المورِّطة . [٣٤ب]

[٥] ش : « من جـوار » [٦] فى الأصلين : « أعتد منها » ، وما أثبت عن ب ز [٨] فى الأصلين : « ارتعت » ، والمثبت عن طب ش [١٠] طب ش : « نجاته » [١٤] ط ش : « وتجاوزوا » .

(١) وافية : بالغة تمام الكمال .

(٢) طفت بها ، ودرت حولها ؛ وفى الحديث : « أنه من يرتع حول الحمى يوشك أن يخالطه » .

(٣) التاث : تلطخ ؛ والتياث : عطف على « ما جرته » .

(٤) النجاء : النجاة ، وهو المصدر الممدود لنجا ، والمقصور نجاة .

(٥) جمع ضيعة ؛ وهى العقار .

(٦) وكر الطائر : عشه ، والكلام على التشبيه .

(٧) طلب الثأر .

وأنبأنى سيِّدى بما صَدر عنه من التّصانيف الغريبة ، والرّسائل البَليغة ، فى هذه الفُتوحات الجليلة ، وبوُدِّى لو وَقَع الإتحاف بها أو ببعضها ، فلقد عادَنى النَّدَم على ما فرّطت .

وأما أخبار هذا القُطر فلا زيادةَ على ما علِمتُم ؛ من استقرار السلطان أبى إسحق بن السلطان أبى يحيَى[1] بتونس مستَبدًّا بأمره بالحَضْرة بعد مَهلَك شيخ المُوَحِّدين أبى محمد بن تافْرَاكين[2] القائم بأمره ، رحمة الله عليه ؛ مُضَايِقًا فى جِبَاية الوطن ، وأحكامه بالعَرب المستظهرين بدَعوته ، مُصانعًا لهم بوَفْره على أمان الرّعايا والسّابلة[3] ، لو أمكن ، حسَن السياسة جهدَ الوقت ؛ ومن انتظام بجاَيةَ محلَّ دولتنا فى أمر صاحب قُسَنطِينَةَ وبُونَة ، غِلابًا كما علمتم ، مُحمِّلا الدولة بصَرامته وقوة شَكيمته فوقَ طوقها ، من الاستبداد والضَّرب على أيدى المستَغلِّين من الأَعراب ، مُنتقَض الطاعة أكثرَ أوقاته لذلك ، إلا ما تَشمل البلادَ من تغلُّب العرَب ، ونقص الأرض من الأطراف والوسَط ، وخمود ذُبال الدُّول فى كل جهة ؛ وكلٌّ بداية فإلى تَمام .

وأما أخبارُ المغرب الأقصى والأدنى فلَدَيكم طِلْعُه[4] ، وأما المَشْرق فأخبارُ الحاجِّ هذه السنةَ من اختلاله ، وانتقاض سلطانه ، وانتزاء الجفاة على كرسيّه ، وفساد المصانع والسِّقايات المعدّة لوَفْد الله وحاجِّ بيته ، ما يسخن العينَ وَيُطيل

[١] سقط من ش ط : « والرسائل البليغة » [٣] ش : « لقد عادنى » [٩] ش : « غالبا » [١١] طب : « المتغلبين » .

(١) انظر العبر ٦/٣٧٣ وما بعدها .

(٢) انظر حاشية ص ٢٧ .

(٣) السابلة : الطريق .

(٤) يقال أطلعته طلعى ؛ أى أبثثته سرى .

البَثّ ، حتى لزعموا أن الهَيْعَة[1] اتصلت بالقاهرة أياما ، وكثُر الهَرْج[2] فى طرقاتها وأسواقها ، لِما وقع بين أَسَنْدَمُر[3] المتغلب بعد يَلْبُغَا[4] الخاسكى ، وبين سلطانه ظاهرَ القلعة ، من الجولة التى كانت دائرتها عَليه ، أجلَت عن زُهاء الخمسمائة قَتْلَى ، من حاشيةِ وموالى يَلْبُغا ؛ وتقبَّض على الباقين ، فأودَع منهم السجون ، وصلَب الكثير ، وقتل أَسَنْدمُرَ فى مَحْبسه ، وأُلقى زمامُ الدولة بيد كبير من موالى السلطان ، فقام بها مستبدا ، وقادها مستقلا ؛ و بيدالله تصاريف الأمور ، ومظاهر الغُيوب ، جَلَّ وعَلاَ .

وَرغْبتى من سيدى — أبقاه الله — أن لا يُغِبّ خطابه عنى ، متى أمكن ، يَصِلُ بذلك مِنَنَه الجمَّة ، وأن يُقَبِّل عنّى أقدام تلك الذات المَوْلوية ، ويعرّفه بما عندى من التشيُّع لسلطانه ، والشكر لنعمته ، وأن تُنهوا عنى لحاشيته وأهل اختصاصه ، التحية المختلَسة من أنفاس الرياض ، كبيرِهم وصغيرِهم .

وقد تأدَّى منى إلى حضرته الكريمة خطابٌ على يد الحاجّ نافع — سلّمه الله — تَناولَه من الأخ يَحْيى عند لقائه إياه بتِلْمسان ، بحضرة السلطان أبى حَمُّو — أيدَه الله — فربما يصل ، وسيدى يوضّح من ثَنائى ودُعائى ما عجز عنه الكتاب .

[١٣٥] والله يُبقيكم ذُخراً للمسلمين ، ومَلاذاً للآمِلين بفضله . والسلام عليكم وعلى من

[١] ش ط : « الهرج فى أزقتها » [٢] ش : « الحاسكى » [٨] ط : « يصل منته الجمة » [١٣] ش : « بتناوله » .

(١) الهيعة : كل ما أفزعك من صوت ؛ والصوت الشديد .

(٢) الهرج : الفتنة والاختلاط .

(٣) فى الأصلين ، ش : سندمر بدون ألف فى أوله ؛ وهو الأمير الدوادار الكبير فى دولة الأشرف ، كان دويداراً عند يلبغا الناصرى ثم ثار عليه . مات بالإسكندرية سنة ٧٦٩ . ترجمته فى الدرر الكامنة ١/٣٨٦ وانظر ثورته فى العبر ٥/٤٥٦ — ٤٥٧ .

(٤) يلبغا بن عبد الله الخاسكى (الخاصكى) نسبة إلى خواص السلطان ؛ ورأيت بخط بدر الدين العينى فى «عقد الجمان» (سنة ٨٠٢ ضبطه بضم الياء ، والباء وبينهما لام ساكنة ، تقدمت ترجمته فى ص ٤٧ . وانظر العبر ٥/٤٥٢ — ٤٥٣ ؛ حيث القول المفصل فى ثورته هذه .

لاذَ بِكم من السَّادة الأولاد المناجيب ، والأهل والحاشية والأصحاب ، من المُحِبّ فيكم ، المعتدّ بكم ، شمية فضلكم ، ابن خَلْدون ورحمة الله و بركاته .

عنوانه : سيدى وعمادى ، وربّ الصنائع والأيادى ، والفضائل الكريمة الخواتم والمبادى ، إمامَ الأمة ، علمَ الأئمة ، تاجَ الملّة ، فخرَ العلماء الجلّة ، عمادَ الإسلام ، مُصطفَى الملوك الكرام ، نُكتةَ الدُّول ، كافلَ الإمامة ، تاجَ الدول ، أثيرَ الله ، ولىّ أمير المسلمين الغنىّ بالله — أيده الله — الوزيرُ أبو عبد الله بن الخطيب ، أبقاه الله ، وتولّى عَنِ المُسلمين جزاءه .

وكتب إلى من غرناطة :

ياسيدى ووَليّى ، وأخى ومحلّ ولدى ! كان الله لكم حيث كنتمُ ، ولا أعدمكم لُطفَه وعنايتَه . لَو كان مُستقرّكم بحيث يتأتّى لى إليه ترديدُ رسول ، أو إيفاد مُتطلّع ، أو توجيهُ نائب ، لرجَعتُ على نفسى باللائمة فى إغفال حقكم ؛ ولكنّ العذرَ ما علمتم ؛ واحمدوا الله على الاستقرار فى كَهْف ذلك الفاضل الذى وسِعكم كَنَفُه . وشَمِلكم فضلُه شَكَرَ الله حَسَبَه الذى لم يُخْلِف ، وشُهرتَه التى لم تَكذِب .

وإنّى اغتنمتُ سفرَ هذا الشيخ ، وافدِ الحرَمين بمجْموع الفُتوح[1] ، فى إيصال كتابى هذا ، ويودّى لو وقفتم على مالديه من البضاعة التى أنتم رئيسُها وصَدْرها ، فيكون لكم فى ذلك بعضُ أُنس ، وربما تأدّى ذلك فى بَعْضِه ممّا لم

---

[٢] ش : «المعتمد بكم» تحريف [٤] ط : «فخر العلماء ، عماد» [٥] ط : «الكرام كافل» [٦] ط : «أمير المؤمنين» ، ش «الوزير أبا عبد الله» [١٠] ش : «إنفاذ متطلع» [١٢] ش : «علمتم وأحمد» [١٥] ش : «مجموع» تحريف .

---

(١) كانت عادتهم أن يبشوا بأخبار فتوحهم ، وتوسعاتهم التى تحصل فى كل سنة ، وفى عهد كل ملك — يبعثون بها إلى الملوك المعاصرين عامة ، وإلى الحرم النبوى بوجه خاص . وإلى هذا يشير ابن الخطيب .

يُختَمَ عليه ، وظاهرُ الأمور نُحيل عليه فى تعريفكم بها ، وأما البواطن فمّا لا يتأتّى كثرةً وضَنانة ، وأخَصّ ، بالصاد ، ما أظن تشوُّفَكم إليه حالى . فاعلموا أنى قد بَلَغ بى الماء الزُّبَى(١) ، واستولى علىّ سوء المزاج المنحَرِف ، وتَوالت الأمرَاض ، وأعوزَ العِلاج ، لبقاء السَّبَب ، والعَجْزِ عن دَفعه ، وهى هذه المُداخلة جعَل الله العَاقبة فيهـا إلى خير ؛ ولم أترك وجهاً من وجوه الحيلة إلا بَذَلتُه ، ٥ فما أغنَى ذلك عنّى شيئا ، ولولا أننى بعدَكم شَغَلتُ الفكر بهذَر التأليف ، مع الزُّهد ، و بُعْد العهد ، وعدَم الإلماع بمطالعة الكُتُب ، لم يتَمشّ حالى من طريق فَسَاد الفكر إلى هذا الحدّ ؛ وآخر ما صدَر عنى كُنَّاش(٢) سميته باستنزال اللُّطف الموجود ، فى أسْر الوجود(٣) ، أمليتُه فى هذه الأيام التى أُقيمُ بها رسمَ النيابة عن السلطان فى سَفَره إلى الجهاد ، بُودّى لو وقفتم عليه ، وعلى كتابى فى المحَبّة ؛ ١٠ وعسى الله أن يُيسِّرَ ذلك .

[ب] ومع هذا كله ، والله ما قصرتُ فى الحرص على إيصال مكتوب إليكم ، إما من جهة أخيكم ، أو من جهة السَّيد الشَّريف أبى عَبد الله ، حتى من المغرب إذا سمعتُ الرَّكب يتَوجّه منه ، فلا أدرى هل بلغَكم شىء من ذلك أم لاَ . والأحوالُ كلُّها على ما تركتموها عليه ، وأحبابُكم بخير ، على ما علمتم من الشَّوق والتشوف ١٥

---

[١] فى الأصل : « يحيل » ، والمثبت عن ط‍ب [٢] ط : « وأخص ما أظن » [٥] ط : « الله عاقبتها إلى » [٦] ط : « ولولا أنى » [٧] ط : « لم تتمش » ، ش : « من طريقة فساد » .

---

(١) الزبى : جمع زبية ؛ وهى الرابية التى لا يعلوها الماء ، فاذا بلغها السيل كان جارفا مجحفا . وهو مثل يضرب للشىء يتجاوز الحد ويتفاقم . مجمع الأمثال ٦٠/١ ، لسان (زبى) .

(٢) الكناش : الدفتر تقيد فيه الفوائد والشوارد للضبط ، يستعمله المغاربة كثيراً إلى اليوم . وانظر تاج العروس ٣٤٧/٤ .

(٣) ذكره المقرى فى نفح الطيب ٢٤٤/٤ ، بين مؤلفات ابن الخطيب بهذا العنوان : « استنزال اللطف الموجود ، فى سر الوجود » .

والارتماض[١] لمفارقتكم ، ولا حَولَ ولا قوةَ إلاّ بالله .

والله يحفظكم ، ويكون لكم ، ويتولى أمورَكم ؛ والسلام عليكم ورحمة الله ، من المُحبِّ الوَاحِش الشَّيخ ابن الخطيب . فى غرة ربيع الثانى من عام إحد وسبعين وسبعمائة .

٥ وبباطنه مُدرَجَة نَصُّها :

سيدى رضى الله عنكم . استقرّ بتلمسان ، فى سبيل تقلُّب ومطاوعة مزاج تعرفونه ، صاحبُنا المقدَّم فى صنعة الطب أبو عبد الله الشَّقُّورى ، فإن اتَّصل بكم فأعينوه على ما يَقِف عليه اختيارُه وهذا لا يحتاج معه إلى مثلكم[٢] .

عنوانه : — سيدى ومحلّ أخى ، الفقيهَ الجليل ، الصَّدرَ الكبير المعظم ، ١٠ الرئيسَ الحاجب ، العالم الفاضل ، الوزير ابنَ خَلْدون ، وصَل الله سعدَه ، وحَرَس مجده ، بمنّه .

وإنما طولتُ بذكر هذه المخاطبات ، وإن كانت ، فيما يظهر ، خارجةً عن غرَض الكتاب ، لأن فيها كثيرا من أخبارى ، وشرح حالى ، فيستوفى ذلك منها مَن يتشوف إليه من المطالعين للكتاب .

١٥ ثم إن السلطان أبا حَمُّو لم يزل مُعتمِلاً فى الإجلاب على بجاية ، واستئلاف قبائل رياح[٣] لذلك ، ومعوِّلا على مُشايعتى فيه ، ووَصْلِ يدِه مع ذلك بالسلطان

[٢] ط ش : « والله يحفظكم ويتولى » [٣] ط : « فى ربيع » [٥] ش : « وبباطنها مدرجة » [٧] ش ط : « المتقدم فى الطب » ، ط : « فاذا اتصل » [١٢] طب : « بذكر المخاطبات » [١٣] ش : « من أخباره وشرح » .

(١) الحزن لمفارقتكم .

(٢) كذا فى الأصول ؛ والمراد أن ما يختاره لا يحتاج فى اختياره إلى مثلكم .

(٣) هم من أعز قبائل بنى هلال ، وأكثرهم جمعا . وقد أطال ابن خلدون القول فى قبائل رياح ، وما كان لها من الأحداث فى المغرب فى العبر ٦/٣١ — ٤٠ .

أبى إسحاق ابن السلطان أبى بكر صاحب تونس من بنى أبى حفص ، لما كان بينه و بين أبى العباس[1] صاحب بِجَايَة وقُسَنطينة ، وهو ابن أخيه ، من العداوة التى تقتضيها مقاسمة النَّسَب والمُلك ، وكان يوفِد رسله عليه فى كل وقت ، ويمُرّون بى ، وأنا بِبَسكرة ، فأوْكد الوُصْلة[2] بمخاطبة كل منهما ؛ وكان أبو زيّان[3] ابن عمّ السلطان أبى حمّو بعدَ إجفاله عن بجاية ، واختلال مُعَسْكره ، قد سَار ٥ فى أثره إلى تِلِمسَان ، وأجْلَب على نواحيها ، فلم يظفر بشىء ، وعاد إلى بلاد حُصَين ، فأقام بينهم ، واشتملوا عليه ، ونَجَم[4] النفاق فى سائر أعمال المغرب الأوسط ، واختلف أحياء زُغْبةَ على السلطان ، وانتبذ الكثير عنه إلى القَفْر ، ولم يزل يسْتألفهم حتى اجتمع له الكثيرُ منهم ، فخرج فى عساكره فى مُنتصَف تسع وستين[5] إلى حُصَين وأبى زيّان ، واعتَصموا بجَبَل تِيطَرِى[6] ، وبعث إلىّ ١٠ فى استنفار الدَّوَاودَة للأخذ بحُجْزَتهم[7] من جهة الصحراء ، وكتب يستدعى

---

[٢] ط : « وبين ابن أخيه صاحب بجاية ، وقسنطينة من العداوة » [٥] ش : « إجفاله على بجاية » [٨] سقط من ش ط قوله : « واختلف أحياء » إلى قوله : « إلى القفر » [١١] فى أصل أيا صوفية : « الدواودة » ، ط : « الزواودة » ولعل الصواب ما أثبت .

---

(١) هو أبو العباس بن أبى عبد الله بن أبى بكر . انظر بعض أخباره فى العبر ٦/٣٦٩ — ٣٧٠ .

(٢) الوصلة (بالضم) : الاتصال ، وكل ما اتصل بشىء ، فالذى بينهما وصلة .

(٣) أبوزيان ؛ هو محمد بن السلطان أبى سعيد عثمان بن عبدالرحمان بن يحيى بن يغمراسن . وانظر أخباره فى العبر ٧/١٢٥ — ١٣٩ ، وبغية الرواد ٢/١٨٤ ، ١٨٥ ، والاستقصا ٢/١٣٨ وما بعدها .

(٤) نجم : طلع وظهر .

(٥) انظر تفصيل هذه الحوادث فى بغية الرواد ٢/١٩٩ سنة ٧٦٩ .

(٦) هو جبل أشير الذى كانت فيه المدينة (أشير) ؛ وقد بنى زيرى بن مناد الصنهاجى ، حين أسس مدينة أشير ، فى هذا الجبل حصنا حصينا ، وصفه يحيى بن خلدون فى بغية الرواد ٢/١٨٥ بقوله : « معقل تيطرى المشهور الحصانة ، الآخذ من الصحراء والتل ، والمزاحم بعناكبه السحاب » . وانظر العبر ٦/٦٤ .

(٧) الحجزة « بالضم » : معقد الإزار .

أشياخهم : يعقوبَ بنَ عليّ كبيرَ أولاد محمد ، وعثمانَ بنِ يوسف / كبيرَ أولادِ سِباع [٣٦ ا]
ابن يحيى . وكتب إلى ابن مزْنِى قصيدةٍ وطنهم بإمدادهم فى ذلك ، فأمدّهم ؛ وسِرنا
مغرِّبين إليه ، حتى نزلنا القَطْفَا قِبلةَ تيطَرِى ، وقد أحاط السلطان به من جانب التل ،
على أنه إذا فرغ من شأنهم سَار معنا إلى بِجَايَة ؛ وبلغ الخبر إلى صاحب
٥ بجاية أبى العباس ، فاستألف مَن بقى من قبائل رِيَاح ، وعسكر بطرف ثنية القِصَاب
المُفضِيَة إلى المَسيلة . وبينما نحن على ذلك اجتمع المخالفون من زُغبة ، وهم خالد
ابن عامر كبير بنى عامر وأولاد عَرِيف كبراء سُوَيْد ، ونهَضُوا إلينا بمكاننا من
القَطْفَا ، فأجفلت أحياء الدَّوَاودة ، وتأخرنا إلى المَسيلة ، ثم إلى الزّاب ، وَسارت
زُغبةُ إلى تيطَرِى ، واجتمعوا مع أبى زيَّان وحُصَيْن ، وهجموا على مُعَسْكر السلطان
١٠ أبى حَمُّو ففَلُّوه ، ورجع مُنهزِما إلى تِلمْسان ، ولم يزل من بعد ذلك على استئلاف
زُغْبَة ورِياح يؤَمِّل الظَفرَ بوطنه وابنِ عمّه ، والكَرّةَ على بِجَايَة عاما فعاما ،
وأنا على حالى فى مُشايعتِهِ ، وإيلاف مابينه وبين الدَّوَاوِدَة ، والسلطانِ أبى إسحق
صاحب تونس ، وابنه خالد من بعده . ثم دخلت زغبة فى طاعته ، واجتمعوا على
خِدمته ، ونهض من تلمسان لشِفاء نفسه من حُصين وبِجَايَة ، وذلك فى أخرَيات
١٥ إحدَى وسبعين ؛ فوفدتُ عليه بطائفة من الدَّوَاوِدَة أولاد عثمان بن يوسف
ابن سليمان لنشارفَ أحواله ، ونطالعه بما يَرْسم لهم فى خِدمته ، فلقيناه بالبطحاء ،
وضَرب لنا موعداً بالجزائر ، انصرف به العرب إلى أهليهم ، وتخلّفتُ بعدَهم لقضاء
بعض الأغراض واللحاق بهم ، وصلّيت به عيدَ الفِطْر على البَطْحاء ، وخطبتُ به ،

[٢ ، ٣] ط : « وسرنا مقربين إليه » [٣] ط : « من خلفة التل » ، ولعل الصواب :
« من خلف التل » [٥] ط : « أبى العباس ، فعسكر بمن استألف من قبائل رياح ، وعسكر
بطرف ثنية القصاب » [٧] ش : « بنى عامر أولاد » [٩ ، ١٠] ط : « معسكر أبى حمو »
[١٢] ش : « حالى فى مشايعتهم » ، [٨ ، ١٢ ، ١٥] فى أصل أيا صوفية : « الدواودة » ،
ط : « الزواودة » [١٦] طب : « سليمان لتشارف أحواله ، وتطالعه » .

وأنشدتُه عِند انصرافه من المصَلَّى أُهَنِّيه بالعيد ، وأُحَرِّضُه :

هــذى الديارُ فحيِّهِنَّ صباحَا ... وقِفِ المطايا[1] بينهن طِلاحَا[2]

لا تَسأل الأطلالَ إن لم تَرْوِها ... عبراتُ عينك واكفاً مُمتاحَا

فلقد أخذْنَ على جُفونك مَوْثقا ... أن لا يُرِيْنَ مع البِعَاد شِحَاحَا

إيهِ عن الحيِّ الجميع وَربَّمَا ... طرِبَ الفؤاد لذكرهم فارتاحَا ٥

* * *

ومنازِلِ للظَّاعنين استَعجَمت ... حُزْناً وكانت بالسُّرور فِصَاحَا

وهى طويلة ، ولم يبق فى حفظى منها إلاّ هذا .

وبينما نحن فى ذلك ، بلغ الخبر بأن السلطان عبدَ العزيز[3] صاحبَ المغرب الأقصى من بنى مَرِين ، قَد استولى على جبل عامر بن محمد الهنتَاتى بمراكش ، ١٠ [٣٦ب] وكان آخذاً بِمُخَنَّقه[4] منذُ حَوْل ، وساقه إلى فاسَ فقتله بالعذاب ، وأنه عازم على النهوض إلى تِلِمْسَان ، لما سَلَف من السلطان أبى حَمُّو أثناء حِصَار السلطان عبد العزيز لعامر فى جَبَله ، من الإجلاب على ثغور المغرب ؛ ولحين وصول هذا الخبر ؛ أضرب السلطان أبو حَمُّو عن ذلك الشأن الذى كان فيه ، وكرَّ راجعًا إلى تِلِمْسان ، وأخذَ فى أسباب الخروج إلى الصحراء ، مع شيعة بَنِى عامر من أحياء ١٥ زُغْبَة ، فاستألف ، وجَمَع ، وشدّ الرِّحال ، وقَضَى عيد الأضحَى ؛ وطلبتُ منه الإذنَ فى الانصراف إلى الأندلس ، لتعذُّر الوجْهَة إلى بلاد رِيَاح ، وقد أظلَمَ الجوُّ

---

[٥] تى : « إيه على » .

---

(١) جمع مطية : وهى الناقة أو البعير يمتطى ظهره .

(٢) جمع طلح « بالكسر » : وهى الناقة أضمرها الكلال ، وأجهدها الإعياء من طول السفر .

(٣) هو أبو فارس عبد العزيز بن أبى العباس بن أبى سالم المرينى ولى سنة ٧٩٦ بعد وفاة أبيه أبى سالم ، وتوفى سنة ٧٩٩ . انظر الاستقصا ١٤١/٢ وما بعدها .

(٤) المختق : موضع المخنق من العنق .

بالفتنة ، وانقطعت السُّبُل ؛ فأذِن لى ، وحمّلنى رسالة فيما بينه وبين السلطان ابن الأحمَر ، وانصرفت إلى المرسَى بهُنَيْن ؛ وجاءه الخبر بنزول صاحب المَغْرب تازَا فى عساكره ، فأجفَل بَعدِى من تِلمْسان ، ذاهباً إلى الصَّحراء عن طريق البَطْحَاء ، وتعذرعلىَّ ركوب البحر من هُنَيْن فأقصرت وتأدَّى الخَبَر إلى السُّلطان عبد العزيز بأنى مقيم بهُنَيْن ، وأن معى وديعةً احتملتُها إلى صاحب الأندلس ، تَخيَّل ذلك بعض الغواة ، فكتب إلى السلطان عبدالعزيز فأنفذ من وقته سَرِيّة[1] من تازا[2] تعترضنى لاسترجاع تلك الوديعة ، واستمرَّ هو إلى تِلِمْسان ؛ ووافتنى السَّرية بهُنَيْن وكشفوا الخبر فلم يَقِفوا على صحته ، وحملونى إلى السلطان ، فلقيته قريبا من تِلِمْسان ؛ واستكشفَنى عن ذلك الخبر ، فأعلمته بيقينه ، وعنَّفنى على مفارقة دارهم ، فاعتذرت له بما كان من عُمَر بن عبد الله المستبدّ عليهم ، وشَهِد لى كبير مجلسه ، وولىُّ أبيه وابنُ وليّه : وَنْزْمار بن عَرِيف ، ووزيرُه عُمَر بن مسعود بن منديل بن حمامة ؛ واحتفَت الألطاف ، وسألنى فى ذلك المجلس عن أمر بِجَاية ، وأفهمنى أنه يروم تملكها ، فهوَّنتُ عليه السَّبيل إلى ذلك ، فسُرَّ به ، وأقمت تلك الليلة فى الاعتقال . ثم أطلقنى من الغد ، فعمدت إلى رباط الشيخ الولى أبى مَدْيَن ، ونزلت بجواره مؤثرا التَّخَلِّى والانقطاع للعلم لو تُرِكتُ له .

---

[١] ط : « رسالة إلى السلطان » [٦] ط : « يخيل ذلك » .

---

(١) السرية : قطعة من الجيش . ويقال : خير السرايا أربع مئة .

(٢) تازا (تازة) [Taza عرضها الشمالى ٤′ — ٣٤° ، وطولها الغربى ٤°] : مدينة فى المغرب الأقصى ، تبعد عن فاس نحو الشرق ١٢٧ كيلو متراً ؛ وهى إحدى المدن الحربية القديمة بالمغرب ؛ أسست قبل الفتح الإسلامى بكثير . ولمكانتها الحربية اتخذها الحسن بن ادريس الثانى مقراً حربياً ، وعنى بها عبد المؤمن الموحدى فجعلها حصنا مانعا ، وفى أيام المرينين اتخذها أبو يعقوب المرينى عاصمته ، وقاعدة لغزو تلمسان ، ولا تزال حتى اليوم مركزاً حربيا يحسب له حسابه . وقد نسب إلى تازا علماء كثير . انظر تاج العروس ١٢/٤ .

مشايعة السلطان عبد العزيز صاحب المغرب على بنى عبد الواد

ولما دخل السلطان عبد العزيز تِلِمْسان ، واستولى عليها ، و بلغ خبره إلى أبى حَمّو ، وهو بالبَطْحاء ، فأجفل من هنالك ، وخرج فى قومه وشِيعتِه من بنى عامر ، ذاهباً إلى بلاد رياح ، فسرّح السلطان وزيرَه أبا بكر بن غازى فى العساكر لاتباعه[1] ، وجمع عليه أحياء زُغْبَة والمَعْقِل باستئلاف وليّه وَنزْمار[2] وتدبيره ؛ ثم أعمَل السلطانُ نظرَه ، ورأى أن يقدّمنى أمامه إلى بلاد رياح لأوطِّد أمره ، وأحملَهم على مناصرته ، وشفاء نفسه من عدوّه ، بما كان السلطان آنس منّى من استتباع رياح ، وتصريفهم فيما أريده من مذاهب الطاعة ، فاستدعانى من خَلْوَتى بالعُبّاد عند رباط الوَلىّ أبى مَدْيَن[3] ، وأنا قد أخذتُ فى تدريس العلم ، واعتزمت على الانقطاع ؛ فآنسنى ، وقرّبنى ، ودعانى إلى ما ذهب إليه من ذلك ، فلم يسعنى إلا إجابتُه ، وخلَع علىّ ، وحَمَلنى ؛ وكتب إلى شيوخ الدَّوَاوِدَة بامتثال ما ألقيه إليهم من أوامره ، وكتب إلى يعقوب بن علىّ ، وابن مُزْنى بمساعدتى على ذلك ، وأن يحاولوا على استخلاص أبى حَمّو من بين أحياء

[٨] ط : « السلطان أيس من استتباع » ، طب : « أنس منى من » [١٣] فى أصل أيا صوفية « الدواودة » ، ط ب : « الزواودة » .

(١) ذكرت هذه الأحداثُ مفصلة فى العبر ٧/٣٢٩ وما بعدها .

(٢) هو الشيخ أبو يعقوب ونزمار بن عريف بن يحيى . كان ولى بنى مرين فعهدوا إليه بمنصب الشوار ، والوزارة . وجاءت أخباره متفرقة فى العبر ٧/٣٢٩ ، ٣٣٠ وما بعدها .

(٣) أبو مدين : شعيب بن الحسن الأندلسى . صوفى شهير ، يعرف بأبى مدين الغوث . له ترجمة مطولة فى البستان ص ١٠٨ — ١١٤ ، وجذوة الاقتباس ص ٣٣٢ ، أحمد بابا ص ١٢٧ .

بنى عامر ، ويحولوه إلى حىّ يعقوب بن علىّ ؛ فودعته وانصرفت فى عاشوراء
اثنين وسبعين ؛ فلحقت الوزير فى عساكره وأحياء العرب من المَعْقِل وزُغْبَة على
البَطْحاء ، ولقيته ، ودفعت إليه كتاب السلطان ، وتقدمت أمامه ، وشيعنى وَنَزْمار
يومئذ ، وأوصانى بأخيه محمّد ، وقد كان أبو حَمّو قبض عليه عند ما أحس منهم
بالخلاف ، وأنهم يَرومون الرحلة إلى المغرب ، وأخرجه معه من تِلِمْسان مُقيّدا ، واحتمله
فى مُعَسكره ، فأكد علىّ وَنَزْمار يومئذ فى المحاولة على استخلاصه بما أمكن ، وبعث
معى ابنَ أخيه عيسى فى جماعة من سُوَيْد يُبَذْرِق(1) بى ويتَقَدم إلى أحياء
حُصَين بإخراج أبى زَيّان من بينهم ، فسرنا جميعا ، وانتهينا إلى أحْياء حُصَين ، وأخبرهم
فرح بن عيسى بوصية عَمّه وَنَزْمار إليهم ، فنَبَذوا إلى أبى زيان عهده ، وبعثوا معه
١٠ منهم من أوصله إلى بلاد رياح ، ونزل على أولاد يحيى بن على بن سِبَاع ، وتوغلوا به
فى القفر ، واستمريت أنا ذاهباً إلى بلاد رياح ؛ فلما انتهيت إلى المَسِيلَة(2) ألفيت
السلطان أبا حَمّو وأحياء رياح مُعسكرين قريباً منها فى وطن أولاد سباع بن يحيَ
من الدَّوَاوِدَة ، وقد تَساتَلوا(3) إليه ، وبذَلَ فيهم العَطاء ليجتمعوا إليه ، فلما سمعوا
بمكانى بالمَسِيلَة ، جاؤوا إلىّ فحملتُهم على طاعة السلطان عبد العزيز ، وأوفدتُ

---

[١] ش : « بنى عامر فحولوه » [٢] ط : « ثنتين وسبعين » [٦] ش : « معسكره أوكد علىّ » [٧] ط : « يبدرونى وتقدم » تحريف ، ش : « يتدرّق » تحريف أيضا ، [٨] سقط من ش ط من قوله : « بإخراج أبى زيان » إلى قوله : « وانتهينا إلى أحياء حصين » [١٣] ط ب : « الزواودة » ، فى أصل أيا صوفية : « الدواودة » ، ط ش : « وقد تسايلوا » [١٤] ش : « بمكانى من المسيلة » .

---

(١) البذرقة ، بالذال المعجمة ، وبالمهملة أيضا : الخفارة ؛ والمبذرق : الخفير . وانظر ص ٥٦ .

(٢) تساتل القوم : خرجوا متتابعين واحداً بعد واحد .

(٣) المسيلة ، بالفتح ثم الكسر ، والياء الساكنة بعدها لام : مدينة بالجزائر ؛ كانت تسمى بالمحمدية نسبة إلى أبى القاسم محمد بن المهدى الفاطمى « القائم » التى اختطها سنة ٣١٥ . وهى واقعة شمال شط الحضنة Chott el Hodna ، بعيدة عنه بنحو ٣٨ كيلو مترا ؛ وفى الشرق ، إلى الجنوب قليلا ، من مدينة أشير Achir ، وبينهما نحو ٨٧ كيلو متراً .

أعيانهم وشيوخهم على الوزير أبي بكر بن غازى ، فلقوه ببلاد الدّيالم عند نهر واصل ، فأتوه طاعتهم ، ودعوه إلى دخول بلادهم فى اتباع عدوه ، ونهض معهم وتقدمت أنا من المَسيلة إلى بَسْكَرة ، فلقيت بها يعقوب بن على ، واتفق هو وابن مُزْنِى على طاعة السلطان ، و بعث ابنه محمداً للقاء أبي حَمُّو وأمير بنى عامر خالد بن عامر ، يدعوهم إلى نزول وطَنه ، والبُعد به عن بلاد السلطان عبدالعزيز ، فوجده متدلّيا من المَسيلة إلى ٥ الصّحراء ، ولقيه على الدّوْسَن(١) و بات لَيلتهُ يعرض عليهم التحول من وَطَن أولاد سِبَاع إلى وطنهم بشرقىّ الزّاب ، وأصبح يومَه كذلك ، فما راعهم آخرَ النّهار إلا انتشار العَجاج خارجاً إليهم من أفواه الثَّنِيَة ، فركبوا يستشرفون ، و إذا بهوادى الخيل طالعة من الثَّنِيَة ، وعساكر بنى مَرِين والمَعْقِل وزُغبة متتالية أمام الوزير أبي بكر بن غازى ، قد دلّ بهم الطريق وفدُ أولاد سِبَاع الذين بعثهم من المَسِيلة ؛ ١٠ فلما أشرفوا على المُخَيَّم ، أغاروا عليه مع غروب الشمس ، فأجفل بنو عامر ، وانتُهِب مُخَيَّم السلطان أبي حَمُّو ورحائله وأمواله ، ونجا بنفسه تحت الليل ، وتمزّق شملُ ولده وحرمه ، حتى خَلَصوا إليه بعد أيام ، واجتمعوا بقصور مُصَاب(٢) من بلاد الصحراء ، وامتلأت أيدى العساكر والعرب من نهابهم ، وانطلق

[١] ط ش : « أعيانهم وأشياخهم » [٥] ش : « والتصدية عن » ، وهو تحريف عما أثبت [٧] ش : « وطنهم شرق » [٩] ط : « وزغبة متتالة » [١٠] ط ش : « الطريق وفدا أولاد » ، ش : « بعثهم من » [١١] ش : « على المخيم » تصحيف [١٢] ط : « أبي حمو ورحاله » ، ش : « ورحائله وأموالهم » [١٣] سقط من ش من قوله : « ولده وحرمه » حتى قوله : « وامتلأت أيدى » [١٤] ش : « والعرب من نهائبهم » .

(١) الدوسن ED-Dofisen : قرية من قرى الزاب تبعد ٦٠ كيلو متراً إلى الجنوب الغربى من بسكرة . انظر ترجمة بغية الرواد ٢/٢٩٥ .

(٢) رسمه على قاعدته ، التى قررها صدر المقدمة ، بصورة صاد وسطها زاى ، إشارة إلى أن الصاد تنطق مشمة بالزاى ؛ ومكان قصور مصاب جنوب المكان المسمى : Laghuat ، وشمال Ghardaia بالجزائر ، وأظن أنها كانت تقع على الوادى المسمى W. Nessa .

محمد بن عَرِيف فى تلك الغَيْبة ، أطلقه الموكَّلون به ، وجاء إلى الوَزير وأخيه وَنْزْمار ، وتلقَّوه بما يجب له ، وأقام الوزير أبو بكر بن غازى على الدَّوسَن أياما أراح فيها ، و بعث إليه ابن مَزْنِى بطاعته ، وأرغَد له من الزَّاد والعُلُوفة[١] ، وارتَحل راجعاً إلى المغرب ؛ وتخلَّفتُ بعدَه أياما عند أهْلى ببَسْكَرَة ، ثم ارتحلتُ

٥ إلى السّلطان فى وَفد عظيم من الدَّوَاوِدَة ، يقدُمُهم أبو دينار[٢] أخو يعقوب ابن علىّ ، وجماعةٌ من أعيانهم ، فسَابقْنا الوزيرَ إلى تِلِمْسَان ، وقدِمنا على السُّلطان ؛ فوسِعَنا من حِبائه[٣] وتَكْرِمته ، ونُزُله ما بَعُد العَهْد بمثله ، ثم جَاء من بعدِنا الوزيرُ أبو بَكر بن غَازى على الصّحراء ، بعدَ أن مرَّ بقُصور بَنِى عامر[٤] هُنالك فخَرَّبَها ، وكان يومُ قدومه على السلطان يوماً مَشهوداً ؛ وأَذِنَ بعدها لوفود

١٠ الدَّواودة بالانصراف إلى بلادهم ، وقد كان يَنتظِر بهم قُدومَ الوزير ، وَوليّه وَنْزْمار ابن عَرِيف ، فودَّعوه ، وبالغ فى الإحسَان إليهم ، وانصَرفوا إلى بلادِهم ؛ ثم أعمل نظرَه فى إخراج أبى زيَّان من بين أحياءِ الدَّوَاوِدَة لمـا خشى من رجوعه إلى حُصَين ، فوامرنى فى ذلك ، وأطلقنى إليهم فى محاولة انصرافِهِ عنهم ، فانطلقتُ لذلك ؛ وكان أحياء حُصَين قد توجَّسوا الخِيفة من السُّلطان وتنكَّروا

١٥ له ، وانصَرفوا إلى أهلهم بعدَ مَرْجعهم من غَزاتهم مع الوزير ، وبادَروا باستدعاء

---

[٢] ط : «بن غازى بالدوسن» [٥، ١٠، ١٢] ط : «الزواودة» ، فى أصل أياصوفية : «الذواودة» [٧] «فوسعنا من حبايته» تحريف [١٠] ش : «من غزواتهم مع» .

---

(١) العلوفة (بالضم) : العلف.

(٢) هو أبو دينار يعقوب بن على بن أحمد ؛ شيخ قبائل رياح . له فى الأحداث السياسية بالمغرب فى هذا العهد الآثار البعيدة المدى . انظر بغية الرواد ٢/٢٠١ ، ١١٣ ، والعبر ٧/٣٣٠ .

(٣) الحباء (بالكسر) : العطاء .

(٤) كانت هذه القصور — كما يفهم من حديث ابن خلدون عنها — بالصحراء ، فى جهة القبلة من الجبل المسمى بجبل راشد . وانظر العبر ٧/١٣٣، ٣٢٩ .

أبى زيّان من مكانه عند أولاد يحيى(١) بن على ، وأنزلوه بينهم ، واشتملوا عليه ،
وعادوا إلى الخلاف الذى كانوا عليه أيامَ أبى حَمُّو ؛ واشتعل المغرب الأوسط ناراً ،
ونَجَم صَبِىٌّ من بيت المُلك فى مَغْرَاوَة ، وهو حَمْزَة بن علىّ بن راشد(٢) ؛ فرّ من
مُعَسْكَر الوزير ابن غَازى أيامَ مُقَامه عليها فاستولى على شَلَف(٣) ، و بلاد قومه(٤)

[١٣٨] و بعث السلطان وزيرَه عَمرو بن مَسْعود(٥) فى العساكر لمنازلته ، وأعيا/داؤه ؛
وانقطعتُ أنا ببَسْكَرَة ، وحالَ ذلك ما بينى و بين السلطان إلاّ بالكتاب
والرسالة . و بلغنى فى تلك الأيام وأنا ببَسْكَرَة مَفَرُّ الوزير ابن الخطيب من
الأندَلُس(٦) ، وقُدومُه على السلطان بِتِلِمْسان توجّس الخِيفة من سلطانه ، بما كان له
من الاستبداد عليه ، وكثرةِ السِّعاية من البطانة فيه ، فأعمل الرِّحلة إلى
الثغور المغربية لمطالعتها بإِذْنِ سلطانه ، فلما حاذَى جَبلَ الفَتح(٧) قُفُلَ الفُرضَة(٨) ، ١٠

[٤] ش : « وبلاد نوبة » تحريف [٥] ش « وزيره مسعود بالعساكر » تحريف
[٨] ط : « حين توجس » ، ش : « يوجس الخيفة » [٩] ط : « وكثرت السعاية »
[١٠] ط : « الثغور الغربية » ، ط : « قبل الفرضة » .

(١) هم أولاد يحيى بن على بن سباع من الدواودة . انظر العبر ١٣٢/٧ .
(٢) هو حمزة بن على بن راشد من آل ثابت بن منديل ؛ أمير من أمراء مغراوة .
كان أبوه على أميراً ، وجده راشد أميراً أيضاً ؛ وحارب ملوكُ بنى عبد الواد بنى راشد هؤلاء
وصالحوهم ؛ وكانت العلاقات بينهم لا تحسن إلا لتسوء من جديد . فثورة حمزة هذه ليست
جديدة على هذا البيت . انظر العبر ١٣٣/٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ .
(٣) تقدمت كلمة عن « شلف » فى ص ٢٩ .
(٤) يريد بلاد مغراوة ، ويأتى قوله الصريح فى هذا ، وانظر العبر ٣٣٠/٧ .
(٥) هو عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة . انظر العبر ٣٣٠/٧ .
(٦) قد فصل ابن خلدون الحديث عن مفر ابن الخطيب ، وقدومه إلى تلمسان ، وبيّن
الدواعى السياسية التى دفعته إلى الفرار فى العبر ٣٣٢/٨ — ٣٣٦ ، ٣٤١/٧ — ٣٤٢ .
(٧) يريد جبل طارق . وقد تقدم فى ص ٨٢ ، ويسمى جبل الفتح ؛ سماه بذلك
عبد المؤمن بن على عاهل الدولة الموحدية — حين نزل به قاصداً بلاد الأندلس للجهاد . انظر
المعجب للمراكشى ص ١٣٧ وسير النبلاء للذهبى نسخة أحمد الثالث ١٠/١٩١٠ ا : ورقة
٢٠٠ ظ ، فى ترجمة عبد المؤمن .
(٨) فرضة البحر (بالضم) : محط السفن .

دَخَل إلى الجَبَل ، و بيَده عَهْد السُّلطان عبد العزيز إلى القائد هنالك بقَبوله ، وأجاز البَحْر من حِينِه إلى سَبْتَة ، وسَار إلى السُّلطان بتِلِمْسان ، وقَدِم عَلَيْهما فى يَوْمٍ مشهود ، وتلَقَّاه السُّلطان من الحظوة والتقريب و إدرار النِّعَم بما لا يُعْهَدُ مثلُه . وكتَبَ إلىَّ من تِلِمْسان يُعَرِّفنى بخَبَره ، وَيُلِمُّ ببَعْض العِتاب على ما بَلَغَه من حديثى الأول بالأَنْدَلس ، ولم يَحضُرنى الآن كِتابُه ، فكان جوابى عَنه ما نَصُّه :

الحمد لله ولا قوة إلا بالله ولا رَادَّ لما قَضَاه الله .

يا سَيدى ونِعْمَ الذُّخْر لأَبَدِى ، والعُرْوَةُ الوُثْقَى التى اعْتَلَقَتْها يَدِى[(١)] ، أُسَلِّمُ عليكم سلامَ القُدوم ، على المَخْدُوم ، والخُضوع ، للمَلِك المَتْبُوع ، لاَ . بل أُحَيِّيكم تَحِيَّةَ المَشُوق ، لِلمَعْشُوق ، والمُدْلج[(٢)] ، للصَّبَاح المَتبلِّج[(٣)] ، وأُقرِّر ما أنتُم أعلَم بصحيح عَقْدى فيه من حُبِّى لَكُم ، ومعرفتى بمِقْداركم ، وذهابى إلى أبعد الغايات فى تَعظيمكم ، والثَّناءِ عليكم ، والإشادة فى الآفاق بمَناقِبكم ، دَيْدَناً[(٤)] معروفا ، وسَجِيةً[(٥)] راسخة ، يعلم الله وكَفَى به شهيداً ؛ وبهذا كما فى علمكم قَسَماً[(٦)] ما اختلف لِى فيه أولٌ وآخر ، ولا شاهدٌ ولا غائب ، وأنتم أعلم

---

[٣] ش : « وإدرار النعيم » [٨] ط ش : « الذخر الأبدى » [١٣] ش : « دينا معروفا » ش طب : « وكفى بالله شهيداً » ، ط : « وهذا كما فى » تحريف [١٤] ش : « ما اختلف أول وآخر » .

---

(١) اعتلق الشىء ، وبه : أحبه ؛ كتعلقه ، وتعلق به .

(٢) أدلج : سار الليل كله ، أو جزءاً منه .

(٣) تبلج الصبح : أسفر وأضاء .

(٤) الديدن : العادة .

(٥) السجية : الخلق .

(٦) الكلام على معنى : « وبهذا ، كما فى علمكم ، أقسم قسما الخ » .

عما فى نفسى ، وأكبرُ شهادة[1] فى خفايا ضميرى ؛ ولو كنتُ ذاك ، فقد سلف من حقوقكم ، وجميل أخذكم ، واجتلاب الحظّ — لو هيّأه القدَر — بمساعيكم ، وإيثارى بالمكان من سلطانكم ، ودولتكم ، ما يستلين معاطفَ القلوب ، ويستل[2] سخائم الهواجس[3] ، فأنا أحاشيكم من استشمار نَبْوة[4] ، أو إحقاق ظنّ[5] ؛ ولو تعلّق بقلب ساق حُرّ ذَرْءٌ وذَرْءٌ[6] ، لحاشَ لله أن يقدح فى الخُلوص[7] لكم ، أو يرجِح سوابقكم[8] ، إنما هو خبيثةُ الفؤاد إلى الحَشْر أو اللقاء . ووالله وجميع ما يُقسَم به ، ما اطّلعَ على مُستكِنّه مِنّى غيرُ صديقى وصديقكم المُلابس — كان — لى ولكم الحكيم الفاضل العَلَم أبى عبد الله الشُّقُورى أعزّه الله . نفثةُ مَصدور ، ومَباثَةُ[9] خُلوص ، إذ أنا أعلم النّاس بمكانه منكم ، وقد علم

[١] ش : « وأكثر شهادة » تحريف [٤] الظاهرى وأصل أيا صوفية : « إخفاق ظن » [٥] ، ش : « أو تعلق » تحريف ، ط : « ولو تعلق معلق ساق حر » [٦] ش : « يرجع سوء أبكم » تحريف ، ط ش : « إنما هى خبيثة الفؤاد » ، ط : « الحشر واللقاء »

(١) الشهادة : المحضور ؛ وليس يبعد أن يكون أصل الكلام : « وأكبر شهادة عما فى خفايا ضميرى » ، فسقطت كلمة « عما » من الأصول .

(٢) استلال الشىء : ألانه . (أساس) . ومعاطف القلوب : مثانيها ؛ ومن كلامهم : « رزقك الله عيشا تلين لك مثانيه ومعاطفه » . يريد : أسديت إلى من خيرك ما من شأنه أن يصل إلى أعماق القلوب . (وانظر اللسان (ثنى)) .

(٣) السخائم : الضغائن ، والموجدة فى النفس . والهواجس الخواطر .

(٤) أحاشيكم : أنزهكم . واستشمار النبوة : إضمارها . والنبوة : الجفوة .

(٥) يقول : إنى أجلكم أن تصدقوا فىّ الظنون ، فتحولوها إلى يقين ثابت وحقيقة واقعة .

(٦) ساق حر : ذكر القمارى ، ومن خلقه الوفاء . وبلغنى ذرء من خبر : قليل منه . وأرجو أن يكون المعنى : إن وفائى لك بحيث لا تلحقه الريبة ، ولو جاز أن يتعلق بقلب ساق حر ، وقد سار المثل بوفائه ، قليل جداً من عدم الوفاء ، فمعاذ الله أن يتعلّق بقلبى هذا القليل فيقدحَ فى حفظى لعهد الأخوة .

(٧) خلص الشىء خلوصا : صار خالصا ، ويستعمله ابن خلدون بمعنى الإخلاص .

(٨) جمع سابقة ؛ وهى ما تسبق الناسَ إليه . يريد : أياديكم التى أسديتموها لى .

(٩) المباثة : مصدر ميمى بمعنى البث ؛ وهو أن تظهر لغيرك ما عندك من سر .

ما كان منّى حين مفارقة صاحب تِلِمْسان ، واضمحلال أمره ، من إجماع الأمر على الرِّحلة إليكم ، والخفوف(١) إلى حاضرة البحر للإجازة إلى عُدْوَتِكم ، [٣٨ب] تعرَّضتُ فيها للتُّهَم ، ووقفتُ بمجال الظنون ، حتَّى تورَّطتُ فى الهَلَكة بما ارتفع عنّى مما لم آتِه ، ولا طويتُ العَقْد عليه ، لولا حِلمُ مولانا الخليفة ، وحُسنُ رأيه فىَّ

٥ وثبات بَصيرته ، لكنت فى الهالكين الأولين ؛ كلُّ ذلك شوقاً إلى لقائكم ، وتعلُّلاً لانسكم ؛ فلا تَظُنُّوا بىَ الظُّنون ، ولا تُصَدِّقوا فى التَّوَهُّمات ، فأنا مَن علمتم صداقةً ، وسَذاجةً ، وخلوصاً ، واتِّفاقَ ظاهرٍ وباطنٍ ، أثبتُ الناس عهدا ، وأحفظُهم ، غيبا وأعرفُهم بوزن الإخوان وَمَزَايا الفُضَلاء ؛ ولأمرٍ مَّا تأخَّر كتابى من تِلِمْسان فأنّى كنت أستَشْعِر ممّن استضافَنى رَيْباً بخطاب سواه ، خصوصا

١٠ جهتَكم ، لقديم ما بينَ الدَّولتَين من الاتحاد والمظاهرة واتصال اليد ، مع أن الرَّسول تردَّد إلىَّ ، وأعلمنى اهتمامَكم واهتمامَ السُّلطان ، تولاه الله ، باستكشاف ما انبهَم(٢) من حالى ؛ فلم أترك شيئاً مما أعلم تشوُّفكم إليه إلا وكشفتُ له قناعه ، وأمَّنته على بَلاغه(٣) ؛ ولم أزَل بعدَ انتياش(٤) مولانا الخليفة لِدَمائى ، وجَذْبه بضَبْعَىَّ(٥) سابحاً فى تَيار الشواغل كما علمتم القاطعةِ حتَّى عن الفِكر .

---

[٣] ش : « فى الهلكة وحسن رأيه فىّ الخ » [١٣] ط : « على إبلاغه » ، ط : « انتياش المولى الخليفة لدمائى » [١٤] ط « كما علمت » .

---

(١) الخفوف : سرعة السير .

(٢) فى الأصلين : « أبهم » ، وكتب بخطه فى حاشية أصل أيا صوفية : « انبهم » ، ووضع عليها علامتى البدلية والصحة : « ب » و « صح » .

وقد تبع النحاة فى استعمال « انبهم » ؛ ولم يسمع من العرب . والصواب استبهم . وانظر تاج العروس (بهم) .

(٣) البلاغ : الإبلاغ ؛ وفى القرآن : « فهل على الرسل إلا البلاغ المبين »

(٤) الانتياش : الإنقاذ من الهلكة .

(٥) الضبع : العضد ؛ وأخذ بضَبْعَيه : أى بعضده .

وسَقطَت إليّ بمحل خدمتى من هذه القاصية أخبارُ خلوصكم[١] إلى المغرب ، قبل وصول راجِلى[٢] إلى الحضرة ، غيرَ جلية ولا ملتئمة ، ولم يتعيَّن مُلقى العَصَا ولا مستقَرّ النَّوَى[٣] ، فأرجَيْت[٤] الخطابَ إلى استِجْلائها ؛ وأفدتُ[٥] فى كتابكم العزيز علىّ ، الجارى على سَنَن الفضل ، ومذهب المجد ، غريبَ ما كيَّفه القَدَر من تنويع الحال لديكم ؛ وعجبتُ من تَأتِّى[٦] أملكم الشارد فيه كما كُنَّا ٥ نستبعده عندَ المفاوضة ؛ فحمدت الله لكم على الخلاص من وَرْطة الدُّوَل على أحسَن الوجوه ، وأجْمل المَخَارج الحميدة العواقب فى الدنيا والدين ، العائدة بحسن المآل ؛ فى المُخَلَّف : من أهل ، ووَلد ، ومَتاع ، وأثر ، بعد أن رُضتُم جَموح[٧] الأيام ، وتوقَّلتم قُلَل[٨] العزّ ، وقُدْتُم الدنيا بحذَافِيرها[٩] ، وأخذتم بآفاق السماء على أهلها ؛ وهنيئاً فقد نالت نفسُكم التوّاقة أبعدَ أمانيها ، ثم تاقَت إلى ١٠ ما عند الله ؛ وأشهَد لَمَا[١٠] أُلهِمتُم للاعْراض عن الدنيا ونَزْع اليد من حُطامها

---

[١] كرر الناسخ فى الأصل كلة « بمحل » فى أصل أيا صوفية [٢] ط ش : « راحلتى إلى » تحريف [٣] ش : « إلى الله لاستجلائها » تحريف [٤] ط : « ومذهب المجد ما كيفه » [٥] ط : « من بديع الحال » ، ش : « من تأتى أملكم الشارد» ولعله تحريف .

---

(١) خلص إليه : وصل إليه .
(٢) الراجل : خلاف الفارس ؛ وهو من ليس له ظهر يركبه فى سفره .
(٣) مستقر النوى : مكان الإقامة ؛ يقال : استقرت نواهم : أى أقاموا .
(٤) أرجيت ، وأرجأت : أخرت . يهمز ولا يهمز .
(٥) أفدت : استفدت .
(٦) تأتى الأمر : تهيأ ؛ والتأتى التهيؤ .
(٧) راض الدابّة : ذللها . وفرس جموح : عادته أن يركب رأسه فلا يثنيه راكبه . يريد ذللتم الأيام التى لا تسير وفق رغبات الناس ، وجعلتموها تسير حسب رغبتكم .
(٨) توقل فى الجبل : صعد فيه ؛ وقلة كل شىء : أعلاه .
(٩) بحذافيرها : بأسرها .
(١٠) أدخل ابن خلدون لام الابتداء على « ما » النافية ؛ وهو استعمال شاذ . وقد ورد هذا الاستعمال فى قول الشاعر .

لما أغفلتُ شكرك فاصطنعنى فكيف ومن عطائك جُلّ مالى =

عندَ الإصْحاب[١] والإقبال، ونُهَى[٢] الأمال، إلا جَذباً وعنايةً من الله، وحُبًّا؛ وإذا أراد الله أمراً يسّر أسبابَه.

واتّصَل بي ما كان من تَحَفِّي[٣] المَثَابة[٤] المولوية بكم، واهتزازِ الدولة لقُدومكم؛ ومثلُ تلك الخِلافة، أيّدها الله، مَن يُثابر على المَفاخر، ويستأثر [١٣٩] بالأخاير؛ وليتَ ذلك عندَ إقبالكم على الحظّ، وأُنسِكم باجتلاب الآمال، حتى ٥ يَحسُنَ المَتاع بكم، ويَتجمَّلَ السَّريرُ الملوكي بمكانكم؛ فالظنُّ أنّ هذا الباعث الذي هزَم الآمال، ونَبَذ الحظوظ، وهوّن المُفارَقَ العزيز، يَسومكم الفِرار إلى الله، حتى يأخذَ بيدكم إلى فَضاء المُجاهَدَة[٥]، ويستَوِيَ بكم على جُودِيِّ[٦] الرياضة[٧]، والله يهدي للتي هي أقوم. وكأنّي بالأقدام[٨] نقلَت،

[٣] ش: «من تحفي المثابة». تحريف [٤] ط: «ومثل هذه الخلافة» [٨] ش ط: «إلى فضاء المجاهدة» ولعله تحريف [٩] في الأصل ط ش: «وكان بالأقدام».

= وفتوى النحاة في ذلك: أن «ما» النافية، أشبهت «ما» التي بمعنى الذي، فجاز أن تدخل عليها لام الابتداء. وانظر شرح الرضي على الكافية ٢/٣٥٦، والخزانة ٤/٣٣١.

(١) الإصحاب: الانقياد من بعد صعوبة. يعني: أعرضت عن الدنيا عند انقيادها لك وإقبالها عليك.

(٢) جمع نهية؛ وهي غاية الشيء.

(٣) التحفي، والاحتفاء: المبالغة في الإكرام.

(٤) المثابة: الموضع يُثاب، أي يرجع إليه مرة بعد أخرى. وفي القرآن: «وإذ جعلنا البيت مثابة للناس».

(٥) الفضاء: المستوي من الأرض المتسع. والمجاهدة: أن تحمل النفس على المشاق البدنية، ومخالفة الهوى. وانظر رسالة القشيري ص ٥٦ وتعريفات ابن العربي ص ٥.

(٦) الجوديّ: جبل مطل على جزيرة ابن عمر؛ وفي قول ابن خلدون هذا: إشارة إلى ما يقال عند قول الله تعالى: «واستوت على الجوديّ» من رسو سفينة نوح عليه السلام على جبل الجودي عند الطوفان. وانظر معجم البلدان ٣/١٦٢، الدر المنثور للسيوطي ٣/٣٣٥، تفسير الألوسي ٣/٥٧٠.

(٧) الرياضة: تهذيب الأخلاق النفسية.

(٨) جمع قدم، وهي السابقة التي تثبت للعبد في علم الحق. ويكنى عنها بالقدم، لأن القدم آخر شيء في الصورة، وهذه السابقة آخر مايقرب به العبد من الحق. وانظر القاشاني: «اصطلاحات الصوفية» ٧٧-١. نسخة الأزهر، تعريفات الجرجاني ص ١١٥.

والبَصائرُ[1] بإلهامِ الحقِّ صُقِلَت ، والمَقاماتِ[2] خَلَفَت بعد أن استُقبِلَت[3] ، والعِرفان شِيمَت أنوارُه و بَوارِقُه ، والوصُـول انكشَفَت حقائقُه لَمّا ارتفعَت عوائقُه .
وأما حالى ، والظنُّ بكم الاهتمامُ بها ، والبحثُ عنها ، فغيرُ خَفية بالباب المَولوى — أعلاه الله — ومَظهَرُها فى طاعته ، ومَصْدَرُها عن أمره ، وتصاريفُها فى خِدمته ،
والزَّعمُ أنى قُمتُ المقامَ المحمودَ فى التَّشَيع ، والانحياش[4] ، واستمالة الكافّة ، إلى ٥
المُناصَحة ، ومُخالطة القلوب للولاية ؛ وما يتشوّفه مَجْدُكم ويتطلّع إليه فضلكم وَاهتمامكم ، من خاصيّتها فى النَّفس والوَلَد ، فجُهَينَةُ خَبَرِه[5] مُؤَدِّى كتابى إليكم ، ناشئُ تأديبى ، وثَمَرةُ تربيتى ؛ فسَهِّلوا له الإذْن ، وأَلِينُوا له جانبَ النَّجْوَى[6] ، حتى يُؤَدِّىَ ماعِندى وما عندكم ، وخُذُوه بأعقاب الأحاديث أن يَقفَ عند مبادئها ، وائتَمِنُوه على ما تُحدِّثون ، فليس بظَنِين[7] على السِّرّ . ١٠

---

[٧] ط ش : « من خاصيتها » تحريف [٨ ، ٩] ش : « وألينوا له النجوى »
[٩] ط ش : « يؤدى ماعندكم وما عندى » [١٠] ط ش : « فليس بضنين » .

---

(١) جمع بصيرة ؛ وهى قوة للقلب المنوَّر بنور القدس ، يرى بها حقائق الأشياء و بواطنها ؛ وهى للقلب بمنزلة البصر للنفس . انظر تعريفات الجرجانى ص ٣١ والقاشانى ٤٧ ظ (نسخة الأزهر) .

(٢) جمع مقام ؛ وهو الموضع يقيم فيه السالك مشتغلا بالرياضة استعدادا لتخطيه بعد استيفاء رسومه . وانظر رسالة القشيرى ص ٣٧ .

(٣) يريد : استقبلتها ، فأديت واجباتها ، وتجاوزتها فصارت خلفك ؛ ذلك لأن عزمك الصادق ، سوف ينقلك من مقام إلى مقام أعلى منه ، ويصل بك إلى الله فى الزمن القصير .

(٤) الانحياش : الانحياز .

(٥) يشير إلى المثل : « عند جهينة الخبر اليقين » . وفى مجمع الأمثال ١/٣٠٤ ، وتاج العروس : « جفن » ، « جهن » شرح واف لمعنى هذا المثل .

(٦) النجوى : ماينفرد به الجماعة ، والاثنان (من حديث) سراً كان أو ظاهرا .

(٧) رجل ظنين : متهم . وهو ينظر إلى قول الله تعالى : «وما هو على الغيب بظنين» (آية ٢٤ من سورة التكوير) ، فى قراءة أبى عمرو بن العلاء ، والكسائى ، وابن كثير . وانظر شرح الشاطبية لابن القاصح ص ٢٩٥ .

وتَشوُّفى لما يَرجع به إليكم سَيدى وصَديقى وصَديقكم المُغْرب فى المَجد والفَضْل ، المُسامِ فى الشّدائد ، كبيرِ المَغْرب ، وظهيرِ الدّولة ، أبو يحيَى بن أبى مَدْيَن [1] — كان الله له — فى شأن الوَلَد والخلَف ، تَشَوُّفُ الصَّديق لكم ، الضَّنِين [2] على الأيام بقُلامَة الظُّفر من ذات يدكم ، فأطْلعونى طِلْعَ ذلك [3] ولا يَهُمُّكم ؛

٥ فالفِراق الواقع حسَن ، والسلطان كبير ، والأثرُ جميل ، والعدوُّ السَّاعى قليل وحَقير ، والنِّية صالحة ، والعَمَل خالص ؛ ومن كان لله كان الله له .

واستطلاعُ الرياسة المَرِّينيَّة الكافلة — كافأ الله يدها البيضاء — عنى وعنكم إلى مِثله من أحوالكم استطلاعُ من يَستَرجحُ وِزانَكم ، ويشكُر الزمانَ على وِلادِه [4] لمثلكم .

١٠ وقد قررتُ لعلُومه من مناقبكم ، وبُعد شأوكم ، وغريب مَنْحاكم ، ما شهدَت به آثاركم الشائعة ، الخالدة فى الرسائل المُتأدِّية ، وعلى ألسِنَة الصادر والوارد من الكافّة ؛ مِن حَمل الدّولة ، واستقامة السياسة ؛ ووَقَفْتُه على سَلامكم ، وهو يُراجِعكم بالتَّحية ، ويساهمكم / بالدُّعاء . [٣٩ب]

وسَلامى على سيدى ، وفَلْذَةِ كَبِدى [5] ، ومحَلّ ولَدى ، الفقيه الزّكى

١٥ الصَّدر أبى الحسَن نَجلِكم ، أعزَّه الله ؛ وقد وقَع منّى مَوقعَ البُشْرَى حلوله من

[١ ، ٢] ش : «إليكم سيدى وظهير الدولة أبو يحي» [٤] ط : «فأطلعوه طلع ذلك» [٦] ط : «ومن كان له كان» تحريف [٧] ش : «الزنية الكاملة» [٩] ط : «على ولاه بمثلكم» [١٠] ط : «قررت لعلوه» ، ط : «مِنحاكم ما أشهدتُ به» [١١] ط : «المتأدية على ألسنة» .

(١) هو أبو يحي بن أبى مدين ، كاتب السلطان عبد العزيز المرينى . سفَر عنه لإحضار أولاد ابن الخطيب من الأندلس إلى المغرب . وانظر العبر ٧/٣٣٥ .

(٢) الضنين : البخيل .

(٣) يقال : أطلعته طلعى ؛ أى أبثثته سرى .

(٤) الولاد ، بالكسر : الولادة .

(٥) قطعة كبدى .

الدّولة بالمكان العزيز ، والرُّتبة النّابهة ، والله يُلحِفكم جميعاً رِداء العافية والستر ويُمهّد لكم محلّ الغِبْطة والأمْن ، ويَحفظُ عليكم ما أسبغ من نعمته ، ويُجريكم على عَوائد لُطفه وعنايته ؛ والسلام الكريم يخصّكم من المحبّ الشاكر الدّاعى الشائق شيعةِ فَضْلكم : عبد الرحمن بن خَلدُون ، ورحمةُ الله وبركاته فى يوم الفطر عامَ اثنَيْن وسبعين وسبع مائة .   ٥

وكان بعَث إلىّ مع كتابه نسخةَ كتابه إلى سُلطانه ابن الأحمر صاحب الأندلس ، عند ما دخَلَ جَبَل الفتح ، وصار إلى إيالة[١] بَنِى مَرِين ، فخاطبه من هنالك بهذا الكتاب ، فرأيتُ أن أُثبِتَه هُنا وإن لم يَكن من غَرض التأليف لغرابته ، ونهايته فى الجودة ، وأن مِثلَه لا يُهمَل من مثل هذا الكتاب ، مع ما فيه من زيادة الاطّلاع على أخبار الدُّوَل فى تفاصيل أحوالها . ونصُّ الكتاب :   ١٠

هَذِى رِكابُ[٢] السُّرَى بِلاَ شَكٍّ ... بانُوا فَمَن كانَ باكيا يَبْكِى
إلى بطون الرُّبى[٤] إلى الفُلْكِ ... فمِن ظُهور الرِّكاب[٣] مُعمَلةً
إلى صُبوبٍ[٥] جَواهرُ السِّلْكِ ... تصدَّع الشَّمْلُ مثلَما انحدَرَتْ
هَذِى النَّوَى جَلَّ مالِكُ المُلْكِ ... مِنَ النَّوَى[٦] قبلُ لم أزَلْ حَذِرا

---

[٢] ش : « من نعمه » [٧] ش : « بنى مرين يخاطبه » .

---

(١) الإيالة ، بكسر الهمزة : الولاية ؛ يقال : آل على القوم أولا ، وإيالا ، وإيالة بمعنى ولى عليهم . وانظر تفصيل خبر انتقاله إلى المغرب فى العبر ٧/٣٣٥ .

(٢) الركاب ، بكسر الراء : جمع راكب ؛ والسرى ، كهدى : سير عامة الليل .

(٣) الركاب ، ككتاب : الإبل التى تحمل القوم ، واحدتها راحلة ، ولا واحد لها من لفظها .

(٤) جمع ربوة ؛ وهى ما ارتفع من الأرض .

(٥) الصبوب ، بالضم : الموضع المنحدر ، كالصبب ؛ وبه فسر وصف النبى صلى الله عليه وسلم : « كأنما ينحط من صبب » .

(٦) النوى ، مؤنثة : الوجه الذى ينتويه المسافر من قرب أو بعد .

مولاى . كان الله لكم وتولَّى أمركم . أُسلِّم عليكم سلامَ الوداع ، وأدعو الله في تيسير اللِّقاء والاجتماع ، من بعد التفرُّق والانصداع ؛ وأقرِّر لديكم أن الإنسان أَسير الأَقدار ، مسلوب الاختيار ، متقلِّب في حُكْم الخواطر والأفكار ، وأن لا بد لكل أول من آخِر ، وأن التفرق لمَّا لزم كلَّ اثنين بِموتٍ أو في حياة ، ولم يكن منه بُدّ ، كان خيرُ أنواعه الواقعةِ بينَ الأحباب ، ما وقَع على الوُجوه الجميلة ٥ البَريئة من الشُّرور .

ويعلَم مولاى حالَ عيده مُنذُ وَصَل إليكم من المغرب بِوَلَدِكم[1] ، ومُقامُه لديكم بحالِ قَلَقٍ وقُلَعَة[2] ، لولا تعليلكم ، ووعدكم ، وارتقاب اللَّطائف في تقليب قلبكم ، وقطع مراحل الأيام حريصاً على استكمال سِنِّكم ، ونهوض ولدكم ١٠ واضطلاعكم بأمركم ، وتمكُّن هُدنة وطنكم ، وما تحمَّل في ذلك من ترك غَرَضه لغَرَضكم ، وما استقرّ بيده من عُهودكم ؛ وأن العبد الآن لما تسبَّب لكم في الهُدْنة من بعد الظُّهور ، والعز / ، ونُجْح السَّعْى ، وتأتّى لسنين كثيرة الصُّلحُ ، [٤٠ ا] ومن بعد أن لم يبقَ لكم بالأندلس مُشغِّب من القرابة ، وتحرّك لمطالعة الثغور الغربية ، وقرُب من فُرْضة المَجاز[3] ، واتصالِ الأرض ببلاد المشرق ، طرقته

[٢] في الأصل : « وأقدر لديكم » ، ط : « وأقر لديكم » تحريف ؛ والمثبت عن : طب والظاهرى [٤] ط : « بموت أو حياة » [٧] ش : « حالى عنده منذ » ، طب : « إليكم من المغرب » [١٠] ش : « وما يحمّل في ذلك » .

(١) حين خُلع ابن الأحمر ، انتقل بأهله وولده إلى السلطان أبى سالم المرينى بالمغرب ، يستغيث به لإرجاع ملكه ، وكان بصحبته ابن الخطيب ؛ وقد أكرم نزلهم الملك المرينى . وحين عاد لابن الأحمر ملكه ، ذهب إلى الأندلس ، وترك أهله وولده في ضيافة بنى مرين ، وبعد استقراره بدار ملكه ، لحق به ابن الخطيب ومعه ولده . إلى هذا يشير في هذه الرسالة . وانظر العبر ٧/٣٠٦ ، ٣٣٤ .

(٢) يقال : مكان قلعة (كهمزة) : ليس بمستوطن ، وهو على قلعة : أى رحلة .

(٣) يريد : الميناء الذى يجاز منه إلى المغرب من الأندلس ؛ وهو جبل طارق .

الأفكار ، وزعزعت صَبْرَه رياحُ الخواطر ، وتذكُّر إشراف العُمْر على التَّمام ، وعواقِبَ الاستغراق ، وسيرةَ الفُضَلاء عندَ شُمُول البَياض ؛ فغَلَبَته حال شديدة هَزَمَت التَّعَشُّق[1] بالشَّمل الجميع ، والوَطَن المليح ، والجاه الكبير ، والسلطان القليل النظير ، وعَمِل بمُقْتَضى قوله : « مُوتوا قَبل أن تَموتوا »[2] . فإن صَحَّت هذه الحال المرجوُّ من إمداد الله ، تَنقَّلت الأَقْدام إلى أمام ، وقوِيَ التَّعلق بعُرْوة الله الوُثْقَى ، وإن وقَع العجزُ ، وافتضَحَ العزْم ، فالله يعاملنا بلُطفِه . وهذا المُرتَكَب مَرامٌ صَعبٌ ، لكن سَهَّله عَلَيَّ أمور : منها أن الانصرافَ لَمّا لم يكن منه بُدّ ، لم يتعين على غير هذه الصّورة ، إذ كان عندَ كم من باب المُحال . ومنها أن مولاي لو سَمَح لي في غَرَض الانصراف ، لم تَكُن لي قُدرة على مَوقِف وَدَاعه ، لا والله ! وَلَكان الموت أسبقَ إليَّ ؛ وكفَى بهذه الوَسيلة الحُبِّية — التي يَعرفها — وَسيلة . ومنها حِرصي على أن يظهر صدقُ دَعوايَ فيما كُنت أهتِفُ به ، وأظَنُّ أني لا أُصْدَقُ . ومنها اغتنامُ المفارَقة في زَمن الأمان ، والمدنة الطَّويلة ، والاستغْناء ؛ إذ كان الإنصراف المفروض ضروريا قبيحاً في غير هذه الحال . ومنها — وهو أقوى الأعذار — أنني مَهْما لم أُطِق تَمامَ هذا الأمر ، أو ضاق ذَرعي به ، لعجزٍ ، أو مَرَضٍ ، أو خوفِ طريقٍ ، أو نَفَاد زادٍ ،

[٤ ، ٥] ط : « فأصحب الحال المرجوه » تحريف [٩] ط : « بفرض الانصراف »
[١٣] ط : « والاستثناء إذا كان » .

---

(١) التعشق : اللزوم للشيء من غير مفارقة .

(٢) في « المقاصد الحسنة » للسخاوي ص ٢٠٦ ، و « التخريجات المختصرة » لأبي الحسن بن ناصر الدين (نسخة نور عثمانية رقم ٧١٧) ورقة ٨٦ ظ ، و « موضوعات » علي القاري ص ٨٧ — كلهم نقلا عن ابن حجر العسقلاني : « أنه حديث غير ثابت » ؛ وأضاف علي القاري قوله : « قلت : هو من كلام الصوفية ، والمعنى : موتوا اختياراً قبل أن تموتوا اضطراراً ؛ والمقصود بالموت الاختياري : ترك الشهوات ، وما يترتب عليها من الزلات والغفلات » .

أو شَوْقٍ غالِبٍ ، رجعتُ رجوعَ الأَبِ الشَّفيق ، إلى الوَلَد البَرِّ الرَّضى ، إذ لم أُخَلِّفْ وَرائى مانعاً من الرجوع ، من قولٍ قبيح أو فعل ؛ بَل خلَّفتُ الوَسائلَ المَرْعِية ، والآثارَ الخالدة ، والسِّيَرَ الجميلة ؛ وانصرفتُ بقَصْدٍ شريف فُقْتُ به أشياخى ، وكبارَ وطنى ، وأهلَ طَوْرِى ، وتركتُكُم على أَتَمِّ ما أرضاه ،
٥ مُثْنِياً عليكم ، داعياً لكم . وإن فَسَح الله فى الأَمَد ، وقَضَى الحاجة ، فأمَلِى العودةُ إلى وَلَدِى وتُرْبَتِى ، وإن قُطِع الأجل ، فأرجو أن أكون مِمَّن وقَع أجْره على الله[1] .

فإن كان تَصَرُّفِى صوابا ، وجارياً على السَّداد ، فلا يُلَام مَن أصاب ، وإن كان عَن حمق ، وفساد عقل ، فلا يُلَام من اختَـلَّ عقلُه ، وفَسَد مزاجُه ، بل
١٠ يُعذَر ، ويُشفَقُ عليه ، ويُرحَم ؛ وإن لم يُعْطِ مَولاىَ أمرى حقَّه من العـدل ، وجُلِيت / الذُّنوب ، وحُشِرت بعَدِى العُيوب ، فحَياؤه وتَناصُفه يُنكِر ذلك ، [٤٠ب] ويَستَحضِر الحَسَنات ؛ من التَّربية ، والتَّعليم ، وخِدمة السَّلف ، وتَخليد الآثار ، وتَسْمِية الوَلَد ، وتَلقيب السلطان ، والإرشاد للأعمال الصَّالحة ، والمُداخلة ، والمُلابَسة ؛ لم يتخلَّل ذلك قَطُّ خيانةٌ فى مالٍ ولا سِرّ ، ولا غِشٌّ فى تدبير ،
١٥ ولا تَعَلَّقَ به عار ، ولا كدَّره نقْص ، ولا حَمَل عليه خوفٌ منكم ، ولا طمعٌ فيما بيدكم ؛ فإن لم تكن هذه دواعى الرَّعْى والوُصْلة والإبقاء ، ففيم تكون بين بنى آدم .

وأنا قَد رحلت . فلا أوصيكم بمـال ، فهُو عنـدى أهونُ مَتْروك ؛ ولا بوَلَد

[٦] ط : « وأن أقطع الأجل » [١٠] ط : « العدل ، و أجليت » [١٣] ط : « والإرشاد إلى الأعمال » [١٨] طب : « وأنا قد رجعت » تصحيف .

(١) يشير إلى قول الله تعالى : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » آية ١٠٠ من سورة النساء .

فهُم رجالـكم ، وخُدّامكم ، ومِمّن يَحْرِص مثلـكُم على الاسـتكثار منهم ؛
ولا بعيَال ، فهى من مُرَبّيات بيتكُم ، وخواصٍّ داركم ؛ إنما أوصيكم بحظّى العزيز
— كان — علىّ بوطَنِكم ، وَهُو أنتم ؛ فأنا أوصيكم بكُم ، فارْعَونى فيكم خاصّة ،
أوصيكم بتَقْوى الله ، والعَمَل لغَد ، وقبض عِنان اللّهو فى مَوطِنِ الجِدّ ، والحياء
من الله الذى مَحّصَ وأقال ، وأعادَ النِّعمة بعد زوالها[1] «لينظر كيف تعملون»[2] . ٥
وأطلب منـكم عِوضَ ما وفّرتُه عليكم ، من زاد طريق ، ومُكافأة ، وإعانَة ،
زَاداً سَهْلاً عليكم ، وهو أن تَقُولُوا لى : غَفَر الله لكَ ماضَيّعتَ من حَقّى خطأً
أو عمدا ؛ وَإذا فعلتُم ذلكَ فقَد رَضِيت .

واعلَمُوا أيضاً على جهة النّصيحة أن ابنَ الخطيب مشهور فى كل قُطْر ، وعند
كُلّ مَلِك ؛ واعتِقادُه ، وبِرُّه ، والسؤالُ عنه ، وذِكرُهُ بالجميل ، والإذنُ فى ١٠
زيارته ، نَجابةٌ منكم ، وسَعَةُ ذَرْع[3] ودَهاء ، فإنّما كان ابنُ الخطيب بوطنكم
سَحَابةَ رحمةٍ نَزَلت ، ثم أقشَعت[4] ، وترَكت الأزاهر تفوح ، والمحاسنَ
تَلوح ؛ ومِثاله مَعَـكم مثالُ المُرضِعَةِ أرضَعت السياسةَ ، والتّدبيرَ المَيْمُون ، ثم
رقدَتكم فى مَهد الصّلح والأمان ، وغطّتكم بقِناع العافية ، وانصرفَت إلى الحمّام
تَغسِل اللّبنَ والوَضَر ، وتَعُود ؛ فإن وجَدت الرّضيع نائماً فحَسَن ، أو قد انتبَه ١٥

---

[١] طب : « رجالـكم وخَـدَمكم » ، ط : « يحضّ مثلـكم » [٤] فى الأصلين : « فى وطن الجدّ » ؛ والمثبت عن ط .

---

(١) يشير إلى حادثة خلع ابن الأحمر عن ملـكه ، والتجائه إلى بنى مرين بالمغرب لإعادة ملـكه إليه . والحديث فى ذلك مفصل فى العبر ٣٠٦/٧ — ٣٠٩ ، ٣٣٤/٣٣٣ .
(٢) اقتباس من الآية ١٢٩ من سورة الأعراف .
(٣) يقال : رجل واسع الذّرع ، والذراع : أى متسع الخلق .
(٤) أقشع السحاب : تفرق وأقلع .

فلم نتركه إلّا فى حدّ الفِطام . ونَختِمُ لكم هذه الفَزارة(١) بالحَلِف الأكيد : إنى ما تركتُ لكم وجهَ نصيحةٍ فى دينٍ، ولا فى دُنيا، إلّا وقد وفَّيتها لكم، ولا فارقتُكم إلاّ عن عَجْز؛ ومن ظنّ خِلاف هذا فقد ظلَمَنى وظلمكم؛ والله يرشدكم ويتولّى أمرَكم. ونَقول : خاطِركم فى ركوب البحر .

٥ انتهت نُسخة الكتاب، وفى طَيّها هذه الأبيات :

صَاب(٢) مُزْنُ(٣) الدُّموع من جَفْن صَبِّكْ(٤)
عندما استرْوَح(٥) الصبَا مِن مَهَبِّكْ / [١٤١]

كَيفَ يَسْلُو ياجَنَّتِى عَنكَ قَلْبٌ كانَ قَبلَ الوُجُودِ جُنَّ بِحُبِّكْ
ثُم قُل كَيف كان بعدَ انتشاء الرُّوح(٦) من أُنسِك الشَّهىِّ وقُرْبكْ
١٠ لم يَدَع بيتَكَ المَنِيعَ حِمَاهُ لِسِواهُ إلاَّ إلى بَيْتِ رَبِّكْ
أَوْلِ عُذرِى الرِّضا فَما جِئتُ بِدْعًا دُمتَ والفَضلُ والرِّضَا من دَأْبِكْ
وإذَا ما ادَّعيتَ كَرْبًا لفَقْدِى أينَ كَرْبِى ووَحْشَتِى من كَرْبِكْ
وَلَدِى فى ذَرَاكَ(٧) وَكْرِى(٨) فِى دَوْحِكَ(٩) لَحْدِى وتُربَتِى فى تُرْبِكْ
يَازماناً أغرَى الفِراقَ بِشَمْلِى لَيتَنِى أُهْبَتِى أخَذتُ(١٠) لحرْبِكْ

---

[١] طب : « العرارة بالحلف » [١٢] فى أصل أيا صوفية : « دراك » بالدال المهملة.

---

(١) الفزارة : الكثرة من كل شىء؛ ويريد هنا : الكثرة من الكلام ليس تحتها طائل . و « العرارة » ، بالعين المهملة : سوء الخلق .
(٢) صاب المطر، يصوب : نزل .
(٣) المزن : السحاب .
(٤) الصب : العاشق .
(٥) استروح : اشتمّ .
(٦) انتشاء الروح : سكر الروح، من انتشى بمعنى سكر .
(٧) فى ذراك : فى كنفك .
(٨) وكر الطائر : عشه .
(٩) جمع دوحة؛ وهى الشجرة العظيمة .
(١٠) أخذ أهبته : أعد عدته .

أركَبَتْنى صُروفُكَ الصَّعْبَ[١] حَتَّى جِئْتَ بِالبَيْنِ وَهُو أصعَبُ صَعْبِكْ

وكَتب آخِرَ النُّسخة يُخاطِبنى :

هَذا ما تيسَّر ، والله ولىُّ الخِيرَة لِى ولَـكم من هذا الخُبَاط[٢] الذى لا نِسْبَةَ بينَهُ وبيْن أُولِى الـكَمال . رَدَّنا الله إليه ، وأخلَصَ توكُّلنا عليه ، وصَرف الرَّغبة إلى مَا لَدَيْه . ٥

وفى طَيِّ النُّسخة مُدْرَجةٌ نَصُّها :

رضىَ الله عن سيادتكم . أونِسُكم بما صَدَر منِّى أثناء هذا الواقع ممَّا استحضَرَه الوَلَد فى الوقْت ؛ وهو يُسَلِّم عليكم بما يَجِبُ لَـكُمْ ؛ وقد حَصل من حُظْوة هـذا المقام الـكريم على حَظٍّ وافِر ، وأُجْزِل إحسَانُه ، وُنُوِّهَ بجرايتِه ، وأُثْبِتَ الفُرسَانُ خَلفَه . والحَمدُ لله انتهى . ١٠

ثم اتَّصل مُقَامى ببِسْـكَرَة ، والمغربُ الأوسط مُضْطَرِب بالفتنة المانعة من الاتِّصال بالسلطان عبد العزيز ، وحَمزةُ بن علىٍّ بن راشد ببلاد مَغْرَاوة ، والوزيرُ عُمَر بن مَسْعود فى العَساكر يُحاصِره بحصن تاجَحْمُومتْ ، وأبو زَيَّان العَبْد الوَادِى ببلاد حُصَيْن ، وهم مُشْتَمِلون عَلَيْه وقائمون بدَعْوته .

ثم سَخِط السلطانُ وزيرَه عُمَر بن مَسْعود ، ونَـكِر منه تَقصيرَه فى أمْر ١٥ حَمزةَ وأصحابِه ، فاستَدْعاهُ إلى تِلِمْسان ، وقَبَضَ عليْه ، وبعثَ به إلى فاسَ مُعْتَقَلا ، فحُبِسَ هناك ؛ وجهَّز العساكرَ مع الوزير أبى بَـكْر بن غازى ، فنَهضَ إليه ، وَحاصره ؛ ففَرَّ من الحِصْن ، ولحِقَ بمَلْيانَةَ مجتازاً عليها ، فأنذر به عامِلُها

[٣] طب : « الخيرة ولى ولكم » . تحريف [٨] طب : « وهو ليُسلم عيكم » [١٥] ط : « وزيره مسعود بن عمر » .

(١) ركب الصعب والذلول : الأمر الشديد والسهل .

(٢) الخباط ، كغراب : داء مثل الجنون .

فتقبّض عليه ، وسيق إلى الوزير فى جماعة من أصحابه ، فضَرَب أعناقهم ، وصلّبهم عِظَةً ومُزْدَجَرًا لأهل الفتْنة .

ثم أوعَز السلطان إلى الوزير بالمسير إلى حُصَين ، وأبى زيَّان ، فسَار فى العَسْكَر ، واسْتَنفر أحياء العرَب من زُغْبةَ فأوعَبَهم ، ونَهضَ إلى حُصَيْن ، فامتَنَعوا بجَبَل تِيطَرى ، ونَزَل الوزيرُ بعساكره ومَن معَه من أحياء زُغْبة على ٥

الجبل تِيطَرى من جهة التل ، فأخَذ بِخَنَقِهم ، وكاتَبَ السلطانُ / أشياخ الدَّواودَة [٤١ب]

من رياح بالمَسير إلى حِصار تِيطَرى من جهة القِبْلة ، وكاتَبَ أحمد بن مَزْنى

صاحبَ بَسْكَرة بإمدادهم بأعْطِياتهم ، وكتب إلىَّ يأمُرنى بالمَسير بهم لذلك ،

فاجتَمَعُوا علىَّ ، وسِرتُ بهم أولَ سنة أربع وسبعين ، حتى نَزلنا بالقَطْفَة[1] ،

ووفَدتُ ، فى جماعة منهم ، على الوزير بمكانه من حِصار تِيطَرى ، فحَدَّ لهم حدودَ ١٠

الخدمة ، وشارطَهم على الجَزَاء ؛ ورجَعْنا إلى أحيائهم بالقَطْفَة ، فاشتَدُّوا فى

حِصار الجَبل ، وألحَئوهم بسوامِهم[2] وظَهْرِهم[3] إلى قُنّته ، فَهلكَ لهم الخُفُّ

والحافر[4] ، وضاق ذَرعهم[5] بالحِصار من كل جانب ؛ ورَاسَل بَعْضُهم فى

الطاعة خُفْية ، فارتاب بعضُهم من بعض ، فانفَضُّوا ليلاً من الجَبل ، وأبُو زيَّان

---

[٣] طب : « ثم أمر » تحريف [٩، ١١] أصل أياصوفية : « بالقطفة » ، ط : « بالقطفا » والمثبت عن طب [١٢] ط : « فهلك بهم الخف » [١٣] أصل أيا صوفية : « وأرسل بعضهم » .

---

(١) تقع القطفة شرقى مدينة ملياتة ؛ وفى بغية الرواد ٨١/٢ : « ... نزلوا القطفة من بلاد حصين ، فرحل مشرقا إليهم ، ونزل ملياتة » .

(٢) السوام ، والسائمة : الإبل الراعية ، والمال الرّاعى .

(٣) الظهر : الركاب التى تحمل الإنسان فى السَّفر .

(٤) الخف للبعير والناقة ، بمنزلة الحافر للفرس . وفى الحديث : « لاسبق إلا فى خف أو نصل أو حافر » ؛ فالخف الإبل . والحافر الفرس ، والنصل السهم يرمى به . ويكون الحافر للخيل والبغال والحمير .

(٥) ضاق به ذرعا : مثل يضرب للذى سقطت قوته دون بلوغ الأمر ، والاقتدار عليه .

معهم ، ذاهبينَ إلى الصَّحراء ؛ واستولى الوزيرُ عَلَى الجَبل بما فيه من مُخَلَّفِهم .
ولما بلغوا مَأْمَنَهم من القَفْر ، نَبَذُوا إلى أبي زَيَّان عهدَه[1] . فلحِقَ بجبَال غُمَّرَة ،
ووَفَدَ أعيانُهم على السلطان عبد العزيز بتِلِمْسَان ، وفاءوا إلى طاعته ، فتقبَّل فَيْئَتَهم ،
وأعادهم إلى أوطانهم ؛ وتقدم إليَّ الوزيرُ — عن أمر السلطان — بالمَسير مع أولادِ
يَحيَى بن عَلِيّ بن سِباع ، للقَبْض على أبي زَيَّان في جَبَل غُمَّرَة ، وفاء بحقّ الطاعة ، ٥
لأن غَمَّرَة من رَعايَاهم ؛ فمضينا لذلك ، فلم نجده عندهم ، وأخبرُونا أنه ارتحل عنهم
إلى بلد وَارْكَلاَ[2] من مُدُن الصَّحراء ، فنزل على صاحبها أبي بكر بن سُليمان ،
فانصرفنا من هُنالك ، ومضَى أولاد يَحيي بن عَلِيّ إلى أحيَائهم ، ورجَعتُ أنا إلى
أهلي ببَسْكَرَة ؛ وخاطبتُ السُّلطان بما وقَع في ذلك ، وأقمتُ مُنْتظِراً أوامرَه حتى
جاءني استدعاؤه إلى حضرته ، فارتحلتُ إليه . ١٠

فصــــلٌ

وكان الوزير ابنُ الخطيب آيةً من آيات الله في النَّظم والنَّثر ، والمعارف
والأدب ؛ لا يُساجَل مَدَاه[3] ، ولا يُهْتَدى فيهَا بمثل هُدَاه .

فممَّا كَتَب عن سلطانه إلى سلطان تُونِس جواباً عن كتابٍ وَصَـل إليه
مصْحوباً بهَدِيَة من الخيل والرَّقيق ، فراجعهم عنه بما نصُّه إلى آخره : ١٥

---

[٣] ط : « فتقبل طاعتهم » [٩] أصل أيا صوفية : « أهل بسكرة ، وخاطبت
بما وقع » .

---

(١) نبذ العهد : نقضه ، وألقاه إلى من كان بينه وبينه .
(٢) واركلا (Wargla عرضها الشمال ٣٢° ، وطولها الشرق ٢٥′ — ٥°) : مدينة
بصحراء الجزائر في جنوب مدينة Tuggurt ، ويَصل بينهما طريق تسلكه القوافل . وتقع
في واحة بها ماء وكلأ ونخيل ؛ وبها تسمّى الناحية كلها . ويقال لها : « واركلان » ،
و « وارجلن » . انظر ياقوت ٤١٤/٨ ، الإدريسي ص ١٢٠ بغية الرواد ٢٣/٢ ، ٣٢ .
(٣) المدَى : الغاية .

الخلافةَ التي ارتفع في عقائد فضْلها الأَصِيل القواعِد الخِلاف ، واستقلّت مَباني فَخرِها الشّائع ، وعِزّها الذّائع ، على ما أَسّسه الأَسْلاف ، ووَجَبَ لحقّها الجازم ، وفَرضها اللاّزم ، الاعْتِراف ، ووَسِعَت الآملين لها الجوانبُ الرحيبَة والأَكناف ؛ فامتزاجُنا بعَلاَئها[1] المُنيف ، وولائها الشّريف ، كما امتزج الماء والسُّلاف ، وثَناؤنا على مَجدها الكريم ، وفَضلها العميم ، كما تأرجت الرياض الأَفواف[2] ، لما زارَها الغَمام الوكّاف[3] ؛ ودعاؤنا بطول بقائها ، واتّصال عَلائها . يَسْمو به إلى قَرْع أَبواب السموات العُلا الاستشْراف[4] ، وحرصُنا على تَوفية حُقوقها العَظيمة ، وفواضِلها[5] العَميمة ، لا تَحصره الحدود ، ولا تُدرِكه الأوصاف ، وإن عَذَر في التّقصير عن نَيْل ذلك المَرام الكبير الحقُّ والإنصاف .

١٠ خلافةُ وِجْهة تَعظيمنا إذا توجّهت الوُجوه ، ومن نُؤْثره إذا أَهمّنا ما نَرجُوه ، ونُفَدِّيه ونُبَدِّيه[6] إذا استُمنِح المحبوب واستُدفع المكروه / السلطانَ الكذا[7] [١٤٢]

---

(١) العلاء : الشرف .

(٢) كذا بالأصول ؛ ولعل أصل الكلام : « الرياض بالأفواف » ؛ والفوف ، بالضم : الزهر ، والجمع أفواف .

(٣) وكف الماء : سال .

(٤) الاستشراف : التطلع إلى الشيء .

(٥) الفواضل : الأيادي الجميلة .

(٦) فدّاه : قال له جعلت فداك ؛ ونبدّيه : نبرزه . ولعل المعنى : نضعه في مكان بارز ممتاز .

(٧) أدخل ابن الخطيب « أل » على « كذا » الموضوعة للكناية عما لم يرد المتكلم ذكره . وقد شاع في رسائله هذا الاستعمال ؛ فقد ورد في الاستقصا ٢/٩٦ ، نفح الطيب — أزهرية ٤/١٣٧ . والمكنى عنه في هذه الرسالة هي الأوصاف التي حلّي بها سلطان تونس ، ونصها حسبما وردت في ريحانة الكتاب لابن الخطيب ورقة ١٢٥ ا وصبح الأعشى ٦/٥٣٦ :

« الخليفة ، الجليل ، الكبير ، الشهير ، الإمام ، الهمام ، الأعلى ، الأوحد ، الأصعد ، الأسمى ، الأعدل ، الأفضل ، الأسنى ، الأطهر ، الأظهر ، الأرضى ، الأحفل ، الأكمل ، أمير المؤمنين أبي إسحاق بن الخليفة الإمام ، البطل الهمام ، عين الأعيان ، وواحد الزمان ، الكبير الشهير ، الطاهر الظاهر ، الأوحد ، الأعلى ، الحسيب ، الأصيل ، الأسمى ، العادل ، الحافل ، الفاضل ، المعظم ، الموقر ، الماجد ، الكامل ، الأرضى ، المقدس ، أمير المؤمنين أبي يحيى ، أبي بكر بن السلطان الكبير ، الجليل ، الرفيع ، الماجد ، الظاهر ، الطاهر ، =

ابن أبي إسحق بن السلطان الكذا ، أبي يحيي بن أبي بكر بن السلطان الكذا ، أبي زكرياء بن السلطان الكذا ، أبي إسحق بن الأمير الكذا ، أبي زكرياء ابن الشيخ الكذا ، أبي محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص ، أبقاه الله ومقامه مقام إبراهيم رزقاً وأمانا ، لا يخص جلبُ الثمرات إليه وقتا ولا يعين زمانا ؛ وكان على من يتخطف الناسَ من حوله[1] مؤيداً بالله مُعانا . ٥

معظمٌ قدره العالى على الأقدار ، ومُقابِلُ داعي حقه بالابتدار ، المُثنى على معاليه المخلدة الآثار ، فى أصونة[2] النِّظام والنِّثار[3] ، ثناء الروضة المعطار ، على الأمطار ، الداعى إلى الله بطول بقائه فى عِصْمَةٍ مُنسدِلَة الأستار ، وعزةٍ ثابتةِ المركز مستقيمة المَدَار ، وأن يختم له بعدَ بلوغ غايات الحال ، ونهاية الأعمال ، بالزُّلْفَى وعُقْبى الدّار . ١٠

[عبدُ الله الغنيُّ بالله أمير المسلمين ، محمد بن مولانا أمير المسلمين ، أبي الوليد إسماعيل بن فَرَج بن نَصْر][4] .

---

[٩] ريحانة ا صبح الأعشى نثير الجمان : « غايات الآجال ، ونهايات الأعمار » ، فى الأصلين ، وصبح الأعشى ، وريحانة ا : « وعقبى الدار سلام » .

= المعظم ، الموقر ، الأسمى ، المقدس ، المرحوم أبي زكريا بن الخليفة الإمام المجاهد الهمام ، [الشهير ، الخطير ، بطل الميدان ، مفخر الزمان ، الطاهر الظاهر ، الأمضى ، المقدس ، الأرضى ، أمير المؤمنين أبي إسحاق بن الخليفة] الهمام ، الإمام ، ذى الشهرة الجامحة ، والمفاخر الواضحة ، علم الأعلام ، فخر السيوف والأقلام ، المعظم ، المجد ، المقدس الأرضى ، أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي عبد الله بن أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص الخ » .

وقد وضع بين قوسين ما أضيف من الريحانة إلى النص المروى فى صبح الأعشى .

(١) إشارته إلى الآيات ٣٥ — ٣٧ من سورة ابراهيم واضحة .

(٢) جمع صوان ؛ وهو ما صنت به الشيء .

(٣) النثار : النثر .

(٤) الزيادة عن نثير الجمان ؛ وهي ضرورية .

سلام كريم كما حملت أحاديثَ الأزهار نَسماتُ الأسحار ، ورَوت ثغورُ الأقاحى والبَهار ، عن مُسَلسلات الأنهار ، وتجلّى على منصّة الاشتهار ، وجهُ عَروس النّهار ؛ يَخُصّ خِلافتكم الكريمة النِّجار ، العزيزة الجار ، ورحمة الله وبركاته .

٥ أما بعدَ حمد الله الذى أخفى حكمته البالغةَ عن أذهانِ البَشر ، فعجزَت عن قياسها ، وجَعل الأرواح « أجناداً مُجنَّدةً » — كما ورَدَ فى الخبر[1] — تَحِنُّ إلى أجناسِها ، مُنجِد هذه المِلّة ، من أوليائه الجِلّة بمَن يَرُوض الآمال بعدَ شِماسِها[2] ، ويُيَسِّر الأغراضَ قبلَ اليِاسِها ، ويُعْنَى بتجديد المودّات فى ذاته وابتغاء مَرضاته على حين إخلاقِ لِباسِها ؛ الملكُ الحقّ ، واصل الأسباب [بحَوله] ١٠ بعد انتكاث أمراسِها[3] ، ومُغْنى النُّفوس بطَوْله ؛ بَعْدَ إفلاسها — حمداً يُجِدُّ أخلاف[4] النِّعَم بعد إبساسِها[5] ، وينشُر رِمَ الآمال من أرماسها[6] ، ويقَدِّسُ النُّفوسَ بِصِفاتِ ملائكة السموات بعدَ إبلاسها[7] .

---

[١] وريحانة ا صبح الأعشى نثير الجمان : « حملت نسمات الأسحار أحاديث الأزهار » [٣] نثير الجمان : « العزيز الجار . أما بعد » [٤] ش : « ورحمة الله تعالى» [٦] فى الأصول وصبح الأعشى ، والريحانة : « الأرواح — كما ورد فى الخبر — أجناد مجنّدة الخ » . والمختار إثباته عن نثير الجمان ، ش : « أجنادا مجنسة » . تحريف [٩، ١٠] فى الأصلين : « واصل الأسباب بعد » [١٠] فى أصل أيا صوفية : « بعد انتكاث مراسها » [١٢] نثير الجمان : « بعد إفلاسها » تحريف .

---

(١) يشير إلى الحديث : « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » الذى أخرجه مسلم فى « الأدب » من صحيحه . وانظر المقاصد الحسنة للسخاوى ص ٢٣/٢٤ .

(٢) شمست الدابة شماساً : شردت وجمحت .

(٣) جمع مرس ؛ وهو الحبل . وانتكث الحبل : انتقض بعد أن كان مبرما .

(٤) الأخلاف ، جمع خلف (بالكسر) ؛ وهو الضرع .

(٥) أبس بالناقة : دعا ولدها لتدر على حالبها .

(٦) جمع رمس ؛ وهو القبر .

(٧) الإبلاس : القنوط ، وقطع الرجاء .

والصلاةُ والسَّلام على سَيدنا ومولانا محمدٍ رسوله سِراجِ الهداية و نِبْراسها[١] عند اقتناء الأنوار واقتباسها ، مُطهِّرِ الأرضِ من أوضارها وأدناسها ، ومُصطَفَى اللهِ من بين ناسِها ، وسيد الرُسُل الكرام ما بين شِيَبِها و إلياسها ، الآتى مُهَيْمِنًا على آثارها ، فى حين فَترتها[٢] ومن بعد نُصْرتها واستيئاسها[٣] ، مُرغِم الضَّراغم فى أخياسها[٤] ، بعد افترارها وافتراسها[٥] ، ومُعفِّر أجرام الأصنام ومُصْمِت أجْراسها .

والرِّضا عن آله وأصحابه وعِترته وأحزابه ، حُماةِ شِرْعَته البَيضَاء وحُرّاسِها ، ومُلْقِحى غِراسها ، ليوث الوَغَى عند احتدام[٦] مِرَاسها[٧] ، ورُهبان الدُّجَى تَتَكفَّل مُناجاة السَّميع العليم ، فى وَحْشَة الليل البَهيم بإيناسها ، وتُفَاوِحُ نسيمَ الأسحار ، عند الاستغفار ، بطيب أنفاسها .

والدُّعاء لخلافتكم العلية المُستنصرية بالصَّنائع التى تُشعشِع أيدى العِزَّة القَعْساء[٨] من أكواسها ، ولا زالت العصمةُ الإلهية كفيلةً باحترامها واحترامها ، وأنباء الفتوح ، المُؤَيَّدَة بالملائكة والرُّوح ، ريحانَ جُلاسها ، وآيات المفاخر ، التى تَرَكَ الأولُ للآخِر ، مُكتَتَبَةَ الأسْطار بأطراسها ، وميادينُ الوجود مجالا

[٤] ريحانة ا صبح : « نصرتها واستئناسها » تحريف ، نثير : « مرغم الدراغم الضراغم » تصحيف [١٠] ريحانة صبح نثير : « نواسم الأسحار » [١١] صبح : « المستنصرية بالسعادة » [١٤] نثير : « وميادين الجود » .

(١) النِّبراس (بالكسر) : المصباح .
(٢) الفترة : ما بين كل نبيين ، أو رسولين من زمان انقطعت فيه الرسالة .
(٣) استيأس : يئس ؛ وابن الخطيب ينظر إلى الآية : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِّبوا جاءهم نَصرُنا . . . الخ »
(٤) جمع خِيس ؛ وهو موضع الأسد .
(٥) افتر الأسد : أبدى أسنانه ؛ يريد بعد أن كانت تفتر عن أسنانها وتفترس .
(٦) الاحتدام : شدة الحر ، واحتدمت النار : التهبت .
(٧) المراس : المضاربة .
(٨) عزة قعساء : ثابتة .

لجِيـاد جُودها و باسها ، والعزُّ والعَـدلُ منسُوبَين لفُسطاطها[1] وقُسْطاسها ، وصفيحـة[2] النَّصر العزيز تَقْبِضُ كفُّها ، المُؤيّدة بالله ، على رياسها[3] ،

[٤٢ب] عنـد اهتياج أضدادها ، وشَرَه[4] أنكاسها[5] ، لانتِهابِ البلاد / وانتهاسِها[6] وهبوبُ رياحِ رياحها وتمرد مِرْداسها[7] .

٥ فإنا كتبناه إليـكم — كتب الله لـكم من كتائب نصره أمدادا تُذعن أعناقَ الأنام ، لطاعة مَلِكِـكم المنصور الأعلام ، عند إحساسها[8] ، وآتاكم من آيات العنايات ، آيةً تضرب الصَّخرةَ الصَّماء ، ممَّن عَصاها بعَصاها ، فتُبادر بانْبِجاسها[9] ، — من حمراءِ غَرناطة ، حرسها اللهُ ، وأيامُ الإسلام ، بعناية الملك العلَّام ، تَحتفِل وُفود الملائكة الـكِرام ، لولائمها وأعراسها ، وطواعين الطّعان ،

---

[١] تير : « والعـدل والعز » [٥] تير : « كتبنا لـكم » ، [٦] تير : « أعناق الأيام » [٧] ش تير : « آيات العناية » [٩] طب : « الـكرام بولائمها » .

---

(١) الفسطاط : المدينة ، ومجتمع أهل المصر حول جامعهم .

(٢) الصفيحة : السيف العريض .

(٣) رئاس السيف ، ورياسه : مقبضه ، وقائمه .

(٤) الشره : شدّة الحرص ، وأسوؤه .

(٥) الأنكاس : جمع نكس ؛ وهو الرجل الضعيف .

(٦) انتهس اللحم : أخذه بمقدم أسنانه . والمراد الاستيلاء على الأراضى وانتقاصها من الأطراف ، فعلَ من ينتقص قطعة اللحم بالأكل .

(٧) رياح من أكثر القبائل الهلاليـة جمعاً ، وأوفرهم عدداً . وأبوهم : رياح بن أبى ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر . والرياسة على رياح فى عهـد ابن خلدون لأبناء داود بن مرداس بن رياح ؛ وإلى داود هذا تنتسب « الدّواودة » .

وقد أفاض الحديث عن هـذه القبائل ، وعما كان لها من آثار فى المغرب ، وعن منازلها ورؤسائها — ابن خلدون فى العبر ٣١/٦ — ٣٧ .

(٨) الإحساس : الرؤية والعلم .

(٩) انبجس الماء : تفجر ؛ وفى الـكلام معنى الآية :

« . . . وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر ، فانبجست منـه اثنتا عشرة عينا الخ » ١٦٠ من سورة الأعراف .

فى عُدوِّ الدِّين المُعان ، تُجدِّد عَهْـدَها بمام عَمْواسها(١) .

والحمدُ لله حمداً مُعادا يُقيِّد شواردَ النِّعَم ، ويستدِرُّ مواهبَ الُجود والكَرَم ويُؤَمِّن من انتكاث الجُدود(٢) وانتكاسها(٣) ، ولَىِّ الآمال ومِكاسها(٤) ؛ وخلا فتكم هى المَثابة التى يُزْهَى الوجود بمحاسن مجدها ، زَهْوَ الرياض بوَرْدها وآسِها ، وتُستَمدُّ أضواءُ الفضائل من مِقْباسها(٥) ، وَتَرْوِى رُواة الإفادة ، والإجادة غَريبَ الوِجادة(٦) ، عن ضَحَّاكها وعبّاسها(٧) . وإلى هـذا أعلى الله معارج قَدرِكم ، وقَد فَعَل ، وأنطق بحُجَج فَخركم مَن احْتَفى وانتَعَل ، فإنَّه وصلَنا كتابكم الذى حسِبناه ، على صنائع الله لنا ، تَميمةً(٨) لا تَلقَع(٩) بعدَها عَيْن ، وجعلناه — على حُلَل مواهبه — قِلادةً لا يُحتاج معها زَيْن ، ودعوناه من جَيْب

[٢] نثير : « حمداً يقيد » ، صبح : «حمدا يعيد» ، تصحيف [٣] فى أصل أياصوفية : « انتكاب الجدود » [٤] نثير : « الوجود لمحاسن مجدها الرياض لروضها بورودها » ، وفيه تصحيف [٥] نثير : « وتستمد ضوء الفواضل الفضائل من » .

(١) عمواس ، بفتح العين والميم ، وبسكون الميم مع فتح العين أو كسرها : قرية بفلسطين بين الرملة وبيت المقدس . وفيها وقع الطاعون الذى كان فى سنة ١٨ هـ ، مات فيه كثير من الناس ، ويقال إنه أول طاعون كان فى الإسلام . وانظر تاريخ الطبرى ٤/٢٠١ — ٢٠٣ ، معجم البكرى ٣/٩٧١ ، ياقوت ٦/٢٢٥ ، تاج العروس (عمس) .

(٢) انتكث : انصرف . والجد : الحظ والبخت ، والجمع : الجدود .

(٣) انتكس : انقلب على رأسه ، وخاب وخسر .

(٤) المكاس : المشاحة ، والمشاكسة .

(٥) أقبس فلان : أعطى ناراً ، والمقباس : ما قُبِست به النار .

(٦) الوجادة (بالكسر) : أن تجد بخط غيرك شيئا ، فتقول عند الرواية : وجدت بخط فلان كذا ؛ وحينذاك يقال : « هذه رواية بالوجادة » .

وللمحدثين فى كيفية التحديث عن طريق الوجادة ، ودرجة الثقة بها ، وشروطها ؛ تفصيل تجده فى « فتح المغيث » للعراقى ٣/١٥ وما بعدها .

(٧) المسمون بـ « الضحاك » ، و « عباس » من المحدثين كثير ، وليس يريد ابن الخطيب أحداً منهم بعينه ، وإنما يقصد إلى « الطباق » بين ضحاك ، وعباس .

(٨) التميمة : عوذة تعلق على الانسان يتعوذ بها .

(٩) لقعه بعينه : أصابه بها ، ويقول أبو عبيدة : إن اللقع لم يسمع إلا فى الإصابة بالعين .

الـكِنانة(١) آيةَ بيضاء الـكِتابة ، لم يَبقَ معها شَكٌّ ولا مَيْن ، وقرأنا منه وثيقة وُدٍّ هُضِم فيهَا عن غَرِيم الزّمان دَيْن ، ورأينا منه إنشاء ، خَدَم اليَراعُ بينَ يديه وَشَّاء ، واحْتَزم بهِمْيان(٢) عُقدته مَشَّاء ، وسُئل عن معانيه الاختراعَ فقالَ : « إنَّا أنشأناهُنَّ إنشَاء » ؛ فأهلاً به من عَرَبىٍّ أبىٍّ يَصِف السَّانح والبانَةَ(٣) ،

٥ ويُبِينُ فيُحسِن الإبانة ، أدّى الأمانة ، وسُئل عن حَيِّه فانتَمَى إلى كِنانة(٤) ، وأفصَح وهو لا يَنبِس(٥) ، وتَهلَّلت قَسماتُه وليلُ حِبْرِه يَعْبِس ؛ وكأنّ خاتَمه المُقفَلَ على صِوَانه(٦) ، المتحِفَ بباكِرِ الوَرد فى غير أوانه ، رَعَف من مِسْك عُنوانه ؛ وللّه من قَلَم دَبَّج تلك الحُلَل ، ونقَعَ بمُجَاج(٧) الدَّواة المستمِدَّة من عين الحياة الغُلَل(٨) ؛ فلقد تَحارق فى الجود ، مُقتديًا بالخلافة التى خلَد فَخرُها فى

١٠ الوجود ، فجاد بسِرِّ البيَان ولُبابه ، وسَمَح فى سَبيل الـكَرَم حتَّى بماء شَبابه ، وجَمَع لفَرْط بَشاشَته وفَهامَته ، بعدَ شَهادة السَّيف بشَهامته ، فمَشَى من التَّرحيب ، فى الطِّرْس الرَّحيب ، على أمِّ هامته .

[٤ ، ٥] تثير : « فقال : أنشأنا إنشاء » [١٠] تثير : « فجاد بسحر البيان » .

---

(١) الـكنانة : جعبة السهام تتخذ من جلود لا خشب فيها .

(٢) الهميان (بالـكسر) : المنطقة ؛ والـكلام على تشبيه القلم المتخذ من القصب ، وفى وسطه عقدة ، بالرجل قد اتخذ منطقة فى وسطه .

(٣) السانح : ما أتاك من عن يمينك من ظبى أو طير ؛ وهو مما يتيمنون به . والبانة واحدة البان ؛ وهو شجر يسمو ويطول فى استواء مثل نبات الأثل ، ويتخذ منه دهن .

(٤) كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، أبو القبيلة ؛ وهو الجد الرابع للرسول صلى الله عليه وسلم .

(٥) النبس : أقلّ الـكلام ؛ وما نبس بكلمة : أى ما تكلم .

(٦) الصوان : ما تصون به الشىء .

(٧) مجاج الدواة : ما تمجه .

(٨) نقع الماء غلته : أروى عطشه .

وأَكْرِم به من حكيم ، أفصَح بمَلغُوز[١] الإِكسير[٢] ، فى اللَّفظ اليَسير ، وشَرَح بلسان الخَبير ، سِرَّ صِناعة التَّدبير[٣] ، كأنما خدَم المَلِكَةَ السَّاحرةَ[٤] بتلك البِلاد ، قَبْل اشتِجار الجِلاد[٥] ، فآثرَتْه بالطَّارف من سِحْرها والتِّلاد ، أو عَثَر بالمُعَلَّقة ، وتِيك القَدِيمة المُطَلَّقة ، بدَفِينَة دار ، أو كَنْز تحتَ جِدار ، أو ظَفِر لِبَانى الحَنَايا[٦] ، قبلَ أن تَقطَع به عن أمانيه المَنَايا ، ببديعَة ، أو خَلَف جرجيرَ[٧] الرُّوم ، قبلَ مُنازَلة القُروم ، عَلَى وَديعة ، أو أسْلَمه ابنُ أبى

[١] تير : « من فصيح أفصح » [٤] تير : « وعثر بالملقة » [٥] فى الأصول : « بيانى الحنايا » ، والمثبت عن تير . [٦] فى الأصلين : « جرجير الروى » ، والمثبت عن الصبح ، الريحانة ، تير . فى الصبح ، تير : « أو أسهمه بن أبى سرح »

(١) كذا فى الأصول . والصواب « ملتز » ، لأن فعله رباعى .

(٢) الإكسير : الكيمياء ، وهى كلمة مولدة . ولأهل الصنعة فى الإكسير كلام مغلق طويل فيه العجب . ويطلقون الإكسير أيضاً على « الحجر المكرم » ؛ وهو المادة التى تلقى على المواد حال ذوبانها ، فتحولها إلى ذهب أو فضة بزعمهم . وانظر تاج العروس (كسر) وشفاء الغليل ص ١٦ .

(٣) صناعة التدبير : يعنى بها تحويل المعادن إلى الذهب أو الفضة ؛ وتلك كانت ، ولا تزال ، مشكلة المشتغلين بعلم الكيمياء القديم .

(٤) يعنى بالملكة الساحرة الكاهنة البربرية ، من قبيلة جراوة إحدى قبائل زناتة . كانت لها معرفة بالكهانة ، ومعرفة الغيب ، فاستبدت بالرياسة على البربر ، وملكتهم ٣٥ سنة ، وكان لها ثلاثة من الأبناء رؤساء فى قومهم . ولقد قاومت الفتح الإسلامىّ فى المغرب مدَّة ، وحين انهزمت وأيقنت بانتهاء أمرها ، عند ما أصيبت بجروح قاتلة فى بعض المعارك ، أوصت أولادها بالإسلام فأسلموا ، وكان لهم أثر طيب فى استقرار الإسلام فى المغرب . انظر العبر ٧/٨ — ٩ .

(٥) اشتجر القوم : تشابكوا ، وتشاجروا بالرماح : تطاعنوا . والجلاد : الضرب بالسيف .

(٦) الحنايا : جمع حنية ، وهى القوس . ويريد بها : مجرى الماء الذى اجتلب إلى « قرطاجنة » ، ووضع على أعمدة عالية ، عُقدت بأقواس وصلت بين عِدَّة جبال متحاذية بعضها من بعض ، ثم أجرى الماء فوق هذه « الحنايا » العالية . وكانت المسافة بين قرطاجنة ، وبين منبع الماء ثلاثة أيام ؛ ولا تزال بقايا هذه الحنايا موضع العبرة من مشاهديها . انظر ياقوت ٧/٥٢ — ٥٣ .

(٧) (Grégoire) هو البطريق الذى كانت له الولاية على المغرب من قبل الإمبراطور البيزنطى . وقد انفصل عن بيزنطة ، واستقل بالمغرب عند الفتح الإسلامى ؛ والعرب يسمونه جرجير . وابن الخطيب يشير إلى ما كان من الحوادث بين الجيش الإسلامى ، وبين جرجير أيام الفتح . وانظر : La Grande Encyclopedie vol. 28 p. 264

سَرْحٍ(١) ، فى نشَبِ الفتحِ وسَرْحٍ(٢) ، أو حَتَمَ له رَوْحُ بن حاتم(٣) ببلوغ المَطْلَب ، أو غلَبَ الحظوظَ بخِدمَة آل الأغلَب(٤) ، أو خَصّه زيادةُ الله بمَزِيد(٥) ، أو شارَكَ الشِّيعةَ فى أمرِ أبى يَزِيد(٦) ، أو سَار على / مِنهاج ، فى مُناصحة [٤٣ ا] بَنى صِنْهَاج(٧) ، وفضَحَ بتخليد أمداحِهم كُلَّ هاج .

٥ وأَعْجِب به ، وقد عُزِّزَ منه مَثْنَى البيانِ بثالث ، فجَلَب سِحرَ الأسماع ، واسترقاقَ الطِّباع ، بين مَثانٍ للابداع ومَثالث ، كيف اقتدَر على هذا المَحيد ،

---

[٥] تشير : « جلب سحره الأسماع » . [٦] تشير : « مثانى الابداع » .

---

(١) هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح ؛ كان أحد كتّاب الوحى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتدّ ، وأهدِر دمه يوم فتح مكة ؛ وكان محمد بن أبى بكر الصديق يقول عنه حين ولى مصر : إنه لم يعد إلى الإسلام بعد ردته . ابن الأثير ٣ / ٥٧ ، ٨٢ .

وهو أخو عثمان رضى الله عنه من الرضاعة ، ولاه مصر بعد عزل عمرو بن العاص ، ثم أمره أن يغزو إفريقية سنة ٢٥ هـ ، على أن له من الغنيمة خمس الخمس . انظر العبر ٢/١٢٨, ١٣٩ (القسم الثانى) .

(٢) النشب : المال والعقار ؛ والسرح : المال يُسام فى المرعى ، يُغدى به ويُراح . وقد صالح أهل إفريقية عبد الله بن أبى سرح على مليونين وخمسمائة ألف دينارا ، وبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار ، وسهم الراجل ألفاً ، وقد أصبح هذا المبلغ مضرب المثل ، وإلى ذلك ينظر ابن الخطيب . انظر العبر ٢/١٢٩ (القسم الثانى) .

(٣) هو روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلّب بن أبى صفرة ؛ كان من الكرماء الأجواد . ولى الكوفة ، ثم السند ، ثم البصرة أيام المهدى ؛ وولى إفريقية أيام الرشيد ، وبها توفى سنة ١٧٤ . وفيات الأعيان ١/٢٣٥ .

(٤) هو الأغلب بن سالم ، أحد الذين قاموا مع أبى مسلم الخراسانى بالدّعوة العبّاسية ، وتولى الأغلب أيام المنصور ولاية القيروان ؛ وابنه ابراهيم بن الأغلب ، هو رأس دولة الأغالبة بتونس ، التى تبتدىء سنة ١٨٤ هـ ، وتنتهى سنة ٢٩٦ هـ .

(٥) زيادة الله هو ثانى ملوك بنى الأغلب ، (٢٠١ — ٢٢٣) قلده الخليفة المأمون العباسى .

(٦) هو أبو يزيد : مخلد بن كيداد (أو كنداد) بن سعد الله بن مغيث اليفرنى ، وقد عرف أيضا بصاحب الحمار : عالم شهير من علماء البربر ؛ أخذ العلم بتوزر عن مشيختها ، ورأس فى الفتيا ، وقرأ مذهب الإباضية وصدق فيه ، ثم لقى عماراً الأعمى الصُّفرى النكارى فتلقّن عنه ، وعن مشيخة النكارية بتيهرت ، مذهب النكارية . وطارده الشيعة فخرج عليهم سنة ٣٠٢ ، وكانت بينه وبينهم حروب . انظر العبر ٦/١٠٥ ، ٧/١٣ — ١٧ .

(٧) تحدّث ابن خلدون عن الدولة الصنهاجية فى المغرب — فى العبر ٦/١٥٢ — ١٦٢ .

وناصَحَ مع التثليث مَقامَ التوحيد ؛ نستغفر اللهَ وَلِيَّ العَوْن ، على الصَّمتِ والصَّوْن ، فالقَلَمُ هو المُوحِّد قبل الكَوْن ، والمتَّصِفُ من صِفات السَّادة ، أولِي العبادة ، بضُمور الجِسم وصُفْرة اللَّوْن ؛ إنما هي كرامةٌ فارُوقيَة ، وأثارةٌ[1] من حَديث سَارِيَةَ[2] وبقيةٌ ؛ سَفَر وجهُها في الأعقاب ، بعدَ طول الانتقاب ، وتَداوُل الأحقاب ؛ ولسانٌ مُنَاب ، عن كريم جَناب ؛ وإصابةُ السَّهم لسواه ٥ مَحسُوبة ، وإلى الرَّامِي الذي سَدَّده مَنْسُوبة ؛ ولا تُنكِرْ على الغَمام بارقَة ، ولا على المُتحقِّقين بمَقام التَّوحيد كرامةً خارقَة ، فما شاءه الفضلُ من غرائبِ برٍّ وَجَد ، ومَحاريبِ خُلُق كريم رَكَع الشُّكر فيها وسَجَد ؛ حديقةُ بيانٍ استَثَارت نواسمَ الإبْداع مِن مَهَبِّها ، واستَزارت غمائم الطباع من مَصَبِّها ، فآتَت أُكلَها مرَّتَيْن بإذن ربِّها ؛ لا . بَل كَتِيبةُ عزٍّ طاعنَتْ بِقَنَا[3] الألِفاتِ ١٠ سُطورُها ، فلا يرومُها النَّقدُ ولا يَطورُها[4] ، ونَزَعت عن قِسِيِّ النُّونات خطوطُها ، واصْطفَّت من بَياض الطِّرس ، وسَواد النِّقْس ، بُلْقٌ[5] تَحوطُها .

---

[٥] تيم : « لسان ناب » [٦] طب : « ولا ينكر على » .

---

(١) الأثارة : البقية .

(٢) يشير إلى قصة سارية بن زنيم بن عمر بن عبد الله بن جابر الكنانى أمير الجيش الإسلامى فى وقعة « نهاوند » ؛ فقد كمن له العدو فى جبل ، ولم يكن قد علم به ، فناداه عمر رضى الله عنه من فوق المنبر بالمدينة يحذّره : « يا سارية الجبل الجبل ! » ، فسمع سارية صوت عمر . وهى كرامة ذكروها للفاروق رضى الله عنه . انظر رسالة القشيرى ص ١٨٧ طبع بولاق سنة ١٢٨٧ هـ ، تاج العروس (سرى) .

(٣) جمع قناة ؛ وهى الرمح .

(٤) لا يطور : لايحوم حولها .

(٥) الطرس : الورق . والنقس : الحبر . وبلق : جمع أبلق ، أو بلقاء ؛ وهى الخيول التى فى لونها سواد وبياض .

فما كأسُ المُدير ، عَلَى الغَدير[١] ، بَينَ الخَوَرْنَق[٢] والسَّدير[٣] ، تُقامِرِ بنَرْد[٤] الحَباب ، غُول ذوى الألباب ، وتُغرقُ كِسْرَى فى العُباب[٥] ، وتُهدِى، — وهى الشَّمْطاء[٦] — نَشاطَ الشَّباب ؛ وقد أسرجَ ابنُ سُرَيْج[٧] وألجَم ، وأفصح الغَرِيضُ[٨] بعدَ ما جَمجَم ، وأعربَ النَّاىُ[٩] الأعجَم ، ووقَّع مَعْبَد[١٠] بالقضيب ، وشَرَعت فى حساب العَقد[١١] بَنانُ الكَفِّ الخَضِيب ؛ وكأنَّ الأناملَ فوقَ مَثالث العُود ومَثانيه[١٢] ، وعند إغراء الثَّقيل بثَانيه[١٣] ، وإجابةِ صَدَى

(١) يشير إلى قصة امرئ القيس يوم الغدير ، وهو يوم دارة جلجل ؛ وهى مفصلة فى الأغانى بولاق ١٩/٢٧ .

(٢) الخورنق : قصر النعمان بن المنذر بظاهر الحيرة ؛ جاء ذكره فى شعر عدىّ بن زيد ، والمنخّل اليشكرى . وحوله قصص طريفة تجدها فى ياقوت ٣/٤٨٢ ، والبكرى ٢/٥١٥ والمعرَّب ص ١٢٦ ، والأغانى طبع دار الكتب ٢/١٤٤ ، وتاريخ الطبرى ٢/٧٢ ، والخزانة ١/١٤٢ .

(٣) السدير : قصر للنعمان أيضاً بالحيرة ، قريب من الخورنق . ياقوت ٥/٥٤ .

(٤) النرد : أعجمىّ معرَّب ، وورد فى الحديث : « نردشير » ؛ وهو نوع مما يُقامَر به .

(٥) بنى كسرى أبرويز — فوق دجلة — بناء اتخذه لمجالس أنسه ، ففاضت دجلة وأغرقته مرات ، أنقذ كسرى فيها من الغرق — وإلى ذلك يشير ابن الخطيب . انظر الطبرى ٢/١٤٤ — ١٤٥ .

(٦) امرأة شمطاء : بيضاء الشعر ؛ ويكنى بذلك عن قدم الخمر .

(٧) أبو يحيى عبيد الله بن سريج المغنّى المعروف : أخباره فى الأغانى بولاق ١/٩٧ — ٩٩ .

(٨) أبو يزيد ، وأبو مروان : عبد الملك . ولقب بالغريض لأنه كان طرى الوجه غض الشباب ؛ وهو من مولدى البربر . أخذ الغناء عن ابن سريج ، وعارضه فى كل أصواته . انظر الأغانى بولاق ٢/١٢٨ .

(٩) الناى : المزمار . مفاتيح العلوم ص ١٣٧ .

(١٠) هو معبد بن وهب المغنى المعروف . غنى فى دولة بنى أمية ، ومات فى أيام الوليد ابن يزيد بدمشق . وانظر الأغانى بولاق ١/١٩ .

(١١) حساب العقد ، ويسمى حساب العقود أيضا : نوع من الحساب يكون بأصابع اليدين ، ويقال له حساب اليد ؛ وفى الحديث : « وعقد عقد تسعين » . وقد ألفوا فيه رسائل وأراجيز ، منها أرجوزة أبى الحسن على الشهير بابن المغربى ، وشرحها عبد القادر بن على بن شعبان الموقى . وانظر خزانة الأدب للبغدادى ٣/١٤٧ .

(١٢) أوتار العود أربعة : أغلظها البم ، والذى يليه المثلث (بفتح الميم وتخفيف اللام على مثال مطلب) ، والذى يلى المثلث : المثنى (بوزن معنى) ، والجمع مثالث ومثانى . وانظر مفاتيح العلوم ص ١٣٧ .

(١٣) كذا فى الأصول ؛ ولعل أصل القول : « الثقيل الأول بثانيه » . والثقيل =

الغِناء بين مَغانيه ، المزاودُ تَشرَع فى الوَشْى ، أو القنا كبُ تُشرِع فى المَشْى ؛ وَمَا المُخبِر بنَيْل الرَّغائب ، أو قُدوم الحبيب الغائب ؛ لاَ . بل إشارةُ البَشير ، بكُمٍّ للشُّير ، على العَشير ، بأجلبَ للسُّرور ، من زائره المتَلقَّى بالبُرور ، وأدْعَى للحُبور ، من سفيره المُبهج السفور ؛ فلم نرَ مثلَه من كَتيبةِ كتاب تَجنُب[1] الجُرْدَ ، تَمرَح فى الأرسان[2] ، وتَتَشوَّف مَجالى ظهورها إلى عرائس الفُرسان ، ٥ وتهُزُّ معاطفَ[3] الارتياح ، من صَهيلها الصُّراح ، بالنَّغمات الحِسان ؛ إذا أوجَسَت الصَّريخَ نازَعت أفْناء الأعِنَّة ، وكاثَرت بأسِنَّة آذانها مُشْرَعَةَ الأسِنَّة ؛ فإن ادَّعَى الظَّليمُ[4] أشكالَها فهو ظالم ، أو نازَعها الظَّبْيُ هَوادِيَها[5] وأكفالَها فهُو هاذٍ أو حَالِم ، وإن سُئل الأصْمَعى[6] عن عيوب الغُرَرِ والأوْضَاح[7] ، قَال مشيراً إلى وجوهِها الصِّباح[8] : ١٠

---

[٢] تير : « فما الخبر بنيل » [٣] تير : « زائره الملتق » [٧] تير : « أثناء الأعنة » تصحيف .

=الأول : إيقاع موسيقى تتوالى فيه ثلاث نقرات ثقيلة ؛ وفى الثقيل الثانى تتوالى نقرتان ثقيلتان ثم واحدة خفيفة . وانظر مفاتيح العلوم ص ١٤١ .

(١) من الجنب : وهو أن تجنب فرساً عريا عند الرهان إلى الفرس التى تسابق عليه ، فاذا فتر المركوب ، تحولت إلى المجنوب . ويريد أن هذه الرسالة بمنزلة خيول احتياطية .

(٢) جمع رسن ؛ وهو الحبل يتخذ زماماً للدابة وغيرها .

(٣) المعاطف : الأردية ؛ والعرب تضع الرداء موضع البهجة ، والحسن ، والبهاء ، والنَّعمة .

(٤) الظليم : فرس فَضالة بن هند بن شريك الأسدى .

(٥) هوادى الخيل : أعناقها .

(٦) عبد الملك بن قُرَيب ، اللغوى المشهور (١٢٢ — ٢١٦) ، على خلاف فى المولد والوفاة . وابن الخطيب يشير إلى ما عُرف عن الأصمعى من خبرته الواسعة بالخيل ؛ وله فى ذلك مع أبى عبيدة معمر بن المثنّى قصة طريفة . انظرها فى ترجمة الأصمعى فى وفيات ابن خلكان ١/٣٦٢ .

(٧) جمع غرة : وهى البياض ؛ والوضَح : البياض أيضا . ويكنّى به فى الفرس عن البرص ، والجمع أوضاح .

(٨) وجه صبيح : جميل ، والجمع صباح .

« جِلْدَةُ بَيْنَ العَيْنِ وَالأَنْفِ سَالِمُ »(١)

من كل عَبْلِ الشَّوَى(٢) ، مُسَابِقٍ لِلنَّجْمِ إِذَا هَوَى ، سامِي التَّلِيلِ(٣) ، عريض ما تحتَ الشَّلِيلِ(٤) ، مَمْسُوحةٍ أعطافُهُ بمنديلِ النَّسِيمِ البَلِيلِ .

من أحمَرَ كالمُدام ، تُجْلَى على النِّـدَام(٥) ، عَقِبَ الفِدَام(٦) ، أتحفَ لونَهُ بالوَرْدِ ، في زمنِ البَرْدِ ، وحَيَّى أفُقَ مُحَيَّاه بكوكَبِ السَّعْد ، وتَشَوَّف الواصفون إلى عَدِّ محاسنه فأعيَتْ على العَدِّ ؛ بَحْرٌ يُساجِلُ البَحر عند المَدِّ ، وريحٌ تُبارِي الرِّيحَ عنـدَ الشَّدِّ(٧) ، بالذِّراعِ الأَشَدِّ(٨) ؛ حَـكَمَ له مُدِيرُ / فَلَكِ الـكَفَلِ [٤٣ب] باعتدالِ فَصْلِ القدِّ ، وميَّزه قَدرُه المميَّزُ عندَ الاستباق ، بقَصَبِ السِّبَاق(٩) ،

[٢] تير : « الشوى ، سابق النجم » [٦] تير : « فأعيت عن العد » [٨] صبح ، تير : « المميز يوم الاستباق » .

(١) شطر بيت قاله عبد الله بن عمر لما لامه الناس فى حب ابنه سالم ، وأوله :

يديروننى عن سالم وأريغهم * وجلدة الخ

وجعله لحبته بمنزلة جلدة بين عينه وأنفه . وفى الحديث : « لا تؤذوا عمّارا ، فإنما عمار جلدة ما بين عينىّ » .

وسالم هـذا ، ويكنى أبا عمر ، وأبا المنذر ، من خيار الناس ، وفقهائهم . مات بالمدينة سنة ١٠٦ . انظر المعارف لابن قتيبة ص ٩٣ طبع جوتنجن سـنة ١٨٥٠ ولسان العرب (سلم) ١٠/١٩١ ، والرسالة الثمانية للجاحظ ورقة ١٠٧ب (نسخة كوبريلى رقم ٨١٥) .

(٢) شوى الفرس : قوائمه ؛ وعبل الشَّوَى : غليظ القوائم .

(٣) التليل : العنق .

(٤) الشليل : الحلس ، والكساء الذى يجعل تحت الرحل .

(٥) جمع نديم : وهو الشريب الذى ينادمك .

(٦) الفدام : الخرقة التى يضعها السّاقى من الأعاجم ، والمجوس على فمه عند السّقى . وكانت عادتهم ، إذا سـقوا ، أن يفدِّموا أفواههم . وفدام الإبريق ، والـكوز : المصفاة التى توضع عليه .

(٧) الشَّدُّ : العدو .

(٨) الأشدُّ : الأقوى ؛ يقال حلبتها بالساعد الأشدّ ، أى حين لم أقدر على الرفق ، أخذت الأمر بالشدة والقوة .

(٩) كانت الغاية التى يعدونها للسباق تذرع بالقصب ، ثم تركز القصبـة فى منتهى الغاية ؛ فمن سبق اقتلعها وأخذها ، ليعلم الناس أنه السابق من غير نزاع ، ويقال : حاز أو أحرز قصبة السبق . تاج (قصب) .

عندَ اعتبار الحَدّ ، ووَلَدٌ مُختطٌّ غُرّته أشكالَ الجمال ، على الكمال ، بين البَياض والحُمرَة ونقَاء الخَد ؛ وحفِظ روايةَ الخلق الوَجيه[1] ، عن جَدّه الوَجيه[2] ، ولا تُنكَر الرواية على الحافظ ابن الجد[3] .

وأشقرَ ، أبَى الخَلْقُ ، والوَجْهُ الطَّلْقُ أن يُحقَر ، كأنما صِيغَ من العَسجَد ، وطُرِفَ بالدُّر وأنعِل بالزبرْجَد ، ووُسِم في الحديث بسِمة اليُمْن والبرَكة[4] ، واختصّ بفَلْج[5] الخِصام ، عند اشتجار المعْرَكة ، وانفرد بمُضاعَفِ السِّهام ، المُنكَسِرة على الهَام ، في الفرائض المشْتركة[6] ؛ واتَّصفَ فَلَكُ كَفَلِه بحركتَي الإرادَة والطَّبع من أصناف الحَركة[7] ، أصغَى إلى السَّماء بأُذن مُلهَم ؛ وأغرَى لسانَ الصَّهيل — عند التباس مَعانى الهمْز والتَّسْهيل — ببَيان المُبْهَم ؛ وفُتِنَت العُيونُ من ذَهَب جِسمه ، ولُجَيْن نَجْمه ، بالدِّينار والدِّرْهمَ ؛ فإن انقضَّ فرَجْم ، أو ريح لها حَجْم ، وإن اعترضَ فَشَفَقٌ لاحَ به النَّجم نَجْم[8] .

---

[٩] تير : « التباس الهمز والتسهيل » [١٠] صبح ، تير : « نجمه بحب الدينار » .

---

(١) الوجيه : « الخلق الوجيه : الحميد ، والوجيه من تكون له خصال حميدة » .

(٢) الوجيه : فرس من خيل العرب نجيب ؛ ويأتى ذكره مرة أخرى .

(٣) يومئ ابن الخطيب إلى أبي بكر محمد بن عبد الله بن فرج الفهرى المعروف بابن الجد (٤٩٦ — ٥٨٦) . أصله من « لبلة » ، واستوطن إشبيلية ، وعاصر ابن رشد الفقيه ، وأبا بكر بن العربي . وانظر الديباج ص ٣٠٢ .

(٤) يشير إلى حديث : « إن يمن الخيل في شقرتها » ، رواه الإمام أحمد في المسند ٢/٢٧٢ .

(٥) الفلج : الظفر والفوز .

(٦) يومئ إلى المعاني التي تعارفها الفقهاء بينهم في باب « التوارث » من الفقه الإسلامي ؛ فالسهم : النصيب الذي فرضه الشارع للوارث ، وانكسار السهام يكون حيث تضيق التركة عن استيفاء الفرائض كاملة ، ويتقرر العول .

(٧) الحركتان : الطبيعية ، والإرادية معا ؛ مبدؤهما أمر داخل غير خارج عن ذات المتحرك ، ثم تمتاز الحركة الإرادية بخضوعها لارادة المتحرك وميله . أما الطبيعية فلا إرادة فيها ولا شعور ، وذلك مثل طلب الجسم الثقيل الجهة السفل . وانظر تعريفات الجرجاني ص ٥٨ .

(٨) النجم : الثريا ؛ والمعنى المراد — فيما أرجو — : لاح الثريا بهذا الفرس المعترض .

وأصفرَ قَيَّدَ الأوابدَ الحُرّة ، وأمسكَ المَحاسن وأطلقَ الغُرَّة ؛ وسُئِل مَن أنتَ فى نَوادِ الكتائبِ ، وأولى الأخبار العَجائب ؟ فقال : أنا المُهلَّب ابنُ أبى صُفْرة(١) ؛ نَرْجِسُ هذه الألوان ، فى رياض الأكْوَان ، تُحيَى به وُجُوه الحَرْبِ العَوَان(٢) ؛ أغَارَ بنَخوة الصَّائل(٣) ، على مُصْفَرَات الأصائل(٤) ، ٥ فارتَدَاهَا ، وعَمِد إلى خُيُوط شُعاع الشّمس ، عند جانِحَة الأمس ، فألحَمَ مِنها حُلَّتَه وأسْداها ، واستَعدَت عليه تِلكَ المَحاسِن فما أعدَاها ؛ فهو أصيلٌ تمسَّكَ بذَيْل اللَّيل عَرْفُه وَذيْلُه ، وكوكبٌ يُطْلِعُهُ من القَتَام ليلُه ، فيَحْسُدُه فَرْقَدُ(٥) الأفق وسُهَيْلُه(٦) .

وأشهبَ تَغَشَّى من لونه مُفاضَة ، وتَسربَل منه لأمةً فَضْفَاضة ، قد احتفَلَ ١٠ زَيْنُه ، لمّا رُقِم بالنِّبال لُجَيْنه ، فهو الأشمَط ، الذى حقه لا يُغمَط ، والدَّارِعُ(٧)

---

[٢] تثير : « الكتائب ، أولى الأخبار والعجائب » [٣] تثير : « يحيّا به عيّا الحرب » ، الأصلين : « تحيا به وجوه الحرب » .

= فى الأفق — نجم آخر هو غرته . وقد سميت الغرة نجماً فى شعر لابن نباتة أورده عبد القاهر فى أسرار البلاغة ص ٢٣٣ ، ثم إنه قد قال فى وصفه : « وفتنت العيون من ذهب جسمه ، ولجين نجمه ، بالدينار والدرهم » .

(١) أبو سعيد المهلب بن أبى صُفرة الأزدى . له مع الخوارج حروب ومواقع ظهرت فيها شجاعته . وقد ذكر أغلبها أبو العباس المبرد فى « الكامل » . وانظر الوفيات ١٩١/٢ — ١٩٥ .

(٢) الحرب العوان : الحرب التى سبقتها حرب أخرى .

(٣) النخوة : العظمة ، والكبر ؛ والصائل : المستطيل المتوثب .

(٤) الأصيل : العشى ، والجمع الأصائل .

(٥) الفرقد : واحد الفرقدين ؛ وهما كوكبان من صورة بنات نعش الصغرى ؛ ويقال الفرقد على الكوكبين معا .

(٦) سهيل : كوكب من الكواكب الجنوبية ؛ ولذلك لا يراه سكان البلدان الشمالية مثل خراسان ، وارمينية .

(٧) رجل دارع : ذو درع .

المُسَارِع ، والأعزَل الذَّارِع [١] ، وراقى المِضاب الفارِع ، ومكتوبُ الكتيبة البارِع [٢] . وأكْرِم به من مُرتاضٍ سَالِك ، ومُجتَهِد على غايات السّابقين الأولين مُتَهالِك ، وأشْهَبَ [٣] يَروى من الخليفة ، ذى الشِّيَم المُنيفة ، عن مالك .

وحُبَارِىٍّ [٤] كلَّما سَابَقَ وبَارَى ، استعار جَناح الحُبَارَى ؛ فإذا أعملَت الحِسْبَة ، قيل مِن هُنا جاءت النِّسْبَة ، طَرَدَ النَّمِر ، لما عظم أمره وأَمِر [٥] ، فنَسَخ وُجودَه بعدَمه ، وابتزَّه الفَرْوَةَ مُلَطَّخةً بدَمِه ؛ وكأنّ مُضاعفَ الوَرْد نُثِر عليه من طَبَقِه ، أو الفلك ، لمّا ذهب الحَلَك ، مُزِج فيه بياضُ صُبحِه بحُمْرة شفَقِه .

وقِرْطاسِىٍّ حقُّه لا يُجهَل ، «مَتَى ما تَرَقَّ العَينُ فيه تَسَفَّل» [٦] ؛ إن نُزِع عنه جُلُّه [٧] ، فهو نجمٌ كلُّه ؛ انفرَدَ بمادَّة الألوان ، قبل أن تَشُوبَها يَدُ الأكوان ، أو تمزِجَها أقلام المَلَوان [٨] ؛ يَتقدَّم الكتيبة منهُ لِواءٌ ناصع ، أو أبيض

[٤ ، ٥] صبح : « فاذا أعملت هذه الحسبة » [٩] تيمر : « متى ترق » [١١] تيمر : « وتمزجها أقلام ، فيتقدم منه الكتيبة لواء » ، صبح : « يتقدم منه الكتيبة القبلة »

(١) ذرع : أسرع ؛ كأنه لسرعته يقيس المسافات بالذراع .

(٢) الفارع : المرتفع الهىء الحسن . والبارع : التام فى كل فضيلة .

(٣) يورّى بأشهب بن عبد العزيز المالكى أبو عمر المصرى . وقد تقدم فى ص ٢٥ .

(٤) الحبارىّ : لونه لون الحبارى . والحبارى بضم الحاء ، وفتح الباء المخففة ، وراء مفتوحة بعد ألف : طائر رمادى اللون ؛ وهو أشد الطير طيراناً ، وأبعدها شوطا . والمؤلف يقول : إن سرعة هذا الفرس تأتى من شبهه بالحبارى الذى له هذه الصفة . وانظر حياة الحيوان للدميرى ١/١٩٦ .

(٥) أمِر : ارتفع شأنه .

(٦) عجز بيت لامرىء القيس وصدره :

ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه * متى الخ

وفى الأصول : « .... فيه تسهل » . والمثبت رواية الديوان ، وشرحه للبطليوسى ص ٣٤ طبع التقدم سنة ١٣٢٣ هـ .

(٧) جُلّ الفرس ، وجَلّه : الغطاء الذى تلبسه إياه لتصونه .

(٨) الملوان : الليل والنهار .

مَناصِـع[1] ؛ لِبسَ وَقارِ المَشيب ، فى رَيْعان العُمُر القَشيب ، وأنصتَتْ الآذان من صَهيلهِ المُطيل المطيب ، لمَّا ارتدَى بالبياض إلى نَغْمة الخَطيب ؛ وإن تَعَتَّب منه للتأخير مُتَعتِّب ، قُلنا : الواوُ لا تُرتِّب[2] ، ما بين فَحْل وحُرَّة ، وبهرمانة[3] ودُرَّة ؛ ويأَفْقِه من ابتسام غُرَّة ، ووُضوح يُمْنٍ فى طُرَّة[4] ، وبَهْجَةٍ للعَين وقُرَّة ؛ وإن وَلِـعَ النـاسُ بامتداح القديم ، وخَصُّوا الحديثَ بفَرْىِ الأَديم[5] ، وأَوجَب المتَعصِّب ، وإن أَبَى المَنْصِب ، مرتَبَـةَ التَّقديم ، وطَمَح إلى رتبة المَخدوم / طَرْفُ الخَديم ، وقُورِنَ المُثْرِى بالعَديم ، وبُخِسَ فى [٤٤ سُوق الـكَسَد الـكَيْل ، ودَجَا اللَّيل ، وظَهر فى فَلَكِ الإنصافِ المَيْل ، لمَّـا تُذُوكِرت الخَيْل ؛ فَجِىء بالوَجيـه[6] والخَطَّار[7] ، والذائد[8]

---

[٣] تيم : « التعتب ، قلنا » [٦] طب ، تيم : « مزية التقديم » [٨] تيم : « الحسد الـكيل » .

---

(١) الناصع : الخالص من كل شىء ؛ والمناصع : المجالس . جمع مَنصَع .

(٢) يشير إلى قول النحاة : إن العطف بالواو لا يفيد ترتيبا بين معطوفاتها .

(٣) البهرمان : نبات بأرض العرب يصبغ به ، يقال له العصفر ؛ ولونه دون الأرجوان فى الحمرة .

(٤) الطرة : الناصية ، والاشارة إلى الحديث : « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة » واضحة . وانظر سنن ابن ماجة ٢ / ٩٤ .

(٥) الأديم : الجلد ؛ وفريه : قطعه . وهو يشير إلى قول ابن شرف القيروانى :

أغرى الناس بامتداح القديم ❊ وبذمِّ الحديث غير الذَّميم

ليس إلا لأنهم حسدوا الحـــــــىَّ ورقُّوا على العظام الرميم

انظر « ألف با » للبلوى ١/٥٩ — ٦٠ . وفى مقدمة تاج العروس ١/٢٩ أنهما لابن رشيق وهو خطأ . وانظر طراز المجالس ص ١٢١ .

(٦) الوجيه : فرس لغنىّ بن أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان . وهو مما سمى من جياد الفحول ، والإناث المنجبات . تاج (وجه) ، مخصص ٦/١٩٥ ، ابن الـكلبى ص ٢٢ .

(٧) الخطار : فرس حذيفة بن بدر الفزارى . وله ذكر فى حرب داحس والغبراء . المخصص ٦/١٩٦ ، تاج (خطر ، دحس) ، ابن الـكلبى ص ٧٠ .

(٨) الذائد : فرس نجيب من نسل الحرون ، ومن أبنائه أشقر مروان . ابن الـكلبى ص ٤٥ ، ٤٤ ، تاج (ذاد) .

وذى الِخمار (١) ، ودَاحِس (٢) والسَّكْب (٣) ، والأَبْجَر (٤) وزاد الرَّكْب (٥) ،
والجَمُوح (٦) واليَحْمُوم (٧) ، والكُمَيْت (٨) ومَكْتُوم (٩) ، والأَعْوَج (١٠)
وحلوان (١١) ، ولَاحِق (١٢) والقَضْبان (١٣) ، وعَفْزَر (١٤) والزَّعفَران (١٥)

---

(١) ذو الخمار : فرس للزبير بن العوام ، ولمالك بن نويرة الشاعر . وانظر المخصص ١٩٤/٦ ، ابن الكلبي ص ٦٣ ، تاج (خمر) .

(٢) داحس : فرس قيس بن زهير بن جذيمة العبسي . له ذكر في حرب داحس والغبراء المخصص ١٩٦/٦ ، تاج (دحس) ، ابن الكلبي ص ٢٤ ، ٢٩ . وانظر مجمع الأمثال : «أشأم من داحس» ١ / ٢٥٦ .

(٣) السكب : من أفراس النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أول فرس ملكه . انظر المخصص ١٩٣/٦ ، ابن الكلبي ص ٨ ، تاج (سكب) .

(٤) الأبجر : من خيل غطفان بن سعد ، وهو فرس عنترة بن شداد العبسي . ابن الكلبي ص ٦٩ ، تاج (بجر) .

(٥) زادالركب: فرس للأزد، وهومن أقدم فرسان العرب . ابن الكلبي ص ١٤، ١٨، ١٩

(٦) الجموح (كصبور) : فرس مسلم بن عمرو الباهلي ، وفرس للحكم بن عرعرة النميري تاج (جمح) ، ابن الكلبي ص ٤٥ .

(٧) اليحموم : فرس النعمان بن المنذر ، ولذلك كان يقال للنعمان فارس اليحموم . وسمي باليحموم عدة أفراس . تاج ٢٦١/٨ ، خزانة الأدب ٥٤٥/١ ، ابن الكلبي ص ٩٢ .

(٨) الكميت : فرس المعجب بن سفيان (أوشيم) الضبي . وذكر في تاج العروس في (كمت) عشرة أفراس باسم الكميت ، مع أسماء أصحابها . وانظر المخصص ١٩٥/٦ .

(٩) مكتوم : فرس لغني بن أعصر، من جياد الفحول . تاج (كتم) ، ابن الكلبي ص ٢٢

(١٠) أعوج (بلا لام) : فرس لبني هلال ؛ تنسب إليه الأعوجيات ، كان لكندة فأخذته سليم ، ثم صار إلى بني هلال ، بعد أن كان لبني آكل المرار . تاج (عوج) .

(١١) لم أجد فيما رجعت إليه من المراجع فرساً بهذا الاسم .

(١٢) لاحق : هناك أفراس كثيرة تسمى بلاحق ، والمشهور منها الذى يعد من سوابق الخيل في الجاهلية — فرس لغني بن أعصر ، وهو لاحق الأكبر . المخصص ١٩٤/٦ ، ١٩٦ ، ابن الكلبي ص ٢٢ ، تاج (لحق) .

(١٣) لم أجد في الذى رجعت إليه من المراجع فرساً بهذا الاسم .

(١٤) عفزر (كجعفر) : السابق السريع ؛ وهو فرس سالم بن عامر بن عريب الكناني أخي قيس ؛ له ذكر في ديوان هذيل . تاج (آخر عفر) . وفي الأصول : «عفرز» بتقديم الراء على الزاى ؛ وقد ورد كذلك بخط مرتضى الزَّبيدى في هذا البيت :

وطاب عن اللعاب نفسا وربه * وغادر قيسا في المكر وعفرزا

وقد نبه مصحح التاج على أنه تصحيف انظر التاج (لعب) .

(١٥) الزعفران : فرس لسمير بن الحباب ، ولآخرين . مخصص ١٩٦/٦ ، تاج (الزعفران) ابن الكلبي ص ٧١ .

والمُحبَّر (١) واللَّعَّاب (٢) ، والأغَرّ (٣) والغُراب (٤) ، وشُعْلَة (٥) والعُقاب (٦) ، والفَيَّاض (٧) واليَعْبُوب (٨) ، والمُذْهَب (٩) واليَعْسوب (١٠) ، والصَّمُوت (١١) والقُطَيْب (١٢) ، وهَيْـدَب (١٣) والصُّبَيْب (١٤) ، وأُهْلُوب (١٥) وهَدَّاج (١٦) ،

---

[٣] بالأصول : « وبداج والحرون » ، والمثبت عن كتب الخيل واللغة .

---

(١) المحبر : فرس لضرار بن الأزور الأسدى ، ولمالك بن نويرة . مخصص ٦/١٩٤ ، ابن الكلبي ص ٥٦ ، لسان (حبر) .

(٢) اللعاب (كـكتان) : اسم فرس لعله لهذيل . تاج (لعب) ، مخصص ٦/١٩٨ .

(٣) الأغر : اسم يقع على أفراس كثيرة ، ذكر معظمها فى القاموس وشرحه (غر) . وانظر المخصص ٦/١٩٥ ، ١٩٦ .

(٤) الغراب : فرس لغنى بن أعصر ؛ وكان العباس بن مرداس يفتخر بما صار إليه من بنات الغراب ، انظر المخصص ٦/١٩٦ ، ابن الـكلبي ص ٢٢ .

(٥) شعلة (بالضم ، وبلا لام) : فرس قيس بن سباح . تاج (شعل) ، ابن الـكلبي ص ٩٧ .

(٦) العقاب : فرس مرداس بن جعونة ، من خيل غنى بن أعصر ، ولطفيل الغنوى . المخصص ٦/١٩٧ ، وابن الـكلبي ص ٦٨ .

(٧) الفياض : فرس لبنى جعدة ، وقد ورد ذكره فى شعر النابغة الجعدى . ابن الكلبي ص ١٥و٢٦ ، أبو عبيدة ص ٦٧ .

(٨) اليعبوب : فرس الربيع بن زياد ، وكان يقال للربيع فارس اليعبوب . ابن الـكلبي ص ٧١ ، خزانة الأدب ١/٢٥ ، مخصص ٦/١٩٦ .

(٩) المـذهب : فرس لأبرهة بن عمر ، ولغنى بن أعصر ، ولبنى عبس . مخصص ٦/١٩٦ ، ١٩٧ ، ابن الـكلبي ص ٢٢ .

(١٠) اليعسوب : فرس للنبى صلى الله عليه وسلم ، وللزبير بن العوام ، وهو من بنات « العسجدى » . مخصص ٦/١٩٣ ، ابن الـكلبي ص ٢٠ ، ٣٠ .

(١١) الصموت : اسم واقع على أفراس كثيرة ، منها فرس لعباس بن مرداس السلمى . ابن الـكلبي ص ٧١ .

(١٢) القطيب : فرس صُرَد بن حمزة بن شداد اليربوعى ، سابَقَ به فرس أبى سواج الضبى . لسان (برا) ، مخصص ٦/١٩٥ ، ١٩٨ ، ابن الكلبي ص ٦١ .

(١٣) هيدب : فرس عبد بن عمرو بن راشد بن جزء بن كعب . مخصص ٦/١٩٧ ابن الـكلبي ص ٩١ ، ٩٢ .

(١٤) الصبيب (كزبير) : فرس من خيل العرب معروف . تاج (صبب) .

(١٥) أهلوب (كأسلوب) : فرس ربيعة بن عمرو . مخصص ٦/١٩٦ . تاج (هلب)

(١٦) هداج : فرس الريب بن شريق . تاج (هدج) .

والحَرُون[١] وخَراج[٢] ، وعَلْوَى[٣] والجَناح[٤] ، والأَحْوَى[٥] ومِجَاح[٦] ، والعصا[٧] والنَّعامَة[٨] ، والبَلْقاء[٩] والحَمامة[١٠] ، وسَكَاب[١١] والجَرَادة[١٢] ، وخَوْصاء[١٣] والعَرادة[١٤] ؛ فكم بين الشَّاهد والغائب ، والفُروض

(١) الحرون : فرس لعقبة بن مدلج ، ولعمرو بن مسلم الباهلي ، اشتراه من رجل من بني هلال ، ولجزء بن شريح بن الأحوص . مخصص ٦/١٩٥ ابن الكلبي ص ١١٧ .

(٢) خراج (كقطام) : فرس جُرَيبة بن الأشيم الأسدي . تاج (خرج) مخصص ٦/١٩٤ ، ابن الكلبي ص ٥٥ .

(٣) علوَى : فرس خفاف بن ندبة ، وقيل لخفاف بن عمير . وكانت علوى من سوابق الخيل عند العرب . تاج (علو) .

(٤) الجناح : فرس لعكاشة بن محصن ، ولمحمد بن مسلمة الأنصاري ، ولحذلم بن خالد ابن عمر الثقفي . مخصص ٦/١٩٤ ، ابن الكلبي ص ١٠٧ ، ٥٦ .

(٥) الأحوى : فرس لقبيصة بن ضرار الضبي ، ولعامر بن الطفيل . تاج ، لسان (حوا) ، مخصص ٦/١٩٥ ، ابن الكلبي ص ٥٢ .

(٦) مجاح (ككتاب) : فرس مالك بن عوف النضري (أو النصري) ، ويقال له فارس مجاح . مخصص ٦/١٩٤ ، ابن الكلبي ص ٧٠ ، تاج (مجح) .

(٧) العصا : فرس لجذيمة بن الأبرش ، وهي بنت العصية ، وفيهما ورد المثل : « لا تلد العصا غير العصية » ، و « إن العصا من العصية » . مخصص ٦/١٩٦ ، ابن الكلبي ص ٩٤ ، تاج (عصا) .

(٨) النعامة : فرس للحارث بن عباد ، ولنافع بن عبد العزى ، ولغيرهما . مخصص ٦/١٩٤ ، ابن الكلبي ص ١٠٦ ، تاج (نعم) .

(٩) البلقاء : فرس للأحوص بن جعفر ، ولقيس بن عيزارة الهذلي الشاعر ، ولسعد ابن أبي وقاص . تاج (بلق) .

(١٠) الحمامة : فرس لإياس بن قبيصة ، ولقراد بن يزيد . تاج (حم) .

(١١) سكاب : فرس لعبيدة بن ربيعة ، وللأجدع بن مالك . مخصص ٦/١٩٥ ، ابن الكلبي ص ١٠٠ .

(١٢) الجرادة : فرس لعبد الله بن شرحبيل الهلالي ، ولسلامة بن نهار بن أبي الأسود ابن حمران بن عمرو بن الحارث السَّدوسي ، ولعبادة الأنصاري . مخصص ٦/١٩٦ ، ابن الكلبي ص ٩٣ ، ٧٤ .

(١٣) الخوصاء : فرس توبة بن الحمير ، وله فيها شعر . مخصص ٦/١٩٦ ، ابن الكلبي ص ٧٧ .

(١٤) العرادة (كسحابة) : فرس لكاحبة العرني ؛ وهو هبيرة بن عبد الله بن عبد مناف العرني ، ولآخرين . مخصص ٦/١٩٥ ، ابن الكلبي ص ٤٧ ، تاج (عرد) ، (كلحبة) .

والرَّغائب[١] ، وفرقُ ما بينَ الأثْر والعِيَان ، غَنِيّ عن البَيان ؛ وشتَّان بيْن الصَّريح والمشْتبِهِ ؛ ولله درُّ القائل :

« خُذ ما تَراه ودَعْ شيئاً سَمِعتَ به[٢] »

والنَّاسخُ[٣] يختَلِف به الحُكم ، وشَرُّ الدوابِّ عند التفضيل بين هذه الدَّوابّ الصُّمُّ البُكم[٤] ، إلا ما رَكِبَه نَبِيّ ، أو كان له يَوم الافتخار برهانٌ خَفِيّ[٥] ، ومُفَضِّلُ ماسَمِعَ عَلَى مارَأَى غَبِيّ ؛ فلَو أنْصِفَتْ محاسنُها التى وُصِفت ، لأقضِمتْ[٦] حَبَّ القلوب عَلَفا ، وأوردت ماء الشَّبِيبَة نُطَفا[٧] ؛ واتخذَت لها من عُذَر[٨] الخدود الملاَح عُذَرَ مَوْشِيَّة[٩] ، وعُلِّلَت بصفير ألحان القِيان كلّ ٥

---

[٢] صبح نثير : « ولله در القائل فى مثلها » [٥،٦] طب : « برهان خفى »
[٧] نثير : « نطفا ، واتخذ لها » .

---

(١) الرغائب : جمع رغيبة ، وهى الأمر المرغوب فيه . وفى الحديث لابن عمر لا تدع ركعتى الفجر ، فإن فيهما الرغائب ؛ أى ما يرغب فيه من الثواب العظيم . تاج (رغب) ، الدر الثمين شرح المورد المعين ٢/١٢ .

(٢) صدر بيت للمتنبي من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ؛ وعجزه عن شرح العكبرى ٢/٦٨ طبع الشرفية سنة ١٣٠٨ هـ :

« . . . . * فى طلعة البدر ما يغنيك عن زحل »

(٣) النسخ فى مصطلح أهل أصول الفقه : إنهاء حكم شرعى ثبت بنص شرعى ، وإحلال حكم آخر بدله بنص شرعى جاء دليلا على انتهاء الحكم الأول والناسخ : هو النص الأخير الذى بمقتضاه يرتفع الحكم الأول ، ويلغى النص السابق . وانظر شرح تنقيح القرافى ص ١٣٢ .

(٤) الاشارة إلى الآية ٢٢ من سورة الأنفال . ويريد : أن فضل خيولك هذه من الوضوح بحيث لا يخفى إلا على من كانت هذه حالته من تعطل آلات التميز مع تملكها . وتلك هى حالة من وصفتهم الآية المشار إليها ، وما سبقها ، ولحقها من الآيات .

(٥) خفى : خاف مستور .

يريد : لا فضل لقديم من الخيل على محدَث منها ، إلا أن يجيء التفضيل من حيث إن النبي (صلعم) ركب فرسا ، فيفضل بهذا الاعتبار .

(٦) القضم : أكل القضيم ، وهو شعير الدابة ، وأقضم الدابة : قدم لها القضيم .

(٧) النطفة : الماء الصافى ؛ والجمع نطف :

(٨) العذار : خط لحية الغلام ؛ والجمع عذر .

(٩) العذار من اللجام : السيران اللذان يجتمعان عند قفا الفرس ؛ والجمع عذر .

عَشية ؛ وأُنعِلت بالأَهِلَّة ، وغُطِّيت بالرياض بَدَلَ الأَجِلّة[1] .

إلى الرقيق[2] ، الخليق بالحُسْن الحقيق ، يَسوقه إلى مَثْوى الرِّعاية رُوقَة[3] الفتيان رُعاتُه ، ويُهدِي عقيقَها من سَبَجه[4] أشكالاً تَشهَد للمُخترِع سُبْحانَه بإحكام مُخترَعاته ، وقَفَتْ ناظرَ الاستحسان لا يَرِيم[5] ، لِما بَهَره منظرُها الوسيم ، وتَخامل الظَّلِيم[6] ، وتَضاءل الرِّئم[7] ، وأُخرِسَ مُفوَّه[8] اللسان ، وهو بمَلَكات البيان ، الحفيظُ العليم ؛ وناب لسانُ الحال ، عَن لسان المقال ، عنـد الاعتقال[9] ، فقَال يُخاطِب المقام الذى أَطلعتْ أزهارَها غمائمُ جُوده ، واقتَضَت اختيارَها بركاتُ وجُوده : لو علمنا أيهـا المَلِك الأَصـيل ، الذى كرُم منه الإجمالُ والتَّفصيل ، أن الثَّناء يُوازِيها ، لَـكِلْنا لَكَ بكَيْلك ، أو الشُّـكرَ يعادِلُهـا ويُجازِيها ، لتعرَّضنا بالوَشَل[10] إلى نِيل نَيْلك[11] ، أو قُلْنا هى التى أشار إليها مُستَصْرِخ سَلَفك المستَنصِر[12] بقَوله : « أدرِكْ بخَيْلك »[13] ، حين

[٢] تثير ، طب : « تسوقه إلى » [٤] حاشية طب ، صبح ، تثير : « منظرها الـكريم »
[٨] تثير : « اختيارها بركة » [١٠] تثير : « يعادلها أو يجاريها » .

(١) جُل الدابة : ما تغطى به ، والجمع جلال ؛ وجمع جلال : أجلة .
(٢) الرقيق : الضعيف لا صبر له على شدة البرد ، ونحوه .
(٣) الروقة من الغلمان : الملاح منهم ؛ يقال غلمان روقة : أى حسان ، والمفرد رائق .
(٤) السبج : خرز أسود .
(٥) لا يريم : لا يبرح .
(٦) الظليم : ذكر النعام ؛ وفرس فضالة بن شريك الأسدى .
(٧) الرئم : الظبي الخالص البياض .
(٨) رجل مفوّه : يجيد القول .
(٩) اعتقل لسانه : حبس ، ولم يَقدر على الـكلام .
(١٠) الوشل : الماء القليل .
(١١) النِّيل : نهر مصر حاطها الله . والنَّيل (بالفتح) : العطاء .
(١٢) هو أبو بكر يحيى بن عبد الواحد الحفصى . وانظر الحاشية رقم (٢) ص ٩ .
(١٣) يشير إلى قصيدة ابن الأبار التى مطلعها : « أدرك بخيلك خيلَ الله أندلسا » . وانظر ص ٩ .

شَرق بدمعه الشَّرْق[1] ، وانهزَم الجَمْع واستولَى الفَرْق ، واتَّسع فيه — والحكمُ لله — الخَرْق[2] ، ورأى أنّ مقَام التَّوحيد بالمَظاهرة على التَّثليث ، وحِزبه الخَبيث ، الأولَى والأحقّ .

والآن قد أغنَى الله بتلك النِّية ، عن اتِّخَاذ الطِّوال الرُّدَيْنيَّة[3] ، و بالدُّعاء من تلك المَثابة الدِّينيَّة ، إلى ربِّ البَنِيَّة[4] ، عن الأَمداد السَّنية ، والأجوادِ تخوضُ بحرَ المَاء إلى بحر المَنية ، وعن الجُرْد العَرَبية ، في مَقاود اللُّيوث الأَبية ؛ وجدِّد برَسم هذه الهَدية ، مراسيم العُهود الوُدِّية ، والذِّمم المُوحِّدية ، لتكونَ علامة على الأصل ، ومكذِّبةً لدعوَى الوقْفِ والفَصْل ، و إشعاراً بالأَلفة التى لا تَزال أَلِفُها أَلِفَ الوصْل ، ولأمُها حراماً على النَّصْل[5] .

١٠ وحَضَر بين يدَيْنا رسولُكم ، فقرَّر من فَضلكم مالا يُنكِره مَن عَرفَ / [٤٤ب] عُلُوَّ مقداركم ، وأصالةَ داركم ، وفلَكَ إبْدارِكم ، وقُطْبَ مَدَاركم ؛ وأجبناه عنه بجَهْدٍ[6] ما كنَّا لنَقنعَ مِن جَناه[7] المُهْتَصَر[8] ، بالمقتضَب المُختَصَر ، ولا لِنُقابلَ

---

[٣] صبح ، نثير : « الخبيث هو الأولى » ، نثير : « لكن قد أغنى » [٤] طب ، نثير : « عن اتخاذ الطوال » [٥ ، ٦] نثير : « تخوض بحار الماء إلى بحار المنية ، وأعنة الجرد » [٦ ، ٧] نثير : « لجدد برسم » [٨] بالأصلين : « لدعوى الوقف والوصل » . والمثبت عن الصبح ، ونثير الجمان [٩] نثير : « ألفها بحول الله ألف الوصل » .

---

(١) يريد شرق الأندلس .

(٢) يشير إلى المثل : « اتسع الخرق على الراقع » الذى يقال عند استفحال الأمر ، والعجز عن إصلاحه . تاج (خرق) .

(٣) الردينية : منسوبة إلى ردينة ، وهى امرأة السمهرى ؛ وكانا يقوّمان الرماح والقنا بخط هجر ؛ فيقال : الرماح الردينية ، والخطية ؛ نسبة إلى الشخص تارة ، وإلى الموضع أخرى .

(٤) البنية : الكعبة ، وكانت تسمَّى بنية ابراهيم ؛ وكثر قسمهم بها فيقولون : « لا ورب هذه البنية » .

(٥) اللام : جمع لأمة ؛ وهى الدرع . والنَّصل : حديدة السهم والرمح . وانظر اللسان (نصل) . (٦) الجهد (بالفتح) : المشقة .

(٧) الجنَى : ما يجتنى من الشجر وغيره .

(٨) المهتصر : المائل ؛ يقال هصرت الغصن : إذا أملته إليك .

طُولَ طَوْلِه[1] بالقِصَر ، لولا طُرُوُّ الحَصَر[2] .

وقد كان بين الأَسْلاف — رحمةُ الله عليهم ورضوانُه — وُدٌّ أُبرِمَت من أجل الله مَعَاقِدُه[3] ، ووُثِّرت للخُلوص[4] ، الجَلِيِّ النُّصوص ، مَضاجِعُه القارّة ومَراقِدُه ، وتَعاهُدٌ بالجميل يُوجَع لفَقْده فاقِدُه ، أبَى اللهُ إلا أن يكونَ لكم الفضل فى تَجديده ، والعَطْف بتَوكيده ؛ فنحن الآن لا نَدرى أىَّ مَكارمكم نَذكُر ، أو أىَّ فَواضلكم نَشْرَح أو نَشْكُر ، أمُفَاتَحَتُكم التى هى فى الحقيقة عندَنا فَتح ، أم هَدِيَتُكم ، وفى وصْفِها للأقلام سَبْح[5] ، ولعَدُوِّ الإسلام بحكمة حكمتها كَبْح[6] ، إنّما نَكِلُ الشُّكر لمن يُوَفِّى جَزاءَ الأَعمال البَرَّة ، ولا يَبْخَس مِثقالَ الذَّرَّة ولا أدنى مِن مِثقال الذَّرَّة ، ذى الرَّحمة الثَّرَّة[7] ، والأَلطافِ المُتَّصِلَة المُسْتَمِرَّة ، لاَ إلهَ إلاَّ هو .

وإن تَشَوَّفتم إلى الأحوال الرَّاهنة ، وأسبابِ الكُفْر الوَاهِيَة — بقُدرة الله — الوَاهِنَة[8] ، فنحن نُطرِفُكم بطُرَفِها[9] ، ونُطْلِعُكم على سَبيل الإجمال بطَرَفِها ؛ وهو أنّنا لمّا أعادَنا اللهُ من التَّمحيص ، إلى مَثَابة التَّخصيص ، من بَعْدِ المَرَام

---

[٢] تير : « رحمة الله ورضوانه عليهم » [٣] صبح : « وورثت الخلوص » تصحيف [٤] تير : « توجّع لفقده فيما سلف فاقده » [٦] صبح : « فواضلكم نشكر » ، تير : « فضائلكم نشكر » [١١، ١٢] تير : « الكفر الواهية الواهنة » [١٢] تير : « نطلعكم على الإجمال » [١٣] طب : « وهو أن لما أعاذنا » ، تير : « أننا منذ أعاذنا » .

---

(١) الطول (بالضم) : خلاف العرض . والطول (بالفتح) : النعمة ، والفضل » .
(٢) الحصر : العِىُّ ، وعدم القدرة على الإبانة .
(٣) المعاقد : مواضع العقد .
(٤) وثر الفراش (بالضم) : وطؤ ولان .
(٥) السَّبح : الجرى .
(٦) كبح الفرس : جذبه إليه باللجام يمنعه عن الجرى .
(٧) الرحمة الثرة : الغزيرة الكثيرة .
(٨) وهى ، ووهن : ضعف .
(٩) جمع طرفة (بالضم) ؛ وهى أن يعطى المرء ما لم يملكه فيعجبه .

العَويص ، كَحَلْنا بتوفيق الله بصَر البَصيرة ، ووقَفْنا على سَبيله مسَاعِيَ الحياة القَصيرة ، ورأينا — كما نُقِلَ إلينا ، وكُرِّر على مَن قَبْلَنا وعَلَينا — أن الدُّنيا — وإن غَرَّ الغَرُور(١) ، وأنَام على سُرُر الغَفْلة السُّرور ، فلم ينفَع الخُطور(٢) على أجْدَاث(٣) الأحبَاب والمُرور ، — جِسْرٌ يُعبَر ، ومَتَاع لا يُغْبَط من حُبِي به ولا يُحْبَر(٤) ، إنما هو خَبَر يُخَبَّر ؛ وأن الحَسْرة بِمِقدار ما على تَرْكِه يُجْبَر ، وأن الأعمار أحْلاَم ، وأنَّ النَّاسَ نِيَام ؛ ورُبما رَحَل الرَّاحِلُ عن الخَان(٥) ، وقد جَلَّله بالأذَى والدُّخَان ، أو تَركَ به طِيباً ، وثَناء يقوم بَعْدُ لِلآتِى خَطيباً ؛ فجعلنا العَدْلَ في الأمور مِلاكا(٦) ، والتفقّد للثُّغور مِسْوا كا ، وضجيعَ المِهاد ، حديثَ الجِهاد ، وأحكامَه مَناطَ الاجتهَاد ، وقولَه : « يَأيها الذين آمنُوا هَل أدُلُّكم عَلَى تِجارة »(٧) من حُجَج الاستشْهاد ؛ وبادَرنا رَمَق(٨) الحصُون المُضَاعة وجُنْح(٩) التَّقِيَة(١٠) دَامس(١١) ، وعَوَاريها(١٢) لا تَرُدُّ يَدَ لامِس(١٣) ، وسَاكِنُها

[٥] تير : « ولا يحبر وإنما » [٥] صبح : « على تركه تجبر » [٧] طب : « بعد الآتى خطيبا » تصحيف [١١] طب ، تير : « دامس ، وعوراتها »

(١) الغرور (بالفتح) : الشيطان ؛ وفي القرآن : « ولا يغرَّنكم بالله الغَـرور » .

(٢) الخطور : التبختر في المشى . (٣) جمع جدَث : وهو القبر .

(٤) يحبر : ينعم ويسر ويكرم .

(٥) الخان : المكان الذى ينزله الناس في المدن ، والطرق ، وهو الفندق . وانظر المعرَّب ص ٢٣٩ .

(٦) ملاك الأمر : ما يقوم به ذلك الامر .

(٧) يشير إلى الآيات (١٠ — ١٣) من سورة الصَّـفّ .

(٨) الرمق : بقية الحياة والروح . وفي الـكلام تجوُّز .

(٩) جنح الطريق : جانبه ، وجنح القوم : ناحيتهم .

(١٠) التقية : الحفظ .

(١١) ليل دامس : مظلم .

(١٢) جمع عارية ؛ وهي المتجردة من الثياب . والعورات : الخلل في الثغر وغيره ، يتخوف منه في الحروب .

(١٣) يقال للمرأة تزنّ بالفجور : لا ترد يد لامس ؛ أى لا ترد من يريدها عن نفسها .

بائس ، والأعصمُ(١) فى شَعَفَاتِها(٢) من العِصْمة يائس ؛ فزيّنّا ببيض الشُّرُفات ثَنايَاها ، وأفعمْنا بالعَذْب الفُرات رَكَايَاها ، وغشّيْنا بالصَّفيح المضَاعَفِ أبوابَها ، واحْتَسَبْنَا عند مُوَفِّى الأجور ثَوابَها ، وبَيّضْنا بناصِع الكِلْسِ(٣) أثوابَها ؛ فهى اليومَ تُوهِم حِسّ العِيَان ، أنها قِطَع من بِيضِ العَنَان(٤) ، وتَكاد تَناوَلُ قُرْصَ البَدْر بالبَنَان ، متكفّلةً للمؤمنينَ من فزَع الدُّنيا والآخِرة بالأمان ؛ ٥
وأقرَضْنا الله قرْضا ، وأوسَعْنا مُدوَّنَةَ الجَيْش(٥) عَرْضا ، وفرَضْنا إنصَافه مع الأهلّة فَرْضا ؛ واستَنَدنا من التّوكل على الله الغنيّ الحَميد إلى ظِل لوَاء ، ونبَذنا إلى الطّاغية عهْدَه عَلَى سَوَاء(٦) وقلنا : رَبّنا أنتَ العزيز ، وكُلُّ جبّار لعزّك ذَليل ، وحِزْبُك هو الكَثِير ، ومَا سِواه قَليل ؛ أنتَ الكافى ، ووَعْدُك الوَعْدُ الوَافى ، فأفِضْ(٧) علينَا مَدَارِع(٨) الصّابرين ، واكتُبْنا مِنَ الفائزين بحُظوظ ١٠
[٤٥ ا] رِضَاك الظّافرين ، وثبّت أقدامنا وانصُرْنا على القوْم الكافرين /.
فتحَركنا أولَ الحَركات ، وفاتحةَ مُصْحَف البَركات ، فى خِفّ(٩) من الحُشُود ،

[٤ ، ٥] صبح نثير : « بيض العنان تكاد ..... متكفلة للمؤمن » [٨ ، ٩] نثير : « وكل جبّار عنيد لعزك ذليل » [١٠] نثير : « واكتبنا مع الفائزين » [١٢] صبح ، نثير : « فتحركنا أولى الحركات » .

---

(١) الأعصم : الوَعِل ، وعُصمته : بياض فى رجله .
(٢) الشعفات ، جمع شعفة ؛ وهى رؤس الجبال .
(٣) الكلس ؛ يشبه الجصّ ؛ يبيّض به ، ويتخذ للبناء بين الآجر ، واللّبِن .
(٤) العنان : السّحاب .
(٥) يريد الجيش الرسمى الذى كان مدوّناً فى سجلات الدّولة . وفى مقدمة الإحاطة ١/١٩ ، ٣٦ وصف للجيش الأندلسى ، وسلاحه ، وأقسامه ، وذكرٌ لمقدار ما كان يأخذه كل شهر . وانظر اللمحة البدرية ص ٢٧ .
(٦) نبذ العهد : نقضه ، وألقاه إلى من كان بينه وبينه . والتعبير مقتبس من الآية ٥٨ من سورة الأنفال .
(٧) أفِضْ : أفرغ .
(٨) جمع مدرع : وهو ضرب من الثياب . والكلام على التوسّع .
(٩) الخف : الخفيف .

واقتصارٍ على ما يحضرتنا من العساكر المظفَّرة والجُنود ، إلى حصْن آشَر البَازِى المُطِلّ ، ورِكَاب العَـدوّ الضالّ المُضِلّ ، ومُهْدِى نَفَثَات[1] الصِّلّ[2] ، عَلَى امتِنَاعه وارْتِفاعه ، وسُمُوِّ يَفَاعه[3] ، ومَا بَذَل العدُوُّ فيه من استِعدادِه ، وتَوفير أَسلِحته وأزوادِه ، وانتخـاب أَنْجَاده ؛ فَصَلِينَا بنَفْسِنَا نَارَه ، وزاحَمْنا عَليه

٥ الشهداء نُصابِرُ أُوَارَه[4] ونَلْقَى بالجَوارح العَزِيزة سِهَامَه المَسْمُومَة ، وجَلاَمِدَه المَلْمُومَة[5] وأحجارَه ، حتى فَرَعنا[6] — بحَول من لاَحَولَ ولا قُوةَ إلا بِهِ — أبراجَه المَنيعَة وأسوارَه ، وكَفَفْنا عن البِلاَدِ والعِباد أَضرارَه ، بَعْدَ أن استَضَفْنا إليه حِصْنَ السَّهْـلَة جارَه ؛ ورَحَلنَا عنه بَعـد أن شَحَنَّاه رَابطةً وحَامية ، وأزوَاداً نامِية ، وعَمِلْنا بيدِنا فى رَمِّ ما ثَلَمَ القِتال ، وبقَرَ من بُطُون مُسَابِقَة

١٠ الرِّجال ، واقتَدَيْنا بنَبِيِّنا — صلوات الله عليه وسَلاَمه — فى الخَنْدَق[7] لمَّا حَمَى ذلك المَجَال ، ووقَع الارتِجَاز المَنقُول حَديثُه والارتجال[8] ؛ وما كان

[٤] تشير : « فصلينا بنفس ناره » [٦] تشير : « حتى فرعنا بحولنا من لا حول ولا قوة إلا به » [٧] صبح ، تشير : «عن العباد والبلاد» [٩، ١٠] صبح : «مسالحه الرجال» [١٠] تشير : «عليه فى الخندق» [١١] صبح ، تشير : «المنقول خبره» .

(١) نفثت الحية السم : إذا لسعت بأنفها ، فاذا عضت بنابها قيل : نشطت .

(٢) الصل (بالكسر) : الحية التى لا تنفع فيها الرقية .

(٣) اليفاع : ما ارتفع من الأرض .

(٤) الأوار (بالضم) : حرارة النار ، والشمس ، والعطش .

(٥) جلامدة ، جمع جلمد ؛ وهو الصخر . والملمومة : المستديرة الصلبة .

(٦) فرعنا : فتحنا ، من الفرع بمعنى الفتح .

(٧) كانت غزوة الخندق فى السنة الخامسة من الهجرة . وانظر الروض الأنف ١٨٧/٣ الطبرى ٤٣/٣ .

(٨) نقل السُّهيلى فى الروض الأنف عن أبى عثمان عبـد الرحمن بن مُل النهدى : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرتجز يوم الخندق فيقول :

* بسم الإله وبه بدينا *

* ولو عبـدنا غيره شقينا *

* فحبّذا ربا وحب دينا *

وانظر سـيرة ابن هشام ٢٢٧/٣ ، ٢٢٨ . وفى أحكام القرآن لابن العربى المعافرى ١٩٢/٢ — ١٩٥ بحث قيم فى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال شعراً أو لم يقله .

ليقرّ للإسلام مع تركه القرار ، وقد كثب الجِوَار ، وتداعى الدَّعَرةُ[1] وتعاوى الشرار[2] .

وقد كنّا أغزينا مَن بالجهة الغربية من المسلمين بمدينة بُرْغة التى سدّت بين القاعدتين رُنْدة ومالَقة الطريق ، وألبست ذُلّ الفراق ذلك الفريق ، ومنعتهما أن يُسيغا الرِّيق ؛ فلا سَبيل إلى الإلمام ، لطيف المنام ، إلا فى الأحلام ، ولا رسالة إلا فى أجنحة هُدُل[3] الحمام ؛ فيسّر اللهُ فتحها ، وعجّل منحها ، بعد حرب انبتّت فيها النُّحور ، وتزيّنت الحُور . وتبع هذه الأمّ بنات شهيرة ، وبُقَعُ الزَّرع والضَّرع خِيَرَه[4] ، فشُفى الثغرُ من بُوسه ، وتهلّل وجهُ الإسلام بتلك الناحية النّاجية بعد عبوسه .

ثم أعملنا الحركة إلى مدينة إطريرة ، على بُعد المدى ، وتغلُّفها فى بلاد العِدَا ، واقتحام هَوْل الفلا وغُول الرَّدى ؛ مدينة تبنّتها حِمصُ[5] فأوسعت الدّار ، وأغلت الشُّوَار[6] ، وراعت الاستكثار ، وبسطت

[١] أصل أياصوفية ، صبح : «ليقر الاسلام من تركه» ، نثير : «ليقر للاسلام مع تركه» . [٣] صبح : « وكنا أغزينا » [٤] صبح : « مالقة ورندة » صبح ، نثير : « الطريق ، ومنعتهما الخ » [٦] صبح ، نثير : « هدى الحمام » [٧] طب : حرب أثبتت » تصحيف ، نثير : وزينت فيها الشهداء الحور » [١١] فى الأصلين : « وحول الردى » . والمثبت عن الصبح ، ونثير الجمان .

(١) رجل داعر (بالمهملة) : يسرق ، ويزنى ، ويؤذى الناس ؛ والجمع دَعَرة .

(٢) تعاوت الشرار : تجمعت للفتنة ؛ وتعاووا عليه : تعاونوا وتساعدوا .

(٣) الهديل : ذكر الحمام . والجمع هدُل ، كسرير وسرُر .

(٤) الخيره : المختار من كل شىء ؛ يريد : بقاع مختارة للزرع والضرع .

(٥) يريد إشبيلية ؛ سماها حمص جند بنى أمية الذى نزل بها حين جاء من حمص الشام . وقد فعلوا ذلك فى كثير من مدن الأندلس . وانظر ياقوت ٣٤٢/٣ .

(٦) الشوار : متاع البيت ؛ ويريد به ما تعارف عليه الفقهاء ، مما يشترى من الصداق الذى يدفعه الزوج ، وتجهز به الزوجة من حلى ، وغطاء ، ووطاء الخ ؛ ذلك لأنه جعل « حمص » أمّاً لإطريرة قد زوجتها وجهزتها ، فتنالت — لما فى الأم من حب لابنتها — فى هذا الجهاز الخ . فجاء بالألفاظ الفقهية بمعانيها التى اصطلحوا عليها . وانظر شرح تحفة الحكام ٢٢٦/١ .

الاعْتِبار[١] ؛ رجّح لدَينا قَصْدَها على البُعد ، والطَّريق الجَدد ، ما أسْفَتْ[٢] به المُسْلِمين من استئصال طائفة من أسْرَاهم ، مَرّوا بهَا آمنين ، و بطَائرها المشْئوم متيَمِّنين ، قد أنهَكَهم[٣] الاعتقال ، والقيُودُ الثّقَال ، وأضرَعهم الإسَار ، وجلّلهم الانكسار ، فَجدّلوهم[٤] في مَصْرع واحِد ، وتركوهم عِبْرةً للرّائي والمُشَاهِد ، وأهْدَوا بوقيعتهم إلى الإسلام ثُكْلَ الوَاجِد[٥] ، وتِرَةَ المَاجد[٦] ؛ فكَبَسْنَاها كَبْسا ، وفجَأناها بإلهام مَن لا يَضِلّ ولا يَنسَى ، وصبَّحتها الخَيْل ، ثم تلاحَقَ الرَّجْلُ لمَّا جَنَّ اللَّيل ، وحَاق بِهَا الوَيْـل ؛ فأبيح منهَا الذّمَار[٧] ، وأخذَها الدَّمار ، ومُحِقَتْ من مَصَانعها البيضُ الأهِلّة وَخَسَفَت الأقمار ، وشُفِيَتْ[٨] من دِماءِ أهلهَا الضُّلُوع الحِرَار[٩] ، وسُلِّطَت على هَيا كِلها النَّار ، واستَولَى عَلَى الآلاف العَديدة من سَبْيها الإسَار ، وانتَهَى إلى إشبيلية الثَّكلَى المُغَار[١٠] ، فجَلَّلَ وُجوهَ مَن بها من كِبار النّصرانية الصَّغَار[١١] ، واستَوْلَت الأيدِي عَلَى ما لا يَسَعُه الوَصفُ ولا تُقلّه[١٢] الأوقَار[١٣] .

---

[١] نثير : « رجح قصدها الدنيا » [٢] نثير : « أسراهم خرجوا إليه آمنين ، وبطيرها »
[٥] طب : « وثرة الماجد » [٦،٧] نثير : « لما جنّ الليل ، وانحدر السيل ، وحاق »

---

(١) يريد بالاعتبار : الاستبصار ، والاستغلال .
(٢) أسفاه : أطاشه حلمه ، وحمله على الطيش .
(٣) أنهكهم : أجهدهم ، وأضناهم .
(٤) فجدّلوهم : صرعوهم .
(٥) الثكل : فقد المرأة ولدها ، وفقد الرجل ولده أيضا . والواجد : الغضبان .
(٦) الترة : الذحل والثأر . والماجد : الكريم ، ومن له آباء متقدمون في الشرف .
(٧) الذمار : ما وراء الرجل مما يحق له أن يحميه . والدمار (بالمهملة) : الهلاك .
(٨) شفيت : عولجت . (٩) الضلوع الحرار : العطشى .
(١٠) المغار : مصدر ميمي بمعنى الإغارة .
(١١) جلل وجوههم : عم وجوههم . والصغار : الذّل .
(١٢) أقلّ الشيء : أطاق حمله .
(١٣) الأوقار ، جمع وقر ؛ وهو الحمل . وأكثر ما يستعمل في حمل البغل والحمار .

وَعُـدْنا والأرضُ تَموج سَبْيا ، لم نَتْرُكْ بِعِفِرِّينَ شِبْلاً[١] ولا بِوَجْرَةَ ظَبْيا[٢] ، والعَقَائلُ[٣] حَسْرَى ، والعُيون يَبْهرَهـا الصُّنْعُ الأسْرَى[٤] ، وصُبْحُ السُّرَى قَد حُمِدَ من بَعْدِ المَسْرَى[٥] ، فسُبْحَان الذى أَسْرَى[٦] ؛ ولِسَانُ الحَمِية يُنادِى ، فى تِلكَ الكَنائِس المُخَرَّبة والنَّـوادِى : بِالثَّاراتِ الأَسرَى ! ٥

ولم يَكن إلا أن نُفِلَت الأنفال[٧] ، ووُسِمَتْ بالأَوْضَاحِ الأَغْفَال[٨] ، وتَميَّزَت الهَوَادِى والأَكْفَال[٩] ، وكانَ إلى غزْوِ مَدينَة جَيَّانَ الاِحْتِفَال ، ٤٥ب] قُدنَا إليْها الجُرْدَ[١٠] تُلَاعِب الظِّلال / نَشَاطا ، والأبطالُ تَقتَحِم الأخطار رِضَى بِما عندَ الله واغْتِباطا ، والمُهَنَّدَةُ الدُّلُق[١١] تَسبِق إلى الرِّقَاب استلالاً واختراطا ، واستَكْثَرْنا من عُدَد القِتال احتياطا ، وأزَحْنا العِلَل عَمَّن أراد جِهاداً مُنجيا غُبَارُه ١٠

---

[٦] تيمر : «ووسمت بسمات الاساخ الأغفال» [٩] صبح ، تيمر : «والمهندة الدلق» ،
[٩ ، ١٠] صبح : « واختراطا ، والرديفية السمر تسترط حياة النفوس استراطا ، وأزحنا» ،
تيمر : « واختراطا ، والرديفية . . . . . استراطا ، واستكثرنا من عدد الخ » .

---

(١) عِفِرِّين (بكسر العين والفاء وتشديد الراء) : بلد تكثر فيه الأسود . والشبل : ولد الأسد .

(٢) وجرة : فلاة بوسط نجد ، لا تخلو من شجر ، ومياه ، ومرعى . والوحش فيها كثير . (تاج — وجر) .

(٣) جمع عقيلة ؛ وهى المرأة الكريمة ، النفيسة .

(٤) الصنع الأسرى : الأشرف ، والأرفع .

(٥) ينظر إلى المثل : « عند الصباح يحمد القوم السُّرى » ، الذى يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة . انظر الميدانى ٢/٣٠٤ .

(٦) اقتباس من الآية ١ من سورة الإسراء . وأسرى : سار ليلا .

(٧) الأنفال ، جمع نَفَل ؛ وهو الغنيمة . ونُفلت : أعطيت .

(٨) الأوضاح ، جمع وضح ؛ وهو البياض . والأغفال : الأراضى الموات ؛ يقال أرض غُفْل : لا عَلَم بها ، ولا سمة .

(٩) هوادى كل شىء : أوائله . يريد : تميز الشجعان الذين كانوا يتصدرون المعركة ، من الأكفال (جمع كفل) : وهم الذين يكونون فى مؤخر الموقعة همهم التأخر ، والفرار .

(١٠) جمع أجرد ؛ وهو الفرس القصير الشعر ، وذلك فى علامات العتق والكرم .

(١١) سيف دلق : سهل الخروج من غمده ؛ والجمع : دلق .

من دُخَان جَهَنَّم ورِبَاطا ، ونادَيْنا الجِهادَ ! الجهادَ ! يا أُمَّة الجهاد ! رَايَةَ النَّبِيِّ المَادَ ! الجنَّةُ تَحْتَ ظلال السُّيوف الحِداد ! ؛ فهزَّ النداءُ إلى الله تعالى كلَّ عَامِرٍ وغَامِرٍ [1] ، وائتمر الجمُّ من دَعوى الحَق إلى أمرٍ آمِرٍ ، وأتَى النَّاسُ من الفُجُوجِ [2] العَمِيقَة رِجَالاً وعلى كُلِّ ضَامِرٍ [3] ، وكَاثَرتِ الرَّايَاتُ أزهَار البِطَاحِ لَونًا وَعَدًّا ، وَسَدَّت الحُشود مسالكَ الطَّرِيق العَرِيضَة سَدًّا ، ومُدَّ بحرُها الزَّاخِرِ مَدًّا ، فلاَ يجد لها النَّاظِر وَلاَ المُنَاظِر حَدًّا .

وهَـذه المَدينة هي الأمُّ الوَلُود ، والجنَّة التي في النَّار لِسُكَّانِها من الكُفَّار الخُلُود ؛ وكُرْسِيُّ المُلْك ، ومُجَنَّبَةُ [4] الوُسْطَى من السِّلْك ؛ باءت بالمَزَايا العديدَة وَبَجَحَتْ ، وعِنـدَ الوِزَان بغَيرها من أُمَّات [5] البُلْدَان ، رَجَحَت ، غَابُ الأسود ، وجُحْر الحَيَّات السُّود ، ومُنَصَّب [6] التَّمَاثيل الهَائِلَة ، ومُعَلَّقُ النَّواقِيس الصَّائِلَة [7] .

فأدْنَيْنا إليهـا المَراحِل ، وعتَيْنا بِبحَار المُحِلاَّت المُسْتَقِلات مِنها

---

[٦] تير : « الزَّاخر — والله مكثر القليل — مدًّا » تير : « فلا يجد لها الناظر والمناظر » [٩] تير : « بغيرها من أمهات البلدان » [١٢] في أصل أياصوفية : « وعدنا سحار » ، طب : « وعنا سحار » ، صبح : « وعينا لتجار » ، تير : « وعبنا البحار » ولعل الصواب ما أثبت .

---

(١) العامر من الأرض : المستغَل . والغامر : الذى يغمره الماء ؛ ويراد به الأرض التى لم تستعمر . يريد : أقبل الناس من كل جانب .

(٢) جمع فج ؛ وهو الطريق البعيد ، والواسع ، والذى بين جبلين .

(٣) الجمل الضَّامر : الخفيف الجسم .

(٤) المجنَّبة : التى تأخذ مكانها جانب الجوهرة الوسطى من العقد . يريد أن مدينة جيان تحتل المرتبة الثانية بالقياس إلى حضرة الملك .

(٥) أمات ، جمع أم ؛ ويغلب أن تأتى جمعاً لأم ما لا يعقل . وانظر اللسان « أم » ، « أمه » .

(٦) منصَّب : اسم مكان ، بمعنى الموضع الذى أقيمت فيه هذه التماثيل .

(٧) لعله يريد المصَلْصِلة ، بمعنى المصوتة . أما الصائلة : فمن صال إذا تطاول وبنى . وترفَّع .

السَّاحِل[1] ، وَلما أَكْثَبْنا[2] جُوَارَها ، وكِدْنا نلمتَحِح[3] نَارَها ، تحرّكنا إليها ووشاحُ[4] الأفُقِ المَرْقُوم ، بزُهْرِ النُّجُوم ، قَدْ دَار دَائرُه ، والّليلُ من خَوف الصَّباح ، عَلَى سَطْحِه المُسْتَباح ، قَدْ شَابَتْ غَدَائرُه ، وَالنَّسْرُ[5] يُرفرف بالْيُمْن طَائرهُ ، والسِّماكُ الرَّامِح[6] يثْأَرُ بعزّ الإسْلام ثَائِرُه ، والنَّعائمُ راعِدَةٌ[7] فَرائِصَ[8] الجَسَد ، من خَوْف الأَسد[9] ، والقَوْسُ[10] يُرْسِل سَهم ٥

[١] صبح : « نلمح نارها » [١ ، ٢] صبح ، تثير : « تحركنا ووشاح الأفق »
[٣] صبح : « على سرحه المستباح » ، فى أصل أياصوفية : « والنصر يرفرف » .

(١) أحل فلان أهله بمكان كذا : جعلهم يحلونه . واستقل القوم : ذهبوا وارتحلوا. وأرجو أن يكون المعنى : وقصدنا ضواحى جبان برواحلنا التى تحلنا وتقلنا ، والتى تشبه — بما كثرت — بحارا .

(٢) أكثب : قارب ، ودنا من الشىء .

(٣) التمحه : أبصره بنظر خفيف .

(٤) الوشاح : شىء ينسج عريضا من أديم ، ويرصع بالجواهر ، وتشده المرأة بين عاتقها وكشحها .

(٥) النسران : كوكبان شآميان ؛ أحدهما واقع ، والآخر طائر . فالواقع كوكب نير، خلفه كوكبان أصغر منه ، يكونان معه صورة الأثافى ؛ ويقولون : هما جناحاه ، وقد ضمهما إليه حين وقع . وأما الطائر ؛ فهو إزاء النسر الواقع فى ناحية الشمال ، وتفصل بينهما المجرة ؛ وهو كوكب منير بين كوكبين تخيلوهما جناحيه قد نشرهما . وانظر كتاب « الأنواء » لابن قتيبة ص ١٣٣ (نسخة خاصة) ، لسان (نسر) .

(٦) السماك الرامح : نجم نير شمالى ، خلفه كوكبان بمنزلة الرمح له . وهو نجم لا نوء له ويقابله السماك الأعزل ؛ وهو من منازل القمر .

(٧) النعائم : منزلة من منازل القمر ؛ وهى أربعة كواكب مربعة على طرف المجرة . وهناك نعائم واردة ، ونعائم صادرة ؛ فالواردة منها هى التى ترد فى نهر المجرة ، والصادرة قد وردت وصدرت ، أى رجعت عنها . وانظر «الأنواء» لابن قتيبة ص ٦٨ (نسخة خاصة) ، لسان « نعم » .

(٨) راعدة الفرائص : فزعة ، مرتجفة . والفرائص ، جمع فريصة ، وهى مرجع الكتف إلى الخاصرة فى وسط الجنب .

(٩) الأسد : أحد البروج الشمالية الاثنى عشر . وكواكبه ٣٤ كوكبا . وانظر « الصور السمائية » للصوفى ١٠٥ ا — ١١٢ ب (نسخة خاصة) .

(١٠) القوس ، ويسمى الرامى : أحد البروج الاثنى عشر من البروج الجنوبية ؛ وهو كوكبة على صورة شخص نصفه الأعلى إنسان ، بيده قوس يرمى به ، والنصف الأسفل منه =

السَّعَادَة(١) ، بوَتَرِ السادة ، إلى أهْدَافِ النِّعَمِ المُعَادَة ، والجَوْزاء(٢) عابِرَةٌ نَهْرَ المَجَرَّة(٣) ، والزُّهَرَة(٤) تَغَارُ من الشِّعْرَى العَبُور(٥) بالضَّرَّة ؛ وعُطارِد(٦) يُسْدِى فى حَبْلِ الحُروب ، عَلَى البَلَدِ المَحْروب(٧) ويُلْحِمُه ، ويُناظِر عَلَى أشكالها الهَنْدَسِيةِ فيُفْحِمُه ، والأحْمَر(٨) يَبْهَر ، وبعَلَه الأبيض يُغْرِى وَيَنْهَر ،

[٣، ٤] تيمر : «المحروب ويلحم ، ..... الهندسية فيفحم» [٤] تيمر : «يغرى ويظهر»

= على صورة فرس . وكواكبه ٣١ كوكباً ، ويقع خلف كوكبة العقرب . وانظر «الصور السمائية» للصوفى ١٧١ م — ١٧٥ ب (نسخة خاصة) .

(١) السهم — فى مصطلح المنجمين : عبارة عن موضع فى دائرة فلك البروج ، يقع بين طولى كوكبين من الكواكب السيارة . ولهم فى استخراجه طرق حسابية معروفة ؛ ولهذا الموضع المعين دلالة خاصة . وأقوى السهام : سهم السعادة ، وسهم الغيب . وانظر شرح « اللمعة » فى حل الكواكب السبعة ص ١٢٥ (نسخة خاصة) .

(٢) الجوزاء ، وتسمى التوأمين : برج من بروج الشمس الشمالية ؛ وهى صورة إنسانين رأسهما ، وسائر كواكبهما فى الشمال والمشرق عن المجرَّة ، وأرجلهما إلى الجنوب والمغرب فى نفس المجرَّة ؛ وهما كالمتعانقين . كواكبها ٢٥ كوكبا . وانظر « الصور السمائية » للصوفى ورقة ١٠٠ (نسخة خاصة) .

(٣) المجرة : البياض الذى يرى فى السماء ، وتسمى عند العوام بسبيل التَّبَّانين ؛ وهى كواكب صغار ، متقاربة ، متشابكة لا تمايز حسا ، بل هى لشدة تكاثفها وصغرها صارت كأنها لطخات سحابية ؛ والعرب تسميها أم النجوم لاجتماع النجوم فيها . وانظر شرح المواقف ٣٢٨/٢ ، عجائب المخلوقات للقزوينى ٣٢/١ وما بعدها .

(٤) الزُّهَرَة ، كتؤدة : نجم أبيض مضىء من الكواكب السبعة السيارة ، ويسميها المنجمون السَّعد الأصغر ، لأنها فى السعادة دون المشترى . ولهم فيا لها من خواص مزاعم ، تجد بعضها فى عجائب المخلوقات ٣٤/١ ، ٣٥ . وانظر تاج العروس (زهر) .

(٥) الشعرى العبور (بكسر الشين) : كوكب نير من كوكبة الجوزاء ، فى حجم الزهرة ونورها تقريبا ؛ يقال لها الشعرى العبور ، ومرزم الشعرى ؛ ذكرت فى القرآن : « وأنه هو رب الشعرى » (٤٩ من سورة النجم) . وقد عبدها قوم من العرب فى الجاهلية . وسميت العبور لأنها — فيا يزعمون — عبرت السماء عرضاً ، ولم يعبرها غيرها ، فلذلك عبدوها . وانظر كتاب « الأنواء » ص ٤٣ (نسخة خاصة) ، تاج العروس (شعر) .

(٦) عطارد ، ويسمى — فى عرف أهل المغرب — الكاتب : كوكب من السبعة السيارة . واقترانه بزحل يدل على الخسف والزلزال ، وبالمريخ يدل على الشدائد . (عن شرح منظومة ابن أبى الرجال فى أحكام النجوم) .

(٧) المحروب : المسلوب المال ، المنهوب .

(٨) الأحمر ، وهو المريخ : دليل على الحروب وأصحابها ؛ فاذا كان فى البرج الرابع من الطالع ، دلَّ ذلك على كثرة القتل فى الحروب ، وشدة الهول . (عن شرح منظومة ابن أبى الرجال) .

والمُشترِى يُبْدِئُ فى فَضْل الجهاد ويُعيد ، وَيُزاحِم فى الحَلقَات ، عَلَى مَا للسّعادة من الصَّفقات ، ويَزيد[١] ؛ وزُحَل[٢] عن الطّالع[٣] مُنزَحِل[٤] ، وعَنِ العَاشِر[٥] مُرتَحِل ، وفى زَلَق السُّعُودِ وَحِل ؛ والبَدْر يطالع حَجَر المِنْجَنِيق[٦] ، كيف يَهْوِى إلى النِّيق[٦] ، ومَطْلِعُ الشَّمس يُرْتَقب ، وجِدَارُ الأفقِ يَكادُ بالعُيُون عَنْها يُنقَب .

٥

ولمّا فَشَا سِرُّ الصَّباح ، واهتزّت أَعْطافُ الرّايات بتحيّات مُبشّرات الرِّيَاح ، أَطْلَلْنا[٧] عليها إطلالَ الأسُود على الفَرائس ، والفُحول على العَرائس ؛ فَنظَرنا مَنْظراً يروعُ بأساً وَمَنْعَة[٨] ، ويَرُوق وضْعاً وصَنْعَة ، تلفّعت[٩] معاقلُه الشُّم للسّحاب ببُرُود ، وَوَرَدَت من غُدَر المُزْن فى بَرُود[١٠] ، وأشرَعَتْ

[٢] تيم : « من الصفات ويزيد » [٣] تيم : «وفى زاق السقوط وحل » [٦] تيم : « الرايات لتحيات مبشرات » [٨] تيم : « منظراً يهول » .

(١) زحل ، والمشترى ، والمريخ ، إذا اقترنت بعضها ببعض ، أوتناظرت ؛ بأن كانت ناظرة بعضها إلى بعض نظر عداوة ، وذلك عند التربيع والمقابلة — إذا حصل ذلك عند حلول الشمس برأس الحمل ، فان ذلك يدل على وقوع حرب . (عن شرح منظومة ابن أبى الرجال).

(٢) زحل ، وهو كيوان : إذا اتصل به القمر اتصال عداوة ، فان ذلك يدل على البلايا والرزايا . (عن شرح منظومة ابن أبى الرجال) .

(٣) الطالع : هو البرج الذى على الأفق الشرقى .

(٤) زحل عن مكانه : زَلّ ، وحاد .

(٥) العاشر : هو البرج الذى يقع فوق سمت الرأس .

(٦) المنجنيق (بفتح الميم وكسرها) : آلة لرمى الحجارة على العدو فى الحرب . وانظر شفاء الغليل ص ١٣٣ ، والمعرب للجواليقى ص ٣٠٦ ، وما بعدها .

(٧) النيق : أرفع موضع فى الجبل .

(٨) أطللنا عليها : أشرفنا عليها .

(٩) منعة : قوة تمنع من يريده بسوء .

(١٠) تلفع : تلحف .

(١١) البَرود من الشراب : ما يبرد الغلة .

لانْعِطَافِ أزهارِ النُّجوم والذِّراع بينَ النِّطاق مَماصِرَ رُود[١] ، وبَلَداً يُغني الماسِحَ والذَّارِع[٢] ، ويَنتَظِمُ المحانِيَ والأجارِع[٣] ؛ فقُلنا : اللَّهمَّ نَقِّله أيدِيَ عِبادك ، وأرِنَا فيه آيةً من آياتِ جِهادك ؛ ونزَلْنا بِسَاحَتِها العَريضةِ المُتون ، نُزولَ الغَيْثِ الهَتُون ، وتَيَمَّنَّا من فَحْصِها بسُورةِ « التِّين والزَّيْتون » ، متبرِّئةً من أمان الرَّحمان البَلَدَ المَفْتُون ؛ وأعجَلنا النَّاسَ بحَمِيَّةِ نُفُوسِهم النَّفيسَة ، وسَجِيةِ شَجاعَتِهم البَئِيسَة[٤] ، عن أن تُبَوِّأ[٥] لِلقِتَالِ المَقَاعِد[٦] ، وتُدْني بإسماعِ شَهِيرِ النَّفيرِ منهُم الأباعِد ، وقَبْلَ أن يَلْتَقِيَ الخَدِيمُ بالمَخْدُوم ، ويركَمَ المِنْجَنيقِ ركعتَيِ القُدوم ؛ فدَفَعُوا من أُحُرِ إليهم من الفُرسان . وسَبَقَ إلى حَوْمَةِ المَيْدَان[٧] ، حتى أَحْجَروهم في البَلَد ، وسَلَبُوهم لِباسَ الجَلَدِ[٨] ، في مَوْقفٍ يُذْهِلُ الوَالِدَ عن الوَلَد ، صَابَتِ السِّهامُ فيه غَماماً[٩] ، وطارَت كأسرابِ الحَمامِ تَهْدِي حِماماً[١٠] ، وأضحَتِ القَنَا قِصَداً[١١] ، بعدَ أن

[٤] صبح : « من فحصها الا فيح بسورة » [٦] طب ، تنير : « المقاعد ، وتدنى » [٨] تنير : « وتركم المجانيق » .

(١) رخصة ناعمة .

(٢) مسح الأرض : قاس مساحتها . وذرعها : قاسها بالذراع .

(٣) المحاني ، جمع محنية ؛ وهي منعرج الوادي ، وما انحنى من الأرض . والأجارع ، جمع أجرع ؛ وهي الأرض الطيبة المنبت ، والأرض فيها حزونة .

(٤) الشديدة البأس .

(٥) تبوَّأ : تهيأ .

(٦) المقاعد : مواقف القتال تعين لكل واحد من المقاتلين ؛ يعني عجلنا بالهجوم قبل أن يتخذ كل مقاتل مكاناً معيناً . والإشارة إلى الآية « وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » (١٢١ من سورة آل عمران) واضحة . وانظر حاشية القاضي زاده على البيضاوي ٣/١٣٠-١٣٢ .

(٧) حومة الميدان : أشد موضع فيه وقت القتال .

(٨) الجلد : القوة ، والصبر .

(٩) صابت السهام غماما : نزلت كالغمام لكثرتها .

(١٠) الحمام (بالكسر) : قضاء الموت وقدره .

(١١) قِصَدا : قطعا ؛ يقال : القَنَا قِصَد أي مكسورة .

[١٤٦] كانَتْ شِهاباً رَصَدا ؛ ومَاجَ بَحرُ القَتَام(١) بأمواجِ النُّصُول ، وأخَذ / الأرضَ الرجَفَانُ لزَلزالِ الصِّياح المَوْصُول ؛ فَلا تَرَى إلا شَهيداً تُظلِّل مَصْرَعَه الحُور(٢) ، وصرِيعاً تَقذِف به إلى السَّاحل تلكَ البُحور ؛ ونَوَاشِبَ(٣) تَبأَى(٤) بِها الوُجُوهُ الوَجِيهةُ عندَ اللهِ والنُّحُور ؛ فالمِقْضَب(٥) ، فَوْدُه(٦) يُخْضَب ، والأسْمَر ، غُصنُه يُسْتَثْمَر ، والمِغفَرُ(٧) ، حِمَاهُ يخفَر ، وظُهورُ القِسِيِّ تُقْصَم(٨) ، وعِصَمُ الجُنْد الكَوَافِرِ تُفْصَم(٩) ، ووَرَقُ اليَلَبِ(١٠) في المُنقَلَب يَسقُط ، والبِيضُ تكتُب والسُّمْر تَنقُط(١١) ، فاقتُحِم الرَّبضُ الأعظَم لحِينِه ، وأظهَرَ اللهُ لعيون المُبصِرِين والمستَبصِرِين عِزَّةَ دِينِه ، وتَبرَّأ الشَّيطانُ من خَدِينِه(١٢) ، ونُهِبَ الكفَّار وخُذِلُوا ، وبكلِّ مَرْصَدٍ جُدِّلُوا ؛ ثمَّ دُخِل البَلَدُ بعدَهُ غِلابًا ، وجُلِّل(١٣) قَتْلاً

---

[٣] صبح : « تقذف به إلى الساحل أمواج تلك » [٦] صبح : « والبتر تكتب » [٧] تثير : « فاقتحم سور الربض » [٧، ٨] تثير : « لعيون المبصرين المستبصرين » ، [٨] تثير : « الشيطان الغوى من خدينه ، وبهت » .

---

(١) القتام : الغبار .

(٢) جمع حوراء ؛ وهى التى اشتد بياض عينها ، وسواد سوادها .

(٣) نواشب : سهام ناشبة فى وجوه المحاربين ، أو فى أعناقهم .

(٤) تبأى بها : تنشق .

(٥) سيف مقضب ؛ قطاع .

(٦) الفود ؛ معظم شعر اللمة مما يلى الأذن . وإسناد ذلك للسيف على جهة التوسع .

(٧) المغفر : ما يلبسه الدارع على رأسه من الزرد ونحوه .

(٨) تقصم : تكسر .

(٩) عصم الكوافر : جمع عصمة ، وأصل العصمة الحبل ، وكل ما أمسك شيئاً فقد عصمه ، والكوافر جمع كافرة . وهو يريد هنا أن الجند جماعات ، فصح له جمع فاعل على فواعل . تفصم : تقطع وتنفصل . واقتباسه من الآية : «ولا تمسكوا بعصم الكوافر» واضح .

(١٠) اليلب : الدروع ، والدرق .

(١١) البيض : السيوف . والسمر : الرماح .

(١٢) الخدين : الصديق .

(١٣) جُلل قتلا : عمه القتل .

واستلابا ؛ فلا تَسَل إلا الظُّبَا[١] والأَسَل[٢] عن قِيام ساعَتِه ، وهَوْل يَوْمِها وشَناعتِه ، وتخريب المَبَاتَ[٣] والمَبَانى ، وغِنَى الأَيْدِى من خزائن تلك المَغَانى ، وَنَقْل الوجُود الأول إلى الوُجُود الثَّانى[٤] ؛ وتخَارق السَّيفُ لجاء بغير المُعْتاد ، ونَهِلَت القَنَا الرُّدَيْنية من الدِّماء ، حتى كادَت تُورِق كالأَغصان المُفْتَرَسَة والأَوتاد ، وهَمَت أفلاكُ القِسِىِّ وسَحَّت ، وأَرَنَّت حتى بُحَّتْ ، ونَفَدَت موادُّها فشحَّت ، مما أَلَحَّت ، وسَدَّت المَسَالكَ جثثُ القَتْلَى فمَنَعت العَابِر ، واستأْصَل الله من عَدوِّه الشَّأْفَة وقَطَع الدَّابِر[٥] ، وأزْلَف الشَّهيدَ وَأَحسَب الصَّابِر[٦] ، وسَبَقَت رُسلُ الفَتح الذى لم يُسْمَع بمثله فى الزَّمَن الغَابِر . تَنْقُل البُشرَى من أفواه المحَابِر ، إلى آذان المَنَابِر .

١٠ أَقَمنا بها أياما نَعقِر الأَشجار[٧] ، ونستأْصِل بالتَّخريب الوِجَار[٨] ، وَلِسانُ الانتقَام من عَبَدَة الأَصنام ، يُنَادى : يا لَثَارات الأَسكَنْدَرِيَّة[٩] تَشَفِّياً من

---

[٢] تشير : « وغناء الأيدى » [١١] بالأصلين : «الأسكندرية تشعيفا» ، والمثبت عن صبح الأعشى .

---

(١) الظبا ، جمع ظبة ؛ وهى حد السيف ، والسنان ، والنصل ، والخنجر ، ونحوها.

(٢) الأسل : عيدان طوال دقاق مستوية لا ورق لها ؛ وتسمى الرماح ، والقنا أسلاً على التشبيه بها فى الطول ، والاستواء ، والدقة .

(٣) المبات ، جمع مبيت ، مكان البيتوتة .

(٤) يعنى بالوجود الأول : الوجود الخارجى ، وهو المرئى بالعين الملموس . أما الوجود الثانى فهوالوجود الذهنى ؛ والمعنى أن هذه المدينة قد أصبحت موجودة فى الأذهان صورتها بعد أن كانت موجودة العين . وانظر معيار العلم للغزالى ص ٣٧ . وشرح المقاصد للسعد ١/٥٧ (طبع استانبول سنة ١٢٧٧ هـ)

(٥) الشأفة : الأصل ، واستأصل الله شأفته أى أصله . وقطع الدابر : استأصل آخرهم.

(٦) أزلف الشهيد : قربه إليه . وأحسب الصابر : أعطاه ما يرضى ، أو أعطاه حتى قال حَسْبى .

(٧) نعقر الأشجار : نقطع رؤسها ، فتيبس .

(٨) الوجار (بالكسر ويفتح) : جحر الضبع ، والأسد ، والثعلب ، والذئب ونحوها.

(٩) يشير ابن الخطيب إلى «الواقعة» التى حدثت بالأسكندرية سنة ٧٦٧ ، وتحملها=

الفِجَار(١) ، ورَعْياً لحق الجار ؛ وقَفَلنا وأجنحةُ الرّايات ، برياح العنَايات ، خافِقَه ، وأَوْفاقُ(٢) التّوفيق ، النّاشئة من خُطوط الطَّرِيق ، مُوَافِقَه ، وأسْواقُ العزِّ بالله نافقَه ، وحُلاء الرِّفق مَصاحِبَةٌ — والحمدُ لله — مُرَافقه ؛ وقد ضَاقَت ذُرُوع الجِبال ، عن أعناق الصُّهب السِّبال(٣) ، ورُفِعَت على الأكفَال ، رُدَفَاءَ كرائمُ الأنفَال ، وقُلْقِلَت مِن النّواقيس أجْرام الجِبَال ، بالمِنْدَام(٤) والاحْتِيال ؛ وهلَكَ بمَهْلِكِ هذه الأمّ بناتٌ كنّ يرتضِعْنَ ثُدِيَّها الحوافِل(٥) ، وَيَسْتَوثِرْنَ حجْرَها الكافِل ؛ شَمل التّخريبُ أسْوَارَها ، وَعجّلت النّار بَوَارَها .

---

[٣] فى أصل أيا صوفيا : « بالله خافقة » تصحيف ، تبير : « وجلاء الرفق » ، فى الأصلين : « والحمد لله موافقة » . والمثبت عن صبح الأعشى [٧] فى الأصلين : « البوار بوارها » والمثبت عن صبح الأعشى .

= أن حاكم قبرص ، انتهز غيبة حاكم الإسكندرية فى الحجاز للحج ، فهاجم البلد فى أسطول بلغت قطعه نحو ٧٠ فيما قالوا ، وقد خرج أهل الإسكندرية للنزهة غير مقدرين للخطر ، وكانت الحامية الموجودة قليله ، والأسوار والحصون خالية من المدافعين ، فهاجم العدو الأهالى العزل الآمنين ، ففروا إلى المدينه ، وأغلقوا عليهم الأبواب ، فأحرقها العدوّ واقتحم البلد عليهم .. فكانت مذابح هتكت فيها حرمات . وانظر تفصيلها فى العبر ٥/٤٥٤ .

(١) شبّه مهاجمة الاسكندرية الآمنة بحرب « الفجار » ، التى سميت بذلك لما استحل فيها من حرمات ، حيث كانت فى الأشهر الحرم .

(٢) أوفاق ، جمع وفق ؛ وهى مربعات تحتوى على بيوت مربعة صغيرة ، وتوضع فى تلك البيوت أرقام ، أو حروف ، على نظام بحيث لا يتكرر عدد فى بيتين ، وبحيث يكون مجموع أضلاع المربع ، ومجموع أقطاره متساويا ؛ ويسمى الوفق — بعد ذلك — بما فى أحد أضلاعه من بيوت ؛ فيقال : المثلث ، والمربع ، والمخمس الخ ؛ وقد يحتوى على مئة من البيوت فيقال : الوفق المئينى . ويقول أصحاب الأوفاق : إن للاعداد — فى هذا الوضع — خواصَّ روحانية ، وآثاراً عجيبة ، إذا اختير للعمل بها وقت مناسب ، وساعة شريفة . وكلام ابن الخطيب على التشبيه والتجوز .

(٣) الصُّهب : جمع أصهب ، وهو الأبيض تخالطه حمرة . والسبال : جمع سَبَلة ؛ وهى اللحية ، أوما على الشارب من شعر ؛ ويقال للأعداء عامة هم صهب السبال ؛ ذلك لأن الصّهوبة فى الروم ، وقد كانوا أعداء العرب ؛ ثم قالوا لكل الأعداء : هم صهب السبال .

(٤) المندام آلة يحتال بها على رفع أو تحريك الأشياء الثقيلة التى لا تستطيع قُوَى الإنسان المجرَّدَة أن ترفعها ، أو تحركها . وقد وصف هذه الآلة ابن خلدون فى آخر فصل البناء من مقدمته .

(٥) الحوافل : جمع حافلة ، وهى الناقة الممتلىء ضرعها لبناً .

ثم تحرَّكنا بعدَها حركةَ الفتح، وأرسلنا دِلاء الأدِلاَّء(١) قبلَ المَتْح(٢)، فبَشَّرت بالمَنْح؛ وقَصَدْنا مدينةَ أُبَّذة، وهى ثانيةُ الجناحَيْن، وكُبْرى الأُختين، ومُساهِمةُ جَيَّانَ فى حِينِ الحَيْن(٣)؛ مدينةٌ أخذت عَرْضَ الفضاء الأخْرَق(٤)، وتَمشَّت فيه أرباضُها تَمشِّي الكِتابة الجامحة فى المُهْرَق(٥)؛ المُشتمِلة على المتاجر والمكاسِب، والوَضْع المُتَناسِب، والفَلْح المُغْنِي رَيْعُه(٦) عَمَلَ الحاسِب، وكَوارَةَ(٧) الدَّبْر(٨) اللاَّسِب(٩)، المُتَعَدِّدة اليَعاسِب(١٠)؛ فأناخَ العَفاءُ(١١) برُبُوعها العامِره، ودارت كُؤوس عُقار(١٢) الحُتُوف(١٣) بِبَنان السُّيوف، على مُتَدَيِّرِيها المُعاقِره(١٤)، وصبَّحتْهم الطَّلائعُ الفاقِره(١٥)، وأُغْرِيَت بِبُطون أسوارِها

---

[١] تثير: «ثم تحركنا بعده» [٢] تثير: «وهى الكبرى من الأختين، وثانية الجناحين» [٤] فى أصل أيا صوفيا: «أرباطها تمعى»، طب: «أربارطها تمعى». والمثبت عن نثير الجمان، وصبح الأعشى، تثير: «الجامحة فى صفحته المهرق» [٥] تثير: «والفلح الذى يعى ريعها»، فى الأصلين: «عمل الحساب»، ولعله تصحيف عن «الحاسب». والمثبت عن نثير الجمان.

---

(١) جمع دلو؛ وهى ما يستقى به. والأدِلاء: جمع دليل، وهو المرشد. ويريد: قدمنا — قبل بدء القتال — طلائع لتكشف ما عند العدو من استعداد.
(٢) المتح: الاستقاء.
(٣) الحَين: الهلاك.
(٤) الأخرق: البعيد الواسع.
(٥) المهرق: الصحيفة البيضاء يكتب فيها.
(٦) الريع: النماء، والزيادة؛ وأرض مريعة: مخصبة؛ وهذا هو المراد هنا.
(٧) الكوار، والكوارة: شىء يتخذ للنحل من القضبان.
(٨) الدَّبر: النحل.
(٩) لسبته النحلة؛ لسعته.
(١٠) اليعسوب: أمير النحل. وحق الجمع يعاسيب.
(١١) أناخ الجمل: برك. والعفاء: المحو، والإزالة.
(١٢) العقار: الخمر.
(١٣) الحتوف: جمع حتف؛ وهو الموت.
(١٤) معاقر الخمر: مدمنها، والجمع: معاقرة: ولعله يريد بمتديريها، دياريها.
(١٥) الفاقرة: الداهية الكاسرة.

عُوجُ المَعاول(١) الباقِرَه(٢) ؛ ودخَلَت مدينَتَها عُنوَةُ السَّيف ، فى أسْرَعَ من خَطْرَةِ الطَّيف ، ولا تَسْأَل عن الكَيْف ، فلم يَبْلُغ العَفاء من مَدينَةٍ حافِله ، وعَقيلَةٍ فى حُلَل المَحاسِن رافِله(٣) ، ما بَلَغ من هـذه البائسة(٤) التى سَجَدت لآلهة النِّيران أبْراجُها ، وتَضاءَل(٥) بالرَّغَام(٦) مِعْراجُها ؛ وضَفَت(٧) على أعطافِها(٨) ملابِسُ الخِذْلان ، وأقفَر من كَنائِسها كِناس(٩) الغِزْلان .

[٤ب] ثم تأهَّبنا لغَزو أُمّ القُرَى / الـكافِرَه ، وخزائن المزاين(١٠) الوافِرَه ، وربَّة الشُّهرَة السافِرَه(١١) ، والأنباء المسامِرَه ؛ قُرْطُبه ، ومَا أدْرَاك ماهِيَهْ ! ذات الأرْجاء الحالِيَة(١٢) الـكاسِيَه(١٣) ، والأطْوادِ الرَّاسِخة الرَّاسِيه ، والمَبانى المُباهِيَه ، والزَّهْراء(١٤) الزَّاهِيَه ، والمَحَاسن غير المتَنَاهِيه(١٥) ؛ حيثُ هَالَةُ بَدرِ السَّماء قد

[٣] تثير : « من هذه الباسقة » [٦] تثير : « وخزائن المدائن » .

(١) جمع معول ؛ وهو الحديدة تنقر بها الجبال . أو هو الفأس .
(٢) بقر الشيء بقرا : فتحه ، ووسَّعه ، وشقه .
(٣) امرأة رافلة : تجر ذيلها جراً حسناً إذا مشت.
(٤) البائسة : الفقيرة ، والتى نزلت بهابلية تُرحَم من أجلها.
(٥) تضاءل : تصاغر وذلَّ .
(٦) الرَّغام (بالفتح) : التراب .
(٧) ثوب ضاف: سابغ طويل .
(٨) عطفا كل شىء : جانباه ، والجمع أعطاف .
(٩) الـكِناس : موضع فى الشجر يستكنّ فيه الظَّبىُ ويستتر ، إذا اشتدّ الحر .
(١٠) المزاين : ما يتزين به .
(١١) السافرة : الذاهبة كل مذهب .
(١٢) الحالية : التى لبست حَلْيا .
(١٣) الـكاسية : المكتسية .
(١٤) الزَّهراء: مدينة فى شمال قُرطبة على بعد ثلاثة أميال منها ، تحت جَبَـل العروس ؛ بناها الناصر المروانى أبو المظفر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله أول سنة ٣٢٥ هـ ، وسماها باسم جارية كان يحبها ، اشتهت أن يبنى لها مدينة فى جبل العروس ، ويسميها باسمها . وقد وصفها المقرى فى نفح الطيب ١/٣٤٤ — ٣٧٤ طبع ليدن . وانظر الروض للعطار ص ٩٥ .
(١٥) قد وصف المقرى فى النفح ١/٢٩٧ ومابعدها طبع ليدن — نقلا عن ابن سعيد ، =

استدارت من السُّور المَشِيد البناء دارا ، ونَهرُ المجرّة من نَهرِهَا الفَياض ، المسْلول حُسامُه من غُمود الغِيَاض ،[١] قد لَصِق بهـا جَارا ، وفَلَكُ الدُّولاب ، المُعتَدِل الانقِلاب ، قَد استَقام مدارا ، ورجّع الحنينَ اشتياقاً إلى الحبيب الأول وادٌ كارا[٢] حيثُ الطَّودُ كالتّـاج ، يَرْدان بلُجَيْن العَـذْب المُجَاج[٣] ، فيَزْرِى بتَاج

٥ كِسْرَى[٤] ودَارَا[٥] ؛ حيْثُ قِسِيُّ الجُسُور[٦] المَدِيدَة ، كأنَّها عُوجٌ[٧]

والحيرى فى الروض المعطار ص ١٥٣ — ١٥٨ ، مدينة قرطبة بما يحسن الاطلاع عليه ، لتقدير وصفها فى كلام ابن الخطيب هنا .

(٥) الغيضة : مغيض ماء يجتمع ، فينبت فيه الشجر ؛ وجمعها غياض .

(٦) يريد أن قرطبة دائمة الحنين إلى الحكم الإسلامى الذى انتظمها منذ الفتح حتى سنة ٦٣٣ هـ ، حيث سقطت فى أيدى الأسبان ، (نفح الطيب ٢٩٧/١ ومابعدها طبع ليدن) ؛ وهو فى ذلك ينظر إلى قول أبى تمام : (ديوان ص ٤٥٧) .

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ❊ ما الحبّ إلا للحبيب الأول

(٧) المجاج : العسل ، ومجاج المزن : مَطَرها .

(٨) هو كسرى أبرويز بن هرمز بن كسرى أنوشروان . كان معاصرا للنعمان بن المنذر . ولما قتل كسرى النعمانَ بن المنذر أراد الاستيلاء على تركته ، فكان ذلك سبب حرب « ذى قار » . وانظر مروج الذهب للمسعودى طبع باريس ٢٠٢/٣ — ٢٠٩ ، ١٨٦/٢ . والطبرى ١٣٧/٢ — ١٥٦ ، والشريشى ٧٨/٢ .

(٩) هكذا يسميه المؤرخون المسلمون ، واسمه اليونانى Darius ، ويسمى فى الفارسية Darayavaush ، أو Daryavesh فى النصوص القديمة . والمراد به الابن الأكبر لـ Hystapses وهو من أبعد ملوك فارس صيتا ، بل من أعظم الحكام الذين أنتجهم الشرق القديم . أحدث فى إمبراطوريته (٥٢١ — ٤٨٥) المتباعدة الأطراف ، نظما وقوانين لا تزال موضع الإعجاب والتقدير حتى اليوم . انظر تاريخ الطبرى ٦/٢ ومابعدها ، شرح الشريشى ٨٠/٢ ، وانظر أيضاً :
The Martyrdom of man, by Winwood Reade p. 55—62, Encyclopaedia Britannica. Vol. 7 p. 59.

(١) الذى نعرف أن على نهر قرطبة جسرين ، بنى الأعظم منهما — بأمر عمر بن عبد العزيز — السمح بن مالك الخولانى ، أو عبد الرحمن بن عبيد الله الغافقى ؛ وكانوا يسمونه قنطرة الوادى ، وكانت أقواسه سبعة عشر قوسا ، سعة الواحدة منها خمسون شبرا . نفح الطيب ٢٢٦/١ ، ٢٤٦ بولاق ٩٦/١ ليدن ، الروض المعطار ص ١٥٦،١٥٨ .

(٢) جمع عوجاء ؛ وهى الضامرة من الإبل . والمطىّ ؛ جمع مطية ؛ وهى البعير يمتطى ظهره .

المَطِيُّ العَدِيدَة ، تَعْبُر النَّهْرَ قِطارا ؛ حيث آثار[1] العامِرِيّ[2] المُجَاهِد[3] ، تَعْبَق[4] بين تلك المَعَاهِد ، شَذًى مِعطارا ؛ حيثُ كرائمُ السَّحائب ، تَزُور عَرائسَ الرِّياض الحبائب ، فتَحْمِل لها منَ الدُّرِّ نِثَارا ؛ حَيْث شَمُول الشَّمال[5] تُدَار على الأدْوَاح[6] ، بالغُدُوِّ والرَّواح ، فترَى الغُصون سُكَارَى ، وَما هِيَ بِسُكارَى ؛ حيثُ أيدي الافتتَاح ، تَفْتَضُّ من شَقَائق[7] البِطاح ، أبكارا ؛ حيثُ ٥

---

[٢] طب : « تعبق من تلك » [٥] صبح : « الافتتاح ، تفيض » .

---

(١) من آثاره : المنية المعروفة بالعامرية ، والمدينة « الزاهرة » التى اتخذها مقراً لحكمه ، والزيادة التى أضافها لمسجد قرطبة فى الناحية الشرقية منه . وانظر نفح الطيب ١/ ٢٦٠ ، ٢٧٤ — ٢٧٧ بولاق .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن أبى عامر بن محمد بن عبد الله بن عامر المعافرى ، دخل جده الأندلس مع طارق بن زياد . واستوزره الحكم المستنصر لابنه هشام ، فلما مات حجبه ابن أبى عامر ، واستولى على الدولة ، وأمر بأن يحيا بتحية الملوك ، وتسمَّى بالحاجب المنصور . توفى مبطونا بمدينة سالم ، بأقصى ثغور المسلمين سنة ٣٩٣ أو ٣٩٤ . له ترجمة ضافية فى نفح الطيب ١٨٨/١ وما بعدها ، المعجب للمراكشى ص ١٧ — ٢٥ طبع مصر سنة ١٣٢٤ هـ ، العبر لابن خلدون ١٤٧/٤ — ١٤٨ .

(٣) كان المنصور بن أبى عامر محبا للجهاد ؛ غزا بنفسه — مدة ملكه — نيفا وخمسين غزوة ، لم تنتكس له فيها راية ، ولا فل له فيها جيش . ومن شعره فى ذلك :

ألم ترنى بعتُ المقامة بالسرى	ولين الحشايا بالخيول الضَّوامِر
وبدلت بعدَ الزعفران وطيبه	صَدَى الدرع من مستحكمات المسامِر
فلا تحسبوا أنى شغلت بلذة	ولكن أطعت اللهَ فى كل كافر

وكان يأمر أن ينفض غبار ثيابه التى حضر فيها القتال ، وأن يجمع ويحتفظ به ؛ فلما حضرته الوفاة أمر أن ينفض على كفنه إذا وضع فى قبره . رحمه الله . العبر ١٤٨/٤ ، نفح ١٨٨/١ ، ١٩٣ — ١٩٤ بولاق ، المعجب للمراكشى ص ٢٤ ، يتيمة الدهر ٥٤/٢ .

(٤) عبق الطيب : فاح وانتشر . (تاج) .

(٥) الشمول : الخمر . والشمال : الريح تهب من القطب ؛ ويقال : خمر مشمولة إذا ضربتها ريح الشمال فأصبحت باردة الطعم .

(٦) جمع دوحة : وهى الشجرة العظيمة المتسعة .

(٧) يريد شقائق النعمان ، وتسمى الشَّقِر أيضا ؛ وهى نَور أحمر ؛ والنعمان اسم الدم ، فشبهت حمرتها بحمرة الدم ، وسميت شقائق النعمان ، وغلب عليها اسم الشقائق .

ثُغورُ الأَقاحِ[1] الباسم ، تُقَبِّلها بالسَّحَر زُوارُ النَّواسم ، فتَخْفُق قلوبُ النُّجوم الغَيَارَى ؛ حيثُ المُصَلَّى[2] العَتيق ، قَدرَحُبَ مَجالاً وطالَ مَنارا[3] ، وأَزرَى ببَلاَط الوَليـد[4] احتِقَارا ؛ حيثُ الظُّهور[5] المُثَـارة بسَلاح[6] الفَلاَح ، تُجَبُّ عن مثـلِ أَسْنِمَةَ[7] المَهَارِى[8] ، والبُطونُ[9] كأنها لتَدمِيثِ[10] الغَمائم ، بُطونُ العَذَارَى ، والأَدْواح العاليه ، تُخْتَرَقُ أعلامُها الهاديه ، بالجداول •

---

[٣] ثير : « الظهور المنارة » تصحيف .

---

(١) جمع أقحوان ؛ وهو نبت طيب الريح ، له نَور أصفر ، وحواليه ورق أبيض ، كأنه ثغر جارية حدثة السن ، وانظر مفردات ابن البيطار ٤٨/١ . والصواب: «الأقاح البواسم» .

(٢) يريد جامع قرطبة ، وقد وصفه الحميرى فى الروض المعطار وصفا مفصلا ص ١٥٣ — ١٥٥ ، وانظر نفح الطيب ٣٥٨/١ — ٣٦٠ طبع ليدن .

(٣) وصف منارة جامع قرطبة وصفا دقيقا ، وقاسها كذلك ، الحميرى فى الروض المعطار ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٤) كان الوليد بن عبد الملك من أفضل خلفاء بنى أمية ؛ أعطى المجذَّمين ، وقال لهم لا تسألوا الناس ، وأعطى كل مُقعد خادما ، وكل ضرير قائداً ؛ وكان صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع ؛ وكان الناس يلتقون فى زمانه ، فانما يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع ؛ وبنى المساجد : مسجد المدينة ، ومسجد دمشق ، فأنفق عليه أموالا عظيمة ، وأحضر له الصناع من بلاد الروم ومن سائر بلاد الإسلام ، وكانت العرب تسميه بلاط الوليد . وانظر تاريخ الطبرى ٥٨/٨ — ٩٧ وتاريخ أبى الفداء ٢١٠/١ ، مقدمة ابن خلدون ص ٣١٠ طبع بيروت .

(٥) الظهر من الأرض : ما غلظ وارتفع .

(٦) أثار الأرض بالسن — وهى الحديدة التى تحرث بها الأرض — إذا قلبها على الحب بعد ما فتحت مرة ، وفى القرآن : « وأثاروا الأرض » : حرثوها وزرعوها ، واستخرجوا منها بركاتها .

(٧) جب السنام : قطعه . وسنام الناقة : أعلى ظهرها ؛ والجمع أسنمة .

(٨) إبل مَهرية : منسوبة إلى مَهرة بن حيدان أبى قبيلة ، وهم حى عظيم ؛ والجمع مَهارى .

(٩) جمع بطن ؛ والبطن من الأرض : ما لاَنَ وسهُل واطمأن .

(١٠) دمث الشئ : مرسه حتى لاَن .

الحيارَى (١) . فما شئتَ من جوٍّ بَقيل (٢) ، ومُعرَّسٍ للحُسن وَمَقِيل ، ومالك للعقل وعَقيل (٣) ؛ وخمائل ، كم فيها للبَلابل ، مِن قال وقيل ، وخَفيفٍ مجاوِرٍ بثَقيل ؛ وسَنابلَ تحكي من فوق سُوقها ، وقَصَب بسُوقها ، الهمزاتِ على الألفات ، والعصافيرَ البَديعة الصِّفات ، فوقَ القُضب المؤتلِفات ، تميل لهُبوب الصَّبا والجنوب ، مائلةَ الجيوب ، بِدُرِّ الحبوب ؛ وبِطاحٍ لا تَعرف عَيْن المَحْل (٤) ، فتَطلبه بالذَّحل (٥) ، ولا تصرفُ في خِدمة بيضِ قِباب الأزهار ، عند افتتاح السَّوسَن والبَهار (٦) ، غيرَ المُبْدان من سُودان النَّحْل ؛ وبَحْرِ الفلاحة الذي لا يُدرَكُ ساحلُه ، ولا يَبلغُ الطِّيَّةَ (٧) البعيدةَ راحلُه ؛ إلى الوَادي ، وسَمَر النَّوادي (٨) ، وقَرارِ دُموع النَوادِي (٩) ؛ المتجاسرِ على تخطِّيه ، عندَ تمطِّيه ، (١٠)

[١] صبح : «جو صقيل ، ومعرس» تحريف . [٢] تيمور ، صبح : « وخفيف يجاوب »
[٣] تيمور ، صبح : « الهمزات فوق الألفات » [٤] صبح : « تميل بهبوب الصبا »

(١) الحيارى : جمع حيران ؛ وهو المتردد في الأمر ، لا يدري وجهة يهتدي إليها . ويريد أن الجداول لالتوائها ، وكثرة منعطفاتها ، تشبه في سيرها شخصا حيران قد التبست عليه السبل .

(٢) الجو : المنخفض من الأرض . والبقيل : المكان ذو البقل ؛ وكل نبات اخضرت به الأرض فهو بقل .

(٣) يوري بمالك وعقيل ابني فارج بن مالك ؛ نديمي جذيمة الأبرش ؛ ولهما مع عمرو بن عدي خبر تجد تفصيله في الشريشي ٢/٣ — ٥ ، وتاريخ الطبري ٢/٣٠ — ٣١ .

(٤) المحل : الجدب ؛ وهو انقطاع المطر .

(٥) الذحل : الثأر .

(٦) البهار — عند أهل المغرب — : نبات طيب الريح ، له قضبان خضر ، في رؤوسها أقماع يخرج منها نور ينبسط منه ورق أبيض ، وفي وسط البياض دائرة صفراء من ورق صغير . وهذه هي الصفة التي أثبتها أهل المشرق للنرجس ، حيث قالوا : هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر . فالبهار عند أهل المغرب هو النرجس عند أهل المشرق . وانظر الشريشي ١/٤١ — ٤٥ .

(٧) الطية : الناحية .

(٨) السمر : الحديث بالليل . والنادي : المجلس ، والجمع : نوادي .

(٩) تمطيه : امتداده . وكنى به عن امتلاء النهر بالمياه أيام الشتاء .

(١٠) الغادية : السحابة تنشأ فتمطر غدوة ، والجمع غوادي .

الجِسْرُ العَادِي ؛ والوَطنِ الذى لَيسَ من عَمْر ولا زيد ، والفَرَا الذى فى جوْفِهِ كلُّ صَيْد[1] ؛ أقلّ كرسيُّه خلافَةَ الإسْلاَم ، وأغَار بالرُّصافة[2] والجِسْرِ[3] دارَ السَّلام[4] ؛ وما عَسَى أن تُطنِبَ فى وَصفِه ألسِنَةُ الأقلام ، أو تُعبِّر به عن ذلك الكَمَال فنونُ الكَلام .

● فأعملنَا إليها السُّرَى والسَّيْر ، وقُدنَا إليْها الخَيْلَ قَد عقَد اللهُ فى نَواصيها الخَيْرَ[5] . ولما وقَفْنا بظاهرِها المُبهِت المُعجِب ، واصطَفَفْنا بخَارجِها المُنبِتِ المُنجِب ؛ والقُلوبُ تَلتَمس الإعانَةَ مِن مُنْعِمٍ مُجْزِل ، وتَستَنزِل مَدَد الملائكة مِن مُنجِدٍ مُنْزِل ، والرَّكائبُ واقِفةٌ مِن خَلفِنا بمَعْزِل ، تَتَناشد فى مَعَاهِد الإسلام :

١٠ «قِفَا نَبكِ من ذِكرَى حَبيب ومَنزِل[6] » [١٤٧]

بَرَزَ مِن حَاميَتِها المُحاميه ، ووَقودِ النّار الحاميه ، وبَقية السَّيف الوَافِرة عَلَى الحِصاد النّاميه ، قِطَعُ الغَمائم الهَاميه ، وأمواجُ البُحور الطّاميه ؛

---

[٥] تنبر : « قد عقد الله على نواصيها » ، صبح : « قد عقد الله بنواصيها » [٨] طب : « والركائب من خلفنا » [١٢] طب : « النامية ، وقطع » .

---

(١) الفرا : الحمار الوحشى ؛ وهو من أعظم ما يصطاده الناس ، وفى الكلام إشارة إلى المثل : « كل الصيد فى جوف الفرا » الذى يضرب لما يفضل على غيره . ميدانى ٢/٥٥ .

(٢) الرصافة : قصر بناه عبد الرحمن الداخل ، فى الشمال الغربى لقرطبة ، واتخذه لسكناه ، نقل إليه من الشام كثيراً من أشجار الفاكهة والزهور ؛ وسماه باسم رصافة جده هشام بن عبد الملك . نفح الطيب بولاق ١/٢٢٠ وما بعدها . معجم البلدان ٤/٢٥٧ .

(٣) يريد جسر قرطبة وقد مرّ .

(٤) يريد بغداد ؛ وسماها مدينة السلام أبو جعفر المنصور ، وكان ذلك سنة ١٤٦ هـ انظر تاريخ بغداد ١/٦٦ — ٦٧ ، شريشى ١/٢١٥ .

(٥) إشارة إلى حديث البخارى : « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة » . الجامع الصحيح ٤/١٨٧ طبع الآستانة .

(٦) مطلع المعلقة المشهورة لامرىء القيس .

واستَجَنَّت[1] بظِلالِ أبطالِ المَجَال، أعدادُ الرِّجال، النَّاشِبَةِ[2] والرَّامِيه، وتَصدَّى للنِّزال، من صَنادِيدِها[3] الشُّهْبِ السِّبال، أمثالُ الهِضَاب الرَّاسِيه، تُجِنُّها[4] جُنَنُ[5] السَّوابغ الكَاسِيه، وقَوامِيسُها[6] المُفَادِيةُ للصُّلْبان يَومَ بُؤسِها بنُفُوسِها المُوَاسِيَه[7]، وخَنَازِيرُها التي عدَتْها[8] عَن قَبُول حُجَجِ الله ورَسُوله، سُتُورُ الظُّلَمِ الغَاشِيه، وصُخُورُ القُلوبِ القَاسِيَه؛ فكَانَ بينَ الفريقين أمامَ جِسْرِها الذي فَرَّقَ البحْر، وحَلَّى بلُجَينِه، ولآلِئِ زَيْنِه، منْها النَّحْر، حَربٌ لم تَنْسُجِ الأزمانُ على مِنْوَالِها[9]، ولا أتَت الأيامُ الحَبَالَى بمِثل أجِنَّة[10] أهوالِها؛ مَنْ قاسَها بالفِجَار[11]، أفَكَ وفَجَر[12]؛ أو مَثَّلَها بجَفْر الهَبَاءَة[13]، خَرِفَ وهَجَر[14]؛ ومَن

---

[٤] شير: « التي أعدتها عن » [٦] في الأصلين: « لم تنسج الأيام على ». والمثبت عن صبح الأعشى.

---

(١) استجنت: استترت.

(٢) الناشبة: قوم يرمون بالنشاب؛ وهي السهام.

(٣) الصنديد: السيد الشجاع. والجمع صناديد.

(٤) تجنها: تسترها.

(٥) الجنن: جمع جنة، وهي السترة.

(٦) القواميس، جمع قومس (بوزن جوهر)؛ وهو مرافق الملك، ونديمه، والأمير.

(٧) المواسى: المعين.

(٨) عديته فتعدى: أي تجاوز الحد الذي حُدَّ له.

(٩) المنوال: المنسج تنسج عليه الثياب. يريد لم تأت الأيام بمثل هذه الحروب.

(١٠) جمع حُبلى. والأجنة جمع جنين.

(١١) حروب الفجار عدة؛ وأشهرها — وهي آخرها — تلك التي كانت بين قريش وكنانة، وبين هوازن. وقد شهدها النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: كنت أنبل على أعمامي يوم الفجار. وسميت فجاراً لما استحلوا فيها من حرمة الأشهر الحرم. وانظر العقد الفريد ٣/٣٦٨ — ٣٧١، أغاني بولاق ١٩/٧٤ — ٨٠، سيرة ابن هشام ١/١٩٥ — ١٩٨، خزانة الأدب ٢/٥٤، ميداني ٢/٢٦٠.

(١٢) أفك: كذب. وفجر: مال عن الحق.

(١٣) جفر الهباءة: يوم كان لعبس على ذبيان، سمي بالموضع الذي كانت فيه موقعتهم؛ وهو مستنقع في أرض غطفان. العقد الفريد ٣/٣١٦ — ٣١٧، ياقوت ٨/٤٤٠، الميداني ٢/٢٦٩.

(١٤) خرف: فسد عقله. هجر: خلط في كلامه وهذى.

شَبَّهها بحَرب دَاحِسَ والغَبْرَاءِ[١]، فَمَا عَرَفَ الخَبَرَ، فليَسْأَل مَن جَرَّبَ وخَبَرَ؛ ومن نَظَّرها بيَوم شِعْبِ جَبَلَه[٢]، فَهُوَ ذُو بَلَه[٣]؛ أوعَادَلَهَا بيَطْنِ عَاقِل[٤]، فَغَيرُ عاقل؛ أواحتجَّ بيَوم ذِي قَار[٥]، فهو إلى المعرفة ذُوافتِقَار؛أو نَاضَل بيَوْم الكَدِيد[٦]، فَسهمُه غَير السَّدِيد؛ إنَّما كَانَ مَقَاماً غيرَ مُعْتاد، ومَرْعَى نفوسٍ لم يَفِ بوصْفِه لِسَانُ مُرْتَاد[٧]، وزِلزَالُ جِبال أوتَاد[٨]، ومَتْلَفٌ[٩] مَذْخُور لسُلطَان الشيْطَان وَعَتاد[١٠]؛ أعلَمَ[١١] فيه البَطَلُ البَاسِل[١٢]، وتَورَّدَ الأبيَضُ البَاتِر[١٣]، وتَأوَّدَ الأَسْمَر[١٤] العَاسِل[١٥]، ودَوَّمَ الجَلْمَد[١٦] المتكَاسِل، وانبَعَثَ من

(١) داحس والغبراء: يوم من أشهر أيامهم، بلغ من بعد أثره أن اتخذوه مبدأ من مبادئ تواريخهم فى الجاهلية؛ ويقال إنه دام أربعين سنة. وكان بين عبس وذبيان.
وداحس والغبراء: فرسان، وسمى اليوم بهما لما أنه كان بسببهما، وانظر العقد الفريد ٣/٣١٣ — ٣١٤، الفتح القسى ص ٥.

(٢) كان يوم شعب جبلة لعامر وعبس على ذبيان، وكان — فيما يقول أبو عبيدة — قبل الإسلام بأربعين سنة؛ وشعب جبلة: هضبة حمراء بنجد. وانظر العقد الفريد ٣/٣٠٧ — ٣١٠، ياقوت ٣/٥١.

(٣) البله: الغفلة.

(٤) بطن عاقل: يوم كان لذبيان على بنى عامر، (أو كان بين بنى خثعم، وبنى حنظلة)، ذكر سببه فى العقد الفريد ٣/٣٠٥ — ٣٠٦، وانظر مجمع الأمثال ٢/٢٦٤.

(٥) يوم ذى قار: يوم مشهور كان أيام النبى صلى الله عليه وسلم، وأثر عنه أنه قال: «إنه أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم». وتفصيل أخباره، وأسبابه، مذكورة فى العقد ٣/٣٧٤ — ٣٧٨.

(٦) كان يوم الكديد لسليم على كنانة، وفيه قتل ربيعة بن مكدّم، فارس كنانة. وانظر العقد الفريد ٣/٣٢٦.

(٧) المرتاد والرائد: الذى يتقدم القوم فى التماس النجعة واختيار المرعى الحسن.

(٨) أوتاد الأرض: جبالها.

(٩) المتلف: المفازة، والقفر؛ سمى بذلك لأنه يتلف سالكه.

(١٠) العتاد: العُدَّة تُعدّها لأمر ما.

(١١) أعلم الفارس: جعل لنفسه علامة الشجعان، وأعلم نفسه: وسمها بسيما الحرب.

(١٢) الباسل: الشجاع.

(١٣) تورّد: احمرّ. الأبيض الباتر: السيف القاطع.

(١٤) تأود: اعوجّ وانثنى. الأسمر: الرمح.

(١٥) عسل الرمح: اضطرب واهتز، ورمح عاسل: مضطرب لدن.

(١٦) دوّم: تحرك ودار. والجلمد: الصخر.

حَدَب[1] الحَنِيَّه[2]، إلى هَدَف الرَّمِيَّه[3]، النَّاشِر النَّاسِل[4]، ورُوِيَتْ لمُرْسَلَات السِّهام المَرَاسِيل[5]؛ ثم أفضَى أمرُ الرِّماح إلى التَّشَاجُر والارتباك، ونشَبَت الأسنَّةُ في الدُّروع نَشَبَ السَّمَك في الشِّبَاك؛ ثم اختلَطَ المَرْعِيُّ بالهَمَل[6]، وعُزِل الرُّدَيْنِيُّ عَن العَمَل؛ وعادَت السُّيوف من فَوق المَفَارِق تيجَانا، بعدَ أن شَقَّت غُدَرَ السَّوابغ خلْجَانا؛ واتَّحَدَت جَداولُ الدُّروع، فَصَارت بَحْراً، وكان التَّعانُق، فَلا تَرَى إلا نَحْرا يُلازم نَحْرا، عِناقَ وَدَاع، وموقِفَ شمْل ذِي انصداع، وإجابةَ مُنادٍ إلى فِراق الأَبد وَدَاع؛ واستَكْشَفَتْ مَآلَ الصَّبر الأنفسُ الشَّفَّافه[7]، وهبَّت ريح النَّصر الطَّلائعُ المبشِّرةُ الهَفَّافَه[8]؛ ثم أمَدَّ السَّيلُ ذَلك العُبَاب، وصَقَلَ الاستِبصارُ الألباب، واستَخلَص العَزمُ صَفْوةَ اللُّباب، وقَال لِسانُ النَّصر: «ادخُلوا عليهم البَاب»؛ فأصبحت طوائفُ الكفَّار، حَصائدَ مَنَاجِل الشِّفَار، فَمَغافِرُهم قَد رضِيَت حُرُمَاتُها بالإخْفار[9]، ورءوسُهم مَحطُوطةٌ في غير مقام الاستِغفار، وعلَت الرَّايات من فَوق تلك الأَبراج المستَطْرَفَة

---

[١١] صبح: «فغفارقهم قد .... حرماتها بالإعقار» [١٢] صبح: «في غير معالم»، شير: «الأبراج المستطرفة»

---

(١) تقوسها وانعطافها.

(٢) الحنيَّة: القوس؛ فعيلة بمعنى مفعولة؛ وأكثر ما تكون حنية عند توتيرها، والرمي بها.

(٣) الرميَّة: الطريدة التي يرميها الصائد.

(٤) الناشر: المهتز. والناسل: المسرع.

(٥) يوري بالحديث «المرسل» عند المحدثين. وانظر فتح المغيث ١/٦٧ ومابعدها.

(٦) هو مثل؛ والمرعيّ: الإبل التي لها راع، والهمل: الضوال من النعم لا راعي لها.

(٧) أنفس شفافة: فاضلة.

(٨) الهفافة: السريعة المرور في هبوبها.

(٩) أخفرت الرجل: إذا: نقضت عهده، وذمامه. والهمزة فيه للازالة؛ أي أزلت خفارته.

والأسوار ، ورَفْرَفَ على المدينة جَناحُ البَوار ، لولا الانتهاء إلى الحدّ والمِقْدار ، والوُقُوفُ عندَ اختِفاء سِرّ الأقْدَار .

ثم عَبرنا نهرَها ، وشدَدنا بأيدى الله قَهرَها ، وضيّقنا حَصْرَها ، وأَدَرْنا بلآلئ/ [٤٧ب] القِباب البِيضِ خَصْرَها ؛ وأقَمْنا بها أياما تَحُوم عِقْبانُ البُنُود على فَرِيسَتِها حِياما[1] ، وتَرمِى الأدواحَ ببَوارها ، وتُسلِّطُ النّيرانَ على أقطارها ؛ فلولا عائقُ ٥ للطَر ، لحصَلْنا من فَتْح ذلك الوَطَنِ على الوَطَر ؛ فرأينا أن نَروضَها بالاجتِثاث[2] والانتِساف[3] ، ونُوالِي على زُرُوعها ورُبُوعها كَرّاتِ رِيَاحِ الاعْتِسَاف ؛ حتّى يتَهَيأ للاسلام لَوكُ طُعْمَتِها ، ويتَهنَّا بفضل الله إرثُ نِعمَتِها ؛ ثم كانت من مَوقِفِها الإفَاضة من[4] بَعدِ نَحْر النُّحور ، وقَذْف جِمَار الدّمار على العَدوّ المَذْحُور ، ١٠ وتدَافعَتْ خَلْفَنا السَّيِّقَاتُ[5] المُتَّسِقَاتُ تَدَافُعَ أمواجِ البُحور .

وبعدَ أن أَلحَحنا عَلَى جنّاتها المُضحِرة[6] ، وكُرُومِها المُستَبحِرة ، إلحاحَ الغَرِيم[7] ، وعوَّضْناها النَظرَ السكَرِيهَ من المنظرَ الكريم ، وطَافَ عليها طَائفٌ من ربِّنَا فأصبحَتْ كالصّرِيم[8] ، وأغرَينا حِلاقَ[9] النَّارِ بجُمِّ

[٢] صبح : « سر القدار » [٥] طب ، تير : « وترى الأرواح . . . . وتسلط » .

(١) حام الطائر حول الماء حياما : دوّم ودار .

(٢) الاجتثاث : انتزاع الشجر من أصوله .

(٣) انتساف الزرع : اقتلاعه .

(٤) الإفاضة : الدفع فى السير بكثرة ؛ ولا يكون إلا عن تفرق جمع . وفى « الإفاضة » و « النحر » ، و « رمى الجمار » تورية واضحة بالمعانى الإسلامية المتعارفة فى باب « الحج » .

(٥) السيقات : ما استاقه العدو من الدواب ، ويقال لما سيق من النَّهب فطرد ، سيقة .

(٦) المتسعة ؛ يقال أصحر المكان : أى اتسع .

(٧) الغريم : الذى له الدَّين .

(٨) الصريم : الليل ، وأصبحت كالصريم : احترقت وصارت فى مثل سواده ؛ والإشارة إلى الآية : « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم » .

(٩) حلاق الشعر : إزالته بالموسى . والكلام على تشبيه إحراق النبات بحلق شعر الرأس .

الجَمِيمِ(١) ، وَرا كَمْنا فى أحوافِ أجرافها(٢) فَمائم الدُّخان ، يُذَكِّرُ طيبُهُ البانَ
بيوم الغَمِيمِ(٣) ، وأرسلنا رياح الغَارات « لا تَذَرُ مِنْ شَىءٍ أَتَت عليه إلَّا جَعَلته
كَالرَّمِيم »(٤) ؛ واستَقْبَلْنا الوادىَ يَهول مدًّا ، ويَروع سيفُه الصَّقيلُ حدًّا ؛ فيسَّره اللهُ
من بعد الإعْواز ، وانطلَقَت على الفُرصَة بتلك الفُرْصَةِ أيدِى الانتِهاز ، وسألْنا من
سَائِلِهِ أسَدَ بنَ الفُراتِ(٥) فأفتَى برجْحَانِ الجَواز ، فعمَّ الاكتِساحُ والاستباحُ ٥
جميعَ الأحواز(٦) ؛ فأُذِيل(٧) للصُّون ، وانتُهِبت القُرى ، وهُدَّت الحُصُون ،
واجتُثَّت الأُصول ، وحُطِّمَت الغُصون ؛ ولم تَرفَعْ عنها إلى اليوم غارةٌ تصَابِحُها
بالبُوس ، وتُطْلِعُ عليها غُرَرَها الضَّاحكةَ باليوم العَبوس ؛ فهِيَ الآن مُجْرَى
السَّوابق ومَجَرُّ العَوالى(٨) ، على التَّوالى ، والحَسَراتُ تَتَجَدَّد فى أطلالها البَوالى ؛
وكَأَنْ بها قَد ضَرِعَت ، وإلى الدعوة المُحَمَّدية أسرعَت ، بقدرةِ مَن لَو أنزَلَ ١٠

---

[١] صبح : « بجمم الجميم . . . . فى أجواف أجرافها » [٦] صبح : « وهدمت الحصون » [٧] صبح : « غارة تصافحها » [٨] طب : « فى اليوم العبوس » [١٠] صبح : « المحمدية قد أسرعت » .

---

(١) الجم : جمع جمة ؛ وهى الشعر الكثير . والجميم نبت يطول حتى يصير مثل جمة الشعر .

(٢) الأحواف ، جمع حوف وهو الناحية . والأجراف جمع جرف ؛ وهو ما أكل السيل من أسفل شق الوادى ، وعرض الجبل . ويريد الأمكنة الغائرة ، والمطمئنة .

(٣) الغميم : موضع بين مكة والمدينة . ويوم الغميم : من الأيام التى كانت بين كنانة وخزاعة وانظر سيرة ابن هشام ٣٤/٤ — ٣٥ .

(٤) الرميم : البالى .

(٥) يورّى بأسد بن الفرات بن سنان : أبى عبد الله الفقيه المالكى المشهور (١٤٥ — ٢١٣) على خلاف فى المولد والوفاة . وانظر ترتيب المدارك مخطوطة دار الكتب ١١٨/١ ، معالم الإيمان ٢/٢ — ١٧ ، ديباج ٩٨ .

(٦) الأحواز : ضواحى المدينة وأطرافها .

(٧) أذيل : أهين .

(٨) أجرّه الرمح : طعنه به وتركه فيه يجرّه . والعالية : أعلى القناة ، والجمع : العوالى . ومجرّ العوالى : المكان الذى يقع فيه الإجرار والطعن .

القرآنَ على الجبال لخشعَت من خَشْيةِ الله وتَصدَّعَت[1] ، وعِزّةٍ من أذعنَت
الجَبابِرةُ لعِزّه وخضعَت ؛ وعُدنا والبُنود لا يَعرِف الفَّ نشرَها ، والوجوهُ
المُجاهِـدةَ لا يُخالِط التَّقطيبُ بِشْرَها ؛ والأَيْدى بالعُرْوة الوُثْقَى متعلِّقه ،
والألسنُ بشُكر نِعَم الله منطلِقَه ، والسُّيوفُ فى مَضاجِـع الغُمود قَلِقَه ،
٥ وسَرابيلُ الدُّروع[2] خلَقَه[3] ، والجياد مِن ردِّها إلى المَرابط والأَوارِى[4] ، رَدِّ
العَوارِى ، حَنِقه ، وبعَبَرات الغَيْظِ المَكْظُوم مُختَنِقَه ؛ تَنظُرُ إلينا نظرَ العاتِب ،
وتَعودُ من مَيادِين الاختِيَال والمَرَاح ، تَحتَ حُلَل السِّلاح ، عَوْدَ الصِّبيان
إلى المـكاتب ؛ والطَّبلُ بلِسان العِزِّ هادِر[5] ، والعَزْمُ إلى مُنَـادى العَوْدِ
الحميد مُبَادِر[6] ، ووجُودُ نَوعِ الرِّماح ، من بعدِ ذلك الـكِفاح نادِر ، والقاسِم
١٠ يُرتِّب بين يَدَيه من السَّبِى النَّوادِر ، ووَارِد مَنَاهل الأجور ، غير المُحَلَّاء[7] ،
ولا المَهْجُور ، غيرُ صادر[8] ، ومُناظِر الفصْل الآتِى، عَقِبَ أخيه الشَّاتِى ، على
المَطلُوب المُواتِى مُصَادر[9] ، واللهُ على تَيْسِير الصِّعَاب ، وتَخْوِيل المِنَن الرِّغَاب[10] ،
قَادِر ؛ لا إله إلّا هُو. فما أَجْمَلَ لنا صُنْعَه الخفِىّ[11] ، وأَكْرَمَ بِنا لُطْفَه الخفِىَّ/ ، [١٤٨]

---

[٢] صبح : « لعزه وخَـنَـعت » [٣] طب : « لا يخالط التقطب » ،
طب ، تبر : « الوثق معتلقة » [٥،٦] تبر : « إلى المرابط حنقة » [٧] صبح : « ميادين
المراح والاختيال » [٩ ، ١٠] طب : « والقاسم ترتب بين »

---

(١) اقتباس من الآية ٢١ من سورة الحشر .
(٢) السرابيل : الدروع ، وكل ما لبس فهو سربال .
(٣) الخلق : البالى ؛ يقال ثوب خَلَق ، وجبّة خلق بالتذكير فيهما ، وأنكر الكسائى
أن تكون العرب قالت « خلقة » ، وعن التهذيب أنه لا يجوز أن يقال ذلك . وانظر اللسان .
(٤) الأوارى : جمع آرى ؛ وهو مربط الدابة ومحبسها .
(٥) هادر : يردد صوته . (٦) بادره الأمر : عاجله .
(٧) الوارد الذى يرد الماء . والصادر : الذى رجع من الماء بعد الورود .
(٨) حلأ الماشية عن الماء : صدها وحبسها عن الورود .
(٩) مصادر : مراجع ؛ صادره على كذا : راجعه .
(١٠) الرغيبة : العطاء الكثير، والأمر المرغوب فيه ، والجمع رغاب .
(١١) الصنع الخفى : اللطيف .

اللّهم لا نُحصِى ثَناء عليك ، ولا نَلجأ مِنكَ إلّا إليك ، ولا نَلتَمِس خيرَ الدُّنيا والآخرة إلّا لدَيك ؛ فأعِدْ عَلينا عَوائدَ نَصرك ، يا مُبدئُ يا مُعيد ، وأعِنّا من وَسائل شُكرِك ، على ما يَنْثَالُ به المَزيد ، يا حَيُّ يا قَيُّوم يا فَعّالاً لِما يُريد(١) .

وقَارنَت رسالتُكم الميمونةُ لَدَينا حَذَقَ فَتحٍ(٢) بَعيد صِيتُه(٣) مُشرَئبّ لِيتُه(٤) ، وفَخرٍ من فوق النُّجوم العَوائمِ(٥) مَبيتُه ؛ عَجِبنا من تأتّى أملِه الشّارد ، وقُلنا : البركةُ فى قَدَمِ الوَارد ؛ وَهُو أنّ مَلِكَ النّصارى لاطَفَنا بجُملةٍ من الحصون كانَت من مَمْلَكةِ الإسلام قد غُصِبت ، والتّماثيلُ(٦) فيها بِبُيوت الله قد نُصِبت أَدَالهَا(٧) الله — بمُحاولَتِنا — الطَّيِّبَ من الخَبيث ، والتّوحيدَ من التَّثليث ، وعَاد إليها الإسلامُ عَودَ الأَبِ الغَائب ، إلى البَنَات الحَبائب ، يسْأل عن شُؤونها ، ويمسَحُ دُموعَ الرِّقّة مِن جُفونها ؛ وهِى للرُّوم خُطّةُ خَسْفٍ(٨) قَلّما ارتَكبُوها فيما نَعلَمُ مِن العُهود ، ونَادرةٌ من نَوادرِ الوُجود . وَالى الله علينا وعليكم عَوارفَ(٩) الجُود ، وجَعَلَنا فى مَحَاريب الشُّكر من الرُّكَّع السُّجود .

عَرَّفناكم بمُجمَلات أمورٍ تَحتَها تَفسير ، ويُمْنٌ مَنَ الله وتَيسير ، إذ

[٣] صبح : « على ماتنال به » ، فى الأصلين : « يا فعال لما يريد » [٦] صبح : « البركة فى قدوم الوارد » [٩] صبح : « الإسلام عودة الأب » .

(١) فى الأصلين : « يافعال لما يريد » . والمنادى هنا مما يجب فيه النصب ، فلذلك أثبتت رواية صبح الأعشى .

(٢) حذق الغلام القرآن حَذَقاً : مهر فيه ؛ ويقال لليوم الذى يختم فيه القرآن : هذا يوم حذاق ، والعادة أن يحتفل بهذا اليوم .

(٣) بعيد الصيت ، مشتهر الذِّكر بين الناس .

(٤) اشرأب : ارتفع وعلا . والليت بالكسر : صفحة العُنُق .

(٥) النجوم العوائم : التى تظلم من الغبرة التى فى السماء ؛ ويكون ذلك فى زمن الجدب ؛ لأن نجوم الشتاء أشد إضاءة لنقاء السماء .

(٦) التماثيل : الأصنام . (٧) أدالها الله : أبدلها .

(٨) الخطة : الطريقة . والخسف : الذل ، وتحميل الإنسان ما يكره .

(٩) العوارف : جمع عارفة ، وهى العطية .

استيفاء الجزئيات عسير ، لنسرَّكم بما منح الله دينكم ، ونتوَّج بعزِّ الملَّة الحنيفية جبينكم ، ونخطب بعده دعاءكم وتأمينكم ؛ فإنَّ دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب سلاحٌ ماض ، وكفيلٌ بالمواهب المسئولة من المنعم الوهّاب مُتقاض[1] ؛ وأنتم أولى من ساهمَ فى برّ ، وعامل الله بخلوص سِرّ ؛ وأين يذهب الفضلُ عن بيتكم ، وهو صفة حيِّكم ، وتراثُ ميِّتكم ؛ ولكم مزيةُ القِدَم ، ورسوخ القَدَم ؛ والخلافةُ مقرُّها إيوانكم ، وأصحابُ الإمام مالك — رضى الله عنه — مستقرُّها قيروانكم ، وهجِّيرا المنابر[2] ذِكرُ إمامكم ، والتوحيدُ إعلام أعلامكم ، والوقائعُ الشهيرةُ فى الكفر منسوبةٌ إلى أيامكم ، والصحابةُ الكرام فتحةُ أوطانكم ، وسلالة الفاروق عليه السلام وشائجُ سلطانكم[3] ؛ ونحن نستكثر من بركة خطابكم ، ووُصلة جنابكم ؛ ولولا الأعذار لوالينا بالمتزيّدات تعريفَ أبوابكم .

والله — عزَّ وجلَّ — يتولَّى عنا من شكركم المحتوم ، ما قصَّر المكتوبُ منه عن المكتوم ؛ ويُبقيكم لإقامة الرسوم ، ويُحِلُّ محبتكم من القلوب محلَّ الأرواح من الجسوم ؛ وهو سبحانه يصل سعدكم ، ويحرُس مجدكم ، ويُوالى نعمه عندكم .

والسلام الكريم ، الطيِّب الزكى المبارك البرُّ العميم ، يخصُّكم كثيراً أثيراً ، ما أطلع الصبحُ وجهًا منيرا ، بعدَ أن أرسل النسيم سفيراً ، وكان

[١، ٢] تبر : « بعز الملة الحنفية » [٣] تبر : « من المنعم الواهب » [٤] فى الأصلين ، وصبح الأعشى : « وأنتم أولى ما ساهم » . والمثبت عن نثير الجمان . [٦] تبر : « مقرها ديوانكم » [٩] تبر : « الفاروق وشائج سلطانكم » ولعلها أشبه بالصواب [١٦] تبر : « بعد إرسال الغمام سفيرا » .

---

(١) تقاضاه الدين : قبضه منه .

(٢) هجيرا المنابر : شأنها ودأبها .

(٣) يريد أن الحفصيين من سلالة الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ وقد رأى بعض المؤرخين ذلك . وتقدم فى حاشية صحيفة ٩ إيماء إلى هذا .

الوَميض[1] البَاسِم لأكواسِ الغَمائم[2]، على أزهار الكمائم[3]، مُديرا؛ ورحمةُ الله وَبركاتُه.

وكتب إلىَّ يهنِّئنى بمولود، ويُعاتبُ عَلَى تأخير الخَبَر بولادِه عنه[4]:

هَنيئاً أبا الفضْل الرِّضَا وأبا زيدِ ... وأمْنتَ من بَغْي يُخاف ومن كَيْدِ

[٤٨ب] بطالِع يُمْنٍ طَالَ فى السَّعْدِ شَأوُه[5] ... فما هو من عَمْرو الرِّجال ولا زَيْدِ

وقَيِّد بِشُكْرِ الله أنْعُمَه التى ... أَوَابِدُها[6] تأبَى سِوَى الشكْرِ من قَيْدِ

أهلاً بدرِّيِّ المكاتب[7]، وصَدْرِىِّ المراتب، وعُتْبَى الزَّمن[8] العاتب[9] وبكْرِ المُشْتَرِى والكاتب[10]؛ ومرحباً بالطالع، فى أسْعَدِ المَطالع، والثَّاقب[11]، فى أجْلَى المَرَاقِب؛ وسَهْلاً بِغَنِىِّ البشير، وعِزَّةِ الأهل والعشير، وتاج الفخْرِ الذى

---

[٣] ريحانة ا، ب: «الخبر بولادته عنه» [٧] ريحانة ا، ب: «وعتبى الزمن العاتب»
[٨، ٩] ريحانة ا ب: «والثاقب فى أعلى».

---

(١) الوميض: اللامع من البرق لمعاً خفيا.
(٢) شبه القطرات من الماء تنثرها الغمائم على الزهور، بكؤوس الخمر تدار على الشاربين.
(٣) الكمائم: جمع كِمامة، وهى غِطاء النَّور وبرعومته.
(٤) قدم لها ابن الخطيب فى ريحانة الكتاب (ورقة ١٨٢ ا من ٥٨ ش أدب) بقوله: ومن ذلك فى مخاطبة صاحب قلم الإنشاء أبى زيد ابن خلدون.
(٥) الشأو: الشوط والغاية.
(٦) جمع آبدة، وهى فى الأصل البهيمة توحّشت، ونفرت من الأنس.
(٧) كوكب درى: ثاقب شديد الإنارة، عظيم المقدار.
(٨) أعتبه: أزال عتبه؛ والعُتْبَى: اسم من الإعتاب. وفى المثل: «لك العتبى ولا أعود». أى لك منى أن أرضيك؛ يقوله التائب للمتنصل. وانظر مجمع الأمثال ٢/١٠٢.
(٩) الزمن العاتب: الغاضب
(١٠) كان ابن الخطيب شغوفا بأن يورّى فى كتابته بمصطلحات العلوم؛ وهو هنا ناظر إلى ما اصطلح عليه المنجمون من أن القمر إذا اتصل — وهو فى البروج الصاعدة — بالمشترى، وهو كوكب سعد، وبالكاتب — وهو عطارد فى عرف أهل المغرب — دلّ ذلك على أن المولود ذكر، وأن حظّه من العلوم العقلية، والنقلية كبير. (عن شرح منظومة ابن أبى الرجال).
(١١) الثاقب: المرتفع.

يَقْصُرُ عنه كِسْرَى وَأَرْدَشِير[1] ؛ الآن اعتَضَدَت الحِلَّة الحَضْرَمية[2] بالفارس ، وأمِنَ السَّارح[3] فى حِمَى الحارس ، وسَعِدَت بالمُنير الكَبِير ، أفلاكُ التَّدْوِير[4] ، مِن حَلَقَاتِ المدارس ، وقرّت بالجَنَى الكريم عَيْنُ الغارس ، واحتُقِرَتْ أنظارُ الآبِلِى[5] وأبحاث ابن الدَّارس ؛ وقيل لِلْمُشكلات : طالما ألفتِ الخَمَرَة[6] ، وأمضيتِ عَلَى الأذهانِ الإمْرَة[7] ، فتأهَّبِى للغارة المُبيحة لحِماكِ ، وتَحيَّزى إلى فِئَة البَطَلِ المُستأثِر بِرَشْفِ لَماكِ . ولله من نَصْبَةٍ[8] احتَفَى فيها المُشْتَرِى واحتَفَلْ ، وكَفَى سِنِىَّ تَرْبِيَتِها وكَفَلَ ، واختالَ عُطارد فى حُلَلِ الجَذَل لمَّا وَرَفَلَ ، واتَّضَحَت الحُدُود[9] ،

---

[١] ريحانة ا ، ب : « اعتضدت الحلة الحضرمية » [٢] ريحانة ا ، ب ، طب : « وسعدت بالنيِّر الكبير » .

---

(١) هو أردشير بن بابك ؛ أول ملوك الدولة الساسانية (٢٢٦ — ٢٤١ م) . وقد قيده ابن خلدون فى العبر (٢/١٦٩ قسم أول) ، نقلا عن الدارقطنى ، بالراء المهملة . وقد ورد فى الأصلين ، وتاريخ أبى الفداء : « أزدشير » بالزاى . وهو تصحيف قديم ؛ فقد قال ابن حجر : « وسمعت من يذكره بالزاى » . وانظر تاج العروس ٢/٢٨٨ ، الطبرى ٢/٥٦ ، مروج الذهب طبع باريس ٢/١٥٠ وما بعدها .

(٢) الحِلة : البيت ؛ والجمع الحِلال . والحضرمية نسبة إلى حضرموت ؛ حيث ينتهى نسب ابن خلدون .

(٣) السارح : الذى يغدو عليك ويروح .

(٤) فلك التدوير — لكل كوكب — هو فلك صغير لا يحيط بالأرض ، وفيه يكون مسير الكوكب . وانظر مفاتيح العلوم ص ٢٢٢ ، سلم الأفلاك ص ٢٥ .

(٥) تقدم التعريف بالآبلى فى ص ٣٣ .

(٦) الخمرة : الاستتار ، والاختفاء .

(٧) الإمرة : الإمارة .

(٨) النصبة الفلكية : هى الهيئة التى يكون عليها الفلك حين طلب دلالته على الحوادث . وانظر ص ٢٣ .

(٩) قسم المنجمون درجات كل برج من البروج الاثنى عشر ، بين الكواكب الخمسة المتحيرة ، قسمة غير متساوية ، وجعلوا كل قسم منها يخص كوكبا من الكواكب الخمسة ، وسموه حدَّ ذلك الكوكب . وانظر تفصيل ذلك فى : «رسالة التقويم» للطوسى ، الفصل ٢٠ (نسخة خاصة) ، مفاتيح العلوم ص ٢٢٦ ، علم الفلك نلينو ص ١٩٧ .

وتَهلَّلت الوُجوه[1] ، وتنافَست المُثلَّثات[2] تؤمّلُ الحَظَّ وَتَرجُوه ، وَنَبَّه البيتُ على[3] واجبه ، وأشار لَحَظُ الشَّرَف[4] بحاجبه ، وأسرَعَ نَيِّرُ النَّوْبَة[5] فى الأَوْبَة[6] ، قائمًا فى الاعتِذار مَقَام التَّوبَة ؛ واستأثر بالبرُوج المُوَلِّدة بَيتُ البَنين[7] ، وتَخَطَّت خُطا القَمر رأسَ الجَوْزَهر[8] وَذَنَبَ التِّنِّين ؛ وساوَق منها

[٣] ريحانة ا ، ب : « ونبه البيت على راحته ، وأشار لحظ الشرف بحاجته »
[٤] ريحانة ا : « وساوى منها حكم الأصل » .

(١) وقسموا كذلك كل برج إلى ثلاثة أقسام متساوية ، وسموا كل قسم منها وجها ، ثم فرقوها على الكواكب المتحيرة ، وابتدأوا من برج الحمل ، وجعلوا لكل وجه منها كوكبا من السبعة السيارة ، سموه صاحب ذلك الوجه . وانظر الطوسى ، الفصل ٢١ ، شرح «اللمعة» ص ١٢٠ ، مفاتيح العلوم ص ٢٢٦ ، نلينو — : علم الفلك ص ١٩٧ .

(٢) البروج الاثنا عشر تنقسم إلى أربعة أقسام — بعدد الطبائع الأربع ، وكل ثلاثة بروج منها تتفق فى طبيعة واحدة من الطبائع الأربع تسمى مثلثة ، فيقال : مثلثة نارية ، أو ترابية ، أو هوائية ، أو مائية ؛ ويختص بكل مثلثة ثلاثة كواكب من السيارة تسمى أربابها ؛ يكون أحدها صاحب المثلث المقدَّم بالنهار ، والثانى المقدَّم بالليل ، والثالث شريكهما فى الليل والنهار . ومعنى ذلك أن الكوكب إذا كان فى واحد من هذه البروج التى تكوِّن مثلثته ، قيل إنه فى مثلثته ، أى إنه فى وضع له فيه حظ وقوة . الطوسى ، الفصل ١٩ ، شرح اللمعة ص ١١٩ ، مفاتيح العلوم ص ٢٢٥ ، نلينو ص ١٩٢ .

(٣) بيت الكوكب : محلّ أمنه ، وصحته ، وسلامته ؛ ولكل من النيرين : الشمس والقمر ، بيت واحد . أما بقية الكواكب الخمسة المتحيرة ، فكل واحد منها له بيتان . وانظر تفصيل قولهم فى ذلك فى رسالة الطوسى ، الفصل ١٧ ، شرح اللمعة ص ١١٩ ، مفاتيح العلوم ص ٢٢٥ .

(٤) شرف الكوكب : محل عزّه ، وعلوه ، وسعادته ؛ ولكل من الكواكب السبعة برج فيه شرفه ، والبرج كله شرف لذلك الكوكب ، إلا أن أقوى شرفه درجات معينة من ذلك البرج تنسب إلى ذلك الكوكب وتختص به ، فيقال حين يحل بها : إنه فى شرفه . وانظر التفصيل فى رسالة الطوسى ، الفصل ١٨ ، شرح اللمعة ص ١١٨ ، مفاتيح العلوم ص ٢٢٥ .

(٥) نير النوبة يكون فى الغالب الهيلاج (دليل العمر) ، وهو بالنهار الشمس ، وبالليل القمر .

(٦) الأوبة : الرجوع والعودة .

(٧) البيت الذى له دلالة على الأولاد — ويسمى بيت البنين أيضاً — : هو البرج الخامس من البيوت الاثنى عشر والابتداء فى العد من البرج الطالع ، وهو الواقع على الأفق الشرقى ؛ ويزعمون أنه مهما كان الخامس أحد البروج الشمالية ، دل ذلك على كثرة النسل . (عن شرح منظومة ابن أبى الرجال) ، وانظر الطوسى ، الفصل ٢٥ ، مفاتيح العلوم ص ٢٢٧ .

(٨) النقطتان اللتان يتقاطع عليهما فلك البروج مع فلك أى كوكب ، تسميان العقدتين ، =

حُكمَ الأصل ، حَذْوَكَ النَّعلَ بالنَّعل ، تحويلُ السِّنين [١] ، وحقَّق هذا المولود بينَ المواليد نِسبةَ عُمُرِ الوالد ، فتجاوزَ درجةَ المِئين ؛ واقترنَ بعاشرِه [٢] السَّعْدان [٣] اقترانَ الجسَد ، وثَبتَ بدقيقةِ مركزِه قلبُ الأَسَد ، وسرَقَ من بيت أعدائه [٤] خُرْثِيَّ [٥] الغِلِّ والحَسَد ؛ ونُظِّفت طُرُقُ التَّسْيير [٦] ، كما نفعلُ بينَ يدَى السادة عنـدَ المَسير ، وَسَقَطَ الشيخ الهرِم من الدَّرج فى البير ، ودُفِع المُقاتل [٧] إلى الوبال [٨] الـكبير .

لمْ لايَنَالُ العُـلاَ أو يُعْقَدُ التَّاجُ والمُشْتَرِى طَالِعٌ والشَّمْسُ هِيلاجُ [٩]

---

[٦] ريحانة ا ، ب : « المقاتل إلى وبال كبير » .

= ونقطة التقاطع الشمالية منهما ، يسمونها الجوزهرَّ ، ونقطة الرأس ، والتى تقابلها تسمى النوبهر ، ونقطة الذنب . والجوزهر الذى يقصدونه ، والذى دَوَّنوا حركته فى التقاويم والأزياج ، هو جوزهر القمر خاصة . الطوسى ، الفصل ١٠ ، مفاتيح العلوم ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

(١) هو تحصيل الحركة الوسطى للشمس عند حلولها برأس أحد الفصول الأربعة . ولهم فى ذلك طرق حسابية معروفة . وانظر شرح اللمعة ص ١٢٢ — ١٢٤ .

(٢) العاشر : هو بيت السلطان . الطوسى ، الفصل ٢٥ .

(٣) السعدان : المشترى والزهرة ، وأكبرهما المشترى . الطوسى ، الفصل ٢٤ .

(٤) بيت الأعداء ؛ هو البيت الثانى عشر . الطوسى ، الفصل ٢٥ ، مفاتيح العلوم ص ٢٢٨ .

(٥) الخرثى (بالضم) : أثاث البيت ، أو أردأ المتاع .

(٦) التسيير : أن يُنظركم بين الهيلاج (دليل العمر) ، وبين السَّعد أو النحس ، فيؤخذ لكل درجة سنة ؛ ويقال تصيبه السعادة أو النحس إلى كذا وكذا سنة . مفاتيح العلوم ص ٢٣٠ .

(٧) فى مباهج الفكر ٢٩/١ (نسخة كوبريلى) :
« وأهل المغرب يسمون زحل مقاتلا ، والمريخ الأحمر ، وعطارد الكاتب » .

(٨) الوبال : هو البرج المقابل لبيت الكوكب ؛ وهو البرج السابع من كل بيت ، ويسمى نظيره ، ومقابله ؛ وذلك أن يكون بينهما ستة بروج ، وهى نصف الفلك . الطوسى ، الفصل ١٧ .

(٩) الهيلاج : دليل العمر ؛ والهيالبج خمسة : الشمس ، والقمر ، والطالع ، وسهم السعادة ، وجزء الاجتماع والاستقبال . وإنما كانت أدلة العمر لأنها تُسيَّر إلى السعود والنحوس . (انظر الحاشية رقم ٦) . مفاتيح العلوم ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

والسَّعْدُ يَرْكُضُ في ميدانِها مَرِحًا جَذْلانَ والفلكُ الدَّوَّارُ مِهْلاجُ[1]

كأَنْ به — والله يَهديه — قد انتقل من مَهْد التنويم، إلى النَّهْج القَويم؛ ومن أريكةِ الذِّراع، إلى تصريف اليَرَاع[2]، ومن كَتَد[3] الدَّايَة[4]، إلى مَقَام الهِدَاية، والغايةِ المُخْتَطَفَةِ[5] البِدَاية؛ جَعَلَ الله وقَايته عليه عُوذَة[6]، وقَسم حَسَدَته قسمة مُحَرَّم اللَّحم، بين مُنْخَنِقَةٍ[7] ونَطِيحَةٍ[8] ومُتَرَدِّيَةٍ[9] ومَوْقُوذَة[10]؛ وحَفِظَ هِلالَه في البِدَار[11] إلى تِمّه وبعد تِمّه، وأقرّ به عينَ أبيه وأمّه. غير أنّي — والله يَغْفر لسيدي — بيدَ أنّي راكعٌ في سبيلِ الشُّكر وساجد، فأنا عاتبٌ وواجِد؛ إذ كان ظنّي أنّ البريد بهذا الخبرَ إليّ يُعْمَل، وأنّ إتحافي به لا يُهْمَل، فانعكسَت [149 ا] القَضِيَّة، ورابَت الحالُ الرضِيَّة، وفَضَلَت / الأُمورَ الذَّاتيةَ الامورُ العَرَضية،

[1] ريحانة ا: «يركض في ميزانها» [2] ريحانة ب: «به والله يقيه» [4] في الأصلين: «والغاية المختطبة»، والمثبت عن الريحانة ا، ب [4، 5] ريحانة ا: «قسمة محرّم الأكل» [8] ريحانة ا، ب: «ظني أن البريد إليّ بهذا الخبر يعمل».

(١) المهلاج: المركب الحسن السير، والمسرع. يقول: لِمَ لا ينال العلا، وقد اتخذ الفلك مركباً له.

(٢) يعني بأريكة الذراع عهد الطفولة. واليراع: القصب؛ ويريد: الأقلام.

(٣) الكتد: مجمع الكتفين من الإنسان، وكاهله.

(٤) الداية: الظئر.

(٥) يريد أنه سيبلغ الغاية في الفضل في الزمن القصير.

(٦) العوذة: ما يعلق على الإنسان ليقيه من العين ونحوها.

(٧) المنخنقة: الشاة، وغيرها؛ تختنق بحبل أو غيره.

(٨) النطيحة. الشاة تنطحها الأخرى بقرونها؛ فعيلة بمعنى مفعولة.

(٩) المتردية: الساقطة من جبل، أو في بئر.

(١٠) الموقوذة: المقتولة ضربا بالخشب أو بالحجر. وكل هذه الأصناف قد حرّم أكله القرآنُ على المسلم. وانظر الآية رقم ٣ من سورة المائدة، وأحكام القرآن لابن العربي ٢٣٢/١، ٢٢٣.

(١١) يدعو له بأن يصاحبه الحفظ في سائر أطوار نموّه إلى أن يكتمل.

والحُكمُ جازِم ، وَأَحَدُ الفَرْضَيْنِ لاَزم ؛ إما عَدَم السَّوِيةِ[١] ، ويُعَارِضُه اعتناءٌ حَبْلُه مُغار[٢] ، وعُهْدَةُ سَلْم لم يَدْخُلها جزْيةٌ ولا صَغَار ؛ أو جَهْلٌ بِمِقْدار الهِبَة ، ويُعارِضُه عِلْمٌ بمقْدار الحُقُوق ، وَرِضًى مُنافٍ للعُقُوق ، فوقَع الإِشكال ؛ وربَّما لطُفَ عُذْرٌ كان عليه الاتِّكال . وإذا لم يُبَشِّر مِثلى بِمِنْحة الله قِبَلَ تلك الذّات السَّرِية ، الخَلِيقَة بالنِّعَمِ الكرِيمة ؛ فمن الذى يُبَشَّر ، وعَلَى من يُعرضُ بَزُّها[٣] أو يُنْشَر ، وهى التى وَاصلَت التَّفَقُّد[٤] ، وَبَهْرَجَت[٥] المُعَامَلةَ وأبَت أن تَنقُد ، وأنْسَت الغُرْبَةَ وجُرحُها غيرُ مُنْدَمِل[٦] ، ونَفَّسَت الكُرْبَةَ وجُنحُها[٧] على الجَوانِح[٨] مُشتَمِل ؛ فمَتَى فُرِضَ نِسيانُ الحُقوق لم يَنْلنى فَرْض ، ولا شَهِدَ به علىَّ سماءٌ ولا أرْض ؛ وإن قَصَّر فيما يجب لسَيدى عَمَل ، لم يُقصِّر رَجاءٌ

١٠ ولا أَمَل ، ولِى فى شَرح حَمْدِه نَاقةٌ وجَمَل[٩] . ومنه جلَّ وعَلَا نسألُ أن يُرِيَه قُرَّةَ العَيْن فى نفْسه وماله وبَنِيه ، ويجعَلَ أكبرَ عطَايَا الهَيَالِج[١٠] أصْغرَ سِنِيه ، ويُقلِّدَ عَوَاتِقَ[١١] الكَواكِب البَابَانِية[١٢] حَمائلَ أمَانيه . وإن تَشَوَّف سَيدى

---

[١] ريحانة ا ، ب : « والحكم حازم » ، ريحانة ا : « وأحد الأمرين »

[١، ٢] ريحانة ا،ب : «اعتناء سبَبُه منار» [٨، ٩] ريحانة ا،ب : «ولا شهدت به علىّ» .

---

(١) السوية : العدل ، والنصفة .

(٢) حبل مغار : محكم الفتل .

(٣) البز : الثياب .

(٤) التفقد : التعرف لأحوال الناس ، وتعهُّدها .

(٥) بهرج : عدل عن الطريق المسلوك .

(٦) اندمل الجرح : برئ .

(٧) الجنح : الظلمة .

(٨) الجوانح : الضلوع تحت الترائب مما يلى الصدر .

(٩) هو عكس لمعنى المثل : « لا ناقتى فى هذا ، ولا جملى » ، الذى يضرب للتبرى من الشىء ، وانظر الميدانى ١١٣/٢ ، ١١٤ .

(١٠) انظر الحاشية رقم ٩ فى ص ٢١٢ .

(١١) العواتق : جمع عاتق ؛ وهو ما بين المنكب والعنق .

(١٢) الكواكب البيانيات(أوالبابانية) : هى التى لا تنزل الشمس بها ، ولا القمر .

لِحال وَلِيِّه ، فخَلوةٌ طيبةٌ ، ورحمةٌ من جانب الله صَيِّبة ، و بَرقٌ يُشَام[1] ، فيقالُ :
حدِّث ما وَراءك يا هِشام . ولله دَرُّ شيخِنا إذْ يَقُول :

لا بَاركَ اللهُ فيَّ إنْ لم * أُصرِّف النَّفسَ في الأهمِّ
وكثَّر اللهُ في هُمومي * إن كانَ غيرُ الخَلاص هَمِّي

و إن أنعم سَـيِّدي بالإلمـاع بحَاله ، وحَال الولَد المُبارك ، فذَلِك من غُرَر ٥
إحسَانه ، ومَنزلَتُه في لَحْظِ لَحْظي بمنْزلَة إنسَانِه ؛ والسَّلام .

---

[١] ريحانة ب : « ورحمة عن جانب الله » ، ريحانة ب : « يشام ، ويقال : »
[٥] ريحانة ا ، ب : « بحاله ، وأحوال الولد » .

---

(١) شام البرق : نظر إلى سحابته أين تمطر .

العودة إلى المغرب الأقصى [٤٩ب]

ولمّا كنتُ في الاعمال في مُشايَعة السلطان عبد العزيز مَلِكِ المغرب[١]، كما ذكرتُ تفاصيلَه، وأنا مقيم بِبَسْكَرة في جِوَار صاحِبها أحمدَ بن يوسُفَ بن مَزْنَى، وهو صاحب زِمَام رِيَاح، وأكثرُ عَطائهم من السُّلطانِ مُفْتَرَضٌ عليه في جِبَايَةِ الزّاب[٢]، وهم يَرجعون إليه في الكثير من أمورهم؛ فلَمْ أشعُرْ إلا وقد حَدثَت المُنافسة منه في استِتْباع العَرب، وَوغَرَ صدرُه[٣]، وصَدَّق في ظنُونه وتَوَهُّماته، وَطَاوَع الوُشاةَ فيما يُورِدون على سَمْعِه من التَّقَوّل والاختِلاق، وجَاشَ صَدرُه بذلك؛ فكَتَب إلى وَنْزَمار بن عَرِيف[٤]، وليِّ السلطان، وصاحب شِوَاره، يتَنفَّس الصُّعَداء مِن ذَلك، فأنهاه إلى السُّلطان؛ فاستَدْعاني لِوَقته، وارتحلتُ مِن بَسْكَرَةَ بالأهْل والوَلَد، في يَوم المَوْلِد الكريم، سَنَةَ أربَعٍ وسَبْعين، مُتَوجِّهاً إلى السُّلطان، وقد كان طرَقَهُ المَرَض؛ فما هو إلاّ أن وصلتُ مِلْيَانَةَ من أعمال المغرب الأوْسط، فلقيني هنالك / خَبَرُ وفَاته، وأنّ [٥٠أ]

---

[٤] ط: «عطائهم من السلطان مفروض عليه» [٦] طپ: «المنافسة في استتباع»، ط: «وغر صدره» [٦، ٧] ط: «وصدق في جنونه»

---

(١) هو أبو فارس؛ عبد العزيز بن أبي الحسن بن أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق المريني، بويع سنة ٧٦٧، وتوفي سنة ٧٧٤. من ألمع ملوك بني مرين؛ أعاد إلى الدولة قوتها وشبابها، وأزال عنها حجر المستبدين؛ وإلى أبي فارس هذا أهدى ابن خلدون مقدمته، ولا تزال صيغة الإهداء محفوظة بديباجة النسخة المطبوعة ببولاق. وانظر العبر ٣٧٦/٧، جذوة الاقتباس ص ٢٦٨، نثر فرائد الجمان، ورقة ٢٧.

(٢) بلاد الزاب: منطقة واسعة كانت تشغل المساحة الواقعة في جنوب جبال أوراس، وتشمل بسكرة، وما حولها. وانظر خريطة الجزائر للادريسي رقم ٥١، ٥٢، وياقوت ٣٦٥/٤. و بغية الرواد ٢٣/٢. والترجمة الفرنسية ٢٦/٢.

(٣) وغر صدره: امتلأ غيظا وحقدا.

(٤) تقدم التعريف بونزمار في ص ١٣٥.

ابنَهُ أبا بكر السَّعيد[1]، نُصِبَ بَعدَه للأمر، فى كَفَالة الوزير أبى بكر بن غَازِى[2]، وأنّه ارتَحل إلى المغرب الأقصَى مُغِذًّا السير إلى فاس؛ وكان على مِلْيَانَةَ يومئذٍ علىُّ بنُ حَسُّون بن أبى على اليَنَاطِى، من قُوَّادِ السلطان ومَوَالى بَيْتِه؛ فارتحلتُ معَه إلى أحياءِ العَطَّاف، ونزَلنا على أولادِ يَعقوب بن موسَى مِن أمرائهم، وبَذْرَقَ بى بعضُهم إلى حِلَّة أولاد عَريف: أُمراءِ سُوَيْد[3]؛ ثم لَحِق بنا بعدَ أيام، علىُّ بنُ حَسُّون فى عَسْكَرِه، وارتحلْنا جَميعاً إلى المغرب على طريق الصَّحْراء؛ وكان أبو حَمُّو قد رجَع بَعد مَهْلِكِ السلطان من مَكان انتِبَاذِه بالقَفْر فى تِيكُورَارِيْن[4] إلى تِلِمْسان، فاستَولَى عليْها وعلى سائر أعماله؛ فأَوْعَزَ إلى بَنى يَغْمُور مِن شُيوخ عُبَيد الله [من][5] المَعْقِل أن يَعترِضُونَا بحُدود بِلادهم مِن رأس

[٦] ط: «بن حسون فى عساكره»

(١) السعيد محمد بن عبد العزيز بن أبى الحسن. كناه ابن خلدون هنا، وفى العبر ٧/٣٥١ «أبا بكر». وفى الجذوة لابن القاضى، والاستقصا للناصرى: أن كنيته «أبو زيان». بويع — وهو صبى لم يعد سنه الخامسة — سنة ٧٧٤، وخلع سنة ٧٧٦. وانظر العبر ٧/٣٣٦، ٣٥١، جذوة الاقتباس ص ١٣٠، الاستقصا ٢/١٣٣.

(٢) تقدم التعريف به فى ص ٤٤. وانظر جذوة الاقتباس ص ١٣١.

(٣) أولاد عريف هؤلاء: عرب من سويد، ينتهى نسبهم إلى زغبة؛ ورثوا الرياسة على قومهم منذ القديم. واتصل عريف ببنى مرين ملوك المغرب، وسفر عن أبى الحسن المرينى إلى الحفصيين، وبنى الأحمر، وإلى المماليك بمصر. وفى العبر ٦/٤٤ — ٤٨، تفصيل واف لأخبارهم ومواطنهم.

(٤) تيكورارين (Tigourârîn) جمع الكلمة البربرية تاجرارت، أو Tigourart، عرضها الشمالى نحو ٣٢° — ٤٠′، وطولها الغربى نحو ٥° — ٣٠′: تقع فى الجزء الشمالى الشرقى لواحات توات Touat. ويقول ابن خلدون: إنها فى شرق تلسان على عشر مراحل منها؛ وهى قصور كثيرة تقارب المائة فى بسيط واد منحدر من المغرب إلى المشرق؛ وكانت مركزا تجاريا هاما، تنزله القوافل التى تأتى من السودان إلى المغرب، والتى تذهب من المغرب إلى السودان. وانظر بغية الرواد ٢/٢٦١، والترجمة الفرنسية ٢/٣١٨، وترجمة مقدمة ابن خلدون ١/١١٥ الحاشية رقم ٤. ومعنى تاجرارت (بالجيم المعقودة): المحلة، أو المجتمع فى لغة البربر. وانظر «الروض المتون» ص ٥

(٥) الزيادة عن العبر ٧/٣٣٦، ٤٤٠.

العَين[1] مَخْرج وادى زَا[2] ، فاعترضونا هنالك ، فنَجا مَن نَجا منّا على خيولهم إلى جَبل دَبْدُو[3] ، وانتَهبوا جميعَ ما كان معنا ، وأرجَلُوا الكثير من الفرسان وكنتُ فيهم ؛ وبقيتُ يَوْمَيْن فى قَفْرِه ، ضاحياً[4] عارياً إلى أن خَلَصْتُ إلى العُمْران ، ولحقتُ بأصحابى بجَبَل دَبْدُو ، وَوَقَع فى خِلال ذلك من الألطاف

٥ ما لا يُعبَّر عَنه ، ولا يَسَعُ الوفاء بشُكْرِه . ثم سِرنا إلى فاس ، ووَفَدتُ على الوزير أبى بَكر ، وابنِ عَمِّه محمد بن عثمان بفاس ، فى جُمادَى من السَّنه ؛ وكان لى مَعَه قَدِيمُ صُحْبَةٍ واختِصاص ، منذ نَزَع مَعى إلى السلطان أبى سالم بجَبَل الصَّفيحة ، عندَ إجازته من الأندلس ، لطلَب ملكه ، كما مرّ فى غير مَوْضع من الكتاب[5] ؛ فلقيَنى من بَرّ الوزير وكرامته ، وتوفير جِرَايته وإقطاعه ، فوقَ

١٠ ما أحتَسِب ، وأقمتُ بمكانى من دَولتهم أثيرَ المحلّ ، نَابِهَ الرُّتبَة ، عَريضَ الجاه ، مُنَوَّهَ المَجْلِس عند السلطان . ثم انصَرَم فَصلُ الشِّتاء ، وحَدَث بين الوزير أبى

[٣،٤] ط : « إلى أن حصلت إلى العمران »

---

(١) يعرف رأس العين الآن بعين بنى مطهر (Aïn Beni mat'har) ؛ وهى منابع تقع فى شرق مدينة دبدو ، وبها مركز حربى تابع لبركان (Berguent) . وانظر بغية الرواد — الترجمة الفرنسية ٦٢/٢ .

(٢) كتبه ابن خلدون صاداً فى وسطها زاى —إشارة إلى أن نطقه بين الصاد والزاى . ويقع هذا الوادى فى جنوب عين البرديل — من عين وادى ملوية — بنحو ٥١ كيلو مترا . وانظر بغية الرواد — الترجمة الفرنسية ٢٩٩/٢ ، ٣٠٠ .

(٣) مدينة قرب الحدود الشرقية للمغرب الأقصى ، تبعد عن مدينة تاوريرت Taurirt نحو الجنوب الغربى بنحو ٥٢ كيلو مترا ، وعن مدينة كرسيف Guercif نحو الجنوب بما يقرب من ٥١ كيلو مترا . وقد احتلها الفرنسيون منذ سنة ١٩١١ م . وانظر ما كتبه Nehlil فى :

Notice sur les tribus de la région de Debdou, dans le Bull. de la Soc. de Geog. d'Alger, 1er tirm 1911 P. 40-67.

وانظر : Encyclopédie de l'Islam par, A. Caur

(٤) الضاحى : الذى لا يستره حائط ولا غيره ، فيصيبه حر الشمس وأذاها .

(٥) انظر مثلا العبر ٣٠٤/٧ — ٣٠٦ .

بكر بن غَازى ، وبين السلطان ابن الأحمر ، مُنَافرةٌ بسبب ابن الخطيب[1] ، وما دَعَا إليه ابنُ الأحمر من إبعادِه عنهم ؛ وأَنِفَ الوَزِيرِ من ذلك ، فأظلم الجوُّ بينهما ؛ وأَخَذ الوزيرُ فى تجهيز بَعضِ القَرابة من بنى الأحمر ، للإجلاب على الأندلُس ، فبادرَ ابن الأحمر إلى إطلاق الأمير عبد الرحمن بن أبى يَفلُوسَنْ من ٥ ولَدِ السلطان أبى علىّ ، والوزيرِ مَسعود بن رَحُّو بن ماسَاىْ[2] ، كان حبَسَهما أيامَ السلطان عبد العزيز ، وبإشارته بذلك لابن الخطيب ، حينَ كان فى وزارته بالأندَلس[3] ؛ فأطلقَهُمَا الآن ، / وبَعثهما لطلَب المُلك بالمَغرب ، وأجازَهُما فى [٥٠ب] الأُسْطُول إلى سَواحل غَسَاسَة[4] ، فنزَلوا بها ، ولحِقوا بقَبائل بطُّويَة[4] هُنالك ، فاشتَمَلوا عليهم ، وقامُوا بدَعْوة الأمير عبد الرحمن ، ونَهض ابنُ الأحمر من ١٠ غَرناطةَ فى عَسَاكر الأندَلُس ، فنزَلَ عَلَى جَبَل الفتح يُحَاصِرُه ، وبلغَت الأخبارُ بذلك إلى الوَزيرِ أبى بَكر بن غازى القائم بدولَة بنى مَرِين ، فَجهَّز لحينه ابنَ عمِّه مُحمدَ بنَ عُثمان بن السكاس[5] إلى سَبْتَةَ لإمدادِ الحَامِية الذين لهُم

---

[١] ط : « منافرة لسبب ابن الخطيب » . [٣،٤] ط : « من بنى الأحمر لشغله به ، وفرغ ابن الأحمر إلى » [٦] ط : « وأشار بذلك ابن الخطيب حين » [١٠] ط : « جبل الفتح محاصره » [١١] ط : « فوجه لحينه ابن عمه »

---

(١) انظر القول المفصل فى هذا فى العبر ٣٣٢/٧ — ٣٣٦ ، ٣٤١ — ٣٤٢ ، الاستقصا ١٣٢/٢ .

(٢) هو مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى . تولى محاربة أبى حمو ، وإخراجه من تلمسان سنة ٧٦٠ فى أيام أبى عنان . له فى حوادث المغرب مواقف تجدها فى الاستقصا ١٠٣/٢ ، ١٠٤ ، ١٣٢ . ورحو — فى اللغة البربرية — تصغير عبد الرحمن .

(٣) كان ذلك سنة ٧٧٤ هـ . وانظر خبره بأوسع مما هنا فى العبر ٣٣٨/٧ .

(٤) تقع أرض غساسة عند مصب وادى ملوية ، وهناك أيضا كانت قبائل بطوية . وانظر العبر ١٠١/٦ ، ١٠٢ .

(٥) هو محمد بن عثمان بن السكاس الجدولى . له ترجمة فى جذوة الاقتباس ص ٥٥ . وفى العبر ٣٠١/٧ ، بعض أخباره ، ومقتله .

بالجَبَل ، ونَهضَ هُو فى العَسَاكر إلى بطوِّيَة لقِتال الامير عَبد الرحمن ، فوَجَده قد مَلَكَ تازَى ، فأقامَ عليْها يُحاصرهُ[1] ؛ وكانَ السلطانُ عبدُ العَزيز قد جَمع شَبَاباً من بَنى أبيه المرشَّحين ، فحَبَسَهم بطنجة[2] ، فلمّا وَافَى محمدُ بن الكاس سَبْتَة ، وقَعت المُرَاسلةُ بينَه وبين ابن الأحمر ، وعتَبَ كلٌّ منهما صاحبَه على مَا كان منه ، واشتَدَّ عَذلُ ابنِ الأحمَر على إخلائهم الكرسىَّ من كُفُوِّه ، ونصْبِهم السَّعيدَ بنَ عبد العَزيز صبِيًّا لم يُثْغِر ؛ فاستَعْتَب له محمَّد ، واستقال من ذلك ؛ فحمَلَه ابنُ الأحمَر على أن يُبايع لأحَد الأبناء المحبُوسين بطنْجَه ؛ وقد كان الوزيرُ أبو بكر أوصَاه أيضاً بأنّه إن تضايقَ عليه الأمر من الأمير عبد الرحمن ، فيفرِّج عنْه بالبَيعة لأحَد أولئك الأبناء .

١٠ وكان محمَّد بنُ الكاس قد استَوزَره السلطان أبو سَالم لابنه أحمد أيام مُلكه ، فبَادَرَ من وقته إلى طنجة ، وأخرج أحمدَ بنَ السلطان أبى سالم[3] من محْبِسه ، وبايعَ له ، وسار بهِ إلى سَبْتة ، وكتب لابن الأحمر يعرِّفه بذلك ، ويطلبُ منه المدَد على أن ينزِلَ له عن جبل الفتح ؛ فأمدَّه بما شاء من المال والعَسْكر ، واستولَى

[١١] ط : « وأخرج السلطان أحمد بن السلطان » .

(١) يختلف المعنى قليلا عما هنا فى رواية العبر ، التى يقول فيها : « . . . . ونازل عبد الرحمن ببطوية ، وقاتله أياما ، ثم رجع إلى تازا ، ثم إلى فاس ، ودخل الأمير عبد الرحمن تازا الخ » . العبر ٧/٣٣٨ .

(٢) انظر مفصل هذه الأحداث فى العبر ٧/٣٣٨ — ٣٤١ . وطنجة (Tanger ، عرضها الشمالى ٣٥° — ٤٨′ ، وطولها الغربى ٥° — ٤٨′) : مدينة معروفة بالمغرب الأقصى ، واقعة على المحيط الأطلنطى ، يفصلها عن أوربا مضيق جبل طارق الذى يبعد عنها شمالا بنحو ١٨ ميلا .

(٣) هو السلطان أبو العباس أحمد بن أبى سالم : ابراهيم بن سعيد بن يعقوب بن عبد الحق المرينى الملقب بالمستنصر بالله . بويع بطنجة سنة ٧٧٥ ، وتمت له البيعة العامة بالمدينة البيضاء من فاس الجديد سنة ٧٧٩ ؛ وخلع سنة ٧٨٦ . وفى سجن أبى العباس هذا ، مات ابن الخطيب السلمانى لسان الدين . وانظر سلوة الأنفاس ٣/١٦٦ ، الاستقصا ٢/١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٩ .

على جَبَل الفتح ، وشَحنه بحاميته ؛ وكان أحمدُ بنُ السلطان أبى سالم ، قد تعاهَد مع بَنى أبيه فى مَحْبِسهم ، عَلَى أنَّ من صار الملك إليه منهم ، يُجيزُ الباقين إلى الأندلُس ؛ فلمَّا بويع له ، ذَهَب إلى الوَفاء لهم بعهدهم ، وأجازَهم جميعا ، فنزلوا على السلطان بن الأحمر ، فأكرم نُزُلَهم ، ووفَّرَ جراياتهم . وبلغ الخبرُ بذلك كلِّه إلى الوزير أبى بكر بمكانه من حِصَار الأمير عبد الرحمن بِتَازَة ، فأخذَهُ المُقِيمُ المُقْعِدُ من فَعْلَةِ ابن عمه ، وقَوَّضَ[1] راجعا إلى دار المُلك ، وعَسْكر بِكُدْيَة العرائس من ظاهرها ، وتوعَّد ابنَ عمِّه محمدَ بن عثمان ، فاعتذَر بأنَّه إنما امتثل وصيَّتَه ، فاستَشَاط وتَهدَّده ؛ واتَّسع الخرْقُ بينهما ، وارتحلَ محمد بن عُثْمان بسلطانه ومَدَدِه من عَسْكَرِ الأندَلُس إلى أن احتَلَّ بِجَبَل زَرْهُون[2] المُطِلِّ على [١٥١] مِكْنَاسَة[3] ، وعَسْكَرَ به ، واشتملوا/ عَلَيه ؛ وزَحَف إليهم الوزيرُ أبو بكر ، وصَعِد الجَبَل ، فقاتَلوه وهَزَمُوه ، ورَجَع إلى مكانه بظاهر دَار المُلْك .

وكان السلطان ابنُ الأحمر قد أوصَى محمّد بنَ عثمان بالاستعانة بالأمير

---

[٢] ط : « صار له الملك منهم » [٦] ط : « من فعلة ابن عمه ، وكرَّ راجعا » [١٠] ط : « فعسكر به ، واشتملوا » .

---

(١) قوض خيامه : هدمها . والجيش : فرّقه .

(٢) جبل واقع فى شمال مدينة مكناسة الزيتون ، على بعد نحو ٣٠ كيلو مترا منها ، وبه مدفن المولى إدريس الأكبر مؤسس الدولة الإدريسية بالمغرب . وبالجبل تقع مدينة وليلى التاريخية Volubilis .

(٣) مكناسة [Mekness عرضها الشمالى ٣٤° ، وطولها الغربى ٥° — ٣٣′] : مدينة قديمة أسسها قبيلة مكناسة البربرية قبل الإسلام ؛ وقد ازدهرت أيام بنى مرين ، فبنوا فيها المساجد ، والفنادق ، والمدارس ؛ ولا تزال مدرسة أبى عنان بها تلفت الأنظار ، ولا سيما أبوابها النحاسية المزخرفة . وقد اتخذها السلطان المولى إسمعيل العلوى عاصمة ملكه سنة ١٠٨٤ هـ .

ولمكناسة — من بين مدن المغرب — تاريخ حافل ، ولذلك حظيت بعناية المؤرخين فكتبوا فى تاريخها ما خلد مآثرها . وآخر من خصَّها بالبحث المؤرخ الضليع ، المرحوم المولى عبد الرحمن بن زيدان المتوفى سنة ١٣٦٥ هـ ؛ فقد ألف فيها كتابه الحافل الذى سمَّاه : « إتحاف أعلام الناس ، بجمال أخبار حاضرة مكناس » وقد طبع منه خمس مجلدات بالمغرب .

عَبْدِ الرَّحمن ، والاعتِضَاد بِهِ ، وَمُسَاهَمته فى جانبٍ من أعمال المَغرب يستَبِدُّ به لِنَفْسه ؛ فَرَاسَلَه مُحَمَّد بن عثمان فى ذلك ، واستَدْعاهُ ، واستَمدَّه . وكان وَنَزْمَار ابن عَرِيف ولىُّ سَلَفهم قد أظلم الجوُّ بينَه و بينَ الوَزِير أبى بَكر ، لأنه سَأَلَه — وهو يحاصر تازَى — فى الصُّلح مَعَ الأمير عَبد الرَّحمن فامتنع ، واتَّهمه بمداخلته ، والمَيْل لَه ، فاعتزَم على القَبْض عليْه ، ودسَّ إليه بذلك بعضُ عُيونه ، فرَكِبَ اللَّيل ، ولحق بأحياءِ الأَحْلافِ من المَعْقِل[1] ، وكانوا شيعةً للأمير عَبد الرحمن ، ومعهم علىّ بن عمر الوَيْغلاَنى[2] كبير بنى وَرْتَاجَّنْ ، كان انتَقَضَ على الوزير ابن غازى ، ولَحِقَ بالسُّوس[3] ، ثم خَاضَ القَفْر إلى هؤلاء الأَحْلاَف ، فنزَلَ بيْنَهم مُقيماً لدعوة الأمير عَبْد الرَّحمن . فجاءهم وَنَزْمار مُفْلِتاً من حِبَالَة الوزير أبى بَكر ، وحَرَّضَهُم على ما هُم فيه ، ثم بَلَغهم خَبَرَ السُّلطان أحمدَ بنِ أبى سالم ، ووَزيرِه محمد بن عُثمان ؛ وجاءهم وافدُ الأمير عبد الرحمن يستَدعيهم ، وخَرَج من تازَى فلَقِيَهُم ، ونزَل بينَ أحيائهم ، ورَحَلوا جميعاً إلى إمداد السُّلطان أبى العبَّاس ، حتى انتَهَوْا إلى صَفْروى . ثم اجتَمَعُوا جميعاً

---

[٥] ط : فاعتزم على التقبض عليه » [١٣] ط : « أبى العباس ، ثم انتهوا إلى صفروى » .

---

(١) يرجع ابن خلدون — فى المعقل — أنهم من عرب اليمن ؛ وهم من أوفر القبائل عددا بالمغرب الأقصى ، وكانت مساكنهم موزعة من تلمسان إلى البحر المحيط ؛ وقد ملكوا قصور زناتة التى كانت بالصحراء ، والتى منها قصور « تيكورارين » . وانظر العبر ٦/٥٨ — ٧٠ .

(٢) فى العبر ٧/٣٤٠ : على بن عمر بن ويعلان ، شيخ بنى ورتين .

(٣) السوس : إقليم واسع خصب ؛ يقع فى جنوب مدينة مراكش وراء جبال الأطلس ، ويتخلله واد عظيم يسمى وادى سوس ، تتفرع منه فروع عدة ؛ وحول الوادى وفروعه مزارع واسعة ، بها أشجار ونخل . وبإقليم السوس مدن كبيرة ؛ منها تارودانت Taroudant ، وتزنيت Tiznit ، وعلى ساحل البحر المحيط ، حيث مصب وادى سوس ، تقع مدينة أجادير Agadir . وانظر العبر ٦/١٠٠ ، ٢٧٤ . أما ياقوت فليس فى كلامه عن « سوس » ما يعوَّل عليه .

على وَادى النَّجَا ، وتعاقَدُوا عَلَى شأنِهم ، وأصبَحوا مِن الغَد على التعْبِئة ، كُلٌّ من نَاحِيَته .

وَرَكِبَ الوزيرُ أبو بَكرٍ لِقتالِهْم فلم يُطِق ، وَوَلَّى مُنهزِما ، فانحجَر بالبَلَد الجديد[1] ، وخَيّم القومُ بكُدية العرائس محاصرِينَ له ، وذلك أيامَ عيد الفطر من خَمسٍ وسَبْعين ؛ فحاصروها ثلاثة أشهر ، وأخَذوا بمخَنّقها إلى أن جَهِدَ الحِصارُ الوزيرَ ومن مَعَه ، فأذْعَن للصُّلح على خَلْع الصَّبِىِّ المنصُوب السَّعيد بن السلطان عبد العزيز ، وخُروجه إلى السُّلطان أبى العبّاس ابن عمّه ، والبَيْعة [له][2] ، وكان السلطان أبُو العباس ، والأميرُ عَبدُ الرحمن ، قد تَعَاهدوا — عند الاجتماع بوادى النَّجَا — عَلَى التَّعاوُن والتَّناصُر ، على أنَّ المُلْكَ للسلطان أبى العباس بسائر أعمال المغرب ، وأن للأمير عبد الرَّحمن بَلَدَ اسِجِلْمَاسَة[3] ودَرْعة[4] ، [٥١ب] والأعمال التى كانت لِجدِّه السلطان أبى عَلِىّ أخى السُّلطان أبى الحَسَن ؛ ثم بَدَا/

[١] ط : «وأصبحوا غداً» [٣] ط : « منهزما ، فانحجز » [٩، ١٠] بالأصلين : « الملك للسلطان عبد العزيز بسائر » ، والمثبت عن ط .

(١) تسمى أيضا المدينة البيضاء ، وفاس الجديد ، بناها يعقوب بن عبد الحق المرينى على وادى فاس ملاصقة ؛ وكان ذلك سنة ٦٧٤ هـ . وانظر الاستقصا ٢/٢٢ ، العبر ٧/١٩٤ — ١٩٥ .

(٢) الزيادة عن ط . (٣) تقدم تحديدها فى ص ٤٠ .

(٤) درعة (وتنطق اليوم درا ، ولذلك تكتب على الخرائط Dra) : مقاطعة كبيرة خصبة وراء جبال الأطلس ، تقع فى شرق إقليم السوس ، وتمتد من شرقه إلى جنوبه ، حيث تتصل بالبحر المحيط ، وتنفصل بينها وبين إقليم سلسلة السوس جبال الأطلس الخارجية Anti Atlas ؛ وفى هذه المقاطعة واد كبير تمده روافد تتفرع من جبال الأطلس ، وحول الوادى وفروعه ، تقوم قرى المقاطعة ، ومدنها الصغيرة ؛ وأكبر هذه المدن ورزازت ourzazate التى تقع فى السفح الجنوبى لجبال الأطلس مرتفعة عن سطح البحر بنحو ١٥٠٠ متراً ؛ وسكان هذه المقاطعة خليط من العرب وبربر صنهاجة . وهذا الإقليم هو الوطن الأصلى لدولة السعديين بالمغرب . وانظر العبر ٦/٣٦٢ ، ٣٦٣ ، الاستقصا ٣/٢ . وما فى ياقوت عن « درعة » أيضا ليس بشىء .

للأمير عبد الرّحمن فى ذلك أيامَ الحِصار، واشتَطَّ بطَلَب مَرّاكُشَ وَأعمالِها[1]، فأغضَوْا له فى ذلك، وشارطُوه عليه حتى يَتمّ لهم الفتح؛ فلمّا انعقدَ ما بينَ السُّلطان أبى العبّاس، والوَزير أبى بَكر، وخرج إليه من البلد الجديد، وخَلَع سُلطانَه الصبيَّ المنصُوب، ودَخَل السلطانُ أبو العبّاس إلى دار الملك، فاتحَ ستٍّ وسَبعين، وارتَحَل الأميرُ عبد الرّحمن يُغِذُّ السَّيْرَ إلى مَرّاكُش، وبَدا للسُّلطان أبى العبّاس، ووَزيره محمد بن عثمانَ فى شأنه، فَسرّحوا العساكر فى اتّباعه، وانتَهَوْا خَلْفَه إلى وادى بَهْت[2]، فواقَفُوه ساعةً من نهار، ثم أحجَموا عنه، وولّوا على رَاياتِهم وسار هُو إلى مَرّاكش، ورَجَع عنه وزيرُه مَسْعود ابنُ مَاسَاىْ، بعد أن طلَبَ منه الإجازةَ إلى الأندلس يَتودَّع بها، فسرّحه

١٠ لذلك، وسار إلى مَرّاكُشَ فمَلَكها.

وأمّا أنَا فكنتُ مقيماً بفَاس، فى ظلّ الدّولة وعنايتها، منذُ قدِمتُ على الوزير سنةَ أربعٍ وسَبعين كما مَرّ، عاكفاً على قراءة العِلم وتَدْريسه؛ فلمّا جاء السُّلطانُ أبو العبّاس، والأميرُ عبدُ الرّحمن، وعَسْكَرُوا بكُدْية العرائس، وخَرجَ أهلُ الدّولة إليهم، من الفُقَهاء، والكُتّاب، والجُند، وأُذِنَ للنّاس

١٥ جميعاً فى مُباكرة أبواب السلطانَيْنِ مِنْ غَيرِ نَكيرٍ فى ذلك، فكنتُ أُباكرهما معاً، وكانَ بينى وبينَ الوزير مُحمّد بن عثمان مَا مَرّ ذِكره قبلَ هذا، فكان

---

[٢] ط: «وشارطوه على ذلك حتى»، طب: حتى تمّ لهم الفتح»
[٢—٦] ط: «ما بين السلطان أبى العباس، ووزيره محمد بن عثمان». [١٦] فى الأصلين: «ذكره من هذا»، والمثبت عن ط.

---

(١) فى العبر ٣٤١/٧: «واشترط عليهم الأمير عبد الرحمن التجافى له عن أعمال مراكش، وأن يديلوه بها من سجلماسة».

(٢) فى «المعجب» لعبد الواحد المراكشى ص ٢٤٣: «وفيما بين مكناسة، وسلا نهر يدعى بهتا، ينصب إلى البحر الأعظم أيضا»؛ ويسمى اليوم oued Beht ينبع بالقرب من مدينة أزرو Azrou، ثم يتصل بوادى سبو Sebou شمال Port Lyautey، حيث ينصب وادى سبو فى المحيط الأطلسى.

يُظهِرُ لى رِعَايةَ ذلك ، ويُكثِر من المَواعيد ؛ وكانَ الأميرُ عَبدُ الرّحمن يَميل إلىّ ، وَيَستَدعينى أكثرَ أوقَاته يُشَاوِرُنى فى أحواله ؛ فَغَصَّ بذلك الوزير محمّد بن عثمان ، وأغرَى سلطانَه فَقَبَضَ عَلَىّ ، وسَمِعَ الأميرُ عبد الرّحمن بذلك ، وعَلِم أنى إنما أوتيتُ من جَرّاه ، فَحلفَ لَيُقَوِّضَنَّ خِيامَه ، وبعثَ وزيرَه مَسْعودَ بن مَاسَاىْ لِذَلك ، فأطلَقُونى من الغَد ، ثم كان افتِرَاقُهما لِثَالثه . ودَخل السلطانُ أبو العبّاس دَارَ المُلْك ، وسَار الأميرُ عبدَ الرحمن إلى مَرّاكُش ، وكنتُ أنا يومئذ مستوحِشا ، فصَحِبتُ الأميرَ عبد الرحمن مُعْتَزِماً على الإجازة إلى الأندلس من ساحل أَسَفِي[1] ، معوّلاً فى ذلك عَلَى صحابة الوزير مَسْعُود بن ماسَاىْ لهوَاىَ فيه ، فَلَمّا رجع مَسْعُود انثَنَى عَزْمى فى ذلك ، ولحقْنا بوَنْزمار ابن عَريف بمكانه من نواحى كَرْسِيف[2] لِتَقَدُّمه وَسِيلةً إلى السُّلطان أبى العبّاس، صاحِب فاس فى الجوَاز إلى الأندَلُس ، ووَافَيْنا عِنـدَه دَاعِىَ السُّلطان فصَحِبناهُ إلى فاس ، واستأذنَه فى شأنى ، فأذِن لِى بَعْدَ مطاولة ، وعلى كُرْهٍ من الوَزير محمّد بن عثمان ، وسليمانَ بن داود بن أعْرَاب[3] ، ورجَال الدّولة .

وكان الأخ يَحيَى لمّا رحَل السلطانُ أبو حمّو من تِلِمْسَان ، رجَع عنه من

[٦، ٥] ط : « ودخل الأمير أبو العباس دار الملك » [١٣] طب : « داود بن عراب »

(١) أسفى (Safi عرضها الشمالى ٣٢° — ١٤′ ، وطولها الغربى ٩° — ١٥′) : مدينة فى المغرب الأقصى ، تقع على ساحل المحيط ، بينها وبين مراكش ١٠٤ كيلو مترا نحو الشمال الغربى . وقد ضبطها ابن خلدون بالحركات بهمزة مفتوحة بعدها سين كذلك ، ثم فاء مكسورة بعدها ياء ؛ وهو الضبط الذى ذكره ياقوت بالكليات ١/٢٣٢ .

(٢) كرسيف (Guercif عرضها الشمالى ٣٤° — ١٢′ ، وطولها الغربى ٥°) : مدينة واقعة على نهر ملوية ، فى الشرق من مدينة تازا على بعد ٦٨ كيلو متراً تقريبا ، ويمر بها الخط الحديدى الذى يصلها بمدينة تاوريرت Taourirt ، ثم بمدينة وجدة Oujda .

(٣) سليمان بن داود هذا : هو الذى قتل رجاله بأمره ابنَ الخطيب . وانظر بعض أخباره فى العبر ٧/٣٤١ — ٣٤٣ ، ٧/٢٩٨ .

بِلَادِ زُغْبَةَ[1] إلى السُّلطان عَبد العزيز فاستَقرَّ في خدمتِهِ ، وبَعْـدَه في خِدمَة ابنه محمد السَّعيد المنصوب مَكانَه . ولمـا استَولى السلطانُ أبو العبَّاس على البَلَد الجديد ، استأذَنَ الأخُ في اللَّحَاق بِتِلمْسان ، فأَذِنَ له ، وقَدِم على / السُّلطان [١٥٢] أبي حَمُّو، فأعادَه إلى كِتابَة سِرِّه كما كان أول مرة ، وأذِنَ لي أنا بعدَه ، فانطلَقْتُ إلى الأندَلُس بقَصْد القَرار والدَّعة ، إلى أن كان ما نذْكر . ٥

الإجازة ثانية إلى الأندلس ، ثم إلى تلمسان ، واللحاق بأحياء العرب ، والمقامة عند أولاد عريف

ولمـا كان ماقَصَصْتُه من تَنَـكُّر السلطان أبي العبَّاس صاحب فاس ، والذَّهابِ مع الأمير عَبد الرَّحمن ، ثم الرُّجوعِ عنْه إلى وَنْزَمَار بن عَرِيف ، طلبًا لوسيلته في انصرافي إلى الأَندلس بقصـد القَرار والانقباض ، والعُـكُوف على قِراءة العِلْم ؛ فتمَّ ذلك ، ووَقَع الإسعافُ به بعـدَ الامتِناع ، وأجَزت إلى ١٠ الاندلس في ربيع [سنة][2] ستٍّ وسَبعين ؛ ولَقِيَني السلطان بالبرِّ والـكرامة ، وحُسْن النُّزُل على عادَته ، وكنتُ لقيتُ بجبَل الفتح كاتبَ السلطان ابن الأحمر ، مِن بعد ابن الخطيب ، الفقيهَ أبا عَبْد الله بنَ زَمْرَك[3] ، ذَاهِبًا إلى فَاس في غَرَض

[١ ، ٢] ط : « في خدمة ابنه السـعيد » [٤] ط : « فأعاده لـكتابة سره » [٥] ط : « ما نذكره » [١٠] ط : « طلبا للوسيلة في » [١٢] ط : « ولقيني السلطان بالـكرامة وأحسن » .

(١) تغلبت قبائل زغبة أول أمرها على نواحي قابس ، ثم كانت أيام الموحدين متفرقة بين تلمسان والمسيلة ، وأقطعهم الموحدون نواحي بجاية . وانظر العبر ٦/٤٠ وما بعدها .

(٢) الزيادة عن ط .

(٣) أبو عبد الله محمد بن يوسف الصريحي المعروف بابن زمرك . له ترجمة حافلة في أزهار الرياض ٢/٧—٢٠٦ ، وفي الإحاطة ٢/٢٢١—٢٤٠ ، ونفح الطيب ٤/٦٧٩—٧٥٥ طبع بولاق . وانظر ص ٧٦ .

وزمرك بفتح الزاي والراء ، بينهما ميم ساكنة ؛ وقد اضطرب ضبط ابن خلدون له ؛ فضبطه هنا بفتح الزاي والميم ، وسكون الراء ، وفي مكان آخر بفتح الزاي والراء وسكون =

التّهْنِئة ، وأجاز إلى سَبْتَةَ فى أُسطوله ، وأوصَيْتُه بإجازة أهلى وَوَلدى إلى غَرْناطة ؛ فلمّا وَصَل إلى فَاس ، وتحدّث مع أهل الدّولة فى إجازتهم ، تَنكّرُوا لذلك ، وسَاءهمُ اسْتِقْرارى بالأنْدلُس ، واتّهموا أنى ربّما أحمِل السّلطان ابنَ الأحْمَر على المَيل إلى الأمير عَبد الرحمن ، الذى اتّهمُونى بِمُلابسَتِه ، ومَنَعوا أهلى من اللّحَاق بى ، وخاطَبُوا السلطانَ ابنَ الأحْمر فى أن يُرْجِعَنى إليْهم ، فَأَبَى من ذلك ، ٥
فطَلَبُوا مِنْه أن يُجيزَنى إلى عُدْوَةِ تِلِمْسان ؛ وكانَ مَسْعُودُ بن مَاسَاىْ قَد أذِنُوا له فى اللّحاق بالأندلُس ، فحَمّلُوه مُشَافَهَةَ السّلطان بذَلك ، وأَبْدَوْا له أنى كنتُ ساعيًا فى خَلاص ابن الخطيب ، وكانوا قَد اعتَقَلُوه لِأول استِيلائهم على البَلَد الجَدِيد وظَفَرِهم به ، وبَعَثَ إلىَّ ابنُ الخطيب مِن مَحْبِسه مُسْتَصْرِخًا بى ، ومتَوَسّلا ، فخاطبت فى شأنِه أهلَ الدّولة ، وعوّلت فيه مِنهم على وَنْزَمَار ، ١٠
وابنِ مَاسَاىْ ، فَلَم تُنْجِحْ تِلك السِّعَاية ، وقُتِل ابنُ الخطيب بمَحْبِسه ؛ فلما قدم ابن مَاسَاىْ على السّلطَان ابنِ الأحمر — وَقَد أغْرَوهُ بى — فألقَى إلى السّلطان ما كانَ مِنّى فى شَأن ابن الخطيب ، فاسْتَوْحَشَ لذلك ، وأسعَفَهم بإجازَتى إلى العُدْوة ، ونزَلتُ بهُنَيْن ، والجوُّ بينى و بينَ السّلطانِ أبى حَمّو مظلِم ، بما كان منى فى إجلاب/ [٥ب]
العَرَب عليه بالزّاب كما مرّ . فأوعَزَ بمُقَامى بهُنَيْن ؛ ثم وفَدَ عليه محمّد بن عَريف فَسَـألَه فى شَأنى ، فَبَعَثَ عَنّى إلى تِلِمْسان ، واستَقْرَرْتُ بها بالعُبّاد ، ولَحِقَ بى أهلى ووَلدى من فَاس ، وأقامُوا معى ، وذلك فى عِيد الفِطر سنةَ سِتٍّ وسَبعين ، وأخذتُ فى بَثّ العِلم . وعَرَض للسّلطان أبى حَمّو أثناء ذلك رَأىٌ فى الدّواودة ، وحَاجةٌ إلى استئلافهم ؛ فاستَدْعَانى ، وكلّفنى السِّفَارة إليْهم فى هَذَا الغَرَض ، ١٥

---

[١٣] ط : « فاستوحش من ذلك » .

= للم بينهما . والضبط الذى رجحته يستند إلى سجعة ؛ فقد ألف أحد أمراء بنى الأحمر كتابا سماه : « البقيّة والمُدْرَك ، من كلام ابن زَمْرَك » .

فاستَوْحَشت منه ، ونَكرتُه على نَفْسى ، لما آثَرتُه من التَّخَلِّى والإنقطاع ، وأجَبتُه إلى ذلك ظاهرا ، وخرجْتُ مُسَافراً من تِلِمْسانَ حتى انتهيت إلى البَطْحَاء[1] ، فعَدلت ذَات اليمين إلى مَنْدَاسَ[2] ، ولحقتُ بأحْياء أولاد عَريف قِبْلَةَ جبل كُزُول[3] ، فَتَلَقَّونى بالتَّحَفِّى والكَرامة ، وأقمتُ بينهم أياما حتّى بعثُوا عن أهلى وَوَلَدى من تِلِمْسان ، وأحسَنُوا العُذْرَ إلى السُّلطان عَنِّى فى العَجْز عن قَضَاء خِدْمته ، وأنْزَلُونى بأهلى فى قَلْعَةِ ابن سَلَامَةَ[4] ، مِنْ بَلَاد بَنى تُوجين[5] ، التى صَارَتْ لهم بإقطاع السُّلْطَان[6] ، فأقَمْتُ بها أربعة

(١) كان موقع البطحاء البسيط الذى بين مدينة Relizane ، وبسيط وادى شلف . وانظر ما سبق فى ص ٢٩ ، ٥٨ ، وبغية الرواد ، الترجمة الفرنسية ٩٧/٢ .

(٢) منداس : ضبطها بالحركات بفتح الميم والدال ، وبينهما نون ساكنة ؛ وبعد الدال ألف بعدها سين مفتوحة ، وتكتب اليوم : mendès ؛ وهى قرية تقع الآن غرب تيارت Tiaret فى جنوب مدينة Relizane بين Pouarsenis ، وجزولا . وانظر ترجمة بغية الرواد ٢٤٦/٢ — ٢٤٨ ، وترجمة مقدمة ابن خلدون LXVII/١

(٣) يقع جبل كزول فى الجنوب الغربى لمدينة تيارت Tiaret على بعد ١٠ كيلومترات .

(٤) قلعة ابن سلامة (أوبنى سلامة) هذه ، وتسمى قلعة تاوغزوت Taoughzout ؛ تقع فى مقاطعة وهران Oran من بلاد الجزائر Alger ، وتبعد بنحو ستة كيلو مترات إلى الجنوب الغربى من مدينة Frenda (ذات العرض الشمالى ٣٥° — ٦′ ، والطول الشرقى ١° — ٢٥′) التى تقع على وادى التحت et-Tahet ؛ كما تبعد عن مدينة تيارت Tiaret فى الجنوب الغربى أيضا بتسع مراحل .

أما سلامة الذى تنسب إليه ، أو إلى بنيه ، القلعة ؛ فهو سلامة بن على بن نصر بن سلطان رئيس بنى يدللتن من بطون توجين . سكن تاوغزوت ، واختط بها القلعة ، فنسبت إليه ، وإلى بنيه ، وكانت من قبل رباطاً لبعض العرب المتقطعين من سويد . انظر العبر ١٣٠/٧ ، ١٣٦ ، ١٦٣ ؛ بغية الرواد (الترجمة) ٣٠٧/٢ ، مقدمة ابن خلدون (الترجمة) ١ / LVII الحاشية رقم ٣ .

(٥) كان لبنى توجين من الأراضى ما بين قلعة سعيدة [Saida حيث العرض الشمالى ٣٤° — ٥٠′ ، والطول الشرقى ١٠′] فى الغرب ، إلى المدية [Médéa حيث العرض الشمالى ٣٦° — ١١′ والطول الشرقى ٢° — ٥١′] فى الشرق ؛ وكانت لهم قلعة ابن سلامة ، ومنداس ، ووانشريس . وانظر العبر ٤٥/٦ .

(٦) فى العبر ٤٦/٦ : « وأقطع السلطان أبو عنان ، ونزمار بن عريف « السرسو » (Pl. du Sersou) ، وقلعة ابن سلامة ، وكثيراً من بلاد توجين » .

أعْوام ، مُتَخَلِّيًا عن الشَّوَاغِل كلِّها ؛ وشَرَعتُ في تأليف هَذَا الكتاب ، وأنَا مُقِيمٌ بها ، وأكملتُ المُقَدِّمَةَ مِنهُ على ذَلك النَّحو الغَريب ، الذي اهتَديتُ إليه في تِلك الخَلْوَة ، فَسالَتْ فيهَا شآبِيبُ الكَلَام والمَعَاني على الفِكر ، حتى امتَخَضَتْ زُبدَتُها ، وتألَّفت نَتَائِجُها ؛ وكَانَتْ من بَعدِ ذلك الفيئةُ إلى تُونِس كما نَذكره .

الفيئة إلى السلطان أبي العباس بتونس والمقام بها

ولما نزلتُ بقلعة ابن سَلامة بين أحياء أولاد عَريف، وسكنتُ مِنْها بقصر أبي بَكر بن عَريف الذى اختطّه بها، وكان من أحفل المساكن وأوثقها، ثم طالَ مُقامى هنالك، وأنا مسْتَوْحِشٌ من دَولة المغرب وتِلمْسان، وعاكفٌ على تأليف هذا الكتاب، وقد فَرغتُ من مُقدّمته إلى أخبار العَرَب والبَرْبَر وزَنَاتة، وتشوّفتُ إلى مُطالعة الكُتُب والدّواوين التى لا توجَد إلاّ بالأمصار، بَعْدَ أن أمْليتُ الكثيرَ مِن حِفظِى، وأردتُ التّنقيحَ والتّصْحيح؛ ثم طرقَنى مَرضٌ أوْفَى بى على الثّنِيّة، لولَا ما تَدارَكَ من لُطف الله؛ فحدث عِندِى مَيْلٌ إلى مُراجَعة السّلطان أبي العبّاس، والرِّحلةِ إلى تُونِس، حيث قَرارُ آبائى، ومَسَاكِنُهم، وآثارُهم، وقُبورُهم؛ فبادرتُ إلى خطاب السّلطان بالفَيْئَة إلى طاعته، والمُراجَعَة، وانتظرت، فما كان غَيْر بعيد، وإذَا بخطابه وعُهوده/ [١٥٣] بالأمان، والاستِحْثاث للقُدوم، فكان الخُفوف للرِّحلَة، فظعنتُ عن أولادِ عَريف مَع عرَب الأخضَر من بَادية رِياح، كانُوا هُنالك ينتَجِعُون الميرة بمَنْدَاس، وارتَحلْنا فى رَجب سنة ثمانين، وسَلكْنا القَفْر إلى الدّوْسَنِ من أطراف الزّاب، ثم صَعِدتُ إلى التّل مع حَاشية يَعقوب بن عَليّ وجَدتُّهم بفَرْفَار[1]، الضَيعَة التى اختَطَّهَا بالزّاب، فَرحَلتُهم معى إلى أن نَزلنا عليه

[١] أورد هذا العنوان فى الظاهرى بصيغة: «الرجعة إلى تونس والمقام بها» [٦] فى الأصلين: «أخبار المغرب والبربر»: والمثبت عن ط [٩] ط: «مرض أربى بى» [١٢] ط: «والمراجعة، فما كان» [١٣] طب: «للرحلة، وظعنت» [١٧] ط: «فرحلت معهم إلى أن».

(١) فرفار (Farfar): واحة صغيرة تقع على بعد ٣٣ كيلو مترا من مدينة بسكرة، فى الجنوب الغربى لها.

بضَاحية قُسَنْطِينَة ، ومَعَه صاحبها الأميرُ إبراهيم بنُ السلطان أبى العبَّاس بمخيَّمه ، وفى عَسْكره ، فحضرتُ عِنده ، وقَسَم لى من برِّه ، وكرامته فوقَ الرِّضَى ، وأذِنَ لى فى الدُّخول إلى قُسَنْطِينَة ، وَإقامة أهلى فى كفَالة إحسانه ، بَيْنَمَا أصِلُ إلى حضرة أبيه ، وبعَثَ يعقوبُ بن علىّ معى ابنَ أخيه أبى دينار فى جماعةٍ من قَوْمهم ، وسِرنا إلى السُّلطان أبى العبَّاس ، وهو يومئذ قد خَرَج ٥ من تُونِس فى العساكر إلى بلاد الجريد[1] ، لاستنزال شُيوخها عن كراسى الفتْنة التى كانوا عليها ، فوافَيْتُه بظَاهِر سُوسَة ، فحَيَّا وَفَادَتى ، وبَرّ مَقْدَمى ، وبالَغَ فى تأنيسى ، وشَاوَرَنى فى مُهمَّات أموره ؛ ثم رَدَّنى إلى تُونس ، وأوعَزَ إلى نَائبه بهاَ مولاه فارِح[2] بتَهْيئَة المَنْزِل ، والكِفَاية فى الجِرَاية ، والعُلُوفَة ، وجَزِيل الإحْسَان ؛ فَرَجَعتُ إلى تُونس فى شَعْبان من السَّنة ، وآوَيتُ إلى ظِلّ ١٠ ظَلِيلٍ من عِنَاية السلطان وَحُرْمَته ، وبَعَثْتُ عن الأهل والولَد ، وجمَعْت شملهم فى مَرْعَى تِلكَ النِّعْمَة ، وألقيتُ عَصَا التَّسْيار ؛ وطالَت غيْبةُ السلطان إلى أن افتَتحَ أمصارَ الجريد ، وذهب فَلُّهُم فى النَّواحى ، ولَحِق زعيمُهُم يَحْيى ابن يَمْلُول[3] بِبَسْكَرَة ، ونزَلَ على صِهْرِه ابنِ مَزْنى ، وقَسَم السلطان بلاد

[٥] ط : « وسرت إلى السلطان » [١٠] ط : « فرحت إلى تونس فى شعبان »
[١١] ط : « وبعثت إلى الأهل » .

(١) بلاد الجريد ، وتسمى الجريد أيضا : مقاطعة فى القسم الجنوبى للمملكة التونسية .

(٢) فارح بن مهدى الحاجب ، من موالى السلطان أبى سعيد بن أبى سالم . كان مجرباً للأمور ، عارفا ، مجيداً فى التدبير ، متسما بالأمانة . له ترجمة فى جذوة الاقتباس ص ٣١٦ ، والعبر ٣٥٣/٧ ومابعدها ، والاستقصا ١٤٦/٢ .

(٣) يحيى بن محمد بن أحمد بن يملول أمير توزر . يرجع نسبهم — فيا يقولون — إلى تنوخ من طوالع العرب الداخلة للمغرب ؛ وأخبارهم مفصلة فى العبر ٤١٢/٦ — ٤١٨ . وقد ضبط ابن خلدون « يملول » بفتح الياء وسكون الميم ، وضم اللام بعدها واو ، فلام ؛ وتنطق اليوم إملول بهمزة مكسورة بدل الياء ؛ وهى قاعدة صوتية تكاد تطرد فى النطق المغربى =

الجريد بين ولده ، فأنزل ابنه محمد المنتصر[١] بتُوزَر[٢] ، وجَعل نَفطَة[٣] ، ونَفزَاوة[٤] من أعماله ، وأنزلَ ابنه أبا بكر بقَفصَة[٥] ، وعاد إلى تُونس مُظفَّرا ، مَاهِدًا ، فأقبل عليّ ، واستَدْنانى لمجالسته ، والنَّجيّ فى خَلوته ، فغصّ بطانته بذلك ، وأفاضُوا فى السِّعَايات عِنـدَ السلطان فلم تُنْجِح ؛ وكانوا يَعكُفُون على إمام الجامع ، وشَيْخ الفُتْيا ، محمد بن عَرفَة[٦] ، وكانت فى قَلبه نُـكْتَةٌ من الغيرة مِن لَدُن اجتِماعنَا فى المَرْبَى بمَجالِسِ الشـيُوخ ، فـكثيراً ما كانَ يظهَر شُفُوفى عليه ، وإن كان أسنّ منّى[٧] ، فاسودّت تلك النُّـكْتة فى قلبه ، ولم تُفارقه .

[٦] ط : « فى المربى بمجالسة الشيوخ » .

= فيما أوله ياء ، وما قبل آخره حرف مد ؛ فيقولون فى مثل : يكون ، ويدوم ، ويموت ، ويعيش ويطير ، ويقول ، وينام : إكون ، إدوم ، إموت ، إعيش ، إطير ، إقول ، إنام — بهمزات مكسورات بدل الياء .

(١) انظر بعض أخباره فى العبر ٦/٣٩٨ .

(٢) تُوزر [Tozeur عرضها الشمالى ٣٤° ، وطولها الشرقى ٨° — ١٠′] ؛ ضبطها ابن خلدون بضم التاء ، (وفى ياقوت بفتحها) ، وسكون الواو بعدها زاى مفتوحة : مدينة واقعة على الحافة الشمالية لشط الجريد Chott El-Djerid ، بينها وبين نفطة عشرة فراسخ (مرحلة) . وانظر ياقوت ٢/٤٢٨ ، ٨/٣٠٤

(٣) نفطة ، بفتح النون ، وسكون الفاء بعدها طاء مفتوحة ، ثم هاء تأنيث : مدينة من مدن بلاد الجريد بجنوب تونس ؛ تبعد عن توزر بعشرة فراسخ . وانظر ياقوت ٨/٣٠٤

(٤) نفزاوة . ضبطها ابن خلدون بفتح النون (وفى ياقوت بكسرها) ، ويتفقان على تسكين الفاء ، وفتح الزاى المتلوة بألف ، ثم واو مفتوحة تليها هاء . وهى مدينة من مدن الجريد أيضا ، وبينها وبين نفطة مرحلة واحدة . وانظر ياقوت ٨/٣٠٤

(٥) قفصة [Gafsa عرضها الشمالى ٣٤° — ٢٢′ ، وطولها الشرقى ٨° — ٢٩′] : مدينة من مدن الجريد فى الشمال الشرقى لتوزر ، وتبعد عن نفطة مرحلتين . وانظر ياقوت ٨/٣٠٤ .

(٦) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الوَرْغمى التونسى (٧١٦ — ٨٠٣) . يتبوأ المكانة العالية بين علماء المالكية ؛ درس بالزيتونة ، وأم بها خمسين عاماً . دخل مصر حاجا سنة ٧٩٢هـ ، وأجاز ابنَ حجر العسقلانى ؛ وله تآليف . ترجمته فى الضوء اللامع ٩/٢٤٠ — ٢٤٢ ، الديباج ص ٣٣٧ ، نيل الابتهاج ص ٢٧٤ ، طبقات القراء ٢/٢٤٣ .

(٧) ولد ابن عرفة قبل ابن خلدون بستة عشرة سنة ، حيث كانت ولادته عام ٧١٦ ، وولادة ابن خلدون عام ٧٣٢ .

ولما قَدِمت تونس انثالَ عليَّ طلبةُ العِلْمِ من أصحابه وسِوَاهُم ؛ يطلُبُون الإفَادَة
[٥٣ب] والاشتِغَال ، وأسعَفْتهم بذلك ، فعظُم عليْه ، / وكان يُسِرُّ التَّنفيرَ إلى الكثير
منهُم فلم يقْبَلُوا ، واشتدَّت غَيْرَتُه ؛ ووافق ذلك اجتماعُ البطانة إليْه ، فاتّفقُوا على
شأنِهم في التأْليب عليَّ ، والسِّعَاية بي ، والسُّلطانُ خِلالَ ذلك مُعرِضٌ عَنهم
٥ في ذلك ؛ وقد كلَّفني بالإكْبَابِ على تأليفِ هَذا الكِتَاب لتشوُّفه إلى المَعارف
والأخبار ، واقتِنَاء الفَضَائل ؛ فأكمَلْتُ منه أخبارَ البَرْبَر ، وزنَاتَه . وكَتبتُ
من أخبَارِ الدَّولتَين ومَا قبلَ الإسلاَم ما وَصَل إليَّ منها ، وأكملتُ منه نُسخَةً
رفعتُها إلى خِزانته . وكانَ مِمّا يُغْرُونَ به السُّلطان عليَّ ، قُعُودي عَن امتِدَاحِه ،
فإني كنتُ قد أهمَلْت الشِّعر وانتحالَه جُمْلَة ، وتفرَّغتُ للعِلم فَقَط[1] ، فكَانُوا
١٠ يَقولون لَهُ : إنما ترَكَ ذَلِك استِهانةً بِسُلطانك ، لِكَثْرة امتداحِه للمُلوك قَبْلَك ،
وتَنَسَّمتُ ذلِك عَنهم من جهة بَعْض الصَّدِيق من بِطانَتِهم ؛ فلمَّا رفعتُ لَه
الكِتاب ، وتوَّجتُه باسْمِه ، أنشَدْتُه ، ذلك اليومَ ، هَذِه القصيدة أمتدحُه ، وأذكر
سِيَرَه وفُتوحَاتِه ، وأعتذرُ عن انتحالِ الشِّعر ، وأستَعطِفُه بِهَدِيَّة الكِتاب إليْه ؛
وهِيَ هَذه :

١٥
هَل غيرُ بابِك للغَرِيب مُؤَمَّلُ … أو عَن جَنَابِك للأمَانِي مَعْدِلُ
هِي همةٌ بَعَثَتْ إليْكَ عَلى النَّوَى … عَزْماً كمَا شَحَذَ الحُسَامَ الصَّيْقَلُ[2]
مُتَبوَّأُ الدُّنيَا ومُنْتَجَع المُنَى … والغَيث حَيْثُ العَارِض المتَهَلِّلُ

---

[٤] ط : « في التأليب والسعاية » ، طب : « معرض عنهم ؛ وقد » [٦] ط : « فأكملت منها أخبار » [٨] ط : « به السلطان ، قعودي » [١٠] في الأصلين : « استهانة لسلطانك » ، والمثبت عن ط [١٢] ط : « باسمه ، فأنشدته في ذلك اليوم » [١٥] ط : « هل باب غيرك للغريب »

---

(١) استعمل ابن خلدون «فقط» في الإثبات ، وهو استعمال جائز ، وردت به أحاديث صحيحة . وانظر تاج العروس «قط» ، شرح درة الغواص ص ٢٩ — ٣١ .

(٢) الصيقل (كحيدر) : شحاذ السيوف ، وجلاَّؤها .

حيثُ القصُورُ الزّاهِراتُ مُنِيفَةً ... تُعْنَى بِهَا زُهْرُ النجُوم وتَحفِلُ

حَيثُ الخيامُ البِيضُ يُرفَع لِلعُلاَ ... ولِلْـكُرُماتِ طِرَافُها[1] المتَهـدِّلُ

حَيثُ الحِمَى لِلعِزِّ فى سَـاحاتِهِ ... ظِلٌّ أفاءتْه الوَشِيـجُ الذُّبَّلُ[2][2]

[حَيثُ الـكِرامُ يَنُوبُ عَن نارِ القِرَى ... عَرفُ الـكِباءِ بحيِّهم والمندَلُ][3][3]

٥ حَيثُ الرِّماحُ يكادُ يُورِقُ عُودُهَا ... مِمَّا تَعُلُّ مِنَ الدِّماءِ وتُنْهَلُ

حَيثُ الجِيَادُ أمَلَّهُنَّ بنُوا الوَغَى ... مِمَّا أطالُوا فى المُغَار وأوْغَلُوا

حَيثُ الوجُوهُ الغُرُّ قَنَّعَهَا الحَيَا ... والبِشْرُ فى صَفَحَاتِها يَتَهلَّلُ

حَيثُ المُلُوكُ الصِّيدُ والنَّفرُ الأُلَى ... عَزَّ الجُوَارُ لَدَيهِمُ والمَنْزِلُ

مِن شِيعَةِ المَهْدِىِّ بَلْ مِن شِيعَةِ التَّوحِيدِ[4] جاءَ بِهِ الـكِتَابُ يُفَصِّلُ[9]

١٠ بَلْ شِيعَةَ الرَّحمنِ ألقَى حبَّهم ... فى خَلْقِهِ فسَمَوا بِذاكَ وفُضِّلُوا

شَادُوا على التَّقوى مَبَانِىَ عِزِّهِم ... لِلّهِ ما شَـادُوا بِذاك وأثَّلُوا

---

[١] ط : « تعنى لها » [٢] فى الأصلين :

« .... البيض ترفع للقرى * قد غام فى أرجائهن المندل »

والمثبت رواية الإحاطة ، والنفح عنها [٣] فى الإحاطة والنفح : « العز دون مجاله »

[٤] الزيادة عن نفح الطيب والإحاطة [٩] ط : « الـكتاب مفصل » .

---

(١) الطراف : بيت من أدم ؛ والطراف من الخباء : ما رفعت من نواحيه لتنظر إلى خارج .

(٢) الوشيج : أصلب القنا . والذبل ، جمع ذابل ؛ وهو القنا الدقيق اللاصق القشر ؛ وذلك أمتن ما يكون .

(٣) الـكباء : المتبخّر به كالمندل .

(٤) يريد مهدى الموحدين ؛ وهو محمد بن تومرت ، مؤسس الدولة الوحدية بالمغرب . انظر ترجمته فى المعجب للمراكشى ١١٥ — ١٢٥ ، الوفيات ٢/٤١ ، طبقات الشافعية ٤/٧١ ، ٧٠/٥ ، العبر ٦/٢٢٥ .

وقد جعل أصل دعوته نفى التجسيم الذى آل إليه مذهب أهل المغرب حيث تركوا التأويل فى المتشابه من النصوص الشرعية ؛ وسمى دعوته دعوة أهل التوحيد ، وأتباعه بالموحدين . وانظر العبر ٦/٢٦٦ .

قَوْمٌ أبُو حَفْصٍ(١) أبٌ لَهُمُ وَمَا ... أدراكَ ! والفَارُوقُ(٢) جَدٌّ أوّلُ

[١٥٤] /نَسَبٌ كَمَا اطَّرَدتْ أنَابِيبُ القَنَا(٣) ... وأَتَى على تَقْوِيمِهِنَّ مُعَدِّلُ

سَامٍ على هَامِ الزَّمَانِ كأنَّهُ ... لِلفَخْرِ تاجٌ بالبُــدُورِ مُــكَلَّلُ

فَضَلَ الأنَامَ حَدِيثُهم وقَدِيمُهم ... ولأَنْتَ إن فَضَلوا أعزُّ وَأفضَلُ

وَبَنَوْا على قُلَلِ النُّجومِ وَوَطَّدوا ... وبِنَاؤُكَ العَالِي أشَدُّ وأطْوَلُ ٥

***

ولَقَد أقُولُ لِخَائِضٍ بَحْرَ الفَلاَ ... واللّيلُ مُزْبِدُ الجَوَانِبِ ألْيَلُ(٤)

مَاضٍ عَلَى هَوْلِ الدُّجَى لاَ يَتَّقِي ... تِيهاً وذابِلُهُ ذُبَالٌ مُشْعَــلُ(٥)

مُتَقَلِّبٍ فوقَ الرِّحالِ كأنَّهُ ... طَيْفٌ بأطرافِ المِهادِ مُوَكَّلُ

يَبغِي مَنَالَ الفَوْزِ من طُرُقِ الغِنَى ... ويَرُودُ مُخْصِبَهَا الذي لاَ يُمْحِلُ ١٠

أرِحِ الرِّكابَ فَقَدظَفِرتَ بِوَاهِبٍ ... يُعْطِي عَطاءَ المُنعِمِينَ فيُجْزِلُ

لله من خُلُقٍ كَرِيمٍ فى النَّدَى ... كالرَّوضِ حيَّاهُ نَدىً مُخْضِلُ

---

[٣] ط : «تاج بالنجوم» [٨] ط : « لا يتقى * منها ... » تصحيف .

---

(١) هو أبو حفص عمر بن عبد الله الصنهاجى ، ويعرف بأزناج ، وعُمَر وُمْزال ؛ وكان يسمى قبل « فصكة » ، أو « فار صكات » ، فسماه ابن تومرت عمر ويعرفونه بعمر انيتى ، من أهل تينملل من قبيلة مسكَّالة . كان من أوائل أصحاب ابن تومرت منشىء دولة الموحدين ، ووزر لعبد المؤمن بن على وإليه تنتسب الدولة الحفصية . وانظر العبر ٦/٢٧٥ ، المعجب ص ١٢٥ ومابعدها .

(٢) ذكر ابن خلدون فى العبر ٦/٢٧٥ : أن نسب الحفصيين ينتهى الى عمر بن الخطاب ونقل ذلك عن ابن نخيل وغيره من الموحدين وإلى ذلك يشير هنا .

(٣) أنبوب الرمح ، والقصبة : كعبهما . والجمع أنابيب .

(٤) بحر مزبد : مائج يقذف بالزبد ؛ والكلام على التوسع . وليل أليل : شديد طويل .

(٥) الذابل : القنا الدقيق اللاصق الليط . والذبال ، جمع ذبالة ؛ وهى الفتيلة .

هَـــذَا أميرُ المؤمنين إمَامُنَا ... فِي الدِّين والدُّنيا إليْه المَوْئلُ
هَذَا أبُوا العبَّاسِ خيْرُ خَليفَةٍ ... شَهِدَتْ لَه الشِّيَمُ التي لا تُجهَلُ
مُسْتَنْصِرٌ بالله فى قَهْرِ العِدَا ... وعلى إعَانةِ رَبِّه مُتوكِّلُ
سَبَقَ الملوكَ إلَى العُلاَ مُتَمَهِّلا ... لله منْك السَّابِقُ المُتَمَهِّـــلُ
٥ فَلأَنتَ أعلَى المالِكين و إنْ عَدَوا ... يَتَسابقُون إلى العَلاَءِ وَأَكْمَلُ
قَايِسْ قَدِيمًا منكُمُ بِقَدِيمِهِمْ ... فَالأَمْرُ فِيـه وَاضِحٌ لاَ يُجهَلُ
دَانُوا لِقَومِكُمُ بأقوَمِ طَاعَةٍ ... هِىَ عُرْوَةُ الدِّينِ التي لا تُفْصَلُ
سَائِل تِلِمْسَانًا بِهـا وَزَنَاتَةً ... وَمَرِينَ قَبْلَهُمُ كَما قَدْ يُنقَلُ
وَاسْأَلْ بِأَنْدَلُسٍ مَدَائِنَ مُلْـكِهَا ... تُخْبِرْكَ حِينَ استَيْأَسُوا واستَوْهَلُوا
١٠ واسْأَل بِذَا مَرَّا كُشًا وقُصُورَهَا ... وَلَقَدْ تُجِيبُ رُسُومُهَا مَنْ يَسْأَلُ

***

يأيُّهَا المَلِكُ الذى فى نَعْتِهِ ... مِلْءُ القُلُوبِ وفَوقَ ما يُتَمَثَّلُ
لله منْـكَ مُؤَيَّدٌ ، عزَماتُه ... تَمضِى كَما يَمْضِى القَضَاءُ المُرْسَلُ
جِئْتَ الزَّمانَ بحيثُ أعضلَ خَطْبُهُ ... فَافْتَرَّ عَنْهُ وَهُوَ أَكْلَحُ أعْضَلُ[(١)]
١٥ والشَّمْلُ مِن أبْنَائِه مُتَصَدِّعٌ ... وحِمَى خِـلاَفَتِه مُضَاعٌ مُهْمَلُ
والخَلْقُ قَد صَرَفُوا إليكَ قُلوبَهُم ... وَرَجَوْا صَلاَحَ الحَالِ مِنْكَ وَأَمَّلُوا
فَجِلْتَه لمَّا انتُـــدِبتَ لِأَمْرِه ... بالبَأسِ وَالعَزْمِ الذى لا يُنْهِل [٥٤ب]
ذَلَّتَ مِنـــه جَامِحًا لا يَنْثَنِي ... سَهْلْتَ وعْرًا كادَ لاَ يَتَسَهَّلُ

---

[٥] ط : « المالكين وان عدوا » [١٤] ط: « بحيث أعظم خطبه * .... أعضل »
[١٨] ط : « وعرا كان لا » .

---

(١) الكلوح : تكشر فى عبوس ، ودهر كالح على المثل . وأعضـل : معوج شديد ملتو .

وأَلَنتَ من شَرَسِ العُتَاةِ وذُدتَهم ... عَن ذَلِكَ الحَرَمِ الذى قَدْ حَلُّوا
كَانت لِصَوْلَةَ صَـولَةٌ ولقَوْمِهِ ... يَعْدُو ذُوَيبُ بها وتَسْطُو المَنْقِلُ
ومُهلِهِلٌ تُسْدِى وتُلحِمُ فِى التِي ... مَا أَحكَمُوهَا بَعـدُ فهْىَ مُهلَهَلُ

المرادُ بصَولة هُنا صَوْلَةَ بن خَالد بن حَمزة أميرُ أولاد أبى الليل . وذُوَيبٌ : هو ابن عمه أحمد بن حمزة . والمَنقِل فَرِيق من العَرب مِنْ أحلافِهم . ومُهلْهِلٌ : هُمْ بَنو مُهَلْهِل بن قَاسِم أنظارُهُمْ وأَقْتَالُهُم[1] . ثُمَّ رجَعْتُ إلى وصف العرب وأحيائهم :

عَجِبَ الأَنامُ لشأْنِهم بَادُون قـد ... قَذَفَت بجيِّهمُ المَطِىُّ الذُلَّلُ
رفَعُوا القِبابَ عَلَى العِماد وعِنْدَهَا ... الجُرْدُ السَّلاهِبُ[2] والرِّمَاحُ العُسَّلُ[3]
فى كُلِّ ظامِى التُّرب متَّقِدِ الحَصَى ... تَهـوِى لِلُجَّتِهِ الظِّمَاءُ فتَنهَل
جِنٌّ شَرَابُهُم السَّرَابُ ورِزْقُهمْ ... رُمحٌ يَرُوحُ بِهِ الكَمِىُّ ومُنْصُلُ
حَىٌّ حُـلُولٌ بالعَراءِ ودُونَهم ... قُذُفُ النَّوىَ[4] إنْ يَظعَنوا أو يُقبِلوا
كَانُوا يَرُوعونَ المُلوكَ بِما بَدَوْا ... وغَدَتْ تُرَفِّهُ بالنَّعِيمِ وتُخضَلُ
فَبدَوْتَ لاَ تَلوِى عَلَى دَعةٍ وَلاَ ... تَأْوِى إلى ظُلَلِ القُصُورِ تَهَدُّلُ
طَوْراً يُصاحِكَ الهَجِيرُ وتَارةً ... فِيـه بِخَفَّاقِ البُنُودِ تُظَلَّلُ
وإذا تُعاطِى ضُمَّراً يَومَ الوَغَى ... كَأْسَ النَّجِيعِ فبالصَّهِيلِ تُعَلِّلُ

[٦] فى الأصلين : « ثم رجع إلى وصف » . والمثبت عن الظاهرى .

(١) جمع نِظر ؛ كمثل وزناً ومعنى . والأقتال ؛ جمع قِتـل (بكسر القاف) ؛ وهو القِرن فى القتال وغيره .
(٢) السلاهب ، جمع سلهب : وهو الطويل العظيم من الخيل .
(٣) رمح عاسل : لدن مضطرب ؛ والجمع عُسَّل .
(٤) نية قذف (بضمتين) : بعيدة . والنوى ، والنية : الوجه ينويه المسافر من قرب أو بعد . وهى مؤنثة . وهذا التفسير أنسب من الذى مرّ فى ص ٧٥ .

مُخْشَوشِناً فى العزِّ مُمْتَثِلاً لَهُ فى مِثْلِ هَذَا يحسُنُ المستَعمَلُ
تَفْرِى حَشَا البَيْداءِ لا يَسرِى بِها رَكْبٌ ولا يَهْوِى إِليْها جَحْفَلُ
وتَجُرُّ أذيالَ الكتائبِ فوقَها تختالُ فى السُّمْرِ الطِّوالِ وتَرْفُلُ
تَرمِيهمُ منها بكلِّ مُدَجَّجٍ شاكِى السِّلاحِ إذا استَعارَ الأَعْزَلُ
٥ وَبِكلِّ أسْمَرَ غُصْنُه متأوِّدٌ وبكلِّ أبْيَضَ شَطُّه مُتَهدِّلُ
حتَّى تَفرَّقَ ذلكَ الجَمْعُ الأُلَى عَصَفَتْ بِهِم رِيحُ الجِلادِ فزُلْزِلُوا
ثمَّ استَمَلْتَهمُ بأنْعُمِكَ التى خَضَعُوا لِعزِّكَ بعْدَها وتَذَلَّلوا
ونزَعتَ من أهلِ الجريدِ غَوايةً كانتْ بِهِم أبداً تَجِدُّ وتَهزِلُ
/ خَرَّبتَ من بُنْيانِها ما شَيَّدوا وقَطَعتَ من أسبابِها ما أَصَّلُوا [١٥٥]
١٠ ونَظَمتَ مِن أمْصارِه وثُغُورِه لِلمُلْكِ عِقداً بالفُتُوحِ يُفصَّلُ
فَسَدَدتَ مُطَّلَعَ النِّفاقِ وأنتَ لا تَنْبُوا ظُباكَ ولا العَزيمةُ تَنكُلُ(١)
بِشَكيمةٍ مَرهُوبَةٍ وسِياسَةٍ تَجْرِى كَما يَجْرِى فُراتٌ سَلْسَلُ
عَذُبَ الزَّمانُ لَها ولَذَّ مَذاقُه مِن بَعْدِ ما قَد مرَّ مِنْه الحَنْظَلُ
فَضَوَى الأَنامُ لِعزِّ أرْوعَ مالِكٍ سَهْلِ الخَليقَةِ ماجِدٌ مُتَفَضِّلُ
١٥ وتَطابقَتْ فيكَ القُلوبُ على الرِّضَى سِيَّانِ منها الطِّفلُ والمُتَكَهِّلُ
يا مالِكاً وسِعَ الزمانَ وأهلَهُ دَعَةً وأمْناً فوقَ ما قد أَمَّلُوا
فالأرضُ لا يُخْشَى بِها غُولٌ ولا يَعدُو بِساحَتِها الهِزَبْرُ المُشْبِلُ

[٦] ط : « ريح الجلاد » [٧] فى أصل أيا صوفيا : « ثم استملتهم بنعمتك » ، والمثبت عن طب بخطه [١٦] ط : « عدلا ، وأمناً » .

(١) تنكل : تجبن ، وتنكص .

والسَّفْرُ يَجْتَابُون كلَّ تَنُوفَةٍ(١) ... سِرْبَ القَطَا مَا رَاعَهُنَّ الأَجْدَلُ(٢)
سُبْحَانَ مَن بِعُلاَكَ قد أَحْيَا المُنَى ... وأعادَ حَلْيَ الجِيدِ وَهْوَ مُعَطَّلُ
سُبْحَانَ مَن بِهُدَاكَ أَوْضَحَ لِلْوَرَى ... قَصْدَ السَّبِيلِ فأَبْصَرَ المُتأمِّلُ(٣)
فكأنما الدُّنيا عَرُوسٌ تُجتلَى ... فَتَمِيسُ فى حُلَلِ الجمالِ وترفُلُ
وَكَأَنَّ مُطْبَقَةَ البِلادِ بِعَدْلِهِ ... عَادَتْ فَسِيحاً لَيسَ فيه مَجْهَلُ ٥
وكأن أَنْوارَ الكَواكِبِ ضُوعِفَتْ ... مِن نُورِ غُرَّتِهِ الَّتِى هِيَ أَجْمَلُ
وكأَنَّما رُفِعَ الحجابُ لِنَاظِرٍ ... فرأى الحقيقةَ فِى الذى يتخيَّلُ

وَمِنها فى العُذْرِ عَن مَدْحِه :

مَولاىَ غاضَتْ فِكرتى وتَبلَّدت ... مِنِّى الطِّباعُ فكلُّ شَىءٍ مُشْكِلُ
تَسْمُو إِلى دَرَكِ الحَقَائِقِ هِمَّتى ... فأَصُدُّ عن إِدْراكِهِنَّ وأُعْزَلُ ١٠
وَأَجِدُّ لَيلِى فى امْتِراءِ قَرِيحَتى(٤) ... وتَعُودُ غَوْراً بَيْنَما تَسْتَرسِلُ
فَأَبِيتُ يَعْتَلِجُ الكلامُ بِخاطِرِى ... والنَّظْمُ يَشْرُدُ وَالقَوافِى تُجْفِلُ
من بَعْدِ حولٍ أَنتقِيهِ وَلَمْ يَكُنْ ... فى الشِّعرِ حَوْلِىٌّ يُعَابُ وَيُهْمَلُ(٥)
فَأَصُونُه عَن أَهلِهِ مُتَوارِياً ... أَن لاَ يَضُمَّهُمُ وَشِعْرِىَ مَحْفِلُ

[١] ط : « والسَّرب يجتاحون » [٢] طب : « قد أحيا العلا » [٨] فى الظاهرى : « ومنها فى العذر عن امتداحه من قبل » [١١] ط : « فتعود غورا بعد ما » [١٢] ط : « فأبيت يعتكم » .

(١) التنوفة : القفر من الأرض لا ماء فيه .
(٢) الأجدل : الصقر .
(٣) سقط هذا البيت من ط .
(٤) امتراء القريحة : استدرارها .
(٥) يشير إلى ما عرف عن زهير بن أبى سلمى الشاعر ، من أنه عمل سبع قصائد فى سبع سنين ، فكانت تسمى حوليات زهير ، لأنه كان يحوك القصيدة فى سنة . وانظر الخصائص لابن جنى ١/ ٣٣٠ ، ثمار القلوب للثعالبى ص ١٧١

وَهِيَ البضاعةُ فى القَبول نَفَاقُهَا سِيَّان فيهَا الفَحْلُ والمتطفِّلُ
وبَنَاتُ فِكرى إن أتتكَ كليلةً مَرْهَاء(١) تَخطِرُ فى القُصُورِ وتَخطُلُ
/ فَلَهَا الفَخَار إذَا مَنَحْتَ قَبُولَها وأنا عَلَى ذَاكَ البَليغُ المِقْوَلُ [٥٥ب]

وَمِنها فى ذِكْر الكِتَاب المؤلَّفِ لخزَانته:

٥ وَإليكَ من سِيَرَ الزَّمانِ وأهلِهِ عِبراً يَدِينُ بِفَضْلِها مَنْ يَعْدِلُ
صُحُفاً تُتَرجِمُ عن أحاديث الأُلَى غَبَرُوا فَتُجْمِل عَنْهمُ وتُفَصِّلُ
تُبْدِى التَّبَابِعُ والعَمَالِقُ سِرّها وثَمُودُ قَبْلَهُمُ وعَادُ الأُوَّلُ(٢)
والقَائمُونَ بِمِلَّةِ الإسْلَام مِنْ مُضَرٍ وَبَرْبَرِهِمْ إذَا مَاحُصِّلُوا(٣)
لَخَّصْتُ كُتْبَ الأوَّلِينَ لِجَمْعِهَا وأتيتُ أولَها بِما قَدْ أغفَلُوا
١٠ وألَنتُ حُوشِيَّ الكَلَامِ كَأنَّمَا شُرُدُ اللُّغَاتِ بِهَا لِنُطْقِى ذُلَّلُ
أهْدَيْتُ مِنْه إلَى عُلَاكَ جَوَاهِرًا مَكْنُونَةً وكَوَاكِباً لا تَأفُلُ(٤)
وجَعَلتُه لِصِوَانِ مُلْكِكَ مَفْخَرا
يَبْأى(٥) النَّدِىُّ بِهِ وَيَزْهُو المَحْفِلُ
واللهِ ما أسْرَفتُ فيما قُلتُه شيئاً ولا الإسْرافُ مِمَّا يَجْمُلُ
١٥ وَلأَنتَ أرْسخُ فى المَعَارِفِ رُتبةً مِن أن يُمَوَّهَ عِنــدَه متطَفِّلُ

---

[٦] بهامش أصل أيا صوفيا: «درجوا فتجمل عنهم»، على أنها رواية أخرى.

---

(١) امرأة مرهاء: غير مكتحلة؛ وعين مرهاء: خالية من الكحل. ويريد أن قصيدته هذه، تنقصها الزينة والاحتفال.
(٢،٣) سقط البيتان من الظاهرى.
(٤) سقط هذا البيت من ط.
(٥) يبأى: يفخر.

فمِلاكُ كُلِّ فضيلةٍ وحقيقةٍ ... بيدَيك تَعرفُ وَضعَها إن بَدّلوا
والحقُّ عندَكَ فى الأمورِ مُقدَّمٌ ... أبداً فما ذَا يَدّعِيهِ المُبطِلُ
واللهُ أعطاكَ التى لا فوقَها ... فاحكم بما ترضَى فأنتَ الأعدَلُ
أبقاكَ ربُّكَ للعِبادِ تَرُبُّهم ... فاللهُ يَخلُقهم ورَعْيُكَ يَكفُلُ

وكنتُ لما انصرفتُ عنه مِن مُعَسكَرِه على سُوسَةَ(١) إلى تونس ، بَلَغَنى — وأنا مُقيم بها — أنّه أصابَهُ فى طَريقه مَرَض ، وعَقِبَه إبْلال ، فخاطبتُه بهذه القَصِيدة :

ضَحِكَتْ وجُوهُ الدّهرِ بعدَ عُبُوسِ ... وتَجلَّلتْنا رحمةٌ مِن بُوسِ
وتَوضَّحت غُرَرُ البَشائرِ بَعْدَ ما انبهَمَتْ(٢) فأطلَعَها حُداةُ العِيسِ(٣)
صَدَعُوا بها لَيلَ الهُمومِ كأنّما ... صَدَعُوا الظَّلامَ بِجَذوَةِ المقبُوسِ
فكأنّهم بَثُّوا حياةً فى الوَرَى ... نُشِرتْ لها الآمالُ مِن مَرمُوسِ(٤)
قَرَّت عيونُ الخلقِ مِنها بالتى ... أضفَتْ مِنَ النَّعماءِ خَيرَ لَبُوسِ
فكأنّ قَومى نادَمَتْهُم قَرقَفٌ(٥) ... شَرِبوا النَّعيمَ لها بغيرِ كُؤوسِ
يتمايَلون مِنَ المسَرَّةِ والرِّضَى ... ويُقابِلون أهِلَّةً بشُموسِ
[١٥٦] / مِن راكبٍ وافَى يُحَيِّى راكِبًا ... وجَليسِ أُنسٍ قادَهُ لجليسِ
ومُشَفَّعٍ للهِ يُونسُ عِندَه ... أثرُ الهُدَى فى المَعْهَدِ المأنُوسِ

[١] ط : « يُعرف وضعها » [٣] ش : « فاحكم بما يرضى » [٤] ش : « فالله خالقهم » [٨] ش : « وتخللتنا رحمة »

(١) تقدم تحديد « سوسة » فى ص ٢٧ .
(٢) سبق القول فيما فى استعمال كلمة « انبهم » ، فى ص ١٤٢ .
(٣) جمع أعيس ، أو عيساء ؛ وهى التى فى لونها أدمة .
(٤) المرموس : المقبور .
(٥) القرقف : الخمر .

يَمتَدُّ مِنْها رحمــــةٌ قُدسيَّةٌ   فَيَبُوءُ للرَّحمَنِ بِالتَّقديسِ
طَبٌّ بإخلاصِ الدُّعاءِ وإنَّهُ   يَشْفِي منَ الداءِ العَيـاءِ ويُومِي

(١)والمفتيُّ به إمامُ الجامعِ الأعظمِ، جامع الزَّيتُونَة بتونس(١)

يا ابنَ الخلائفِ والذين بنُورِهم   نُهِجَتْ سَبيلُ الحقِّ بعدَ دُرُوسِ
والنَّاصرُ الدِّينِ القَويمِ بعَزْمَةٍ   طَرْدُ استِقامَتِها بغَيرِ عُكوسِ
هَجَرَ المُنَى فِيهـا وَلَذَّاتِ المُنَى   فِي لَذَّةِ التَّهجيرِ والتَّغْلِيسِ(٢)
حَاطَ الرَّعيةَ بالسِّياسَةِ فانضَوَتْ   مِنْهُ لأَكرَمِ مَالِكٍ وسَؤُوسِ
أَسَدٌ يُحامِي عَن حِمَى أَشْبَالِهِ   حتَّى ضَوَوا مِنْـه لأمنَعِ خِيسِ(٣)
قَسَماً بِمَوْشِيِّ البطاحِ وقَد غدَتْ   تَختَالُ زَهْواً فِي ثِيابِ عَروسِ
والماثِلاتِ منَ الحَنَـايَا(٤) جُثَّماً   يُخْبِرْنَ عَنْ طَسْمٍ وَفَلِّ جَدِيسِ(٥)
خُوصٌ(٦) مُضَمَّرةُ البُطُونِ كأَنَّها   أنضاءُ(٧) رَكْبٍ فِي الفَلاةِ حَبِيسِ(٨)

[٥] ط: «طردت إمامتها بغير».

(١ — ١) ساقط من طب.

(٢) التهجير إلى الصلاة: التبكير والمبادرة إليها؛ وفي الحديث: لو يعلم النـاس ما في التهجير لاستبقوا إليه. والتغليس: السير إلى صلاة الصبح وقت الغلس، وهو ظلمة آخر الليل. فلا يزال الحديث عن التبكير إلى الصلاة. ووصف السلطان أبي العباس بذلك إطراء له.

(٣) ضووا: لجأوا، والخيس؛ موضع الأسد.

(٤) قد سبقت قولة عن «الحنايا» في ص ١٦٣.

(٥) طسم وجديس: حيان من العرب البائدة؛ كان مسكنهما البحرين، واليمامة. وقد أوقع حسَّان بن تبَّع بقبيلة جديس، وإلى ذلك ينظر ابن خلدون. وانظر الطبري ٣٨/٢ — ٣٩، مروج الذهب طبع باريس ١٠٣/٣ — ١٠٦.

(٦) خوص: لونها أشهب، مثلما يصبح لون الرأس عند ما يستوي فيه سواد الشعر وبياضه. وانظر اللسان ٢٩٨/٨.

(٧) جمع نضو؛ وهو المهزول.

(٨) حبيس: محبوس.

وخزَ البِلَى مِنهاَ الغَوارِبَ(١) والذُّرَى(٢)
فَلقِنَ خَزْراً بالعيون الشُّوسِ(٣)

لَبَقَاكَ حِرزٌ للأَنام وَعِصمةٌ ... وحَياةُ أرواحٍ لنَا ونُفُوسِ
ولأنتَ كافِلُ دِينِنَا بحِمايةٍ ... لَولاَكَ ضُيِّعَ عَهـدُها وتُنُوسِي
اللهُ أعطاكَ التى لاَ فَوْقَهـا ... وحَبَاكَ حَظّاً لَيسَ بالمَوْكُوسِ(٤) ٥
تَعنُو القُلوبُ إليْكَ قبلَ وجوهنا ... سِيَّان مِن رَأْسٍ ومن مَرْءوسِ
فإذَا أقمتَ فإنَّ رُعْبكَ راحِلٌ ... يُخْمِي عَلَى الأعْدَاءِ كُلَّ وَطِيسِ
و إذا رَحلتَ فلَلسَّعَادة آيَةٌ ... تَقْتَادُهَا فى مَوْكِبٍ وخَمِيسِ
وَإذا الأدِلَّةُ فى الـكَمَال تطَابقَتْ ... جاءَتْ بمَسْمُوعٍ لَهاَ ومَقِيسِ
فَانْعَم بمُلْـكِكَ دولةً عَادِيَّةً(٥) ... تُشْقِى الأعَادِىَ بالعَذَاب البِيسِ ١٠

* * *

و إليكَها مِنِّى على خَجلٍ بِهـا ... عَذراءَ قَدْ حَلِيَتْ بكُلِّ نَفِيسِ
عُذْراً فقَد طُمِسَ الشَّبَابُ ونُورُه ... وأضَاءَ صُبْحُ الشَّيْبِ عِندَ طُمُوسِ
لَوْلَا عِنَايتُكَ التِى أَولِيْتَنِى ... ما كنتُ أُعْنَى بعدَهَا بِطُرُوسِ
[٥٦ب] / واللهِ ما أبقَتْ مُمَارَسَةُ النَّوَى ... مِنِّى سِوَى مَرَسٍ أحَمَّ دَرِيسِ(٦) ١٥

---

[٨] بهامش أصـل أيا صوفية بخطه : « فى موكب تقتاده وخميس » ، على أنه رواية أخرى [١٥] ط : « مرس أمرّ دريس » .

---

(١) الغوارب : جمع غارب ، وهو مقدم سنام البعير .
(٢) جمع ذروة ؛ وهى أعلى سنام البعير ؛ يعنى أن البلى قد عمها .
(٣) الشوس : جمع شوساء ، وهى الناظرة بمؤخر العين غيظا .
(٤) الموكوس : المنقوص .
(٥) نسبة إلى عاد الأمة المعروفة . ويريد أنها طويلة الأمد .
(٦) المرس (بفتح الميم والراء) : الحبل . والأحَمّ : الأسود . والدريس : الخلق .

أنْحَى الزَّمانُ علىَّ فى الأدبِ الذى دَارَسْتُه بمَجَامِعٍ ودُروسِ
فَسَطَا عَلَى وَفْرِى وَرَوَّع مَأْمَنِى واجْتَثَّ من دَوْحِ النَّشاطِ غُرُوسى
وَرِضَاكَ رَحْمَتِىَ التى أعتدُّهَا تُحْيِى مُنَى نَفْسِى وتُذْهِبُ بُوسى

ثم كثُرت سِعَايَة البِطانة بكلِّ نَوع من أنوَاع السِّعَايَات ، وابنُ عَرَفَةَ
٥ يَزِيدُ فى إغْرَائهم مَتى اجتمعُوا إليْـه ، إلى أنْ أغْرَوا السُّلطانَ بسَفَرِى مَعَه ،
ولقَّنُوا النَّائِبَ بتُونِسَ القائدَ فَارِح من موالى السُّلْطان أن يَتَفَادَى من مُقَامَتى
معـه ، خَشْيَةً على أمرِه منى بزَعْمِه ، وتَوَاطئوا عَلَى أن يَشْهَد ابنُ عَرَفَةَ بِذَلِكَ
للسلطان ، فَشَهِدَ بِه فى غَيْبَة منِّى ، ونَكِر السُّلْطان عَلَيهم ذَلِكَ ، ثم بَعَث إلىَّ
وأمَرَنى بالسَّفر معَـه ، فسارعْتُ إلى الامتثال ، وقد شَقَّ ذلك عَلَىَّ ، إلّا أنى لم
١٠ أجد مَحيصاً [عنه][(١)] ، فَخَرجتُ معـه ، وانتهيْتُ إلى تِبِسَّة[(٢)] ، وَسَطَ تُلُول
إفريقية ، وكان منْحَدِراً فى عساكره وتَوَاليفه من العَرَب إلى تَوْزَرَ ؛ لأنَّ
ابنَ يَمْلُولَ كانَ أجلبَ عليها سنةَ ثلاث وثمانين ، واستَنْقذَها من يد ابنه ،
فَسَار السُّلطانُ إليْه ، وشَرَّدَه عنها ، وأعادَ إليها ابنَه وَأولياءه ؛ ولمـا نهَض من
تِبِسَّة ، رَجَّعَنى إلى تُونِس ، فأقمتُ بضَيْعَتى الرَّيَاحين من نَواحِيها لِضَمِّ زُرُوعى
١٥ بهاَ ، إلى أن قَفَل السُّلطان ظافراً منصُوراً ، فصحبته إلى تُونِس .

ولمـا كان شهرُ شعبان من سَنَة أربع وثمانين ، أجمَع السُّلطان الحرَكَةَ إلى

---

[٤] فى الظاهرى : « ثم كثرت سعاية البطانة وابن عرفة ، ومنافستهم واغراؤهم ؛ فاخترت التحول عنهم ، فتطارحت على السلطان ، وتوسلت إليه فى تخلية سبيلى لقضاء فرضى ، فأذن لى فى ذلك ؛ وخرجت إلى المرسى ، والناس متسائلون على أثرى ، من أعيان الدولة والبلد ، وطلبة العلم ، فودعتهم ، وركبت البحر منتصف شعبان من السنة ؛ وقوضت عنهم بحيث كانت لى الخيرة من الله سبحانه ، وتفرغت لتجديد ما كان عندى من آثار العلم . والله ولى الأمور سبحانه . الرحلة الخ » [١٤] ط ش : « لضم زراعتى بها » .

---

(١) الزيادة عن طب .
(٢) تقدم تحديد « تبسة » فى ص ٥٦ .

الزّاب ، بما كان صاحبُه ابنُ مَزْنَى قد آوَى ابنَ يَمْلُولَ إليْه ، ومَهَّد له فى جِوَاره ،
فخشيتُ أن يَعُودَ فى شأْنى ما كان فى السَّفْرة قَبْلها ، وكانت بالمرسَى سَفينة
لتجّار الأَسكندرية قد شحَنَها التجّار بأمتعتهم وعُروضِهم ، وهى مُقلِعة إلى
الأَسكندرية ، فتطارحتُ على السُّلطان ، وتوسَّلتُ إليه فى تخلية سَبيلى لقضاء
فَرضِى ، فأذِنَ لى فى ذلك ، وَخَرجتُ إلى المَرْسَى ، والنّاسُ مُتَسَايلون عَلَى ٥
أثرى من أعيَان الدّولة والبَلَد وطلَبَة العلم . فودَّعتُهم ، ورَكِبتُ البَحْر منتصَفَ
شَعْبان من السَّنة ، وقَوّضْتُ عَنْهم بحيث كانَت الخيرَة من الله سُبحانه ، وتفرّغتُ
لتجديد ما كانَ عندى من آثار العِلم ، واللهُ ولىُّ الأُمور سُبحانه .

---

[٢] ط : « ما كان فى السنة قبلها »

الرحلة إلى المشرق ، وولاية القضاء بمصر

(١) ولما رَحَلت مِنْ تُونس مُنتصفَ شعبان من سَنَة أربَع وثمانين ، أقنا فى البَحر نحواً من أربعين لَيلَة ، ثم وافَينا مَرسَى الأسكندرية يومَ الفطر ، ولعشرِ لَيـال من جُلُوس الملك الظّاهر(١) على التَّخْت ، واقْتِعاد كُرسِىِّ المُلك دُونَ

٥ أهله بَنِى قَلاَوُن(٢) ؛ وكنّا عَلَى ترقُّب ذلك ، لما كانَ يؤثَر بقَاصِيةِ البِلادِ من سُموِّه لِذَلك ، وتمهيده لَه ؛ وأقتُ بالأسكندرية شَهْراً لتهيئةِ أسباب الحجِّ

ولم يُقدَّر عامَئِذ ، فانتَقَلتُ إلى القاهرة / أولَ ذى القعـدة ، فرَأيتُ حضْرَةَ [١٥٧] الدُّنيا ، وبُسْتَانَ العالَم ، ومحشَرَ الأمَم ، ومَدْرَجَ الذرِّ(٣) من البَشَر ، وإيوانَ الإسْـلاَم ، وكُرْسىَّ المُلْك ؛ تَلوحُ القُصُـور والأوَاوِينُ فى جَوِّه ، وتَزْهَر

١٠ الخَوَانِكُ(٤) والمَدَارِسُ بآفاقه ، وتُضئُ البُـدورُ والـكوَاكِبُ من عُلَمائه ؛ قَد مَثَلَ بشاطِئ بَحْرِ النيـل نَهْرِ الجنّةِ(٥) ، ومدْفَعِ مِيَاهِ السّماء ، يَسقيهم النَّهَلَ

[٦] ش : « وقت بالأسكندرية شهراً »

(١) من هنا إلى قوله : « ... والحاضرون بذلك » فى ص ٢٤٨ سطر ٨ ، قد نقله المقرى فى نفح الطيب ١٣٦/٣ بولاق .

(٢) أبو سعيد برقوق بن أنس ، ويعرف ببرقوق العثمانى نسبة إلى فخر الدين عثمان بن مسافر . تولى الملك فى المرة الأولى سنة ٧٨٤ ؛ وثار عليه يلبغا الناصرى ، ففرَّ ثم سجن بالـكرك ، ثم بالأسكندرية . . . . ثم عاد إلى ملـكه فى سنة ٧٩٢ ، واستبد بالملك حتى مات سنة ٨٠١ . له ترجمة واسـعة فى المنهل الصافى ورقة ٤١٦ من نسخة دار الـكتب ، خطط المقريزى بولاق ٢٤١/٢ وما بعـدها ، العبر لابن خلدون ٤٦٧/٥ — ٤٧٢ . وانظر السلوك ١١١٠ أ (نسخة الفاتح)

(٣) أنظر أخبار بنى قلاوون فى الخطط للمقريزى ٢٣٦/٢ — ٢٤٢ بولاق .

(٤) المدرج : الطريق . والذر : النمل الأحمر الصغير .

(٥) جمع خانقاه ، وتقدمت كلمة عنها فى ص ١٢١

(٦) يشير ابن خلدون هنا إلى ما يقص حول نهر النيل من أنه أحد أنهار الجنة ، كدجلة والفرات ، وسيحان . وانظر الباب الأول من كتاب : « معرفة نيل مصر » لعماد الأقفهسى (مخطوطة بمكتبة بنداولى وهى رقم ١٠٢٧) ، وخطط المقريزى ٨٠/١ — ٨١ طبع مصر

والغَلَلَ سَيْحُه[1] ، ويَجْبِي إليهم الثَّمَراتِ والخَيْرَاتِ ثَجُّه[2] ؛ وَمَرَرْتُ في سِككِ المَدينةِ تَغصُّ بزحام المارَّة ، وأسْواقُها تَزْخَر بالنِّعم . وَمَا زِلْنا نُحَدِّثُ عَن هَـذَا البَلَدِ ، وبُعْدِ مَدَاه في العُمْران ، واتِّسَاع الأَحْوَال ؛ ولقَد اخْتَلفَت عِباراتُ من لَقِينَاه من شُيوخنا وأصحابنا ، حَاجِّهم وتاجِرِهم ، بالحديث عنـه .

سَألتُ صاحِبَنا قاضِيَ الجماعة بِفاس ، وكبيرَ العلماءِ بالمغرب ؛ أبا عبـد الله المَقَّرِي[3] ، [مَقْدَمُه من الحجِّ سَنَةَ أربعين[4]] ، فقُلتُ له : كَيفَ هذِه القَاهِرة ؟ فقال : من لم يَرَهَا لم يَعْرِفْ عِزَّ الإسْلاَم .

وسألتُ شَيخَنَا أبا العبَّاس ابن إدريس[5] كَبِيرَ العُلَماء بِبِجَاية مِثْلَ ذلك فقال : كأنَّما انطلَقَ أهلُه من الحِسَاب ؛ يُشِير إلى كَثْرَةِ أُمَمِه وأَمْنِهم العَوَاقِب[6] . ١٠

[١] ط : « يسقيهم الطل والنهل » ، في الأصلين : « والخيرات تَبَجه » ، والمثبت عن ط
[٢] ش : « ومازلنا نتحدث » [٣] في الظاهري :
« ولقد اختلفت عبارات شيوخنا وأصحابنا في الكتابة عنـه ؛ سألت الخ » [٦] في الظاهري : « وقلت له كيف رأيت القاهرة ؟ فقـال : من لم ير القاهرة لم » [٩] في الظاهري : « فقال : بلد ترى أهله كأنما انطلقوا من الحساب إلى الجنّة ، يشير إلى ما هم عليه من الكثرة ، ووفور النعمة ، والأمن من طوارق الزمن » .

سنة ١٣٢٤ . على أن ابن خلدون لم يلتفت إلى هذا حين تحدث عن هذه الأنهار في مقدمته ؛ وقد نقد ياقوت هذه الأقاصيص بأنها « حديث خرافة » .

(١) السيح : الماء الجاري على وجه الأرض .

(٢) الثج : الصبّ الكثير . وفي القرآن : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً » وثجيج الوادي : سيله .

(٣) مرت له ترجمة في ص ٥٩ .

(٤) الزيادة عن الظاهري .

(٥) هو أبو العباس أحمد بن إدريس البجائي المالكي المتوفى بعد سـنة ٧٦٠ ، له ترجمة في الديباج ص ٨١ ، ونيل الابتهاج ص ٧١ .

(٦) يقول المقريزي : « . . . . قال شيخنا الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون =

وحَضَر صاحبُنا قاضِي العسكر بِفَاس ، الفقيهُ الكاتبُ أبو القاسِم البُرْجِي[1] بمجْلس السلطان أبي عِنَان ، مُنْصَرفَه من السِّفارَة عنه إلى مُلوك مِصْر ، وتأدِيَةِ رِسَالَتِه النَّبَوِيةِ[2] إلى الضريح الكَرِيم ، سَنَةَ سِتٍّ وخمسين ، وَسَأَلَه عن القاهرة فَقَال :

٥ أقول في العِبَارة عنها على سَبِيل الاختصار : إن الذي يتخَيَّلُه الإنسَان ، فإنما يَراهُ دُون الصُّورَة التي تَخَيَّلَها ، لاتِّسَاع الخَيَال عن كل محْسوس ، إلَّا القاهِرة ، فإنَّهـا أوسَعُ من كل ما يُتخَيَّل فيها . فأعْجِبَ السلطان والحاضرون بذلك .

ولما دَخَلتُها ، أقمتُ أياما ، وانثال عليَّ طلبةُ العلم بهَا ، يلتَمِسون ١٠ الإفادة مع قِلَّةِ البضاعة ، ولم يُوسِعُوني عُذراً ؛ فجلستُ للتَّدريس بالجامِع الأزهر منها[3] .

[٢] ط : « منصرفه من إسفاره عنه » [٣] في الظاهري : « إلى الضريح الكريم » فسأله يومئذ عن القاهرة فقال : والله ما أدري كيف العبارة عن ذلك ، إلا أني أقول على سبيل الاختصار ؛ إن كل ما يتخيله الإنسان ثم يراه ، فإنه يراه دون الصورة التي تخيلها فيها ، لاتساع الخيال عن كل موجود ، إلا القاهرة ، فإنها ولو أوسعت في تخيلها ما شئت ، فما تراها إلا أعظم مما تتخيله . فأعجب السلطان والحاضرون لذلك ، ولعبارته عنها » .

[٨] الظاهري ، ط : « والحاضرون لذلك » [٩] في الظاهري : « يلتمسون القراءة والافادة ، فجلست للتدريس » .

رحمه الله تعالى : أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب » . وانظر الخطط ١/٧٩ طبع مصر سنة ١٣٢٤ .

(١) أبو القاسم محمد بن يحيى . مرت ترجمته في ص ٦٤ .

(٢) هي رسالة اعتادوا أن يكتبوها في مناسبات مختلفة ، ويبعثوا بها الى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ يحملها رسول خاص الى الروضة الشريفة حيث تقرأ قرب القبر النبوي الكريم . وفي نفح الطيب أمثلة لهذا النوع من الرسائل .

(٣) جاء في « السلوك » ١١١ ب « نسخة الفاتح » : « وفي هذا الشهر (رمضان) ، قدم شيخنا أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون من بلاد المغرب ، واتصل بالأمير الطنبغا الجوباني وتصدى للاشتغال بالجامع الأزهر ، فأقبل الناس عليه ، وأعجبوا به » .

ثم كان الاتِّصال بالسلطان ، فأبَرَّ اللِّقاء ، وأنَّسَ الغُرْبَة ، ووفَّر الجِراية مِن صَدَقاته ، شأنَهُ مع أهل العِلم ، وانتظرت لَحَاق أهْلى وَوَلَدى من تُونِس ، وقد صدّهم السلطان هنالك عن السَّفَر ، اغتباطاً بعَوْدى إليْه ، فطلبتُ من السلطان صاحبِ مصر الشَّفاعةَ إليه فى تخلية سَبيلهم ، فخاطبه فى ذلك بما نَصُّه[1] :

بسم الله الرحمن الرحيم[2] .

عبدُ الله ووليُّه أخوه برقوق[3] [......][4]

السلطان الأعظم ، المالك الملك الظاهر ، السَّيد الأجلّ ، العالم العادل ، المؤيَّد المجاهد ، المُرَابط المُثَاغِر ، المظَفَّر ، الشَّاهنشَاه ، سَيف الدُّنيا والدين ، سُلطان الإسلام والمسلمين ، مُحيى العَدل فى العالمين ، مُنْصِف المظلُومين من الظَّالمين ، وارِث المُلْك ، سلطان العَرَب والعَجَم والتُّرْك ، ١٠ أسْكَندَر الزَّمان ، مُولِى الإحسَان ، مُمَلِّك أصحاب التُّخُوتِ والأَسِرَّة

---

[٣] ط : « اغتباطا بعودتى إليه » [٤] ط : « لتخلية سبيلهم » ، فى الظاهرى ، وأصل أيا صوفيا ، ونسخة ج : « فخاطبه فى ذلك . ثم هلك بعض المدرسين » .[١١] طب : « ملك أصحاب التخوت » ، والمثبت عن صبح الأعشى .

---

(١) سقط نص هذه الرسالة مما عدا نسخة « طب » من الأصول .

(٢) حافظت فى هذه الرسالة على الطريقة الرسمية التى كانت متبعة فى ذلك العهد ، والتى يقول عنها القلقشندى فى صبح الأعشى (٣٧٨/٧) ، فى رسم المكاتبة إلى صاحب فاس ، وغيره من ملوك المغرب :

« ... وهو أن يكتب بعد البسملة ، بحيث يكون تحتها سواء ، فى الجانب الأيمن من غير بياض ، ما مثاله : « عبد الله ووليه » . ثم يخلى مقدار بيت العَلاَمة ، ثم يكتب الألقاب الشريفة من أول السطر مسامتا للبسملة ، وهى : السلطان الأعظم الخ » .

(٣) فى خطط المقريزى ٢١١/٢ بولاق : « وأما البريد ، وخلاص الحقوق والظلامات ، فانه [السلطان] يكتب أيضا اسمه ، وربما كرّم المكتوب إليه ، فكتب إليه : « أخوه فلان » ، أو والده فلان ، وأخوه » .

(٤) هذا البياض هو بيت العلاَمة ، وكانت عَلاَمة الناصر محمد بن قلاوون : « الله أملى » ، وعمل ذلك الملوك بعده . وانظر خطط المقريزى ٢١١/٢ بولاق ، والاستقصا ٧٢/٢ ، صبح الأعشى ٣٧٨/٧ .

والتِّيجَان ، واهِب الأقاليم والأقطار ، مُبيد الطُّغَاة والبُغَاة والكفّار ، مَالك البَحْرَين ، مُسْلِك سَبيلِ القِبْلَتَين ، خادِم الحَرَمين الشَّريفين ، ظلّ الله في أرضه ، القائم بسُنَّته وفَرْضه ، سلطان البَسيطة ، مُؤَمِّن الأرض المُحِيطة ، سيِّد المُلوك والسلاطين ، قَسيم[1](1) أمير المؤمنين(2) ، أبو سَعيد بَرْقوق ابن الشَّهيد
٥ شَرَف الدُّنيا والدِّين أبي المَعالى أنس(3) . خَلَّد الله سلطانه ، ونَصَر جُيوشه وأعْوانَه — يَخُصُّ الحَضْرة السَّنِية السَّرِية ، المظفَّرة المَيْمونة ، المنصورة المصونة ، حضرةَ السلطان العَالم ، العَادل المؤيَّد ، المُجَاهد الأوحَد ، أبي العبَّاس ، ذُخْر الإسلام والمسلمين ، عُدَّة الدُّنيا والدين ، قُدوَة المُوحِّدِين ، نَاصِر الغُزَاة والمُجَاهِدين ، سَيْف جَماعة الشَّاكرين ، صَلَاح الدُّول . لا زالَت مَملكته
١٠ بقُوَّته عَامرة ، ومَهابَتُه لِنفُوس الجَبابرة قَاهرة ، ومَعْدَلتُه تبَوِّئه غُرُفَاتِ العِزِّ في الدنيا والآخرة . سَلامٌ صَفَاوِردُه وَضفَا بُرْدُه ، وثَناء فَاحَ نَدُّه ، ولَاحَ شَمْدُه ، وَودَادٌ زَاد وَجْده ، وجادَ جَدُّه .

أمَّا بعدَ حَمْدِ الله الذى جعَل القلوبَ أجنادًا مجنَّدة ، وأسْبابَ الوِدَاد على البِعَاد مُؤَكَّدة ، ووسائلَ المحبَّة بينَ الملوك فى كل يَوْم مُجَدَّدة ؛ والصَّلاةِ والسَّلامِ
١٥ على سيِّدنا ومَولانا محمدٍ عبدِه ورسوله ، الذى نَصَره الله بالرُّعْب مَسيرةَ شَهر

---

[1] طب : « الكفاة والبغاة » ، تصحيف ، والمثبت عن صبح الأعشى .

---

(1) القسيم بمعنى القاسم ؛ والمراد أنه قاسَم أمير المؤمنين الملك ، وساهمه فى الأمر ، فصارا فيه مشتركين . وانظر صبح الأعشى ٦٥/٧ ، ١١٣ .

(2) هو المتوكل على الله ، أبو عبد الله محمد بن المعتضد الخليفة العباسى . ولى سنة ٧٦٣ هـ وامتدت أيامه ٤٥ سنة ، حبس فيها وخلع ؛ ومات سنة ٨٠٨ هـ . وانظر « تاريخ الخلفاء » ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(3) هو سيف الدين أنس الجركسى العثمانى المتوفى سنة ٧٨٣ هـ . ترجمته ، وخبر قدومه إلى مصر فى العبر ٣٧٢/٥ — ٣٧٣ ، والمنهل الصافى ، ورقة ٢٦٩ ب (نسخة دار الكتب) .

وأيَّدَه[1] ، وأعْلَى به مَنارَ الدِّين وشَيَّدَه ؛ وعَلَى آله وأصحابه الذين اقتفَوْا طريقَهُ وسُؤْدُدَه ، صلاةً دائمةً مؤبَّدَة . فإنَّنا نُوضِحُ لِعِلْمِه الكَرِيم ، أنَّ الله — وَلَه الحَمْد — جَعلَ جِبِلَّتَنا الشَّريفَة مَجْبُولة عَلَى تَعظِيم العِلْم الشريف وَأهْلِه ، ورِفعَة شأنه ، ونَشْر أعلامِه ، ومَحَبَّة أهلِه وخُدَّامِه ، وتَيْسِير مقاصِدهم ، وتَحقِيق أمَلِهم ، والإحْسان إليهم ، والتَّقرُّب إلى الله بذَلك فى السِّرِّ والعَلانيــة ؛ فإن العُلماء رضى الله عنهم وَرَثَةُ الأنبياء ، وقُرَّةُ عَيْن الأولياء ، وهُدَاة خَلْق الله فى أرْضه ؛ لا سِيَّما مَن رَزَقَه الله الدِّرايَةَ فيما عَلِمه من ذَلك ، وهَدَاه الدُّخُول إليه من أحسَن المَسالك ، مِثْلُ مَن سَطَّرنا هَذِه المكَاتَبَةَ بسبَبه : المجلس[2] السَّامى ، الشَّيْخى ، الأَجَلِّى ، الكَبيرى ، العَالِمى ، الفَاضِلى ، الأَثيلى ، الأَثيرى ، الإمَامِى ، العَلاَّمِى القُدْوِى ، المُقتَدِى ، الفَرِيدى ، المحَقِّقِى ، الأَصِيلى ، الأَوحَدِى ، المَاجِدِى ، الوَلَوِى[3] ، جَمَال الإسْلام والمسْلمين ، جَمال العُلماء فى العَالَمِين ، أوحد الفُضَلاء ، قُدْوَةُ البُلغَاء ، عَلاَّمَة الأُمَّة ، إمامُ الأئمَّة ، مُفِيد الطَّالبين ، خَالِصَة المُلوك والسَّلاطين[4] ، عَبد الرَّحمن بن خَلْدُون المالكى . أدَام الله نِعمتَه ؛ فإنَّه أَوْلَى

---

(١) يشير إلى حديث الصحيحين : « نُصرت بالرُّعب مسيرةَ شهر » . وانظر « كنوز الحقائق » للمناوى .

(٢) هــذا النوع من الحلى والألقاب الخاصة بأرباب الوظائف الدينية ، يأتى فى المرتبة الثالثــة ؛ فالأولى : درجة « المقر » ، والثانية : درجة « الجناب » ، والثالثة : درجة « المجلس » ؛ ولــكل من الدرجات فروع ؛ و « المجلس السامى » أحد فروع درجة « المجلس » . وانظر تفصيل القول عن هــذه الاستعمالات فى صــبح الأعشى ١٥/٧ ، ١٥٤ — ١٥٩ .

(٣) هذه النسبة إلى « ولى الدين » .

(٤) اصطلحوا على أن يلحقوا ياء النسب بآخر الألقاب المفردة للمبالغة فى التعظيم ، ثم جعــلوا النسبة إلى نفس صاحب اللقب أرفع رتبة من النسبة إلى شىء خارج عنه . ومن هــنا كان « الأجلى » ، و « القاضوى » ، أرفع رتبة من « الجلالى » ، و « القضائى » . وانظر صبح الأعشى ٧٨/٦ ، ١٠٠ . ثم إن لهذه الألقاب دلالات متعارفة خاصة ، تولى تحديدها القلقشندى فى صبح الأعشى ٢٠/٧ — ٧٣ .

بالإكرام ، وَأَحْرَى ، وَأَحقُّ بالرِّعايَة وأَجلُّ قَدْرا ؛ وقَد هَاجر إلى مَمالِكنا الشريفة ، وآثَرَ الإقامَة عندَنا بالديار المِصْرية ، لا رَغْبةً عن بِلادِه ، بل تحبُّباً إلينا ، وتقرُّباً [إلى][1] خَواطِرِنا ، بالجواهر النَّفيسة من ذاتِه الحسَنَة ، وصِفاته الجميلَة ؛ وَوَجَدنا منْه فوقَ ما فى النُّفوس ، مما يَجِلُّ عن الوَصْف ، ويُرْبِى عَلَى التَّعْداد . يَالَهُ من غَرِيب وَصْفٍ ودَار ، قَدأَتَى عَنكم بكلِّ غَريب ؛ ومَا بَرِح — من حِينَ وردَ علينا — يُبالغ فى شُكْر الحضْرة العَلِية ، ومَدْحِ صفاَتها الجميلَة ، إلى أن استَمالَ خَواطرَنا الشريفة إلى حُبِّها ، وآثرنا المُكاتَبةَ إليها .

« وَالأُذنُ تَعْشَقُ قَبلَ الْعَيْنِ أحْيانا »[2]

وَذَكَرَ لنا فِى أثناء ذَلك ، أنَّ أهلَه وأولادَه ، فى مملكَة تُونِس تحتَ نظَرِ الحضْرة العَلِية ، وقصَد إحضارهم إليه ليُقيموا عندَه ، ويجتمعَ شملُه بهم مُدَّةَ إقامته عنـدَنا ، فاقتَضت آراؤنا الشَّريفة ، الكتابةَ إلى الحضْرة العَلية لهذَيْن السَّببَيْن الجميلين ؛ وقَد آثَرْنا إعلاَم الحضرة العَلية بذلك ، ليكونَ على خاطِرِه الكَرِيم ، والقصد من محبَّتِه ، يُقَدِّم أمرَه العَالى بطلَبِ أهل الشَّيخ وَليِّ الدِّين المشَار إليه ، وإزَاحة أعذَارهم ، وإزالَة عَوائقهم ، والوَصِية بِهم ، وتجهيزهم إليه مُكرَّمين ، مُحترَمين ، على أجمل الوجُوه ، صُحْبةَ قاصِده الشَّيخ الصالح ، العَارف السَّالك الأوحد ، سَعد الدِّين مَسْعود المكْناسِى ، الوَاصِل بهذه المكاتَبة أعزه الله ؛ ويكون تجهيزُهُم على مَرْكَبٍ من مَراكب الحضْرة العَلية ، مع تَوْصِيَة مَن بِها من البَحْرية بمضَاعفة إكرام المشَارِ إليهم ، ورِعَايتهم ،

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة اقتضاها وجوب « صلة » الكلام .

(٢) عجز بيت لبشار بن برد ؛ وصدره — كما فى الأغانى ١٩/٣ بولاق :

« يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة * والأذن . . . . »

والتأكيد عليهم فى هذا المعنى ، وإذا وصل من بها من البحرية ، كان لهم الأمن والإحسان فوق ما فى أنفسهم ، ويُرْبِى على أملهم ؛ بحيث يهتم بذلك على ما عُهِد من محبَّته ، وجميل اعتماده ، مع ما يتحف به من مراسلاته ، ومقاصده ومكاتباته .

والله تعالى يحرسه بملائكته وآياته ، بمنّه ويُمْنه إن شاء الله .

كُتِب خامسَ عشر صفر المبارك من سنة ستّ وثمانين وسبعمائة حسب ٥
المرسوم الشريف . الحمد لله وصلواته على سيدنا محمّد وآله وصحبه وسلم .

ثم هلك بعضُ المدرّسين بمدرسة القمْحية[1] بمصر ، من وقف صلاح الدين ابن أيّوب ، فولاّنى تدريسها مكانه[2] ، وبينا أنا فى ذلك ، إذ سخط السلطانُ قاضىَ المالكية[3] فى دولته ، لبعض النزعات فعزله ، وهو رابعُ أربعة بعدد المذاهب ، يُدعى كلُّ منهم قاضىَ القضاة ، تمييزاً عن الحكّام بالنيابة عنهم ، ١٠
لاتّساع خطّة هذا المصر ، وكثرة عوالمه ، وما يرتفع من الخصومات فى جوانبه ؛

[٧، ٨] ش : « صلاح الدين أيوب » [٨] طب : وبينا أنا فى ذلك » [٩] ش : « لبعض النزغات » [١١] فى الأصلين ، ط ، ش : « هذا المصور ، وما يرتفع » . والمثبت عن الظاهرى .

(١) كان موقع القمحية بجوار الجامع العتيق (جامع عمرو) بمصر ، وكان موضعها يعرف بدار الغزل ؛ وهو قيسارية كان يباع فيها الغزل ، فهدمها صلاح الدين ، وأنشأ موضعها مدرسة للفقهاء المالكية ، ورتب فيها مدرسين . وجعل لها أوقافا كانت منها ضيعة بالفيوم تغل قمحا كان مدرسوها يتقاسمونه ، ولذلك صارت لا تعرف إلا بالمدرسة القمحية . خطط المقريزى ٢/٣٦٤ بولاق .

(٢) فى السلوك (١١٩ ب فاتح) فى حوادث سنة ٧٨٦ :

« وفى ٢٥ محرم ، درس شيخنا أبو زيد عبدالرحمن بن خلدون ، بالمدرسة القمحية بمصر ، عوضا عن علم الدين سليمان البساطى بعد موته ، وحضر معه الأمير الطنبغا الجوبانى ، والأمير يونس الدوادار ، وقضاة القضاة والأعيان » .

(٣) هو جمال الدين عبد الرحمن بن سليمان بن خير المالكى (٧٢١ — ٧٩١) . له ترجمة فى « رفع الإصر » ١٥٦ ب (نسخة دار الكتب) ، والمنهل الصافى ٢/٤٩ ب (نسخة نور عثمانية) ، وتاريخ ابن قاضى شهبة فى حوادث سنة ٧٨٦ ، والسلوك (نسخة الفاتح ٤٣٧٩ ورقة ١١٢٠) .

وكبيرُ جَماعتهم قاضي الشّافعية ، لِعُموم ولايَتِه في الأعمال شرقاً وغرباً ، وبالصّعيد[١] والفيوم[٢] ، واستقلالِه بالنّظَر في أموالِ الأيتام ، والوَصَايا ؛ ولقَدْ يُقَال بأن مُباشَرة السُّلطان قديماً بالولاية إنما كانت تكون له .

فلما عُزِل هذا القاضي المَالِكي سَنَةَ ست وثمانين ، اختصَّني السُّلطان بهذه الولاَيَة ، تأهيلاً لمكَاني ، وتَنْويهاً بذِكْري ؛ وشَافهتُه بالتّفادِي من ذلك ، فأَبَى إلاَّ إمضَاءه ؛ وخلعَ عليّ بإيوانه ، وبَعَث من كِبار الخاصّة من أقعدني بمجلس الحكم[٣] بالمدرسَة الصّالحية[٤] بين القَصْرين ، فقمتُ بِما دَفَع إليّ من ذلك المقامَ المحمود ، ووفَّيتُ جُهْدي بِما أمَّنَنِي عليه من أحكام الله ، لاَ تأخُذني في الحقّ لومة ، ولا يَزَعُني عنه جَاهٌ ولا سَطْوة ، مُسَوّياً في ذَلك بيْنَ الخَصْمين ،

---

[١] في الظاهري : « وغربا ، وبأعمال الصعيد والفيوم ، واستبداده بالنظر » .
[٢] ط : « في أموال اليتامى » [٩] في الظاهري : « لومة لائم ، ولا » ، في الأصلين ، ط ، ش : « مسويا بين الخصمين » ، والمثبت عن الظاهري .

---

(١) كان القدماء يعتبرون مبدأ الصعيد الشمالي من قرب القاهرة ، ويمتد على ضفتي الوادي جنوباً حتى يصل إلى أسوان التي كان عندهم نهايةَ الصعيد الجنوبية ؛ وفيما بين أسوان ، وإخميم ، كان الصعيد الأعلى ؛ ومن إخميم إلى مدينة البهنسا الواقعة على الضفة الغربية لوادي النيل ، كان يسمى الصعيد الأوسط ؛ أما الصعيد الأدنى ، فكانت بدايته البهنسا ، ونهايته في الشمال ، قرب الفسطاط . وانظر ياقوت ٥/٣٦٠ .

(٢) تقع الفيوم [El Fayum عرضها الشمالي ٥ — °٢٩ ، وطولها الشرقي ٣٠′ — °٣٠] للمدينة المعروفة ، في الجنوب الشرقي لبحيرة قارون ، في الغرب من وادي النيل .

(٣) في السلوك (نسخة الفاتح ورقة ١٢٠ ب) :

« وفي يوم الاثنين تاسع عشره [جمادى الثانية] ، استدعى شيخنا أبو زيد عبد الرحمن ابن خلدون إلى القلعة ، وفوض إليه السلطان قضاء المالكية ، وخلع عليه ، ولقب « ولي الدين » ، واستقر في القضاة عوضا عن جمال الدين عبد الرحمن بن خير ؛ وذلك بسفارة الأمير الطنبغا الجوباني أمير مجلس ، وقرئ تقليده في المدرسة الناصرية بين القصرين على العادة ؛ وتكلم على قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السماوات ، والأرض والجبال الآية » .

(٤) نسبة إلى بانيها الملك الصالح نجم الدين أيوب . انظر الحديث عنها في الخطط للمقريزي ٤/ ٢٠٩ طبع مصر سنة ١٣٢٦ .

آخِذاً بحقِّ الضَّعيف مِن الحَكَمين[1] ، مُعْرِضاً عن الشَّفاعَات والوسَائل مِن [٥٧ب] الجانبَيْن ؛ جانِحًا إلى التَّثَبت فى سَماع / البَيِّنَات ، والنَّظَر فى عَدَالة المنتَصبين لتحمُّل الشَّهادَات ؛ فقَد كان البَرُّ منهم مُختَلِطاً بالفَاجِر ، والطَّيِّبُ مُلْتَبِسًا بالخبيث ، والحكَّامُ مُمْسِكون عَن انتِقَادِهم ، متجَاوِزُون عمَّا يَظْهَرون عليه من هَنَاتِهم ، لما يُمَوِّهون[2] بِه من الاعتصَام بأهل الشَّوكة ؛ فإنَّ غالبَهم مُختَلطون بالأُمراء ، مُعَلِّمِينَ للقرآن ، وأَئمَّةً فِي الصَّلَوات ، يُلبِّسُون عَليهم بالعَدالة ، فيَظُنُّون بِهم الخَير ، ويَقْسِمُون لهم الحَظَّ من الجَاهِ فى تزكِيَتِهم عندَ القُضَاة ، والتَّوسُّل لَهم ؛ فأعْضلَ داؤُهم ، وفَشَت المفَاسد بالتَّزوِير والتَّدليس بينَ النَّاسِ منهُم ؛ وَوَقَفتُ على بَعضِها فعَاقَبتُ فِيه بمُوجِعِ العقاب ، ومُؤلِم النَّكَال ؛ وتَأَدَّى إلىَّ العِلمُ بالجَرْحِ فى طَائفةٍ منهم ، فمَنَعتُهُم من تَحمُّل الشَّهادة ؛ وَكان مِنهم كُتَّاب لدَواوين القضاة ، والتَّوقيع فى مجَالِسهم ، قد دَربُوا[3] على إملاء الدَّعَاوَى ، وتَسْجيل الحُكومَات[4] ، واستُخدِمُوا للأُمراء فيما يَعرِض لهُم من العُقود ، بإحكام كِتَابتها ، وتَوثيق شُروطها ؛ فَصَار لهُمُ بذلك شُفُوفٌ[5] على أهل طَبقَتهم ، وتَمْويهٌ على القُضاةِ بجَاهِهم ، يَدَّرِعُون[6] به مِمَّا يتوقَّعُونه من عَتْبِهم ، لتَعرُّضِهم لِذلك بفَعَلاتِهم ؛ وقد يُسَلِّط بعضٌ منهم قَلمَه على العُقود المُحكَمة ، فيُوجِدُ السَّبيل إلى حَلِّها بوجْهٍ فِقْهِىّ ، أو كتابِىّ ؛

[١٠] ط : « وتأدى لعلمى الجرح فى » .

(١) كذا بالأصول ؛ والمراد « المحتكمين » .

(٢) التمويه : التلبيس والخداع .

(٣) دربوا : مرنوا .

(٤) جمع حكومة ، وهى الحكم .

(٥) الشفوف : الفضل .

(٦) ادّرع : لبس الدِّرع ، والمراد يحتمون .

وَيُبادِر إلى ذَلِكَ مَتَى دعَا إليه داعِي جاهٍ أو مِنْحَة ؛ وخُصوصاً فى الأوقافِ التى جاوَزَت حُـدودَ النِّهايَة فى هـذا المصر بكثرة عوالِيه ؛ فأصبَحَت خَافِيَةَ الشُّهْرَة ، مجهولةَ الأَعيان ، عُرضَةً للبُطلانِ ، باختلافِ المَذاهب المنصُـوبة للحكَّام بالبَلَد ؛ فمَن اختار فيها بَيْعًا أو تَمْليكاً ، شَارَطوهُ وأجابُوه ، مُفْتاتِينَ فيه على الحـكَّام الذين ضَربوا دُونَه سُدَّ الحَظْر والمَنع[1] حِمايَةً عن التَّلاعُب ؛ وفَشَا فِى ذَلِكَ الضَّرَر فِى الأوقَاف ، وطَرَق الغَرَر[2] فى العُقود والأَمْلاَك .

فعَاملتُ اللهَ فى حَسْم ذَلِكَ بما آسَفَهم عَلَىَّ وأحقَدهم ؛ ثم التفتُّ إلى الفُتْيَا بالمَذْهَب ، وكانَ الحـكَّام منهم على جَانِبٍ من الخِبْرَة ، لـكثرة مُعارَضَتِهم ، وتَلْقِينِهم الخصُوم ، وفُتْيَاهُم بَعدَ نُفُوذ الحـكم ؛ وإذَا فيهم أصَاغِرُ ، بَيْنَاهُمْ
١٠ يَتَشَبَّثُون بأذْيال الطَّلَب والعَدَالَة ولاَ يَكادُون ؛ إذَا بهم طَفَروا إلى مَراتِب الفُتْيَا والتَّدريس ، فاقْتَعَدُوها ، وتَنَاوَلُوها بالجُزاف ، واحتَازُوهَا من غَير مُتَرَّب[3] ، ولا مُنْتَقِدٍ للأَهْلِيَة ولاَ مُرشِّح ؛ إذ الـكثْرة فيهم بَالغَة ، ومن كثْرة السَّاكِن مُشْتَقَّة ، وقَلَمُ / الفُتْيا فى هذا المصر طَلْق ، وعِنانُها مُرسَل ، يَتَجاذَب [١٥٨] كلُّ الخُصُوم مِنْه رَسَنا ، ويَتَنَاول مِن حافَتِه شِقًّا[4] ، يَرُوم به الفَلْجَ[5] على
١٥ خَصْمِه ، ويَستظهِرُ به لإرغامِه ، فيُعطِيه المُفْتِي من ذلك مِلْءَ رِضَاه ، وكِفَاءَ

[١] ط : « فقهى أو كتاب . . . . متى دعا إليه داعى جاه » [٧ ، ٨] الظاهرى : « ثم التفت إلى الفتيا فى المذهب » [٩] ط : « أصاغر ؛ فبيناهم » .

(١) انظر حكم بيع الوقف ، وتمليكه فى : « البهجة فى شرح التحفة » ٢/٢٥٩ — ٢٦٣ و « الابتهاج بنور السراج » ٢/١٢ — ١٦ .
(٢) الغرر : الخطَر .
(٣) المترب : اللائم .
(٤) الشق (بالـكسر) : الجانب .
(٥) الفلج : الظفر والفوز ، والاسم بالضم .

أُمْنِيَتِه ، مُتَتَبِّعاً إِيَّاهُ فى شِعاب الخلاف ؛ فتَتَعارَض الفَتاوَى وتَتَناقَض ، ويَعظُم الشَّغَب إن وَقَعتْ بَعدَ نُفوذ الحكم ؛ والخِلافُ فى المَذاهِب كثير ، والإنصافُ مُتَعَذِّر ، وأهليةُ المُفتى أو شُهْرَةُ الفُتْيا ليسَ تمييزُها للعامّى ؛ فلا يَكادُ هذا المَدَد يَنحَسِر [١] ، ولاَ الشَّغَبُ يَنقَطِع .

فصَدَعتُ فى ذلك بالحقّ ، وكَبَحتُ أعِنَّةَ أهْل الهَوَى والجَهْل ، ورَدَدتهم على أعقَابِهِم . وكَان فيهم مُلتَقطون سَقَطُوا من المَغرب ؛ يُشَغوِذُون بمفتَرَق من اصْطِلاحات العُلُوم هُنا وهُناك ، لاَ يَنتَمون إلى شَيْخ مَشْهور ، ولا يُعرف لهم كِتَاب فى فَنّ ، قد اتَّخذوا النّاس هُزُؤا ، وعَقَدوا المجَالسَ مَثْلَبَةً للأعْرَاض ، ومأْبَنَةً [٢] للحُرَم ؛ فأرغَمهُم ذلك منِّى ، ومَلأهم حَسَداً وحقْداً علىّ ، وخَلَوا إلى أهل جِلْدَتِهِم من سُكّان الزَّوَايا المُنتَحِلين للعِبَادة ، يشتَرُون بها الجاهَ ليُجيرُوا به عَلَى الله ؛ ورُبَّما اضطرَّ أهلُ الحقُوق إلى تحْكيمهم ، فيَحكُمونَ بما يُلْقِى الشَّيطَان عَلَى ألسِنَتِهم ، يَتَرخَّصُون به للإصْلاَح ، لا يَزَعُهم الدِّينُ عن التَّعرُّض لأحْكام الله بالجَهل ؛ فقَطعتُ الحَبْلَ فى أيديهم ، وأمضَيتُ أحكامَ الله فيمن أجَارُوه ، فلَم يُغنُوا عَنه من الله شيئا ، وأصبحَت زَوَاياهم مَهْجُورة ، وبئرُهم التى يَمْتَاحُون منها مُعَطَّلة ؛ وانطلَقُوا يُرَاطِنُونَ [٣] السُّفَهاء فى النَّيْل من عِرضى ، وسُوءِ الأُحْدُوثة عَنِى بمُختَلَقِ الإفك ، وقَوْل الزُّور ، يَبثُّونَه فى الناس ،

---

[١] ط : « إياه فى شغب الخلاف » [٧] ش : « هنا وهناك » [٩] ط : « فأزعجهم ذلك منى » [١٠، ١١] ط : « الجاه ليجرؤا به » ، ش : « ليجترءوا على الله ، وربما اضطروا أهل » [١٢] ط : « يترخصون به الإصلاح » [١٤] طب : « فلم يغن عنه » » ، ط : « فلم يغنوا على الله » .

---

(١) ينحسر : ينقطع .

(٢) مأبنة : مكانا للاتهام بالعهر .

(٣) يراطنونهم : يكلمونهم بالعجمية .

ويدُسُّون إلى السُّلطان التَّظلُّمَ منى ، فَلاَ يُصْغِى إليهم ؛ وأنَا فى ذلك مُحتَسِبٌ عند الله ماَمُنِيتُ به من هَذا الأمْر ، ومُعْرِضٌ فيه عن الجَاهِلين ، ومَاضٍ عَلَى سَبيلٍ سَوَاء ، مِن الصَّرامة ، وقُوة الشَّكيمة ، وتَحَرِّى المَعْدَلَة ، وخَلاَص الحقُوق ، والتَّنَكُّبِ عن خطة البَاطِل متى دُعِيتُ إليها ، وصَلاَبة العُود عن الجاهِ
٥ والأغرَاضِ متى غَمَزَنى لامسُها ؛ ولم يكُن ذلك شَأنَ من رافَقْتُه من القُضَاة ، فنَكِرُوه علىّ ، ودَعَوْنِى إلى تَبَعِهِمْ فِيماَ يَصْطَلِحُون عليْه من مُرَضَات الأكابِر ، ومُرَاعَاة الأعيَان ، والقَضَاءِ للجَاهِ بالصُّورِ الظاهِرة ، أو دَفْعِ الخُصُوم إذا تَعَذَّرت ، بناءً عَلَى أن الحَاكِمَ لاَ يَتعيَّن عليه الحُكْمُ معَ وُجُودِ غيْرِه ، وهم يَعلَمون أنْ قَد تَمالَئُوا عليْه .

١٠ وليتَ شِعرى / ماعُذْرُهم فى الصُّوَر الظَّاهِرة إذَا عَلِمُوا خِلافَهَا ؛ والنبىُّ صلَّى الله [٥٨ب] عليه وسلم يقُول فى ذَلك : « من قَضَيْتُ لَه مِن حَقِّ أخيه شيئاً فإنما أقضى لَهُ من النار »[1] .

فأبيتُ فى ذلك كلّه إلا إعطاء العُهدة حَقّها ؛ والوفاء لهَا ولمن قَلّدَنيها ، فأصبَحَ الجَميعُ علىّ ألْباً[2] ، ولِمَنْ يُنادِى بالتّأَفُّفِ مِنى عونا ، وَفى النَّكِير
١٥ علىّ أمَّة ؛ وأسْمَعُوا الشهودَ المَمْنُوعِين أن قَد قَضَيْتُ فيهم بغَيْر الحَقّ ، لاِعتِمادِى عَلَى

[١ ، ٢] ط ، ش : « محتسب على الله مامنيت » [٢] ط : « منيت به فى هذا » ، ش : « الأمر ، معرض فيه » [٤ ، ٥] طپ ، ط ، ش : « الجاه والإعراض » [٥] فى الأصلين ، والظاهرى : « متى غمرنى » ، والمثبت عن ط . ش : « ولم يكن شأن » [١١] ط : « عليه وسلم يقول : « من قضيت » .

---

(١) ورد نص هذا الحديث فى صحيح البخارى بروايات مختلفة ، لاتوافق الصيغة التى أورده عليها ابن خلدون . وانظر العينى ١١/٤٠٠ ، ٤٠٩ — ٤١١ ، ٤١٣ ، ٢٧٠ . والموطأ مع شرحه : « تنوير الحوالك » ٢/١٠٦ ، ١٠٧ . طبع التجارية سنة ١٣٥٦ هـ .

(٢) الألب (بالفتح) : التدبير على العدوّ من حيث لا يعلم .

عِلْمِى فى الجَرْحِ ، وهىَ قَضِيةُ إجماعٍ[1] ؛ وانطَلَقَت الألسنة ، وارتفَع الصَّخَب ،
وأَرَادنى بعضٌ عَلَى الحُكْمِ بغَرَضِهم فوقفْت ، وأغرَوا بِىَ الخُصُوم فتنَادَوْا
بالتَّظلّم عند السُّلطان ؛ وجَمع القُضاةَ وأهلَ الفُتْيَا فى مَجلسٍ حَفَل النظر فى ذلك ،
فَخَلَّصَتْ تلك الحُكومةَ من الباطِل خُلُوص الإبريز ، وتَبَيَّن أمرُهم للسُّلطان ،
٥ وأمضَيْتُ فيها حُكْمَ الله إرغامًا لهم ، فَغَدَوْا على حَرْدٍ قادِرِين[2] ، وَدَسُّوا
لأَوْلِياء السلطان وعُظَماء الخاصّة ، يُقَبِّحون لهم إهمالَ جَاهِهم ، وَرَدَّ شُفَاعتِهم ،
مُمَوِّهين بأن الحَامِلَ على ذلك جَهْلُ المُصْطَلَح ، ويُنفِقُون هذا الباطلَ بعظائمَ
يَنْسُبُونَها إلىّ ، تَبعثُ الحَلِيم ، وتُغْرِى الرَّشِيد ، يَسْتَثِيرُون حَفَائظهم عَلَىّ ،
ويُشْرِبُونهم البَغْضَاء لِى ؛ واللهُ مُجازِيهم ومُسَائلهم .

١٠ فَكَثُر الشَّغَبُ عَلَىّ من كل جَانب ، وأظلَم الجوّ بَيْنى وبينَ أهل الدَّولَة .
وَوَافق ذلك مُصَابى بالأهْـل والوَلَد[3] ، وَصَلوا من المغرب فى السَّفِين[4] ،
فأصَابَها قَاصِفٌ[5] من الرّيح فغرِقت ، وذَهَب الموجُود والسَّكَن والمولُود ؛
فَعظُم المُصَاب والجزع ، ورَجَح الزُّهد ، واعتزَمتُ على الخروج عَن المَنصِب ،

[١] ط : « وانطلقت الألسن » [٦] ط : « وعظماء الدولة ، يقبحون » ، ش : « وردشفاعاتهم » [٨، ٩] ش : « يستثيرون حفائظهم ، ويشربونهم » [١٣] ط : « وعزمت على الخروج على المنصب » .

(١) انظر تفصيل القول فى مسألة استناد القاضى إلى علمه فى التعديل والتجريح ، فى : « البهجة فى شرح التحفة » ٢/٤٥ وما بعدها .

(٢) فى اللسان : منعوا وهم واجدون .

(٣) فى تاريخ ابن قاضى شهبة ، فى حوادث سنة ٧٨٦ ، ج ١ لوحة ٤ : « وفيه (رمضان) غرق مركب كبير يقال له « ربع الدنيا » ، حضر من المغرب ، وفيه هدايا جليلة من صاحب المغرب ، وغرقت فيه زوجة القاضى ولى الدين ابن خلدون ، وخمس بنات له ، وما كان معهن من الأموال والكتب ؛ وكان السلطان قد أرسل رسولا إلى صاحب تونس بسبب أولاد الشيخ ولى الدين ابن خلدون . وسلم ولداه : محمد وعلى ، فقدما القاهرة » . على أن انفراد ابن قاضى شهبة بهذه التفصيلات مما يبعث على التثبت والحذر .

(٤) السفين : جمع سفينة ؛ غير أن ابن خلدون يستعمل السفين ويريد السفينة .

(٥) قصف الريح : اشتد صوته .

فلم يُوافِقنى عليـه النَّصيح[1] ممَّن استَشرتُه ، خَشْيةً من نَـكِير السُّـلطان وسَخَطه ؛ فَوقَفتُ بين الوِرْد والصَّدَر ، وَعَلَى صِرَاط الرَّجاء واليأْس ؛ وعَن قَرِيب تَدارَكنى اللُّطف الرَّبانىّ ، وشَمِلَتنى نِعمةُ السُّلطان — أيَّده الله — فى النَّظَر بعَيْن الرَّحمة ، وتَخلِية سَبيلى من هذه العُهدة التى لم أُطِق حَمْلَها ، ولا عَرفتُ

٥ — كما زعموا — مُصْطَلَحَها ؛ فَرَدَّها إلى صاحِبِها الأَول[2] ، وأنشَطَنى من عِقَالها ؛ فانطلقتُ حَمِيد الأَثَر ، مُشَيَّعاً من الـكافَّة بالأَسَف والدُّعاء وحَمِيد الثَّناء ؛ تَلْحَظنى العُيون بالرَّحمة ، وتَتَناجَى الآمالُ فىَّ بالعَوْدة ؛ ورتَعتُ فيما كُنتُ راتعاً فيه قبلُ من مَرَاعى ، نِعمتِه وظِلٍّ رضاه وعِنايتِه ، قانعاً بالعافية التى سأَلَها رسولُ الله صلى الله عليه وسلَّم من ربه ، عَاكفاً على تدريس / علم ، أو قِراءةِ كِتاب ، [١٥٩ ا]

١٠ أو إعمال قَلَم فى تدوينٍ أو تأليف ، مؤمِّلاً من اللهِ . قَطْعَ صُبَابَة العُمْر[3] فى العِبَادة ، ومَحْوِ عَوائق السَّعادَة بفضل الله ونعمته .

[٢] ش ، ط : « فتوقفت بين الورد » ، ط : « والصَّدر ، على صراط » .
[٨] ش : « راتعا فيه من مراعى »

(١) النصيح : الناصح .
(٢) فى « السلوك » سنة ٧٨٧ (١٢٤ ب نسخة الفاتح) :
« وفى سابع عشر جمادى الأولى ، خلع على جمال الدين عبد الرحمن بن خير ، وأعيد إلى قضاء القضاة المالكية عوضاً عن ولى الدين أبى زيد عبد الرحمن بن خلدون .... وفى ٢٢ منه قرىء تقليد ابن خير بالمدرسة الناصرية على العادة » .
(٣) صبابة العمر : بقيته .

السّفر لقضاء الحجّ

ثم مكثت بعد العَزْلِ ثلاثَ سنين ، واعتزمت على قضاء الفريضة ، فودَّعتُ السُّلطان والأُمراء ، وزوَّدُوا وأعانُوا فوْقَ الكِفاية ؛ وخرجتُ من القاهرة مُنتصَفَ رمضانَ [سَنَة] تِسعٍ وثمانين ، إلى مَرسَى الطُّور[1] بالجانب الشَّرقيّ من بَحْر السُّويس ؛ وركِبتُ البَحر من هُنالك ، عاشِرَ الفِطْر ، وَوصَلْنا إلى اليَنْبُع[2] لشهرٍ ، فوافَينا المَحْمِل ، ورافقتُهم من هُنالك إلى مكَّة[3] ، ودخلتُها ثانِيَ ذي الحِجَّة ، فقضَيت الفَريضةَ في هذه السَّنَة ، ثم عُدتُ إلى اليَنْبُع ، فأقمتُ به خمسين ليلةً حتى تهيَّأ لنا رُكوب البَحْر ، ثم سافرنا إلى أن قارَبْنا مَرسَى الطُّور ، فاعترَضَتْنا الرِّياح ، فما وَسِعَنا إلَّا قَطعُ البَحْر إلى جانبه الغَرْبيّ ونزلنا بساحِلِ القُصَيْر[4] ، ثم بَذْرَقْنا[5] مع أعراب تلك النَّاحية إلى مَدينة

[٤] في الأصلين ، والظاهري : « رمضان تسع » ، والمثبت عن ط . في الظاهري ، ط ، ش : « بالجانب الغربي من بحر السويس » . تحريف [٥] ش : « عاشر القطر ، ووصلت » [٩] في الظاهري ، ط ، ش : « إلى جانبه الشرقي » . تحريف .

(١) الطور [Tor عرضها الشمالي ٢٨° — ١٠′ ، وطولها الشرقي ٣٣° — ٣٩′] : مدينة على الساحل الغربي لشبه جزيرة سيناء . وانظر ياقوت ٦/٦٧ ، ٦٩ .

(٢) الينبُع [Yanbo عرضها الشمالي ٢٤° — ٠٠′ ، وطولها الشرقي ٣٨° — ١٥′] : مدينة من مدن الجزيرة العربية ، تقع على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ؛ وهي بفتح الياء المثناة التحتية ، وضمّ الباء الموحدة ، بينهما نون ساكنة . وانظر ياقوت ٨/٥٢٦ .

(٣) مكة : [Mecca عرضها الشمالي ٢١° — ١٤′ ، وطولها الشرقي ٤٠° — ١٤′] قبلة المسلمين ، أم القرى ، وبيت الله الحرام . تحدث عنها ياقوت ٨/١٣٣ — ١٤٣ .

(٤) القُصير [Kosseir عرضها الشمالي ٢٦° — ٥′ ، وطولها الشرقي ٣٤° — ١٦′] بلفظ تصغير قصر : مرفأ على الساحل الغربي للبحر الأحمر ، تؤمه السفنُ التجارية من الجزيرة العربية واليمن ، بينه وبين قوص قصبة الصعيد خمسة أيام . وانظر ياقوت ٧/١١٥ .

(٥) البذرقة (بالدال المهملة ، وبالمعجمة أيضا) : الخفارة .

قُوص[1] قَاعِدةِ الصَّعِيد ، فأرَحْنا بها أياما ، ثمّ رَكِبنَا فى بَحْرِ النِّيل إلى مِصْر ، فوَصَلنا إليها لِشهرٍ من سَفَرنا ، ودخلتُها فى جُمادَى [سنة] تِسْعين ؛ وقَضَيْتُ حَقَّ السُّلطان فى لِقَائه ، وإعلامِهِ بما اجتَهدتُ فيه من الدُّعاء له ، فتقبَّلَ ذلك [منى] بقَبُولٍ حَسَن ، وأقمتُ فيما عَهدت مِن رِعَايته وظلّ إحسانه .

٥ وكنتُ لَمّا نزَلتُ بالينْبُع ، لَقِيتُ بها الفقيهَ الأديبَ المُتقِن ، أبا القاسم ابن محمد ابن شَيخ الجماعَة ، وفارِس الأدباء ، ومُنَفِّق سُوق البَلاغَة ، أبى إسْحَق إبرَاهيم السّاحِلى المَعْروف جَدُّه بالطُّوَيْجِن[2] ، وقَد قَدِمَ حَاجّا ، وفى صُحْبَتِه كتابُ رسالةٍ من صَاحِبنا الوَزِير الـكَبِير العـالِم ، كاتب سِرّ السُّلطان ابن الأحْمَر صاحب غرناطة ، الحَظِىّ لدَيْه ، أبى عَبْد الله بن زَمْرَك ؛ خاطَبنى فيـه

١٠ بنَظْمٍ ونَثْر يتَشَوّق ، ويُذَكِّر بعُهود الصُّحبة نَصُّه :

سَلُوا البـارِقَ النَّجْدِىَّ مِن عَلَمَى نَجْدِ
تَبَسَّم فَاسْتَبْـكَى جُفُونِى مِن الوَجْدِ
أجادَ رُبوعى باللِّوى بُورِكَ اللِّوَى[3]
وَسحَّ بـه صَوْبُ الغَمَائم مِن بَعْـدِى

---

[١] ش : « قاعدة الصـعيد ، فأرحت بها » [٢] فى الأصلين ، الظاهرى : « جمادى تسعين » ، والمثبت عن ط [٣ ، ٤] فى الأصلين ، والظاهرى : « فتقبل ذلك بقبول » ، والمثبت عن ش [٥] طب ، ش ، ط : « الأديب المتفنن » .

---

(١) قوص [Kus عرضها الشمالى ٢٥° — ٥٥′ ؛ وطولها الشرق ٣٢° — ٤٩′] : مدينة واسعة ؛ كانت قصبة صعيد مصر ، وكان أهلها أرباب ثروة واسعة ، لأنها كانت محط التجار القادمين من عدن ؛ وأكثر تجار عدن من مدنية قوص . وانظر ياقوت ١٨٣/٧ .

(٢) الطويجن ، بضم الطاء ، وفتح الواو ، وبسكون التحتية المثناة ، وكسر الجيم هكذا كان يضبط اسمه بخطه ؛ وفى « نيل الجمان » ، و « نفح الطيب » : أنه بفتح الجيم .

(٣) اللوى : واد من أودية بنى سُلَيم .

ويَازَاجِرِى الأَظعان وهى ضَـوامِرٌ
دَعُوها تَرِدْ هِيماً عِطاشاً عَلى نَجْدِ[١]
وَلا تَنشَقُوا الأَنفاسَ مِنْها مَع الصَّـبا
فإنَّ زَفِيرَ الشَّوقِ من مِثْلها يُعْـدِى
بَراها الهَوَى بَرْىَ القِـدَاحِ وخَطَّهَا
حُروفاً على صَفْحٍ من القَفْرِ مُمْتَدِّ[٢] ٥
عَجِبتُ لَهـا أنّى تُجاذِبُنِى الهَوَى وَمَا شَوقُها شَوْقِى وَلَا وَجْدُها وَجْدِى
٥ب] / لَئِن شَاقَها بينَ العُذَيب وَبَارِقٍ[٣] مِياهٌ بِفَيْءِ الظل البَان[٤] والرَّنْدِ[٥]
فَمَا شَاقَنِى إلَّا بُدورُ خُدُورِهَا وقَد لُحْنَ يومَ النَّفرِ فى قُضُبٍ مُلْدِ[٦]
فَكَم فى قِبَابِ الحَىِّ من شَمْسِ كِلَّةٍ وفى فَلَكِ الأَزْرارِ من قَمَرٍ سَعْدِ[٧] ١٠
وَكَم صَارِمٍ قَد سُلَّ من لَحْظِ أَحْوَرٍ وكَمْ ذَابِلٍ قَد هُزَّ من نَاعِمِ القَـدِّ
خُذُوا الحِذْرَ من سُكَّان رَامَةَ إنَّهَا ضَعِيفَاتُ كَرِّ اللَّحْظِ تَفتِكُ بالأُسْدِ[٨]

---

[٥] ش : « براها النوى » . [٩] فى أصل أياصوفية : « إلا بدور خدودها »
[١٢] ط ، ش : « ... * ضعيفات كسر اللحظ » .

---

(١) انظر أقوالهم فى تحديد « نجد » فى « معجم ما استعجم » للبكرى .
(٢) براها الهوى : نحتها ، وشفَّها . والقداح : السهام قبل أن تراش وتنصل .
(٣) العذيب : ماء لبنى تميم ، وكذلك بارق . وكانت هذه الأمكنة دياراً لبنى تميم باليمامة . وانظر « معجم ما استعجم » للبكرى ص ٩٢٨ .
(٤) البان : شجر يسمو ويطول فى استواء ؛ ومنه يستخرج دهن البـان . وانظر « مفردات » ابن البيطار ٧٨/١ .
(٥) الرند : هو شجر الغار ؛ وهو نبات طيب الريح يستخرج منه دهن .
(٦) جمع أملد ؛ وهو الناعم اللّين من الغصون وغيرها .
(٧) جمع زر ؛ وهو العروة فى القميص تجعل فيها الحبَّة .
(٨) رامة : موضع بالعقيق ؛ وانظر « معجم » البكرى ص ٦٢٨ .

سِهَام جُفونٍ عَن قِسِيّ حَوَاجِبٍ يُصَابُ بِهَا قَلبُ البَرِئ عَلَى عَمْدِ
ورَوض جَمَال ضَاعَ عَرْفُ نَسِيمِه وما ضَاعَ غيرُ الوَرْدِ فى صَفْحة الخَدِّ
ونَرْجِس لَحْظٍ أرسَلَ الدَّمعَ لؤْلؤاً فَرَشَّ بماءِ الوَرْدِ رَوْضاً مِن الوَرْدِ
وكَم غُصُنٍ قد عَانَقَ الغُصْنَ مِثلَهُ وكلٌّ على كلٍّ من الشَّوْقِ يَسْتَعْدِى
٥ قَبِيحٌ ودَاعٌ قَد جَلاَ لعُيُونِنَا محَاسِنَ من رَوضِ الجَمَال بِلاَ عَدٍّ
رَعَى اللهُ لَيلَى لَو عَلِمتُ طَرِيقَها فَرَشْتُ لأَخفَاف المَطِيِّ به خَدِّى
وَمَا شَاقَنِى والطَّيفُ يُرْهِبُ أدْمُعِى وَيَسْبَح فى بَحْرٍ من اللَّيْل مُزْبَدِّ
وَقَد سُلَّ خَفَّاقُ الذُّؤابة بارِقٌ كمَا سُلَّ لَمَّاعُ الصِّقَالِ من الغِمْدِ[1]
وهُزَّتْ مُحَلاَّةَ يدُ الشَّوقِ فى الدُّجَى فَحَلَّ الذى أبْرَمْتُ للصَّبْرِ من عَقْدِى
١٠ وأقلق خفَّاقُ الجوانح نَسْمَةً تَنِمُّ مَع الإصْبَاح خَافِقَةَ البُرْدِ
وَهَبَّ عليلٌ لَفَّ طىَّ بُرُودِهِ أحادِيثَ أهْدَاها إلى الغَوْرِ من نَجْدِ[2]
سِوَى صَادِحٍ فى الأَيْكِ لَمْ يَدْرِ مَا الهَوَى
ولَكِنْ دَعَا مِنِّى الشُّجُونَ عَلَى وَعْدِ
فهَلْ عِندَ لَيلَى نَعَّم اللهُ لَيلَهَا بأنَّ جُفُونِى مَا تَمَلُّ مِنَ السُّهْدِ
١٥ وليلةَ إذْ وَلَّى الحَجِيجُ[3] عَلَى مِنًى[4] وَفَت لِى المُنَى مِنْهَا بمَا شِئتُ مِن قَصْدِ

---

[١] ط : « سهام جفون من » [٨] ش : « لماع الصقيل » ، تصحيف [١٤] طب : « ما تمل من الغمد » ، تحريف .

---

(٧) خفّاق : مضطرب . وذؤابة كل شيء : أعلاه . والبارق : سحاب ذو برق .
(٨) الغور : غور تهامة ، وهو ما بين ذات عرق إلى البحر ، وكل ما انحدر سيله مغرباً عن تهامة فهو غور . ياقوت ٣١١/٦ .
(٩) الحجيج : جماعة الحاج .
(١) موضع فى جبل عرفة بجانب مكة ، يذكر كثيراً فى باب « الحج » من حيث صلته بكثير من أعمال الحجاج . وانظر « تنوير الحوالك » ٢٨١/١ — ٢٨٥ طبع مصر سنة ١٣٥٦ هـ .

فَقَضَّيتُ مِنْها — فوقَ ما أَحسَبُ — المُنَى ... وبُرْدُ عَفَافِي صانَه اللهُ مِنْ بُرْدِ
وليسَ سِوى لَحْظٍ خَفِيٍّ نُجِيلُهُ ... وشَكْوَى كَأَرفَضّ الجُمَانُ من العِقْدِ
فَقَرْتُ لِدَهْرِي بعدَها كُلَّ ما جَنَى ... سِوَى ما جَنَى وفدُ المَشِيبِ عَلَى فَوْدِي
عرَفْت بهذا الشَّيب فضْلَ شَبِيبتي ... وما زَالَ فَضْلُ الضِّدِّ يعرَفُ بالضِّدِّ
ومن نَامَ فى لَيْلِ الشَّبابِ ضَلالَةً ... سَيُوقِظُه صُبْحُ المَشِيبِ إلى الرُّشْدِ ٥
أَمَا والهوَى ما حُلتُ عن سَنَن الهوَى ... ولاَ جُرْتُ فى طُرْقِ الصَّبابةِ عن قَصْدِي
[٦] تَجَاوزتُ حدَّ العَاشِقِين الأُلى قَضَوْا ... وأصبَحْتُ فى دِينِ الهوَى أُمّةً وَحْدِي
نَسِيتُ وما أَنسَى وفَائِى خلّتى ... وأقفَر رَبْعُ القَلْبِ إلّا منَ الوَجْدِ

***

إليكَ أبا زَيْد شَكَاةً رفعْتُها ... ومَا أنتَ مِنْ عَمْرٍو لدَىَّ وَلا زَيْدِ[1] ١٠
بِعَيْشِكَ خَبِّرْنى ومَا زِلتَ مُفْضِلا ... أعِندكَ من شَوقٍ كَمِثْلِ الذى عِندِى
فَكَمْ ثَارَنِى شَوْقٌ إليكَ مُبَرِّحٌ ... فَقلّت يدُ الأشواقِ تَقْدَح من زَنْدِى
وصَفَّقَ حتى الرِّيحُ فى لُمَمِ[2] الرُّبَى ... وَأَشفَقَ حتى الطِّفْلُ فِى كَبِدِ المَهْدِ
يُقابِلُنِى منكَ الصَّباحُ بوَجْنَةٍ ... حَكَى شفَقًا فيه الحَيَاءُ الذى تُبْدِى
وَتُوهِمُنِى الشَّمْسُ المنِيرةُ غُرَّةً ... بوَجْهِكَ صَانَ اللهُ وجهَكَ عن رَدِّ ١٥
مُحَيَّاكَ أَجْلَى فى العُيونِ من الضُّحَى ... وذِكْرُكَ أَحْلَى فى الشِّفَاهِ من الشُّهْدِ
وَمَا أنتَ إلاَّ الشَّمسُ فى عُلْوِ أُفْقِها ... تُفِيدُكَ مِن قُرْبٍ وَتُلْحَظُ مِن بُعْدِ
وفى عَمَهٍ[3] مَن لاتَرَى الشَّمسَ عينُه ... وما نَفْعُ نُورِ الشَّمسِ فى الأعيُنِ الرُّمْدِ

---

[٦] ط: «ما حدت عن سَنَن».

---

(١) الشكاة: الشكوى.
(٢) جمع لمة (بالكسر)؛ وهى شعر الرأس إذا كان فوق الوفرة.
(٣) العمه فى البصيرة؛ كالعمى فى البصر.

مِنَ القَوْمِ صَانُوا المَجْدَ صَوْنَ عُيُونِهِم ... كَمَا قَدْ أَبَاحُوا المَالَ يُنْهَبُ لِلرِّفْدِ

إِذَا ازْدَحَمَتْ يَوْماً عَلَى المَالِ أُسْرَةٌ ... فَمَا ازْدَحَمُوا إِلاَّ عَلَى مَوْرِدِ المَجْدِ

وَمَهْمَا أَغَارُوا مُنْجِدِينَ صَرِيخَهُم (١) ... يَشُبُّونَ نَارَ الحَرْبِ فِى الغَوْرِ وَالنَّجْدِ

وَلَمْ يَقْتَنُوا بَعْدَ البِنَاءِ ذَخِيرَةً ... سِوَى الصَّارِمِ المَصْقُولِ وَالصَّافِنِ النَّهْدِ (٢)

٥ وَمَا اقْتَسَمَ الأَنْفَالَ إِلاَّ مُمَدَّحٌ ... بَلاَهَا بِأَعْرَافِ المُطَهَّمَةِ الجُرْدِ (٣)

***

أَتَنْسَى وَلاَ تَنْسَى لَيَالِيَنَا الَّتِى ... خَلَسْنَا بِهِنَّ العَيْشَ فِى جَنَّةِ الخُلْدِ

رَكِبْنَا إِلَى اللَّذَاتِ فِى طَلَقِ الصِّبَا ... مَطَايَا اللَّيَالِى وَادِعِينَ إِلَى حَدِّ

فَإِنْ لَمْ نَرِدْ فِيهَا الكُئُوسَ فَإِنَّنَا ... وَرَدْنَا بِهَا لِلأُنْسِ مُسْتَعْذَبَ الوِرْدِ

١٠ أَتَيْتُكَ فِى غَرْبٍ وَأَنْتَ رَئِيسُهُ ... وَبَابُكَ لِلأَعْلاَمِ مُجْتَمَعُ الوَفْدِ

فَآنَسْتَ حَتَّى مَا شَكَوْتُ بِغُرْبَةٍ ... وَوَالَيْتَ حَتَّى لَمْ أَجِدْ مَضَضَ الفَقْدِ

وَعُدْتُ لِقُطْرِى شَاكِراً مَا بَلَوْتُهُ ... مِنَ الخُلُقِ المَحْمُودِ وَالحَسَبِ العِدِّ (٤)

إِلَى أَنْ أَجَزْتَ البَحْرَ يَاْمُرُ نَحْوَنَا ... وَزُرْتَ مَزَارَ الغَيْثِ فِى عَقِبِ الجَهْدِ

أَلَذَّ مِنَ النُّعْمَى عَلَى حَالِ فَاقَةٍ ... وَأَشْهَى مِنَ الوَصْلِ المُنَى عَلَى صَدِّ

١٥ وَإِنْ سَاءَنِى أَنْ قَوَّضَتْ رَحْلَكَ النَّوَى ... وَعُوِّضْتَ عَنَّا بِالذَّمِيلِ وَبِالوَخْدِ (٥)

---

[١٠] ط : « لقيتك فى غرب » [١٥] ط : « ولو ساءنى أن » .

---

(١) الصريخ كالصارخ : المستغيث .

(٢) الصافن (من الخيل) : القائم على ثلاث ، وعدّوا ذلك دليلا على كرم الأصل . وانظر ص ٧٣ . والنهد : الفرس الجيل الحسن .

(٣) الأعراف : جمع عرف ؛ وهو شعر عنق الفرس . والمطهمة : البارعة الجمال التامة . والجرد : القصيرة الشعر .

(٤) الحسب العِدّ : القديم .

(٥) الذميل : السّير اللين . والوخد الإسراع فى المشى ، أو سعة الخطو .

٦ب] / لقد سرّنى أن لُحْت فى أُفُقِ العُلاَ عَلَى الطَّائِرِ الَيْمُونِ والطَّالِعِ السَّعدِ
طَلَعت بأفُقِ الشَّرقِ نجْمَ هِـدَايَةٍ فجئت معَ الأنوَار فيه عَلَى وَعْـدِ

* * *

يَميناً بمَن تَسْرِى المَطِىُّ سَـوَاهِماً عَليها سِهَامٌ قَدرَمَت هَدَفَ القَصْدِ (١)
إلى بيْته كيما تَزُورَ مَعَاهداً (٢) أبَانَ بِها جِبْرِيلُ عَن كَرَمِ العَهْـدِ ٥
لأنتَ الذى مَهْما دَجَا لَيْـلُ مشْكِلٍ قَدَحْتَ به للنُّـور وَارِيةَ الزَّنْدِ
وَحيثُ استقلَّت بِى ركاب لِطِيَّةٍ (٣) فأنتَ نَجِىُّ النَّفْس فى القُرْبِ وَ البُعْدِ

* * *

وَ إنى ببَـاب المُلْك حيثُ عَهِدتّنى مديدُ ظلالَ الجاه مُسْتَحْصَفُ العَقْدِ (٤)
أجَهِّـزُ بالإنشَاء كُلَّ كَتيبةٍ ١٠
منَ الكتْبِ والكُتَّابُ فى عَرْضِها جُنْدِى
نَلوذُ مِنَ المـولَى الإمام محمَّدٍ بظلٍّ عَلَى نَهْر المجرَّة مُمتـدِّ
إذا فَاضَ من يُمْناه بحرُ سَمَاحـةٍ وعمَّ به الطُّوفَانُ فى النجْد والوَهْدِ
رَكبنَا إلى الإحْسَان فى سُفُن الرَّجا بحورَ عطاه لَيْسَ تجزَرُ عن مَدِّ
فمَن مُبلغُ الأنصـار عنى ألوكَةً مُغَلْغَلَةً فى الصِّدق مُنجزَةَ الوَعْدِ (٥) ١٥
بآيةِ ما أعطىَ الخليفـةَ رَبُّهُ مَفَاتيحَ فَتْحٍ سَاقَها سائقُ السَّعدِ

* * *

[١٥] طب : « فمن مبلغ الأمصار » .

(١) جمع ساهمة ؛ وهى الناقة الضامرة .
(٢) يريد بيت الله ؛ وهو الكعبة الشريفة .
(٣) الطِّيَّة (بالكسر) : الناحية .
(٤) استحصف : استحكم ؛ ويريد متمكن المنزلة .
(٥) الألوكة : الرسالة .

وَدُونك من رَوض المحامِدِ نَفْحَةً ... تفوتُ إذا اصطفَّ النَّدِىُّ عَنِ النَّدِّ(١)

ثناء يَقُولُ المِسْكُ إن ضَاع عَرفُهُ ... أَيَا لكَ من نَدٍّ أمَا لكَ من نِدِّ(٢)

وَمَا الماء فى جَوفِ السَّحَاب مُرَوَّقاً ... بأطهرَ ذاتاً منكَ فى كَنَفِ المَهْدِ(٣)

فَكَيفَ وقد حَلَّتك أَسْرابُها الحُلى ... وبَاهَت بكَ الأَعلَامَ بالعَلَمِ الفَردِ

٥ وَمَا الطَّلُّ فى ثَغرٍ منَ الدَّهرِ بَاسِمٍ ... بأصفَى وأذكَى مِن ثَنَائِى وَمِن وُدِّى

وَلاَ البَدْرُ مَعصُوباً بتَاجِ تَمَامِهِ ... بأبهر من وُدِّى وأسْيَرَ مِنْ حَمْدِى

بَقِيتَ ابنَ خَلدُونٍ إمامَ هِدَايةٍ ... ولا زِلْت مِنْ دُنيَاكَ فى جَنَّةِ الخُلْدِ

وَوَصَلها بقوله : سَيِّدى عَلَمَ الأعلام ، كَبيرَ رؤساء الإسْلاَم ، مُشرِّف حَمَلة السُّيوف والأَقلام ، جمَال الخَواصّ والظُّهَراء ، أثير الدُّوَل ، خالِصَة المُلُوك ،

١٠ مُجتَبَى الخُلفَاء ، نَيِّر أفُق العَلاء ، أوْحَد الفُضَلاَء ، قُدْوة العُلَماء ، حجَّة البُلَغاء .

أبقاكم الله بقاء جميلاً يَنْعقِدُ لِوَاء الفَخْر ، ويُعْلِى مَنَارَ الفَضْل ، وَيَرفَع عِمادَ المَجْد ، ويُوَضِّح مَعَالِم السُّودُد ، ويُرسِل / أشِعَّة السَّعَادة ، ويُفِيض أنوارَ [٢٦١] الهِدَاية ، ويُطلق ألسنَة الحامد ، ويَنشُرُ أفُقَ المَعَارِف ، ويُعْذِب مَوَارِد العِنايَة ويُمتِعُ بعُمُرِ النِّهاية ولاَ نِهاية .

١٥ بأىِّ التَّحيات أفاتحُك وقدرُك أعلَى ، ومَطلِع فَضْلِكَ أوضَحُ وَأَجْلَى ؛ إن

---

[٨] ط ، ش : « سيدى شيخ الأعلام » [١١] ط : « أبقاكم الله إبقاء » .

---

(١) اصطفوا : قاموا صفوفا . والنَّدِىّ ، والنادى : مجلس القوم ؛ ويريد القوم أنفسهم .

(٢) النَّد (بالفتح) : الطيب ؛ والند (بالكسر) : المثل .

(٣) الماء المروّق : الصافى .

قُلْتُ تحيةُ كِسْرَى فى السَّنَاء وتُبَّعٌ[(١)] ، فأَقْرُ لا يُقْتَفَرُ[(٢)] ولا يُتْبَع ، تِلكَ تَحِيةٌ عَجْمَاء لا تَبينُ ولا تُبين ، وزَمْزَمَةٌ نَافَرَها اللِّسانُ العربىُّ المبين ، وَهَذِه جَهَالةٌ جهلَاء ، لا ينطبق على حُروفها الاسْتِعْلاء ، قَد مَحَا رسُومَها الجفاء ، وعلى آثارِ دِمْنَتِها العَفاء ؛ وَإن كانت التَّحيَّتَانِ طَالما أَوْجَف بهما الرُّكاب وَقَعْقعَ البَرِيد ، ولـكن أين يَقَعانِ ممّا أُرِيد . ٥

تَحِيَّةَ الإِسْلَام آصَل فى الفَخرِ نَسَبا ، وَأَوصَلُ بالشَّرع سَبَبا ، فالأَولى أن أُحيِّيكَ بما حيّا الله فى كتَابه رُسُلَهُ وأنبياءه ، وَحَيَّت به مَلائكته فى جواره أولياءه فأقول :

سَلَام عَليكم يُرسِل من رَحمَاتِ الله عَماما ، وَيَفتَق من الطرُوس عن أزهار المَحَامِدِ كِماما ، ويَسْتَصْحِبُ من البَرَكات ما يكون عَلَى الذى أحسَن من ذلِكَ تَمَاما ؛ وأجدِّد السؤال عن الحال الحاليـة بالعِلْم والدِّين ، المُستَمِدّة من أنوَارهَا سُرُجُ المُهْتَدِين . زَادهَا الله صَلاحا ، وعرّفَها نَجاحًا يَتبع فَلاحا ؛ وأُقرِّر ما عِندِى من تَعظيمٍ أرتَقى كُلَّ آونة شُرفَه ، واعتقادٍ جَميلٍ يَرفَع عن وَجْه البَدرِ ١٠

[١] ط ، ش : « فأقر لا يقتفى ولا يتبع » [٣] ش : « رسومها الجفاء »
[٩] ط : « السلام عليكم » ، ولعله تصحيف .

(١) ابن زمرك ينظر إلى قول أبى العلاء المعرى :

تحية كسرى فى السَّناء وتبّع   لربعك لا أرضى تحيـة أربع

وكانت تحية كسرى السجود له ، أما تحية ملوك العرب من لخم وجذام ، فكانت : « أبيت اللعن » ، ويقول ابن قتيبة فى « المعارف » : إن قحطان أول من حياه ولده بتحية الملوك : « أبيت اللعن » . وكانت تحية ملوك غسان : « ياخير الفتيان » . وانظر لسان العرب « كفر » ، تاريخ الطبرى ١٦١/٢ ، شروح سقط الزند (البطليوسى) ص ١٠٢٨ ، المعارف لابن قتيبة ص ٢٧١ ، خزانة الأدب ١٣٨/٤ ، ٤٣٢ ، ٢٩ ، « ما يعول عليه فى المضاف والمضاف إليه » للمحبى ٥٦١/١ (مخطوطة دار الكتب) .

(٢) يقتفر : يقتفى ، ويتتبّع .

كُلَفَه ، وثناء أنشر بيَدِ التُّرْكِ صُحُفَه ؛ وعَلَى ذلك أيُّها السّيد المالك ، فقد تَشَعَّبَت علىَّ فى مُخَاطَبَتك المَسَالك ؛ إن أخذتُ فى تقْرير فَخْرك العَمِيم ، وحَسَبك الصميم ، فَوَالله ما أدْرِى بأى ثَنِيَةٍ الفخْر يُرفَع العَلَم ، وَفى أىِّ بَحرٍ من ثَنائك يَسْبَحُ القَلَم ، الأمْر جَلَل ، « والشَّمسُ تَكْبُر عن حَلْىٍ وَعَن حُلَل » ، وإن أَخَذْتُ فى شَكاةِ الفِراق ، والاستعْدَاء على الأشْواق ، اتّسعَ المَجال ، وحَصِرت[1] الرَّوِيَةُ والارتجَال ، فالأوْلَى أن أَترِكَ عَذَبَةَ اللّسان تلعَب بها رياحُ الأشْواق ، وأَسَلَةَ[2] اليَرَاع تخضبُ مَفَارِق الطُّرُوس بنَجِيع الحِبْرِ المُرَاق ؛ وغيرُك من تُرْكَضُ فى مُخَاطَبته جِيَادُ اليَرَاع ، فى مَجَال الرِّقَاع ، مُسْتَوليَةً على أَمَدِ الإبداع والاخْتِراع ؛ إنّما هو بَثٌّ يُبْكَى ، وَفِراق يُشْكَى ، فيَعْلَمُ الله / حِرصِى عَلَى [٦١ب] أن أشَافِه عَن أنبائك ثُغُورَ البُروق البَواسِم ، وأن أحمّلَ الرَّسَائل حَتَّى مَعَ سُفَراء النَّوَاسِم ، وأن ، أجْتَلِىَ غُرَرَ ذَلِك الجَبين فى مُحَيَّا الشَّارِق[3] ، وَلَمْحِ البَارِق .

ولَقَد وجَّهتُ لَكَ جُمْلَةً من الكُتُب وَالقَصَائد ، وَلاَ كالقَصِيدة الفَرِيدة فى تَأْبِين الجَوَاهر التى اسْتَأْثَر بهنَّ البَحْر ؛ قَدَّس الله أروَاحَهم ، وأعظَم أجرك فيهمْ ؛ فإنها أنافَت على مائة وخَمسِين بَيْتاً ، وَلاَ أدْرِى هَلْ بَلَغَكم ذَلك أمْ غَالَهُ الضَّيَاع ، وَغَدَر وُصُولَه بُعدُ المَسافَة ؛ والذى يُطْرِق لى سُوء الظَّنّ بذَلك ، ما صَدَر فى مُقَابِلِه منكُم . فإنّى على علم من كَرَم قَصْدِكم ، وحُسْنِ عَهْدِكم .

---

[٢] ش ، ط : « تقرير فضلك » ، ط : « العميم ، ولسبك » .

---

(١) حصير : عيى .

(٢) أسلة اللسان : طرف شباته إلى مستدقه . وأسلة النصل : مستدقه .

(٣) الشارق : الشمس ؛ وبه فسر الأزهرى قولهم : « لا آتيك ماذر شارق » .

ومن حينَ استقلَّ نيِّرُكم بذلك الأفق الشرقىّ ، لم يصلنى منكم كتاب ، مع علمى بضَيَاع اثنين منها بهذا الأفُق الغَرْبى . انتهى .

وفى الكتاب إشارةٌ إلى أنّه بَعثَ قَصِيدةً فى مَدْح المَلِك الظّاهر صَاحِب مصر ، وَيَطلُب منّى رفعَها إلَى السُّلطان ، وعَرْضَها عَلَيْه بحسَب الأمكان ؛ وَهِى على رَوِىّ الهَمْزة ، ومطلعُها : ٥

أَمَدَامعٌ مُنهَلَّةٌ أَمْ لُؤلُؤٌ لمَّا استهلَّ العارضُ المُتلَألِئُ

وبعثَها فى طىّ الكتاب ، واعتَذَر بأنه استنَاب فى نَسْخِها ، فكُتِبَتْ همزَةُ رَوِيِّها ألفا ، قال وحقُّها أن تُكتَب بالوَاو ، لأنَّها تُبدَل بالوَاو ، وتُسَهَّل بيْنَ الهَمْزَة والوَاو ، وحَرفُ الإطلاق أيضاً يسُوغُها وَاوا . هَـذا مُقتَضَى الصّناعة ، وإن قال بعضُ الشُّيوخ تُكتَبُ ألفاً على كل حال ، على لُغَة من لاَ يُسَهِّل ، لكنَّه ليس بشىء . ١٠

وأذِن لِى فى نَسخ القَصِيدة المذكورة بالخطِّ المَشْرِقىّ لِتَسْهُل قِرَاءتُها علَيْهم ففَعَلت ذلك ، ورفَعتُ النسخةَ والأصلَ للسلطان ، وقرَأَها كاتبُ سرِّه عليه ، ولم يَرْجع إلىَّ منْهُما شىء ، وَلَم أستجِز أن أنسَخَها قبلَ رفْعها إلى السُّلطان ، فضَاعت من يَدِى . ١٥

وكان فى الكتاب فصلٌ عرَّفنى فيه بشأن الوزير مَسْعود بن رَحُّو المستَبدّ بأمر المَغْرِب لذلك العهد ، وما جَاء به من الانتقاض عليهم ، والكُفران لصَنيعهم ، يقول فيه :

كان مَسعود بن رَحُّو الذى أقام بالأندلس عِشرين عاماً يَتَبَنَّك النّعيم (١) ،

---

[١٦] ش : « متبنك النعيم »

---

(١) تبنّك فى النعيم : أقام به ، وتمكن .

ويقودُ الدُّنيا ، ويتخيَّرُ العَيْشَ والجاه ، قَدْ أُجيز صُحْبَةَ ولَدِ أبي عنان ، كما تعرَّفتم من نُسْخَةِ كتابٍ أنشأتُه بجبَل الفَتح لأهل الحضْرة ، فاستَولى على المَمْلَكة ، وحصَل على الدنيا ، وانفرد برياسة دار المغرب ، لضعف السُّلطان رَحمَه الله ؛ ولم يكن إلَّا أن كُفِرت الحُقوق ، وحُنْظِلَت[1] نَخلته السَّحُوق[2] ؛

٥ وشَفَّ[3] على سَوادِ / جِلْدَته العُقوق[4] ؛ وداخَلَ مَن بِسَبْتَة ، فانتقَضت طاعةُ [١٦٢ أ] أهلها ، وظنُّوا أن القَصَبَة لا تَثْبُت لهم ؛ وكان قائدُها الشَّيخُ البُهْمَة ، فَلُّ الحِصَار وحَلْي القِتَال ، وَمحَشُّ الحرْب ، أبوزكرياء بْن شعيب ، فثبت للصَّدْمَة ، ونَوَّرَ للأندلس[5] فبادَره المَدَدُ من الجبَل ، ومن مالَقَة ، وتَوالت الأمداد ، وخافَ أهلُ البَلَد ، وراجَع شُرفاؤه ، ودَخلوا القَصَبَة ، واستغاثَ أهلُ البلَد بمن جاورَهم

١٠ وجاءهم المَدد أيضا ، ثم دَخَل الصَّالحون في رَغْبة هَذا المقام ، ورفَع القِتال ، وفي أثناء ذَلك غَدَروا ثانية ، فاستَدعى الحالُ إجازَة السُّلطان المخلوع أبي العبَّاس[6] لِتُبادَر القَصَبةُ به ، ويتَوجَّهَ منها إلى المَغْرب ، لرغْبَة [بني][7] مَرِينَ وغيرِهم فيه ، وهو وَلَد السلطان المَرحُوم أبي سَالم الذي قَلَّدَكُم رياسَةَ دارِه ، وأوجَبَ لكم المَزِيةَ على أوليائه وأنصارِه انتهى .

١٥ وبعدَه فصلٌ آخرُ يطلبُ فيه كُتباً من مصر يقول فيه :

والمرغوب من سَيدي أن يبعثَ لي ما أمكن من كلام فُضلاء الوقت

---

(١) حظلت النخلة : فسدت أصول سعفها . وفي الأصول « حنظلت » ، وهي لغة أنكرتها جهرتهم . وانظر تاج العروس « حنظل » ٣٩٢/٧ ، ٣٩٣ .

(٢) نخلة سحوق : طويلة .

(٣) شف : وضح وظهر .

(٤) انظر خبر تمرده على ابن الأحمر في الاستقصا ١٣٨/٢ وما بعدها .

(٥) نوّر : أضاء ؛ ويريد أوقد نار الاستغاثة ، وطلب النجدة .

(٦) هو السلطان أبو العباس بن أبي سالم . وانظر أسباب خلعه ، وعودته إلى الملك في العبر ٣٤٩/٧ — ٣٥٤ ، الاستقصا ١٣٩/٢ .

(٧) الزيادة عن ش .

وأشياخِهم على « الفاتحة » ، إذ لا يمكن بَثُّ تفسيرٍ كاملٍ ؛ لأنِّى أثبت فى تفسيرها ما أرجُو النَّفعَ به عندَ الله ، وقد أعلمتُكم أن عنـدِى التفسيرَ الذى أوصَلَه إلى المَغرب عثمانُ التجّانى من تأليف الطيِّبى (١) ، والسِّفْرَ الأولَ من تفسير أبى حيَّان (٢) ، ومُلَخَّصَ إعرابه (٣) ، وكتابَ المُغنى لابن هشام (٤) وسمعتُ عن بَدْأَةِ تفسيرٍ للإمَامِ بَهاءِ الدِّين بن عَقِيل (٥) ، ووصَلَتْ إليَّ بَدْأَةٌ من كلام ٥

---

(١) الحسين بن محمد (أو عبد الله) بن عبد الله شرف الدين الطيبى (— ٧٤٣) له حاشية قيمة على « الكشاف » فى أربع مجلدات ضخمة (من مخطوطات دار الكتب) ؛ وجاء فى الدرر الكامنة : « ثم شرع فى جمع كتاب فى التفسير » . فلا ندرى أى الكتابين يطلب ابن زمرك .

ترجمة الطيبى فى : الدرر الكامنة ٦٨/٢ ، بغية الوعاة ص٢٢٨ ، البدر الطالع ٢٢٩/١ ، شذرت الذهب ١٣٧/٦ .

(٢) أثير الدين محمد بن يوسف بن على بن يوسف النحوى الغرناطى (٦٥٤ — ٧٤٥) ، دخل مصر ودرس بها النحو والتفسير ، فكان فى طليعة من وطّد قواعد المدرسة النحوية الأندلسية بمصر . ومن قرأ كتبه فى النحو عامة ، ومقدمة تفسيره « البحر المحيط » خاصة ، عرف أيَّ مكانة عليا كان يحتلها بين نحاة العربية ؛ تحدث عن نفسه كثيرا فى أول « البحر » الذى طبع بمصر فى ٨ مجلدات سنة ١٣٢٨هـ على نفقة سلطان المغرب الأقصى سابقاً المرحوم المولى عبد الحفيظ . وانظر ترجمته فى طبقات السبكى ٣١/٦ ، البغية ص١٢١ ، الدرر الكامنة ٣٠٢/٤ ، نفح الطيب بولاق ٥٩٨/١ .

(٣) لخص إعراب « البحر المحيط » شخصان ، كلاهما كان تلميذاً لأبى حيان ؛ أحدهما برهان الدين السفاقصى [له ترجمة فى نيل الابتهاج ص ٣٩] وسمى كتابه « المجيد ، فى إعراب القرآن المجيد » . والثانى منهما : شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبى الشافعى الشهير بالسمين [له ترجمة فى البغية ص ١٧٥ والدرر الكامنة ٣٣٩/١] ، وسمّى كتابه « الدر المصون فى علم الكتاب المكنون » ، وهما من مخطوطات دار الكتب .

(٤) جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصارى [٧٠٨ — ٧٦١] النحوى المصرى الطائر الصيت . وفيه وردت كلمة ابن خلدون : « مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه » له ترجمة فى البغية ص ٢٩٣ ، الدرر الكامنة ٣٠٨/٢ ، ابن تغرى بردى ٧٣/٦ ، البدر الطالع ٤٠٠/١ — ٤٠٢ ، حسن المحاضرة ٣٠٩/١ . وقد طبع كتابه القيم « المغنى » مراراً . وانظر كلمة لابن خلدون عن كتاب « المغنى » فى « مقدمته » فى آخر فصل « النحو » منها .

(٥) عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله ... بن عقيل القرشى الهاشمى (٦٩٨ — ٧٦٩) بهاء الدين النحوى المعروف . من تآليفه تفسير القرآن ، وصل فيه إلى آخر سورة « آل عمران » . له ترجمة فى الدرر الكامنة ٢٦٦/٢ ، درة الحجال لابن القاضى ٣٤٧/٢ — ٣٤٨ ، حسن المحاضرة ٣١٠/١ ، بغية الوعاة ص ٢٨٤ .

أكمل الدِّين الأثيرى[1] رضى الله عن جميعهم ، ولكن لم يَصل إلّا لِلبَسْملة ، وذكر أبو حيّان فى صدر تفسيره أن شيخه سليمان النقيب[2] ، أو أبو سليمان . لا أدرى الآن ، صنّف كتابا فى البَيان فى سِفْرَين ، جَعَلَهُ مُقَدِّمَةً فى كتاب تفسيره الكبير ، فإن أمكن سيِّدى توجيهُه . انتهى .

٥ وَفى الكتاب فُصولٌ أخرَى فى أغراضٍ متعدِّدة لا حاجةَ إلى ذكرها هُنا . ثم خَتَمَ الكتاب بالسَّلام ، وكَتَبَ اسمَهَ : محمد بن يوسُف بن زَمْرَك[3] الصَّريحى ، وتاريخه العشرون من مُحرَّمٍ تِسعٍ وثمانين .

وكتب إلىَّ قاضى الجماعة بغَرناطة ؛ أبو الحسَن علىُّ بن الحسن البُنِّى[4] :

الحمد لله ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيدنا ومولانا محمد رسُول الله .

١٠ ياسيِّدى ووَاحِدى وُدًّا وحُبًّا ، ومُجِىَّ الرُّوح بُعدًا وقربا . أبقاكم الله وثوبُ سيادتكم سَابِغ ، وقَمَرُ سَعَادتكم — كلَّما أفَلَت الأقمارُ — بازِغ ، / أُسلِّمُ بأتَمِّ [٦٢ب] السَّلام عليكم ، وأُقرِّر بعضَ ما لدىَّ من الأشواق إليكم ، مِن حضرةِ غَرناطة — مَهَّدها الله — ، عن ذكرٍ لكم يَتَضوَّع طيبُه ، وشُكرٍ لا يَذوِى — وإن طال الزَّمانُ — رَطيبُه ، وقد كان بلغَ ما جرَى من تأخيركم عن الولاية التى تقلّدتم

[١] ش : « أكمل الدين الأبيرى » .

(١) لعله أكمل الدين محمد بن محمود [أو محمد] البابرتى الحنفى المتوفى سنة ٧٨٦ ، له حاشية على « الكشاف » ، توجد فى مكتبة (داماد زاده تحت رقم ٢٧٠) . والملاحظ أن الذين عرفوا به لم يصفوه جميعاً بـ « الأثيرى » . وانظر حسن المحاضرة ٢٢٣/١ ، خطط المقريزى ١١٣/٤ طبع مصر ، الدرر الكامنة ٢٥٠/٤ .

(٢) هو جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحسين بن الحسين المقدسى الحنفى عرف بابن النقيب (٦١١ — ٦٩٨) . أخذ عنه أبو حيان ، واعتمد عليه كثيراً فى تفسيره ، وانظر البحر المحيط ٦/١ ، ١١ . حيث تجد الحديث عنه ، وعن تفسيره القيم . له ترجمة فى طبقات المفسرين للداودى ورقة ٧٥ — ٧٦ (نسخة أسعد أفندى) .

(٣) ضبطه ابن خلدون هنا بالحركات ، بفتح الزاى والميم ، وسكون الراء وقد تقدم الضبط الذى رجحناه لهذا العلم فى ص ٢٢٦ .

(٤) ضبطه ابن خلدون بالحركات فى « طب » بضم الباء ، وبكسرها . وهو نسبة إلى « بنة » وقد ذكرها ياقوت ٢٩٤/١ ، وصاحب تاج العروس ، (بن) ولم يذكرا فيها ضم الباء .

أمرَهَا ، وتحمّلتم مُرَّها ، فتمثّلتُ بما قاله شَيْخُنا أبو الحسَن ابن الجيّاب[١] ، عند انفِصال صَاحِبه الشّريف أبى القاسم[٢] عن خُطّة القضَاء :

لاَ مرحباً بالنّاشزِ الفَارِكِ   إذ جَهلَت رفعةَ مقدارِكِ
لَو أنّها قد أوتِيتْ رُشْدَهَا   ما بَرِحت تَعْشُو إلى نارِكِ[٣]

ثم تعرّفتُ كيفية انفِصالكم ، وأنه كان عن رغبةٍ من السلطان المؤيّد ٥ هنالِكُم ، فردّدْتُ — وقد توهّمت مُشاهدتكم — هذه الأبيات[٤] :

لك الله يا بدر السّماحة والبِشر   لَقد حُزْتَ فى الأحكام مَنزلَة الفَخْرِ

* * *

ولكنّك استعْفَيتَ عنها تورّعاً   وتلك سبيلُ الصّالحين كما تَدرِى

١٠ * * *

جريتَ على نَهج السّلَامة فى الذِى   تخيّرتَه أبْشِر بأمنِك فى الحشْرِ

* * *

---

[٧] نفح الطيب :
« . . . . . . والبشر   نشرت بأعلى رتبة راية الفخر »
[١١] فى « المرقبة العليا » ، نفح : « فابشر بأمنك » .

---

(١) هو أبو الحسن على بن محمد بن سليمان بن على بن سليمان الغرناطى الشهير بابن الجياب (٦٧٣ — ٧٤٩) . له ترجمة واسعة فى نفح الطيب ٣/٢٢٦ — ٢٤٥ ، ٢٦٤ — ٢٦٥ طبع بولاق .

(٢) هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الحسنى السبتى المعروف بالشريف الغرناطى (٦٩٨ — ٧٦٠) له ترجمة فى « المرقبة العليا » ١٧١ — ١٧٧ ، « الإحاطة » ٢/١٢٩ ، « ديباج » ٢٩٠ .

(٣) انظر « رفع الحجب المستورة » ١/١٨ للشريف الغرناطى هذا حيث أورد البيتين ضمن أبيات أخر ، والإحاطة ٢/١٢٠ .

(٤) الأبيات من قصيدة لأبى الحسن النباهى ، أوردها فى كتابه « المرقبة العليا » ص ١٥٨ وما بعدها . وفى نفح الطيب ٣/٢٠٣ بولاق ، يختلف المروى منها عما فى « المرقبة العليا » .

وحَقّق بأن العِـلم ولاَّك خطَّةً ... من العِزّ لا تنفكُّ عنها مَدَى العُمْرِ

تَزيدُ على مَرّ الجديدَيْنِ جِـدَّةً ... وتَسْرِى النُّجُوم الزَّاهِراتُ ولاَ تَسْرِى

ومَن لاَحظَ الأحْوالَ وازَنَ بينَها ... ولم يَرَ للدُّنيا الدَّنيـة من خَطَرِ

وأمسَى لأنواعِ الوِلايات نابذاً ... فغيرُ نَكِيرٍ أن تُوَاجَه بالنُّكْرِ

٥ فَيَهْنيكَ يَهْنيكَ الذى أنتَ أهـلُه ... من الزُّهْد فيها والتَّوَقِّى من الوِزْرِ

ولا تكتَرِثْ من حاسِديك فإنَّهُمْ ... حَصًى والحَصَى لا يَرْتقِى مُرْتَقى البَدْرِ

ومَن عَامَـل الأقوامَ بالله مُخْلِصًا ... له منهُم نال الجـزيلَ من الأَجرِ

بَقيتَ لرَبْع الفَضْل تَحمِى ذِمارَهُ ... وَخَارَ لك الرَّحْمنُ فى كُلّ ما تُجْرِى

إيهٍ سَيدى رَضى الله عنكم وأرضاكم ، وأطنَبْتُمْ فى كِتَابِكم فى الثناء على
١٠ السُّلطان الذى أنعمَ بالإبقاء ، والمسَاعدة على الانفصال عن خُطَّة القَضَاء ،
واستَوْهَبتُمُ الدُّعَاء له مِمَّن هُنا من الأولياء ، ولله دَرُّكم فى التَّنْبيه على الإرشاد
إلى ذلكم ، فالدُّعاء له من الوَاجب ، إذ فيه استقَامة الأمور ، وصَلاَح الخاصَّة
والجُمْهور ، وعنـدَ ذلك ارتفعت أصواتُ العُلَمَاء والصُّلحاء بهذا القُطْر له ولَـكم
بجَميل الدُّعاء / . أجابَ الله فيكم أحسَنَه وأجمَله ، وبَلَّغ كُلّ واحدٍ منكم ما قَصَدَه [١٦٣]
١٥ وأمَّله . وأنتم أيضاً من أنتُم من أهل العِلم والجَلالة ، والفضل والأصالة ، وقد
بلغتم بهذه البلادِ الغايةَ من التَّنويه ، والحظَّ الشَّريف النَّبيه ؛ لـكن أراد الله
سبحانه أن يكون لمحاسنكم فى تلك البـلاد المعظَّمة ظهور ، وتَحدُثُ بعد الأمور

---

[١] للرقبة : « وحقّق بأن الدين » [٣] طپ : « الدنية من قدر » [٤] المرقبة : « لأنواع الولاية » [٦] المرقبة : « من تاركيك » ، طپ ، نفح : «مرتقى الدر» [٨] للرقبة : « الفضل تحمي رسومه » طپ ، المرقبة : « فى كل مايجرى » [٩] ش : « وأرضاكم ، أطنبتم » [١٢] طپ : «إلى ذلكم ، والدعاء» [١٣] طپ : «ارتفعت الأصوات من العلماء والصلحاء» [١٤] ش : « أجاب الله لكم فيه أحسنه » .

أمور ؛ و بكل اعتبارٍ ، فالزّمان بكم — حَيثُ كنتُم — مباه ، والمحامدُ مجموعةٌ لـكم جمعَ تَناه . ولما وقف على مَـكتوبكم إلىَ مَولانا السُّلطان أبوعَبدِ الله ، أطال الثّناء على مقَاصِدِكم ، وتحقّق صحيحَ ودَادكم ، وجَميل اعتقادِكم ، وعَمَرَ مَجلِسَه يومئذ بالثّناء عليكم ، والشكرِ لما لديكم .

٥ ثم ختَم الـكتابَ بالسَّلام من كاَتبه علىّ بنِ عبـد الله بن الحَسَن مؤرّخاً بصَفَرِ تسْمين .

وفى طيِّه مُدْرَجَةٌ بخطه [وقَد قصَّر فيها عَن الإجَادة] نَصُّها :

سيدى رضى الله عنـكم وأرضاكم ، وأظفرَ عِناكم بذَوائب مُناكم .

أعتذر لـكم عن الـكِتاب المدْرَج هَذا طيَّه بغَيْرِ خطى ، فإنى فى الوَقْت ١٠ بحالِ مَرَض من عَينىّ ، ولـكم العَافيَة الوَاقية ، فيَسَعُنى سَمْحُـكم ؛ وربما أن لديكم تشوفاً لمـا نَزَلَ فى هـذه المُدَّة بالمغْرب من الهرْج حاطه الله ، وأمَّنَ جميعَ بلاد المسلمين .

والموجِب أن الحصَّـة الموجهة لتلك البِلادِ فى خِدمةِ أميرهم الوَاثق ، ظهر له ولوزيره ومن ساعده على رأيه إمسـاكُها رهينة ، وجعْلُهم فى القيود إلى أن يقعَ ١٥ الخروجُ لهم عن مدنية سَبتة ، وكان القائد على هذه الحصَّة العِلج المسمَّى مهنَّد ، وصاحبُه الفتى المدعو نَصْر الله ، وكثُر التَّردُّد فى القضية ، إلى أن أبرز القَدَرُ توجيهَ السلطان أبى العبَّاسِ — تولاَّه الله — صحبةَ فرَج بن رِضْوان بحصَّة ثانية ، وكان مَا كان ، حسبما تلقيتم من الركبان ، هذا ما وَسِـع الوَقْت من الـكلام . ثم دعَا ، وخَتَم .

---

[٧] فى الأصلين : « مدوجة بخطه نصها » ، ش : « مدوجة ، وقد ظهر فيها غرر الإجادة » . ولعله تصحيف عن المثبت ، وهو عن الظاهرى .

وإنما كتبتُ هذه الأخبار وإن كانت خارجة عن غَرض هـذا التَّعريف بالمؤلِّف، لأنَّ فيها تحقيقاً لهذه الواقعات، وهى مذكورةٌ فى أمَّا كنها من الـكتاب، فربَّما يحتاج الناظر إلى تحقيقها من هَذا الموضع .

وبعدَ قَضَاء الفريضة، رجعتُ إلى القاهرة محفُوفاً بستر الله ولُطفه، ولقيتُ السلطانَ ، فتلقَّانى — أيَّده الله — بمعهودِ مَبَرَّته وعِنايته . وكانت فتنةُ ٥ النَّاصِرى[١] بعدها سَنَةَ إحدى وتسعين ، ولحقَت السلطانَ النكبةُ التى محصَهُ الله فيها وأقاله / ، وَجَعَلَ إلى الخير فيها عاقبتَه ومآلَه ؛ ثم أعاده إلى كرسيه للنظر [٦٣ب] فى مصَالح عباده ، فطوَّقه القِلادة التى ألبَسـه كما كانت ، فأعاد لِى ما كان أجراهُ من نِعْمته ، ولزمتُ كِسْر البيتِ ممتَّعاً بالعافية ، لابساً بُرْد العُزْلة ، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه ، لهذا العهد فاتح سبع وتسعين[٢] . ١٠

---

[٨] فى الظاهرى ، ش : « عباده ، وطوَّقه » .

---

(١) يأتى حديثه مفصلا عن فتنة الناصرى هذه فيا بعد .

(٢) هنا تنتهى النسخ : الظاهرى ، ش ، ط ، ز ، ونسخة نور عثمانية . وقد اختلفت عبارة « الختم » فيها ، وسنذكرها عند الحديث عن هذه النسخ ، وتقديرها والمقارنة بينها .

ولاية الدُّروس والخَوَانق

أهل هـذه الدَّولة التركية بمصر والشام مَعْنيُّون — عَلَى القِدَم مُنذُ عَهْدِ مَواليهم مُلوكِ بَنى أيُّوب — بإنشاء المدَارس لتدريس العِلم ، والخَوانق لإقامة رُسُوم الفُقراء فى التَّخَلُّق بآداب الصُّوفية السُّنِّيَّة فى مُطارحة الأذكار ، ونَوافِلِ الصَّلوات ، أخَـذُوا ذلك عَمَّن قَبلَهم من الدُّول الخِلافية ؛ فيَختَطُّون مَبانيَها ٥ ويَقِفُون الأراضِيَ المُغِلَّةَ للإنفاق مِنها عَلَى طَلَبَة العِلْم ، ومُتَدَرِّبى الفُقَرَاء ، وإن استفضَل الرَّيْعُ شيئاً عن ذلك ، جعلوه فى أعقَابهم خَوفاً على الذُّرِّيَّة الضِّعاف من العَيْلة[1] . وَاقتَدَى بِسُنَّتِهم فى ذلك مَن تَحتَ أيديهم من أهل الرِّيَاسَـة والثَّروة ، فـكَثُرت لذلك المدارسُ والخوانقُ بمدينة القاهرة ، وأصبَحت مَعاشاً للفُقَراء من الفُقهاء والصوفية ، وَكان ذلك مِن محاسِن هذه الدَّولة التُّركية ، وآثارها ١٠ الجَميلة الخالدة[2] .

وكنتُ لأوَّل قُدُومى عَلَى القاهرة ، وحُصولى فى كَفَالَة السُّلطان ، شَغَرَتْ مَدرَسَةٌ بمصْر من إنشاء صَلاح الدين ابن أيُّوب ، وقَفَها عَلَى المالـكية يتَدارَسون بها الفقه ، ووَقَفَ عليها أراضِىَ مِن الفَيُّوم تُغِلُّ القَمْح ، فسُمِيت لذلك القَمْحِيَّة ؛ كما وقَفَ أُخرَى على الشَّافعية هنالك ؛ وتُوفِّى مُدَرِّسُها حينئذ ، فَوَلاَّنى السُّلطانُ ١٥ تَدْرِيسَها ، وأعقَبَه بولاَية قَضَاء المالـكية سَنةَ سِتٍّ وثَمانين[3] ، كما ذكرت

(١) العيلة (بفتح العين) : الفقر والفاقة .

(٢) تحدث ابن خلدون فى « المقدمة » (ص ٣٨٠ طبع بيروت) عن الأسباب التى كانت تحدو بأمراء الترك أن يكثروا من بناء المدارس والربط والخوانق فى القاهرة — بما يحسن الرجوع إليه .

(٣) فى « السلوك » (١١٠ ب نسخة الفاتح) سنة ٧٨٦ :

« وفى خامس عشرينه (المحرم) ، درس شيخنا أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون بالمدرسة القمحية بمصر ، عوضاً عن علم الدين البساطى بعد موته ، وحضر معه بها الأمير الطنبغا الجوبانى ، والأمير يونس الدوادار ، وقضاة الأربعة والأعيان » .

ذلك من قَبل ؛ وحَضَرَنِي يومَ جُلوسي للتَّدريس فيها جماعةٌ من أكابر الأمراء تنويهاً بذكرى ، وعنايةً من السُّلطان ومنهم بجانبي ؛ وخَطبتُ يومَ جلوسي في ذلك الحَفل بخُطبة أُلمتُ فيها بذكر القوم بما يُناسِبهم ، ويُوفي حَقَّهم ، وَوَصَفت المَقَام ، وكان نَصُّها :

٥ الحمد لله الذي بدأ بالنِّعَم قبلَ سُؤالها ، ووفَّق مَن هَداه للشُّكر على مَنَالِها ، وجعَل جزاء المُحْسِنين في مَحبَّته ، ففازوا بعَظيم نَوالها ؛ وعَلَّمَ الإنسانَ الأسماءَ والبَيان ، وما لَمْ يَعلَمْ من أمثالها ؛ ومَيَّزه بالعقل الذي فَضَّله على أصناف الموجُودات وأَجْيالها ، وهَدَاه لقَبول أمانةِ التَّكليف ؛ وحَمَّل أثقَالها ؛ وخَلَق الجِنَّ والإنسَ للعِبَادة ، ففازَ مِنهُم بالسَّعادة مَنْ جَدَّ في امتثَالها ؛ ويَسَّر كُلاًّ لِما خُلِق لَه[1] ، ١٠ من هِداية نَفْسِه أو إضلالها ؛ وفرَغ ربُّك من خَلْقها وخُلُقها وأَرْزاقها وآجالها . والصَّلاةُ على سَيدنا ومولانا محمد نُكْتَةِ الأكوان وجَمالها ، والحُجَّة البالغة لله عَلَى كَمالها ، الذي رَقَّاه في أطوار الاصْطفاء ، وآدمُ بينَ الطِّين والماء ، فجاء خاتَمَ أنبيَائها وأَرْسَالها[2] ؛ ونَسَخَ المِلَل بشَريعته البَيْضاء / فتَميَّزَ حَرامُها من حَلاَلها ؛ [١٦٤] ورَضِيَ لنا الإسلامَ دِينا ، فأَتَمَّ علينا النِّعْمَةَ بإكمالها[3] .

١٥ وَالرِّضَى عن آلِه وأصحابه غُيوثِ رَحمته المُنْسَجِمة وطِلالها[4] ، ولُيوثِ

[٢] في الأصلين : « تنيها بذكرى » ، ولعله تحريف عما أثبت . [٢ ، ٣] طب : « وخطبت في ذلك الحفل » .

(١) يشير إلى الحديث : « كل ميسر لما خلق له » ، الذي رواه الإمام أحمد في مسنده » ، وانظر « كنوز الحقائق » للمناوي .

(٢) ورد في كلام كثير من علماء المغرب والأندلس ، جمع رسول على « أرسال » . ولم يرد في معاجم اللغة هذا الجمع .

(٣) يشير إلى الآية ٣ من سورة المائدة : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

(٤) الطلال جمع طلل ؛ وهو أخف المطر .

مَلاَحِمِه[١] المشتَهِرة وأبطالها ، وخَيرِ أُمةٍ أُخرجَت للنَّاس ، فِي توسُّطِها واعتِدالها ، وظُهُور الهِدَاية وَالاستقامة فى أحوالها . صَلَّى الله عليه وعليهم صلاةً تتَّصل الخيراتُ باتِّصالها ، وتُنـال البَركاتُ من خِلالها .

أمَّا بعدُ فإنَّ الله سبحانَه لما أقرَّ هذِه المِلَّةَ الإسلاَمية فى نِصابها ، وشفَاها مِن أَدْوَائها وأوصَابِها[٢] ، وأورثَ الأرضَ عبـادَه الصَّالحين من أيدى غُصَّابِهَا ، بَعْدَ أن بَاهَلَت فارسُ بتَاجها ، وعِصَابِها[٣] ، وخَلَت الرُّومُ إلى تمَاثِيلها وأنْصَابها ؛ وجَعَلَ لهـا مِن العُلماءِ حَفَظَةً وقُوَّاما ، ونُجومًا يَهتَدِى بها التَّابِعُ وأعْلاما ، يُقَرِّبُونها لِلدِّراية تبيَانًا وإفْهاما ، ويُوسِعُونها بالتَّـدْوين تَرْتيباً وَإحكاما ، وتَهْـذيبًا لأصولها وفُروعها ونِظاما ؛ ثُمَّ اختَار لهـا المُلوك يرْفَعون عَمَدَها ، ويُقِيمُون صَغَاها[٤] بإقامة السِّياسَـة وأَوَدَها ، ويَدْفَعُون بعَزَائمهم الماضِية فى صَدْر من أرادَهَا بكَيادٍ أو قَصَدَها ؛ فكان لهَا بالعُلماء الظُّهورُ والانتِشار ، والذِّكْرُ السَّيَّار ، والبَركاتُ الخـالِدَة والآثار ؛ ولَها بالمُلوك العِزُّ والفخَار ، والصَّوْلَة التى يَلِينُ لهَا الجبَّار ، ويَذِلُّ لِعزَّة المؤمنينَ بِها الـكُفَّار ، ويُجَلِّل وُجوهَ الشِّرك مَعَها الصَّغَار ؛ ولمَ تَزَل الأجيالُ تتَداول على ذَلك والأعْصار ، والدُّولُ تختَفل والأمْصَار ، واللَّيل يختَلِف والنَّهار ، حتى أظَلَّت الإسْلاَمَ دُوَلُ هـذه العِصابَة المَنْصُورة من التُّرْك ، المَاحِين بأنوار أسِنَّتِهم ظُـلَمَ الضَّلاَلة والشَّكِّ ، القَاطِعِين بِنِصَالهم المرْهَفَة عَلائقَ المَيْن والإفْك ، المُصِيبين بِسهَامِهم النَّافِذة

(١) الملاحم جمع ملحمة ؛ وهى الوقعة العظيمة القتل ، وموضع القتال ، والحرب .

(٢) الوصب : الوجع ، والمرض ؛ والجمع أوصاب .

(٣) العصاب : ما يعصب به الرأس من عمامة أو نحوها .

(٤) الصَّغَا : الميل .

ثَغر الجَهالة والشِّرْك ، المُظهِرين سِرَّ قوله : « لا تَزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتى »(١)
فيما يتناولونَه من الأخذ والتَّرك ؛ فَفَسحَوا خِطَّة الإسلام ، وقاموا بالدَّعوة الخلافية
أحسَنَ القيام ، وبَثُّوها فى أقصَى التُّخُوم من الحِجاز والشَّام ، واعتَمَدُوا فى خِدمة
الحرَمَيْن الشَّريفَيْن مَا فَضلُوا به مُلوكَ الأنام ، وافتَعَدوا كُرسِىَّ مِصرَ التى
٥ أَلقَتْ لَه الأقاليمُ يدَ الاستِسلام ، على قِدَم الأيَّام ؛ فزخَر بها منذ دوْلتِهم بَحْرُ
العُمران ، وتجاوَبت فيهـا المدارسُ بتَرْجيع المَثانِى والقرْآن ، وعُمِّرت المساجِدُ
بالصَّلوات والأذان ، تُكاثِرُ عددَ الحَصَى والشُّهبان ، وقامت المآذِن عَلَى قدم
الاستِغفار والسُّبْحان(٢) مُعْلِنَةً بشِعَارِ الإيمان ، وازدَانَ جوُّهَا بالقَصر فالقَصرِ
والإيوَانِ فالإيوان ، ونُظِّمَ دَسْتُها بالعَزيز ، والظَّاهِر ، والأمير ، والسُّلطان ؛
١٠ فما شئتَ من مَلِكٍ يخفُقُ العِزُّ فى أعلامه ، وتَتوَقَّد فى لَيْـل المَوَاكب نيرانُ
الـكَواكِبِ مِن أسِنَّتِه وسِهامه ؛ ومن أُسرةِ العُلَماء تتَناوَلُ العِلْمَ بوَعْد الصَّادق
ولو تعلَّق بأعْنَانِ السَّماء(٣) ، وتُنير سِرَاجَه فى جَـوَانب الشُّبْهَة المُدْلَهِمَّة
الظَّلْمَاء ؛ / ومِن قُضَاةٍ يُبَاهُون بالعِلم والسُّؤْدُدِ عِنـدَ الانتِماء ، ويَشْتَملون [٦٤ب]
الفَضَائل وَالمنَاقِبَ اشتِمَالَ الصَّمَّاء(٤) ، ويَفْصِلون الخصُوماتِ برأى يفرق بينَ
١٥ اللَّبَن والمـاء .

ولاَ كَدَولة السُّلطان الظَّاهِر ، والعَزيز القـاهِر ، يَعْسُوب(٥) العَصَائب

---

(١) حديث رواه البخارى فى آخر باب « علامة النبوة فى الإسلام » ، ومسلم فى بابى « الإمارة » ، و « الإيمان » ، وانظر شرح العينى على « صحيح » البخارى ٥٧٩/٧ ، وشرح النووى على « صحيح » مسلم ٥٥/١ ، ٢٠٦/٢ .

(٢) السبحان : التسبيح .

(٣) أعنان السماء : نواحيها ، وما اعترض من أقطارها .

(٤) اشتمال الصماء : أن تجلل جسدك بثوبك نحو شملة الأعراب بأكسيتهم ؛ وهى أن يرد الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى ، وعاتقه الأيسر ، ثم يرده ثانية من خلفه على يده اليمنى ، وعاتقه الأيمن فيغطيهما جميعاً .

(٥) اليعسوب : أمير النحل .

والجاهِر ، ومُطلِع أنواعِ العزِّ الباهِر ، ومُصَرِّف الكتائب تُزْرِى بالبَحْر الزَّاخِر ، وتَقُومُ بالحجة القِسِيِّ على الأَهلَّة فى الفَاخِر ؛ سَيفِ الله المُنتَضَى على العَدوّ الكافر ، ورحْمَته المتَكفِّلَة للعِبَاد باللُّطفِ السَّاتِر ، رَبِّ التِّيجَان والأَسِرَّة والمنَابر ، والأَوَاوِين العَالِيَة والقُصُور الأَزَاهِر ، والمُلْكِ المؤيَّد بالبِيض البَواتِر ، والرِّمَاح الشَّوَاجِر(١) ، والأقلام المرتَضِعَة أَخلافَ(٢) العزِّ فى مُهُودِ المحَابِر ، ٥ والفَيْض الرَّبانى الذى فاقَ قُدرةَ القادر ، وسبَقَت به العِنَايةُ للأَواخر ، سيِّدُ الملوك والسَّلاطين ، كافِلُ أمير المؤمنين ، أبو سَعِيد أمدَّه الله بالنَّصْر المُصاحِب ، والسَّعْد المؤازِر ، وعرَّفَهُ آثارَ عِنَايته فى الموَارد والمَصَادر ، وأرَاهُ حُسْنَ العَاقِبة فى الأُولَى وسُرُورَ المُنقَلَب فى الآخِر ؛ فإنه لما تَناوَل الأَمرَ بعزائمه وعَزْمِه ، وآوَى المُلْكَ إلى كَنَفِه العزيز وحَزْمِه ، أصَاب شَاكِلَةَ الرَّأى عِندَ ما سدَّد مِن ١٠ سَهْمِه ، وَأَوْقَع الرَّعايَا فى ظِلٍّ من أَمْنِه ، وَعَدْلٍ من حُكْمِه ، وقَسم البَأْسَ والجُودَ بَيْنَ حَرْبِه وسَلْمِه ؛ ثم أقَام دولتَه بالأُمَرَاءِ الذين اختَارَهم باختيار الله لأَرْكانها ، وشَدَّ بِهم أَزرَهُ فِى رَفْعِ القَواعِدِ من بُنْيَانها ؛ مِن بَيْنِ مُصَرِّفٍ لِعنَانِها ، متَقَدِّم القَدَم على أعيانها ، فى بِسَاط إِيوَانها ؛ وربِّ مَشورةٍ تُضىءُ جوانبُ الملكِ بِلمعَانِها ، ولا يَذهَبُ الصَّوابُ عَنْ مَكانها ؛ ومنفِّذ أحكامٍ ١٥ يُشرِق الحقُّ فى بَيانها ، ويَضُوع العدل من أردانها(٣) ونَجِىِّ خَلْوَةٍ(٤) فى المهم الأعظَم من شانهَا ؛ وصاحب قَلَمٍ يُفضى بالأَسْرار إلى الأَسَل الجَرَّار ، فيَشْفِى الغَليلَ بإعْلانها . حَفِظ الله جميعَهم وشَمِل بالسَّعادة والخيرات المبدأة المُعادة تابِعَهم ومَتْبُوعَهم .

---

(١) الشواجر من الرماح : المتداخلة حين القتال .

(٢) أخلاف الضرع : أطرافه . والكلام على التشبيه .

(٣) الأردان : الأكمام . وفى الكلام تجوز .

(٤) النجىّ الشخص الذى تسارّه ، وفلان نجى فلان ، أى يناجيه دون سواه .

ولمَّا سَبَحتُ فى اللُّجِّ الأَزرَق ، وخطَوْتُ من أفُق المغرب إلى أفق المشرِق ، حيث نَهْرُ النَّهار يَنصَبُّ من صَفحِهِ المُشْرق ، وشَجَرةُ الملك التى اعتزَّ بها الإسلامُ تَهتَزُّ فى دَوْحِه المُعْرِق ، وأزهارُ الفنون تَسقُط علينا من غُصْنه المُورِق ، ويَنابيعُ العُلوم وَالفَضَائل تُمِدّ وَشَلَنا[1] من فُرَاته المُغْدِق ؛ أَوْلَوْنى عِنَايةً وتَشريفا ، وَغَمَرونى إحساناً وَمَعْروفا ، وأَوسَعُوا بُهْمَتى[2] إيضاحا ، ونكرَتى تَعْرِيفا ؛ ثمَّ أَهَّلُونى للقيام بوظيفة السَّادة المالكية بهذا الوقف الشَّريف ، من حسَنات السلطان صَلاح الدّين أَيّوب مَلِكِ الجِلاد والجِهاد ، ومَاحِى آثار التَّثليث وَالرَّفْض الخبيث مِن البِلاد ، ومُطهِّر القُدس الشَّريف من رِجْس الكُفر بعدَ أن كانَت النَّواقيسُ والصُّلبانُ فيه بمكان العُقُود مِن الأَجْياد ؛ وصاحِب الأعمال المتقبَّلة / يَسْعَى نُورُها بين يَدَيْه فى يوم التَّناد[3] ؛ فأقامَنى السُّلطان [١٦٥ أ] — أيّده الله — لتَدريس العلم بهذا المكان ، لاَ تقدُّماً على الأعيان ، ولاَ رغبةً عن الفُضَلاء من أهل الشَّان ؛ وإنى موقِنٌ بالقُصور ، بين أهل العُصُور ، مُعتَرِف بالعجز عن المَضاء فى هذا الفَضاء ؛ وأنا أرغَب من أهل اليد البيضاء ، والمعارف المتَّسعة الفَضاء ، أن يَلْحَظوا بعين الارتِضاء ، ويَتَغَمَّدوا بالصَّفح والإغضاء ، والبضاعةُ بينهم مُزْجاة[4] ، والاعترافُ من اللَّوم — إن شاء الله — مَنْجَاة ، والحُسْنَى من الإخوان مُرتَجاة . والله تعالى يَرفع لمولانا السلطان فى مَدارج القَبول أعمالَه ، ويبلِّغُه فى الدَّارَين آمالَه ، ويجعلُ الحُسنَى والمَقرَّ الأَسْنى مُنقَلَبه ومآلَه ؛ ويُديمُ على السَّادة الأُمراء نعمتَه ، ويحفَظُ على المسْلِمين بانتظام

---

(١) الوشل : الماء القليل .

(٢) البهمة : السواد ، ويريد بها ما يقابل الوضوح .

(٣) يوم التناد : يوم ينادى « أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » . وانظر لسان العرب .

(٤) بضاعة مزجاة : قليلة .

الشَّمل دَولتَهم ودولَتَه ، ويُمِدُّ قُضَاةَ المسلمين وحُكَّامَهم بالعَوْن والتَّسْديد ، ويُمتِّعُنا بانفسَاح آجالهم إلى الأمد البَعيد ، ويَشْمَلُ الحاضرين برضوانه فى هذا اليوم السَّعيد ، بمَنِّه وكرمه .

وانفضَّ ذلك المجلس ، وقد شيَّعتنى العُيون بالتَّجِلَّة والوَقار ، وتَناجت النُّفوس بالأهْلية للمَناصب ؛ وأقمْت على الاشتغال بالعلم وتدريسه إلى أن سَخِط السلطانُ قاضىَ المالـكية يومئذ فى نَزْعة من النَّزَعات الملوكية ، فعَزله ، واستَدعانى للولاية فى مَجلسه ، وبينَ أمرائه ، فتَفاديتُ من ذلك ، وأبَى إلّا إمضاءه ، وخَلَع علىَّ ، وبَعث مَعى مَن أجلسَنى بمَقْعَد الحـكم فى المدرسَة الصَّالحية[1] فى رَجَبِ ستٍّ وثمانين ؛ فقُمت فى ذلك المقامَ المحْمُود ، ووفَّيتُ عَهدَ الله فى إقامة رُسُوم الحَقّ ، وتَحَرِّى المَعْدَلَة ، حتَّى سَخِطَنى مَن لم تُرْضِه أحكامُ الله ، ووَقَع من شَغَبِ أهل الباطل والمِرَاء ما تَقدَّم ذِكْرُه .

وكنتُ عنـد وصولى إلى مصر بَعَثتُ عن ولَدى من تُونس ، فمَنَعَهُم سلطانُ تُونس من اللَّحاق بى اغتِباطاً بمكانى ، فرغِبتُ من السُّلطان أن يشفعَ عِندَه فى شأنهم ، فأجاب ، وكتب إليْه بالشَّفاعة ، فركبوا البحر من تُونس فى السَّفين ، فمـا هو إلّا أن وصَلوا إلى مَرسَى الأسْـكندرية ، فعصفت بهم الرِّياح وغرِق المركَب بمَن فيـه ، وما فيه ، وذهَب الموجُود والمولُود ؛ فعظُم الأسَف ، واختَلَط الفِكر ، وأعفَانى السلطان مِن هذه الوظيفة وأراحَنى ، وفرغتُ لشأنى من الإشتغال بالعلم تَدْريساً وتأليفا .

ثم فرغ السلطان من اختطاط مَدْرسـتِه[2] بين القَصْرَين ، وجعَل فيهـا

(١) نسبة إلى بانيها الملك الصالح نجم الدين أيوب . وفى الخطط للمقريزى ٤/٢٠٩ — ٢١١ طبع مصر ، حديث واف عنها .

(٢) هى المدرسة الظاهرية ، وتسمى البرقوقية أيضاً . عهد فى بنائها إلى الأمير جهركس الخليلى ، فشرع فى بنائها سنة ٨٨٦ ، وأتمها سنة ٨٨٨ . وانظر حسن المحاضرة ١٦٣/٢ طبع الموسوعات بمصر سنة ١٣٢١ هـ .

مَدَافن أهله ، وعَيَّن لى فيها تدريسَ المالكية ، فأنشأتُ خُطبةً أقومُ بها فى يوم مُفْتَتَح التَّدريس على عَادتهم فى ذلك ونصُّها :

« الحمد لله الذى مَنَّ على عِباده ، بنعْمة خَلقِه و إيجاده ، وصَرَّفهم فى أطوار استعبادِه بيْنَ قَدَرِه / ومُرادِه ، وعَرَّفهم أسْرار توحيده ، فى مَظاهرِ وُجُوده ، [٦٥ب] وآثارَ لُطفِه فى وقائع عبـاده ، وعَرَضهم على أمانَةَ التَّكاليف ليَبْلُوَهم بِصَادق وَعْده و إيعَاده[١] ، ويَسَّر كُلاً لِما خُلِق لَه ، مِن هِدايته أو إضلالِه ، وغَيِّه أو رَشَادِه ، واسْتَخلَفَ الإنسانَ فى الأرض بَعد أن هَداهُ النَّجْدَيْن[٢] لصَلاَحِه أوْ فَسَادِه ، وعَلَّمه مَالَم يَكن يَعلَم ، من مَدارك سَمْعه وبَصَرِه والبيان عَمّا فى فؤاده ؛ وجَعَل منهم أنبياء وملوكاً يُجاهدون فى الله حَقَّ جهاده ، ويُثابِرون على مَرضَاته فى اعتمال العَدْلِ واعتِيادِه ؛ ورفَع البُيُوتَ المقدَّسَة بسُبُحَاتِ[٣] الذِّكر وأورَادِه .

والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَـيدنا ومَولانا محمَّدٍ سيِّد البشر مِن نَسْل آدمَ وأولادِه ، لا . بَل سيِّد الثَّقَلَيْن[٤] فى العالَم من إنسِه وجِنِّه وأرواحِه وأجسادِه ، لا . بل سـيِّد الملائكة والنَّبيئين ، الذى خَتَم [الله] كالَهم بكَماله وآمَادهم بآمادِه ، الذى شرَّف به الأكوانَ فأضاءت أرجاء العالَم لنور ولادِه ؛ وفَصَّل له الذِّكرَ الحكيمَ تَفْصيلا ، كذلك ليُثَبِّتَ من فؤادِه[٥] ، وألَقى على قَلبه الروحُ الأمينُ بتَنزيل رَبِّ العالَمين ، ليكونَ من المُنذِرِين لعبادِه[٦] ؛ فدعَا

(١) ينظر إلى الآية ٧٢ من سورة الأحزاب : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان » .

(٢) النجدان : طريق الخير ، وطريق الشر .

(٣) السبحات جمع سبحة ؛ وهى التطوع فى الذكر ، والصلاة .

(٤) الثقلان : الجن والإنس .

(٥) يشير إلى الآية ٣٢ من سورة الفرقان : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك » .

(٦) يشير كذلك إلى الآيتين ١٩٣ ، ١٩٤ من سورة الشعراء : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » .

إلى الله على بَصيرةٍ بِصادِقِ جِدَاله وجِلادِهِ[١] ، وأنزَلَ عليه النَّصرَ العزيز ، وكانت مَلائكةُ السَّماء مِن إمدادِه ، حتّى ظهر نورُ الله على رَغْم مَن رَغِمَ[٢] . بإطفائه وإخماده ، وكُمل الدينُ الحنيفُ فَلاَ تُخشَى والحمدُ لله غائلةُ انقطاعِه ولا نَفَادِه ؛ ثمّ أعدَّ له من الكرَامات ما أعَدَّ فى مَعَادِه ، وفضَّله بالمقَام المحمود فى عرَصَات القِيامة بَيْن أشهادِه ، وجَعَل له الشّفاعةَ فيمَن انتظَم فى أمّته ، واعتصَم بعَقَادِه .

والرِّضَى عن آله وأصحابه ، غُيوث رحْمته ، ولُيوث إنجاده ، مِن ذوِى رَحِمِه الطَّاهرة وَأهلِ وِدادِه ، المتزوِّدين بالتقْوَى مِن خَيْر أزوادِه ، والمُراغِمين بِسُيُوفهم مَن جاهَرَ بمُكابَرَة الحقّ وعِنادِه ، وأرادَ فى الدِّين بظُلمه وإلحاده ، حتّى استقام المِيَسَم[٣] فى دين الله وبِلادِه ، وانتَظَمت دعوةُ الإسلام أقطارَ العالَم ، وشُعوبَ الأنام ، مِن عَربِه ، وعَجمِه ، وفارسِه ، ورُومِه ، وتُركِه ، وأكرادِه . صَلّى الله عليه وعليهم صلاةً تُؤذِن باتّصال الخَيْر واعْتيادِه ، وتُؤهِّلُ لاقتناءِ الثّواب وزِيادِه ، وسَلَّمَ كثيرا ؛ وعَن الأئمّة الأربعة[٤] ، عُلماءِ السُّنّة المتَّبعة ، والفئة المجتبَاة المصْطَنَعة ؛ وعن إمامِنا من بَينهم الذى حَمَل الشريعةَ وبيَّنها ، وحرَّر مَقاصدَها الشريفَةَ وعيَّنها ، وتَعرَّض فى الآفاق منها والمَطالع ، بَيْنَ شُهُبِها اللَّوامع ، فزَيَّنها ، نُكتَةُ الهِداية إذاحُقِّقَ مَناطُها ، وشَرْطُ التَّحصيل والدِّراية إذا رُوعِيت أشراطُها ، [١٦٦] / وَقَصْدُ الرُّكابِ إذَا ضُرِبَت فى طلَبِ العلم آباطُها[٥] ؛ عالمُ المدينة ، وإمامُ

(١) الجلاد : الجهاد .

(٢) على رغم من رغم : من أساه ؛ والإشارة إلى الآية ٣٢ من سورة التوبة : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره » .

(٣) الميسم : الجمال .

(٤) هم المجتهدون أصحاب المذاهب الفقهية المشهورة : مالك ، والشافعى ، وأبو حنيفة ، وأحمد بن حنبل .

(٥) يشير إلى الحديث : « تضرب أكباد الإبل فى طلب العلم ، فلا يوجد عالم أعلم من عالم المدينة » ، وسيأتى له بعد .

هذه الأُمة الأَمينَة ، ومُقبِسُ أنوارِ النُّبُوَّة من مِشْكاتها المُبِينة ، الإمامُ مالكُ ابنُ أنَس . أَلْحَقَهُ الله بِرِضوانه ، وعَرَّفَنا بَركَةَ الاقتداء بهَدْيه وعِرْفَانه ؛ وعن سَلَف المؤمنين والمُهْتَدين ، وتابِعيهم بإحسان إلى يَوم الدِّين .

أما بعد فإن الخلْق عيالُ الله يكْنُفُهم بلُطْفه ورحمته ، ويكْفُلُهم بفضله ونعْمَته ، ويُيَسِّرهم لأسباب السَّعادة بآداب دينه وشرْعَته ، ويَحْملهم فى العِناية بأُمورهم ، وَالرِّعاية لِجُمْهُورهم ، عَلَى مَناهج سُنَّته ولَطائف حِكْمَته ، ولذلك اختار لَهُمُ الملوكَ الذين جبَلَهم على العَدْل وفطرته ، وهَدَاهم إلى التَّمَسُّك بِكَلِمَته ، ثم فَضلهم بمَا خَوّلَهم من سَعَة الرِّزق وبَسْطته ، واشتقاق التَّمكين فى الأَرض من قُدرته ، فَتسابقُوا بالخيْرات إلى جزائه ومَثُوبته ، وَذَهبوا بالدَّرجات العُلَى فى وُفور الأجْر ومَزِيّته .

وإنَّ مولانا السُّلطان المَلِك الظَّاهر ، العزيز القاهر ، العادل الطَّاهر ، القائم بأمُور الإسلام عندَ ما أعيا حَمْلُها الأكتَاد[1] ، وقُطْب دائِرة المُلْك الذى أطلَع اللهُ من حاشيته الأبدالَ[2] وأنبتَ الأوتاد[3] ، ومُنَفّق أسواق العزّ بما بَذَلَ فيها من جميل نَظَره المذْخُور والعَتاد ؛ رحمةُ الله الكاملةُ الخَلْق ، ويَداه المبسوطتَان بالأجَل والرِّزْق ، وظلُّه الوَاقى للعباد بما اكتنفهم من العَدْل والحقّ ، قَاصِمُ الجبَابرة ، والمعَفِّى على آثارِ الأعاظِم منَ القَياصِرة ، وذَوِى التِّيجَان من

(١) جمع كتد ؛ وهو مجمع الكتفين من الإنسان .

(٢) يورّى بالأبدال فى مصطلح الصوفية ، وهم أشخاص سبعة ، يسافرون بأرواحهم من مكان إلى آخر ، ويتركون جسدهم فى موضعهم الأول ، بحيث لا يحس أحد بسفرهم . عن « تعريفات » الجرجانى ص ٢٧ ، و « تعريفات » ابن العربى ص ٢ .

(٣) والأوتاد عند الصوفية أيضاً : عبارة عن أربعة رجال ، منازلهم على منازل الأربعة الأركان من العالم : الشرق ، والغرب ، والشمال ، والجنوب ؛ كل واحد منهم مقامه فى تلك الجهة . عن الجرجانى فى « التعريفات » ص ٢٧ ، وابن العربى ص ٢ . ويريد أن الدولة غنية بالرجال .

التبابِعَة والأكاسِرَة ، أولى الأقيال[1] والأساورة[2] ، وحائز قَصَب السّبق فى المُلوك عِنـدَ المنَاضَلَة والمفاخرة ، ومُفَوّض الأمور بإخلاصه إلى وَلِيّ الدّنيـا والآخرة ؛ مُؤيّد كلمة الموحّدين ، ورَافع دعائم الدّين ، وظهير خلافة المؤمنين ، سُلطان المسْلمين أبو سَعيد . صَدَّق الله فيما يَقتَفِى من الله ظنونَه ، وجعَل النّصْرَ ظهيرَه ، كما جَعَل السّعدَ قَرينَه ، والعزّ خَدينَه[3] ، وكان وَليّه على القيام بأمور ٥ المسلمين ومُعينَه ، وبلّغ الأمّة فى اتّصال أيامه ، ودَوام سُلطانه ، ما يَرْجُونَه من الله وَيؤمِّلونه . لمّا قلده الله هذا الأمرَ الذى استوَى له على كرسىّ المُلْك ، وانتَظَمت عُقود الدّول فى لَبّاتِ الأيام ، وكانت دَولتُه واسطةَ السِّلك ، وجمعَ له الدّين بولاية الحَرَمَيْن ، والدنيا بسلطان التُّرك ، وَأجْرَى له أنهارَ مصْرَ من الماء والمال ، فكان مَجازه فيها بالعَدل فى الأخْذ والتّرك ، وجمعَ عليه قُلوب العِبَاد ، ١٠ فَشَهِد سرُّها بمحبّة الله [له][4] شهادةً خالصةً من الرّيْب ، بريئةً من الشّكّ ، ب] حتى استَوَلَى منَ العزّ / والمُلك على المَقام الذى رَضيَه وَحَمِدَه ، ثم تاقَت نَفْسُه إلى ماعند الله ، فصرفَ قصدَه إليه واعتمدَه ، وسَارَع إلى فعل الخيرات بنفس مطمئنة ، لايَسْأَل عليها أجْراً ولا يُـكدّرها بالمنّة ، وأحسَنَ رعايةَ الدّين والمُلْك تَشهَد بها الإنسُ والجِنّة ، لاَ . بل النّسَم والأجِنّة ، ثم آوَى الخلق إلى عَدلِه ١٥ تَصديقاً بأن الله يُؤْوِيه يومَ القيامة إلى ظلالِه المستجنّة ، ونَافَس فى اتّخاذِ المدَارس والرُّبُط لتعليم الـكتاب والسنّة ، وبناء المساجد المقدّسَة يَبنى له بِها الله البيوتَ فى الجَنّة ، واللهُ لا يُضيع عملَ عاملٍ فيما أظهره أو أكنّه .

[٢] فى الأصلين : « عند المناصلة » . [١٠] فى الظاهرى : « فـكان مجازه » .

(١) جمع قيل وهو ، فى مملكة حمير ، بمنزلة الوزير بالنسبة للملك . (عن التاج) .
(٢) جمع إسوار ، وهو الرّامى أو الفارس . وانظر « المعرب » للجواليقى ص ٢٠ .
(٣) الخدين : الصديق .
(٤) زيادة عن كلمة الإهداء التى صـدر بها ابن خلدون : « الـكتاب الظاهرى » . وهى ضرورية .

وَإنّ مما أنتجَتْه قرائح هِمّتــه وعنايتِه ، وأطلعته آفاقُ عَدله وهِدايته ، وَوَضَحت شواهدُه عَلَى بُعد مَدَاه فى الفَخْر وغايتِه ، ونُجح مَقاصده فى الدين وسِعايتِه ، هــذا المَصنَعَ الشَّريف ، والهيــكَلَ السَّامى المُنيف ، الذى راقَ الكواكب حُسْنُه وظَرْفُه ، وأعجزَ الهِمَمَ البشرية تَرتيبُه وَرصفه ، لا . بل الكَلِمَ السِّحْرِيةَ تمثيلُه ووَصْفُه ، وشمخ بِمطاولة السُّحب ومناولة الشُّهب مارِنُه[1] العزيز وأنفه ، وازْدَهَى بلَبُوس السَّعادة والقَبول مِن الله عِطفُه ، إن فَاخَرَ بَلاَطَ الوليد[2] ، كان له الفَخار ، أو باهَى القصرَ[3] والإيوانَ[4] ، شهد له المِحْرابُ والمَنَار ، أو نَاظرَ صَنْعَاءَ[5] وغُمْدان ، قَامَت بحجّتِه الآثار ؛ إنما هو بَهْوٌ مِلْؤُه دينٌ وَإسلام ، وقَصْرٌ عليه تحيةٌ وسَــلام ، وفَضَاء رَبَّانى يَنشأ فى جَوِّه للرَّحمة والسَّــكينة ظُلَّةٌ وغَمام ، وَكوكَب شَرْقِى يُضَاحك وجهَ الشَّمس منه ثَغْرٌ بسَّام ؛ دفَع إلى تَشْيد أركانه ، ورَفْع القواعدِ من بُنيانه ، سَيْفَ دَولته الذى استَلّه من قِراب مُلْكه وانتَضاه ، وسَهمَه الذى عَجَم عيدان كِنانته فارتضاه ، وحُسامَ أمره الذى صَقَل فِرِندَه بالعزّ والعَزم وأمْضاه ، وحاكمَه المؤيَّدَ الذى طالب غَريمَ الأيام ، بالأمل العزيز المَرَام ، فاستوفَى دَينَه واقْتَضاه ، الأميرَ الأعزَّ الأعلى جهركس[6] .

(١) المارن : الأنف .

(٢) تقدم القول فى تحديد « بلاط الوليد » فى الحاشية رقم ٤ من ص ١٩٨ .

(٣) لعله يريد قصر غمدان ؛ وانظر الحديث عنه ، وعن غمدان فى ياقوت ٦/٣٠١ — ٣٠٣ .

(٤) تقدمت كلمة عن : « إيوان كسرى » الذى يشير إليه هنا ، فى الحاشية رقم ١ فى ص ٨٧ .

(٥) مرت كلمة عن : « صنعاء » فى ص ١١١ .

(٦) هو الأمير سيف الدين جهركس (ويكتب : جهاركس ، وجاركس) بن عبد الله اليلبغاوى الخليلى ، الذى ينسب إليه « خان الخليلى » المعروف اليوم بالقاهرة . قتل بظاهر دمشق سنة ٧٩١ هـ فى الوقعة بين منطاش ، والظاهر برقوق . له ترجمة واسعة فى « المنهل الصافى » ، ورقة ٤٥١ (نسخة دار الكتب) ، وخطط المقريزى ٣/١٠٢ — ١٠٣ ، طبع مصر . وقد ضبط فى « المنهل » : « جاركس » بجيم وألف وراء مهملة ساكنة وكاف مهملة ، وسين مهملة ساكنة ؛ وهو لفظ أعجمى معناه أربعة أنفس .

الخليلي أمير الماخورية باسطبله المنيع ، حرسه الله من خطوب الأيام ، وقسم له من
عناية السلطان أوفر الحظوظ والسهام ؛ فقام بالخطو الوساع ، لأمره المطاع ،
وأغرى بها أيدي الإتقان والإبداع ، واختصها من أصناف الفعلة بالماهر الصناع ،
يتناظرون في إجادة الأشكال منها والأوضاع ، ويتناولون الأعمال بالمندام[1]
[١٦١] إذا توارت عن قدرتهم بالامتناع ؛ فكأن العبقري[2] ، يفري / الفري[3] ، ٥
أو العفاريت[4] ، قدمت من أماريت[5] ، وكأنما حشرت الجن والشياطين ،
أو نشرت القهارمة[6] من الحكماء الأول والأساطين ، جابوا لها الصخر
بالأذواد[7] لا بالواد ، واستنزلوا صم الأطواد على مطايا الأعواد ، ورفعوا سمكها
إلى أقصى الآماد ، على بعيد المهوى من العماد ، وغشوها من الوشي الأزهر ،
المضاعف الصدف والمرمر ، ومائع اللجين الأبيض والذهب الأحمر ، بكل ١٠
مموه الحواشي حالي الأبراد ؛ وقدروه مساجد الصلوات والأذكار ، ومقاعد
السبحات[8] بالعشي والإبكار ، ومجالس التلاوة والاستغفار ، في الآصال
والأسحار ، وزوايا التخلي عن ملاحظة الأسماع والأبصار ، والتعرض للفتوح

---

(١) تقدم شرح كلمة « المندام » في ص ١٩٣ .

(٢) العبقري نسبة إلى « عبقر » ، وهي قرية تسكنها الجن فيما زعموا . ويقولون إذا تعجبوا من جودة شيء أو غرابته ، أو دقة صنعه : هو عبقري ، ثم توسعوا فسموا الرجل ، والسيد ، والكبير — عبقريا . وانظر اللسان .

(٣) يقال هو يفري الفري : إذا عمل عملا فأجاده .

(٤) العفريت من الانسان : النافذ في الأمر ، والقوي المتشيطن ، ويقال عفريت نفريت على سبيل الاتباع .

(٥) أماريت : جمع الجمع لمرت ؛ وهي المفازة والقفر لا نبات فيه .

(٦) القهارمة : جمع قهرمان ، وهو الآمر ، صاحب الحكم . وانظر « الألفاظ الفارسية » ص ١٣٠ ، لسان العرب .

(٧) الأذواد جمع ذود ؛ وهو الجماعة من الإبل . وفي تحديد عددها خلاف مذكور في كتب اللغة .

(٨) جمع سبحة ؛ وهي التطوع في الدعاء والصلاة .

الرَّبَّانية والأنوار ، ومَدارسَ لقَدْح زِناد الأفكار ، ونِتاج المَعارف الأبكار ، وصَوغ اللُّجين والنُّضار ، فى مَحَكِّ القَرائح والأبْصار تَتفجَّر يَنابيعُ الحكمة فى رياضه و بُستانه ، وتَتفتَّحُ أبوابُ الجنَّة من غُرَفه و إيوانه ، وتُقْتادُ غُرُّ السَّوابق ، من العُلوم والحقائق ، فى طَلَق[1] مَيْدانه ، و يَصعَدُ الكَلِم الطَّيِّبُ والعَملُ الصَّالحُ

٥ إلى الله من نواحى أزْكانه ؛ وتُوفَّرُ الأجور لنَاشيته مُحتَسَبةً عند الله فى ديوانه ، راجِحَةً فى ميزانه .

ثم اختارَ لها من أئمة المَذاهب الأربعة أعيانا ، ومن شيوخ الحقائق الصُّوفية فُرسانا ، تَصَفَّح لهم أهلَ مَملَكته إنساناً إنسانا ، وأشاد بقَدرهم عِنايةً و إحسانا ، ودَفَعهم إلى وظائفه تَوشُّحاً فى مذَاهب الخير وافتنانا ، وعهِد إليهم

١٠ برياضة المريدين ، و إفادَة المستفيدين ، احتساباً لله وقربانا ، وتَقَيُّلا[2] لمذاهب الملوك من قومه واستنانا ؛ ثمَّ نظمنى معَهم تطوُّلاً وامتِنانا ، ونعمةً عظُمت موقِعاً وجَلَّت شَانا ؛ وأنا و إن كنتُ لقصور البضاعَة ، متأخراً عن الجماعة ، ولقُعود الهمّة ، عيالاً على هؤلاء الأئمة ، فَسَمْحُهم[3] يَغطِّى ويُلْحف ، وعواهب العَفو والتَّجاوز يَمْنَح ويُتحِف ؛ وإنما هى رحمة من مولانا السلطان — أيده

١٥ الله — خَصّت كما عَمَّت ، ووَسَمت أغفال النَّكرَة والإهمال وسَمَّت ؛ وكَمَلَت بها مَوَاهِب عَطفه وجَبْره وتَمَّت ؛ وقَد ينتَظِم الدرُّ مع المَرْجان ، وتُلْتَبَسُ العَصَائب بالتِّيجان ، وتُراض المسوَّمة[4] العِرابُ[5] على مُسابَقَة الهِجان[6] ؛

(١) الطلق : الشوط الواحد فى جرى الخيل ، والغاية التى يجرى إليها الفرس فى السباق .

(٢) الكلمة فى الأصلين غير معجمة ، فتحتمل « تقيلا » . ومعناها حينئذ : تشبها ، من تقيل أباه : أشبهه ، وعمل عمله ؛ وتحتمل « تقبلا » . ويكون المعنى : فعل ذلك ارتضاء لمذاهب الملوك قبله ، وذهابا على سنتهم .

(٣) كذا فى الأصلين ، ولعله يريد « فسماحهم » .

(٤) المسومة من الخيل : المرعية ، والمعلمة .

(٥) العراب من الإبل ، والخيل : التى ليس فيها عرق هجين .

(٦) الهجان : جمع هجين ؛ وهو الفرس الذى ليس بعتيق .

والكلُّ فى نظر مَولانا السُّلطان وتَصْريفه، والأهليةُ بتأهيله والمعرفةُ بتعريفه، وقِوام الحياة والآمالِ بلطائف إحسانه وصُنوفِه؛ واللهُ يُوزِعُنا شُكرَ مَعرُوفه، ويوفِّقُنا للوفاء بشَرطه فى هذا الوقف وتَكْليفه، ويَحْمِى حِماه من غِيَر الدَّهر وصُروفِه، ويُبقِى على مَمالك / الإسلام ظِلَالَ أعلامه ورماحِه وسُيوفِه، [٦٧ب] ويُريه قُرَّةَ العَين فى نَفْسِه وبَنيه، وحَاشِيَتِه وذَوِيه، وخاصَّتِه ولَفِيفه، بمنِّ ٥ الله وفَضلِه.

ثم تَعاوَن العِدَاةُ عنـدَ أمير المَاخُورية، القائم للسُّلطان بأمور مَدرستِه، وأغرَوه بصَدِّى عنها، وقَطْع أسبابى من ولايتها، ولم يُمكِن السُّلطانَ إلَّا إسعافُه فأعرَضتُ عن ذلك، وشُغِلتُ بمـا أنَا عَلَيْه من التَّدريس والتَّأليف.

ثمّ خرَجتُ عامَ تِسعَةٍ وثمانين للحجّ، واقتَضَيتُ إذْنَ السلطان فى ذلك، ١٠ فأسعَف، وزَوّد هو وأمراؤه بما أوسَع الحالَ وَأرْغَدَه؛ وركِبتُ بحرَ السويس من الطُّور إلى اليَنْبُع، ثم صَعِدتُ مع المَحْمِل إلَى مَكّة، فقَضَيتُ الفرَض عامَئذ، وعُدتُ فى البَحْر، فنزلتُ بساحل القُصَير، ثم سافرتُ منه إلى مدينة قُوص فى آخر الصعيد، وركبت منهـا بحرَ النيل إلى مِصر، ولقيتُ السلطان، وأخبرتُه بدُعائى لَه فى أماكن الإجابة، وأعادَنى إلى ما عَهِدتُ من كرامته، ١٥ وتفيُّءِ ظِلِّه.

ثم شَغرَت وظيفةُ الحديث بمدرسـة صلغتمش[1] فولّانى إياها بدلًا من

(١) هكذا فى الأصلين: «صلغتمش»، ولعلها كانت تنطق باللام فسجلها ابن خلدون كما سمعها: والمدرسة الصرغتمشية هذه التى تقع بجوار جامع أحمد بن طولون، تنسب إلى بانيها الأمير سيف الدين صرغتمس الناصرى أمير رأس نوبة، المتوفى سجيناً فى الأسكندرية سنة ٧٥٩. وفى خطط المقريزى ٤/٢٠٦ — ٢٠٨ طبع مصر، حديث مفصل عنها، وعن بانيها صرغتمش المذكور.

مَدرسته ، وجلستُ للتدريس فيها فى مُحرّمِ أحدٍ وتسعين ، وقمتُ ذلكَ اليومَ — على العادة — بخطبةٍ نَصُّها :

« الحمد لله إجلالًا وإعظاما ، واعترافًا بحقوق النِّعم والتزاما ، واقتباسًا للمَزيد منها واغتناما ، وشكراً على الذى أحسَن وتماما ، وسِع كلَّ شىء رحمةً وإنعاما ، وأقام على توحيده مِن أكوانه ووُجوده آياتٍ واضحةً وأعلامًا ، وصَرَّف الكائناتِ فى قَبضَةِ قُدرته ظهوراً وخَفاء وإيجاداً وإعْداما ، وأعطَى كلَّ شىء خَلْقَه ثم هَداه إلى مَصالحه إلهاما ، وأَودَع مَقدورَ قضائه فى مسْطور كتابه ، فلا يَجِدُ مَحيصا عنه ولا مَراما .

والصلاةُ والسّلام على سيدنا ومولانا محمّدٍ نبىِّ الرّحمة الهامية غماما[1] والمَلحَمة التى أَراقَت من الكُفْر نجيعا وحطَّمت أصْناما ، والعُروة الوثقى ، فازَ من اتخذها عِصاما[2] ، أول النَّبيئين رُتْبةً وآخرهم ختاما ، وسيِّدهم ليلة قاب قوسَين[3] إذ بات للملائكة والرُّسل إماما ؛ وعلى آله وأصحابه الذين كانوا رُكْنًا لدعوته وسَناما[4] ، وحَرَبًا على عدوّه وسِمَاما[5] ، وصَلَوا فى مُظاهرته جِدًّا واعتزاما ، وقطَعوا فى ذَات الله وابتغاء مرضاته أنساباً وأرحاما ، حتى ملأُوا الأرضَ إيمانًا وإسْلَاما ، وأوسَعوا الجاحدَ والمُعاند تَبكيتاً[6] وإرغاما[7] فأَصبَح ثَغر

(١٠) فى الأصلين : « نجيا » ، ولعل الصواب ما أثبت .

(١) همت السماء : أمطرت ؛ والغمام : القطر نفسه .
(٢) العصام : رباط كل شىء ، من حبل ونحوه .
(٣) قاب قوسين : قدر قوسين ، أو طول : قوسين .
(٤) السنام : المرتفع من الرمل ، والجبل ؛ والمراد أنه ملجأ .
(٥) السِّمام : جمع سُم ؛ وفى حديث عن على رضى الله عنه : « الدنيا غذاؤها سمام » .
(٦) التبكيت : التقريع والتعنيف .
(٧) الإرغام : الإكراه والإهانة .

[١٦٨] الدِّين بسّاما ، ووجهُ / الكُفر والباطل عَبوسا جَهاما(١) . صلى الله عليه وعليهم ما عاقَبَ ضياءٌ ظَلَاما ، صلاةً تُرجِّح القَبولَ ميزانا ، وتُبَوِّئُ عندَ الله مَقاما .

والرضى عن الأئمة الأربعة ، الهُداة المتَّبَعَة ، مَصَابيح الأمان ، ومَفاتيح السُّنَّة الذين أحسنوا بالعلم قياما ، وكانوا للمتَّقين إماما .

● أما بعد فإن الله سبحانه تكفّل لهذا الدِّين بالعَلاء والظُّهور ، والعزِّ الخالد على الظُّهور(٢) ، وانفِسَاح خُطَّته فى آفاق المَعمور ، فلم يزَل دولةَ عظيمةَ الآثار ، عَزيزةَ الأنصار ، بعيدَة الصِّيت عاليةَ المقدار ، جامعةً — بمحاسنِ آدابه وعِزّة جَنابه — مَعانى الفَخار ، مُنَفِّقةً بضائعَ عِلومه فى الأقطار ، منجِّرة ينابيعها كالبحار ، مُطْلِعةً كواكبها المنيرة فى الآفاق أضوأ من النهار ؛ ولا كالدَّولة التى استأثرت بقبلة الإسلام ومنابره ، وفاخَرت بحُرُمات الله وشعَائره ، واعتمدَت بركَةَ ١٠ الإيمان ويُمنَ طائره ، فى تمهيد قَواعده وتأييد ناصِره ، وظفِرت — فى خِدمة الحرَمين الشَّريفَيْن — بالمتين من أسباب الدِّين وأواصره ، واعتَمَلت فى إقامة رُسُوم العلم ليكونَ من مَفَاخره ، وشاهداً بالكمال لأوَّله وآخره .

وإن مولانا السلطانَ الملِكَ الظّاهر ، العزيزَ القاهر ، شرَفَ الأوائل ١٥ والأواخر ، ورَافع لواء المعالى والمَفاخر ، ربَّ التِّيجان والأسِرَّة والمنَابر ، والمُجَلِّى فى مَيْدان السَّابقين من الملوك الأكابر ، فى الزَّمن الغابر ، حامِلُ الأمّة بنظَره الرَّشيد ورأيه الظَّافر ، وكافلُ الرَّعايا فى ظلِّه المَديد وعَدْله الوافر ، ومُطْلِعُ أنوار العزِّ والسَّعادة من أفُقه السَّافِر ؛ واسِطةُ السِّلْك من هذا النِّظَام ، والتَّاجُ المحلَّى فى مَفَارق الدُّول والأيَّام ، سَيِّدُ الملوك والسلاطين ، بركَةُ الإسلام والمسلمين ،

---

[٨] فى الأصلين : « الإقدار ، مفجرة » ، تصحيف [١٥] طب : « وراجع لواء » ، تصحيف .

(١) الجهام : السَّحاب لا ماء فيه ، ويريد : كريها لا خير فيه .
(٢) كذا فى الأصلين ، ولعلها : « الدهور » .

كافلُ أمير المؤمنين ، أبوسَـعيد . أعلَى الله مَقامَه ، وكافأ عنِ الأمّة إحسانَه الجزيلَ و إنعامَه ، وأطالَ فى السّعادة والخيرات المبْدأة المُعادة لياليَهُ وأيّامَه ؛ لمّا أوْسَع الدِّين والمُلْك نظراً جميلاً مِن عِنَايته ، وأنامَ الخلْقَ فى حجْر كَفَالته ، ومهاد كِفَايته ، وأيقظَ لتفقُّد الأمُور ، وصَلاح الخاصّة والجمهور ، عينَ كَلاءته ،

٥ كما قلّده الله رعايتَه[1] وأقامَ حكامَ الشريعة والسياسة يُوسِمون نِطاقَ الحقّ إلى غايته ، ويُطْلِعون وجهَ العـدل سافراً عن آيته ، ونَصَب فى دست النّيابة مَن وثِق بعدْله وسياسته ، ورضِى الدِّينُ بحُسن إيالتِه ، وأمّنَه على سُلطانه ودولتِه ، وهو الوفىُّ — والحمد لله — بأمانته / ؛ ثم صَرَف نَظرَه إلى بيوت الله يُعْنَى [٦٨ب] بإنشائها وتأسيسِها ، و يعمل النّظرَ الجميلَ فى إشادَتها وتَقديسها ، ويُقرض الله

١٠ القَرْضَ الحسَن فى وقفها وتَحْبيسها ، ويَنصِب فيها لبَثِّ العلم من يُؤَهِّله لوظائفها ودُروسها ، فيُضْفِى عليـه بذلك من العنـاية أفخرَ لَبوسها ، حتّى زهت الدّولةُ بملكِها ومصرِها ، وفاخَرت الأنامَ بزمانها الزّاهِر وعَصْرِها ، وخضَعت الأواوينُ لإيوانها العَالى وقَصْرِها ، فابتَهج العـالَم سُروراً بمكانها ، واهتزَّت الأكوانُ المُفاخَرة بشأنها ، وتَـكَفّلَ الرّحمن ، لمن اعتزَّ به الإيمـان ، وصَلُح على يَده

١٥ الزّمان ، بوُفور المَثُوبة ورُجْحانها .

وكان ممّا قدمَنّ به الآن تدريسُ الحديث بهذه المدرَسَة وقف الأمير صرغتمش من سَلَف أمراء التّرك ، خفّفَ الله حسابَه وثقّل فى الميزان — يوم يُعْرَض على الرحمن — كتابَه ، وأعْظَم جزاءه فى هذه الصّدَقة الجارية وثوابَه ، عِنايةً جدّد لِى لباسَها ، وإيثاراً بالنِّعمة التى صَحّحتُ قياسَها ، وعرفتُ منه أنواعَها وأجناسَها ، فامتثلتُ

٢٠ المَرْسوم ، وانطلقْت أقيمُ الرُّسُوم ، وأشكُر من الله وسُلطانه الحظ المقسوم .

[١٦] فى أصل أيا صوفيا : « الأمير صلتتمش » .

[1] كذا فى الأصلين ؛ ولعل أصل الكلام : « الله حق رعايته » ، أو « واجب رعايته » ، أو نحو هذا .

وَأنا مَع هَذا مُعْتَرِف بالقُصُور ، بين أهل العُصور ، مُستعيذٌ بالله و بركَةِ هؤلاَء الحضور ، السَّادة الصُّدور ، أن يَجْمَحَ بى مَركبُ الغُرور ، أو يَلِج شيطانُ الدَّعوَى والزُّور ، فى شىء من الأمور . واللهُ تعالَى ينفع مولاَنا السلطان بصَالح أعماله ، ويُعَرِّفه الحُسْنَى وزيادةَ الحظ الأسْنَى فى عاقبته ومآلِه ، و يُريه فى سُلطانه وَبَنِيه وحَاشيته وذَوِيه قُرَّةَ عينه ورضَى آمالِه ، ويُديم على السَّادة الأمراء ما خَوّلهم من رضَاه و إقبالِه ، و يحفظُ المسلمين فى هـذا الأمر السَّعيد بدوامه واتِّصاله ، ويسدِّدُ قُضاتَهم وحُكَّامَهم لاعتِماد الحقِّ واعتماله بمَنِّ الله و إفضَاله .

وقد رأيتُ أن أقرِّرَ للقراءة فى هـذا الدَّرس ، كتابَ الموطأ للامام مَالك ابن أنس ، رضى الله عنه ، فإنَّه من أُصول السُّنَن ، وأُمَّهات الحديث ، وهُو معَ ذلك أصلُ مَذهبنا الذى عليه مَدار مَسَائله ، ومَنَاط أحكامه ، و إلى آثاره يَرجع الكثير من فقهه .

فلنفتتح الكلامَ بالتَّعريف بمؤلِّفه — رضى الله عنه ، ومكانه مِنَ الأَمانة والدِّيانة ، ومنزلةِ كتابه « الموطَّأ » من كُتُبِ الحديث . ثم نذكُر الرواياتِ والطُّرقَ التى وقَعت فى هـذا الكتاب ، وكيفَ اقتصَر النَّاسُ منهَا على رواية يَحْيَى بن يَحْيَى ، ونَذكرُ أَسَانِيدى فيهـا ، ثم نرجعُ إلى الكلاَم على مَتْن الكتاب .

أما الإمام مالك — رَضى الله عنه ، فهو إمام دار الهجرة ، وشَيْخ أهل الحجاز فى الحديث والفِقه غير مُنازَع ، والمقلَّدُ المتبُوع لأهل الأمْصَار وخصوصاً أهلَ المغرب .

قال البُخارى : مالك بن أنس بن أبى عَامر الأصبَحى . كُنيتهُ أبو عبد الله ،

---

[١١] فى أصل أياصوفيا : « الكثير من تفهمه »

حَلِيف عبد الرحمن بن عثمان بن عُبَيد الله[1] القُرشى التَّيْمى ابن أخى طلحةَ بن عُبَيد الله . كانَ إماما ، رَوَى عَنه يَحيَى بنُ سَعيد . انتهى كلام البخارى[2] .

وجدُّه أبو عامر بن عَمرو بن الحرث بن عثمان[3] ويقال : غَيْمان بغين معجمة مفتوحة ، وياء تَحتانية ساكنة ، ابن جُثَيل بجيم مضمومة وثاء مثلَّثة مفتوحة ، وياء تحتانيَّة ساكنة ؛ ويقال حُثَيل أو خُثَيل بحاء مضمومة مهملة[4] أو مُعجمة ، عوضَ الجيم ؛ ويقال حِسْل بحاء مهملة مكسورة ، وسين مهملة سَاكنة[5] ، ابن عَمرو ابن الحرث ؛ وهو ذو أصبَح ، وذُو أَصْبَح بطنٌ من حِمْيَر ، وهمْ إخوةُ يَحْصُبَ[6] ، ونَسَبُهم معروف ؛ فهو حِمْيَرىّ صَلِيبة ، وقُرَشىٌّ حِلْفا . وُلِد سنة إحدى وتسعين[7] — فيما قال ابن بُكَير[8] ، وأربع وتسعين — فيما قال محمد بن عبد الله

[٥] فى الأصلين : « دثيل أو حثيسل » . تحريف [٦] فى الأصلين : « ويقال حثيل » . تصحيف .

(١) فى « الأنساب » للسمعانى ٤١ و « عثمان بن عبد الله التيمى » ، ولعله تصحيف .

(٢) تصرف ابن خلدون فى النقل قليلا ، وانظر تاريخ البخارى ٤/ ٣١٠ طبع حيدر آباد سنة ١٣٦٠ .

(٣) بعين مهملة وثاء مثلثة ، وقد نقل هــذا الخلاف ابن خلــكان فى « الوفيات » ، أما ابن ماكولا فلم يذكر فى « الإكمال » ج ١ ورقة ٢٢٧ظ إلا « غيمان » ، ويقول القاضى عياض فى « ترتيب المدارك » ١/ ١٣ ب (نسخة خاصة) : إن « عثمان » تصحف عن « غيمان » .

(٤) ذكر هذا القول الدار قطنى فى « أحاديث الموطأ » ص ٧ .

(٥) لم يقف ابن خلدون على قول عياض فى « ترتيب المدارك » ١/ ١٣ب : « وأما من قال عثمان بن حسل ، أو ابن حنبل فقد صحف » ، فضلّ فى وادى الافتراض .

(٦) يحصب مثلث الصاد ، وانظر تاج العروس .

(٧) فى مولد مالك أقوال أخر غير ماذكر ابن خلدون تجدها فى « الأنساب » للسمعانى ، و « وفيات » ابن خلــكان ؛ وانظر « الانتقاء » لابن عبد البر ص ١٠ .

(٨) هو يحيى بن عبد الله بن بكير القرشى المخزومى بالولاء المصرى [١٥٤ — ٢٣١] أحد رواة « الموطأ » عن مالك ، تكلموا فيه . ترجمته فى تهذيب التهذيب ١١/ ٢٣٧ .

ابن عَبد الحَكَم[1] ؛ ونشأ بالمدينَـة ؛ وتفقّه بها . أخذ عن رَبيعةِ الرأى[2] ، وابنِ شِهاب[3] وعن عمّه أبى سُهَيل[4] ، وعن جَماعة ممّن عاصَرهم من التّابعين وتابِعِى التّابعين ؛ وجلَس لِلفُتيَا والحديث فى مَسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم شابًّا يُناهز العشرين ، وأقام مُفتياً بالمَدنية ستين سنة ، وأخَذَ عنه الجَمُّ الغَفيرِ من العُلماء الأعلام ، وارتَحل إليه من الأمْصَار من لا يُحصَى كَثرة ؛ وأعظمُ من أخذَ عنه الإمام محمّد بن إدريس الشّافعى[5] ، وابنُ وَهْب[6] ، والأوزاعِى[7] ، وسفيانُ

(١) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الحكم الفقيه الشافعى المصرى المشهور [١٨٢ — ٢٦٨] . « وفيات » ١/٥٧٨ ؛ وقد نقل قوله هـذا فى مولد مالك ابن عبد البر فى « الانتقاء » ص ١٠ .

(٢) هو أبو عثمان ربيعة بن أبى عبد الرحمن فروخ مولى آل المنكدر . . . المعروف بربيعة الرأى . فقيه مدنى جليل . أدرك جماعة من الصحابة . توفى بالأنبار بمدينة « الهاشمية » سنة ١٣٦ على خلاف . « المعارف » لابن قتيبة ص ٢١٧ ، « وفيات » ١/٢٢٨ .

(٣) أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهرى القرشى . من أجلّ فقهاء التابعين بالمدينـة . أدرك جماعة من الصحابة [٥١ — ١٤٢] على خلاف فى المولد والوفاة . « وفيات » ابن خلـكان ١/٥٧١ — ٥٧٢ .

(٤) نافع بن مالك بن أبى عامر الأصبحى أبو سهيل التيمى . مات فى إمارة أبى العباس . تهذيب التهذيب ١٠/٤٠٩ .

(٥) الإمام المجتهـد أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ينتهى نسبه إلى عبد مناف بن قصىّ ، حيث يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم [١٥٠ — ٢٠٤] . « الانتقاء » لابن عبد البر ص ٦٦ — ١٢٢ ، « المقفّى » للمقريزى ١/١٤٧ (نسخة دار الـكتب) ، « صفة الصفوة » ٢/١٤٠ ، « ديباج » ص ٢٢٧ .

(٦) أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسـلم القرشى المصرى (١٢٥ — ١٩٧) ، لازم مالـكا مدة طويلة ، وهو صاحب كتاب « الجامع » الذى نشره المعهد الفرنسى بالقاهرة ما بين سنتى ١٩٣٩ — ١٩٤١ م بتحقيق J. David-Weill . وانظر ترجمـة ابن وهب فى « ترتيب المدارك » ١/٨٦ و (نسخة دار الـكتب) ، تهذيب التهذيب ٦/٧١ ، تذكرة الحفاظ ١/٢٧٩ .

(٧) أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعى ، ونسبته إما إلى « الأوزاع » بطن من همدان ، أو من ذى كلاع من اليمن ، أو إلى « الأوزاع » قرية بدمشق نزل بهـا فنسب إليها أدخلته أمه « بيروت » فسكنها ، وبها مات سنة ١٥٧ ، ومولده يبعلبك سـنة ٨٨ ، أو ٩٣ . وانظر « المعارف » لابن قتيبة ص ٢١٧ ، « وفيات » ١/٣٤٥ .

الثَّوْرى[1] ، وابنُ المُبارك[2] — فى أمثال لهُم وأنظار . وتوفّى سنة تسع وسبْعين ومائة باتفاق من الناقلين لِوفاته ، وقال الواقدى[3] : عاشَ مالكٌ تسعين سنة ، وقال سُحْنُون[4] عن ابن نافع[5] : توفى مالك ابن سبع وثمانين سَنة ، ولم يختلف أهلُ زمانه فى أمانَته ، وإتقانه ، وحفظه وتَثَبُّته ووَرَعه ، حتى لقد قال سُفيان ابن عُيَيْنَة[6] : كُنَّا نَرَى فى الحديث الوَارِدِ عن رَسُول الله صلى الله عليه وسلَّم : « تُضْرب أكبَاد الإبل [فى طلب العلم] [7] فلا يُوجد عَالم أعلم من عالِم المدينة » أنَّه مالكُ بنُ أنس .

[١] فى الأصلين : « فى أمثال لهم وأنصار » ، تصحيف . فى الأصلين : « الناقلين بوفاته » ، والصواب ما أثبت .

(١) أبو عبد الله سفيان بن سعيد المعروف بالثورى ، أحد الأئمة المجتهدين ، ولاه المهدى قضاء الكوفة فامتنع ، وروى بصك الولاية فى دجلة [٩٥ — ١٦١] على خلاف فى المولد والوفاة . « وفيات » ١/٢٦٣ .

(٢) أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح المروزى مولى بنى حنظلة ، أحد رواة « الموطأ » عن مالك (١١٨ — ١٨١) على خلاف فى المولد والوفاة . « وفيات » ١/٣١١ .

(٣) أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد المدنى صاحب « المغازى » ؛ تولى القضاء ببغداد فى أيام المأمون . ضعفوه فى الحديث [١٣٠ — ٢٠٧] . « وفيات » ١/٦٤٠ ، « المعارف » لابن قتيبة ص ٢٢٦ .

(٤) أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخى الفقيه المالكى المشهور . [١٦٠ — ٢٤٠] ترجمته فى « ترتيب المدارك » ١/١١٨ (نسخة دار الكتب) ، « المرقبة العليا » ص ٢٨ — ٣٠ ، « لسان الميزان » ٣/٨ .

(٥) أبو محمد عبد الله بن نافع بن أبى نافع الصائغ المخزومى ، يروى عن مالك كثيرا ، ولهم فى الثقة به كلام . توفى سنة ٢٠٦ ، أو ٢٠٧ . « تهذيب التهذيب » ٦/٥١ — ٥٢ .

(٦) سفيان بن عيينة بن أبى عمران أبو محمد المحدث المشهور (١٠٧ — ١٩٨) « تهذيب التهذيب » ٤/١١٧ — ١٢٢ ، « المعارف » لابن قتيبة ص ٢٢١ ، « وفيات » ١/٢٦٤ .

(٧) الزيادة عن « الانتقاء » لابن عبد البر ص ٢١ . والحديث أخرجه أحمد ، والترمذى وحسَّنه ، والحاكم فى المستدرك وصححه ، من حديث أبى هريرة مرفوعا . وانظر « تنوير الحوالك » ١/٥ .

وقال الشافعى : إذا جاء الأثر فمالك النجم ، وقال : إذا جاءك الحديث عن مالك ، فشُدّ به يَدَيْك ؛ وقال أحمد بن حَنبل[1] : إذا ذُكِر الحديث فمالك أمير المؤمنين .

وقد ألَّف الناس فى فَضائله كتباً ، وشأنه مشهور .

وأما الذى بعثه على تصنيف « المُوَطَّأ » — فيما نقل أبو عُمَر بنُ عبد البرّ — فهو أن عبدَ العزيز بن عبد الله بن أبى سلَمَة الماجِشُون[2] ، عَمِل كتاباً على مثال « الموطأ » ، ذَكَرَ فيه ما اجتَمع عليه أهلُ المدينة ، ولم يَذكر فيه شيئاً من الحديث ، فَأُتِيَ به مالك ، ووقف عليه وأعجبه ، وقال : ما أحسنَ ما عمِل هذا ! ولو كنتُ أنا الذى عَمِلتُ لبدأتُ بالآثار ، ثمّ شددت ذلك بالكلام . وقال غيره : حجّ أبو جعفر المنصور[3] ، ولقيه مالك بالمدينة ، فأكرمَه وفاوضه ، وكان فيما فاوضَه ، يا أبا عبد الله لم يبقَ على وجه الأرض أعلم منِّى ومنك ، وقد شغلتنى الخلافة ، فضع أنت للناس كتاباً ينتفعون به ، تَجَنَّبْ فيه رُخَصَ ابنِ عبّاس[4] وشَدائدَ ابنِ عُمَر[5] وَوَطِّئْه للناس توطئة . قال مالك : فلقد علَّمنى التأليف ؛ فكانت

---

(١) أبو عبد الله أحمد بن حنبل الامام المجتهد المعروف ، ينتهى نسبه إلى بنى شيبان (١٦٤ — ٢٤١) . « وفيات » ١/٢٠ .

(٢) عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة الماجشون المتوفى سنة ١٦٤ ببغداد فى خلافة المهدى . « المعارف » ص ٢٠٣ ، « تهذيب التهذيب » ٦/٣٤٣ .

(٣) أبو جعفر المنصور عبدالله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس الخليفة العباسى الثانى تولى الخلافة سنة ١٣٦ ، وتوفى سنة ١٥٨ . له ترجمة واسعة فى « تاريخ الطبرى » ٩/١٥٤ — ٣٢٣ .

(٤) أبو العباس عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحبه ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وتوفى سنة ٦٨ على خلاف فى سنة الوفاة . تاريخ الاسلام للذهبى ٣/٣٠ — ٣٧ .

(٥) أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشى العدوى صاحب رسول الله ، وابن صاحبه . توفى سنة ٧٣ ، وكان عمره يوم الخندق ١٥ سنة . تاريخ الاسلام للذهبى ٣/١٧٧ — ١٨٤ .

هَذِه وأمثالُها من البواعث لمالك على تَصنيف هذا الكتاب ، فصنَّفه وسَمَّاه «الموطأ» ، أى المُسَهَّل[1] . قال الجوهرى وَطُؤَ يَوْطُؤُ وَطَاءةً ، أى صار وطيئا ؛ ووطَّأتُه تَوطِئَة ؛ ولا يُقَال وطَّيْتُه[2] . ولما شُغِل بتصنيفه أخَذَ النَّاسُ بالمدينة يومئذٍ فى تَصْنيف مُوَطَّآت ، فقال لِمالكٍ أصحابُه : نَرَاكَ شَغَلْت نفسك بأمرٍ قد شَرَكَك فيه النَّاس ؛ وأُتِىَ ببَعْضِها فنظرَ فيه ، ثم طرحه منْ يَدِه وقال: لَيُعلَمَنَّ أن هـذا لا يرتفـعُ منه إلا ما أُريد به وجهُ الله ؛ فكأنما أُلقِيت تلك الكُتُب فى الآبار ، وما / سُمِـع لشىء منها بعدَ ذلك ذِكر ، وأَقبل مَالكٌ عَلَى [٩٦] تهذيب كتابه وتَوطئته ؛ فيُقَال إنه أكمَلَه فى أربعين سنة ؛ وتلقَّت الأمة هذا الكتاب بالقبول فى مشارق الأرض ومغاربها ، ومن لَدُن صُنِّف إلى هلم[3] ، وطالَ ثَناء العُلماء فى كلّ عصْر عليْه ، ولم يَختلف فى ذلك اثنان . قال الشَّافعىّ ، وعبْدُ الرَّحمن بن مَهْدى[4] : ما فى الأرضِ كِتابٌ بَعْد كتابِ الله أنفعَ ، وفى رواية أصحَّ ، وفى رواية أكثَرَ صَوابا ، من «موطَّأ» مالك[5] . وقال يُونُس

[٤] فى ترتيب المدارك ، وشرح الزرقانى على الموطأ : «تصنيف الموطآت» [٦] فى الزرقانى : «لتعلمن أن هـذا» ، زرقانى : «قال فـكأنما» [٧] زرقانى : «وما سمعت بشىء منها بعد ذلك يذكر» .

(١) ذكر الزرقانى فى شرحه للموطأ ١/٨ ، نقلا عن ابن فهد ، وجهاً آخر لتسميته بالموطأ ، قال : «... قال مالك : عرضت كتابى هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة ، فكلهم واطأنى عليه ، فسميته بالموطأ» .

(٢) انظر لسان العرب أيضاً (وطأ) .

(٣) كذا فى الأصلين ، وهو استعمال غريب . وقد استعمله فى «مقدمته» فى فصل الكيمياء ص ٢٧٣ بولاق . وانظر شرح الشريشى على مقامات الحريرى ١/٨٤ ، تاج العروس (جر) .

(٤) أبو سعيد عبد الرحمن بن مهدى بن حسان بن عبد الرحمن العنبرى البصرى المتوفى سنة ١٩٨ . «تهذيب التهذيب» ٦/٢٨١ ، «المعارف» ص ٢٢٤ .

(٥) بعد أن ألف البخارى ، ومسلم صحيحيهما ، لم تبق للموطأ هذه المكانة ، ومن هنا أوّلوا قول الشافعى هذا بأنه كان قبل وجود الصحيحين . وانظر مقدمة ابن الصلاح ص ١٤ ، تدريب الراوى ص ٢٥ ، مقدمة شرح الزرقانى على الموطأ ١/٩ ، مقدمة موطأ محمد بن الحسن اللكنوى ص ١٦ طبع الهندسة ١٣٠٦ .

ابن عَبْدِ الأعلى[1] : ما رأيتُ كتاباً أُلِّفَ في العلمِ أكثرَ صَواباً من « مُوَطَّأ » مالك .

وأما الطرقُ والرواياتُ التي وقعت في هذا الكتاب ، فإنه كتبَه عن مالك . جماعة ، نُسِبَ الموطأ إليهم بتلك الرواية ، وقيل موطأ فلان لرَاوِيهِ عنه[2] فمنها موطأ الإمام محمد بن إدريس الشافعي[3] ، ومنها موطأ عبد الله بن وهب ، ومنها موطأ عبد الله بن مَسْلَمَةَ القَعْنَبِي[4] ، وَمِنها مُوطأ مطرِّف بن عبد الله اليَسَاري[5] ٥ نسبةً إلى سُلَيمان بن يَسَار ، ومنها موطأ عبد الرَّحمن بن القَاسِم[6] رَواه عنه

---

[٥] في الأصلين « عبد الله بن مسلم » .

---

(١) أبو موسى يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن ميسرة المحدث المقرئ المصري (١٧٠ — ٢٦٤) . تهذيب التهذيب ١١/٤٤٠ ، طبقات القراء ٢/٤٠٦ .

(٢) في « ترتيب المدارك » ١/٣٤ ظ (نسخة خاصة) ، وشرح الزرقاني على الموطأ ١/٦ — كلمة جامعة عن الذين رووا الموطأ عن مالك . وفي مقدمة عبد الحي اللكنوي لموطأ محمد بن الحسن : أن أحد علماء « دهلي » ، أورد في كتاب له بالفارسية سماه « بستان المحدثين » القول المستفيض عن الموطأ ، ومؤلفه ، ونسخه ؛ ويتبين من الخلاصة التي عربها عن الفارسية عبد الحي اللكنوي أن صاحب « البستان » كاد أن يستقصي الموضوع .

(٣) قال أحمد بن حنبل : كنت سمعت الموطأ من بضعة عشر رجلا من حفاظ أصحاب مالك ، فأعدته على الشافعي لأنه أقومهم . زرقاني ١/٧ .

(٤) أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسلمة بن قعنب القعنبي الحارثي المدني المتوفى سنة ٢٢١ أو ٢٢٠ . تهذيب التهذيب ٦/٣١ ، الانتقاء ص ٦١ . سمع من الإمام مالك نصف الموطأ بقراءة الإمام ، وقرأ هو النصف الباقي على الإمام . ومن هنا قال ابن معين وابن المديني والنسائي : إنه أثبت الناس في الموطأ ، ذلك لأن السماع من لفظ الشيخ ، أعلى أنواع التحمل عندهم . وانظر تدريب الراوي ١٢٩ ، مقدمة ابن الصلاح ص ١٤٠ . والزرقاني ١/٦ ، ٧ .

(٥) مطرف بن عبد الله بن مطرف بن سليمان اليساري الهلالي أبو مصعب المدني ابن أخت الإمام مالك (١٣٧ — ٢١٤) ، على خلاف في وفاته . تهذيب التهذيب ١٠/١٧٥ الانتقاء ص ٥٨ .

(٦) أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي المصري المالكي (١٢٨ — ١٩١) ، أول من نقل الموطأ إلى مصر . وكان أبو الحسن القابسي يقدِّم روايته للموطأ على غيره ، ويقول في ذلك إنه — مع ما يتصف به من الفهم والورع — قد اختص بمالك ، ولم يكثر من النقل عن غيره ، فخلص بذلك من أن تختلط عليه ألفاظ الرواة ، أو تتبدل الأسانيد ، وإنما نقل كتابا مصنفاً ، فهو وافر الحظ من السلامة في النقل . عن ديباجة « الملخص » =

سُحْنون بن سَعيد ؛ ومنها موطأ يَحيى بن يحيى اللَّيثى الأندلسى[١] ، رحل إلى مالك بن أنس من الأندلس وأخذ عَنْه الفقهَ والحديث ، وَرَجَع بعلمٍ كثير وحديث جَمّ ، وكان فيما أَخَذَ عنه «الموطأ» ، وأدخلَه الأندلسَ والمَغرب ، فأكبَّ النـاسُ عليه ، واقتَصَروا على روايته دونَ ماسِواها[٢] ، وعوَّلوا على نَسَقِها وتَرتيبها[٣] فى شرحهم لكتاب «الموطأ» وتفاسيرهم ، و يُشيرون إلى الرِّوايات الأخرَى إذا عرضت فى أمكنتها ، فهُجِرت الرِّوايات الأخرى ، وسائرُ تلك الطُّرُق[٤] ، ودَرَست تلك الموطآت إلا موطأ يحيى بن يحيى ، فبروايتِهِ أخذ النـاس فى

---

[٧] فى الأصلين : « فروايته أخذ الناس » .

= القابسى ص ٥ (نسخة خاصة) . ترجمة ابن القاسم فى : أنساب السمعانى ٤٨٣ ظ ، الانتقاء ص ٥٠ — ٥١ ، ديباج ابن فرحون ١٤٦ ، تهذيب التهذيب ٦/٢٥٢ .

(١) هو أبو محمد يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاسن المصمودى البربرى الليثى بالولاء . (١٥٢ — ٢٣٤) له ترجمة فى نفح الطيب بولاق ١/٣٣٢ — ٣٣٤ ، وفيات ٢/ ٢٨٥ — ٢٨٧ ، ديباج ٣٥٠ .

(٢) كان بقى بن مخلد المحدث الأندلسى يقدم على رواية يحيى هذه ، رواية أبى المصعب الزهرى ، ورواية يحيى بن بكير ، وعاتبه فى ذلك عبيد الله بن يحيى ، وأخوه إسحق بن يحيى ، فاحتج لفعله بأن أبا المصعب قرشى فاستحق التقديم ، وبأن يحيى بن بكير أكبر من أبيهما فى السن ، وبأنه سمع الموطأ من مالك سبعة عشر مرة ، ويحيى أبوهما لم يسمعه إلا مرة واحدة . صلة بن بشكوال ١/٨٤ . وقد مر لك أن القابسى المالكى ، كان يؤثر رواية ابن القاسم على غيرها بالتقديم ، وأنه اعتمد عليها فى كتابه «الملخص» ، وفى مقدمة عبد الحى اللكنوى لموطأ محمد بن الحسن طبع الهند سنة ١٣٠٦ ص ٣٥ ، كلام فى هذا الصدد يحسن الاطلاع عليه .

(٣) جاء فى كشف الظنون ٢/١٩٠٨ : « وأكثر ما يوجد فيها (نسخ الموطأ) ترتيب الباجى ؛ وهو أن يعقب الصلاة بالجنائز ، ثم الزكاة ، ثم الصيام . ثم اتفقت النسخ إلى آخر الحج ، ثم اختلفت بعد ذلك » .

(٤) لأبى الحسن الدارقطنى رسالة « أحاديث الموطأ » ذكر فيها اتفاق الرواة واختلافهم عن مالك زيادة ونقصا . ولابن عبد البر فى آخر كتابه «التقصّى» ص٢٥٩ وما بعدها ، مقارنة طيبة بين رواية يحيى بن يحيى ، وغيرها من بقية الروايات ، وذكر للأحاديث التى لم تذكرها رواية يحيى . وفى شرح الزرقانى ١/٧ كلمة عابرة مفيدة عن الاختلاف بين الروايات فى الزيادة والنقص .

هذا الكتاب لهذا العهد شرقاً وغرباً[1] .

وأما سَندَى فى هذا الكتاب المتَّصل بيحيى بن يحيى فعلَى ما أصِفه :

حدثنى به جماعةٌ من شيوخنا رحمة الله عليهم .

منهم إمام المالكية ، قاضى الجماعة بتُونِس ، وشيخ الفُتْيا بها ، أبو عَبْد الله محمد بن عبد السَّلام بن يوسف الهَوَّارى[2] ، سَمِعتُه عليه بمنزله بتُونس ، من أوله إلى آخره .

ومنهم شيخ المُسْنِدِين بتُونِس ، الرحَّالة أبو عبد الله محمد بن جَابر بن سُلطان القَيْسى الوادى آشى[3] ، سمعتُ عليه بَعضَه ، وأجازَنى بِسائره .

ومنهُم شيخ المحَدِّثين بالأندلس ، وكبيرُ القُضَاةِ بها ، أبو البركات محمد بن محمد بن محمد — ثلاثة مِنَ المحَدِّثين — بن إبراهيم بن الحاج البَلَّفيقى[4] ، لقيتُه بفاس سنةَ ست وخمسين من هذه المائة الثامنة ، مَقْدَمَهُ من السِّفَارة بين مَلك الأندلس وملك المغرب ، وحضَرتُ مجلسَه بجامع القَرَوِيِّين من فاس ، فَسَمعتُ عليه بعضاً من هذا الكتاب ، وأجازنى بسَائره ، ثم لقيتُه لقاءةً أخرى سنة ثنتين وستِّين ، استَقْدَمَه مَلِكُ المغرب ، السلطانُ أبو سالم ابن السلطان أبى الحسَن للأخذ عنه ، وكنتُ أنا القَارِئَ فيما يأخذُه عنه ، فقرأت عليه صَدراً من كتاب « الموَطَّأ » ، وأجازَنى بسَائره إجازةً أخرى .

---

(١) لا تزال رواية الموطأ لابن وهب فى مكتبتَىْ « فيض الله ، وولى الدين » باستانبول ، ورواية سويد بن سعيد ، ورواية أبى مصعب الزهرى فى المكتبة « الظاهرية » بدمشق . انظر المقدمة التى كتبها العلامة الثقة الشيخ محمد زاهد الكوثرى — أبقى الله حياته — لرسالة « أحاديث الموطأ » للدارقطنى ص ٥ .

وعندى نسخة قيمة من رواية يحيى بن بكير ، بخط حماد بن هبة الله بن حماد بن الفضيل الحرانى ، كتبها وقرأها ببغداد على أبى الحسن سعد الخير الأنصارى الأندلسى ، سنة ٥٣٦ .

(٢) تقدم التعريف بابن عبد السلام فى ص ١٩ .

(٣) تقدمت ترجمته فى ص ١٨ .

(٤) مرت ترجمته فى ص ٦١ .

ومنهم شيخ أهل المغرب لعصره فى العلوم العقلية ، ومُفيدُ جماعتهم ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلى [1] ، قرأتُ عليه بعضَه ، وأجازنى / بسائره ، قالوا كلهم : [١٧٠] حدثنا الشيخ المُعَمَّر ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون الطَّائى [2] ، عن القاضى أبى القاسم أحمد بن يزيد بن بَقِىّ [3] ، عن الشيخ أبى عبد الله محمد بن عبد الحقّ الخزرَجى [4] .

وحدَّثنى به أيضاً شيخُنا أبو البركات ، عن إمام المالكية ببجاية ، ناصر الدين أبى على ، مَنْصُور بن أحمد بن عبد الحق المَشَدَّالى [5] ، عن الإمام شرَف الدين مُحمد بن أبى الفضْل المُرْسِى ، عن أبى الحسن على بن موسى بن النَّقرات [6] عن أبى الحسن على بن أحمد الكِنَانى [7] . قال الخزرجى ، والكنانى : حدثنا أبو عبد الله

---

(١) مرت له ترجمة فى ص ٣٣ .

(٢) أبو محمد عبد الله بن محمد بن محمد بن هرون بن محمد بن محمد بن عبد العزيز الطائى القرطبى ثم التونسى الإمام المسند . أخذ عنه الوادى آشى وغيره من مشايخ العلم والحديث (٦٠٣ — ٧٠٢) . ديباج ص ١٤٣ ، الدرر الكامنة ٢/٣٠٣ .

(٣) أبو القاسم أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن ...... بن تقى بن مخلد (٥٣٣ — ٦٢٥) . « التكملة لكتاب الصلة » ص ١٤١ طبع الجزائر سنة ١٣٣٧ هـ ، « تكميل الديباج » ص ٧٣ ، « الغنية » فى شيوخ القاضى عياض ص ٨٦ (مخطوطة خاصة) .

(٤) أبو عبد الله محمد بن عبد الحق بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الحق الخزرجى القرطبى . سمع من ابن الطلاع . ذكره ابن الأبار فى « التكملة » ١/٢١٤ طبع مدريد سنة ١٨٨٩ م ، وقال إنه لم يقف على وفاته .

(٥) منصور بن محمد بن أحمد بن عبد الحق الزَّواوى المشدَّالى ناصر الدين ، وهو لقب لزمه من المشرق ، حيث إنه رحل إليه ، وأخذ عن علمائه ؛ ويقول العبدرى فى « رحلته » : إنه لم تكن له عناية بالرواية ؛ ومشدَّالة قبيلة من زواوة . عنوان الدراية ص ١٣٤ ، رحلة العبدرى (مخطوطة بمكتبة تيمور) ورقة ١٤٧ . وتقدم له ذكر فى ص ٥٩ .

(٦) على بن موسى بن على (ويقال ابن القاسم) بن على الأنصارى الجيانى يعرف بابن النقرات يكنى أبا الحسن ، ويعرف أيضاً بابن أرفع رأسه (٥١٥ — ٥٩٣) ، ويقول ابن القاضى فى جذوة الاقتباس إنه كان حيا فى سنة ٥٩٣ . طبقات القراء ١/٥٨١ ، الجذوة ص ٣٠٥ ، فوات الوفيات ٢/٩٢ ، تكملة الصلة ٢/٦٧٤ .

(٧) على بن أحمد بن أبى بكر الكنانى ، يعرف بابن حنين ، ويكنى أبا الحسن (٤٧٦ — ٥٦٩) سمع من ابن الطلاع موطأ مالك . جذوة الاقتباس ص ٣٠٤ .

مُحَمَّد بن فرج[1] مولى بن الطَّلَّاع ، عن القاضى أبى الوليد يونس بن عبد الله بن مُغيث ابن الصَّفَّار[2] قاضى الجماعة بقرطبة .

وحدَّثنى به أيضا شيخُنا أبو عبد الله بن جابر ، عن القاضى أبى العبَّاس أحمد ابن محمد بن الغمَّاز[3] ، عن شيخه أبى الرَّبيع سُليمان بن مُوسَى بن سالم[4] الـكَلَاعِىّ[5] ، عن القاضى أبى القاسم عبد الرحمن بن حُبَيْش[6] ، وأبى عبد الله محمد بن سَعيد بن زَرْقُون[7] ، شارح كتاب «الموطأ» ، قال ابن زَرْقون : حدثنا به أبو عَبد الله الخَوْلانِى[8] ، عن أبى عمرو عثمان بن أحمد القَيْجَاطِى[9] ، وقال ٥

---

(١) هو الحافظ أبو عبد الله محمد بن فرج بن الطلاء بالهمزة ، وكان أبو مروان بن سراج يقول : كان فرج يطلى مع سيده اللجم فى الربض الشرقى عند الباب الجديد من قرطبة ، قال : ومن قال الطلاع بالعين فقد أخطأ ، وكذلك قال أبو الوليد بن خيرة . وقالا أيضاً : إن الطلاع بالعين هو والد مولاه محمد بن يحي البكرى المعروف بابن الطلاع . أما أبو بكر ابن برنجال الدانى فيقول : هو بالعين لأن أباه كان يطلع النخل فى قرطبة لاجتنائها فعرف بذلك . وقد رحل الناس الى ابن فرج من كل قطر لسماع الموطأ والمدونة ، وكان يحفظ الموطأ ، وله فيه سند عال . ديباج ص ٢٥٧ ، معجم شيوخ الصدفى ص٢٨ ، الصلة لابن بشكوال ٢/٥٠٦ .

(٢) يونس بن عبد الله بن محمد بن مغيث أبوالوليد القاضى المتوفى سنة ٤٢٩ . « المرقبة العليا » ص ٩٥ — ٩٦ . وفى الديباج ص ٣٦٠ : يونس بن محمد ، وهو خطأ .

(٣) تقدمت ترجمة ابن الغماز فى ص ١٩ .

(٤) أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسان بن سليمان يعرف بابن سالم الـكلاعى (٥٦٥ — ٦٣٤) حافظ مسند ، أكثر الرواية عن أبى القاسم بن حبيش ، وروى عنه ابن الغماز . ديباج ص ١٢٢ .

(٥) بفتح الـكاف ، واللام المخففة . هكذا رأيته ضبط اسمه بخطه على ظهر كتابه : « المسلسلات » فى الأحاديث والآثار ، المحفوظ بمكتبة شهيد على باستانبول تحت رقم ٥٦٢ .

(٦) أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله . . . . . الأنصارى يعرف بابن حبيش من أهل المرية . نيل الابتهاج ص ١٦٢ .

(٧) محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد بن عبد العزيز زرقون (٥٠٢ — ٥٨٦) ، آخر من حدث بالإجازة عن الخولانى ، وكان عالى الرواية . تـكملة الصلة ٢٥٦/١ ، ديباج ص ٢٨٥ .

(٨) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن غلبون الخولانى (٤١٨ — ٥٠٨) روى عن جماعة ، منهم أبو عمرو عثمان بن أحمد القيشطالى (القيجاطى) . صلة ٧٦/١ .

(٩) عثمان بن أحمد بن محمد بن يوسف المعافرى القرطبى يكنى أبا عمرو ، ويعرف بالقيشطيالى (القيشطالى ، القيجاطى) ، توفى سنة ٤٣١ عن ٨٠ سنة . صلة ٣٩٧/١ .

ابن حُبَيْش : حـدَّثنا به القاضى أبو عبد الله ابن أَصْبَغ[1] ويونسُ بن محمد
ابن مُغيث ، قالا : قرأناه على أبى عَبْد الله مُحمد بن الطَّلاَّع[2] . وقال ابن حُبَيش
أيضا : حدَّثَنا به أبو القاسم أحمد بن مُحمد ورْد[3] ، عن القاضى أبى عبد الله
محمد بن خَلَف بن المُرَابِط[4] ، عن المقرئ أبى عُمَر أحمد بن محمد بن عبد الله
٥ المُعَافرى الطَّلَمَنْكِى[5] ؛ قال القاضى أبو الوليـد بن مُغيث ، والقَيْجَاطى ،
والطَّلَمَـنْـكِى : حَدَّثنا أبو عيسَى يحيى بن عبد الله بن يحيى عن عم أبيه أبى مروان
عبيد الله بن يحيى عن أبيه يحيى بن يحيى يحيىقال الطَّلَمَنْـكى : حدَّثنا أبو جعفر
أحمد بن محمد بن حُدَيْر البَزَّاز ، قال حدثنا أبو محمد قاسم بن أَصْبَغ[6] ، قال حدثنا
أبو عبد الله محمد بن وضّاح[7] ، قال حدثنا يحيى بن يحيى عن مالك ، إلاَّ ثلاثةَ
١٠ أبواب من آخر كتاب الاعتكاف ، أولُها خروج المُعتكف إلى العيد ، فإنَّ يحيى

---

[٨] فى أصـل أيا صوفيا : « البزار ، قال » .

---

(١) محمد بن أصبغ بن محمد بن أصبغ الأزدى أبو عبد الله . سمع من أبى عبد الله محمد ابن فرج ، توفى سنة ٥٣٦ ، وهو من أبناء الستين . صلة ٢/٥٢٨ .

(٢) محمد بن يحيى البكرى المتوفى سنة ٤٩٧ . وانظر الاستقصا ١ / ١٢٩ .

(٣) أحمد بن محمد بن عمر بن يوسف بن إدريس بن عبد الله بن ورد التميمى أبو القاسم (٤٦٥ — ٥٤٠) ، سمع الموطأ من أبى على الغسانى . معجم شيوخ الصَّدفى ص ٢٣ ، ديباج ص ٤١ ، إحاطة ١/٥٧ .

(٤) القاضى أبو عبد الله محمد بن خلف بن سعيد المعروف بابن المرابط . أجازه أبو عمر الطلمنكى ؛ توفى بالمدينة بعد سنة ٤٨٠ . ديباج ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

(٥) أحمد بن محمد بن أبى عبد الله بن أبى عيسى المعافرى أبو عمر الطلمنكى ، المتوفى سنة ٤٢٩ ديباج ص ٣٩ ، صلة ص ٩٠ .

(٦) قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح أبو محمد البيانى القرطبى (٢٤٤ — ٣٤٠) ، سمع من ابن وضاح . وانظر تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ١/٢٩٧ ، نفح الطيب ١/٣٥٠ بولاق .

(٧) محمد بن وضاح بن بديع القرطبى أبو عبد الله (١٩٩ — ٢٨٦) ، على خلاف فى مولده ، ووفاته . سمع من يحيى بن يحيى . ديباج ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

شَكٌّ فى سماعها عن مالك ، فسمعها من زياد بن عبد الرحمن الملقب شَبْطون[1] عن مالك .

ولى فى هذا الكتاب طرق أخرى لم يَحْضرنى الآن اتّصالُ سَنَدى فيها .

فمنها عن شَيخنا أبى محمد عبدالمُهَيْمِن بن محمد الحَضْرمىّ[2] كاتب السلطان أبى الحسَن ، لقيتُه بتُونس عند استيلاء السلطان عليها ، وهو فى جملته سنةَ ثمان وأربعين ، وحضرتُ مجلسَه ، وأخذتُ عنه كثيراً ، وسمعتُ عليه بعضَ «الموطأ» ، وأجازنى بالإجازة العامّة ، وهو يَرويه عن الأستاذ أبى جعفر بن الزُّبَيْر ، وعن شيخه الأستاذ أبى إسحق الغافقى ، وعن أبى القاسِم القَبْتُورى ، وجماعةٍ من مَشْيَخَة أهل سَبْتَة ؛ ويتّصل سَنَدُه فيه بالقاضى عِياض ، وأبى العَبَّاس العَزَفِى صاحب كتاب « الدُّر المنَظَّم فى المَوْلِد المعظَّم » .

ومنها عن شيخنا أبى عبد الله الكوسى خطيب الجامع الأعظم بغرناطة ، سمعتُ عليه بعضَه وأجازنى بسائره وهو يَرويه عن الأستاذ أبى جَعفر بن الزُّبَير عن القاضى أبى عبْد الله بن بكّار ، وجماعةٍ من مَشيخة أهل الأندلس ، ويتّصل سَنَده فيه بالقاضى أبى الوليد البَاجى[3] ، والحافظ أبى عُمَر بن عَبد البَرّ[4] بسَندهما .

[٧٠ب] ومنها عن شيخنا المكتِّب أبى عبد الله محمد بن سعد بن بُرّال / الأنصارى

---

(١) زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمى المعروف بشبطون [بشين معجمة مفتوحة فباء موحدة ساكنة ، وبعدها طاء تليها واو ساكنة فنون] ، أول من أدخل مذهب مالك إلى الأندلس ، وكان أهلها قبله على مذهب الأوزاعى . توفى سنة ٢٠٤ على خلاف . انظر نفح الطيب ٣٤٩/١ .

(٢) تقدمت ترجمته فى ص ٢٠ .

(٣) سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب أبو الوليد القاضى . رحل إلى المشرق ، وعاد إلى الأندلس بعلم كثير (٤٠٣ — ٤٩٤) . ديباج ص ١٢٠ ، المرقبة العليا ص ٩٥ ، نفح الطيب ٣٥٣/١ .

(٤) تقدمت ترجمته فى ص ٢ .

شيخ القراءة بتُونس ، ومُعلِّى كتابَ الله ؛ قرأتُ عليه القرآن العظيم بالقِراآت السَّبع ، وعرضتُ عليه قَصيدتَى الشَّاطِبى⁽¹⁾ فى القراءة ، وفى الرَّسْم ، وعرَضْتُ عليه كتابَ التَّقَصِّى لابن عبد البرّ ، وغيرَ ذلك ، وأجازنى بالإجازة العامّة ، وفى هذه بالإجازة الخاصة ، وهو يَرْوِى هـذا الـكتاب عَن القاضى أبى العبّاس أحمد

٥ ابن مُحمد بن الغَمَّاز ، وعن شيْخِه أبى العبَّاس أحمد بن موسَى البَطَرْنى بسَنَدها .

ومنها عن شيخنا الأستاذ أبى عبد الله محمد بن الصَّفَّار المَرّاكُشى ، شيخ القراآت بالمغرب ، سمِعت عليه بعضَ هذا الـكتاب بمجلس السُّلطان أبى عثمان ملِك المَغرب ، وهو يُسْمِعه إياه ، وأجازَنى بسائره ؛ وهو يَرويه عن شَيْخه مُحدِّث المَغْرِب أبى عَبد الله محمد بن رُشَيد الفِهرى السَّبْتى⁽²⁾ عن مشْيَخَة أهل سَبْتَة ،

١٠ وأهل الأندلُس ، حَسْبَما ذلك مذكور فى كُتُبِ رواياتهم وطُرقِ أسَانيدهم ، إلا أنَّها لم تَحضُرنى الآن ، وفيما ذكرناه كفاية والله يوفّقنا أجمعين لطاعته وهَـذا حينَ أبتَدى ، وبالله أهتَدى .

وانفَضَّ ذلك المَجْلس ، وقد لاَحظتنى بالتَّجِلَّة والوَقار العيُون ، واستَشْعرتْ أهليتى للمناصب القُلُوب ، وأخلَص النَّجِىّ فى ذلك الخاصّةُ والجُمْهور ، وأنا أنتابُ

١٥ مَجلسَ السلطان فى أكثر الأحيان ، لتأدية الوَاجب من التَّحية والمُشَافهة بالدُّعاء ، إلى أن سَخِط السلطانُ قَاضىَ المالـكية يومئـذ فى نَزعةٍ من النَّزَعات الملوكيّة ، فأبعَدَه ، وأخَّره عن خِطَّة القَضاء فى رجبٍ ستٍّ وثمانينَ وسبعمائة ، ودَعَانى

---

[١] طب : « شيخ القراآت بتونس » .

---

(١) اللامية المسماة بحرز الأمانى ، والمشهورة بالشاطبية ، والرائية ، وتسمى « عقيلة أتراب القصائد » . وانظر ترجمة الشاطبى فى ص ١٦ .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر .... بن رشيد الفهرى السبتى (٦٥٧ — ٧٢١) ، له ترجمة فى البغية ص ٨٥ ، الدرر الكامنة ١١١/٤ ، شذرات الذهب ٥٦/٦ .

الولاية فى مجلسه ، وبين أمرائه فتفاديتُ من ذلك ، وأبى إلا إمضاءه ، وخلع علىّ ، وبعث الأمراء معى إلى مقعد الحكم بمدرسة القضاء ؛ فقمت فى ذلك المقام المحمود ، ووفّيتُ عهدَ الله وعهدَه فى إقامة رسوم الحقّ ، وتحرّى المعدلة ، حتى سخطنى من لم ترضِه أحكامُ الله ، ووقع فى ذلك ما تقدّم ذكره ، وكثر شغب أهل الباطل والمراء ، فأعفانى السلطان منها لحول من يوم الولاية ، ٥
وكان تقدّمها وصولُ الخبر بغرق السفين الواصل من تونس إلى الأسكندرية ، وتلف الموجود والمولود ، وعظُمَ الأسف ، وحسُنَ العزاء ، والله قادرٌ على ما يشاء .

ثم خرجتُ عامَ تسعةٍ وثمانين لقضاء الفرض ، وركبتُ بحرَ السويس من الطور إلى الينبُع ، ورافقتُ المحمِل إلى مكّة ، فقضيتُ الحجّ عامئذ ، وعدتُ إلى مصر فى البحر كاسافرت أولا . وشغرَتْ وظيفةُ الحديث بمدرسة صَلْغتمش ، ١٠
فولّانى السلطانُ إياها بدلاً من مدرستِه فى مُحرَّم أحد وتسعين ، ومضيتُ على حالى من الانقباض ، والتدريس ، والتأليف ، حتى ولّانى خانقاه بيبرس ، ثم عزلنى عنها بعد سنةٍ أو أزيد ، بسبب أنا أذكره الآن .

ولاية خانقاه بيبرس[1]، والعزل منها

لما رجعت من قضاء الفرض سنةَ تسعين ، ومضيتُ على حالى من التدريس ، والتأليف ، وتعاهُدِ السلطان باللقاء والتحية والدعاء ، وهو ينظُر إلىّ بعَين الشفقة ، وحُسن المَواعيد ، وكانت بالقاهرة خانقاه شيّدها السلطان بيبرس ، ثامن ملوك الترك[2] الذى استبدّ على الناصر محمد بن قلاون[3] هُوَ ورفيقه سلار[4] ، / وأنِفَ الناصر من استبدادِهما ، وخرج للصّيد ، فلمّا حَاذَى الكَرَك[5] [٧١] امتنَع به ، وتركَهم وشأنَهم[6] ، فجلَس بيبرس على التخت مكانَه ، وكاتَبَ الناصرَ أمراءُ الشّام من مَماليك أبيه ، واستدْعَوه للقيام معَه ، وزحَفَ بهم إلى مِصر ، وعادَ إلى سُلْطانِه ، وقتَل بَيْبَرْسَ وسَلّار سنة ثمانٍ وسبعمائة[7] . وشيّد بيبرس

(١) فى الخطط للمقريزى طبع مصر ٤/٢٧٦ ومابعدها ، حديث مفصل عن هذه الخانقاه ، وعن بانيها الملك المظفر ركن الدين بيبرس . وانظر تاريخ ابن إياس ١/١٤٩ — ١٥٣ .

(٢) فى تاريخ ابن إياس ١/١٤٩ ، أنه الثانى عشر من ملوك الترك .

(٣) هو الملك الناصر محمد بن الملك المنصور ابن قلاوون تولى الملك ثلاث مرات كانت الأخيرة منها فى سنة ٧٠٩ ، وبقى ملكا حتى مات سنة ٧٤١ ، وعمره ٥٨ سنة . وانظر الخطط طبع مصر ٤/٩٨ — ١٠٢ .

(٤) الأمير سيف الدين سلار المنصورى ، كان من أسرى التتار ، فخلص وصار مولى لعلاء الدين على ابن المنصور بن قلاوون ، وإليه ينتسب ؛ ساءت علاقته بالناصر ، فاعتقله ، واستصفى أمواله وقتله . وانظر العبر ٥/٤٢٤ — ٤٢٥ .

(٥) بفتح أوله وثانيه : [El Kerak عرضها الشمالى ٣١° — ٧′ ، وطولها الشرقى ٣٥° — ٢٧′] ، قلعة حصينة تقع فى المملكة الأردنية الهاشمية على الشاطئ الشرقى للبحر الميت . وانظر ياقوت ٧/٢٤٠ ، تاج العروس (كرك) .

(٦) فى العبر لابن خلدون ٥/٤٢٢ تفصيل لهذا .

(٧) فى العبر ٥/٤٢٤ : أن ذلك كان فى سنة ٧١٠ وهو الأشبه بالصواب ، لأن الناصر عاد إلى الملك فى سنة ٧٠٩ .

هذا أيام سلطانه داخل باب النصر[1] من أعظم المصانع وأحفلها ، وأوفرها رَيْعا ، وأكثرها أوقافا ، وعَيَّن مشيختها ، ونظرها لمن يستَعدّ له بشرطه فى وقفه ، فكان رِزقُ النَّظَر فيها والمشيَخة واسعاً لمن يتولاه ، وكان ناظرها يومئذ شَرف الدِّين الأشقر إمام السلطان الظاهر[2] ؛ فتوفى عند منصرفى من قضاء الفَرْض ، فولانى السلطان مكانه تَوسِعة علىّ ، وإحسانًا إلىّ ، وأقمتُ على ذلك إلى أن وقعت فتنة الناصرى .

---

(١) كذا بالأصول .

(٢) فى السلوك (ورقة ١٤١ ا نسخة الفاتح) سنة ٧٩١ و : « ... وفى ٢٦ ربيع الآخر ، استقرّ قاضى القضاة أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون فى مشيخة الخانقاه الركنية (نسبة لركن الدين بيبرس) عوضاً عن شرف الدين عثمان الأشقر بعد موته » .

ومما يجب الالتفات إليه أن ابن الفرات حين ذكر فى تاريخ الدول والملوك (٦٥/١ سنة ٧٩١) تولية ابن خلدون مشيخة البيبرسية قال : « ... وكان قد تنزّل بها صوفياً ، وحضرها يوما واحداً ، لأن من شرطها أن يكون شيخها أحد الصوفية بها » . فما يقال اليوم — استناداً إلى هذه التولية — عن تصوف ابن خلدون فى مصر ، وعما عسى أن يكون له من دخل فى تعديل ابن خلدون لبعض آرائه فى « مقدمته » نتيجة لهذا التحول الروحى الجديد لا يقره نص ابن الفرات المذكور ، على أنه قد جاء فى « تنبيه الغبى ، على تكفير ابن العربى » للبقاعى (ورقة ١٦٢ ا نسخة شهيد على ٢/٧٣٤) فتوى لابن خلدون فى ابن العربى ، ومن سلك سبيله من المتصوفة ، وفى حكم الشرع فى كتبه ، تعتبر دليلا صريحاً على أن الرجل لم تحوله — تماماً — بيئته فى أهله وولده ، وتوليته مشيخة الخانقاه هذه ، عن طريقته التى كان ينظر بها إلى الأشياء ويحكم بمقتضاها عليها .

فتنة النّاصرى(١)، وسياقةُ الخبر عنها بعد تقديم كلام فى أحوال الدُّول يليق بهذا الموضع، ويُطلعك على أسرار فى تنقُّل أحوال الدول بالتدريج إلى الضّخامة والاستيلاء، ثُم إلى الضّعف والاضمحلال، والله بالغ أمره.

وذلك أن الدُّول الـكلّية، وهى التى تتعاقب فيها للملوك واحدا بعد واحد، فى مدة طويلة، قائمين على ذلك بعصَبية النَّسب أو الولاء، وهذا كان الأصلَ فى استيلائهم وتغلُّبهم، فلا يزالون كذلك إلى انقراضهم، وغلَب مستَحقّين آخرين يَنزَعُونه من أيديهم بالعَصبية التى يقتدرون بها على ذلك، ويَحُوزون الأعمال التى كانت بأيدى الدولة الأُولى؛ يَفُضُّون جِبايتَها بينهم على تفاضـل البأس، والرُّجولة، والـكثرة فى العِصابة أو القلّة؛ وهم على حالهم من الخشونة لمُعاناة البأس، والإقلال من العَيش لاستصحابِ حال البَداوة، وعدم الثَّروة من قبل، ثم تَنمو الثَّروة فيهم بنُمُوّ الجباية التى ملـكوها، ويُزَيّن حُبُّ الشَّهوات للاقتـدار عليها، فيَعظُمُ التّرف فى المَلابس، والمطاعم، والمساكن، والمراكب، والممالك، وسائر الأحوال، ويتزايد شيئا فشيئا بتزَايُدِ النِّعَم وتَقَسّعُ الأحوال أوسعَ ما تكون، ويَقصُر الدَّخل عن الخَرْج، وتَضـيقُ الجِباية عن عن أرزاق الجُنْد وأحوالهم، ويَحصل ذلك لـكلّ أحدٍ ممن تحتَ أيديهم، لأن النّاسَ تبَع لملوكهم ودَولتهم، ويُراجِـع كلُّ أحدٍ نَظَره فيما هو فيه من ذلك، فيَرجع وراءه، ويطلب كِفاء خَرْجه بدَخْله.

---

(١) انظر العبر ٥/٤٧٥ وما بعدها.

ثم إن البأسَ يَقِـلُّ من أهل الدولة بما ذهب لهم من الخشُونة ، وما صاروا إليه من رِقّة الحاشية ، والتنعُّم ، فيتطاول من بقى من رؤساء الدّولة إلى الاستبداد بها غيرةً عليها من الخلل الواقع بها ، ويستعد لذلك بما بَقى عنـده من الخشونة ، ويحمِلهُم على الإقلاع عن الترَّف ، ويستَألف لذلك العصابةَ بعشيره أو بمَن يدعوه لذلك ، فيستولى على الدولة ، ويأخذ فى دَوائها من الخلَل الواقع ، وهو أحقُّ الناس به ، وأقربُهم إليه ، فيصير المُلكُ له ، وفى عَشيرِه ؛ وتصير كأنها دولة [٧١ب] أخرى ، تَمرُّ عليها الأوقات ، و يقع فيها / ما وقع فى الأولى ، فيستولى آخَرُ منهم كذلك ، إلى أن تنقرضَ الدولة بأسرها ، وتخرج عن القوم الأولين أجمع . وتأتى دولة أخرى مُباينة لعصابةِ هؤلاء فى النَّسَب ، أو الوَلاء . سُنّةُ الله فى عباده .

وكان مبدأ هذه الدولة التركية ، أنَّ بَنى أيُّوب لما ملـكوا مصرَ والشام ، كما قَصَصناه عَليك فى أخبارهم ، واستقلَّ بها كبيرُهم صلاح الدين[1] ، وشُغِل بالجهاد وانتزاع القلاع والحصُون من أيدى الفرنج الذين ملـكوها بالسّواحل ، وكان قليلَ العِصابة ، إنما كان عَشيرُه من الـكُرد يُعرَفُونَ ببنى هَذَان[2] ، وهم قليلون ، وإنما كَثَّر منهم جماعةُ المسلمين بهمّة الجهاد الذى كان صَلاح الدين يدعو إليه ، فعظُمت عصابتُه بالمسْلمين ، وأسمع دَاعيه ، ونصَر الله الدِّين على يَده ، وانتزَعَ السّواحِل كلَّها من أيدى نَصَارى الفرنج ، حتّى مَسْجد بَيْتِ المَقـدِس ، فإنهم كانوا مَلـكوه وأفحشوا فيه بالقتْل والسَّبى ، فأذهبَ الله هـذه الوَصْمَة على يد صلاح الدِّين ، وانقسم مُلْك بنى أيُّوب بعدَه بين وَلده ، وولد أخيه ، واستفحل

[١٣] فى أصل أيا صوفية : « بنى هدمان » ، طب : « بنى هدبان » تصحيف ، والذى أثبت من وفيات الأعيان .

(١) فى وفيات الأعيان ٢/٤٩٥ — ٥٣٩ ، ترجمة حافلة لصلاح الدين .

(٢) بفتح الهاء ، والذال المعجمة ، وبعدها ألف ، ثم نون ؛ وهى قبيلة كبيرة من قبائل الأكراد . وفيات ٢/٤٩٥ .

أمرُهم ، واقتَسموا مدُن الشّام ، ومصْرَ بينَهم ، إلى أن جاء آخِرَهم الصالح نَجْمُ الدين أيوب[1] ابن الكامل[2] محمد بن العادل[3] أبى بكر أخى صلاح الدّين ، وأراد الاستكثَار من العِصابة لحِماية الدّولَة ، وإقامة رسـوم الملك ، وأن ذلك يَحصل باتخاذ المماليك ، والإكثار منهم ، كما كان آخراً فى الدولَة العباسية ببغداد ؛

٥ وأخذ التُّجار فى جَلْبهم إليه ، فاشترَى منهم أعدادا ، وأقام لتربيتهم أسَاتيذ معَلِّمين لحرفَة الجُندية ، من الثّقافة والرَّمى ، بعدَ تعليم الآداب الدينية والخُلقية ، إلى أن اجتمع له منهم عددٌ جَمٌّ يناهز الألف ؛ وكان مقيما بأحواز دِمْياط[4] فى حماية البلاد من طوارق الفرنج المتغلّبين على حصنها دِمْياط ، وكان أبوه قد اتخذ لنزله هنالك قلعةَ سمّاها المنصورة[5] ، وبها توفى رحمه الله ، فكان نجم الدين نازلا بها

١٠ فى مُدَافعة سَاكنى دِمْياط من الفرنج ، فأصابه هنالك حَدثُ الموت ، وكان ابنه المعظّم تُورَنْشاه نائبا فى حصن كَيْفا[6] من ديار بَكر وَرَاءَ الفُرات ، فاجتمع الجندُ على بيعته ، وبعَثوا عنه ، وانتظروا ، وتَفَطّن الفرنج لشأنهم ، فهجموا

---

(١) أخباره مفصلة فى « العبر » ٥/٣٥٥ — ٣٦٠ .

(٢) انظر الخطط للمقريزى ٢/٢٣٥ بولاق .

(٣) انظر الخطط ٢/٢٣٦ بولاق .

(٤) Damietta [، عرضها الشمالى ٣١° — ٢٢′ ، وطولها الشرقى ٣١° — ٥١′] ، وقد ضبطها ابن خلدون بخطه بالحركات ، بكسر الذال المعجمة ؛ وقد حكى الإعجام الزبيدى فى «تاج العروس» ، والسمعانى فى «الأنساب» عن أبى محمد بن أبى حبيب الأندلسى ؛ قال السمعانى معقبا : «وما عرفناه إلا بالدال المهملة» . ويقول العبدرى فى رحلته (٧١ ب مخطوطة تيمور) : إن أكثر الناس يعجمها ، وقد سأل شيخه الشرف الدمياطى عن ذلك ، فقال إن الإعجام خطأ ، وقد أخطأ الرشاطى حيث وضعها فى « أنسابه » فى الذال المعجمة . وانظر ياقوت ٤/٨٤ — ٨٨ ، تاج العروس (دمط ، ذمط) ، أنساب السمعانى ٢٢٩ ظ .

(٥) Mansura عرضها الشمالى ٣٠° — ٥٩′ ، وطولها الشرقى ٣١° — ٢٠′) ، بلدة أنشأها الملك الكامل بن العادل بن أيوب بين دمياط والقاهرة ، ورابط فيها فى وجه الافرنج لما ملكوا دمياط وذلك فى سنة ٦١٦ ، ولم يزل بها حتى استنقذ دمياط فى رجب سنة ٦١٨ . ياقوت ٨/١٧٨ .

(٦) حصن كيفا : قلعة عظيمة مشرفة على دجلة ، بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر . ياقوت ٣/٢٨٦ . وانظر مفصّل أخبار تورنشاه فى العبر ٥/٣٦٠ وتاريخ ابن الوردى ٢/١٧٣ . والسلوك ص ٣٥١ وما بعدها .

عليهم ، واقتتلوا فنصر الله المسلمين ، وأُسر مَلِكُ الفرنج رَيْد إفرَنْس ، فبعثوا به إلى مصر ، وحُبِس بدار لُقمان ، إلى أن فادَوْه بدِمياط ، كما هو مذكور فى أخبار بنى أيوب[1] . ونصبوا — للمُلْك ، ولهذا اللقاء — زَوجةَ الصالح أيُّوب واسمُها شَجَرُ الدُّر[2] ، فكانت تحكم بين الجند ، وتكتُب على المراسيم[3] ، ورَكِبت يوم لقاء الفرنج ، تحت الصَّناجق[4] ، والجندُ مُحْدِقون بها ، حتى أعز الله دينَه ، وأتمّ ٥ نصره ، ثم وصَل تورنشاه المعظَّم ، فأقاموه فى خطَّة المُلك مكان أبيه الصالح أيوب ، ووَصَل معه مماليكُ يُدِلُّون بمكانهم منه ، ولهم به اختصاص ، ومنه مكان ؛ وكان [١٧٢] رُؤساء الترك يومئذ القائمون بالدولة من عَهد أبيه وجدِّه ، أَقْطاىَ الجَمَدار[5] / ، وأَيْبَك التُّرْكُمانى[6] ، وقَلاوُن الصالحى[7] ، فأنفُوا من تصرفات مماليك تُورنْشَاه ، واستعْلائِهم بالحظِّ من السلطان ، وسَخِطوهم وسخطوه ، وأجمعوا قتلَه ، فلما رحل ١٠ إلى القَاهرة اغتالوه فى طريقه بفَارِسْكُور ، وقتلوه ، ونصبُوا للأمر أَيْبَك

---

(١) تفصيل هذه الأحداث مذكور فى العبر ٥/٣٦٠ — ٣٦١ . وانظر تاريخ ابن الوردى ٢/١٨٢ — ١٨٣ .

(٢) بعضهم يكتبها : « شجرة الدر » ، وكان يخطب باسمها على المنابر ، ونقشت على « السكة » ، وكان نقشها : « السكة المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، والدة المنصور خليل » ، وخليل هذا ابنها من الملك الصالح توفى فى حياة أبيه ، وكانت تكنى به . وانظر العبر ٥/٣٦١ ، ٣٧٣ ، الخطط ٢/٢٣٧ بولاق ، تاريخ ابن الوردى ٢/١٨٣ .

(٣) يعنى اتخذت لها « علامة » تختم بها على المراسيم ، وكانت علامتها — فيما يرى ابن خلدون : « أم خليل » ، أما ابن الوردى فيقول : « والدة خليل » . العبر ٥/٣٦١ ، ٣٧٣ ، ابن الوردى ٢/١٨٣ .

(٤) جمع سنجق ، وهو فى الأصل الرمح ، وكانت تجعل فى رأسه الراية ، ومن ثم أصبح معناه : الراية مباشرة . صبح الأعشى ٥/٤٥٨ .

(٥) أخبار أقطاى مفصَّلة فى العبر ٥/٣٧٥ . والجدار : هو الذى يتولى إلباس السلطان ، أو الأمير ثيابه ؛ وأصله جاما دار لحذف المدّ منه فقيل : جمدار ، وهو مركب من كلمتين فارسيتين : « جاما » ، ومعناها ثوب ، و « دار » ، ومعناها : ممسك . وانظر صبح الأعشى ٥/٤٥٩ .

(٦) فى المنهل الصافى ج ١ ص ٢ (نسخة نور عثمانية) ، خطط المقريزى ٢/٢٣٨ بولاق ترجمة وافية له .

(٧) انظر العبر ٥/٣٩٤ وما بعدها .

التركمانى[١] منهم ، واستحدثوا هذه الدولة التركية كما شرحناه فى أخبارها ؛ وهلك بعد أَيْبَك ابنُه علىّ المنصور[٢] ، ثم مولاه قُطُز[٣] ، ثم الظاهر بَيْبَرس البُندُقْدَارى[٤] ، ثم ظهر أمر الطَّطَر ، واستفحل ملكهم ، وزحف هولاكو ابن طولى بن جِنكِيزخان[٥] من خُراسان إلى بَغداد ، فملكها ، وقتل الخليفةَ المستعصم آخر بنى العباس ، ثم زحف إلى الشام ، فملك مدُنَه وحواضره من أيدى بنى أيوب ، إلى أن استوعبها ، وجاء الخبر بأن بَرَكَة[٦] صاحب صَرَاىْ شريكه فى نَسَب جِنكِزخان ، زحف إلى خُراسان ، فامتعض لذلك ، وكرّ راجعا ، وشُغِل بالفتنة معه إلى إن هلك ، وخرج قُطُزْ من مصر عندما شُغل هُولاكو بفتنة بَرَكَة ، فملك الشام كله ، أمصارَه ومُدنَه ، وأصارَه للترك موالى بنى أيوب ، واستفحلت دولةُ هؤلاء المماليك ، واتّصلت أيامُها واحداً بعد واحد ، كما ذكرنا فى أخبارهم . ثم جاء قَلَاوُن[٧] عندما ملك بَيْبَرْس الظاهرُ منهم ، فتظاهر به ، وأصهر إليه ، والترفُ يومئذ لم يأخذ منهم ، والشِّدة والشكيمة موجودةٌ فيهم ، والبأسُ والرجولةُ شعار لهم ؛ وهلك الظاهرُ بَيْبَرس ، وابناه من بعده ، كما فى

(١) انظر تفصيل هذا فى « العبر » ٣٧٣/٥ .

(٢) انظر ترجمته فى خطط المقريزى ٢٣٨/٢ ، بولاق ، وأخبار توليه الحكم فى العبر ٣٧٧/٥ ، ٣٧٨ .

(٣) سيف الدين قطز بن عبد الله المعزى ، تولى الملك سنة ٦٥٧ ، ولقب بالملك المظفر ، وقتله بيبرس البندقدارى سنة ٦٦٨ . له وقائع مع التتار فى الشام ، انتصر فيها عليهم فذكرت انتصاراته الشعراء . المنهل الصافى ٢٠٥/٢ (نسخة نور عثمانية) ، خطط المقريزى ٢٣٨/٢ بولاق ، العبر ٣٧٨/٥ وما بعدها .

(٤) انظر ترجمته فى الخطط ٣٠٠/٢ ، ٢٣٨ بولاق . وخبر توليه السلطنة فى العبر ٣٨٠/٥ ، ٣٨١ . والبندقدارى : هو الذى يحمل غرارة البندق خلف السلطان . والبندق : الذى يرمى به ، وأصله البندق الذى يؤكل ، وهو فى العربية الجلوز صبح الأعشى ٤٥٧/٥ السلوك ص ٣٥٠ .

(٥) سيبسط القول عن جنكيزخان ، وأولاده فيما بعد .

(٦) يأتى الحديث عنه فيما بعد .

(٧) أنظر أخباره فى العبر ٣٩٤/٥ — ٤٠٣ .

أخبارهم ؛ وقام قَلَاوُن بالأمر ، فاتّسع نِطاقُ مُلكه ، وطال ذِرْع سلطانه ، وقصُرت أيدى التطّطَر عن الشام بهلاك هُولاكو ، وولاية الأصاغر من ولده ، فعظم مُلْك قَلَاوُن ، وحَسُنت آثارُ سياسته ، وأصبَحَ حجةً على من بعده ؛ ثم ملك بعدَه ابناه : خَليل الأشرف[1] ، ثم مُحمد الناصر[2] ، وطالت أيامُه ، وكثُرت عصابته من مماليكه ، حتى كَمُل منهم عَدَد لم يقَع لغيره ، ورتّب للدّولة المَراتِب ، ٥
وقَدّم منهم فى كل رُتبة الأمراء ، وأوسَع لهم الإقطاع وَالولايات ، حتى توفّرت أرزاقُهم واتسعت بالتّرَف أحوالهم ، ورحَل أربابُ البضائع من العلماء والتُّجّار إلى مصر ، فأوسعَهم حِباء و برّا ، وتنافست أمراء دَولته فى اتخاذ المدارس والرُّبط والخوانق ، وأصبَحت دولتهم غُرّة فى الزمان ، وواسطةً فى الدّول ؛ ثم هلك الناصر بعد أربعين وسبعمائة ، فطفِق أمراء دَولته يَنصِبُون بنيه للملك ، واحدا بعد ١٠
آخَر ، مستبدّين عليهم ، متنافسين فى الملك ، حتى يغلبَ واحد منهم الآخَر ، فيقتُلَه ، و يقتُلَ سلطانه من أولاد الناصر ، ويَنْصِبَ آخر منهم مكانَه ، إلى أن انسَاق الأمرُ لولده حسَن النّاصر[3] ، فقَتَل مُستَبدَّه شيخون[4] ، وملك أمرَه ، وألقَى زِمام الدولة بيد مملوكه يَلْبُغا[5] ، فقام بها ، ونافسَه أقرانُه ، وأغرَوا به سلطانَه ، فأجمع قتلَه ونُمِى إليه الخبرُ وهو فى علوفة البرْسيم عنـد خَيْله المُرْتبَطة ١٥
[٧٢ب] لذلك ، فاعتزم على الامتناع ، واستعدّ للقاء ، واستدعاه سلطانُه / فتثاقَل عن

---

(١) انظر العبر ٥/٤٠٣ — ٤٠٦ حيث ذكر توليته ، وفتوحاته ، ثم مقتله .

(٢) انظر أخباره فى العبر ٥/٤٠٦ .

(٣) لقبوه بالناصر (لقب أبيه) ، وانظر أخباره فى العبر ٥/٤٤٧ — ٤٥٢ ، وابن إياس ١/١٩٠ — ٢١١ .

(٤) الأمير الكبير سيف الدين الناصرى ، قتل سنة ٧٥٨ . وإليه ينسب الجامع ، والخانقاه تجاهه بالقاهرة . خطط المقريزى ٤/١١٣ وما بعدها طبع مصر .

(٥) هو يلبغا بن عبد الله الخاصكى (نسبة إلى خواص السلطان) . وانظر ص ٤٧ ، ١٢٧ حيث تقدمت ترجمته .

القُدوم ، واستشَاط السلطان ، وركِب فى خاصته إليه ، فركِب هو لمصَادمته ، وهاجَم السلطانَ ففلَّه ، ورجَع إلى القلعة ، وهو فى اتِّباعه ، فلم يُلفِه بقصْره ، وأغرَى به البحثَ فتقبَّض عليه ، واستصفاَه ، وقتَله ؛ ونَصَب للملك محمدَ المنصورَ[1] ابن المظفَّر حَاجي بن الناصر ، وقام بالدولة أحسن قيام ، وأغرَى نفسَه بالاستكثار

٥ من المماليك ، وتهذيبهم بالتَّربية ، وتوفير النِّعم عندهم بالإقطاع ، والولايات ، حتى كمُل منهم عدد لم تعهده الدولة ، ثم خلَع المنصور ابن المظفَّر لسنتين ، ونصبَ مكانَه للمُلك شعبانَ الأشرف[2] بنَ حُسَين بن النَّاصر ، فأقام على التَّخت وهو فى كفالته ؛ وهو على أوَّله فى إعزاز الدولة ، وإظهار التَّرَف والثروة ، حتى ظهرت مخايل العِزّ والنِّعم ، فى المساكن ، والجياد ، والمماليك ، والزينة ؛ ثم بَطِرُوا النِّعمة،

١٠ وكفَرُوا الحقوق ، فحَنِقوا عليه لِمَا كان يتجاوز الحدود بهم[3] فى الآداب ، فهمّوا بقَتله ، وخلَصوا نَجِيا لذلك فى مُتَصيَّدهم الشَّتَوى ، وقد برَّزوا له بخيامهم وسلطانهم على عَادتهم ؛ ولما أحسَّ بذلك ركب ناجيا بنفسه إلى القاهرة ، فَدخلوا على السلطان الأشرف ، وجاءوا به على إثْره ، وأجازوا البحر ، فقبضوا عليه عَشِيَّ يومِهم ، ثم قتلوه[4] فى مَحْبِسه عشاء ، وانطلقت أيديهم على أهل البلَد بمَعَرّات

١٥ لم يعهدوها من أول دولتهم ، من النَّهْب ، والتَّخطُّف ، وطرُوق المنازل والحمّامات للعَبَث بالحُرَم ، وإطلاق أعنَّــة الشَّهَوات والبغْى فى كل ناحية ، فمَرِج أمرُ النَّاس ، ورفع الأمر إلى السُّلطان ، وكثُر الدعاء والَّلجأُ إلى الله ، واجتمع أكابر الأمر إلى السلطان ، وفاوضوه فى كفِّ عاديتهم ، فأمرهم بالركوب ، ونادَى فى

---

(١) فى العبر خبر تنصيبه للملك بأوسع مما هنا ٥/٤٥٢ ، وانظر تاريخ ابن إياس ١/٢١١ — ٢١٢

(٢) انظر تاريخ بن إياس ١/٢١٢ — ٢٣٨ ، والعبر ٥/٢٥٣ وما بعدها حيث تجد الحديث الوافى عن تولية الأشرف ، وأخباره .

(٣) كان يضربهم بالعصا ، ويجذع أنوفهم ، ويصطلم آذانهم . العبر . ٥/٤٥٦ .

(٤) فى العبر عرض واضح لهذه الثورة ٥/٤٥٦ — ٤٥٨ .

جُنده ورعيته بانطلاق الأيدى عليهم ، والاحتياط بهم فى قَبْضَة القهر ، فلَمْ يكن إلا كلَمح البَصَر ، وإذا بهم فى قبضة الأسر ، ثم عُمِّرت بهم السُّجُون ، وصُفِّدوا وطِيف بهم على الجِمال ينـادَى بهم ، إبلاغاً فى الشهْرَة ؛ ثم وُسِّط[1] أكثرهم ، وتُتُبِّع البقيةُ بالنَّفْى والحَبْس بالثغور القَصِية ، ثم أُطلِقوا بعدَ ذلك ، وكان فيمن أطلق جماعةٌ منهم بحَبْس الكَرَك فيهم بَرْقوق الذى ملك أمرَهم بعد ذلك ، وبركة الجُوبَانى[2] ، وألطُنْبُغا الجوبانى[3] وجهَركَس الخليلى .

وكان طشتمر[4] ، دَوَادار يَلْبُغا[5] ، قَدْ لطُفَ محلُّه عند السّلطان الأشرف ، ووَلِى الدَّوَادَارية له ، وكان يؤمّل الاستبداد كما كان أستاذه يُلْبُغا ، فكان يَحتال فى ذلك بجمع هؤلاء المماليك اليَـلْبُغَاوية من حيث سقطوا ، يُرِيد بذلك اجتماعَهم عُصْبةً له على هواه ، ويُغرِى السلطان بها شِفاهاً ورسالة ، إلى أن اجتمع أكثرُهم بباب السّلطان الأشرف ، وجعَلَهم فى خدمة ابنه علىّ ولىّ عهده[6] ؛ فلما كَثُروا ، وأخذَتهم أرْيَحيةُ العزِّ بعَصَبيتهم ، صَاروا يَشتَطُّون على السّلطان فى المطالب ، ويعتَزُّون بعصبية اليَـلْبُغَاوية ، واعتزم السلطان الأشرفُ عام

(١) وسطه توسيطا : قطعه نصفين ، ويقال قتل فلان موسّطا .

(٢) هو بركة بن عبد الله الجوبانى اليلبغاوى الأمير زين الدين . كان أميراً شجاعا يحب العلماء ؛ له مآثر خيرية بمكة ، والحرم ، وبطريق المدينة . قتل سنة ٨٧٢ . المنهل الصافى ١٨٢/١ — ١٨٣ (نسخة نور عثمانية) .

(٣) علاء الدين ألطنبغا بن عبد الله الجوبانى اليلبغاوى الأمير ، كان من خيار الأمراء دينا ، وعقلا وشجاعة . مات فى الواقعة بين منطاش والناصرى خارج دمشق سنة ٧٩٢ هـ ، وكان صديقاً لابن خلدون ، وقد عرف به وأثنى عليه فى العبر ٤٧٦/٥ — ٤٧٩ ، ٤٦٢/٥ . ترجمته فى « المنهل » ١٣٩/١ ب (نسخة نور عثمانية) .

(٤) طشتمر بن عبد الله العلائى الدوادار الأمير سيف الدين ، توفى فى دمياط منفياً سنة ٧٨٦ . أثنى عليه ابن تغرى بردى كثيراً بمقدار ما قدح فى بركة ، والظاهر برقوق . المنهل ٤١٠/١ (نسخة نور عثمانية) .

(٥) لقب للذى يمسك دواة السلطان أو الأمير ، ويتولى من الأمور ما يلزم هذا المعنى ، من حكم ، أو تنفيذ أمور ، أو غير ذلك . صبح الأعشى ٤٦٢/٥ .

(٦) انظر تفصيلا أوسع فى العبر ٤٦٢/٥ .

سبعة وسبعين على قضَاء الفَرْض ، فخَرَج لذلك خروجاً نحا ، واستناب ابنَه عليًّا

على قَلعته ومُلكه فى كفالة قُرْطاى[1] من أكابر اليَلْبُغاوية ، وأخرج معه الخليفة

والقضاة . فلما بلغ العقَبة[2] اشتَطَّ المماليك فى طلب جِرايتهم من العُلُوفة والزّاد ،

واشتَطَّ الذين بمصر / كذلك فى طلَب أرزاقهم من المتولّين للجباية ، وصار [٧٣

٥ الذين مع السلطان إلى المكاشفة فى ذلك بالأقوال والأفعال ، وطشمتر الدَّوادَار

يُغضِى عَنهُم ، يَحْسُبُ وقتَ استبداده قد أزِف ، إلى أن راغمهم السُّلطان بالزَّجر ،

فركبوا عليه هنالك ، وركِب من خيامه مع لَفِيف من خاصّته ، فنَضَحوه بالنَّبل ،

ورجَع إلى خيامه ، ثم ركب الهُجُن مَساء ، وسَار فصَبَّح القاهرة ، وعرَّس هُو

ولفيفهُ بقُبَّة النَّصْر .

١٠ وكان قُرْطاى كافلُ ابنه علىّ المنصور ، حَدَث بينَه و بين ناظرِ الخاص

المَقْسِى مكالَمة عند مَغيب السُّلطان أحْقَدَته ، وجَاشَت بما كان فى نفسِه ، فأغرَى

عليًّا المنصورَ بن السلطان بالتَّوثُّب على المُلك ، فارتاح لذلك وأجابه ، وأصبَح

يومَ ثورة المماليك بالعَقَبه ؛ وقد أجلسَ عليا مكفولَه بباب الإسطبل ، وعقَدَ له ،

الراية بالنداء على جلوسه بالتخت ؛ و بينَا هم فى ذلك ، صَبَّحهم الخبر بوصُول السلطان

١٥ الأشرف إلى قبة النصر ليَلْتَئِذ ، فطاروا إليه زَرافَاتٍ ووُحْدانا ، فوجَدُوا أصحابَه

نِياما هنالك ، وقد تسلَّل من بينهم هو ويَلْبُغا الناصرى[3] من أكابر اليَلْبُغاوية ،

---

(١) قرطاى (أو قراطاى) بن عبد الله المزى الأشرفى سيف الدين ، رفيق أينبك ، وصهره ، وكان من أصاغر الأمراء فى دولة الأشرف شعبان بن حسين ، ولكنه أصبح فى أيام ولده علىّ أمير مئة ، ثم مقدم ألف . واختلف مع صديقه أينبك ، فحبسه إلى أن مات سنة ٧٧٩ . « المنهل » ٢/١٩٩ ب (نسخة نور عثمانية) . وانظر العبر ٥/٤٦٣ — ٤٦٧ .

(٢) Aqaba عرضها الشمالى ٢٤° ، وطولها الشرقى ٤٦° . وموقعها فى النهاية الشرقية الشمالية لخليج العقبة .

(٣) يلبغا بن عبد الله الناصرى الأتابكى الأمير سيف الدين ، وهو صاحب الوقعة مع الملك الظاهر بظاهر دمشق . المنهل ٢/٤٦٧ — ٤٧٠ (نسخة نور عثمانية) . وانظر الدرر الكامنة ٤/٤٤٠ — ٤٤٢ .

فقطعوا رءوسهم جميعا ، ورجعوا بها تسيل دما ، وَوَجِموا لفُقْدان الأشرف ، وتابعوا النّداء عليه ، وإذا بامرأةٍ قد دلّتهم عليه فى مكانٍ عرفته ، فتسابقوا إليه ، وجاءوا به فقتلوه لوقته بخَلْع أكتافه ، وانعقدت بيعة ابنه المنصور ، وجاء طشتمر الدّوادار من العَدِ بمن بقى بالعقبة من أُخرَم ، ومُخلّف السلطان ، واعتزم على قتالهم طمعاً فى الاستبداد الذى فى نفسه ، فدافعوه وغلبوه ، وحصل فى قبضتهم ، فخلعوا عليه بنيابة الشام ، وصرفوه لذلك ، وأقاموا فى سلطانهم ، وكان أينبكُ أميرا آخر من اليَلْبُغاوية[1] قد ساهم قُرطاى فى هذا الحادث ، وأصهرَ إليه فى بعض حُرَمه ، فأستنام له قُرطاى ، وطمِعَ هُو فى الاستيلاء ، وكان قُرطاى مواصِلاً صَبُوحه بغَبُوقه ، ويستغرق فى ذلك ، فركب فى بعض أيامه ، وأركب معه السلطانَ عليّا ، واحتاز الأمْرَ من يد قُرطاى ، وصيّره إلى صَفَد[2] ، واستقلّ بالدولة ، ثم انتقض طشتمر بالشّام مع سائر أمرائه ، فخرج أينبك فى العساكر ، وسَرّح المقدّمة مع جماعة من الأمراء ، كان منهم بَرْقوق وبَركة المستوليان عَقِب ذلك ؛ وخرج هُو والسلطان فى السّاقة[3] ، فلما انتهوا إلى بُلْبِيس ، ثار الأمراء الذين فى المقدّمة عليه ، ورجع إليه أخوه مُنهزما ، فرجع إلى القلعة ، ثم اختلف عليه الأمراء ، وطالبوه بالحرب فى قُبة النّصر ، فسرّح العساكر لذلك ، فلما فصلوا فرّ هو هاربا ، وقُبِض عليه وثُقّف بالأسكندرية ، واجتمع أمراء اليَلْبغاوية

(١) أينبك بن عبد الله البدرى الأمير سيف الدين ، كان هو وقرطاى صاحبي الحل والعقد فى الدولة . استبد بالمنصور ابن الأشرف ، ثم تغلب عليه يلبغا الناصرى وأودعه سجن الأسكندرية . المنهل ١/١٦٣ ب — ١٦٤ ا . (نسخة نور عثمانية) ، وانظر العبر ٥/٤٦٥ .

(٢) صفد : (Safed عرضها الشمالى ٣٢° — ٥٨′ ، وطولها الشرقى ٣٥° — ٣٠′) مدينة فى شمالى فلسطين ، واقعة فى الشمال الغربى لبحيرة طبرية ، قريبة من حدود سوريا فى الجنوب الغربى ، ومن حدود لبنان فى الجنوب .

(٣) ساقة الجيش : مؤخره .

يقدمهم قطلقتمر العلائى[1] ، ويَلْبغا النّاصرى ودَمُرْدَاش اليوسفى[2] وبرَكة وبَرقوق فتصدى دَمُرْدَاش ، ويَلْبغا ، وبركة ، وبرقوق ، إلى الإستقلال بالأمر ، وتغلّبوا على سائر الأمراء ، واعتقلوهم بالأسكندرية ، وفوّضوا الأمر إلى يَلْبغا النّاصرى ، وهم يرونه غير خبير ، فأشاروا باستدعاء طشتمر ، وبعثوا إليه ، وانتظروا ، فلما جاءه الخبر بذلك ظنّها مُنيَةَ نفسه ، وسار إلى مصر ، فدفعوا الأمر إليه ، وجعلوا له التولية[3] والعزل ، وأخذ بَرقوق ، وبركة ، يستكثران من المماليك بالاستخدام والجاه ، وتوفير الإقطاع ، إكثافاً لعصبيتهما ، فانصرفت الوجوه عن سواهما ، وارتاب طشتمر بنفسه ، وأغراه أصحابه بالتوثب ؛ ولما كان الأضحى فى سنة تسع وسبعين استعجَل أصحابه على غير رَويّة ، وركبوا وبعثوا إليه فأحجم ، وقاتلوا فانهزموا ، وتقبض على طشتمر ، وحُبس بالأسكندرية ، وبُعث معه يلبغا النّاصرى ، وخلَت الدّولة للأميرَين برقوق وبرَكة من المنازعين ، وعمَروا المراتب بأصحابهما ، ثم كثُر شغَبُ التُّركُمان والعرَب بنواحى الشّام ، فدفعوا يَلْبغا النّاصرى إلى النّيابة بحلَب[4] ليستكفُوا به فى تلك النّاحية ، ثم تنافَس بَرقوق

(١) قطلقتمر بن عبد الله العلائى الأمير سيف الدين الأشرفى . له ترجمة فى المنهل ٢/٢١٠ ب (نسخة نور عثمانية) ، وانظر العبر ٥/٤٦٥ ، ٤٦٦ .

(٢) دمرداش بن عبد الله اليوسفى الأمير سيف الدين ، كان مع منطاش ، والناصرى على الظاهر برقوق ، وظفر به الظاهر فقتله فى سنة ٧٩٣ . ودمرداش بفتح الدال المهملة ، وميم مضمومة ، وراء ساكنة ، ودال ، وقيل ضاد ، وألف وشين ومعناه : حديد حجر . المنهل ١/١٣٢٢ (نسخة نور عثمانية) .

(٣) من هنا إلى قوله :

* ودعونى ولست من منصب الحكـــــم ولا ساحبا لديهم ذيوله *

فى ص ٣٣٣ ، مما تنفرد به نسخة طب ، حيث وقع نقص فى نسخة أيا صوفيا ، وما تفرع عنها من النسخ .

(٤) حلب (Aleppo عرضها الشمالى ٣٦° — ١٠′ ، وطولها الشرقى ٣٧° — ٥′) : مدينة فى شمالى سورية ، تفنيها المكانة التى تتبوؤها فى التاريخ الإسلامى عن التحلية . وانظر ياقوت ٣/٣١١ — ٣٢١ .

وبَرَكَة فى الاستقلال ، وأضمر كلٌّ واحد منهما لصاحبه ، وخشى منه ، فقبض
برقوقُ على بطانة بَرَكَة من عصابته ليَحُصَّ بذلك جَناحَه ، فارتاع لذلك بَرَكَة ،
وخرَج بعصابته إلى قُبَّــة النَّصر ليواضع برقوقاً وأصحابه الحرب هنالك ، ورَجَا أن
تكون الدائرة له ، وأقام برقوق بمكانه من الإسطبل ، وسرَّب أصحابه فى جموعهم
إلى مُجاولة أولائك ، وأقاموا كذلك أياماً يُغادُونهم ويراوِحُونَهم ثلاثا ، إلى أن عَضَّت ٥
بركةَ وأصحابَهُ الحربُ ، فانفضُّوا عنه ، وجِيءَ ببَرَكَة ، وبَعَث به إلى الإسكندرية ،
فحُبِس هنالك إلى أن قتله ابن عَرَّام نائب الإسكندرية ، وارتفع أصحابه إلى
برقوق شاكين ، فثأرهم منه بإطلاق أيديهم فى النَّصَفَة ، فانتصفوا منه بقتله فى
ساحة القَلْعة ، بعد أن سُمِّر ، وحُمل على جَمَل عقاباً له ؛ ولم يُقنِعهم ذلك ، فأطلق
أيديَهم فيا شاءوا منه ، ففَعلوا ما فَعلوا ؛ وانفرد برقوق — بعد ذلك — بحَمْل ١٠
الدَّولة ينظر فى أعطافها[1] بالتَّهديد ، والتَّسديد ، والمُقارَبة[2] ، والحِرص على
مكافأة الدَّخْل بالخَرْج ، ونقَّصَ ما أفاض فيه بنو قَلَاوُن من الإمعان فى التَّرف ،
والسَّرَف فى العوائد والنَّفقات ، حتى صَار الكَيْلُ فى الخَرج بالمكيال الرَّاجح ،
وعَجزت الدولةُ عن تمشية أحوالها ؛ وراقبَ ذلك كلَّه برقوق ، ونظر فى سدِّ خَلَل
الدَّولة منه ، وإصلاحها من مَفاسده ، يَمتَدُّ ذلك ذريعةً للجلوس على التَّخت ، ١٥
وحيازَة اسم السلطان من أولاد قَلَاوُن ، بما أفسَد الترفُ منهم ، وأحال الدولةَ
بسَبَبهم ، إلى أن حصَل من ذلك على البُغْية ، ورَضِى به أصحابُه وعصابتُه ، فجَلَس
على التَّخْت فى تاسع عشر رمضان من سنة أربع وثمانين ، وتلقَّب بالظاهر ،
ورتَّبَ أهل عصابته فى مراتب الدولة ، فقام وقاموا بها أحسن قيام ، وانقلبت
الدولةُ من آل قلاون إلى برقوق الظاهر وبَنيه ، واستمرَّ الحال على ذلك ، ونافَسَه ٢٠

---

(١) الأعطاف : الجوانب .

(٢) المقاربة : ترك الغلو فى الأمور ، وقصد السداد فيها .

اليَلْبُغَاوِيةُ — رُفَقَاؤه في ولاءِ يلبُغا — فيما صار إليه من الأمر، وخصوصاً يَلْبُغا نائبَ حلَب ، فاعتزم على الانتقاض ، وشعر به الظاهر فبعث باستدعائه ، فجاء ، وحَبَسه مُدّة ، ثم رجعه إلى نيابة حلَب ، وقد وغَر صَدرُه من هــذه المعاملة ، وارتاب به الظاهر ، فبعث سنة تسعين دَوَادَاره للقبض عليه ، ويستَعين في ذلك بالحاجب ، وانتقَض ، واستدعَى نائبَ مَلَطْيَة[1] ، وهو منطاش من أمراء اليلبُغاوية ، وكان قد انتقض قبله ، ودَعَا نواب الشام إلى المسير إلى مصر إلْبًا على الظاهر ، فأجابوه ، وساروا في جُملته ، وتحت لوائه ؛ وبلغ الخبر إلى الظاهر برقوق ، فأخرج عساكره مع أمراء اليلبغاوية من أصحابه ؛ وهم الدوادار الأكبر يونس[2] ، وجهَرْكَس الخليلي أمير الإسطبل ، والأتابكي ايتمش[3] ، وأيدكار حاجب الحجاب[4] وأحمد بن يَلْبُغا أستاذهم[5] ، وخرج النّاصري من حلب في عسكره ، واستنفر العرب والتركمان وأمراء الشام ؛ ولما تراءا الجمعان بناحية دمشق، نَزَع كثير من عسكر السلطان إليهم ، وصدقوا الحملة على من بقي فانفَضُّوا ، ونجا ايتمش إلى قلعة دمشق فدخلها ، وقتل

(١) بفتح الميم واللام ، وسكون الطاء ، ثم ياء مفتوحة Malatya ؛ والعامة تكسر الطاء ، وتشدد الياء . تقع في الشمال الغربي لديار بكر من الجمهورية التركية . عرضها الشمالي ٣٨° — ٣٠′ ، وطولها الشرقي ٣٨° — ٢٨′ . وانظر ياقوت ٨/١٠٠ — ١٠١ ، تاج العروس (ملط) .

(٢) يونس بن عبد الله الأمير سيف الدين الدوادار الأكبر للملك الظاهر ، ويعرف بالنوروزي (نسبة إلى معتقه الأمير جرجي النوروزي) . كان من أعاظم دولة الظاهر برقوق ، حارب منطاش ، والناصري ، وعاد في جيش منهزم إلى القاهرة ، وفي طريقه قتل سنة ٧٩١ عن نيف وستين سنة . المنهل ٢/٤٩٢ (نسخة نور عثمانية) ، خطط المقريزي ٢/٤٢٦ بولاق .

(٣) انظر أخباره في « العبر » ٥/٥٠٠ .

(٤) أيدكار بن عبد الله المصري سيف الدين ، كان أحد أعيان الملك الظاهر ، وولاه حجابة الحجاب ، ثم انحاز إلى حزب منطاش ، ولما عاد برقوق إلى الملك قبض عليه في سنة ٧٩٤ ، وقتله . المنهل ١/١٠٤ (نسخة نور عثمانية) .

(٥) الأمير شهاب الدين أحمد بن يلبغا العمري الخاصكي ، كان برقوق مملوكا لوالده ، ولذلك عفا عنه حين انحاز إلى الناصري ومنطاش ، ولما مات الظاهر ، ثار ايتمش وآخرون بالشام ، فانضم إليهم أحمد بن يلبغا هذا ، وحاربهم فرج بن الظاهر ، فانتصر عليهم ، وقبض على أحمد بن يلبغا ، فقتله في سنة ٨٠٢ . المنهل ١/٩٥ (نسخة نور عثمانية) .

جهرْكس ، و يونس ، ودخَل النّاصرى دمشق ، ثم أجمع المسير إلى مصر ، وعميت أبناؤهم حتى أطَلُّوا على مصر .

وفى خلال ذلك أطلق السلطانُ الخليفةَ من مَحْبسه كان بعض الغواة أنمَى عنه ، أنه داخَله شيطان من شياطين الجند ، يعرف بقُرط[1] فى قتل السلطان يوم ركوبه إلى الميدان قبل ملكه بسنين ، فلما صَحَّ الخبر أمر بقتله ، وحبَس ٥
الخليفةَ سبعا إلى تلك السنة ، فأطلقه عند هذا الواقع ؛ ولما وصل [....][2] إلى قيطا
اجتمعت العساكر ، ووقف السلطان أمام القلعة يومه حتى غَشِيَه الليل ، ثم دخل إلى بيته وخرج متنكراً ، وتسرب فى غيابات المدينة ، وباكر الناصرى وأصحابه القلعة ، وأمير حاج ابن الأشرف ، فأعادوه إلى التخت ولقبوه المنصور ، و بعثوا عن الأمراء المحبوسين بالأسكندرية ، وكان فيهم ألطنبُغا الجوبانى الذى كان أمير ١٠
مجلس[3] ، وقبض السلطان الظاهر عليه ، وحبسَه أياما ، ثم أطلقه و بعثه نائبا على دمشق ، ثم ارتفعت عنه الأقوال بأنه يروم الانتقاض ، وداخَل الناصريَّ نائب حلب فى ذلك ، وأكّد ذلك عند السلطان ما كان بينه و بين النّاصرى من المُصافاة والمخالصة ، فبعث عنه ؛ ولما جاء حبسه بالأسكندرية ، فلما ملك الناصرى مصر ، وأجلس أمير حاج ابن الأشرف[4] على التخت ، بعث عنه ليستعين به على ١٥

---

(١) قرط بن عمر من التركمان المستخدمين فى الدولة ، وكان له إقدام وشجاعة وصل بهما إلى مهادنة الأمراء فى مذاهبهم . له أخبار ذكرها ابن خلدون فى « العبر » ٥/٤٧٤ . قتل سنة ٧٨٠ .

(٢) أظن أن كلة أضاعتها شفرة المسفّر عند تجليد الكتاب ، حيث أن هذه الجمل (من قوله : وفى خلال ذلك س ٤ ، إلى قوله : اجتمعت العساكر س ٨) ، ملحقة بالهامش بخط ابن خلدون فى نسخة طب .

(٣) معناه صاحب الشورى فى الدولة ، وهو ثانى الأتابك ، وتلو رتبته . العبر ٥/٤٧٧ ، وانظر صبح الأعشى ٥/٤٥٥ .

(٤) الملك الصالح حاجى ابن الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، يلقب بالمنصور (غيّر لقبه من الصالح إلى المنصور) ، وخلع نفسه يوم أن عاد برقوق إلى الملك . المنهل الصافى ١/١٧٥ ب (نسخة نور عثمانية) .

أمره ؛ وارتابوا لغيبة الظاهر ، وبالغوا فى البحث عنه ، فاستدعى الجوبانىّ
واستنام له ، واستحلفه على الأمان ، فحلف له ، وجاء به إلى القلعة بعد أن ساور
صاحبه الناصرىّ فى المُضِىّ إليه وتأمينه ، وحبسوه فى بعض قصور الملك ،
وتشاوروا فى أمره ، فأشار أمراء اليَلْبُغَاوية كلُّهم بقتْله ، وبالغ فى ذلك منطاش ،
٥ ووصل نُعَيْر أمير بنى مُهَنَّا[1] بالشام للصَّحابة بينه وبين الناصرى ، فحضَّهم على
قتله ، ومنَع الجوبانىُّ من ذلك وفاء بيمينه ، فنَغِلَت صُدورهم منه ، واعتزموا على
بَعثه إلى الكَرَك ، ودافعوا منطاشاً بأنهم يبعثونه إلى الأسكندرية ، فيعترضُه
عند البحر بما شاء من رأيه ، ووثق بذلك ، فقعد له عند المرساة ، وخالفوا به الطريق
إلى الكَرَك ، وولَّوا عليها نائباً وأوصوه به ، فأخفق مَسْعَى منطاش ، ودبَّر فى
١٠ اغتيال الدولة ، وتمارض فى بيته ، وجاءه الجوبانى عائدا فقبض عليه ، وحبسَه
بالأسكندرية ، وركب مُنتقِضا ، ووقف عند مدرسة الناصر حسن يحاصر
الناصرى بالقلعة ، واستحاش هو بأمراء اليلبُغاوية ، فدَاهنوا فى إجابته ، ووقَفوا
بالرُّمَيْلَة أمام القلعة ، ولم يزل ذلك بينهم أياماً حتى انفضَّ جمع النّاصرى ، وخرج
هاربا ، فاعترضه أصحاب الطريق بفارسكور ، وردُّوه ، فحَبَسَهُ منطاش بالأسكندرية
١٥ مع صاحبه ، واستقل بأمر الملك ، وبعث إلى الكَرَك بقتل الظاهر ، فامتنع النّائب ،
واعتذر بوقوفه على خط السلطان والخليفة والقضاة ، وبثَّ الظاهر عطاءهُ فى عامة
أهل الكَرَك ، فانتدبت طائفة منهم لقتل البَرِيدى الذى جاء فى ذلك ، فقتلوه ،
وأخرجوا الظاهر من محبسه ، فأصحَروا ، واستألف أفاريقَ من العرب ، واتصل به

---

(١) نعير بن محمد بن حيار بن مهنا بن مانع ، لبيته القدم الراسخة فى الإمارة ؛ وله ترجمة فى « المنهل » ، فصّل فيها الحديث عن تاريخ بيته .

وفى ظفر برقوق به ، وبمنطاش ، يقول الشيخ زين الدين بن طاهر :

للملك الظاهر فى عزّه ... أذلّ من ضل ومن طاشا
ورد فى قبضته طائعاً ... نعيرا العاصى ومنطاشا

المنهل ١/٢٢٦ ب ، ٢/٤٣٦ ، ٤٣٧ (نسخة نور عثمانية) .

بعض مماليكه ، وسار إلى الشام ، واعترضه ابن باكيش[1] نائب غزّة[2] ، فأوقع به الظاهر ، وسار إلى دمشق ، وأخرج منطاش العساكرَ مع سلطانه أمير حاج ، وسار على التعبئة ليمانع الظاهر عن دمشق ، وسبقه الظاهر فمنعه جنتمر نائب دمشق[3] ، فواقعه ، وأقام محاصراً له ، ووصل إليه كشبغا[4] الحموى نائب حلب ، وكان قد أظهر دعوته فى عمله ، وتجهز للقائه بعسكره ، فلقيه وأزال علّله ، ٥ فأقام له أُبهة الملك ، وبينا هم فى الحصار إذ جاء الخبر بوصول منطاش بسلطانه وعساكره لقتالهم ، فلقيهم الظاهر بشقحب[5] ، فلما تراءا الجمعان ، حمل الظاهر على السلطان أمير حاج وعساكره ففضّهم ، وانهزم كشبغا إلى حلب ، وسار منطاش فى اتباعه ، فهجم الظاهر على تعبئة أمير حاج ، ففضها ، واحتاز السلطانَ ، والخليفةَ والقضاة ، ووكّل بهم ، واختلط الفريقان ، وصاروا فى عمياء فى أمرهم ، ١٠ وفرّ منطاش إلى دمشق ، واضطرب الظاهر أخبيته[6] ، ونزل على دمشق محاصرًا لها ، وخرج إليه منطاش من الغد فهزمه ، وجمع القضاة والخليفة ، فشهدوا على أمير حاج بالخلع ، وعلى الخليفة بإعادة الظاهر إلى ملكه ، ورحل إلى مصر فلقيه بالطريق خبر القلعة بمصر ، وتغلّب مماليكه عليها ؛ وذلك أن القلعة لما خلت

---

(١) الحسن بن باكيش الأمير بدر الدين التركمانى ، نائب غزة من قبل منطاش . قتله الظاهر بالقاهرة سنة ٧٩٣ ، وكان مشهوراً بالشجاعة . المنهل ١/٢٩٤ ب (نسخة نور عثمانية) .

(٢) Ghuzzeh عرضها الشمالى ٣١° — ٣٢′ ، وطولها الشرقى ٣٤ — ٣٥′) : مدينة بفلسطين قرب الساحل ، بها ولد الإمام الشافعى ، ويروى له فيها شعر . وانظر ياقوت ٦/٢٨٩ — ٢٩١ .

(٣) الأمير جنتمر التركمانى . ورد ذكره فى تاريخ ابن إياس ١/٣٢٤ .

(٤) كشبغا بن عبد الله الحموى اليلبغاوى الأمير سيف الدين . توفى سنة ٨٠١ . المنهل ٢/١٢٢٣ — ٢٢٤ ب . (نسخة نور عثمانية) .

(٥) شقحب (كجعفر) : موضع قرب دمشق ، نسب إليه جماعة من المحدثين . (تاج العروس) .

(٦) كذا فى الأصول .

من السلطان ومنطاش والحامية ، وكان مماليك السلطان محبوسين هنالك فى مُطبق أُعدّ لهم ، فتناجوا فى التَّسَوُّر منه إلى ظاهره ، والتوثُّب على القلعة والملك ، فخرجوا ، وهرب دَوَادَار منطاش الذى كان هنالك بمن كان معه من الحاشية ، وملك مماليكُ الظاهر القلعة ، ورَأَسَهم مملوكه بُطَا[1] ، وساس أمرَهم ، وانتظر خبر سلطانه ، فلما وصل الخبر بذلك إلى الظاهر ، أغذَّ السَّير إلى مصر ، وتلقَّاه الناس فرحين مسرورين بعوده وجَبْره ، ودخل مُنْتَصَفَ صفر من سنة إحدى وتسعين ، وولَّى بُطَا دَوَادَارا ، وبعث عن الأمراء المحبوسين بالأسكندرية ، وأعتَبهم ، وأعادهم إلى مراتبهم ، وبعث الجوبانى إلى دمشق ، والناصرى إلى حلب كما كانا ، وعادت الدولة إلى ما كانت عليه ، وولَّى سودون على نيابته ، وكان ناظراً بالخانقاه التى كنتُ فيها ، وكان يَنقِم علىَّ أحوالاً من مُعاصاته فيما يريد من الأحكام فى القضاء أزمانَ كنتُ عليه ، ومن تَصرُّفات دَوَادَاره بالخانقاه ، وكان يَستنيبُه عليها ، فوَغَر صَدره من ذلك ؛ وكان الظاهر يَنْقِم علينا مَعْشَرَ الفقهاء فتاوَى[2] استدعاها مِنَّا مَنْطَاش ،

---

(١) الأمير بطا الطولوتمرى ، خلع عليه الظاهر برقوق فى سنة ٧٩٢ دوادارا ، ثم نائب دمشق ، وليها من قبل أستاذه فى ذى القعدة سنة ٧٩٣ إلى أن توفى بها سنة ٧٩٤ . (من الدليل الشافى على المنهل الصافى لابن تغرى بردى ورقة ٣٢ ا نسخة قره چلبى رقم ٢٦٦) . وانظر تفصيل ثورة بطا ومن كان معه من المسجونين ، فى « العبر » ٥/٥٩٣ — ٥٩٥ .

(٢) فى السلوك ورقة ١٥٨ ب (نسخة الفاتح) سنة ٧٩١ : « فى ٢٥ قعدة ، أحضرت نسخ الفتوى فى الملك الظاهر ، وزيد فيها : « واستعان على قتل المسلمين بالكفار » وحضر الخليفة المتوكل ، وقضاة القضاة : بدر الدين محمد بن أبى البقاء الشافعى . وابن خلدون ، وسراج الدين عمر بن الملقن الشافعى ، وعدة دون هؤلاء ، فى القصر الأبلق ، بحضرة الملك المنصور ، ومنطاش ، وقدمت إليهم الفتوى ، فكتبوا عليها بأجمعهم ، وانصرفوا » .

وفى تاريخ ابن الفرات (سنة ٧٩١ ١/١٦٠) :

« وفى يوم الاثنين اجتمعت الأمراء بالقصر الأبلق بقلعة الجبل ، بحضرة السلطان الملك المنصور رحاجى ، والأمير منطاش ، والخليفة محمد ، والقضاة الأربعة ، والشيخ سراج الدين البلقينى ، وولده القاضى جلال الدين عبد الرحمن قاضى العسكر ، وقاضى القضاة بدر الدين ابن أبى البقاء الشافعى ، وقضاة العسكر ، ومفتون (كذا) دار العدل ، وكتبت فتاوى تتضمن : هل يجوز قتال الملك الظاهر برقوق أم لا ؟ وذكروا فى الفتاوى أشياء تخالف الشرع =

وأكرهَنا على كتابها ، فـكتبناها ، ووَرَّينا فيها بما قدرنا عليه ، ولم يقبل السلطان ذلك ، وعتب عليه ، وخصوصاً علىّ ، فصادف سودون منه إجابةً فى إخراج الخانقاه عَنّى ، فولّى فيها غيرى وعزَلنى عنها ، وكتبت إلى الجوبانى بأبيات أعتذر عن ذلك ليطالعَهُ بها ، فتغافل عنها ، وأعرضَ عنى مُدّة ، ثم عاد إلى ما أعرف من رضاه و إحسانه ، ونَصُّ الأبيات : ٥

سَيدى والظنونُ فيك جَميلَة　　وأَياديك بالأمانى كَفيلَة

لا تَحُل عن جَميل رأيك إنّى　　مالىَ اليومَ غيرُ رأيك حِيلَة

واصطنعنى كما اصطنعت بإبْدَا　　ءِ يَدٍ من شفاعة أو وَسيلَة

لا تُضِعْنى فلستُ منك مُضيعًا　　ذِمّة الحبّ ، والأيادى الجميلَة

وأجرنى فالخطْب عضَّ بنَابَيْـــهِ وأجرَى إلى حِماىَ خُيولَه ١٠

ولَو أنّى دَعَا بنصْرِىَ داعٍ　　كنتَ لى خيرَ مَعشَرٍ وفَصيلَة

أنّه أمرى إلى الذى جَعَل اللّـــه أمورَ الدُّنيا له مكفولَة

وأراه فى مُلـكه الآية الـكُبْـــرى فولاّه ثم كان مُديلَه

أشهدته عناية الله فى التمـــحيص أن كان عَونَه ومُنيلَه

العزيزُ السلطان والملكُ الظّا　　هرُ فخرُ الدنيا وعزُّ القَبيلَة ١٥

ومُجيرُ الإسلام من كل خَطْب　　كاد زلزالُ بأسه أن يُزيلَه

═ الشريف ، ومما تضمنته الفتاوى : أنه يستعين على قتال المسلمين بالنصارى ، فسألوهم (كذا) الجماعة عن ذلك ، فقيل لهم إن الملك الظاهر معه جماعة من نصارى الشوبك نحو ٦٠٠ نفس يقاتل بهم فى عسكره ، ولم يكن الأمر كذلك ، وإنما أرادوا التلبيس على العلماء المفتين ، فعند ذلك وضعوا (كذا) المذكورون خطوطهم على الفتاوى المذكورة بجواز قتاله ، وانفصل المجلس على ذلك ، ونودى فى بكرة هذا النهار فى القاهرة لأجناد الحلقة : أن لا يتأخر أحد منهم عن العرض ، ومن لم يحضر قطع خبزه » .

ومُديل العدو بالطَّعْنة النَّجْلا ءِ[1] تَفَرَّى[2] ماذيُّه[3] ونُصولَه[4]

وشكور لأنعم الله يُغْنِي في رضاه غُدُوَّه وأصيلَه

وتلطَّفْ في وصف حالي وشَكْوَى خَلَّتي[5] يا صفيَّه وخَليلَه

قل له والمَقالُ يَكرُم من مثـ ـلك في محفل العُلا أن يَقُولَه

٥ يا خوندَ الملوك يا معدل الدَّ هر إذا عَدَل[6] الزمان فُصُولَه

لا تقصّر في جَبْر كسْرِي فما زِلـ ـتُ أرجِّيك للأيادي الطَّويلَة

أنا جارٌ لكم منعتم حماه ونَهَجتم إلى المعالي سَبيلَه

وغريب أنَّستُموه على الوَحْـ ـشَة والحُزْن بالرضى والسُّهولَة

وجمعتم من شَمله فقضى اللـ ـهُ فراقاً وما قَضَى مأمولَه

١٠ غالَه الدّهرُ في البنين وفي الأهْـ ـل وما كان ظنُّه أن يَغولَه[7]

وَرَمَته النَّوى[8] قضيداً قد اجْتَـ ـاحت عليه فُروعَه وأُصولَه

فجـذبتم بضَبْعِه[9] وأنلتُم كل ما شاءت العُلا أن تُنيلَه

ورفعتم من قدره قبل أن يشـ ـكو إليكم عَياءه وخُمولَه

وفرضتم له حقيقـةَ وُدٍّ حاش لله أن ترى مُستحيلَة

١٥ همـةٌ ما عرفتُها لسواكم وأنا من خَبرتُ دَهرِي وجيلَه

والعِدا نمَّقوا أحاديثَ إفْكٍ كلها في طرائق معسـولَة

---

(١) الطعنة النجلاء : الواسعة العريضة .
(٢) تفرى : تشق .
(٣) الماذى (بالمعجمة) : كل سلاح من الحديد .
(٤) النصول جمع نصل ؛ وهو حديدة السهم .
(٥) الخلة (بالفتح) : الحاجة ، والفقر .
(٦) عدل الحكم : أقامه ، والميزان سواه .
(٧) يشير إلى غرق أهله في المركب التي أقلهم من المغرب ، وقد تقدم له ذكر هنا .
(٨) النوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد . وهي مؤنثة لا غير .
(٩) الضبع : العضد .

روَّجوا فى شأنى غرائب زور نصبــوها لأمرهم أحبولَةَ

ورمَوا بالذى أرادوا من الـــبهتان ظناً بأنها مقبـــولَةْ

زعموا أننى أتيت من الأقوا ل ما لا يظنُّ بى أن أقولَه

كيف لى أغمطُ الحقوق وأنَّى شـكرُ نعماكم علىَّ الجزيلَةَ ؟

كيف لى أنكر الأيادى التى تعــرفها الشمسُ والظلالُ الظليلَة ؟ ٥

إن يكن ذا فقد برئتُ من اللّـــه تعلى وخُنتُ جهـراً رسولَه

طوقونا أمر الـكتاب فكانت لقداح الظنون فينا مُجيلَةَ(١)

لا . وَرَبٌّ الـكتاب أنزله اللّـــه على قلب من وعَى تنزيلَه

ما رضينا بذاك فعلاً ولا جئـــناهُ طوعًا ولا اقتفينا دَليلَه

إنما سامنا الـكتابَ ظَلُوم لا يُرَجَّى دِفاعُه بالحِيـــلَة ١٠

سَخَطٌ ناجزٌ وحِلمٌ بَطِئ وسلاح(٢) للوخز فينا صَقيلَة

[٧١ب] /ودعونى ولست من مَنْصِب الحكـــم ولا سَاحبا لَدَيهم ذُيولَه

غيرَ أنِّى وشَى بذكرىَ واش يَتَقَصَّى أوتارَه وذُحُولَه(٣)

فـكتبنا معوِّلين على حِلــمك تمحو الإصَار عنَّا الثَّقيلَة

ما أشرنا بِهِ لِزيد ولا عـــرو ولا عَيَّنُوا لنَا تفصيلَه ١٥

إنما يذكرون عمَّن وفيمَن مُبْهماتٍ أحكامُها منقولَة

ويظنُّون أنَّ ذَاك على ما أضمروا من شناعةٍ أو رذيلَة

وهْو ظنٌّ عن الصَّواب بعيدٌ وظلاَمٌ لم يُحْسِنُوا تأويلَه

(١) يشير إلى الفتوى السالفة الذكر عن المقريزى وابن الفرات .

(٢) السلاح : آلة الحرب ، أو حديدته ، ويؤنث .

(٣) جمع وتر ، بمعنى الذحل . والذحل : العداوة ، والجمع ذحول .

وجناب السّلطان نزّهه اللّـــه عن العاب[1] بالهُدَى والفضيلَة

وأجلُّ الملوك قدراً صفوحٌ يرتجى ذنبَ دَهره ليُقيلَه

فاقبلوا العُذرَ إننّا اليومَ نرجُو بحياةِ السُّلطانِ منكُم قبُولَه

وأعينُوا عَلَى الزّمان غريباً يشتكى جَدْب عَيشِه ومُحُولَه

٥ جارُكم ضيفُــكم نزيلُ حِماكم لا يضيعُ الكريمُ يوماً نزيلَه

جَدِّدوا عندَه رُسومَ رضاكم فرُسُومُ الكرام غيرُ مُحيلَة

داركوه برحمة فلقد أمـ ـسَتْ عقودُ اصطباره محلُولَة

وانحَلوه جَبْرا فليس يُرجَّى غيرَ إحسَانكم لهَذِى النّحيلَة

يا حميـدَ الآثار فى الدهر يا ألطَفُنا يا رَوْض العُلاَ ومقيلَه

١٠ كيفَ بالخانقاه ينقلُ عنّى لاَ لذَنب أو جُنحَةٍ منقولَة

بل تقلَّدتُها شَغُوراً بمرسُو مٍ شَريفٍ وخلعة مَسْدُولَة

ولقد كنت آملاً لسواها وسواهَا بوعْدِه أن يُنيلَه

وتوثّقتُ للزّمانِ علَيْها بعقود ما خِلتُها محلُولَة

أبلغَن قِصَّتى فمثلُك من يَقْـ ـصِدُ فعل الحسنى بمن ينتمى لَه

١٥ واغنَموا من مثوبتى ودعائى قُرْبَةً عند ربكم مقبولَة

وفى التّمر يض بسَفَره إلى الشام :

واصْحَبِ العزَّ ظافراً بالأمانى واترُك العُصبةَ العِـدا مَفْلولَة

واعتَمِل فى سعادة الملك الظّا هر أن تَمحو الأذَى وتُزيلَه

وتُعيدَ الدُّنيا لأحْسَنِ شَمْـلٍ حين تُضحِى بسَعْده مشْمُولَة

---

(١) العاب : العيب .

واطلُب النَّصر من سَعادته يصـــحَبْك دأبًا فى الظعن والحَيلُولَة
وارتقِب ما يُحِــلُّه بالأعادى فى جُمادَى أو زد عليه قَليلَه
وخذُوه فألاً بحُسن قَبولٍ صَـدَّق الله فى الزمان مَقُولَه
فلقد كان يَحسُنُ الفالُ عِند الـــمصطفى دائمًا ويَرضَى بَجيـلَه

السِّعاية فى المُهاداة والإتحاف[1] بينَ ملوك المَغْرب والملك الظاهر ٥

كثيراً ما يتعاهد الملوك المتَجاورون بعضُهم بعضاً بالإتحاف بطُرَف أوطانهم ، للمُواصـلة والإعانة مَتَى دعا إليها داع ، وكانَ صلاح الدين ابنُ أيوب هَادى[2] يَعقوبَ المنصورَ ملكَ المغرب من بنى عبد المؤمن[3] ، واستحاش به بأسطوله فى قَطْع مَدَد الفرنج عن سواحل الشَّام حين كان مَعْنِيًّا بإرجاعهم عنها ، وبَعَث فى ذلك ١٠ رسولَه عبد الـكَريم بن مُنقذ[4] من أُمَرَاء شَيْزَر[5] ، فأكرمَ المنصورُ رَسولَه ،

(١) انظر « العبر » ٥/٤٢٠ ، ٤٤٠ ، ٤٧٩ ، حيث ذكر بعض هذه الهدايا .

(٢) وضح الأشياء المهداة ، أبو شامة فى « الروضتين » ٢/١٧٣ ، والناصرى فى « الاستقصا » ١/١٧٤ .

(٣) هو أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، كان من أعظم ملوك الموحدين (٥٥٤ — ٥٩٠) . بايعه الموحدون بعد موت أبيه ، ولقبوه بالمنصور ، وهو الذى بنى مدينة « رباط » عاصمة المغرب الأقصى اليوم ، وسماها « رباط الفتح ، وبنى جامع اشبيلية ، ولا تزال آثار بمراكش شاهدة بعظمته رحمه الله . « وفيات » ٢/٤٢٨ — ٤٣٦ ، سير النبلاء للذهبي (٢٩١٠/١١٣ — أحمد الثالث ق ١٤١ — ١٤٥) ، نفح ١/١٠٩ بولاق ، الاستقصا ١/١٦٤ — ١٨١ .

(٤) هكذا سماه ابن خلدون هنا ، وفى « المقدمة » ص ١٢٤ بولاق ؛ وفى « وفيات ابن خلكان (٢/٤٣٣) ، والروضتين لأبى شامة ١/١٧٣ ، والاستقصا ١/١٧٤ ، أن اسمه عبد الرحمن .

وهو شمس الدين أبو الحرث (وكناه فى الروضتين أبا الحزم) ، عبد الرحمن بن نجم الدولة أبى عبد الله محمد بن مرشد ، المتوفى سنة ٦٠٠ بالقاهرة ، والمولود بشيزر سنة ٥٢٣ .

(٥) قرية قرب المعرة بينها وبين حماة ، فتحت سنة ١٧ هـ ، ومنها الأمراء من بنى=

وقعد عَن إجابته فى الأُسطول لِما كان فى الـكتَاب إليه[1] من العـدُول عن عن تَخطيطه[2] بأمير المؤمنين ، فوجَدَها غُصَّةً فى صَدره مَنَعَتْه مِنْ إجابته إلى سؤاله ؛ وكان المانع لصَلاح الدِّين من ذلك كاتبَه القَاضِل عَبد الرحيم البَيْسَانى[3] بمَا كان يشاوِره فى أُموره ، وكان مُقِياً لدعوة الخليفـة العَبَّاسى بمصر ، فرأى الفاضلُ أن الخِلافة لاَ تنعقد لاثنين فى المِلَّة كما هو المشْهُور ، وإن اعتَمد أهلُ المَغْرب سوَى ذلك ، لَمَا يَرَون أنَّ الخِلافة ليست لقَباً فقط ، وإنما هى لصَاحب العَصَبية القائم عليْها بالشـدَّة والحماية ؛ والخلافُ فى ذلِك معْروف بين أهْل الحق[4] . فلما انقرضَت دَولةُ الموحِّدين ، وجاءت دولةُ بنى مَرِين مِن بعدِهِم ، وصار كُبَراؤهم ورؤساؤُهم يتَعاهدون قضَاء فرضهم لهذِه البِلاد الشرقية ، فيتَعاهدُهم ١٠ ملوكُها بالإحسان إليهم ، وتَسهيل طريقهم ، فحَسُن فى مكارم الأخلاق انتحالُ البرِّ والمواصلة ، بالإتحاف والاستطراف/ والمكافأة فى ذلك بالهمم الملوكية ، فسُنَّت [١٧٤] لذلك طرائقُ وأخبار مَشْهورة ، من حقِّها أن تذكَر ؛ وكان يوسف بن يعقوب

= منقذ ، وأول من ملـكها منهم من يد الروم على بن مقلد بن نصر بن منقذ الـكنانى ، وذلك فى سـنة ٤٧٤ . ياقوت ٢٣٤/٥ ، وفيات ٤٦٤/١ ، تاريخ أبى الفـداء ٢ / ٢٠٢ (سنة ٥٠٢) . وانظر أخبار بنى منقذ فى تاريخ أبى الفداء أيضاً ٣٢/٣ وما بعدها .

(١) جاء فى الروضتين (١٧٠/٢ — ١٧٥) نص الرسالة التى كتبها القاضى الفاضل إلى المنصور الموحدى ، ونص رسالة أخرى مضمنها تـكليف الأمير ابن منقذ هـنا بالسفارة إلى الموحدين .

(٢) تحليته .

(٣) عبد الرحيم بن الأشرف بهاء الدين ... العسـقلانى ، ثم المصرى المعروف بالقاضى الفاضل مجير الدين (٥٢٩ — ٥٩٦) . وفيات ٣٥٧/١ وما بعـدها . وانظر Brockelmann. Gal. I/316, و Suppl. I/549. ، حيث تجد نبذة وافية عن آثاره الأدبية ، وعن الأبحاث والمراجع عنه .

(٤) فصَّـل ابن خلدون القول فى حكم تعدد الخليفة ، وذكر أقوالهم فى ذلك ، فى «فصل الخلافة» من مقدمته . وانظر شرح مواقف العضد للسيد الشريف الجرجانى ٢٦٧/٣ ، طبع استانبول سـنة ١٣١١ ، وشرح المقاصد لسعد الدين التفتازانى ١٩٩/٢ ، طبع استانبول سنة ١٢٧٧ ، والملل والنحل لابن حزم ٨٨/٤ ، طبع مصر سنة ١٣١٧هـ ، الأحكام السلطانية للماوردى ص ٧ ، طبع الوطن سنة ١٢٩٨ .

ابن عَبد الحَقّ ثالث ملوك بنى مَرِين ، أهدَى لصاحب مصرَ عامَ سبعمائة[1] ، وهو يومئذ النّاصر بن محمد بن قلاون ، هـدية ضخمة ، أصحبها كَرِيمةً من كرائم داره ، احتفل فيها ماشاء من أنواع الطُّرَف ، وأصناف الذّخائر ، وَخصوصاً الخيلَ والبغال .

أخبرنى الفقيه أبو إسحق الحَسْناوى ، كاتب الموحِّدين بتُونِس ، أنه عاين تلك الهَدية عند مُرُوها بتُونِس ، قال : وعددت من صِنف البغال الفارهة فيها أربعمائة ، وسكتَ عما سوى ذلك ، وكان مع هذه الهدية من فقهاء المغرب ، أبو الحَسَن التّنَسيّ كبيرُ أهل الفُتْيا بتِلِمْسان . ثم كافأ النّاصر عن هذه الهدية بأعلى منها وأحْفل[2] مع أميرين من أمراء دَولته ، أدركا يوسفَ بنَ يعقوب وهو يُحاصر تِلِمسان ، فبعَثَهما إلى مُرّاكِش للنّزَاهة[3] فى محاسنها ، وأدركه الموتُ فى مَغيبهما ، ورجَعا من مُرّاكِش ، فجهّزَهما حَافِدُه أبو ثابت المالك بعدَه ، وشيَّعهما إلى مِصر ، فاعترضَتهما قبائل حُصَيْن ونَهَبوهما[4] ، ودخَلا بِجَاية ، ثم مَضَيا إلى تُونِس ، ووَصَلا من هنالك إلى مصر .

ولما ملك السلطان أبو الحسن تِلِمسان ، اقترحَتْ عليه جاريةُ أبيه أبى سَعيد ،

(١) انظر العبر ٥/٤٢٠ ، والاستقصا ٢/٤٠ — ٤١ ، حيث تجد تفصيل الحديث عن هذه الهدية .

(٢) جاء فى الاستقصا : ٢/٤١ : «.... وأما الملك الناصر ، فإنه كافأ السلطان يوسف على هديته ، بأن جمع من طرف بلاد المشرق ما يستغرب جنسه وشكله ، من الثياب والحيوانات ، ونحو ذلك ، مثل الفيل ، والزرافة ونحوها ؛ وأوفد به مع عظماء دولته سنة ٧٠٥ » .

(٣) استعمال النزاهة ، والنزهة بهذا المعنى مختلف فيه بين اللغويين . وانظر تاج العروس « نزه » ، حيث تجد أقوالهم .

(٤) فى الاستقصا : ٢/٤١ : « .... ولما انتهوا إلى بلاد بنى حسن فى سنة ٧٠٨ ، اعترضتهم الأعراب بالقفر ، فانتهبوهم ، وخلصوا إلى مصر بجريعة الذقن ، فلم يعاودوا بعدها سفراً ، ولا لفتوا إليه وجهاً ، وطالما أوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يؤبه له ، ويهادونهم ، ويكافئون ، ولا يزيدون فى ذلك كله على الخطاب شيئاً » .

وكانت لَمـا عليه تَرْبية ، فأرادت الحجّ فى أيامه و بعنايته ، فأذِن لها فى ذلك ،
و بعث فى خدمتها وليّه عَرِيف بن يحيى من أمراء سُوَيد ، وجماعةً من أمرائه
و بطانته ، واستصحبوا هَدية منه للملك الناصر[1] ، احتفل فيها ما شاء ، وانتقى
من الخيل العِتاق ، والمطايا الفُرْه وقُمَاش الحرير والـكتّان ، والصوف ومدبوغ
٥ الجلود الناعمة ، والأوانى المتخذة من النحاس والفخّار المخصوص كلٌّ مصرٍ من
المغرب بأصناف من صنائعها ، متشابهة الأشكال والأنواع ، حتى لقد زعموا أنه
كان فيهـا مَـكيلة من اللآلئ والفصوص ؛ وكان ذلك وقر خمسِ مائة بَعير ،
وكانت عتاق الخيـل فيها خمس مائة فرس ، بالسروج الذّهبية المرصّعة بالجواهر ،
واللجم المذهبة ، والسُّيوف المحلاة بالذهب واللآلئ ؛ كانت قيمة المركب الأول منها
١٠ عشرة آلاف دينار ، وتدرَّجت على الولاء إلى آخر الخمس مائة ، فكانت قيمته
مائةَ دينار ؛ تحدَّث الناس بهذه الهدية دهراً ، وعُرِضت بينَ يَدَى الملك النّاصر ،
فأشار إلى خاصكيته بانتهابها فنُهبت[2] بين يديه ، و بُولغ فى كَرامة أولئك
الضّيوف ، فى إنزالهم ، و قِرَاهم ، وإزوادهم إلى الحِجاز ، وإلى بلادهم ؛ و بقى
شأن الهدية حـديثاً يتجاراه الناس فى مجالسهم وأسمـارهم ؛ وكان ذلك عام
١٥ ثمانية وثلاثين وسبعمائة ، ولما فَصَل أرسال[3] مَلِك المغرب ، وقد قَضَوا فرضَهم ،
بعث الملكُ النّاصر معهم هَديةً كِفَاء هديتهم[4] ، وكانت أصنافها حمل القُمَاش
من ثيـاب الحرير والقماش المصنوعة بالأسكندرية ، تُحمَل كلَّ عام إلى دار
السلطان ، قيمة ذلك الحمل خمسون ألف دينار ، وخيمة من خيام السلطان

---

(١) ذكر هذه الهدية فى العبر أيضاً ٥/٤٤١ .

(٢) يحسن الرجوع إلى العبر ٥/٤٤١ حيث يختلف المعنى عما هنا قليلا .

(٣) فصل من البـلد : خرج عنه . وقد مرت كلمة عن استعمال « أرسال » جمع رسول فى ص ٢٨٠ .

(٤) فى العبر ٥/٤٤١ تفصيل حسن فى وصف هدية الناصر .

المصنوعة بالشام على مثال القُصور ، تشتمل على بيوت المَراقد ، وأَوَاوِينَ للجلوس والطَّبخ ، وأبراجٍ للإشراف على الطرقات ، وأبراج أحدُها لجلوس السلطان للعَرْض ، وفيها تمثال مسجد بمحرابه ، وعَمَده ، ومأذنته ؛ حَوائطها كلُّها من خرق الـكتّان الموصولة بحَبْـك / الخياطة مفصَّلَةً على الأشكال التى يقترحها المتَّخذُون [٧٤ب] لَهَا ، وكان فيها خيمة أخرى مستديرةُ الشكل ، عاليةُ السمك ، مخروطة الرأس ، ٥ رحبةُ الفِناء ، تظل خمس مائة فارس أو أكثر ، وعشرةٌ من عتاق الخيل بالمراكب الذهبية الصَّقيلة ، ولجُمها كذلك ؛ ومرَّت هذه الهَدِية بتُونِس ، ومعها الخُدَّام القائمون بنَصْب الأبنية ، فعَرَضوها على السلطان بتُونِس ، وعاينتُ يومئذ أصنافَ تلك الهـدِية ، وتوجَّهوا بها إلى سلطانهم ، وبَقِى التعجب منها دهراً على الألسِنة . وكان ملوك تُونِس من الموحِّدين ، يتعـاهدون ملوكَ مصر بالهَدية ١٠ فى الأوقات .

ولمـا وصلتُ إلى مصر ، واتّصلتُ بالملك الظاهر ، وغمرنى بنعَمه وكرامَتِه ، كاتبتُ السلطان بتُونس يومَئذ ، وأخبرتُه بما عندَ المَلك الظَّاهر من التَّشوُّف إلى جِياد الخيل ، وخصوصاً من المغرب ، لما فيها الشِّدَّة والصَّبر على المَتاعب ، وكان يقول لى مثلَ ذلك ، وأنَّ خيلَ مصر قصَّرت بها الرَّاحة والتَّنعُّم ، عن الصَّبر على ١٥ التَّعَب ، فحَضَضتُ السلطانَ بتُونِس على إتحاف الملك الظاهر بما يَنتقيه من الجياد الرَّائعة ، فبعث له خمسةً انتقاها من مراكبه ، وحملها فى البَحر فى السُّفين الواصل بأهلى وولدى ، فغرقت بمرسى الأسكندرية[1] ، ونفَقت تلك الجياد ، معَ ما ضاع فى ذلك السَّفين ، وكلُّ شىء بقدَر .

ثم وصَلَ إلينا عامَ ثلاثة وتسعين شيخُ الأعراب : المُعْقِل بالمغرب ، يُوسف

---

(١) فى العبر ٥/٤٧٩ — ٤٨٠ ، تفصيل الحديث عن هذه الهدية ، وعن مساعى ابن خلدون فى توثيق العلاقة بين المغرب ومصر .

ابن علىّ بن غانم ، كبير أولا حُسَين[1] ناجياً من سَخَط السلطان أبى العبّاس أحمد بن أبى سَالم ، من ملوك بنى مَرِين بفاس[2] ، يَروم قَضَاء فَرضه ، ويتوسّل بذَلك لرِضَى سُلطانه ، فوجَد السلطان غائبا بالشام فى فِتنَة منطَاش ، فعَرضتُه لصاحب المَحْمل ، فلمّا عادَ من قَضاء فَرضه ، وكان السلطانُ قد عادَ من الشام ، فوصَلتُه به ، وحضَر بين يديْه ، وشَـكَا بَثَّه ، فـكتب الظاهر فيه شفاعةً لسلطان وَطنه بالمغرب ، وحمّله مع ذلك هدية إليه من قُماش ، وطِيب ، وقِسِىّ ، وأوصَاه بانتقاء الخيل له من قُطر المغرب ، وانصرف ؛ فقبِل سلطانُه فيه شفاعَةَ الظّاهر ، وأعادَه إلى مَنزلته ، وانتَقَى الخيولَ الرائعـة لمهاداة الملك الظاهر ، وأحسَن فى انتقاء أصناف الهدية ، فعاجلته المنيّة دُون ذلك ؛ ووَلِى ابنُه أبو فارس[3] ، وبقى أياماً ثمّ هلك ، وَوَلِىَ أخوه أبو عَامر[4] ، فاستكمل الهـدية ، وبعثها صُحبةَ يوسف بن على الوارد الأول .

وكان السلطان الملك الظاهر ، لما أبطأ عليه وصولُ الخيل من المغرب ، أراد أن يبعثَ من أُمرائه من ينتقى له ما يشاء بالشِّراء ، فعيَّن لذلك مملوكاً من مماليكه منسوباً إلى تَربية الخليلى ، اسمه قُطْلُوبُغَا[5] ، وبعثَ عنِّى ، فحضرتُ بين يدَيه ، وشاوَرنى

---

(١) فى العبر ١٤٨/٨ : « .... وكان يوسف بن على بن غانم أمير أولاد حسين من المعقل ، حجّ سنة ٩٣ ، واتصل بملك مصر من الترك الظاهر برقوق ، وتقدمت إلى السلطان فيه ، وأخبرته بمحله من قومه ، فأكرم تلقيه ، وحمله — بعد قضاء حجه — هدية إلى صاحب المغرب » الخ .

(٢) هو أبو العباس أحمد بن أبى سالم ؛ ملك من سنة ٧٧٥ — ٧٩٦ ، ويقال له ذو الدولتين ، لأنه تولى الملك مرتين ؛ بويع بطنجة سنة ٧٧٥ ، وتوفى بمدينة تازا . الاستقصا ١٤٠/٢ وما بعدها .

(٣) هو أبو فارس عبد العزيز بن أبى العباس بن أبى سالم ، ولى سنة ٧٩٦ بعد وفاة أبيه أبى سالم ، وتوفى سنة ٧٩٩ . الاستقصا ١٤١/٢ .

(٤) أبو عامر عبد الله بن أبى العباس بن أبى سالم ، بويع بعد أخيه أبى فارس عبد العزيز سنة ٧٩٩ ، وتوفى سنة ٨٠٠ . الاستقصا ١٤٢/٢ .

(٥) هو قطلو بغا بن عبدالله المتوفى سنة ٨٢١ . تولى نيابة الإسكندرية والحجابة أيام =

فى ذلك فوافقتُه ، وسألنى كيف يكون طريقُه ، فأشرتُ بالكتاب فى ذلك إلى سلطان تُونِس من الموحِّدين[1] ، وسلطان تِلِمسان من بَنى عبد الواد ، وسلطان فاس والمغرب من بنى مَرِين ؛ وحمَّله لكل واحد منهم هدية خَفِيفَةَ من القُماش ، والطيب ، والقِسِىّ ، وانصرف عامَ تسعة وتسعين إلى المغرب ، وشيَّعه كل واحد من مُلوكه إلى مَأمنه ، وبالغ فى إكرامه بما يتعيَّن ، ووصلَ إلى فاس ، فوجَد ٥
[١٧٥] الهَدية قد استكملت ، ويوسفَ بنَ علىّ علَى المسير بها عن / سلطانه أبى عامر من وَلد السلطان أبى العباس الخاطب أوّلا ، وأظلَّهم عيدُ الأضحَى بفاس ، وخرَجُوا متوجهين إلى مصر ، وقد أفاض السُّلطان من إحسانه ، وعطائه ، على الرّسول مُطْلُوبًا ومَن فى جُمْلته بما أقرّ عيونَهم ، وأطلق بالشكر ألسنتَهم ، وملأ بالثناء ضمائرهم ؛ ومرُّوا بتِلِمْسان ، وبها يومئذ أبو زيّان ابنُ السلطان أبى حَمُّو من ١٠ آل يَغمْرَاسَن بن زيّان ، فبعث معهم هديةً أخرى من الجياد بمراكبها ، وكان يحوكُ الشِّعر ، فامتدح الملك الظاهر بقصيدة بعثها مع هديته ، ونصُّها من أولها إلى آخرها :

لمن الرَّكائب سَيْرهن ذَميلُ[2] والصَّبْرُ — إلاَّ بعدَهن — جميلُ
يأيها الحادِى رُوَيْدَك[3] إنَّها ظُعُنٌ[4] يَميلُ القَلْبُ حيثُ تميلُ ١٥
رفقاً بمن حمَلته فوق ظهُورها فالحسنُ فوقَ ظهورها محمولُ

= الظاهر ، ونيابة الإسكندرية أيام المؤيد . قال فى المنهل : وأظنه مماليك جاركس الخليلى أمير آخور ، والله أعلم . عقد الجمان للعينى (سنة ٨٠٠ لوحة ٢٩ ، ٣٠) ، نسخة دار الكتب المصرية ، المنهل الصافى (نسخة نور عثمانية ٢/٣٠٧ ب) .

(١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر بن أبى حفص الموحدى . وقد ذكر فى العبر ٥/٥٠٠ صلته بالملك الظاهر ، والعلاقة الودية التى كانت بينهما ، وفرح أبى العباس بعودة الملك الظاهر إلى ملكه ، ومتابعته لأخبار الملك الظاهر .

(٢) الذميل : ضرب من سير الإبل فوق التزيد .

(٣) رويدك : اسم فعل بمعنى أمهل .

(٤) جمع ظعينة ؛ وهى المرأة تكون فى الهودج ، والهودج نفسه .

لله آية أنجم : شـــفافة　　تنجاب عنها الظلام ســـدولُ

شُهُبٌ بآفاق الصـدور طلوعها　　ولهـا بأستار الجـدول أفولُ

فى الهَوْدَج المزرُور منها غادةٌ　　نَزَعُ الدُّجى بجبينها فيحولُ

فـكأنها قمر على غُصْنٍ على　　مَتنَى كثيبٍ والـكثيب مَهيلُ

٥　ثارت مَطاياها فثارَ بىَ الهوَى　　واعتادَ قلبى زَفرةٌ وغَليـــلُ

أومَت لِتوديعِى فغالبَ عَبْرتى　　نظرٌ تخالسُه العيون كليـلُ

دمع أغَيِّض منه خوفَ رقيبها　　طوراً ويَغلِبُنى الأَسَى فيَسيلُ

ويحَ المحبِّ وشَت به عَـبرَاتُه　　فـكأنَّها قالٌ عليــه وقيلُ

صانَ الهوَى وجفونُه يوم النَّوَى　　لِمصُون جَوْهر دَمْعِهِنَّ تُذيلُ

١٠　وتَهابُه أُسْدُ الشَّرَى فى خِيسها(١)　　ويَرُوعه ظَبْىُ الحِمَى الـكَحُولُ

تأبَى النفوسُ الضَّيْمَ إلاَّ فى الهوَى　　فالحرُّ عبــدٌ والعَزيز ذَليلُ

ياَبانةَ الوادى ويا أهْلَ الحِمَى　　هل ساعةٌ تصْفَين لى فأقولُ

مَا لى إذا هبَّ النسيمُ من الحِمَى　　أرتاحُ شــوقاً للحِمَى وأميلُ

خَلُّوا الصَّبَا يَخْلُصْ إلىَّ نسيمُها　　إن الصَّبـــا لصَبَابتى تَعليلُ

١٥　ما لى أُحَلأُ عن ورود محـلِّه　　وأُذادُ عَنـهُ وورْدُه مَنْهولُ(٢)

والبَابُ ليس بمرتَجٍ(٣) عن مُرْتجٍ(٤)　　والظنُّ فى المولَى الجليل جَميلُ

***

من لى بزَوْرَة رَوْضَة الهادى الذى　　ما مثلُه فى المرسلين رسولُ

هو أحمدٌ ومحمـدٌ والمصطفَى　　والمجتَبى وله انتهى التفضيلُ

---

(١) الخيس : موضع الأسد .

(٢) حلأ الإبل عن ورود الماء : منعها ، وذادها .

(٣) باب مرتج : مغلق .

(٤) من الرجاء .

يا خيرَ من أهدى الهُدَى وأجلَّ مَن ... أثنَى عليه الوَحْى والتَّنزيلُ
وحىٌ من الرَّحمن يُلقيه علَى ... قَلْبِ النَّبى محمــــدٍ جبْريلُ
مَدَحتْك آياتُ الـكِتابِ وبَشَّرت ... بقُدومك التَّوْراةُ والإنجيــلُ
صِلةُ الصَّلاةِ عليك تَحْلُو فى فمى ... مَهْما تكرَّر ذِكرُك المَعْسُولُ
٥ فَوَرِبْعِكَ المأهولِ إن بأضْلُعى ... قلباً بِحُبِّك رَبْعُــه مأهولُ
هل مِن سبيلٍ للسُّرَى حَتَّى أرَى ... خَيْر الوَرَى فهو المُنَى والسُّولُ
حتَّامَ تُمطِلُنى اللَّيالى وعْــدَهَا ... إنَّ الزَّمان بوَعْدِه لَبَخيلُ
ما عَاقنى إلاَّ عظيمُ جــرائمى ... إن الجَرَائم حَمْلُهنَّ ثقيــلُ
أنا مُغْرم فتعطَّفوا أنا مُذنِب ... فتجاوزوا أنا عَاثِر فأقيــلُوا
١٠ وأنا البَعيد فقرِّبوا والمُسْتَجــير فأمِّنوا والمُرتَجى فأنيــلُوا
يا سائقاً نحو الحِجاز حَمُولَةً[1] ... والقَلب بين حُمُولِه[2] محمولُ
لِمحمَّدٍ بلِّغ سلامَ سَمِيِّــهِ ... فذِمَامه بمحمدٍ موصُولُ
وسَلِ الإلهَ له اغتفَار ذنوبه ... يُسْمعْ هنـاك دعاؤُك المقبولُ

***

١٥ وعن المليك أبى سعيدٍ فلتَنُبْ ... فلَــكَمْ له نحوَ الرَّسول رَسُولُ
مُتَحَمِّلٌ لله كِسْوة بيتِــــــه ... يا حَبَّــذَاك المَحْمِلُ المَحْمُولُ
سَعْدُ المَليك أبِى سَعِيـدٍ أنَّه ... سَيفٌ على أعدائه مَسْلُولُ
مَلِك يَحُجُّ المَغْرِبِ الأقصَى بِهِ ... فلَهُم به نَحوَ الرَّسول وُصُولُ[3]

---

(١) الحمولة (بالفتح) : ما يحمل عليه الناس من الدواب .

(٢) الحمول جمع حمل ، وهو ما حمل على ظهر الدابة .

(٣) كانت العناية التى يلقاها الحجاج المغاربة من ملوك مصر ، مما يقدره ملوك المغرب التقدير الجميل ، وكان مما يقلقهم أن يتعرض وفد الحجاج للمغاربة للمتاعب فى سفره . وانظر صبح الأعشى ٩/٢٠٠ .

مِلِكٌ به نَامَ الأنَام وأُمِّنَتْ سُبُل المَخَاف[1] فلا يُخَاف سبيلُ
فالمُلك ضَخْم والجَنَاب مؤَمَّلٌ والفَضْل جمٌّ والعَطَاء جَزِيلُ
والصُّنْع أجلُ والفَخَار مؤَثَّلٌ والمَجْد أكْمَلُ والوَفَاء أصِيلُ
يا مَالِكَ البَحْرين بُلِّغت المُنَى قد عادَ مصرُ على العِراق يَصُولُ
٥ يا خادِمَ الحَرَمَيْن حَقَّ لك الهَنَا فَعليك من رَوْحِ[2] الإلَه قبولُ
يا مُتْحِفِي ومُفَاتِحِي برسَالةٍ سَلْسَالةٍ يُزْهَى بها التَّرسِيلُ
أهديتَها حَسْنَاء بِكراً مَا لَهَا غَيْرِي، وإن كَثُر الرِّجال، كَفِيلُ
ضَاء المِدَادُ من الوِدَادِ بصُحْفِها حتَّى اضمحلَّ عُبُوسُه المجبولُ[3]
/جُمِعَتْ وحامِلَها بحضْرتنا كما جُمِعتْ بُثَيْنَةُ فى الهَوَى وجَمِيلُ[4] [٧٥ب]
١٠ وتأكَّدت بهـــــدِيةٍ ودِّيةٍ هى للإخَاء المرتَضَى تكْمِيلُ
أطلعْتَ فيها القِسِيَّ أهلَّةً يرتدُّ عنها الطَّرْفُ وهو كَلِيلُ
وحُسَامَ نَصْرٍ زاهياً بنُضَاره رَاقَ العيون فِرِنْدُه المَصْقولُ
ماضِي الشَّبَا[5] لَمَضَابه تَعْنُو الظُّبَا فَبِه تصولُ على العِـدا وتطُولُ
وبَدَائعَ الحُلَلِ اليَمَانية التى رَوَّى معاطفَها بمصر النِّيلُ
١٥ فأجلتُ فيها ناظرِى فرأيتُها تُحَفًا يجُول الحسنُ حيث تجول
جلَّت محاسنُها فأهْوَى نحوَها بِفَمِ القبول اللَّثْمُ والتَّقْبيلُ
يا مُسْعِدِى وأخِى العزِيزَ ومُنْجِدِى ومن القُلُوب إلى هَوَاه تميـلُ

---

(١) المخاف : موضع الخوف .

(٢) روح الإله : رحمته .

(٣) يعنى : اضمحلّ العبوس الطبيعى .

(٤) جميل بن عبد الله بن معمر العذرى ، وبثينة صاحبته التى عشقها منذ أيام صباه .
له ترجمة فى الخزانة للبغدادى ١/١٩١ — ١٩٢ ، الموشح ص ٧٢ .

(٥) الشباة : حد السيف وطرفه ، والجمع شباً .

إن كان رسْم الوُدّ منك مذيَّلاً ... بالبرّ وهو بذَيلهِ موصـــولُ
فنظيرُه عنـدى وليس يَضيرُه ... بمعــارضٍ وَهْمٌ ولا تَخْييلُ
ودٌّ «يزيدُ» و «ثابتٌ» شَهِدَا بِهِ ... و «خالدٍ» بخُلودهِ تَذييـــلُ
وإليكَها تُنبيك صـدقَ مودَّتى ... صَحَّ الدليــلُ ووَافقَ المدلولُ
فإذَا بِذَاك المجلسِ السّامى سَمَتْ ... فــلَدَيك إقبالٌ لها وقَبُولُ
دام الوِدادُ على البِعاد موصَّــلا ... بينَ القُلوب وحبلُه موصولُ
وبقيتَ فى نِعَمٍ لَديك مَزيدُها ... وعليـك يضفُوا ظلُّها المـدُولُ

ثم مرُّوا بعدَها بتُونس ، فبعث سلطانُ تُونس أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان أبى العبّاس من مُلوك الموحّدين ، هديةً ثالثةً انتقَى لها جيادَ الخيل ، وعزّزَ بها هديةَ السلطانين وَراءه ، مع رَسوله من كِبار الموحِّدين أبى عبد الله ابن تافرَاكين ؛ ووصلَت الهَدايا الثلاث إلى باب الملك الظّاهر فى آخر السَّنة ، وعُرِضَت بين يدى السلطان ، وانتهَب الخاصكية ما كان فيها من الأقمشة ، والسُّيوف ، والبُسُط ، ومراكب الخَيل ، وحَمل كثيراً منهم على كثير من تلك الجياد ، وارتَبط الباقيات .

وكانَت هديةُ صاحبِ المغرب تشتمل على خمسةٍ وثلاثين من عتاق الخيل بالسروج واللُّجُم الذهبية ، والسيوف المحَلاّة ، وخمسةٍ وثلاثين حِملا من أقمشة الحرير والكتّان والصوف والجلد ، منتقاةً من أحسن هذه الأصناف .

وهديةُ صاحب تِلمسان تشتمل على ثلاثين من الجياد بمراكبها المُموَّهة ، وأحمالاً من الأقمشة .

وهديةُ صاحب تونس تشتمل على ثلاثين من الجياد مُغَشّاةً ببراقع الثياب

من غير مَرَاكب ، وكلها أنيق فى صُنعه ، مُستطرَف فى نوعه[1] ؛ وجلَس السُّلطان يَوم عرضها جلوساً فخْمًا فى إيوانه ، وحضَر الرُّسل ، وأدَّوا مايجب عن ملوكهم ، وعامَلَهم السلطان بالبرّ والقَبُول ، وانصرفوا إلى منازلهم بالجرايات الواسعة ، والأحوال الضَّخمَة ، ثم حضَرَ وقتُ خُرُوج الحاجّ ، فاستأذنُوا فى الحَجّ مع مَحْمِل السلطان ، فأذِن لهم ، وأرغدَ أزودَتهم ، وقَضَوا حجَّهم ، ورجَعُوا إلى حضرة السلطان ومَعهود مَبَرّته ، ثم انصَرفوا إلى مَواطنهم ، وشيَّعهم من برّ السلطان وإحسانه ، ما ملأ حقائبهم ، وأسنَى ذخيرَتهم ، وحصَل لى أنا من بين ذلك فى الفخرِ ذِكرٌ جميلٌ بما تَناولتُ بين هؤلاء الملوك من السّعْى فى الوُصْلَة الباقية على الأبَد ، فحمدت الله على ذلك .

(١) فى «عقد الجمان للعينى» (فى حوادث سنة ٨٠٠ لوحة ٢٩، ٣٠ نسخة دار الكتب)، ذكر لهذه الهدية بصورة تختلف عما يرويه ابن خلدون هنا . وانظر «الجوهر الثمين» لابن دقاق فى حوادث سنة ٨٠٠ أيضاً .

ولاية القضاء الثانية بمصر

مازلتُ ، منذُ العزل عن القضاء الأوّل سنة سَبعٍ وثمانين ، مكبًّا على الاشتغال
بالعلم ، تأليفاً وتدريسا ، والسلطان يولّى فى الوظيفة من يراه أهلاً متَى دعاه إلى
ذلك داعٍ ، من موت القائم بالوظيفة ، أو عزله ، وكان يرانى الأوْلَى بذلك ، لولاَ
وجودُ الذين شَغَّبوا من قبلُ فى شأنى ، من أمراء دَولته ، وكِبَار حاشيته ، حتى ٥
انقرضوا ، واتفقت وفاةُ قاضى المالكية إذ ذاك ناصر الدين ابن التَّنَسِى[1] ، وكنتُ
مقيما بالفيوم لضَمِّ زرعى هنالك ، فبعث عنّى[2] ، وقلّدنى وظيفةَ القَضاء ، فى
[١٧٦] منتصف / رمضان من سنة إحدى وثمانمائة ، فجَرَيتُ على السَّنَن المعروف منى ،
من القيام بما يجب للوظيفة شرعاً وعادَةً ؛ وكان رحمه الله يَرضَى بما يَسْمع عنّى فى
ذلك ، ثم أدركته الوفاة فى منتصف شوال بعدها ، وأحْضَر الخليفةَ والقضاةَ[3] ١٠
والأمراء ، وعهد إلى كبير أبنائه فَرَج ، ولإخوته من بَعده واحِدًا واحِدا ، وأشهدَهم
على وصيّته بما أراد ، وجعل القائمَ[4] بأمر ابنه فى سلطانه إلى أتابكه ايتمش[5] ،

---

(١) هو أحمد بن محمد بن عطاء الله بن عوض الزبيرى الاسكندرى المالكى المشهور بابن التنسى (بفتح التاء والنون وكسر السين المهملة) ، ولد سنة ٧٤٠ ، وتوفى سنة ٨٠١ . أحمد بابا ص ٧٤ — ٧٥ ، « عقد الجمان » سنة ٨٠١ لوحة ٥٣ (نسخة دار الكتب) ، ابن قاضى شهبة فى حوادث سنة ٨٠١ ، « حسن المحاضرة » ١/٢١٨ .

(٢) فى السلوك (٨٠١ ورقة ٢١١ أ نسخة الفاتح) : « ... وفى عاشره (رمضان) خرج البريد باحضار الشيخ ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون من قرية الفيوم ليستقر فى قضاء المالكية ، وكان قد سعى فى ذلك عرف الدين محمد بن الدماميني الاسكندرانى بسبعين ألف درهم ، فردها السلطان . وفى خامس عشره ، حضر ابن خلدون ، واستقر فى قضاء المالكية عوضا عن ناصر الدين ابن التنسى بعد موته » .

(٣) كان ابن خلدون ممن حضر مجلس هذه الوصية ، وقد ذكر العينى فى « عقد الجمان » هذا الحادث وفصله فى حوادث سنة ٨٠١ لوحة ٥٨ — ٥٩ ، ٧٠ .

(٤) كذ بالأصلين ، ولعل الصواب : « القيام بأمر » .

(٥) هو أيتمش بن عبد الله الأسندمرى البجاسى الجرجانى الأمير سيف الدين ، أتابك العساكر بالديار المصرية ، أصله من مماليك أسندمر البجاسى الجرجانى (نسبة إلى جرجى نائب حلب ، وكان ملك أيتمش قبل أن يحرره الظاهر برقوق) ، قتل أيتمش مع تنم سنة ٨٠٢ . « المنهل الصافى » (نسخة نور عثمانية ١/١٥١ ب — ١٥٣ أ) .

وقَضى رحمة الله عليه، وتَرتَّبت الأمور من بَعده كما عَهِد لهم، وكان النائب بالشام يومئذ أمير من خاسكية السلطان يعرف بتنم [١]، وسمع بالواقعات بعـدَ السلطان فنصّ أن لم يكن هو كافلَ ابن الظّاهر بعدَه، ويكونُ زمام الدّولة بيده، وطفق سَماسِرةُ الفتَن يُغرُونَه بذلك، وبَينما هُم فى ذلك إذ وقعت فتنه الأتابك [٢] أيتمش؛ وذلك أنّه كان للأتابك دَوَادَار غِرّ يتطاول إلى الرئاسة، ويترفّع عَلَى أكابر الدّولة بحظه من أستاذه، وما لَهُ من الـكفالة على السلطان، فنَقَموا حالَهم مع هذا الدّوَادَار، وما يَسُومهم به من التّرفّع عليهم، والتّعَرض لإهمال نصائحهم، فأغروا السلطان بالخروج عن رِقّة الحَجْر، وأطاعهم فى ذلك، وأحضر القضاةَ بمجلسه للدّعوى على الأتابك باستغنائه عن الـكافل بما عُلِم من قيامه بأمره وحُسن تصرفاته، وشهد بذلك فى المجلس أمراء أبيه كافّة، وأهلُ المراتب والوظائف منهم، شهادةً قبِلهَا القضاة، وأعذروا إلى الأتابك فيهم فلم يَدفَع فى شىء من شهادتهم، ونَفَذ الحـكمُ يومئذ برفع الحِجْر عن السلطان فى تصرفاته وسياسة مُلكه، وانفَضّ الجمع، ونَزَل الأتابكُ من الإسطبل إلى بيت سُكناه، ثم عاوَد الـكثيرُ من الأمراء نَظَرهم فيما أتوه من ذلك، فلم يَرَوهُ صوابا، وحملوا الأتابك على نَقْضه، والقيام بما جَعَل له السلطانُ من كفالة ابنه فى سلطانه، ورَكب، وركبوا معه فى آخر شهر المولد النّبوى، وقاتَلهم أولياء السّلطان فَرَج عشيّ يومِهم وَليلتَها، فهزمُوهم، وساروا إلى الشّام مستصْرخين بالنائب تنم، وقد

(١) الأمير سيف الدين تنم بن عبد الله الحسنى الظاهرى، اسمه الأصلى تنبك، وغلب عليه «تنم»، كان نائب دمشق، وهو من مماليك الظاهر برقوق، قتل سنة ٨٠٢ بقلعة دمشق. «المنهل الصافى» (نسخة نور عثمانية ١/٢٢٩ ب — ٢٤١).

(٢) يطلق «أتابك» فى أيام المماليك، على مقدم العساكر أو القائد العام، على أنه أبو العساكر والأمراء جميعاً. وهو مركب من كلمتين: «أتا» بمعنى «أب»، و«بك» ومعناها أمير. صبح الأعشى ١٨/٤، ٦/١، السلوك ص ١٤٦.

وقَرّ فى نفسه ما وقَر من قَبل ، فبرّ وَفَادتهم ، وأجاب صَرِيخهم ، واعتزموا على المُضِىّ إلى مصر ؛ وكان السُّلطان لما انفضّت جموع الأتابك ، وسار إلى الشام ، اعتَمله[1] فى الحركة والسَّفر لخضد شوكتهم ، وتفريق جماعتهم ؛ وخرج فى جُمادى حتى انتهى إلى غَزّة ، فجاءه الخبر بأنّ نائب الشام تِنِم ، والأتابك ، والأمراء الذين مَعَه ، خرجوا من الشّام زاحفين للقاء السلطان ، وقد احتَشَدوا وأوعَبوا ، ٥
وانتهوا قريباً من الرَّمْلة[2] ، فراسَلَهم السُّلطان مع قَاضى القُضاة الشافعى صَدر الدّين المُناوى[3] ، وناصر الدين الرَّمّاح ، أحد المعَلِّمين لِثَقافة الرِّماح ، يُعْذِر إليهم ، ويَحْمِلُهم على اجتماع الكَلِمة ، وتَركِ الفِتْنة ، وإجابتهم إلى ما يطلُبون من مَصَالحهم ، فاشتطّوا فى المطالب ، وصمَّموا على ما هم فيه ، ووَصَل الرَّسولان بخبرهم ، فركب السّلطان من الغد ، وعبَّى عَساكره ، وصمّم لمعاجلتهم ، ١٠
فَلَقِيهم أثناء طريقه ، وهاجَمهم فهاجمُوه ، ثم ولّوا الأدبارَ منهزمين ، وصُرِع الكثير من أعيانهم وأمرائهم فى صدر موكبه ، فما غشيهم الليل إلّا وهم مصفَّدون فى الحديد ، يَقْدُمهم الأمير تِنِم نائب الشام / وأكابرُهم كلهم ، ونجَا الأتابك [٧٦ب]
أيتمش إلى القلعة بدمشق ، فآوى إليها ، واعتقله نائب القلعة ، وسار السلطان إلى دمشق ، فدخلها على التعبئة فى يوم أغرّ ، وأقام بها أياما ، وقتَل هؤلاء الأمراء ١٥
المعتقلين ، وكبيرَهم الأتابك ذَبْحا ، وقتَل تِنِم من بينهم خَنْقا ، ثم ارتحل راجعاً إلى مصر .

وكنتُ استأذنت فى التقدُّم إلى مصر بين يَدَى السلطان لزيارة بيت المَقْدِس ،

(١) كذا فى الأصلين ، ولعل الصواب : « اعتمل » .

(٢) الرملة Ramleh عرضها الشمالى ٣١° — ٥٧′ ، وطولها الشرقى ٣٤° — ٥٣′ ؛ مدينة بفلسطين بينها وبين بيت المقدس نحو ١٨ ميلا ، كانت ذا شأن عظيم فى الحروب الصليبية ، وانظر ياقوت ٤/٢٨٦ .

(٣) صدر الدين محمد بن ابراهيم بن اسحق الشافعى له ترجمة فى « المقفى » للمقريزى ١/٤٢ (نسخة دار الكتب) .

فأذِن لى فى ذلك ، ووصلتُ إلى القدس ودخلت المسْجِد ، وتبرَّكت بزيارته
والصّلاة فيه ، وتعفّفت عن الدخول إلى القُمَامَة[1] لما فيها من الإشَادة بتكذيب
القرآن ، إذ هو بناء أمِ النّصرانية على مكَان الصَّليب بزعمهم ، فنَـكِرتْه نَفْسى ،
ونَـكِرْتُ الدُّخول إليْه ، وقضيت من سُنَن الزيارة ونافِلَتِها ما يجب ، وانصرفتُ
٥ إلى مدفَن الخليل عليــه السّلام ، ومررتُ فى طريقى إليه ببيت لَحْم ، وهو بناء
عظيم على موضع ميلادِ المسيح ، شَيّدت القياصرة عليه بناء بسِماطَين من العَمَد
الصُّخُور ، مُنَجّدَةً مصْطفّة ، مرقوماً على رؤسها صُورُ ملوك القياصرة ، وتواريخ
دُوَلِهم ، مُيَسَّرةً لمن يبتَغى تحقيق نَقْلها بالتَّراجمة العارفين لأَوضاعها ؛ ولقد يشهد
هذا المصْنَع بعِظَم مُلْك القياصرة وضَخامة دولتهم . ثم ارتحلت من مدْفن الخليل
١٠ إلى غَزّة ، وارتَحلتُ منها ، فوافيتُ السلطان بظاهر مِصْر ، ودخَلتُ فى رِكابه
أواخر شهرِ رمضان ســنة اثنين وثمانمائة . وكانَ بمصر فقيه من المالـكية يعرف
بنُور الدّين ابن الخلال[2] ، ينوب أكثرَ أوقاته عن قُضاة القضاة المالـكية ،
فحرَّضه بعض أصحابه على السّعى فى المنصِب ، وبذَل ما تيَسَّر[3] من مَوجوده
لبعض بطانة السّلطان الساعين له فى ذلك ، فتمّت سِعايته فى ذلك ، ولبِسَ
١٥ منتصفَ المحرَّم سنة ثلاث ؛ ورجعت[4] أنا للاشتغال بما كنت مشتغلا به من
تدريس العلم وتأليفه ، إلى أن كان السَّفر لمدافعة تمر عن الشام .

---

(١) القمامة (بالضم) : كنيسة كبرى ببيت المقدس ، وانظر تاج العروس (قم) ،
ياقوت ١٥٨/٧ .

(٢) على بن يوسف بن عبد الله (أو ابن مكى) الدميرى (أو الزبيرى) ، المعروف
بابن الخلال المالـكى . له ترجمة فى « نيل الابتهاج » ص ٢٠٦ ، « عقد الجمان » للعينى (لوحة
١٥٩ ، ١٦٠ من حوادث سنة ٨٠٣) .

(٣) فى « عقد الجمان » للعينى (سنة ٨٠٣ لوحة ١٥٩ — ١٦٠) : « ... وحصل له
[ابن الخلال] حنق من ابن خلدون المغربى فى شىء ، فحمله ذلك إلى سعى فى القضاء بالرشوة ،
فتولى ولم تطل أيامه ، فمات وعليه جملة ديون » . وكذلك جاء النص على بذله المال فى سبيل
الحصول على خطة القضاء ، فى « السلوك » للمقريزى (سنة ٨٠٣ ورقة ١٣١ ب نسخة الفاتح)،
وفى تاريخ ابن قاضى شهبة فى حوادث سنة ٨٠٣ ، لوحة ١٧٠ ب .

(٤) كانت المحنة التى لحقته فى هذه المرة قاسية ، وقد ألم بها ابن قاضى شهبة فى تاريخه =

سفر السلطان إلى الشام لمدافعة الططر عن بلاده

هؤلاء الطّطر من شعُوب التُّرك ، وقد اتفق النسّابة والمؤرخون على أن أكثر أمم العالم فرقتان ، وهما : العرب والترك ، وليس فى العالم أمة أوفرَ منهما عدداً ، هؤلاء فى جنوب الأرض ، وهؤلاء فى شمالها ، وما زَالوا يَتَناوَبُون الملك فى العالَم ؛ فتارةً يَملك العرب ويزْحلون[1] الأعاجمَ إلى آخر الشّمال ، وأخرى ٥ يزْحَلهم الأعاجم والتُّرك إلى طرف الجنوب ، سنة الله فى عباده .

فلنذكُر كيف انسَاقَ الملك لهؤلاء الطّطر ، واستقرت الدُّول الإسلامية فيهم لهذا العهد فنقول : إن الله سبحانه خلق هذا العالمَ واعتَمَره بأصناف البَشَر على وَجْه الأرض ، فى وسَط البُقْعة التى انكشفت من الماء فيه ، وهى عندَ أهل الجغرافيا مقدَار الرُّبع منه ، وقسّموا هذَا المعْمور بسبعة أجزاء يُسَمّونها الأقاليم[2] ، مبتدأةً ١٠ من خط الاستواء بيْنَ المشرق والمغرب ، وهو الخط الذى تسامت الشمس فيه رؤس السكان ، إلى تمام السّبعة أقاليم ، وهَذا الخط فى جَنُوب المَعْمور ، وتَنتهى [١٧٧] السبعة الأقاليم فى شماله ، وليس فى جَنوب خط الاستواء عِمارةٌ / إلى آخر الرّبع المنكَشف ، لإفراط الحرّ فيه ، وهو يَمنع من التّكوين ؛ وكذلك ليس بعدَ الأقاليم السّبعة فى جهة الشّمال عِمارة ، لإفراط البَرْد فيها ، وهو مَانع من التكوين أيضا ، ١٥ ودخَل الماء المحيطُ بالأرض من جهة الشرق فوق خط الاستواء بثلاث عشرة درجة ، فى مدخَل فسيح ، وانساح مع خَطّ الاستواء مُغَرّبا ، فمرّ بالصّين ،

= سنة ٨٠٣ لوحة ١٧٠ ب : « ... وسبب عزل المذكور (ابن خلدون) مبالغته فى العقوبات ، والمسارعة إليها ، وأهين ، وطلب بالنقباء من عند الحاجب أقباى ماشياً من القاهرة إلى بيت الحاجب عند أكلبش ، وأوقف بين يديه ، ورسم عليه ، وحصل له إخراق ، وأطلق بعض من سجنه ؛ ثم أعطى تدريس المالكية بوقف أم الصالح عوضاً عن ابن الخلال » .

(١) زحل عن مكانه : زل ، وبعد .

(٢) فصل ابن خلدون القول فى هذا الموضوع فى مقدمته .

والهِند ، والسِّند ، واليَمَن ، فى جَنوبها كلِّها ، وانتهَى إلى وسط الأرض ، عند باب المَنْدَب[١] ، وهو البحر الهِنْدى والصينى ، ثم انحرف من طرفه الغربى فى خليج عندَ باب المَندَب ، ومَرّ فى جهة الشمال مغرِّبا باليَمَن ، وتِهامَة ، والحجاز ، ومَدْيَن[٢] ، وأَيْـلَة[٣] ، وفاران[٤] ، وانتهى إلى مدينة القلزم[٥] ، ويُسمّى بحر السويس ، وفى شرقيه بلادُ الصَّعيد إلى عَيْذَاب[٦] ، وبلاد البُجَاة[٧] ؛ وَخرج من هذا البحر الهندى من وَسطِه خليج آخر يُسَمَّى الخليجَ الأخضر[٨] ،

(١) باب المندب Bab el Mandeb : هو المضيق الواقع فى النهاية الجنوبية للبحر الأحمر.

(٢) Midian : مقاطعة فى شمال الحجاز تمتد على الساحل الشرقى للبحر الأحمر إلى مبدأ خليج العقبة ، وفى الجهة الشرقية منها يقع جبل الصفاة Jabel el Safah . وفى الخطط للمقريزى ٣٠١/١ — ٣٠٤ (طبع مصر) ، حديث عن مدين ، وبعض من أخبارها .

(٣) أيلة (Aila أو Ailat عرضها الشمالى ٢٩° — ٣٠′ ، وطولها الشرقى ٣٥°) : ميناء واقع فى الزاوية الشمالية الشرقية لخليج العقبة ، وكان فى القديم مدينة تجارية ذات أهمية كبرى ، وقد ورد ذكرها فى التوراة ؛ فى سفر الملوك ٩ : ٢٦ ، ٢٧ . وفى دائرة المعارف الاسلامية كلة وافية عنها ، وانظر رحلة بنيامين ص ١٨٠ ، خطط المقريزى ٢٩٨/١ (طبع مصر) ، والبكرى (معجم ما استعجم) ، ٢١٦/١ ،

Geogr. Dictio. by Angelo Heilprin and Luis Heilprin

(٤) فاران : مدينة كانت على ساحل بحر القلزم بناحية الطور ، ويقول المقريزى فى الخطط (٣٠٤/١ طبع مصر) : « ... وكانت مدينة فاران من جملة مدائن مدين إلى اليوم ، وبها نخل كثير مثمر ، أكلت من ثمره ، وبها نهر عظيم ، وهى خراب يمر بها العربان » . وانظر ياقوت ٣٢٣/٦ .

(٥) القلزم (Clisma) بالضم ثم السكون ثم زاى مضمومة : بلد ساحلية بجوار السويس والطور ، وإليها ينسب البحر ، فيقال بحر القلزم ، ويقول ياقوت ١٤٥/٧ : « ... وأما اليوم فهى خراب يباب ، وصار الميناء إلى مدينة قريبها يقال لها السويس » .

(٦) عيذاب (Aidhab أو Aidip عرضها الشمالى ٢١°) : مدينة مصرية على الساحل الإفريقى للبحر الأحمر ، وكانت فى العصور الوسطى ميناء مهما للحجاج الذين يقصدون مكة من الغرب ، ومحطا للسفن الهندية التى كانت تأتى من عدن ، ولتجار إفريقية الوسطى ، وانظر ياقوت ٢٤٦/٦ .

(٧) البجاة ، ويقال البجة (Bedja أو Bodja) : مجموعة من القبائل الحامية تسكن فيما بين النيل والبحر الأحمر ؛ واسمها « البجة » قديم يرجع إلى ما قبل الإسلام ، وقد ذكر المقريزى فى الخطط (طبع مصر ٣١٣/١ — ٣١٩) ، نبذة صالحة عن هذه القبائل ؛ وانظر صبح الأعشى ٢٧٣/٥ .

(٨) يريد بالخليج الأخضر خليج عمان Golf of Oman

ومرّ شمالا إلى الأُبُلّة[1] ، ويسمّى بحرَ فارس[2] ، وعلَيْه فى شرقيّه بلادُ فارس[3] ، وكِرْمان[4] ، والسِّند[5] ؛ ودخل الماء أيضا ، من جهة الغرب فى خليج مُتضايق فى الإقليم الرّابع ، ويُسَمّى بحرَ الزُّقاق[6] ، تكون سَعَتُه هنالك ثمانية عشر ميلا ، ويمر مُشَرِّقا ببلاد البَرْبَر ، من المغرب الأقصى ، والأوسَط ، وأرض إفريقية ، والأسكندرية ، وأرض التِّيه[7] ، وفلسطين ، والشام ؛ وعليه فى الغرب بلادُ الافرنج كلها ؛ وخرج منه فى الشمال خليجان ، الشرقى منهما خليج القُسْطَنطينية[8] ، والغربى خليج البَنَادقة[9] ، ويُسَمّى هذا البحرُ البحرَ الرُّومىّ ، والشامىّ .

ثم إن هذه السبعة الأقاليم المعمورة ، تنقسم من شرقيّها وغربيّها بنصفين ، فنصفُها الغربى فى وسطه البحرُ الرّومىّ ، وَفى النصف الشرقى من جانبه الجنوبى البَحر الهندى ؛ وكان هذا النصف الغربىّ أقل عمارةً من النصف الشرقى ، لأن

---

(١) ضبطها ابن خلدون بضم الهمزة والباء الموحدة ، وتشديد اللام المفتوحة ؛ وهى مدينة على شاطئ دجلة فى زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة . وانظر ياقوت ٨٩/١ — ٩٠ ، صبح الأعشى ٣٣٦/٤ .

(٢) يسمى بحر فارس اليوم ، الخليج الفارسى Persian Golf .

(٣) فارس ، أو بلاد العجم : هى التى تعرف اليوم باسم Persia ، وإيران Iran اشتقاقا من كلة « آرية » Arie ، وتدل الآن على المملكة الفارسية . وانظر ياقوت ٣٢٤/٦ .

(٤) كرمان (Kerman عرضها الشمالى ٣٠° — ١٥′ ، وطولها الشرقى ٥٧°) : إحدى المدن الجبلية من مدن إيران ، وكانت فى القديم ولاية تفصل بين فارس فى الغرب ، وصحارى لوط (Dashti Lut) فى الشرق . وانظر ياقوت ٢٤١/٨ — ٢٤٤ .

(٥) السند Sind : بلاد كانت تفصل بين الهند وكرمان ، وبعضهم كان يعد من إقليم السند بلاد مكران الواقعة فى جنوب فارس . وانظر ياقوت ١٥١/٥ .

(٦) هو مضيق جبل طارق الآن Str. of Gibraltar .

(٧) أرض التيه : هى شبه جزيرة سينا اليوم .

(٨) يتحدث الآن عن بحر إيجة Aegean Sea الذى يصل البحر الأبيض عن طريق الدردنيل ، والبوسفور — بالبحر الأسود .

(٩) خليج البنادقة ؛ هو البحر الادرياتى Adriatic Sea الذى يقع فى نهايته الشمالية خليج البندقية Golf of Venice . وانظر صبح الأعشى ٤٠٤/٥ وما بعدها .

البحر الرُّومىّ المتوسط فيه ، انفسح فى انسياحه ، فغمرَ الكثيرَ من أرضه ، والجانبُ الجنوبىّ منه قليل العِمارة لشدّة الحرّ ؛ فالعمران فيه من جانب الشّمال فقط ، والنصف الشّرقى عُمرانه أكثر بكثير ، لأنه لا بَحر فى وسطه يُزَاحم ، وجانبه الجنوبى فيه البحر الهندىّ ، وهو مُتَّسع جدًا ، فلطُف الهواء فيه بمجاورة الماء ، وعدَّل مِزاجَه للتّكوين ، فصَارت أقاليمُه كلُّها قابلة للعِمارة ، فكثُر عُمرانه .

وكان مبدأُ هذا العمران فى العَالم ، من لَدُن آدمَ صلواتُ الله عليه ، وتناسل ولدُه أولا فى ذلك النصف الشرقىّ ، وبادت تلك الأمم ما بينه وبين نوح ، ولم نَعلم شيئا من أخبارها ، لأن الكتُب الألهية لم يرد علينا فيها إلا أخبارُ نوح وبَنيه ، وأما ماقبل نوح فلم نَعرِف شيئا من أخباره ؛ وأقدَم الكتب المنزلة المتداولة بين أيدينا التوراةُ ، وليس فيها من أخبار تلك الأجيال شىء ، ولا سبيل إلى اتصال الأخبار القديمة إلا بالوَحى ؛ وأما الأخبار فهى تَدرُس بدروس أهلها .

واتفق النَّسَّابون على أن النسل كلَّه منحصر فى بنى نوح ، وفى ثلاثة من ولده ، وهم سَام ، وحَام ، ويافِث ؛ فمن سَام : العرب ، والعِبْرانيُّون ، والسَّبَائيون[1] ؛ ومن حَام : القِبْط ، والكَنْعَانيُّون ، والبَرْبَر ، والسُّودان / ؛ ومن يَافث : التُّرك ، [٧٧ب] والروم ، والخَزَر[2] ، والفُرْس ، والدَّيْلَم ؛ والجِيل .

ولا أدرى كيف صَحَّ انحصارُ النَّسَب فى هؤلاء الثلاثة عند النَّسَّابين ؛ أمِنَ النقل ؟ وهو بَعيدٌ كما قدّمناه ، أو هو رأى تفرّع لهم من انقِسام جَماعة المَعْمُور ، فجَعَلُوا شعوب كلِّ جهة لأهل نَسَب واحِد يشتركون فيه ، فجَعَلوا الجنوبَ لبنى سَام ، والمغربَ لبنى حَام ، والشمال لبنى يافث . إلّا أنّه المتَناقل بين النَّسّابة فى

(١) كذا فى الأصلين . ولعل الصواب : « السريانيون » .

(٢) ضبطه ابن خلدون بفتح الخاء والزاى ؛ وفى « تثقيف اللسان » لأبى جعفر عمر بن مكى الصقلى (ورقة ٣٣ نسخة سواد ملة) : « .... ويقولون لقبيلة من الترك الخزَر والصواب الخُزْر بالإسكان ، ويقال إنهم سموا بذلك لخزر أعينهم » أى ضيقها .

العالَم ، كما قلناه ، فلنعتمده ونقول : أولُ من مَلَكَ الأرض من نَسْل نُوح عليه السّلام ، النَّمرود بن كَنْعَان بن كوش ، بن حام ، ووقع ذكره فى التوْراة ، ومَلَكَ بعدَه عابر بن شالخ الذى يُنتَسبُ إليـه العِبرانيون ، والسريانيون ، وهم النَّبَط ، وكانت لهم الدَّولة العظيمة ، وهم ملوكُ بابِل ، من نبيط بن أشُّور بن سام ، وقيل نَبِيط بن ماش بن إرَم ، وهم ملوكُ الأرض بعد الطوفان على ما قَالَه المَسْعُودى ، ٥
وغلَبَهم الفرسُ على بَابِل ، وما كان فى أيديهم من الأرض ، وكانت يومئـذ فى العـالَم دولتان عظيمتان ، لملوك بابل هؤلاء ، والقبط بمصر ، هذه فى المغرب ، والأخرى فى المشرق ، ؛ وكانوا ينتحلون الأعمـال السحرية ، ويُعوِّلون عليها فى كثير من أعمالهم ، وبَرَابِى مِصر[1] ، وفِلاَحةُ ابن وَحْشِيَة[2] ، يشهدان بذلك .
فلما غلب الفُرسُ على بَابِل ، استقلَّ لهم ملكُ المشرق ، وجاء موسَى — صلوات ١٠
الله عليه — بالشريعة الأوليَّـة ، وحرّم السِّحر وطُرقَه ، وغلَبَ الله له القِبْط بإغراق فرعونَ وقومه ؛ ثم مَلَكَ بنو إسرائيل الشّام ، واختطوا بيت المَقدِس ، وظهر الرومُ فى ناحية الشمال وَالمغرب ، فغلبوا الفُرس الأولَى على مُلْكهم ، وملَكَ ذو القرنين الأسكندر ما كان بأيديهم ، ثم صار ملكُ الفرس بالمشرق إلى ملوكهم السّاسانية ، ومُلْكُ بنى[3] يونان بالشام والمغرب إلى القياصرة ، كما ذكرنا ذلك كلّه ١٥
من قَبل ، وأصبحت الدولتان عظيمتين ، وانتظمتَا العالَم بما فيه ، ونازع التُّركُ ملوكَ فارس فى خراسان[4] ، وما وراء النَّهر[5] ، وكانت بينهم حُروبٌ مشهورة ،

---

(١) كان القدماء يعتقدون أن الرسوم التى توجد على البرابى ، والمعابد المصرية القديمة ، ليست إلا طلاسم ، وأوفاقاً ، نقشت على جدرانها ليكون لها مفعول سحرى معين . وانظر خطط المقريزى ١/٤٨ طبع مصر ، معجم البلدان « برابى » .

(٢) فى كتاب : « علم الفلك — تاريخه عند العرب » لنلينو ، ص ٢٠٥ — ٢١٠ بحث قيم عن أبى بكر بن وحشية ، وعن كتابه ، وعما قام حولهما من شكوك وأبحاث .

(٣) بالأصلين : « بنو يونان » ، تحريف .

(٤) تطلق خراسان Khorassan اليوم على القسم الشرقى لإيران ، الذى يتصل بأفغانستان . وقد فتحت خراسان سنة ٣١ هجرية فى أيام عثمان رضى الله عنه . وانظر ياقوت ٣/ ٤٠٧ .

(٥) ما وراء النهر Transoxiane : اقليم مشهور يقع فيما وراء نهر جيحون ، وهو المراد « بالنهر » . وانظر ياقوت ٧/٣٧٠ — ٣٧٣ .

واستقرّ ملكهم فى بنى أفراسيَاب ؛ ثم ظهر خاتمُ الأنبياء محمد صلوات الله عليه ، وجمع العرب على كلمة الإسلام ، فاجتمعوا له ، « لو أنفقتَ ما فى الأرض جميعاً ما ألّفتَ بينَ قلوبهم ولكنَّ الله ألّفَ بينهم »[1] ، وقبضه الله إليه ، وقد أمَرَ بالجهاد ، ووعَد عن الله بأن الأرض لأمته ، فزحفوا إلى كسْرَى ، وقَيصَرَ

٥ بعد سَنَتين من وفاته ، فانتزعوا المُلْكَ من أيديهما ، وتجاوزوا الفُرسَ إلى التُّرك ، والرُّومَ إلى البَرْبَر والمغرب ، وأصبح العالَم كلُّه مُنتظِما فى دَعوة الإسلام ، ثم اختلفَ أهل الدِّين من بعده فى رجوعهم إلى من ينظم أمرَهم ، وتشيّع قوم من العرب فزعموا أنه أوصى بذلك لابن عمّه علىّ ، وامتنع الجماعة من قبول ذلك ، وأبوا إلّا الاجتهاد فى تعيينه ، فمَضَى على ذلك السَّلَف فى دولة بنى أميّة التى

١٠ استفحل المُلكُ والإسلامُ فيها ، وتناقل التشيّعُ بتَشعّب المذاهب ، فى استحقاق بنى علىّ ، وأيُّهم يَتعيَّن له ذلك ، حتى انساق مذهب من مذاهبهم إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس[2] ، فظهرت شيعتُه بخراسان ، وملكوا تلك الأرض كلّها ، والعراقَ بأسره ، ثم غَلَبوا على بنى أُمَيَّة ، وانتزعوا المُلك من أيديهم ، واستفحل ملكُهم ، والإسلامُ باستفحاله ، وتَعَدّد خُلَفاؤهم ، ثم خامَرَ الدّولةَ

١٥ ما يخامر الدُّولَ من التَّرَف والراحة ، / فَفشلوا ، وكثُر المنازعون لهم من بنى علىّ [١٧٨ ا] وغيرهم ، فظهرت دولةٌ لبَنى جعفر الصّادق بالمغرب ، وهم العُبَيْديُون[3] بَنُو عُبَيد الله المهدى ابن محمد ، قام بها كُتَامَة وقبائل البَربر ، واستولوا على المَغرب ومصر ؛ ودولةُ بنى العَلَوى بطَبَرِسْتان ، قام بها الدَّيْلَمُ وإخوانهم الجِيل[4] ؛ ودولةُ بنى

(١) الآية ٦٣ من سورة الأنفال .

(٢) كان ذلك فى سنة ١٢٩ هـ ، وانظر تفصيل القول فى تاريخ الطبرى ٩/ ٨٢ وما بعدها ، تاريخ أبى الفداء ١/ ٢٢٠ وما بعدها .

(٣) كان مبدأ دولة الفاطميين بالمغرب فى سنة ٢٩٦ ، ونهايتها سنة ٣٦١ . وانظر العبر ٤/ ٣١ وما بعدها .

(٤) فصل الحديث عن هذه الدولة فى العبر ٤/ ٢٢ ، ٢٣ .

أميــة الثانيةُ بالأندلس[١] ، لأن بنى العبّاس لما غلبوهم بالمشرق ، وأكثروا القتل فيهم ، هرب عبد الرحمن بنُ معاوية بن هشام بن عبـد الملك ، ونَجَا إلى المغرب ، ثم ركِب البحر إلى الأندلس ، فاجتمع عليه من كان هُنالك من العَرب ومَوَالى بنى أُميّة ، فاستحدَث هنالك مُلكاً آخرَ لهم ، وانقسمت الملّة الإسلامية بين هـذه الدّول الأربع إلى المائة الرابعة ، ثم انقرضَ مُلكُ العَلَوية من طَبَرسْتَان[٢] ، وانتقلَ إلى الدَّيْلَم ، فاقْتَسَمُوا خراسانَ ، وفَارِس ، والعراق ، وغَلَبوا على بَغْداد ، وحَجَرَ الخليفةَ بها بَنُو بُوَيْه منهم[٣] ، وكانَ بنو سَامان — من أَتْباع بنى طاهر — قد تَقلّدوا عَمَالات ما وراء النَّهر ، فلَمّا فشِل أمرُ الخلافة استبدُّوا بتلك النّواحِى ، وأصاروا لَهم فيها مُلكاً ضخما[٤] ، وكان آخرهم محمود بن سُبُكْتُكين من مَواليهم ، فاستبدّ عليهم ، ومَلَكَ خُراسان ، وما وراء النّهر إلى الشّاش ، ثم غَزْنَة[٥] ، وما وراءها جنوبا إلى الهنـد ، وأجاز إلى بلاد الهنـد ، فافتتح منها كثيرا ، واستخرج من كنوزها ذخائر لم يعثر عليها أحدٌ قبلَه ، وأقامت الملّةُ على هـذا النّمَط إلى انقضاء المائة الرّابعة[٦] ،

---

(١) انظر العبر ٤/١١٦ وما بعدها ، حيث تجد منشأ دولة بنى أمية ، وأحوالها .

(٢) طبرسـتان : إقليم متسع فى غربى خراسان ، ويقول ياقوت إنه الذى يسمى أيضا مازندران Mazanderan . وهو إقليم واقع فى شمالى مرتفعات البرز El Burz ، ويشرف على بحر قزوين Caspian Sea . وانظر ياقوت ٦/١٧ — ٢١ .

(٣) بنو بويه دولة أسسها أتراك من الديلم فى خلافة الراضى بالله (٣٢٢ — ٤٤٧) . وانظر تاريخ أبى الفداء ٢/٨٣ ، ١٥٢ ، والعبر ٤/٤٢٦ وما بعدها .

(٤) ملكت دولة بنى سامان هذه ما وراء النهر ، وأقامت هناك دعوة بنى العباس ، ثم استقلت . وقد تحدث عنها ابن خلدون ٤/٣٣٣ — ٣٥٩ ، أبو الفداء ٢/١٢٣ ، ١٤١ ، صبح الأعشى ٤/٤٤٦ .

(٥) Ghazni : مدينة من مدن أفغانستان ، وكانت عاصمة الدولة التى أسسها نصر الدين محمود بن سبكتكين سنة ٣٦٦ ، والتى استمرت إلى سنة ٥٧٨ . وانظر العبر ٤/٣٦٠ — ٣٨٩ .

(٦) انظر العبر ٤/٣٨٦ — ٣٩٧ .

وكان التُّرك منذُ تَمَبَّدوا العرب ، وأسلموا على ما بأيديهم وراء النّهر ، من كَاشْغَر[١] ، والصَّاغون إلى فَرغَانَة[٢] ، ووَلَّاهم الخلفاء عليها ، فاستحدثوا بها مُلكا ، وكانت بَوَادِي التُّرك في تلك النواحي مُنتجِعَةً أمطارَ السماء ، وعُشْب الأرض ، وكان الظهور فيهم لقبيلة الغُزِّ من شعوبهم ، وهُم الخُوزُ إلا أن استعمال العرب لها عرَّبَ خاءها المعجمة غينا ، وأدغمت واوها في الزَّاى الثانية ، فصارت زاياً واحدة مشدّدة . وكانت رياسة الغُزّ هولاء في بني سَلْجوق ابن ميكائل ، وكانوا يُستَخدمون لملوك التّرك بتُركستان تَارة ، ولملوك بني سَامَان في بُخَارَى أخرى ، وتَحْدُث بينهما الفتنة ، فيتألّفون مَن شاءوا منهما[٣] ؛ ولما تغلّب محمود ابن سُبُكْتِكِين[٤] على بني سَامَان ، وأجاز من خراسان فنزل بُخَارَى[٥] ، واقتَعد كرسيّهم ، وتقبّض على كِبار بني سَلْجوق هؤلاء ، وَحبسهم بخُرَاسَان ، ثم مَات وقام بالأمر أخوه مَسْعود[٦] ، فملك مكانَه ، وانتقضَ عليه بنو سَلْجُوق[٧]

---

(١) كانت كاشغر (Kashgar عرضها الشمالى ٣٩° وطولها الشرق ٧٦°) قاعدة « التركستان » وكانت تسمى أيضا « أزدوكند » وهى اليوم فى الصين . ياقوت ٧/٢٠٧ صبح الأعشى ٤/٤٤٠ .

(٢) فرغانة كورة واسعة فيا وراء النهر ، متاخمة لبلاد تركستان . ياقوت ٦/٣٦٤ .

(٣) انظر كلمة موجزة عن الغز فى تاريخ أبى الفداء ٣/٢٧ وما بعدها .

(٤) هو محمود بن ناصر الدولة بن سبكتكين (٣٦١ — ٤٢١) ، يلقب سيف الدولة ، ويمين الدولة . وليمين الدولة هذا ينسب التاريخ « اليمينى » الذى ألفه له أبو نصر العتبى . ترجمة يمين الدولة فى « الوفيات » ٢/١١٠ — ١١٤ ، وانظر تاريخ أبى الفداء ٢/١٦٥ ، العبر ٤/٣٧٨

(٥) تقع بخارى اليوم (Bokhàrà وعرضها الشمالى ٣٠° ، وطولها الشرق ٦٧° — ٣٠′) فى جمهورية الاتحاد السوفييتى ، وكانت قاعدة الدولة السامانية ، فتحت فيا بين سنتى ٥٣ ، ٥٥ هـ ، فى أيام معاوية . وانظر ياقوت .

(٦) هكذا فى الأصلين : «أخوه مسعود» . وهو سبق قلم ، والصواب: «ابنه مسعود» وانظر العبر ٤/٣٧٨ وما بعدها ، « تاريخ دولة آل سلجوق » ص ٨ .

(٧) ابتدأت الدولة السلجوقية فى خلافة القائم بأمر الله العباسى سنة ٤٣٢ ، وانتهت فى سنة ٥٧٢ . وانظر تاريخ أبى الفداء ٢/١٧١ وما بعدها ، العبر ٥/١ وما بعدها . وقد خص هذه الدولة بالتأليف العماد الأصفهانى ، وطبع مختصر لكتاب العماد بالقاهرة سنة ١٩٠٠ م

هؤلاء ، وأجاز الغُزَّ إلى خراسانَ فملكوها ، وملكوا طَبَرِسْتَان مِنْ يد الدَّيْلَم ، ثم إصْبِهَان[1] وفارس ، من أيدى بنى بُوَيْه ، ومَلِكُهُم يومئذ طُغْرُلْبَك[2] ابن ميكائيل من بنى سَلْجوق ، وغلب على بغداد[3] من يد بنى مُعزّ الدولة ابن بُوَيْه المستبدِّين على الخليفة يومئذ الطايع[4] ، وحَجَرَه من التصرُّف فى أمور الخِلافة والمُلْك ، ثم تَجاوز إلى عِراق العَرب ، فغلب على ملوكه ، وأبادَهم ، ٥ ثم بِلاد البحرين[5] وعُمان[6] ، ثم على الشَّام ، و بلاد الرّوم ، واستوعَب ممالكَ الإسلام كلَّها ، فأصَارها فى مُلْكه ؛ وانقبَضَت العرب راجعَة إلى الحجاز ، مسلوبةً من المُلْك ، كأن لم يكُن لهم فيه نصيب ، وذلك أعوامَ[7] الأربعين والأربعمائة ؛ وخرجَ الأفرنج على بقايا بنى أُمَيّة بالأندلس ، فانتزعوا الملك من أيديهم ، واستولوا على حواضِر الأندَلُس وَأمصَارها ، وضَاق النِّطاقُ على العُبَيْديِّين ١٠ [٧٨ب] بالقَاهِرة / بملوك الغُزِّ يُزَاحمونهم فيها من الشام ، بمحمود بن زنكى وغيره[8] من

(١) إصفهان (Isfahan عرضها الشمالى ٣٢° — ٤٠′١ ، وطولها الشرقى ٥١° — ٥٣′) بفتح الهمزة وكسرها : مدينة جبلية عظيمة فى جنوب عراق العجم من بلاد فارس ، وتطلق أصفهان على الإقليم أيضا ، فتحت فى سنة ٢٣ هـ فى أيام عمر بن الخطاب . ياقوت ٣٦٩/١ .

(٢) أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق ، ركن الدين طغرلبك (٣٨٥—٤٥٥) . وفيات الأعيان ٥٩/٢ — ٦٠ ، وانظر العبر ٣٨١/٤ .

(٣) كان دخوله بغداد والعراق سنة ٤٤٧ . وفيات الأعيان ٦٠/٢ ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٩ .

(٤) بالأصلين : « الطيع » ، والصواب : « القائم » لأنه الذى عاصر طغرلبك . وهو أبو جعفر عبد الله بن القادر ، القائم بأمر الله . ولد سنة ٣٩١ ، وولى الخلافة سنة ٤٢٢ ، وتوفى سنة ٤٦٧ . تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٦٧ — ١٦٩ .

(٥) بلاد البحرين ، وتسمى اليوم بالأحساء Hasa : تقع على الساحل الغربى للقسم الشمالى للخليج الفارسى .

(٦) Oman يقع إقليم عمان فى الزاوية الجنوبية الشرقية لجزيرة العربية ، مطلاً على خليج عمان . (٧) كذا بالأصلين .

(٨) رسمه ، على قاعدته التى قررها فى أول « المقدمة » بصاد وسطها زاى إشارة إلى أن الصاد تعم — عند النطق بها — زايا . وانظر أخبار تملك محمود بن زنكى ، فى تاريخ أبى الفداء ٣٠/٣ ، ٥٨ .

أبنائهم ومماليكهم ، و بملوك المغرب قد اقتطعوا ماوَرَاء الأسكندرية ، بملوك صنهاجة في إفريقية[١] ، والمُلَثَّمين المرابطين[٢] بعدَهم بالمغرب الأقصى والأوسط ، والمَصَامِدة الموحِّدين[٣] بَعدَهم كذلك ، وأمَام الغزّ والسّلجوقية في مُلك المشرق ، و بنوهم ومواليهم من بعدِهِم إلى انقضاءِ القَرن السادس ؛ وقد فشل ريح الغُزّ ، واختلّت دولتهم ، فظهر فيهم جنكيزخان أمير المُغُل من شعوب الطّطر[٤] ، وكان كاهنا ، وجدّه النجر كاهناً مثلَه ، و يزعمون أنه وُلِد من غير أب[٥] ، فغلَب الغُزّ في المفازة ، واستولى على مُلك الطّطر ، وزَحَفَ إلى كرسيّ الملك بخوارزم ، وهو عَلاَء الدّين خُوَارَزْم شاه ، سَلَفَهُ من موالى طُغْرُلْبَك ، فغالَبه على مُلكه ، وفرّ أمامَه ، واتّبعه إلى بُحَيرة طبرستان ، فنَجَا إلى جزيرة فيها ، ومَرِض هُنالك ومات[٦] ،

(١) يريد دولة بني زيرى الصنهاجيين ، وكانت مدة ملكهم ١٨٢ سنة (٣٦١ — ٥٤٣) . وانظر العبر ٦/١٥٥ — ١٦١ .

(٢) ابتدأ عهد دولة المرابطين في سنة ٤٦٢ ، وانتهى بانتصار الموحدين عليهم في سنة ٥٤٢ . وانظر العبر ٦/١٨٢ وما بعدها .

(٣) هم الموحدون الذين كان ملكهم (٥١٥ — ٦٦٨) .

(٤) ولد جنكيزخان (ويقال حنكص قان ، Cingis Khân) في سنة ٥٤٩ ، وهو من قبيلة تركية تسمى تيات من أشهر قبائل المغل ، وأكثرهم عدداً ، وكان اسمه — حين بلغ من العمر ١٣ سنة — تموجين ، ثم أصاروه : « جنكيز » ، و « خان » تمام الاسم ، وهو بمعنى الملك عندهم . العبر ٥/٥٢٥ وما بعدها ، تاريخ جنكيزخان لوحة ٢٩٤ (نسخة دار الكتب) .

(٥) ينتهى نسبه إلى : « بوذَنْجَر بن آلاَن قُوَى » ، وألان قوى اسم امرأة هي جدتهم ، كانت متزوجة ثم مات زوجها ، وتأيمت وحملت وهي أيم ، فنكر عليها أقرباؤها ، فذكرت أنها رأت بعض الأيام أن نوراً دخل فرجها ثلاث مرات ، وطرأ عليها الحمل بعد ذلك ، وقالت إن في حملي ثلاث ذكور ، فإن صدقت عند الوضع فذلك ، وإلا فافعلوا ما بدا لكم ؛ فوضعت ثلاث توائم في ذلك الحمل ، فظهرت براءتها بزعمهم ، وكان ثالث التوائم « بوذنجر » جد جنكيزخان ، وكانوا يسمون التوائم الثلاث : النورانيين نسبة إلى النور المذكور ، ولذلك كانوا يقولون لجنكيزخان : ابن الشمس . العبر ٥/٥٢٥ وما بعدها .

(٦) هو السلطان علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش بن أرسلان ، كان من عظماء الملوك وعظمائهم ، وكانت مدة ملكه ٢١ سنة ، وتوفى عام ٦١٧ ، وانظر أخبار حروبه مع جنكيزخان في تاريخ أبي الفداء ٣/١٣٣ — ١٣٤ ، ١٥٤ — ١٥٨ .

ورجع جنكيزخان إلى ما زندَرَان ، من أمصار طبَرستان فنزلها ، وأقام بها ، وبعث عساكره من المغل حتى استولوا على جميع ما كان للترّ ، وأنزل ابنَه طولى[١] بكرسيّ خراسان ، وابنَه دُوشِيخان[٢] بصَرَاى وبلاد الترك ، وابنه جَقَطَاى[٣] بكرسيّ التُّرك فيما وراء النّهر ، وهى كاشغَر وتركِستَان ، وأقام بمازَنْدَران إلى أن مات جنكيزخان ودفن بها[٤] ؛ ومات ابنه طولى وله ولَدان ، قَبْـلاَىْ[٥] وهولاكُو[٦] ، ثم هَلك قبـلاَىْ . واستقلّ هولاكُو بملك خراسان ، وحدث بينه وبين بَرَكَة بن دُوشيخان[٧] فتنة بالمنازعة فى القانية ، تحاربوا فيها طويلا ، ثم أقصرُوا ، وصرف هولاكو وَجْهَهُ إلى بلاد أصبهان ، وفارس ؛ ثم إلى الخُلفاء المستبِدّين ببغداد ، وعراق العرب ،

(١) هو الابن الأصغر لجنكيزخان ، وكان عاقلا كيسا ، ولذلك أمره أبوه أن يرأس أخويه : جوجى ، وجغتاى فى حرب قلعة الطالقان التى استعصى عليهما الاستيلاء عليها . وطاؤه تنطق بين التاء والطاء ، ويقال فى اسمه أيضا : « تولوى » . وانظر العبر ٥٢٧/٥ ، تاريخ جنكيزخان لوحة ٤٠٢ ، وسلوك المقريزى ص ٢٢٨ .

(٢) ويقال طوشى خان (بين التاء والطاء) ، ويقال جوجى خان . وانظر الحديث عنه وعن مملكته فى العبر ٥٣٣/٥ وما بعدها .

(٣) جقطاى ، ويقال : « جغتاى » ، ويسمى أيضا كداى ، وجداى ، وقد فصل القول عنه فى العبر ٥٢٩/٥ — ٥٣٣ .

(٤) كانت وفاته فى سنة ٦٢٥ ؛ وهناك رأى غير ما ذكره ابن خلدون فى مكان وفاة جنكيزخان ، تجده فى السلوك ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٥) قبلاى بن تولى خان المتوفى سنة ٦٩٥ . وانظر المنهل الصافى ١٩٤/٢ (نسخة نور عثمانية) ، وقد ضبطه ابن خلدون بالحركات — بضم القاف ، وسكون الباء الموحدة ، ولام مفتوحة مخففة ، ثم ياء ساكنة .

(٦) يكتبه ابن خلدون : « هولاوو » بواوين أحياناً ، وأحياناً أخرى يكتبه : « هولاكو » بنقطة تحت الكاف إشارة إلى أن الكاف تنطق كافا فارسية . وقد ابتدأ أمر هولاكو فى الظهور فى سنة ٦٥٤ ، وتوفى سنة ٦٦٣ . وانظر السلوك ص ٥٤١ .

(٧) ويقال أيضاً : بركة بن توشى بن جنكيزخان . وقد توفى سنة ٦٦٥ . كان مسلما يعظم أهل العلم ، وكان يميل إلى الملك الظاهر بيبرس : له ترجمة فى المنهل الصافى ١٨٢/١ (نسخة نور عثمانية) ، عيون التواريخ لابن شاكر (فى حوادث سنة ٦٦٥ (ج ٢٨٢/٢٠ ، (نسخة دار الكتب) .

فاستولَى على تلك النَّواحى ، واقتحم بَغْداد[1] على الخليفة المستَعصم ، آخر بنى العباس[2] ، وقتَلَه ، وأعظَمَ فيها العيْث والفَساد ، وهو يومئذ على دينه من المجوسيّة ، ثم تخطَّاه إلى الشام ، فملك أمصاره وحَوَاضِره إلى القدس ، وملوكُ مصر يومئذ من موالى بَنى أيُّوب قد استحاشوا ببركة صاحب صَرَاى ، فزحف إلى خُراسان ليأخُذ بحُجْزَة هُولاكو عن الشام ومصر ، وبلَغ خبره إلى هولاكو فَحَرِد[3] لذلك ، لما بينهما من المنافسة والعداوة ، وكرَّ راجعا إلى العراق ، ثم إلى خراسان ، لمدافعة بَرَكة ، وطالت الفتنة بينَهما إلى أن هلك هُولاكو سنة ثلاث وستين من المائة السَّابعة ؛ وزحَف أمراء مصرَ من موالى بنى أيُّوب ، وكبيرهم يومئذ قُطُز[4] ، وهو سلطانهم فاستولى على أمصار الشام التى كان هولاكو انتزعها من أيدى بَنى أيوب ، واحدةً واحدة ، واستضاف الشام إلى مصر فى ملكه ، ثم هدى الله أبْغَا[5] بن هولاكو إلى الإسلام ، فأسلم بعد أن كان أسلم بركة ابن عمّه ، صاحب التخت بصَرَاى من بَنى دُوشى خان على يَدِ مُريدٍ من أصحاب شمس الدين كُبْرَى[6] ، فتواطأً هو وأبْغَا بن هولاكو على الإسلاَم ، ثم أسلَمَ بعد ذلك بنو جقطاى وراء النَّهْر ، فانتظمت ممالكُ الإسلام فى أيدى ولد جنكيزخان من المغل ، ثم من الططَر ، ولَمْ يَخرج عن مُلكهم منها إلاَّ المغربُ

---

(١) دخل هولاكو بغداد فى سنة ٦٥٦ ، وانظر وصف هذا الحادث فى تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٧٩ .

(٢) هو أبو أحمد عبد الله بن المنتصر ، ولد سنة ٦٠٩ ، وقتل سنة ٦٥٦ . وانظر السلوك ص ٤١٢ ، وتاريخ الخلفاء ص ١٨٦ — ١٩١ .

(٣) حرد : اغتاظ وغضب . (٤) تقدمت ترجمته .

(٥) فى العبر ٥/٥٤٤ ، ٥٤٦ أخبار أبغا بن هولاكو هذا .

(٦) هو أبو الجنّاب أحمد بن عمر بن نجم الخيوقى شيخ خوارزم . عرف به السبكى فى طبقاته ٥/١١ ، ١٢ ، ولم يذكر مولده ولا وفاته ؛ ووصفه فى تاريخ جنكيزخان لوحة ٤٠٤ بأنه : «شيخ المشايخ ، وقطب الأوتاد ، نجم الدين الكبرى» ، وذكر أنه مات فى حصار مدينة خوارزم . وقد ضبطه ابن خلدون بضم الكاف وسكون الباء ، وفى طبقات الشافعية : «الكبرى على صيغة فعلى كفضلى» .

والأندلس ، ومصرُ والحجاز ، وأصبحوا ، وكأنّهم فى تلك الممالك خَلَفٌ من
السلجوقيـة والغزّ ، واستمرّ الأمرُ على ذلك لهذا العهـد ، وانقرض ملك
بنى هولاكو بموت أبى سعيد / آخرهم سنة أربعين من المائة الثامنة[1] ، وافترقت [١٧٩]
دولتُهم بين عمّال الدولة وقَرَابتها من المُغُل ؛ فملك عراقَ العرب ، وآذَرْبِيجَان[2]
وتَوْرِيز[3] ، الشيخُ حسَن سبط هولاكو[4] ، واتصل مُلكُها فى بَنِيه لهـذا ٥
العهد ؛ ومَلَك خُرَاسان وطَبَرِسْتان شاه ولىّ من تابعة بنى هُولاكو[5] ؛ ومَلَك
إصبهانَ ، وفارسَ ، بنو مُظفّر البردى[6] من عُمّالهم أيضا ؛ وأقام بنو دُوشى خان
فى مملـكة صَرَاىْ ، وآخِرُهم بها طقطمش بن بُرْدِى بَك[7] ؛ ثم سَمَـا
لبنى جَقَطَاى ورَاءَ النّهر ، وملوكهم أمَلٌ فى التغلّب على أعمال بنى هولاكو ،
وبنى دُوشى خان ، بما استفحل ملـكهم هنالك ، لعدم الترَف والتّنعم ، فبقُوا ١٠
على البَداوة ؛ وكان لهم مَلك اسمه ساطلمش[8] هَلك لهذا العَهد ، وأجلَسوا ابنَه
على التّخت مكانه ، وأمراء بنى جَقَطاى جميعا فى خدمته ، وكبيرُهم تيمور المعروف

---

(١) هو أبو سعيد بن خربند بن أرغو بن أبغا بن هولاكو . وانظر أخباره فى العبر ٥/٥٤٩ وما بعدها .

(٢) Azarbaijan ، واسمها القديم أتروپاتان : إقليم يقع فى الجنوب الغربى لبحر قزوين (بحر الخزر) Caspian Sea ، ويحده فى الشمال إقليم داغستان Dagestan ، وأقليم جورجيا Georgia ، ومن الغرب ، والجنوب الغربى مقاطعة أرمينية Armenia . وانظر ياقوت ١/١٥٩ — ١٦٠ .

(٣) توريز (تبريز) (Tabriz عرضها الشمالى ٣٨° — ٨′ ، وطولها الشرقى ٤٦° — ١٢′) : إحدى مدن إيران الشمالية ، وكانت فى القديم تشملها مقاطعة آذربيجان . وانظر ياقوت ١/٣٦٣ .

(٤) يسمى أيضا الشيخ حسن الصغير ، فصّلت أخباره فى العبر ٥/٥٥١ — ٥٥٢ .

(٥) تجد بعض أخبار شاه ولىّ فى العبر ٥/٥٥٦ — ٥٥٧ .

(٦) فى العبر ٥/٥٥٦ : « اليزدى » وانظر أخبار دولة بنى المظفر فى العبر ٥/٥٥٦ .

(٧) ضبطه ابن خلدون بالحركات بفتح الباء وضمها ، وسكون الراء بعدها دال ثم ياء مثناة تحتية ساكنة ، ثم باء موحدة مفتوحة . وانظر أخبار طقطمش فى العبر ٥/٥٣٨ — ٥٤٠ .

(٨) كذا فى الأصلين ، وفى هامش أصل أيا صوفيا بخطه : « سُيُورغَتْمِش » وكتب فوقها كلمة : « أصح » .

بتمر بن طَرَغاى[1] فقام بأمر هذا الصبي وكفَله، وتزوّج أمّه، ومدّ يدَه إلى ممالك بنى دُوشِى خان التى كانت على دعوتهم وراء النّهر، مثل سمرقند[2]، وبُخَارى، وخوارزم، وأجاز إلى طَبَرِسْتان وخراسانَ فملكهما، ثم ملك أصبهان، وزحَفَ إلى بغداد، فملكها من يد أحمد بن أُوَيس[3]، وفرّ أحمد مستجيرا بملك مصر، وهو المَلك الظاهر برقوق، وقد تقدم ذكره، فأجاره، ووعده النّصر من عدوّه، وبعث الأمير تمر رُسُلاً إلى صاحب مصر، يقررون معه الولاية والاتّحاد، وحُسْنَ الجِوار، فوصلوا إلى الرَّحْبة، فلقيهم عاملها، ودارَ بينهم الكلام فأوحشوه فى الخطاب، وأَنزَلهم، فبيَّتَ جميعهم، وقتلهم، وخرج الظاهر برقوق من مصر، وجمَع العرب والتُّركمان، وأناخ على الفرات، وصَرَخ بطقطمش من كرسيه بصَرَاى، فحشد ووصل إلى الأبواب[4]، ثم زحف تمر إلى الشام سنة سِت وتسعين، وبلَغ الرُّها[5]، والظاهرُ يومئذ على الفرات، فخَام[6] تمُر عن لقائه[7]، وسَار إلى محاربة طقطمش، فاستولى على أعماله كلِّها، ورجعت قبائل المُغُل إلى تمُر، وسَاروا تحت رايته، وذهب طقطمش فى ناحية الشمال، وراء بُلغَار، متدمما بقبائل أُرُوس من شعوب التّرك فى الجبال، وسارت عصائب الترك كلها تحت رايات تمر؛ ثم اضطرب ملوك الهِند، واستصرخ خارجٌ منهم بالأمير تمر، فسار

---

(١) فى نسخة طب: « طرغان »، وفى هامش أصل أيا صوفيا بخطه: « ترَغاى » وكتب فوقها كلمة « أصح ».

(٢) Samarkand عرضها الشمالى ٣٩° — ٣٠′، وطولها الشرقى ٦٧° — ٣٠′: مدينة مشهورة، تقع اليوم فى جمهورية الاتحاد السوفييتى، وكانت فى القدم عاصمة بلاد الصغد. وانظر ياقوت ٥/١٢١ — ١٢٦.

(٣) وردت أخباره فى العبر ٥/٥٥٣ — ٥٥٤.

(٤) يريد بالأبواب المضايق والممرات التى فى الجبال الفاصلة بين إقليم مازندران والعراق العجمى.

(٥) بلدة مشهورة فى شمالى حران، وتقع اليوم فى الجمهورية التركية، وتسمى أورفة Urfa عرضها الشمالى ٣٧° — ١١′، وطولها الشرقى ٣٨° — ٤١′.

(٦) خام عنه: نكص، وجبن.

إليهم فى عساكر المُغل ، ومَلك دِلّى[1] ، وفرّ صاحبها إلى كَنْبَاية[2] مرسى بحر الهند ، وعاثُوا فى نواحى بلاد الهنـد ؛ ثمّ بلغه هناك مهلكُ الظاهر برقوق بمصر ، فرجع إلى البلاد ، ومرّ على العراق ، ثم على أرمينيَة[3] وأرزنكان[4] ، حتى وَصَل سيواس[5] ، فخَرَّبَها ، وعاث فى نواحيها ، ورجع عنها أول سنة ثلاث من المائة التّاسعة ، ونازَلَ قلعة الروم[6] ، فامتنعت ، وتجاوزها إلى حَلَب . فقابله نائب الشام وعساكره فى ساحتها ، ففضّهم ، واقتحم المُغل المدينة من كل ناحية ، ووقَع فيها من العيْث ، والنّهب ، والمصادرة ، واستباحة الُحرَم ، ما لم يَعهَد الناس مثلَه ؛ ووَصَل الخبر إلى مصر ، فتجهز السّلطان فَرَج بنُ المَلِك الظّاهر[7] إلى المدافعة عن الشّام ، وخرَج فى عساكره من التُّرك مُسَابقا المُغُلَ ومِلِكَهم تمر أن يصدّهم عنها .

---

(١) هى Delhi اليوم ، (عرضها الشمالى ٢٨° — ٣٥′ ، وطولها الشرق ٧٧° — ٥′) وانظر صبح الأعشى ٥/٦٨ — ٦٩ ، السلوك ص ٩١٦ .

(٢) كنباية ، أو كنبايت ، ضبطها ابن خلدون بالحركات بفتح الكاف وسكون النون ، وباء مفتوحة بعدها ألف ثم ياء مفتوحة بعدها هاء التأنيث . وفى صبح الأعشى ٥/٧١ : أنه ينسب إليها فيقال أنباتى وعلى ذلك فاسمها « آنبايت » بابدال الكاف همزة . وهى مدينة على ساحل بحر الهند ، وقد حدد عرضها البيرونى فى «القانون المسعودى» بأنه ٢٢° — ٢٠′ . ولعلها المساة الآن Cambay حيث العرض الشمالى ٢٢° — ٢′١ ، والطول الشرق ٧٢° — ٥′٤ .

(٣) أرمينية Armenia : إقليم واقع فى غرب آذربيجان ، وفى شماله الغربى يقع إقليم جورجيا . وانظر صبح الأعشى ٤/٣٥٣ ، ياقوت ١/٢٠٣ — ٢٠٦ .

(٤) أرزنكان ، ويقال أرزنجان : (Erzincân عرضها الشمالى ٣٩° — ٣٩′ ، وطولها الشرق ٣٩° — ٣٩′) بلدة كانت تعد قديما من بلاد إرمينية ، وهى الآن من بلاد الجمهورية التركية . وانظر صبح الأعشى ٤/٣٥٤ .

(٥) سيواس : (Sivas عرضها الشمالى ٣٩° — ٤٦′ ، طولها الشرق ٣٧° — ٥′) مدينة فى تركيا ، تبعد ستين ميلا نحو الشرق من «قيسارية» . وانظر السلوك ص٣١٣ .

(٦) هى قلعة حصينة واقعة فى غربى الفرات مقابل « البيرة » . وانظر ياقوت ٧/١٠٠ — ١٥١ .

(٧) هو الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج بن الملك الظاهر . له ترجمة فى خطط المقريزى ٣/٣٩٢ — ٣٩٣ طبع مصر .

لقاء الأمير تَمُر سلطان المغل والططر(١)

لما وصَل الخبر إلى مِصْر بأن الأمير / تمر مَلَكَ بلاد الرُّوم ، وخرَّب سِيوَاس ، [٧٩ب] ورجع إلى الشّام ، جمع السلطان عساكره ، وفتح ديوان العطاء ، ونادى فى الجُند بالرحيل إلى الشام ، وكنتُ أنا يومئذ معزولًا عن الوظيفة(٢) ، فاستدعانى دَوَاداره يِشْبَك(٣) ، وأرادَنى على السَّفَر معه فى رِكاب السلطان ، فتجَافيتُ عن ذلك ، ثم أظهرَ العزم علىّ بلَيِّن القول ، وجزيل الإنعام فأصْخَيتُ ، وسافرت معهم مُنتصفَ شهر المولد الكريم من سنة ثلاث ، فوصلنا إلى غَزّة ، فأرحنا بها أياما نترقب الأخبار ؛ ثم وصلنا إلى الشام مسابقين الططَر إلى أن نزلنا شَقْحَب(٤) ،

---

(١) فى عجائب المقدور ص ٥ ، ٦ : « ... اسمه تيمور بتاء مثناة مكسورة ساكنة ، فثناة تحت ، وواو ساكنة بين ميم مضمومة وراء مهملة ، هذه طريقة إملائه ... لكن كرة الألفاظ الأعجمية إذا تداولها صولجان اللغة العربية خرطها فى الدوران على بناء أوزانها ..... فقالوا تارة تمور ، وأخرى تمرلنك » . ورأيت البدر العينى فى « عقد الجمان » ضبطه بخطه بالحركات بفتح التاء وضم الميم بعد راء ساكنة ، ثم لام مفتوحة ، فنون ساكنة ، فكاف . وفى المنهل الصافى ١/٢٢٧ ا — ٢٣٤ (نسخة نور عثمانية) : ترجمة واسعة له ، فصل فيها القول عن نشأته ، وأخلاقه ، وجيوشه .

(٢) فى عقد الجمان ، فى حوادث سنة ٨٠٣ ، وتاريخ ابن قاضى شهبة كذلك : « ... خرج السلطان الملك الناصر فرج ، ومعه الخليفة المتوكل على الله ، والقضاة الثلاثة ، وهم صدر الدين المناوى الشافعى ، والقاضى نور الدين على بن الخلال المالكى ، والقاضى موفق الدين بن الحنبلى ؛ وأما القاضى جمال الدين الملطى الحنفى فإنه ما سار لكونه ضعيفا ، وسار معهم القاضى ولى الدين ابن خلدون المالكى ، وهو معزول » .

(٣) هو الأمير يشبك الشعبانى كان من أمراء الملك الظاهر ، تقلب فى مناصب مختلفة ، وجعل له الملك الظاهر الوصية على أولاده ؛ وفى أيام الملك فرج ، تولى وظيفة دوادار كبير ، ومشير المملكة . وانظر تاريخ ابن إياس ٢/٣٠٨ ، ٣١٤ ، ٣٣٧ . وقد ضبطه البدر العينى بخطه فى « عقد الجمان » بكسر الياء ، وسكون الشين ، وفتح الباء .

(٤) بفتح الشين والحاء المهملة ، وسكون القاف بينهما (كجعفر) ، ويقول المقريزى فى الخطط ٣/٣٩٩ (طبع مصر) : « ... إنها بظاهر دمشق » ؛ وزاد فى السلوك ص ٩٣٢ : « تحت جبل غباغب » ؛ فهى — بناء على هذا — فى جنوب دمشق . وانظر تاج العروس (شقب) .

وأسرينا فَصبَّحنا دمشق ، والأمير تِمُر فى عساكره قد رحل من بَعلَبك(١)
قاصداً دمشق ، فضرب السلطان خيامه وأبنيته بساحة قُبة يَلْبُغا ، ويئسَ الأميرُ
تِمُرْ من مهاجمة البلد ، فأقام بمرقَب على قُبة يَلْبُغا يراقبنا ونراقبه أكثر من
شهر ، تَجاول العسكران فى هذه الأيام مرات ثلاثاً أو أربعاً ، فكانت حربُهم
سِجالا ؛ ثم نُمِى الخبر إلى السلطان وأكابر أمرائه ، أن بعض الأمراء المنغمسين ٥
فى الفتنة يُحاولون الهَرَب إلى مِصر للثورة بها ، فأجمع رأيُهم الرجوع إلى مصر
خشيةً من انتقاض الناس وراءهم ، واختلال الدّولة بذلك ، فأسْروا ليلة الجمعة
من شهر [.....](٢) وركبوا جَبَل الصَّالحية ، ثم انحطُّوا فى شِعابه ، وساروا على
شافة البحر إلى غزَّة ، وركب الناس ليلاً يعتقدون أن السلطان سارَ على الطريق
الأعظم إلى مصر ، فساروا عصبا وجماعات على شَقْحَب إلى أن وصلوا إلى مصر ، ١٠
وأصبح أهل دمشق مُتَحيِّرين قد عميت عليهم الأنباء .

وجاءنى القُضاة والفقهاء ، واجتمعت بمدرسة العادلية ، واتفق رأيُهم على طلب
الأمان من الأمير تِمُر على بُيوتهم وحُرَمهم ، وشاوروا فى ذلك نائب القلعة ،
فأبى عليهم ذلك ونَكِره ، فلم يوافقوه ، وخرج القاضى بُرهان الدِّين ابن مُفلح
الحنبلى(٣) ومعه شيخ الفقراء بزاوية [....](٤) فأجابهم إلى التأمين ، وردهم ١٥
باستدعاء الوجوه والقُضاة ، فخرجوا إليه متدلّين من السور بما صَبَّحهم من

---

(١) بعلبك : (Baal-Bek عرضها الشمالى ٣٣° — ٨′ ، وطولها الشرقى ٣٦° — ١١′) إحدى مدن لبنان المشهورة ، وهى واقعة فى الشمال الشرقى لمدينة زحلة . وانظر ياقوت ٢/٣٣٦ — ٣٣٨ .

(٢) بياض بالأصلين ، ولعله يريد « شهر جمادى الآخرة » . وانظر تاريخ ابن إياس ١/٣٢٩ .

(٣) هو برهان الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح (٧٤٩ — ٨٠٣) ، وكان يحسن اللغتين : التركية ، والفارسية ، ولعلهم — لذلك — اختاروه للسفارة . وانظر ابن إياس ١/٣٣٦ .

(٤) بياض فى الأصلين .

التقدمة ، فأحسن لقاءهم ، وكتب لهم الرقاع بالأمان ، وردّهم على أحسن الآمال ، واتفقوا معه على فَتح المدينة من الغَد ، وتَصَرُّف الناس فى المعاملات ، ودخول أمير يَنزِل بمحل الإمارة منها ، ويملك أمرَهم بعزّ ولايته .

وأخبرنى القاضى برهان الدين أنه سأله عنّى ، وهل سافرتُ مع عساكر مصر أو أقمت بالمدينة ، فأخبره بمقامى بالمدرسة حيث كنت ، و بتنا تلك الليلة على أهبة الخروج إليه ، فحَدَث بين بعض الناس تشاجر فى المسجد الجامع ، وأنكر البعضُ ما وقع من الاستنامة إلى القول ؛ و بلغَنى الخبر من جوف الّليل ، فخشِيت البادِرة على نفسى ، و بكرت سَحَراً إلى جماعة القضاة عند الباب ، وطلبت الخروج أو التدلّى من السُّور ، لما حدث عندى من توهمات ذلك الخبر[1] ، فأبوا علىّ أولا ، ثم أصخَوا لى ، ودلّونى من السور ، فوجدت بطانتَه عند الباب ، ونائبَه الذى عيّنه للولاية على دمشق ، واسمه شاه ملك ، من بنى جَغطاى أهلِ عصابته ، فحيّيتُهم وحيَّونى ، وفدّيت وفدّونى ، وقدَّم لى شاه ملك ، مركوبا ، و بعث مَعِى من بطانة السّلطان مَن أوصلنى إليه ، فلما وقفت بالباب خرج الإذن بإجْلَاسى فى خيمة هنالك تُجاور خَيْمة جلوسه ، ثم زيد فى / التعريف باسمى [١٨٠] أنّى القاضى المالكى المغربى ، فاستدعانى ، ودخلتُ عليه بخيمة جلوسه مُتكئاً على مرفقه ، وصِحاف الطّعام تَمرّ بين يديه ، يُشير بها إلى عُصَب المُغُل جلُوسا أمام خيمته ، حلقاً حلقا ، فلما دخلتُ عليه فاتحتُ بالسّلام ، وأوميتُ إيماءة

---

(١) فى السلوك سنة ٨٠٣ ورقة ٢٣٨ ب (نسخة الفاتح) : « ... وكان قاضى القضاة ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون المالكى بداخل دمشق ، فلما علم بتوجه السلطان ، [(اختفى بدمشق جماعة من المماليك والأمراء ، وشاع الخبر أنهم توجهوا الى مصر ليسلطنوا لاچين الجركسى ، فركب الأمراء ، وأخذوا السلطان ، وخرجوا بغتة ، وساروا يريدون مصر) . عن السلوك للمقريزى ورقة ٢٣٦] تدلى من سور المدينة ، وسار الى تيمور ، فأكرمه ، وأجله ، وأنزله عنده ، ثم أذن له فى السير الى مصر ، فسار اليها » .

الخضوع ، فرفَع رأسه ، ومدَّ يده إلىّ فقبّلتُها ، وأشار بالجلوس فجلستُ حيث انتهيت ، ثم استدعَى من بطانته الفقيهَ عبدَ الجبّار بن النعمان من فقهاء الحنَفية بخُوَارزم(١) ، فأقعدَه يترجم ما بيننا ، وسألنى من أين جئت من المغرب ؟ ولِمَا(٢) جئت ؟ فقلت : جئت من بلادى لقَضاء الفَرْض ، ركبتُ إليها(٣) البحر ، ووافيتُ مرسَى الأسكندرية يوم الفِطر سنة أربع [وثمانين](٤) من هذه المائة الثامنة ، والفرحاتُ بأسوارهم لجلوس الظّاهر على تخت الملك لتلك العشرة الأيام بعَدَدِها . فقال لى : وما فَعَل مَعك ؟ قلت كل خير ، برّ مَقْدَمى ، وأرغَد قِرَاى ، وزوّدنى للحجّ ؛ ولما رجَعت وفّر جِرايتى ، وأقمت فى ظلّه ونعمته ؛ رحمه الله وجزاه . فقال : وكيف كانت توليتُه إياك القضاء ؟ فقلت : مات قاضى المالكية قبل موته بشهر ، وكان يظنُّ بى المقامَ المحمودَ فى القيام بالوظيفة ، وتحرِّى المعدَلة والحق ، والإعراض عن الجاه ، فولّانى مكانَه ، ومات لشهر بعدَها ، فلم يَرضَ أهل الدّولة بمكانى ، فأدالونى منها بغَيرى جزاهم الله . فقال لى : وأين ولدُك(٥) ؟ فقلت :

---

(١) هو : « عبد الجبار بن النعمان المعتزلى ، أحد خواص تيمور الذين طافوا معه البلاد ، وأهلكوا العباد ، وأظهروا الظلم والفساد . ذكره علاء الدين فى « تاريخ حلب » وقال : اجتمعت به ، فوجدته ذكيا فاضلا ، وسألته عن مولده ، فقال : يكون لى نحو الأربعين . ورأيت شرح الهداية لأكمل الدين ، وقد طالعه عبد الجبار المذكور ، وعلّم على مواضع منه ، ذكر أنها غلط . وذكره ابن المبرد فى « الرياض » وقال : كان له معرفة بالفقه ، والعلوم العقلية ، وكان يمتحن العلماء ويناظرهم بين يدى اللّنك . وهو من قلة الدين على جانب كبير . توفى سنة ٨٠٨ هـ » (عن « الطبقات السنية فى تراجم الحنفية » لتقى الدين التميمى ، ورقة ٢٠١ أ نسخة نور عثمانية) ، وفى « السلوك » ورقة ٢٠٢ ب سنة ٨٠٥ (نسخة الفاتح) : « ... ذو القعدة ، مات عبد الجبار رئيس الفقهاء عند تيمور لنك » . وانظر « عجائب المقدور » ص ١١١ .

(٢) كذا فى الأصلين باثبات ألف « ما » المجرورة عند الاستفهام ؛ وهى لغة حكوها عن الأخفش .

(٣) كذا بالأصلين ٥٤ .

(٤) سقط ما بين القوسين فى الأصلين .

(٥) كذا بالأصلين .

بالمغرب الجَوّانى كاتب[1] للمَلِك الأعظم هنالك . فقال وما معنى الجَوّانى في وصف المغرب ؟ فقلتُ هو فى عرف خِطابهم معناه الدّاخلى ، أى الأبعد ، لأن المغرب كلّه على ساحل البحر الشّامى من جنوبه ؛ فالأقربُ إلى هنا بَرْقة ، وإفريقية[2] ؛ والمغرب الأوسط[3] : تلمسان وبلاد زناتة ؛ والأقصى : فاس ومراكش ، وهو معنى الجَوّانى . فقال لى : وأين مكانُ طنجةَ من ذلك المغرب ؟ فقلت : فى الزّاوية التى بين البحر المحيط ، والخليج المسمّى بالزُّقاق ، وهو خليج البَحْر الشّامى ؟ فقال : وسَبتَة ؟ فقلت : على مسافة من طنجة على ساحل الزُّقاق ، ومنها التّعْدِية إلى الأندلس ، لقرب مسافته ، لأنها هناك نحو العشرين ميلا . فقال : وفاس[4] ؟ فقلت : ليست على البحر ، وهى فى وسَط التُّلول ، وكرسِيُّ ملوك المغرب من بَنى مَرِين . فقال[4] : وسِجِلْماسَة ؟ قلت : فى الحَدِّ ما بين الأرياف والرِّمال من جهة الجنوب . فقال : لا يُقنِعنى هذا ، وأُحبُّ أن تكتب لى بلادَ المغرب كلَّها ، أقاصيَها ، وأدانيَها ، وجبالَه ، وأنهارَه ، وقُرَاه ، وأمصارَه ، حتّى كأنى أشاهده . فقلت يحصل ذلك بسَعادتك ؛ وكتبتُ له بعدَ انصرافى من المجلس لِما طلب من ذلك ، وأوعبتُ الغَرَض فيه فى مختصَرٍ وجيز يكون قدرَ ثِنتَى عَشْرة من الكراريس المنصَّفة القَطْع ؛ ثم أشار إلى خَدَمه بإحضار طعام من بيته يسمونه الرشتَه ، ويُحْكِمونَه على أبلغ ما يمكن ، فأُحضِرَت الأوانى منه ، وأشار بعرَضها علىّ ، فمثَلْتُ قائما ، وتناولتُها ، وشَربتُ ، واستَطبت ؛ ووقَع ذلك منه أحسنَ المواقع ؛ ثم جلستُ وسكَتْنا ، وقد غَلَبنى الوَجَل بما وَقع من

---

(١) كذا فى الأصلين .

(٢) هى المملكة التونسية اليوم .

(٣) مكانه اليوم بلاد « الجزائر » .

(٤ — ٤) سقط من أصل أيا صوفيا .

نكبة قاضى القُضاة الشافعية ، صدْر الدين المُناوى ، أَسَرَه التَّابعون لعسكر مصر . بشَقْحَب ، ورَدُّوه ، فحُبِس عنـدَهم فى طلب الفِدْية منه ، فأصابَنا من ذلك وَجَل ، فزوّرتُ فى نفسى كلاماً أخاطبه به ، وأتلطّفه بتعظيم أحواله ، ومُلكه ، وكنت قبل ذلك بالمغرب قد سمعت كثيراً من الحدَثان فى ظهوره ،

٥ [٨٠ب] وكان المنجِّمون المتكلّمون فى قِرَانات / العُلْوِيَيْن[1] يترقّبون القِرَانَ العاشرَ فى المثلَّثة الهوائية[2] ، وكان يُترَقَّب عام ستة وستين من المائة السّابعة . فلقِيتُ ذاتَ يوم من عام أحدٍ وستين بجامع القَرَوِيين من فاس ، الخطيبَ أبا عليّ ابن باديس خطيب قُسَنْطِينَة ، وكان ماهرا فى ذلك الفَن ، فسألتُه عن هذا القِران المتوقَّع ، وما هى آثاره ؟ فقال لى : يدلّ على ثائر عظيم فى الجانب الشّمالى الشرقى ، من أمة

١٠ بادية أهل خيام ، تتغلّب على الممالك ، وتقلب الدُّول ، وتستولى على أكثر المعمور . فقلت : ومتى زمنُه ؟ فقال : عامَ أربعة وثمانين تنتشر أخباره . وكتَب لى بمثل ذلك الطّبيبُ ابن زَرْزَر اليهودى ، طبيبُ مَلِك الافرنج ابن أُذْفُونَش ومُنَجِّمه . وكان شيخى رحمه الله إمامُ المعقولات محمد بن إبراهيم الآبِلى متى فاوضتُه فى ذلك ، أوسَايلتُه عنه يقول : أمره قريب ، ولا بُدّ لك إن عشتَ أن تَراه .

١٥ وأما المتصوفة فكنّا نسمع عنهم بالمغرب تَرقُّبَهم لهذا الكائن ، ويَرون أن القائم به هو الفاطميُّ المشار إليه فى الأحاديث النَّبَوية[3] من الشيعة وغيرهم ؛ فأخبرنى يَحيى بنُ عبد الله حافد الشيخ أبى يعقوب البادِسى كبير الأولياء بالمغرب ، أن

---

(١) الكوكبان العلويان : زحل ، والمشترى ؛ والمراد بالقران — عند الإطلاق — اجتماع المشترى ، وزحل خاصة (مفاتيح العلوم ص ٢٣٢) .

(٢) المثلثة : كل ثلاثة بروج تكون متفقة فى طبيعة واحدة من الطبائع الأربع . (مفاتيح العلوم ص ٢٢٦) .

ولعل ابن خلدون كان يعرف أن تيمور لنك « كان يعتمد على أقوال الأطباء والمنجمين ، ويقربهم ويدنيهم ، حتى إنه كان لا يتحرك بحركة إلا باختيار فلكى » ، فحدثه بهذا الحديث . وانظر المنهل الصافى ١/٤٢٧ (نسخة دار الكتب) .

(٣) ذكر هذه الأحاديث فى المقدمة ص ١٥١ وما بعدها ، طبع بولاق .

الشيخ قال لهم ذاتَ يوم ، وقد انفتل من صلاة الغَداة : إن هـذا اليَوم ولد فيه القائم الفاطمى ، وكان ذلك فى عَشْر الأربعين من المائة الثامنة ؛ فكان فى نفسى من ذلك كلّه ترقّبٌ له .

فوقع فى نفسى لأجل الوَجَل الذى كنتُ فيه أن أفاوضه فى شىء من ذلك يَستَريحُ إليه ، ويأنَس به منى ، ففاتحته وقلتُ : أيدك الله ! لى اليوم ثلاثون أو أربعون سنةً أتمنّى لقاءك . فقال لى التُّرجمان عبد الجبّار : وما سببُ ذلك ؟ فقلتُ : أمران ، الأول أنك سلطان العالم ، ومَلِكُ الدُّنيا ، وما أعتقد أنه ظهَر فى الخليقة منذ آدَم لهذا العهد مَلكٌ مثلُك ، ولستُ ممن يقول فى الأمور بالجُزَاف ، فإنى من أهل العِلم ، وأبيِّن ذلك فأقول :

إن المُلْك إنما يكون بالعَصَبية ، وعلى كَثْرتها يكون قدرُ المُلك ؛ واتفق أهلُ العِلم من قبْلُ ومن بَعْد ، أن أكثر أمم البشر فرقتان : العَرَب والتُرك ، وأنتم تعلمون مُلك العَرَب كيف كان لمَّا اجتمعوا فى دِينهم على نبيِّهم ، وأما الترك ففى مُزاحمتهم لِملوك الفُرس ، وانتزاعُ مَلِكهم أفراسْياب خُراسانَ من أيديهم شاهدٌ بنصابهم من المُلك . ولا يساويهم فى عَصَبيتهم أحدٌ من ملوك الأرض من كِسْرَى ، أو قَيصَر ، أو الأسكندَر ، أو بُختنَصَّر ، أما كِسرى فكبير الفُرس ومليكُهم ، وأينَ الفرس من الترك ؟ وأما قَيصَر والأسكندر فملوك الروم ، وأينَ الروم من الترك ؟ وأما بُختنَصَّر فكبيرُ أهل بَابل ، والنَّبَط . وأين هولاء من التُرك ؟ وهذا برهان ظاهر على ما ادَّعيتُه فى هَذا الملك .

وأما الأمرُ الثانى مما يَحملنى على تَمَنِّى لقائه ، فهو ما كنت أسمعه من أهل الحَدَثان بالمغرب ، والأولياء ، وذكرتُ ما قصَصْتُه من ذلك قبل . فقال لى : وأراك قد ذكرتَ بُختنَصَّر مع كِسرَى ، وقَيصَر ، وَالأسكندر ، ولم يكن فى عِدادِهم ، لأنهم ملوك أكابر . وبختنصَّر قائد من قواد الفرس ، كما أنا نائب من

[١٨١] نواب / صاحب التّخت ، وهوهذا ، وأشار إلى الصّفّ القائمين وراءه ، وكان واقفاً معهم ، وهو رَبيبُه الذى تقدّم لنا أنّه تزوّج أمّه بعد أبيه سَاطلمش ، فلم يُلفِه هناك ، وذكَر لَه القائمون فى ذلك الصفّ أنه خَرَج عنهم .

فرجع إلىّ فقال : ومن أىّ الطوائف هو بُختَنَصّر ؟ فقلت : بين الناس فيه خلاف ، فقيلَ من النّبط بقية ملوك بابل ، وقيل من الفرس الاولى ، فقال : يعنى ٥ من وَلَد مَنُوشِهر[١] . قلت نعم هكذا ذكروا ، فقال : ومَنُوشِهر له علينا ولادة من قِبَل الأمّهات . ثم أفضتُ مع الترجُمان فى تعظيم هذا القول منه ، وقلتُ له : وهذا ممّا يحملنى على تمنّى لقائه .

فقال المَلِك : وأىُّ القولين أرجح عندك فيه ؟ فقلت أنّه من بقية ملوك بابل ، فذهب هو إلى ترجيح القول الآخر . فقلتُ : يعكّر علينا رأى الطبرى ، فإنه ١٠ مؤرخ الأمة ومحدثهم ، ولا يَرْجُحُه غيره . فقال : وما علينا مِنَ الطبرى ؟ نُحْضِر كُتُب التاريخ للعَرَب والعَجَم ، ونتناظرك . فقلتُ : وأنا أيضاً أناظِرُ على رأى الطّبرى ، وانتهى بنا القول ، فسكتّ ؛ وجاءه الخبر بفتح باب المدينة ، وخروج القُضاة وفاء بما زعموا من الطاعة التى بَذَل لهم فيها الأمان ، فرُفِع من بين أيدينا ، لما فى رُكْبَته من الداء ، وحُمِل على فرَسه فقبض شكائمَه ، واستوى فى ١٥ مركبه ، وضُربت الآلات حِفَافَيْه حتى ارتج لها الجوّ ، وسار نحو دمشق ، ونزل فى تربة مَنْجَك عند باب الجابية ، فجلس هناك ، ودخل إليه القضاة وأعيان البلد ، ودخلتُ فى جُملتهم ، فأشارَ إليهم بالانصراف ، وإلى شاه مَلِك نائبه أن يخلعَ عليهمْ فى وظائفهم ، وأشار إلىّ بالجُلوس ، فجلستُ بين يَدَيه ؛ ثم استدعى أمراء دولته القائمين على أمْر البناء ، فأحضروا عُرَفاء البُنْيان المهندسين ، وتناظروا ٢٠

(١) مَنُوجِهْر بالجيم المتوسطة بينها وبين الشين اسم ملك من الفرس الأوّل ، ومعناه فضىّ الطلعة ، وذلك لبهائه ؛ فان مَيْنُو بالفارسية : الفضة ، فاقتصروا على حذف الياء وقالوا منو . وجهر : الطلعة . (عن هامش أصل أيا صوفيا) .

فى إذهاب الماء الدائر بحفير القلعة ، لعلّهم يَعْثرون بالصِّناعة على مَنفَذه ، فتناظروا فى مجلسه طويلا ، ثم انصرفوا ، وانصرفتُ إلى بيتى داخلَ المدينـة بعدَ أن استأذنتُه فى ذلك ، فأذن فيه ، وأقمت فى كِسْر البيت ، واشتغلتُ بما طلَب منى فى وصف بلادِ المغرب ، فـكتبتُه فى أيام قليلة ، ورفعتُه إليه فأخذَه من يَدى ،

٥ وأمر مُوقِّعَه بترجمته إلى اللسان المُغلى ، ثم اشـتدَّ فى حصار القَلْعَة ، ونَصَب عليها الآلاتِ من المجانيق ، والنُّفوط ، والعرّادات ، والنقب ؛ فنصَبوا لأيام قليلة ستِّين منجَنيقا إلى ما يُشا كلها من الآلات الأخرى ، وضَاق الحصار بأهل القَلعة ، وتهدّم بناؤها من كل جهة ، فطلَبوا الأمان .

وكان بها جماعة من خُـدّام السلطان ومخلّفه ، فأمَّنهم السلطان تِمُر ،

١٠ وحضَروا عنده ، وخرّب القلعة وطَمَس معالمها ، وصادر أهلَ البَلَد على قناطيرَ من الأموال استولى عليها بعد أن أخذ جميع ما خلّفه صاحبُ مصر هنالك ، من الأموال ، والظَّهْر ، والخيـام ، ثم أطلق أيدى النّهّابة على بيُوت أهل المدينة ، فاستوعبوا أناسِيَها ، وأمتعتَها ، وأضرَموا النّار فيما بقى من سَقَط الأقمشة والخُرثىّ ، فاتصَلت النار بحيطان الدُّور المدعمة بالخَشَب ، فلم تَزَل تتوقَّد إلى أن اتصلت

١٥ بالجامع الأعظم ، وارتفعت إلى سَقْفه ، فسال رصَاصُه ، وتهدَّمت سُقُفه وحوائطه ، وكان أمراً بلغ مَبالَغَهُ فى الشّناعة / والقُبح ؛ وتصاريفُ الأمور بيد الله يفعل فى [٨١ب] خلقه ما يريد ، ويحكم فى ملـكه ما يشاء .

وكان أيامَ مُقامى عنـد السلطان تِمُر ، خَرج إليه من القَلعة يَوْمَ أمّن أهلَها رجلٌ من أعقاب الخلفاء بمصر ، من ذُرية الحاكم العبّاسى [1] الذى نَصبه الظاهر

٢٠ بَيْبَرس ، فوقَف إلى السلطان تِمُر يسأله النَّصَفة فى أمره ، ويطلب منه مَنصِب الخلافة كما كان لسلفه ، فقال له السلطان تِمُر : أنا أُحضِر لك الفقهاء والقُضاة ،

(١) هو أبو العباس أحمد بن أبى على الحسن القُبّى المتوفى سنة ٧٠١ وانظر ترجمته فى تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٩٢ — ١٩٤ .

فإن حَكَموا لك بشيء أنصفتك فيه ، واستدعى الفقهاء والقُضاة ، واستدعانى فيهم ، فحضرنا عندَه ، وحَضَر هذا الرجل الذى يسأل مَنصِب الخلافة ، فقال له عبدُ الجبّار : هذا مجلس النصفة فتكلَّم . فقال : إن هذه الخلافة لنا ولسلفنا ، وإن الحديث[1] صَحَّ بأن الأمر لبنى العبّاس ما بقيت الدُّنيا ، يعنى أمر الخلافة ، وإنى أحقُّ من صاحب المَنصِب الآن بمصر ، لأن آبائى الذين ورثتُهم كانوا قد استحقُّوه ، وصار إلى هذا بغير مستند ، فاستدعَى عبدُ الجبّار كُلًّا منّا فى أمره ، فسكتنا بُرْهة ، ثم قال : ما تقولون فى هذا الحديث ؟ فقال بُرهان الدّين بن مُفلح الحديثُ ليس بصحيح ، واستدعَى ما عندى فى ذلك فقلت : الأمر كما قلتم من أنّه غير صحيح ، فقال السلطان تمُر : فما الذى أصار الخلافة لبنى العبّاس إلى هذا العهد فى الإسلام ؟ وشافَهنى بالقول ، فقلت : أيّدك الله ! اختلف المسلمون من لدن وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، هل يجب على المسلمين ولاية رجل منهم يقوم بأمورهم فى دينهم ودُنيـاهم ، أم لا يجب ذلك ؟ فذهبت طائفة إلى أنه لا يجب ، ومنهم الخوارج ، وذهبَ الجماعةُ إلى وجوبه ، واختلفوا فى مُستند ذلك الوجوب ، فذهب الشيعة كلُّهم إلى حديث الوصية ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم أوصى بذلك لعلىّ ، واختلفوا فى تنقُّلها عنه إلى عَقِبه إلى مذاهب كثيرة تَشذُّ عن الحصر . وأجمع أهل السُّنّة على إنكار هذه الوصية ، وأن مستند الوُجوب فى ذلك إنما هو الاجتهاد ، يعنون أن المسلمين يَجتهدون فى اختيار رجل من أهل الحق ، والفقه ، والعدل ، يُفوِّضون إليه النظرَ فى أمورهم .

ولما تعدّدت فرق العلوية وانتقلت الوصية بزعمهم من بنى الحَنفيّة إلى بنى العبّاس ، أوصى بها أبو هاشم بن محمد بن الحَنَفية إلى محمد بن عَلى بن عبد الله بن

---

[1] فى تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٠٠ ، ١٠١ بعض الآثار التى تمسك بها العباسيون فى خلافتهم .

عبّاس ، وبثّ دُعاته بخُراسان ، وقام أبو مُسلم[١] بهذه الدعوة ، فملك ، خراسان والعراق ، ونزل شيعتُهم الكوفة ، واختاروا للأمر أبا العباس السفّاح[٢] ابنَ صاحب هذه الدّعوة ؛ ثم أرادوا أن تكون بيعتُه على إجماع من أهل السنّة والشيعة ، فكاتبوا كبار الأمة يومئذ ، وأهلَ الحل والعقد ، بالحجاز ، والعراق ، ٥ يشاورونهم فى أمره ، فوقع اختيارُهم كلّهم على الرضَى به ، فبايَع له شيعتُه بالكوفة بيعةَ إجماع وإصْفاق ، ثم عَهِد بها إلى أخيه المنْصور[٣] ، وعهد بها المنصورُ إلى بنيه ؛ فلم تزل مُتناقَلة فيهم ، إما بِعهْدٍ أو باختيارِ أهل العصر ، إلى أن كان المستَعصمُ آخرهم ببغداد . فلمّا استولى عليها هولاكو وقتَله ، افترق قَرابتُه . ولحق بعضُهم بمصر ، وهو أحمد الحاكم من عقِب الرّاشد ، فنصَبه الظّاهر بَيْبَرس بمصر ، بمالأة ١٠ أهل الحَلّ والعَقْد من الجُند ، والفقهاء ، وانتقَل الأمر فى بيته إلى هذا الذى بمصر ، لا / يُعلم خلاف ذلك . فقال لهذا الرّافِع : قد سمعتَ مقال القضاة ، وأهلِ [١٨٢] الفُتيا ، وظهر أنه ليس لك حَقّ تطلبه عندِى . فانصرِف راشدا .

---

(١) أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراسانى . له ترجمة واسعة فى وفيات ابن خلكان ٣٠٢/١ — ٣٠٦ .

(٢) أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس (١٠٤ — ١٣٦) وانظر تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٩٩ وما بعدها

(٣) أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس (٩٥ — ١٥٨) . تاريخ الخلفاء ١٠١ — ١٠٦ .

الرجوع عن هذا الأمير تمر إلى مصر

كنت لما لقيته، وتدلّيتُ إليه من السور كما مرّ، أشار عليّ بعض الصّحاب ممن يَخْبُرُ أحوالهم بما تقدمَتْ له من المعرفة بهم، فأشار بأن أُطْرِفه ببعض هَدِية، وإن كانت نَزْرةً فهي عندهم متأكدةٌ في لقاء ملوكهم، فانتقَيت من سُوق الـكُتب مُصْحَفاً رائعاً حسَنا في جزء محذو، وسجّادة أنيقة، ونُسخَة من قصيدة البُردة المشهورة للأَبُوصيري[1] في مدح النبيّ صلى الله عليه وسلم، وأربع علب من حلاوَة مصر الفاخرة، وجئت بذلك فدَخلت عليه، وهو بالقَصر الأبلق جالس في إيوانه، فلمّا رآني مقبلا مَثَل قائما وأشار إلى عن يمينه، فجلستُ وأكابر من الجقطية حِفَافَيْه، فجلستُ قليلا، ثم استدرتُ بينَ يديه، وأشرتُ إلى الهَدية التي ذكرتُها، وهي بيد خُدّامي، فوضَعتُها، واستقبلني، ففتحتُ المُصْحَف فلما رآه وعرفه، قام مُبادراً فوضعَه على رأسه، ثم ناولتُه البُردة، فسألني عنها وعن ناظمها، فأخبرتُه بما وقفت عليه من أمرهَا، ثم ناولته السجّادة، فتناولها وقبلها، ثم وضعتُ علب الحلوى بين يديه، وتناولتُ منها حَرفاً على العادة في التأنيس بذلك، ثم قسَم هو ما فيها من الحلوى بين الحاضرين في مجلسه، وتقبّل ذلك كلّه، وأشعر بالرّضى به، ثم حومت على الكلام بما عندي في شأن نفسي. وشأن أصحاب لي هنالك. فقلت أيدك الله! لي كلام أذكره بين يديك، فقال: قل. فقلت أنا غريب بهذه البلاد غُربتين، واحدة من المَغرب الذي هو وطَني ومَنشأي، وأخرَى من مِصر وأهلُ جيلي بها، وقد حصلتُ في ظلك، وأنا أرجو رأيك لي فيما يُؤنسُني في غُربتي، فقال: قل الذي تريد أفعله لك، فقلت: حالُ الغُربة أنستني

[1] هو شرف الدين أبو عبدالله محمد بن سعيد الدلاصي البوصيري الصنهاجي (٦٠٨ — ٦٩٤) على خلاف في تاريخ الوفاة. له ترجمة في فوات الوفيات ٢/٢٠٥ — ٢٠٩، حسن المحاضرة ١/٣٦٠.

ما أريد ، وعسالك — أيدك الله — أن تعرف لى ما أريد . فقال : انتقل من المدينة إلى الأُرْدو[1] عندى ، وأنا إن شاء الله أوفى كُنه قصدك . فقلت يأمُرُ لى بذلك نائبُك شاه ملك ، فأشار إليه بإمضاء ذلك ، فشكرت ودعوتُ وقلت : وبقيت لى أخرَى . فقال : وما هى ؟ فقلت هؤلاء المخلّفون عن سلطان مصر . من القُرّاء ،

٥ وللموقّعين ، والدواوين[2] ، والعمال ، صاروا إلى إيالتك وللَلِكُ لا يَغفِل مثل هؤلاء ، فَسُلطانكم كبير ، وعَمالاتكم متّسعة ، وحاجةُ مُلككم إلى المتصرفين فى صنوف الخدم أشدُّ من حاجة غيركم ، فقَال وما تريد لهم ؟ قلت : مكتوب أمان يَستنيمون إليه ، ويعوّلون فى أحوالهم عَلَيه . فقال لكاتبه : اكتب لهم بذلك[3] ، فشكرتُ ودعوت ، وخرجتُ مع الكاتب حتى كتب لى مكتوبَ الأمان ،

١٠ وختَمه شاه ملك بخاتَم السلطان ، وانصرفتُ إلى منزلى . ولما قَرُب سفرُه واعتزَم على الرحيل عن الشام ، دَخَلت عليه ذاتَ يوم ، فلما قضينا المعتاد ، التفت إلىّ وقال : عندك بغلة هنا ؟ قلت نعم ، قال حسنة ؟ قلتُ نعم ، قال وتبيعها ؟ فأنا أشتريها منك ، فقلتُ أيدك الله ! مِثلى لا يبيع من مثلك ، إنَّما أنا أخدُمك بها ، وبأمثالها لو كانت لى ، فقال : إنما أردت أن أكافئك عنها بالإحسان ، فقلتُ وهل بقى

١٥ إحسَان وراء ما أحسنتَ به ، اصطنَعتَنى ، وأحللتَنى مِن مجلسك محلّ خواصّك ، وقابلتَنى من الكرَامة والخير بما أرجو الله أن يقابلك بمثلِه ، وسكَتَ وسكتّ / [٨٢ب] وحُمِلت البغلةُ — وأنا معه فى المجلس — إليه ، ولم أرها بَعد .

ثم دخلتُ عليه يوماً آخر فقال لِى : أتسافر إلى مِصر ؟ فقلتُ أيّدك الله ، رغبَتى إنما هى أنت ، وأنتَ قد آويت وكفَلت ، فإن كان السّفر إلى مصر

---

(١) الأردو : المعسكر (تركية) .

(٢) كذا فى الأصلين . ولعل الصواب : « بالدواوين » ، أو « وأصحاب الدواوين » .

(٣) ذكر هذه الشفاعة المقريزى فى السلوك ورقة ٢٣٩ ب فى حوادث سنة ٨٠٣ (نسخة الفاتح) .

فى خِدمتك فنعم ، وَالإفَلاَ بُغْية لى فيـه ، فقال لا . بل تسافر إلى عِيالك وأهلك[1] ، فالتفتَ إلى ابنه . وكان مسافرا إلى شَقْحَب لمرباع دوابّه ، واشتَغل يُحادثه ، فقال لى الفقيه عبد الجبّار الذى كان يترجم بيننَا : إن السلطان يُوصى ابنَه بك ، فدعوت له ؛ ثم رأيت أن السّـفر مَع ابنه غيرُ مُستَقيمِ الوجهة ، والسفرُ إلى صَفَد أقرَبِ السواحل إلينا أملكُ لأمرى ، فقلتُ له ذلك ، فأجاب ٥ إليه ، وأوصَى بى قاصداً كان عنـده من حَاجب صفَـدَ ابن الدّوِيدارى[2] ، فوادَعتُه وانصرفت ، واختلفت الطريق مع ذلك القاصد ، فذهَب عنّى ، وذهبتُ عَنْه ، وَسَافرتُ فى جمع من أصحابى ، فاعترضَتْنا جماعة من العشير قَطعوا عليناَ الطَّريق ، ونهبوا مامَعنا ، ونجوناَ إلى قرية هنالك عَرايا ، واتّصلنا بعـد يومين أو ثلاث بالصُّبَيْبة فخَلَفْنا بعضَ الملبوس ، وأجزنا إلى صَفَد ، ١٠

---

(١) من تاريخ ابن قاضى شهبة لوحة ١٨١ سنة ٨٠٣ : « ... وفى مستهل شعبان ، وصل إلى القاهرة ولى الدين ابن خلدون المالكى ، والقاضى صـدر الدين ابن العجمى كاتب الدست ، والقاضى سعد الدين ابن القاضى شرف الدين الحنبلى أيضا ، وكانوا من جملة المنقطعين بالشام ، وكان القاضى ابن خلدون قد خرج مع القضاة من دمشق إلى تمرلنك ، ولما عرفه عظمه كثيرا ، وسأله أن يكتب له مدن المغرب ، والمفاوز بها (كذا) ، وأسماء قبائل العرب بها (كذا) ، فلما قرئت عليه بالأعجمى أعجبته وقال : صنفت أخبار المغرب فقط ؟ فقال : لا . أخبار الشرق ، والغرب ، وأسماء الملوك ؛ وقد كتبت ترجمتك ، وأريد أقرؤها (كذا) عليك ، فما كان منها صحيحا تركته ، وما كان غير صحيح أصلحته ، فأذن له فقرأ نسبه فقال : من أين عرفته ؟ فقال : سألت عنه التجار الثقاة الواردين ، ثم قرأ فتوحاته وأحواله ، وابتداء أمره ، ومنام (كذا) رآه والده ، فأعجبه ذلك كثيراً فقال : تهيأ حتى تذهب معى إلى بلادى ، فقال له : فى مصر من يحبنى وأحبه ، ولا بد لك من قصد مصر فى هذه المرة أو فى غيرها ، وأنا أذهب وأهيىء أمرى ، وأذهب فى خدمتك ، فأذن له فى الذهاب إلى مصر ، وأن يستصحب معه من شاء . هكذا حكى لى ذلك القاضى شهاب الدين بن العز ، وأنه كان حاضرا لبعض ذلك » . وفيه — كما ترى — مخالفة لما يقصه ابن خلدون عن نفسه .

(٢) فى عجائب المقدور ص ١١٣ : « . . . وكان فى صفد تاجر من أهل البلاد أحد الرؤساء والتجار ، يدعى علاء الدين ، وينسب إلى دوادار ، كان تقدمت له خدمة على السلطان ، فولاه حجابة ذلك المكان » .

فأقمنا بها أياما ، ثم مر بنا مركب من مراكب ابن عثمان سلطان بلاد الرّوم ، وصل فيه رسولٌ كان سفر إليه عن سلطان مصر ، بجوار رسالته ، فركبتُ معَهم البحرَ إلى غزّة ، ونزلت بها ، وسافرتُ منها إلى مصر ، فوصلتُها فى شعبان من هذه السّنة ، وهى سنة ثلاث وثمانمائة ؛ وكان السلطان صاحب مصرَ قد بعثَ

٥ من بابه سفيرا إلى الأمير تَمُرْ إجابةً إلى الصلح الذى طلب منه ، فأعقبَنى إليه ، فلما قضَى رسالتَه رجَع ، وكان وصولُه بعدَ وصولى . فبعثَ إلىّ مع بعض أصحابه يقول لى : إن الأمير تِمُرقد بعثَ معى إليك ثمن البَغلة التى ابتاعَ منك ، وهى هذه فخُذْها ، فإنه عزَم علينا من خلاص ذمّته من مالك هذا ، فقلت لا أقبله إلا بعد إذن من السّلطان الذى بعثَكَ إليه ، وأما دُون ذلك فلاَ ، ومضَيتُ إلى

١٠ صَاحب الدَّولة فأخبرته الخبَرَ فقال وما عليك؟ فقلت إن ذلك لا يجملُ بى أن أفعلَه دون إطلاعكم عليه ، فأغضَى عن ذلك ، و بعثوا إلىّ بذلك المَبْلغ بعد مدّة ، واعتذَر الحامل عن نقصه بأنه أُعطِيه كذلك ، وحمدت الله على الخَلاَص .

وكتبتُ حينئذ كتابا إلى صاحب المغرب ، عَرّفته بما دَار بينى و بين سلطان الطَّطَر تِمُر ، وكيف كانت واقعتُه معنا بالشّام ، وضمّنت ذلك فى فصــل من

١٥ الـكتاب نصّه :

« و إن تفضّلتم بالسؤال عن حَال الملوك ، فهى بخير والحمدلله ، وكنت فى العام الفارط توجّهت صُحبةَ الرّكاب السلطانى إلى الشام عند ما زَحفَ الطَّطَر إليه من بلاد الروم ، والعراق ، مع مَلِـكهم تِمُر ، واستولَى على حَلَب ، وحَمــاة ، وحِمْص ، وبَعْلَبكّ ، وخرّبها جميعا ، وعاثت عسَاكره فيها بمـا لم يُسمَع أشنعَ

٢٠ منه ، ونهَض السلطان فى عسـاكره لاستنقاذها ، وسبق إلى دِمَشق ، وأقام فى مقَابلته نحواً من شهر ، ثم قفَل راجعاً إلى مصر ، وتخلّف الـكثير من أمرائه وقضاته ، وكنتُ فى المخلّفين ، وسمعتُ أن سلطانَهم تِمُر سأل عنّى ، فلم يسع إلاّ لقاؤه ،

فخرجت إليه من دِمشق ، وحضرتُ مجلسَه ، وقابلَني بخَـير ، واقتضيتُ منه الأمان لأهل دِمَشق ، وأقمتُ عندَه خمساً وثلاثين يوما ، أُباكره وأُراوِحه ، ثمّ صرَفني، وودّعني على أحسَن حال ، ورجعتُ إلى مِصر ، وكَان طلَبَ منّي بَغلَة كنت أركبُها فأعطيته إياها ، وسألني البيع فتأفَّفتُ منه ، لما كان يُعامل به من الجميل ، فبعدَ انصرافي إلى مصر بعث إليّ بثَمَنها مع رَسول كان من جهة السلطان هنالك ، ٥

[١٨٣] وحمدتُ / الله تعلى على الخلاص من ورطات الدنيا .

وهؤلاءِ الطّطَر هم الذين خرجوا من المَفازة وراء النَّهر ، بينه و بين الصين ، أعوامَ[1] عشرين وستمائة مع ملـكهم الشهير جنكزخان ومَلك المشرق كلّه من أيدي السّلجوقية ومواليهم إلى عراق العرب ، وقسَم الملك بينَ ثلاثة من بنيه وهم جَقَطاي ، وطولي ، ودوشي خان . ١٠

فجَقَطاي كبيرُهم ، وكان في قسمته تُرْكِستان وكاشغَر ، والصّاغُون ، والشّاش وفَرْغَانة ، وسائرُ ما وراء النّهر من البلاد .

وطُولِي كان في قِسمته أعمال خراسان ، وعراق العجم ، والرّيّ إلى عراقِ العَرب ، و بلاد فارس ، وسِجِسْتان ، والسند ، وكان أبنـاؤه : قُبِلاَى ، وهُولاكو . ١٥

ودُوشِي خان كان في قسمته بلاد قَبْجَق ، ومنها صَرَاي ، و بلاد الترك إلى خُوَارَزم ، وكان لهم أخ رَابع يسمى أوكداي كبيرهم ، و يسمّونَه الخَان ، ومعناه صَاحب التّخت ، وهو بمَثابة الخَليفة في مُلك الإسلام ؛ وانقرَض عَقِبه ، وانتقلت الخَانية إلى قُبْـلاَي ، ثم إلى بني دُوشِي خان ، أصحابِ صَرَاي ؛ واستمرَّ مُلكُ الططر في هذه الدُّول الثلاث ، ومَلك هولاكو بغداد ، وعراق العرب ، إلى ديار ٢٠ بكر ، ونهر الفرات ، ثم زحفَ إلى الشام وملَـكَها ، ورجع عنها ، وزَحف إليها

(١) كذا بالأصلين ، وهو تعبير مألوف في أسلوب ابن خلدون .

بَنُوه مرارا ، وملوكُ مصر من الترك يُدافعونهم عنها ، إلى أن انقرض مُلْك
بنى هولاكو أعوامَ أربعين وسبعمائة ، ومَلَك بعدَهم الشيخ حسن النُّوينُ و بنوه ،
وافترق مُلْكهم فى طوائف من أهل دولتهم ، وارتفعت نِقْمَتُهم عن ملوك الشام
ومصر ، ثم فى أعوام السّبعين أو الثمانين وسبعمائة ، ظهر فى بَنِى جَقَطاى وراء النهر
٥ أمير اسمه تيمور ، وشُهرته عند الناس تِمُر ، وهو كافل لصبىّ متّصل النّسَب معه
إلى جَقَطاى فى آباء كلُّهم ملوك ، وهذا تَمرُ بن طرَغاى هو ابن عمّهم ، كَفَل صاحبَ
التّخت منهم اسمه محمود ، وتزوج أمّه صَرغَتْمِش ، ومدّ يده إلى ممالك التتر كلِّها ،
فاستولَى عليها إلى ديار بَكر ، ثم جَال فى بلاد الروم والهند ، وعَاثت عساكره فى
نواحيها ، وخرب حُصُونَها ومُدنَها ، فى أخبار يَطول شرحها . ثم زحَف بعدَ ذلك
١٠ إلى الشّام ، ففعل به ما فعل ، والله غالبٌ على أمره . ثم رجَع آخراً إلى بلاده ،
والأخبار تَتّصل بأنه قَصَد سَمَرْقَنْد ، وهى كرسيُّه .

والقوم فى عَدَد لا يَسَعه الإحصاء ، إن قدرتَ ألفَ ألفٍ فغير كثير ، ولا
تقولُ أنقَص ، وإن خيّموا فى الأرض ملأوا السّاح ، وإن سَارت كتائبهم
فى الأرض العَريضة ضاق بهم الفضاء ، وهم فى الغارة ، والنهب ، والفَتْك بأهل
١٥ العُمران ، وابتلائهم بأنواع العذاب ، على ما يحصلونه من فِئاتهم آيةٌ عَجَب ،
وعلى عَادة بوادى الأعراب .

وهذا المَلِك تِمُر من زُعماء الملوك وفراعنتهم ، والناس يَنْسُبونه إلى العلم ، وآخرون
إلى اعتقاد الرّفض ، لما يرون من تَفْضيله لأهل البيت ، وآخرون إلى انتحال
السّحر ؛ وليس من ذلك كلّه فى شىء ، إنما هو شديد الفِطنة والذّكاء ، كثير البحث
٢٠ واللّجاج ، بما يعلم وبما لا يعلم[1] ، عُمُره بين السّتّين والسّبعين ، وركْبَتُه اليُمنَى

(١) فى المنهل الصافى ١/٤٢٣ ، ٤٢٧ (نسخة دار الكتب) ، بعض الأمثلة لحب
تيمور فى الجدل واللجاج .

عاطلة من سَهْم أصابَه فى الغارة أيام صِباه ، على ما أخبرنى ، فيجرُّها فى قَرِيب المَشْى ، و يتناولُه الرِّجال على الأيدى عند طُول المسافة ، وهو مَصْنُوعٌ له ؛ والمُلك لله يؤتيه من يشاء من عباده .

ولاية القضاء الثالثة والرابعة والخامسة بمصر

كنت — لما أقمت عند السلطان تِمُر تلك الأيامَ التى أقمت — طال مَغيبى عن مِصر ، وشُيِّعت الأخبار عنى بالهلاك ، فقُدِّم للوظيفة من يقوم بها من فُضلاء المالكية ، وهو جمال الدِّين الأقفهسى[1] ، غَزِير الحفظ والذَّكاء ، عفيف النَّفس عن التصدِّى لحاجات النَّاس ، ورع / فى دينه ، فقلَّدوه منتصفَ جُمادَى الآخرة من السَّنَة . [٨٣ب]

فلما رجعتُ إلى مصر ، عَدلُوا عن ذلك الرأى ، وبَدا لَهُم فى أمرى ، فوَلَّونى فى أواخر شعبان من السنة ، واستمررتُ على الحال التى كنتُ عليها من القيام بالحقّ ، والإعراض عن الأغْراض ، والإنصاف من المُطالَب ؛ ووقَع الإنكارُ علىّ ممّن لا يَدين للحق ، ولا يُعطِى النَّصَفة من نفسه ، فسَعوا عند السلطان فى ولاية شخصٍ من المالكية يُعرف بجمال الدين البِساطى[2] ، بَذَل فى ذلك لسُعاةٍ داخَلوه ، قطعةً من مالِه ، ووُجوهاً من الأغْراض فى قضائه . قاتَل الله جميعَهم ، فخلَعوا عليه أواخرَ رجب ، سنة أربع وثمانمائة . ثم راجع السلطان بصيرتَه ، وانتقَد رأيَه ، ورَجعَ إلىّ الوظيفة خاتمَ سنة أربع ، فأجريتُ الحال على

(١) هو عبد الله بن مقداد بن إسمعيل بن عبد الله الأقفهسى ، جمال الدين المالكى المتوفى سنة ٨٢٣ . له ترجمة فى « رفع الأصر » ١٣٦ ا (نسخة دار الكتب) .

(٢) يوسف بن خالد بن نعيم بن نعيم بن محمد بن حسن بن على بن محمد بن على ، جمال الدين . له ترجمة فى « رفع الإصر » ٢٧٨ ا (نسخة دار الكتب) .

ما كان . و بقى الأمر كذلك سنة وَ بعض الأخرى ، وأعادُوا البِسَاطى إلى مَا كَان ، و بمَا كَان ، وعلى ما كان ، وخلَعُوا عليه سادسَ ربيع الأوّل سنةَ ست[1] ، ثم أعادونى عاشرَ شعبان ســنة سبع[2] ، ثم أدالوا بِهِ منِّى أواخر ذِى القعدة[3] من السنة و بيد الله تصاريف الأمور .

[تم الكتاب والحمد لله]

(١) انظر « عقد الجمان » للعينى ، فى حوادث سنة ٨٠٦ لوحة ١٩٨ .

(٢) فى صبح الأعشى ١١/١٨٩ نص « التقليد » الذى تولى به البساطى القضاء بعد ابن خلدون ، وهو مما يحسن الإطلاع عليه . وانظر « عقد الجمان » للعينى فى حوادث سنة ٨٠٧ ، لوحة ٢١٥ .

(٣) الذى فى « عقد الجمان » للعينى لوحة ٢١٦ فى حوادث ســنة ٨٠٧ ، أن الذى خلف ابن خلدون هو جمال الدين الأقفهسى . ولعل ابن خلدون أعرف بمن ولى بعده .

الفهـــــارس

فهرس الأعلام

(أ)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(غ)

(ف)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

فهرس الأمم والقبائل والشعوب والطوائف

(ا)

(ب)

(ت)

(ن)

(هـ)

(ى)

فهرس البلدان

(ا)

(ب)

(ك)

(ل)

(م)

(و)

(ى)

هيئات ومكتبات

الألفاظ التى لها دلالات خاصة

فهرس القوافى

(ء)

(ب)

(ج)

(ح)

(د)

(ر)

(س)

(ش)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

أيام العرب

فهرس الخيل

فهرس الكتب

(ذ)

(ر)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(ن)

(و)

(ى)

فهرس الكلمات التى ضبطها ابن خلدون بالحركات

(ا)

آبِلَة : بكسر الباء الموحّدة . بعد همزة ممدودة . [س ١٩ / ١١ : طب ٤ب / ٣٢][1]

الآبِلى : بكسر الباء الموحّدة . قبلها همزة ممدودة .

[س ١٦ / ٦ ، ١٢ / ١ / ٢٠ . طب ٣ ب / ٢١ ، ٤ ب / ٣١ ، ٤٩ / ١ / ٢٨]

الآبُلى : بضم الباء الموحدة [س ١٩ / ١٠ ، ٧ / ١ / ٧]

وجاء فى « دوحة الناشر » ص ٩٠ (طبع فاس سنة ١٣٠٩) : الآبلى بسكون اللام (كذا) ، وفتح الهمزة ، وضم الباء ، وكسر اللام » .

آشَر (حصن آشر) : بهمزة ممدودة بعدها شين معجمة مفتوحة . [س ٣٢ ب / ٢١

أُبّة : بضم الهمزة وفتح الباء المشددة [س ١٥ ا / ١٧ . طب ٨ ا / ٢٥]

أُبّدَة : بضم الهمزة وفتح الباء الموحدة مع التشديد ، ثم فتح الدال المهملة .

[س ٣٢ب / ٢٥ . طب ١٦ ب / ٣٢]

ابن أُدْفُونَش : بضم الهمزة وسكون الدال المهملة ، وضم الفاء ، وفتح النون قبل الشين .

[س ١٣ ا / ١٨ ، ١٢ ا / ٣ . طب ١٢ ا / ١٩]

ابن أُذْفُونِش : بضم الهمزة وسكون الذال المعجمة ، وضم الفاء مع كسر النون .

[طب ٤٩ ا / ٢٧]

(ب)

بختنصَّر : بتشديد الصاد المفتوحة . [طب ٤٩ ب / ٦ ، ٧ ، ١٠] .

ابن بُرّال : بضم الباء الموحدة ، وتشديد الراء المهملة المفتوحة .

[س ١٠ ا / ١١ . طب ٢ ب / ١٢]

بَرْجَة : بفتح الباء والجيم ، وبينهما راء ساكنة .

[س ١٧ ب / ١ ، ٢ . طب ٤٩ ا / ٢٧ ، ٢٨]

---

(١) س = نسخة أيا صوفيا ، طب = نسخة طوب قبوسراى ؛ والرقم الأول يشير الى رقم لوح النسخة ، يليه أحد الحرفين « ا » ويشير الى وجه الورقة . أو « ب » ، إشارة الى ظهر الورقة ، ثم يليه بعد الفاصل رقم السطر .

البَرْجِيّ : بفتح الباء ، وسكون الراء ، وكسر الجيم ، وتشديد الياء آخر الحروف .
[ص ١٧ ب / ١ ، ١٥ . طب ٩ ب / ٢ ، ٣]

بَرْدِي بك : بفتح الباء ، وسكون الراء ، وكسر الدال . [طب ٤٨ أ / ١٣] .

بَرِشْك : بفتح الباء ، وكسر الراء ، بعدها شين معجمة ساكنة .
[ص ٨ / ٧ . طب ٤ ب / ١]

بَسْكَرَة : بفتح الباء وسكون السين ، وبعدها كاف وراء مفتوحتان . [ص ٢٨ ب / ٢]

بُطا : بضم الباء . [طب ٤٢ أ / ٣٤ ، ٤٣ ب / ١]

البَطَرْني : بفتح الباء والطاء وسكون الراء . [ص ٥ أ / ١٤ ، ١٨] .

بِطْرُه : بكسر الباء ، وسكون الطاء التي وضع فوقها نقطتين إشارة إلى أن نطقها بين الطاء والتاء . ثم راء مضمومة . [ص ١٥ أ / ١٥ ، ٣٣ أ / ٩ . طب ١٢ أ / ١٩] .

بطُّوية : بضم الطاء المشددة . [ص ٢٠ ب / ٢]

البَلَّفِيقي : بفتح الباء ، وتشديد اللام المفتوحة ، ثم فاء مكسورة . [ص ١٦ ب / ٦] .

ابن البنَّاء : بتشديد النون المفتوحة . [ص ١٢ ب / ١]

البُنِّي : بضم الباء وتشديد النون المكسورة . [ص ١٦٢ أ / ٢٢ . طب ٣٥ أ / ١٨] .

البِنِّي : بكسر الباء وتشديد النون المكسورة . [طب ٣٥ أ / ١٨] .

وادي بَهت : بفتح الباء . [طب ٢٨ ب / ٦] .

بُونَة : بضم الباء ، وفتح النون قبل هاء التأنيث .
[ص ٢٨ ب / ١٠ . طب ١٤ أ / ١٢ ، ١٤ ب / ١٠]

بنو بُوَيه : بضم الباء وفتح الواو . [ص ١٧ أ / ٣٣ . طب ١٤ أ / ٢ ، ١٤٧ أ / ٣٣] .

بَيْبَرس : بفتح الباء الأولى والثانية ، وبينهما ياء مثناة ساكنة . [طب ١٤١ أ / ٣٤] .

بِيغُه : بكسر الباء ، وضم الغين . [ص ٣٢ ب / ٢١ . طب ١٦ ب / ٢٩] .

(ت)

تاحَجْمُومتْ (حصن تاحجمومت) : بفتح التاء ، والحاء ، وسكون الجيم ، وضم الميم الأولى وكسر الثانية ، ثم تاء ساكنة [ص ١٤١ أ / ١٧] .

تَاسَّالة : بتشديد السين المفتوحة . [س ١٤ أ / ٧]

تَاشِفِين : بكسر الشين المعجمة ، والفاء . [س ٨ ب / ٦]

ابن تَافراكين : بكاف مكسورة تحتها نقطة إشارة إلى وجوب نطقها كافا فارسية .
[س ١٠ ب / ١ ، ٧ ب / ١٩ . طپ ١٤ أ / ١٧ ، ٧ ب / ٣٤]

تَاوَرِرَت : بفتح الواو والراء الثانية . [س ١٩ أ / ٢٤]

تبسّه : بتشديد السين المهملة المفتوحة . [س ٥٦ ب / ١٢ . طپ ٨ أ / ٢٥] .

تَبَسَّة : بفتح التاء ، والباء ، والسين المشددة . [س ١٥ أ / ١٨]

تيمور بن تَرَغَاى : بفتح التاء ، والراء والغين المعجمة . [س ٧٩ أ / ٧] .

ابن تُرُومِيتْ : بضم التاء والراء ، ثم ميم مكسورة ، وتاء ساكنة بعد ياء .
[س ١٦ أ / ١٦]

تُورَنْشاه . بضم التاء وفتح الراء وسكون النون قبل شين مفتوحة . [طپ ٤١ أ /١٧، ٢٥]

تُونِس : بضم التاء وكسر النون . [طپ ٣٦ أ / ٣٠] .

تُونُس : بضم التاء ، وضم النون . [س ٥٦ ب / ١٢ . طپ ٢٩ أ / ١٦] .

تِيطَرِى : بكسر التاء ، وفتح الطاء بعدها راء مكسورة .
[س ٤١ أ / ٢٥ ، ٣٥ ب / ٢٤]

تَيْطَرِى : بفتح التاء وسكون الياء بعدها طاء مفتوحة تليها راء مكسورة .
[س ٣٦ أ / ٧ . طپ ١٨ ب / ١]

تِيكُورَارِين : بكسر التاء بعدها ياء ، ثم كاف مضمومة ، قد وضع تحتها نقطة إشارة إلى أن نطقها كالكاف الفارسية ، ثم راء مفتوحة .
[س ١٠٠ أ / ٧ . طپ ٢٧ ب / ١٤] .

تَيْمور : بفتح التاء وسكون الياء [س ٧٩ أ / ٧] .

(ج)

جقَطاى : بفتح القاف . [طپ ٥١ أ / ٩] .

الجَمَدار : بفتح الجيم والميم . [طپ ٤١ أ / ٢٤] .

الجَوَّانى : بفتح الجيم وتشديد الواو المفتوحة . [طب ١٤٩ / ٦ ، ٧] .

ابن الجَيَّاب : بتشديد الياء المفتوحة . [س ٦٢ ب / ٤]

جَيَّان : بتشديد الياء المفتوحة . [س ٣٢ ب / ٢٣] .

(ح)

ابن حُبَيْش : بضم الحاء وفتح الباء وسكون الياء .

[س ١٧٠ / ١١ . طب ١٤٠ / ٢ ، ٥] .

ابن حُدَيْر : بضم الحاء ، وفتح الدال . [س ١٧٠ / ١٦ . طب ١٤٠ / ٨] .

الحَسْنَاوى : بفتح الحاء وسكون السين ، وفتح النون المخفّفة . [طب ١٤٤ / ٢٦] .

حَسُّون (على بن حسون) : بفتح الحاء ، وضم السين المشددة . [س ١٥٠ / ٢]

حُصَيْن : بضم الحاء ، وفتح الصاد ، وسكون الياء .

[س ٢٨ ب / ١٧ ، ١٦ ، ١٤١ / ٢٤ . طب ١١٨ / ٣٣ ، ١٨ ، ١٣٣ ب / ٨ ، ١٢١ / ٣٣ ، ١٤٤ / ٣٢]

ابن حَمَّاد (زيرم بن حماد) : بفتح الحاء ، وتشديد الميم المفتوحة . [س ١٨ / ٩ . طب ١٤ / ٣٣] .

أبو حَمُّو : بفتح الحاء ، وتشديد الميم المضمومة .

[س ١٦ / ٦ ، ١٨ / ٦ ، ٢٥ ، ١٢٧ / ١٣ ، ١٣٧ / ١٧ ، ٢٣ ، ١٥٢ / ٢٥]

أبو حَمُّو : بفتح الميم المشددة . [س ٩ ب / ٢٢] .

حِمْيَرى : بكسر الحاء وسكون الميم وفتح الياء وكسر الراء . [س ١٢ / ١٢]

(خ)

الخَزَر : بفتح الخاء والزاى . [طب ٤٦ ب / ٣٥] .

خَلْدُون : بفتح الخاء وسكون اللام ، وضم الدال . [س ٦٠ ب / ٢٠ ، ١٢ / ١] .

خَلُّوف المَغيلى : بفتح الخاء وضم اللام المشدّدة . [س ١١٠ / ١] .

الخُوز : بضم الخاء . [طب ٤٧ ب / ٥] .

الخَيِّرى : بتشديد الياء ؛ وفى طب بكسر الياء المشدّدة .

[س ٨ ب / ٢ ، ١٩ . طب ٤ ب / ٤ ، ٩]

(د)

دَنْدُو : بفتح الدال الأولى ، وضم الثانية ، وبينهما باء ساكنة .

[ص ١٥٠ أ / ١٠ ، ١٢ . طب ٢٧ ب / ١٧]

دبُّوس (ابن أبي دبُّوس) : بتشديد الباء المضمومة . [طب ١٤ أ / ١٧] .

الدكّالى (ابن شعيب الدكالى) : بتشديد الكاف المفتوحة . [ص ٨ أ / ١٣] .

دِلّى : بكسر الدال ، وتشديد اللام المكسورة . [طب ٢٨ أ / ٢٨] .

الدَّوْسَن : بفتح الدال ، والسين ، وبينهما واو ساكنة .

[ص ١٣٧ أ / ٢٥ ، ٣٧ ب / ٩ ، ١٥٣ أ / ٣]

(ذ)

ذمياط : بالذال المعجمة . [طب ٤١ أ / ١٦ ، ١٩] .

الذَّوَاوِدَة : بفتح الذال المعجمة ، وفتح الواو الأولى وكسر الثانية وبينهما ألف ، وبعد الواو دال مهملة مفتوحة . [ص ٢٨ أ / ٢ ، ٣٥ ب / ٢٤]

ذؤَيب : بضم الذال المعجمة ، وفتح الهمزة . [ص ٥٤ ب / ٤ . طب ٣٠ أ / ٢٢] .

(ر)

ابن رَحُّو : بفتح الراء وتشديد الحاء المضمومة .

[ص ١٩ أ / ٤ ، ٢١ ب / ٢ ، ٥٠ أ / ٢٤ ، ٦١ ب / ٢٠]

الرَّحوى : بفتح الراء . [ص ٦ ب / ٥ ، ١٧ / ١٠ . طب ١٤ أ / ١٣] .

الرَّشَّة : بفتح الراء ، وتشديد الشين المعجمة المفتوحة .

[ص ٢٩ أ / ١ ، ٢٨ ب / ١٥]

ابن رُشَيد : بضم الراء وفتح الشين ، وسكون الياء .

[ص ١٠ ب / ١٨ ، ١٢ أ / ١٤ ، ١١٦ أ / ٦ . طب ٦ ب / ٥ ، ٨ ب / ١٥]

ابن رَشيد . بفتح الراء . [طب ٤٠ أ / ١٦] .

(ز)

الزَّرْزَالى : بفتح الزاى ، وسكون الراء ، وفتح الزاى بعدها .

[ص ٥ أ / ٢٣ . طب ٢ ب / ٢٢]

ابن زَرْزَرْ : بفتح الزاى الأولى والثانية ، وسكون الراء الأولى والثانية .
[طب ١٢ ا / ٢٢ ، ١٤٩ ا / ٢٧]

زَرْهون : بفتح الزاى ، وسكون الراء . [ص ٥٠ ب / ٢٥] .

زُغْبَة : بضم الزاى ، وسكون الغين بعدها باء موحدة مفتوحة .
[ص ٢٨ ب / ١٥ ، ١٤١ ا / ٢٥ ، ٥١ ب / ٢٣ ، ٣٦ ب / ٤ ، ٢٤ ، ١٣٦ ا / ٥ ، ٧ . طب ١٨ ب / ٣ ، ٨]

زَمَرْك : بفتح الزاى والميم ، وسكون الراء .
[ص ١٥٢ ا / ٦ ، ١١٢ ا / ٢١ ، طب ١٣٥ ا / ١٧]

زَنَاتة : بفتح الزاى والنون . [ص ١٥٤ ا / ١٨]

ابن زَيَّان : بفتح الزاى ، وتشديد الياء المثناة المفتوحة . [ص ١٩ ا / ١٢ ، ٢٠ ، ١٦ ا / ١٢]

أبو زَيَّان : بفتح الزاى وتشديد الياء المفتوحة .
[ص ١٢٧ ا / ٢٥ ، ١٤١ ا / ١٧ ، ٢٤ ، ٣٥ ب / ١٩ ، ٢٣]

زِيْرِم بن حمَّاد : بكسر الزاى ، وسكون الياء وكسر الراء . [ص ١٨ ا / ٩] .

زِيْرَم بن حمَّاد : بكسر الزاى ، وسكون الياء ، وفتح الراء . [طب ٤ ا / ٣٣] .

(س)

سَبْتة : بفتح السين [ص ١٦٢ ا / ١] .

سُبُكْتُكِين : بضم السين والباء ، وبعدها كاف ساكنة تليها تاء مضمومة بعدها كاف مكسورة . [طب ٤٧ ب / ٩] .

سِدْوِيكْش (قبائل سدويكش) : بكسر السين والواو ، وبينهما دال مهملة ساكنة ، ثم كاف ساكنة بعد ياء . [ص ٢٨ ا / ١٦]

سَطَّة : بفتح السين والطاء المشددة . [طب ٤ ب / ٢٠] .

السَّطِّى : بفتح السين وكسر الطاء المشددة .
[ص ١٧ ا / ٦ ، ٨ ب / ١٨ . طب ٣ ب / ٢٠ ، ٤ ب / ٢٠]

سُوسَة : بضم السين الأولى وفتح الثانية ، وبينهما واو ساكنة [ص ١١ ب / ٨]

سُوَيد : بضم السين وفتح الواو . [ص ٢٨ ب / ١٦ ، ١٣٧ / ١٣ ، ١٣٦ / ٦] .

سُيُورْ غَتْمِشْ : بضم السين والياء وسكون الراء وفتح الغين وسكون التاء وكسر الميم وسكون الشين : [ص ١٧٩ / ٧] .

(ش)

ابن شَبْت : بفتح الشين وسكون الباء الموحدة [ص ١٢ / ١٣ . طب ١١ / ١٠] .

ابن شُرَيح : بضم الشين . [ص ١٦ / ٤] .

شَلَف : بفتح الشين واللام المخففة . [ص ٣٧ ب / ٢٤ ، ١٨ / ١٨] .

(ص)

صا (وادى صا) : بصاد وسطها زاى إشارة إلى أن الصاد تنطق مشمّة بالزاى [ص ١٥٠ / ٩] .

ابن الصَّبَّاغ : بفتح الصاد ، وتشديد الباء الموحّدة . [ص ١٢ / ١٧] .

الصُّبَيْبَة : بضم الصاد وفتح الباءين الموحدتين بينهما ياء ساكنة . [طب ٥٠ ب / ٢٥] .

ابن صَخْر : بفتح الصاد وسكون الخاء . [ص ١٠٨ / ١٦ . طب ١٤ ب / ٥] .

صَرَاى : بفتح الصاد والراء المخففة . [طب ١٤٨ / ٦] .

الصَّرِيحى : بفتح الصاد . [ص ١٦٢ / ٢١] .

ابن الصَّفَّار : بتشديد الفاء المفتوحة . [ص ١١٦ / ٤] .

الصَّفَاقُسى : بفتح الصاد والفاء ، وضم القاف بعد الألف . [ص ١٣ / ٩] .

صَفُورى : بفتح الصاد وضم الفاء . [ص ١٥١ / ١٥] .

صُقَيْر : بضم الصاد وفتح القاف وسكون الياء . [ص ١٣ ب / ١٨] .

صَوْلَة : بفتح الصاد وسكون الواو وفتح اللام . [ص ٥٤ ب / ٤ . طب ١٣٠ / ٢٢] .

(ع)

العُبَّاد : بضم العين وتشديد الباء المفتوحة . [ص ٩ ب/١ ، ١٣ ا/ ٣ ، ١١ ، ١٣ ب/٥ ، ٥٢ ب / ٣] .

عَبْدَة (ابن أبي عبدة): بفتح العين والدال ، وبينهما باء موحدة ساكنة .
[ص ٢ ب / ١٥ . طب ١١ ا/ ٣٠]

العُبَيْديون : بضم العين وفتح الباء . [طب ٤٧ ا/ ٢٨] .

العَجيسى : بفتح العين [ص ٢٣ ا/ ٢] .

ابن عرَّام : بتشديد الراء المفتوحة [طب ٤٢ ا/ ٩] .

ابن عَرَفة : بفتح العين والراء [طب ٣١ ا/ ١] .

عَريف (ونزمار بن عريف) : بفتح العين [ص ٣٧ ب / ١٧] .

عريف (أولاد عَريف) : بفتح العين [ص ٣٦ ا/ ٦ ، طب ٢٨ ب / ٢٥] .

بنو العَزَفى : بفتح العين والزاى [ص ١٤ ا/ ١٢ ، ١٠ ب / ٩ ، ١٩] .

العَطَّاف : بفتح العين ، وتشديد الطاء المفتوحة [ص ٢٨ ب / ١٧] :

العَلْوِين : بفتح العين ، وسكون اللام ، وكسر الواو بعدها ياء ، ثم نون .
[ص ١٦ ب / ٢١]

العَلَوِين : بفتح العين واللام ، ونسب إليها « العلوى » بفتح اللام أيضاً .
[طب ١٩ ا/ ٨]

عَمَر (الأمير) : بفتح العين والميم [ص ٢٦ ب / ١٤] .

أبو عَمَر تاشفين : بفتح العين والميم [ص ١٣ ا/ ١٩ ، طب ٧ ا/ ٢٦] .

عَمَر (الحسن بن عمر) : بفتح العين والميم [ص ٨ ب / ١٥ ، ١٩ . ١٩ ا/ ٢ ، ١٩ ب / ٧] .

عَمَر بن مسعود : بفتح العين والميم [ص ٣٧ ب / ٢٥ . ٤١ ا/ ١٩] .

عَمَر بن عبد الله الوزير : بفتح العين والميم .
[ص ١٢ ا/١ ، ١٤ ا/ ٢٤ ، ١٧ ا/٢١ ، ٢١ ا/ ١١، ١٣، ١٨ ، ٢٢ ب / ٧ ، ١١ ، ٢٢ . طب ٧ ب / ٣١ ، ١١ ب / ١٢] .

عُمَر بن على : بفتح العين والميم [س ١٥ ب / ٣ ، ١٠ . طب ١٨ ا / ٣١ ، ٣٤] .

(غ)

الغارَين: بفتح الراء [طب ١٦ ب / ٢٩] .

غَسَاسة : بفتح الغين ، والسينين المخففتين بينهما ألف ساكنة . [س ٥٠ ب / ١] .

ابن غَلْبُون : بفتح الغين ، وسكون اللام ، وضم الباء . [طب ٤ب / ٣٤] .

ابن الغَمَّاز : بفتح الغين وتشديد الميم المفتوحة . [س ٥ ب / ٩] .

جبال غَمَّرَة : بفتح الغين وتشديد الميم المفتوحة ، وفتح الراء .
[س ٤١ ب / ٨ ، ٤٩ ب / ٩ ، ١١ ، ١٢]

(ف)

فَرْجِيوة : بفتح الفاء وسكون الراء بعدها جيم مكسورة : [س ١٢٨ ا / ٥]

فَرْفار : بفتح الفاء وسكون الراء . [س ١٥٣ ا / ٤] .

الفرُنْتِيرَة : بضم الفاء والراء ، وسكون النون وكسر التاء تليها مثناة تحتية ، وفتح الراء .
[س ٣ ب / ٢٤]

الفَشْتَالى : بفتح الفاء وسكون الشين وفتح التاء . [س ١١٦ ا / ٢٤] .

الفِشْتَالى : بكسر الفاء (٢) . [طب ١١٦ ا / ١٤] .

(ق)

قُبلاى : بضم القاف [طب ٤٧ ب / ٢٩] .

قُرْط : بضم القاف وسكون الراء . [طب ٤٢ ب / ٣٣] .

قُرْطُبة : بضم القاف والطاء ، وسكون الراء بينهما .

قَرَمُونَة : بفتح القاف ، وسكون الراء ، وضم الميم بعدها واو ، ثم فتح النون .
[س ٢ ب / ٨ ، ١٤ ا / ٥ ، ١٣ ا / ١٩]

قُسنْطينة : بضم القاف وفتح السين [س ١٥٣ ا / ٥] .

قَشْتَالَة : بفتح القاف ، والتاء ، وسكون الشين بينهما ، ثم فتح اللام . [س ١٣ ا / ١٨]

القِصَاب (ثنية القصاب) : بكسر القاف ، وفتح الصاد المخففة . [ص ١٣٦ أ / ٤]

القُصَيْر : بضم القاف ، وفتح الصاد ، وسكون الياء . [ص ٥٩ ب / ١٠] .

قُطُز : بضم القاف والطاء [طب ١٤١ أ / ٢٨ ، ٣٢ . ١٤٨ أ / ٣] .

القَطْفَا : بفتح القاف والفاء ، وسكون الطاء بينهما ، وبعد الفاء ألف .
[ص ١٣٦ أ/٢]

القَطْفَة : بفتح القاف والفاء ، وسكون الطاء بينهما ، وبعد الفاء هاء التأنيث .
[ص ٤٩ ب / ٥]

قَيْطَا : بفتح القاف والطاء ، وسكون الياء . وبعد الطاء ألف [طب ٤٢ ب / ٣٣] .

(ك)

كُبْرى (شمس الدين كبرى) : بضم الكاف ، وسكون الباء . [طب ١٤٨ أ / ٦]

كَرْبَلاء : بفتح الكاف والباء ، وبينهما راء ساكنة [٩ ب / ١] .

كُرَيْب : بضم الكاف وفتح الراء وسكون الياء [ص ١٣ أ / ١١ ، ١٢ ، ١٧] .

كُزول : بضم الكاف وتحتها نقطة لتنطق كافا فارسية ، ثم زاى مضمومة .
[ص ٥٢ ب / ٧ ، طب ١٢٩ أ / ١٠]

كَنْبَايَة : بفتح الكاف ، والباء الموحدة بعد نون ساكنة ، ثم فتح الياء بعد الألف .
[ص ١٧٩ أ / ٢١ ، طب ١٤٨ أ / ٢٨]

(ل)

لِيزُو (جبل ليزو) : بكسر اللام ، وضم الزاى بعد ياء مثناة من تحت . [ص ٢٨ أ / ١٥] .

(م)

ابن مَلَسَاى : بفتح السين المخففة [ص ١٥٠ أ / ٢٤ ، طب ٢٨ ب / ٧ ، ١٢٩ أ ، ٢ ، ٣]

المَدِيَّة : بفتح الميم وكسر الدال ، وبعدها ياء مفتوحة مشددة .
[ص ١١٥ أ / ٢٥ ، ١٢٧ أ / ١]

مَرَّاكُش : بفتح الميم ، وتشديد الراء المفتوحة ، ثم كاف مضمومة .
[ص ١١٢ أ / ٧ ، ٢٥ ، ٥١ ب / ٤ ، ١٧ ، ١٥٤ أ / ٢٠]

ابن مَرْزُوق : بفتح الميم وسكون الراء وضم الزاى . (ص ١٣ ا / ١) .

مَرّمَاجَنَّة : بفتح الميمين ، وتشديد الراء المفتوحة بينهما ، ثم جيم مفتوحة بعد الألف ، وبعد الجيم نون مفتوحة مشددة . [ص ١٤ ا / ٢٥ ، ١١٥ ا / ١٦]

مَرّمَاجَنَة : بفتح النون المخففة (طب ٢ ا / ١٨) .

مَرِين (بنُو مرين) : بفتح الميم ، وكسر الراء .

[ص ١١٨ ا / ١٥ ، ١٠٤ ا / ١٨ . طب ٤٤ ب / ٢٩]

المَرِيَّة : بفتح الميم ، وكسر الراء بعدها ياء مشددة مفتوحة .

[ص ١٢٥ ا / ٢٤ ، ١٦ ب / ٦]

ابن مَزْنى : بفتح الميم وسكون الزاى [ص ٢٨ ب / ٣ ، ٣٧ ب / ٩ ، ٤٩ ب / ٨ ، ١٠٣ ا / ١٧ . طب ١١٨ ا / ٣٥] .

ابن مُزْنى : بضم الميم وسكون الزاى [ص ١١٥ ا / ٢٢ ، ١٥ ب / ٦ ، ١٣٧ ا / ٦]

المَسِيلَة : بفتح الميم وكسر السين [ص ١٣٦ ا / ٥] .

المَشَدّالى : بفتح الشين ، وفتح الدال المشددة [ص ١١٦ ا / ١٢] .

مَغْرَاوَة : بفتح الميم والراء وسكون الغين بينهما ، ثم واو مفتوحة بعد الألف [ص ١٨ا/١٧]

المَغِيلى : بفتح الميم ، وكسر الغين [ص ١١٠ ا / ١] .

المَقْرِى : بفتح الميم ، وسكون القاف ، وكسر الراء

[ص ١١٦ ا / ٨ ، ١٠٧ ا / ٨ . طب ٨ ب / ١٦] .

مَنْدَاس : بفتح الميم ، والدال ، وبينهما نون ساكنة (ص ١٠٣ ا / ٢) .

بنو مَنِير : بفتح الميم ، وكسر النون [ص ١١٤ ا / ٧] .

مهنَّد : بفتح النون المشددة (١٦٣ ا / ١٦) .

(ن)

نَبيل : بفتح النون ، وكسر الباء [ص ٢٦ ب / ١١] .

نَفْزَاوة : بفتح النون ، وسكون الفاء ، وفتح الزاى [ص ١٠٣ ا / ١٩] .

النَّفزَاوى : نسبة إلى « نَفزَاوة » [س ١٧ ب / ٢٤] .

النُّويْنُ (حسن النوين) : بضم النونين ، وسكون الياء [طب ١٥١ / ٢٢] .

(هـ)

هِنْتَاتَة : بكسر الهاء ، وسكون النون ، وفتح التاءين بينهما ألف [س ٣ ب/١٠] .

هَنْتَاتَة : بفتح الهاء [طب ١٦ / ١٥] .

(و)

وارِكلا : بكسر الراء [س ٤٩ ب / ١٣] .

و يْدَة : بسكون الياء [س ٣٢ ب / ٢١] .

وَرْتَاجَّن (بنو ورتاجن) : بفتح الواو ، والتاء بينهما راء ساكنة ، ثم جيم مشددة مفتوحة قبلها ألف . [س ٨ ا / ١٩ . طب ٤ ب / ٤] .

الوَرْتَاجِّنى : بفتح الواو والتاء بينهما راء ساكنة ، ثم جيم مفتوحة مشدّدة بعد الألف . [س ١٨ / ١٩ ، ١١٩ / ٥]

الوَشْتَاتى : بفتح الواو والتاء ، بينهما شين معجمة ساكنة . [س ١٠٥ / ١٨]

بنو وطَّاس : بتشديد الطاء المفتوحة [س ١٠٥ ب / ٣ ، ٩]

الوِيطلانى : بكسر الواو [س ١٥١ / ٩] .

وَنَزْمَار بن عَريف : بفتح الواو والنون بعدها زاى ساكنة بعدها ميم مفتوحة . [س ٣٦ ب / ٥ ، ٢٥ ، ١٣٧ / ١٠ ، ٣٧ ب / ١٧ ، ٢٢ ، ١٥١ / ٥ ، ١١ ، ١٩ ، ١٥٢ / ٦ ، ٢١] .

وَنْكَاسن : بفتح الواو ، وسكون النون ، وفتح الكاف التى وضع تحتها نقطة لتنطق كافا فارسية . [س ١٥ ب / ١٤] .

(ى)

يَحْيَاتَنْ : بفتح الياءين بينهما حاء ساكنة ، ثم ألف بعدها تاء مفتوحة فنون ساكنة . [س ١٥ ب / ١٤] .

يَغَمْراسَنْ : بفتح الياء والغين ، وسكون الميم بعدها راء مفتوحة ثم ألف بعدها سين مفتوحة ، فنون ساكنة .

[ص ١٩ ا / ١٢ ، ١١٣ ا / ٤ ، طب ٤ ب / ٨ ، ٣٣]

يَغَمْرَاسِنْ : بكسر السين بعد الألف ويتفق الضبط مع ما قبله يليه [ص ٢٧ ا / ١٣] .

يَغِمْرَاسِنْ : بكسر الغين ، والسين [٦ ا / ١٢] .

يَغْمُور : بفتح الياء ، وسكون الغين وضم الميم بعدها [ص ٥٠ ا / ٨] .

بويَفَلُّوسَنْ : بفتح الياء والفاء ، وضم اللام المشدَّدة ، ثم سين مفتوحة بعد الواو ، ثم نون ساكنة [ص ١١٢ ا / ٨ ، ٥٠ ا / ٢٣ . طب ١٦ ا / ٣٥ ، ١٢٨ ا / ١]

يَلْبُغَا : بفتح الياء ، وسكون اللام وضم الباء .

[ص ٣٤ ب / ١٥ . طب ٤١ ب / ٣٢]

يَمْلُول : بفتح الياء ، وسكون الميم ، وضم اللام بعدها واو [ص ٥٣ ا / ١٧] .

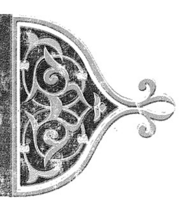
اليَنَاطى : بفتح الياء والنون المخففة [ص ٥٠ ا / ٣] .

صدر من هذه السلسلة

٢٧ - حلبة الكميت
٢٨ - البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ (المجلد الأول)
٢٩ - البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ (المجلد الثانى)
٣٠ - رسائل ابن عربى (المجلد الأول)
٣١ - رسائل ابن عربى (المجلد الثانى)
٣٢ - منامات الوهرانى
٣٣ - الكشكول (المجلد الأول)
٣٤ - الكشكول (المجلد الثانى)
٣٥ - أخبار الالأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول
٣٦-٤٨ - بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس (فى ثلاثة عشر مجلدًا)
٤٩ - فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (المجلد الأول)
٥٠ - فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (المجلد الثانى)
٥١-٥٤ - المواعظ والاعتبار (فى أربعة مجلدات)
٥٥ - سيرة أحمد بن طولون
٥٦ - مجموعة مصنفات شيخ إشراق للسهروردى (المجلد الأول)
٥٧ - مجموعة مصنفات شيخ إشراق للسهروردى (المجلد الثانى)
٥٨ - اتعاظ الحنفا (المجلد الأول)
٥٩ - اتعاظ الحنفا (المجلد الثانى)
٦٠ - اتعاظ الحنفا (المجلد الثالث)
٦١ - مقالات الإسلاميين للأشعرى
٦٢-٦٥ - ديوان أبى نواس الحسن بن هانىء الحكمى (فى أربعة مجلدات)
٦٦ - ولاة مصر تأليف محمد بن يوسف الكندى
٦٧ - المنتخب من أدب العرب (الجزء الأول)
٦٨ - الهوامل والشوامل لأبى حيان التوحيدى ، ومسكويه
٦٩ - المنتخب من أدب العرب (الجزء الثانى)
٧٠ - نوادر المخطوطات تحقيق عبد السلام هارون (المجلد الأول)
٧١ - نوادر المخطوطات تحقيق عبد السلام هارون (المجلد الثانى)

٧٢ – طبقات فحول الشعراء لابن سلام (المجلد الأول)
٧٣ – طبقات فحول الشعراء لابن سلام (المجلد الثانى)
٧٤–٨٠ – الحيوان (فى سبعة مجلدات)
٨١ – الأشباه والنظائر للخالديين (جزآن فى مجلد واحد)
٨٢ – سيرة صلاح الدين لابن شداد
٨٣ – الإمتاع والمؤانسة (ثلاثة أجزاء فى مجلد واحد)
٨٤ – ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى
٨٥–٨٨ – البيان والتبيين (فى أربعة مجلدات)
٨٩ – المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد الأندلسى (القسم الخاص بالفسطاط)
٩٠ – الفتح القسى فى الفتح القدسى للعماد الأصفهانى
٩١ – ديوان ابن سناء الملك
٩٢ – السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد
٩٣ – معجم الشعراء للمرزبانى
٩٤ – فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء
٩٥ – أساس البلاغة للزمخشرى ج ١
٩٦ – أساس البلاغة للزمخشرى ج ٢
٩٧ – مقاتل الطالبيين ج ١
٩٨ – مقاتل الطالبيين ج ٢
٩٩ – الصاحبى





هذا الكتاب

كتاب فى ترجمة حياة صاحبه ووصف تقلب الأحوال به، ينتمى إلى أدب السيرة الذاتية وأدب الرحلات. صاحب الكتاب - عبد الرحمن بن خلدون - شخصية كبيرة جمع بين الاشتغال بالعلم - حيث قدم الكثير من الآثار التى يعتز بها تاريخ الثقافة العربية - والاشتغال بالسياسة، حيث تقلبت به الأحوال من العمل فى بلاط حاكم إلى العمل فى بلاط حاكم آخر، مع التعرض كل مرة للفتن والمؤامرات التى كانت تحـاك له، أو التى كان يشـارك فيها بنفسـه. الدرس المستفاد هو ما أدى إليه التناحر والصراع بين حكام المسلمين فى الأندلس والمغرب من النهاية الفاجعة بسقوط حكم العرب فى الأندلس بعد ذلك. هذا فى الوقت الذى كانت فيه أطراف العالم الإسلامى فى المشرق عرضة للتحيئف والانتقاص بفعل الهجوم من الخارج - هجوم التتار - وبفعل التناحر والصراع بين دويلاته فى الداخل. على الرغم من كل ذلك كانت مصر، فى النهاية ، هى واحة الأمان التى لاذ بها ابن خلدون حيا، واحتضنت رفاته ميتا.




الكتاب القادم : عيون الأخبار لابن قتيبة (المجلد الأول)



السعر : ٦ جنيهات